

التَّارِيخُ وَالْمُؤَرَّخُونَ فِي مِصْرَ وَالْأَنْدَلُسِ

فِي الثَّرَاتِ الرَّابِعِ الْمَجْرِيِّ. الْعَاثِرُ لِلدِّيبِ كَادِي

دِرَاسَةٌ تَحْلِيلِيَّةٌ مُقَارَنَةٌ

تَأَلَّفَتْ

الدُّكْتُورُ عَبْدُ الْقَنَاقِ فَرْحَانُ بْنُ عَبْدِ الْفَتَّاحِ

مُسْتَشَارٌ فِي الْإِسْلاَمِ وَبَحْثَاتِهِ وَبَحْثَاتِهِ
مَكْتَبَةُ دَارِ الْفَرْزِ - جَامِعَةُ قَسْرَةَ

الْمَجْلَدُ الْأَوَّلُ

مَكْتَبَةُ
دَارِ الْفَرْزِ
بِالْمَدِينَةِ الْعِلْمِيَّةِ
بِالْمَدِينَةِ الْعِلْمِيَّةِ

التَّبَرُّكُ وَالْمَوَدَّةُ خَوَاتِمُ فِي مَصْرٍ وَالْأَنْدَلُسِ

فِي الْقَرْنِ الرَّابِعِ الْهَجْرِيِّ - الْعَاشِرِ الْمِيلَادِيِّ

دَرَسَةٌ تَحْلِيلِيَّةٌ مُقَارِنَةٌ

تَأَلَّفَ

الدُّكْتُورُ عَبْدُ الْقَنَّاخِ فَتْحُ عَبْدِ الْقَنَّاخِ

قِسْمُ التَّأْرِيخِ الْإِسْلَامِيِّ وَالْحَضَارَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ
كَلِيَّةُ دَارُ الْعُلُومِ - جَامِعَةُ الْقَاهِرَةِ

شبكة كتب الشيعة

المَجْمَعُ الْأَوَّلُ

مَسْتَوْرَاتُ

مَحْتَدِيَّةُ بِيْهَوِيَّةِ

دَارُ الْكُتُبِ الْعَالَمِيَّةِ

بِكُرُوت - بِيْشَنَان



shiabooks.net

رابطہ بدیل < mktba.net

مستودع الحقوق محفوظة



دار الكتب العلمية

جميع الحقوق محفوظة

Copyright

All rights reserved ©

Tous droits réservés ©

جميع حقوق الملكية الأدبية والعلمية محفوظة
لدار الكتب العلمية ببيروت لبنان
ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تصديق الكتاب كاملاً أو
مجزأ أو نسخه على أي شكل أو بغيره أو إدخاله على الكمبيوتر
أو ترجمته على أي شكل أو بغيره إلا بموافقة الناشر خطياً

Exclusive rights by ©

Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beirut - Lebanon

No part of this publication may be translated
reproduced, distributed in any form or by any means
or stored in a data base or retrieval system, without the
prior written permission of the publisher

Tous droits exclusivement réservés à ©

Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beyrouth - Liban

Toute représentation, édition, traduction ou reproduction
même partielle par tous procédés, en tous pays, faite
sans autorisation préalable signée par l'éditeur est illicite
et expose à la poursuite des poursuites judiciaires

الطبعة الأولى

٢٠٠٤ م - ١٤٢٤ هـ

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

رئيس الطبعات: طارق السحوي - ساهم في كتاب

الإدارة العامة: عزمون - الفقه - مدير دار الكتب العلمية

هاتف وفاكس: ٩٦١ ٥١ ٨٠٤٨١٠ / ١١ / ١٢ / ١٣

صندوق بريد: ١١٩٤٢٤ - بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

Beirut - Lebanon

Ram Al-Zarf - Bohory Str - Meikart Bldg - 1st Floor

Head office

Aramoun - Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Bldg

Tel & Fax: (+961 51) 804810 / 11 / 12 / 13

P.O. Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

Beyrouth - Liban

Ram Al-Zarf - Rue Bohory - Imme Meikart - 1er Etage

Administration général

Aramoun - Imme Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

Tel & Fax: (+961 51) 804810 / 11 / 12 / 13

B.P. 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3931-2



9 782745 139313

<http://www.al-ilmiyah.com/>

e-mail: sales@al-ilmiyah.com

info@al-ilmiyah.com

baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الكتاب

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وخاتم النبيين، سيدنا ومولانا محمد (صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله، وصحبه أجمعين).

ثم أما بعد، فإني أحاول في هذه المقدمة الموجزة المركزة أن أعرف بموضوع كتابي : التاريخ والمؤرخون في مصر والأندلس في القرن الرابع الهجري، وأبرز مقصوده، وأبين مضمونه، ومحتوياته، ومنهجي الذي اتبعته في عرض مادته العلمية، والتغلب على العقبات الكثيرة، التي اعترضت طريق البحث، واحدة بعد الأخرى، حتى وصل هذا العمل المضني إلى غايته المرجوة، ونهايته المنشودة ما أمكن، بفضل الله (تعالى).

ويمكنني حصر نقاط هذه المقدمة المختصرة فيما يلي :

أولاً - موضوع الكتاب، ومضمونه :

يتضح موضوع هذا الكتاب من عنوانه، وهو كالآتي :

(التاريخ والمؤرخون في مصر والأندلس في القرن الرابع الهجري - دراسة تحليلية مقارنة)

ويلاحظ على هذا العنوان الملاحظات التالية :

١ - أنني لم أطلق عليه اسم (المصادر التاريخية)؛ وذلك كي لا يتطرق إلى ذهن القارئ أننا سنعالج كتباً كثيرة ليست تاريخية صرفه، وإن كانت بها مادة تاريخية، فهي من مصادر التاريخ المساعدة، وليست هي المصادر التاريخية الرئيسية، مثل : كتاب (العقد الفريد) لابن عبد ربه الأندلسي (ت ٣٢٨هـ-)، وكتاب (المكافأة) لابن الداية المصري (ت ٣٤٠هـ-)، فهما كتابان أدخل في باب (الأدب) منه في باب (علم التاريخ). ومن هنا - ومنعاً لاختلاط المفاهيم - استعبدت صيغة (المصادر) رغم دلالتها على تناول الكتب الأساسية، التي تمثل نتاج مؤرخي مصر والأندلس في القرن المذكور.

٢ - أنسى لم أرحح استخدام مصطلح (الدراسات التاريخية)، على الرغم من أن منجزات مؤرخي البلدان في قرن النضج والازدهار (ق ٤هـ) قيمة بأن يطلق عليها هذا؛ بل لوغ المؤرخين - في هذا العصر - درجة عالية من المنهجية والموضوعية، وإلمام بعضهم بثقافات، جعلت التأريخ - على أيديهم - أكثر منطقية وموضوعية. لقد أثرت ألا أفرض على القارئ، مثل هذا العنوان، ورأيت أن أترك له فرصة الحكم على هؤلاء المؤرخين، ومستوى مؤلفاتهم بنفسه.

٣ - أنى اخترت الصيغة المرادفة صيغة (التاريخ والمؤرخين)؛ لأنها تُجَنَّبُ ما أردتُ تُجَنَّبُ في المصطلحين السابقين، ثم إنها - في الوقت ذاته - تعطى ظلالاً حقيقية، يمكن لمن أراد أن يقف عليها أن يرصدها من خلال قراءة العمل بدقة وأناة من بدايته حتى منتهاه.

إن الموضوع - ببساطة شديدة - يُعنى بدراسة أهم وأبرز اتجاهات التأليف التاريخي في مصر والأندلس في القرن الرابع الهجري، فيقوم الباحث - في سبيل ذلك - بالترجمة لعدد من مؤرخي هذا القرن، ويقوم بدراسة مؤلفاتهم التاريخية - سواء كانت مطبوعة، أم مفقودة - ببيان محتوياتها، ومواردها، واختبار مدى صحة بعض ما ورد فيها من الوجهة التاريخية، والمنهج العلمي الذي أتبع في تأليفها، مع المقارنة بين مؤرخي كل إقليم على حدة مقارنة داخلية، ثم رصد أوجه الاتفاق والاختلاف بين مؤرخي الإقليمين، في إطار وحدود عدد من اتجاهات التأليف التاريخي، التي رأى الباحث أنها يمكن أن تمثل حصاد جهود هؤلاء المؤرخين إلى حد مقبول؛ إذ إن استقصاء كافة زوايا البحث التاريخي في هذا القرن مما يستحيل أن ينهض به باحث بمفرده.

ثانياً - دوافع اختيار هذا الموضوع، وتاريخ البحث فيه :

١ - أن هذا الموضوع يعد امتداداً لدراسة أخرى، تناول فيها الباحث التاريخ والمؤرخين في مصر الإسلامية في القرون الثلاثة الأولى مع مقارنات بمؤرخي الأقاليم الإسلامية الأخرى ما أمكن. وأحب أن أنوه إلى أن هذا الكتاب، وإن كان يتناول قرناً واحداً (هو القرن الرابع الهجري فقط)، في مقابل ثلاثة قرون فيما مضى، إلا أن هذا الكتاب أضخم حجماً، وأصعب منالاً، وذلك من وجوه هي :

أ - أن الدراسة الأخرى كانت مُنصَّبة على مصر (مع مقارنات يسيرة - حسب المادة العلمية - بالأقاليم الإسلامية الأخرى). أما في هذا الكتاب، فهي تشمل مصر، والأندلس معاً، وهو عبء جسيم وكبير.

ب - أن القرون الثلاثة الأوائل لم يُنصَّح فيها التاريخ والمؤرخون نضجه وإسهام في القرن الرابع الهجري، فمؤلفات القرون الثلاثة في مصر لم يبق منها سوى (فتوح مصر وأخبارها) لابن عبد الحكم، بينما فقدت مؤلفات سابقه، وإن أمكن تجميع بعض بقاياها، إلا أنها بقايا يسيرة.

أما القرن الرابع، فهو يَعْبُجُ بالمؤرخين، وبه مؤلفات كثيرة مطبوعة، وقليل مخطوط، وعدد من المصادر المفقودة، التي أمكن تجميع قدر كبير منها^(١)، فبلغت كماً هائلاً من النصوص التاريخية، التي لا نظير لها من قبل.

ج — أن الباحث اتبع في دراسته الأخرى منهجاً، اضطرته إليه طبيعة العصر، وثقافات مؤرخيه، فكان لا بد أن يُحَدِّد نصيب كل مؤرخ من تلك العلوم، التي مثَّلت ثقافة العصر (من قراءات، وتفسير، وحديث، وفقه، ولغة، وأدب)، حتى ظن البعض أن ذلك خروج عن الموضوع، ومخالفة لمنهج البحث القويم. وهو - في الحقيقة - في صميم الموضوع، إلا أنهم غاب عنهم أنه منهج جديد وعسير، وصل بنا - في النهاية - إلى أن نعرف - بالضبط - أين يقف علم التاريخ بين هذه العلوم، وأين مكانة المؤرخين وسط الفقهاء، والمحدثين، وغيرهم.

أما في القرن الرابع الهجري - وهو موضوع كتابنا هذا - فالأمر جدٌ مختلف؛ لأن التاريخ استوى على سؤقه في ذلك القرن، وتخلص - إلى حد بعيد - من سيطرة منهج المحدثين عليه، وغدا المؤرخ ذا شخصية مستقلة، وأضحى ملئاً بعلوم جديدة كالمنطق، والفلسفة، والطب، والفلك، ومعرفة لغات أخرى إلى جانب مؤرخين ظلوا يحافظون على ثقافتهم التقليدية المعروفة - وغير ذلك من العلوم، التي طوَّعها بعض المؤرخين لخدمة (علم التاريخ). ومن هنا كانت الصعوبة الحقيقية، التي تمثَّلت في ضرورة أن يقف الباحث على أدوات جديدة في تحليل مناهج المؤرخين في ذلك القرن الجديد، وأن يزداد عمقاً في بحثه؛ نتيجة الاقتصار على دراسة اختصاص واحد هو (التاريخ)؛ مما تطلب مزيداً من القراءة، ووقتاً طويلاً من التأمل والدرس، والمقارنة والتركيب.

وهكذا، كانت مواصلة القراءة الجادة لتراثنا التاريخي المجيد، والرغبة في رصد ما لحقه من تطورات عبر القرون، دافعاً لمواصلة السير في هذا الطريق، الذي يوقفنا على حقيقة تفكير هؤلاء نفر من المؤرخين، وما أَلَدَ النظر والتأمل في عقول الرجال، كما يقولون. واعتقد أن ذلك عمل مهم للغاية؛ لأنه يعيد تقويم تراثنا، ويعد خطوة مهمة وضرورية وأساسية لإعادة كتابة (تاريخ الأمة) من جديد، بعد قراءة تراثها في هدوء وأناة.

٢ - أن هذا البحث كان فرصة نادرة، ومحاولة جادة، لابتعاث كوامن الحياة في مؤلفات تاريخية، صدرت في هذا القرن عن مؤرخين كبار، لكننا لا نقف عليها؛ نظراً لضياعها. ويقابل الباحث - وهو يلهث لاقتناص معلومة يريد لها - نصاً من هنا، وآخر من هناك كشذرات

(١) من ذلك: (تاريخ المصريين)، و(تاريخ الغرباء) للمؤرخ المصري ابن يونس الصدي (ت ٣٤٧هـ). وقد صدرا في مجلدين كبيرين بتحقيق (ط. دار الكتب العلمية - بيروت) سنة ٢٠٠٠م.

متفرقات من تلك المؤلفات، فلا يستطيع أن يحسن الإفادة منها، ولا يستطيع إدراك أهميتها، وحجمها، وما فيها من إبداع، وجُهد مبذول، ومنهج صحيح سلكه أصحابها، حتى بلغوا بها ما أرادوا أن يبلغوا، فكان إقدام الباحث على تجميع ما تيسر له من بقاياها، وهو كبير كبير، عملاً جديراً بأن يُبحث، ويُذلل فيه العرق والدم، والوقت المطوّل؛ حتى نخرج بمجديد، لا عهد للناس به، فيما نعلم. لذا اخترتُ هذا الموضوع.

٣ - وقد يثور سؤال، مفاده: ولمَ مصر والأندلس بالذات؟ ولمَ كان القرن الرابع الهجري على وجه التحديد؟ والجواب جدٌ يسير. فمن جهة: لم تُدرس مصر والأندلس - فيما أعلم - دراسة علمية مستقلة مفصلة من هذه الزاوية من قبل. ومن جهة أخرى: فالقرن الرابع - بالتحديد - لم يُحظ بالعناية، التي هو جدير بها حتى الآن في مجال (التاريخ والمؤرخين) في هذين الإقليمين من أقاليم أمة الإسلام.

إنني أعتقد أن المقارنة بين مصر والأندلس في ذلك المجال الخصب ليست بالأمر الهين ولا اليسير؛ لتناهي ديارهما، ولأن إدراك عوامل الالتقاء بينهما تحتاج إلى تفكير عميق، فنحن أمام بلدين، إذا نُظر إلى علاقتهما السياسية في ذلك القرن، ألفتها أقرب إلى التعادى والتخاصم والتدابّر، منها إلى التلاقي والتعاون. ورغم ذلك، فإنني أعتقد أن هناك مجموعة من أرضيات مشتركة غير مباشرة بينهما على مستويات عدة، منها:

أ - معاناة كليهما من الاضطرابات والثورات والفتن (في مصر فترة ما بين العصرين الطولوني، والإخشيدي (٢٩٢ - ٣٢٣هـ). وفي الأندلس (في فترة ما قبل الناصر، خاصة عهد الأمير عبد الله بن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠هـ)، وأوائل عصر الناصر حتى استقامت له الأمور). إلا أن البلدين حُظيا بالاستقرار في عهد (الإخشيدي في مصر، والناصر في الأندلس). ويضاف إلى ذلك استقلال كليهما تماماً في عهد (العبيديين في مصر، والناصر في الأندلس)، وذلك بإعلانهما الخلافة في مواجهة العباسيين بالشرق. كان هذا على الصعيد السياسي.

ب - وبالنسبة للجانب الثقافي، فهو الباقي بين الشعوب، فعلماء الأندلس - رغم ازدهار العلم في بلدهم، واستقلالهم كثيراً عن الشرق، خاصة مصر في مجال التاريخ بالذات - إلا أنهم لم تنقطع رحلاتهم إلى المشرق عامة، وإلى مصر خاصة، فقام التلاقح الفكري بينهما عن طريق الرحلات والمكاتبات، والمراسلات في مجال (التاريخ، والحديث، والفقه، وغيرها من العلوم).

ج - انعكست الأوضاع السياسية والاقتصادية على حالة الشعبين: المصري، والأندلسي الاجتماعية. لقد ذاقا وبال الثورات والفتن فقراً مُدقعاً، وضيقاً ونِعماً بحياة الاستقرار واتساع العيش ورخائه - على تفاوت بينهما - في أوقات الهدوء والسكينة والاطمئنان.

إذا الموضوع جديد شكلاً ومضموناً. وإذا بحثنا في (التاريخ العلمي) له، فإننا لا نجد مَنْ تناوله هذا تناول. وعلى كل، فنحن نؤمن أنه لا يوجد موضوع جديد كُـلَّ الجِدَّة، ولا يمكن أن نبحث موضوعاً من فراغ؛ ولذلك فقد سبقنا إلى طرق بعض جوانب هذا الموضوع دراسات سابقة، نقدر لها جهودها، التي أضأت لنا السبيل، ووضعت أقدامنا على الطريق الصحيح، وكشفت لنا عن ثغرات، نفذنا منها إلى الموضوع، محاولين معالجته بتفصيل وعمق. ومن أمثلة هذه الدراسات ما يلي :

أ - دراسات دكتور أحمد مختار العبادي عن المؤرخين الأندلسيين في مقال له بمجلة (عالم الفكر) الكويتية، وما كتبه عنهم في كتابه : (في تاريخ المغرب والأندلس).
ب - ما كتبه دكتور حسين مؤنس عن مصادر التاريخ الأندلسي في كتابه : (معالم تاريخ المغرب والأندلس).

ج - كتابات د. طه ذى النون عن التاريخ العربي بالأندلس.

د - بحثان للدكتور محمد عبد الحميد صقر، والدكتور عبد الله جمال الدين، عن مرويَّات التاريخ الأندلسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري.

هـ - مؤلفات الأستاذ محمد عبد الله عنان عن (مؤرخي مصر الإسلامية).

و - مجموعة من الرسائل العلمية الجامعية، التي أسهمت في تعميق هذه الدراسة، منها : ماجستير الدكتور سيد محمد قطب عن (كتاب المكافأة لابن الداية، و) حضارة مصر في عهد الدولة الإخشيدية) رسالة ماجستير للباحث (فرج الأحول)، و(الحركة الأدبية والعلمية في الفسطاط منذ الفتح العربي إلى نهاية الدولة الإخشيدية) للباحثة (صفى على محمد)، و(الحياة الاجتماعية والثقافية في قرطبة في القرن الرابع الهجري) للدكتورة سلوى عبد الخالق على... إلى آخر هذه الدراسات التي سُـخِّلَتْ بيانها تفصيلاً في (قوائم المصادر، والمراجع).

والخلاصة : أن أدعُ القارئ يقارن بنفسه بين هذه الأعمال، وبين تناولنا لهذا العمل، وأعتقد أنه سيجد أنها كانت معالجات سريعة، تتلاءم مع الموضوعات التي تُـنَوِّلُ فيها؛ فلا يستعدي تناول مؤرخي مصر في رسالة (الأحول)، وغيره سوى صفحات قليلة. وكذلك لم تناول رسالة الباحثة (سلوى عبد الخالق) مؤرخي الأندلس إلا في تعريفات مقتضبة سريعة، تتوافق مع موضوعها، الذي يتناول - فيما يتناول - الحياة الثقافية ككل. وحتى دراسات كبار المشتغلين بالتاريخ الأندلسي، مثل : الدكتور العبادي، والدكتور مؤنس، لم تعد التعريف العام المقتضب بمصادر التاريخ الأندلسي ككل في مختلف القرون والعصور. وهكذا، فإنني أعتقد أن دراستي هذه تُعد من الدراسات القليلة، التي حاول صاحبها أن يخص (الكتابات التاريخية) فيها بالدرس والفحص، والتأمل والمقارنة.

ثالثاً، وأخيراً - خُطّة الكتاب، وفلسفة التقسيم، ومنهج تناول :

١- يبدأ الكتاب بـ (فصل تمهيدى) بعنوان :

(مصر والأندلس في القرن الرابع الهجرى) : في هذا الفصل المهم أُرسيّت الأرضية الأساسية للكتاب ككل. وفيه تناولت أبرز الأوضاع السياسية في مصر - خلال القرن الرابع الهجرى، وأهم سماتها خلال الفترات التاريخية المتعاقبة (ما قبل حكم الإخشيد، والدولة الإخشيدية، والفترة التي حكمت فيها دولة العبيديين مصر من ذلك القرن).

ثم انتقلت - بعد ذلك- إلى دراسة (الأوضاع السياسية في الأندلس)، خاصة فترات حكم الناصر، والمستنصر، والمنصور. وختمت ذلك بعقد مقارنة بين البلدين في ذلك المجال.

ثم تناولت الأوضاع الاقتصادية، ثم الاجتماعية، وأخيراً الثقافية (خاصة ما يتصل بعلم التاريخ)، ومتبعاً المنهج السابق نفسه، مطبقاً منهج الخلاصات المقارنة بين الإقليمين في كل مجال من المجالات السابقة. وأخيراً، قمت بكتابة (خلاصة عامة) للتمهيد ككل.

وهكذا، يمكن القول بأننا عاجلنا في هذا (التمهيد) الأوضاع في هذا القرن بطريقة شاملة متكاملة، وربّناها وفق ترتيب منطقي محكم، بحيث تصب الظروف السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية - في النهاية - في المجال الثقافي بعامة، والتاريخي بخاصة. ولا أظن أننا أسهنا في علاجه، بل تناولناه بتركيز شديد، وإن تجاوزت صفحات معالجة الأوضاع السياسية مقدار ما تُنَوَّل في بقية الجوانب، فتلكم هي طبيعة الظروف السياسية في كل عصر.

وأتمنى أن أكون قد وفّقت في إعطاء صورة واضحة عن ذلك القرن، الذي عايشه مؤرخو مصر والأندلس؛ كى ننظر أثر وانعكاس ذلك على هؤلاء المؤرخين، ونتائجهم العلمى، والموضوعات التي طرقوها بالبحث والتأليف، ومدى مشاركتهم في الأحداث الجارية على أرض بلادهم، والمنهج الذى عالج به كل منهم مؤلفاته، وفقاً لطبيعة ثقافته، وظروف بيئته ومجتمعه، الذى نشأ في رحابه.

ملاحظة :

قبل أن أنتقل إلى عرض وبيان أبواب الكتاب الثلاثة، أشير إلى أنني كنتُ بين منهجين في تناول :

أ - إما أن أدرس كل مدرسة تاريخية على حدة دراسة كاملة بكافة مؤلفات التاريخ المتيسرة فيها، وفق تسلسل زمنى، يضع في الاعتبار مواليد، ووفيات المؤرخين.

ب - أو أن أقسم الفصول تقسيماً موضوعياً، بحيث أضع كل مجموعة من المؤلفات

التاريخية، تشترك في اتجاه من (اتجاهات التأليف التاريخي) معاً، مرتباً إياها ترتيباً زمنياً، بادئاً بمدرسة (مصر التاريخية)، ومُتَّبِعاً بِـ (مدرسة الأندلس التاريخية)، ثم عاقداً في نهاية دراسة كل اتجاه مقارنة مركزة بين المدرستين.

وقد رجَّحتُ المنهج الأخير في التناول؛ لأن إيجابياته كثيرة، منها :

أ - أنه يحقق للموضوع وحدته وتماسكه، وانسجام جزئياته.

ب - أنه سيحقق الترابط المنطقي بين الأبواب (فنبداً بالسير التاريخية على اعتبار أنها أقدم ألوان الكتابة التاريخية، ثم يأتي الباب الثاني، فيسجل فيه المؤرخون حركة النهضة العلمية في بلادهم، بعد ازدهار العلم، وغو الثقافة، فتأتي كتب (التراجم، والطبقات). وأخيراً، يأتي دور كتب (الحضارة، والنظم)، التي سجل فيها المؤرخون معالم النظام السياسي، والإداري، والقضائي في بلادهم.

ج - أن هذا المنهج يضمن تحقيق المقارنات بدقة داخل كل فصل، على أن تتم الإشارة إلى خلاصتها في (خاتمة الكتاب).

وقد لاحظتُ على هذا المنهج أمرين :

أولهما - أنه يؤدي إلى تكرار ذكر المؤرخ الواحد في أكثر من فصل، إذا تعددت مؤلفاته، من حيث الكم والنوع، فأين نترجم له ؟ وحلاً لتلك المشكلة رأيتُ الترجمة الوافية له في أول مرة يُذكر فيها فقط؛ حتى يتم التعريف به جملة واحدة، إلا إذا وجد سبب وجيه يستدعي تأخير الترجمة قليلاً.

ثانيهما - أن نتاج بعض المؤرخين ذوى الإنتاج العلمي المتنوع كابين زولاقي في مصر، والحشني في (الأندلس) سيكون مبعثراً، عبر أبواب الكتاب. ويُردّ على ذلك بأنه يمكن تجميعه في (جداول إحصائية بيانية في قسم الملاحق).

والآن، نتابع عرضنا لبقية أبواب الكتاب، ومنهجنا في تناولها :

٢- الباب الأول - (مؤرخو السَّير التاريخية) :

في هذا الباب بدأنا بدراسة هذه النوعية من المؤلفات التاريخية في مصر، فقمْتُ بالترجمة للمؤرخ المصري (ابن الداية ت ٣٤٠هـ) ترجمة مفصلة، مستعيناً بمؤلفاته، التي أمكن استنباط الكثير عن شخصيته منها، مما لم يكن متيسراً، لو تم الاكتفاء بما أورده كتب (التراجم) عنه.

ثم ترجمتُ - بعد ذلك - للمؤرخ المصري (البَلَوِيّ، المتوفى في منتصف ق ٤هـ)، متبعاً الطريقة نفسها، ثم قمت بدراسة مؤلَّفَيْهما معاً، بطريقة مقارنة، على اعتبار أن

موضوعهما واحد، وهو (سيرة أحمد بن طولون)، واشتملت الدراسة على بيان :

أ - محتوى السيرة.

ب - موارد كل من المؤرخين.

ج - النقد الداخلى لبعض أحداثها، ووضع تصور شامل للحكم التاريخي على دولة

(ابن طولون).

د - المنهج الذى اتبعه كلا المؤرخين فى معالجة مادته التاريخية.

وأتى دور المؤرخ العظيم (ابن زولاى ت ٣٨٧هـ)، فترجمت له، وقمتُ بتحليل كتابه : (سيرة الإخشيد) على المنهج نفسه المتبع من قبل. ثم أعقبتُ ذلك بكتابة (خلاصة مقارنة) بين (سيرة ابن طولون) لابن الداية، و(سيرة الإخشيد) لابن زولاى. بقى - بعد ذلك - دراسة (سير العلماء)، ومثل ذلك فى مصر كتاب (أخبار سيويه المصرى) لابن زولاى.

ولم أشأ التوقف عند هذا الحد، فهناك مادة مهمة لعدد من كتب السير التاريخية - خاصة كتب المؤرخ الفذ ابن زولاى - لكنها مفقودة، فقامتُ بجمع ما تيسر لى منها، ورتبتها ترتيباً تاريخياً، وقمتُ بدراستها والتعليق عليها. وبذلك انتهت دراسة (سير الحكام والعلماء فى مصر).

أما بخصوص الأندلس، فلم أقف - بعد طول بحث، وسؤال - على كتاب مطبوع فى مجال (السير التاريخية)، فقامتُ بجمع ما تيسر لى من بقايا الكتب المفقودة، والإشارة إلى أسماء مؤلفيها، وعناوينها، وما تدل عليه من موضوعات. وحاولتُ - فى النهاية - التعليق لفقد هذه النوعية من تلك المؤلفات التاريخية فى الأندلس بالذات، وحاولتُ - كذلك - عقد شئ من المقارنة بين ما بقى منها فى مجال (سير العلماء)، وبين ما أثر عن مدرسة مصر التاريخية، وذلك من خلال ملاحظات عامة، قامتُ بتسجيلها. وعلى كل، فقد تنكشف - عما قريب - بعض هذه المفقودات، فنستكمل هذا النقص فى تلك الدراسة، وعزاؤنا - الآن - أننا لا دخل لنا به، ولا حيلة لنا فيه.

٣- الباب الثانى (مؤرخو التراجم، والطبقات) :

جمعت - فى هذا الباب - ما تيسر لى من كتابي (ابن الربيع الجيزى ت ٣٢٤هـ) عن (تاريخ الصحابة الذين نزلوا مصر)، والكندى (ت ٣٥٠هـ) عن (العلماء الموالى فى مصر)، وحاولتُ استخلاص ملاحظات عامة منهجية على كل منهما، حسب المادة العلمية المتوفرة. وأحب أن أذكر بأن المؤرخ المصرى ابن يونس له كتابان فى التراجم، يندرجان تحت هذا الباب إلا أننى لن أتعرض لهما؛ لأنى خصصتهما بدراسة مستقلة أشرت إليها من قبل.

وعلى صعيد الأندلس كانت المؤلفات متعددة ومتنوعة في اتجاهاتها، وقمت بدراسة كتاب (أخبار المحدثين والفقهاء) للخشني (ت ٣٧١هـ)، وقارنت مطبوعه ومخطوطه، وأبرزت أهميته من خلال كثرة نقول المصادر التالية له من تراجمه ومعلوماته. وكنت - كما تعودت - قدمت للمؤلف - قبل ذلك - ترجمة وافية، ألقت الأضواء على شخصية هذا المؤرخ الأندلسي العظيم، ذى الصلات العلمية الطيبة، والمراسلات المتبادلة مع مؤرخ مصر الأشهر (ابن يونس الصديقي).

بقي ثلاثة من المؤرخين الأندلسيين في هذا الباب، ترجمت لهم، وحللت كتبهم، وبينت مناهجهم، وهم (ابن جُلجل ت بعد ٣٧٧هـ)، صاحب (طبقات الأطباء والحكماء)، والزُّيْدِي (ت ٣٧٩هـ) صاحب (طبقات النحويين واللغويين). وأخيراً، المؤرخ الأندلسي العظيم ابن الفرّضي (ت ٤٠٣هـ) في (تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس). وفي نهاية هذا الباب رصدنا أوجه الاتفاق والافتراق، والصلات بين مدرستى مصر، والأندلس في مجال (التراجم، والطبقات).

٤- الباب الثالث والأخير - (مؤرخو الحضارة، والنظم) :

وهو باب جديد، يعكس اهتمام مؤرخى مصر والأندلس الكبير بهذا الجانب المهم من جوانب المكتبة التاريخية الإسلامية في ذلك القرن، ويدحض دعاوى باطله، تزعم أن المؤرخين ما كتبوا إلا حكايات، وما سردوا إلا قصصاً وروايات. فهذا هو باب كامل يثبت أن لهم اهتماماً بالكتابة الحضارية، وأنهم غنّوا بالأسس الحضارية، والنظم السياسية والإدارية والقضائية، ضمن ما غنّوا به في كتاباتهم.

تناول هذا الباب الختامى ما يلى :

أ - دراسة كتاب الولاة، للكندى.

ب - دراسة كتاب (القضاة) للكندى أيضاً.

وأخيراً، فإننا لم نجد في الأندلس كتاباً مطبوعاً سوى كتاب (قضاة قرطبة)، للخشني، وهو كتاب يُعنى بمن ولى قضاء الجماعة بقرطبة، وأغفل القضاء والقضاة في بقية نواحي الأندلس. وعلى كل، فقد تممت دراسته وتحليله، وبيان منهجه. وفي النهاية، كتبت خلاصة مقارنة بين إنجاز مؤرخ مصر الكندى في هذا المجال، وبين العمل الأوحى الباقي الذى كتبه الخشني بالأندلس.

وفي النهاية، ختمتُ هذا الكتاب بـ (خاتمة) لَخَصْتُ فيها أبوابه، وركزتُ أهم النتائج، والتوصيات، ثم أوردت ملاحق الكتاب، وبعدها كانت (قوائم المصادر، والمراجع) مرتبة وفق منهج معين، ارتضيته لنفسى، وذكرته هناك. والمطالع لتلك القوائم المفصلة، التى تبلغ عدة مئات من الكتب، يدرك - على الفور - مقدار ما بُذِل من جهود شاقة مضنية، عبر سنوات متلاحقة متعددة فى مسح كثير منها، واستخراج المادة العلمية اللازمة لإتمام هذا الكتاب. وتجدر الإشارة إلى أننى اكتفيت فى الحواشى بالمواظبة على ذكر طبعة الكتاب، متعدد الطبعات. أما غير ذلك، فمن أراد معرفة طبعة، فعليه بالبيانات المفصلة فى (قوائم المصادر، والمراجع)، فالحواشى مثقلة لا تحتمل المزيد، وقد يتكرر المصدر بعد عشرات الصفحات، فينسى القارئ طبعته التى ذُكرت بالحاشية فى المرة الأولى، فلا غنى - إذن - عن العودة إلى هذه القوائم.

وأخيراً، فإنه لا يسعنى مع نهاية هذه المقدمة المقتضبة، إلا أن أسجد لله (تعالى)؛ شكراً على عظيم نعمه، وموفور آلائه، التى مَنَّ بها عَلَيَّ، حتى وصلتُ بهذا العمل إلى نقطة النهاية، ومنحى من الصبر الدعوب، والعمل المتواصل، ما مَكَّننى من تحويله من حلم وخاطر إلى حقيقة واقعة، لا خيال فيها، وأسأله أن يجعل كل ما تحمّلته من المشاق والصعاب خالصاً لوجهه الكريم، ويجعله فى ميزان حسناتى، وأن يكلل جهودى بالنجاح والتوفيق فى الدنيا والآخرة.

(وصلّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله، وصحبه، وسلّم تسليماً كثيراً)

دراسة في أهم المصادر والمراجع

تقديم :

اعتمدت في تأليف هذا الكتاب على عدد كبير من المصادر والمراجع، وأود - هنا - أن أقدم تعريفاً سريعاً مختصراً ببعض هذه الكتب، مبيّناً - ما أمكن - مدى إفادتها في تأليف هذا الكتاب، ذاكراً بعض ما فيها من إيجابيات، أو سلبيات، أو هما معاً؛ كي يستفيد الباحثون من بعد. وغني عن البيان أنني سأعتني بذكر الكتب المساعدة على إتمام تلك الدراسة، ولن أتعرض للمصادر، التي كانت موضوع الكتاب، دراسة وتحليلاً؛ وذلك منعاً للتكرار.

أولاً - مخطوطات :

١ - مخطوط (تفسير كتاب الثمرة لبطلميوس)، لأحمد بن يوسف بن الداية (ت ٣٤٠هـ) : وهو مخطوط نادر، يدخل في علم (الفلك والتنجيم)، ولكنه به مادة تاريخية نادرة، فقد أفادني كثيراً في الترجمة لمؤلفه، ومعرفة عقليته وشخصيته، وأوقفتني على ملمح جديد من ثقافته، وقد ربط فيه ابن الداية - ببراعة، ورصانة، وإحكام - بين الفلك، والرياضيات، والتنجيم، والتاريخ. وقد كشف عن مكان وجود والده (يوسف بن إبراهيم) عند اختفاء ابن المهدي، وهو ما لم نجده في غيره، ورسم لنا صورة واضحة لطبيعة التفكير في مصر في العصر الطولوني. فكانت إفادته متركزة في الفصل الأول من الباب الأول).

٢ - مخطوط (مختصر تاريخ مصر) لابن زولاق (ت ٣٨٧هـ) : وهو مخطوط اختزل فيه ابن زولاق تاريخاً كبيراً ألفه عن مصر، وهو - للأسف - مفقود، وقام بحذف الأسانيد التي تشير إلى موارد مروياته، إلا أنني أفدت منه في معرفة (تاريخ الشيعة في مصر، وتاريخ علمائه بها، والصلة الوثيقة لبني زولاق بهذا المذهب؛ مما كان له أثره في مواقفه من العبيديين بعد دخولهم مصر) فأفادني ذلك في الفصل الثالث من الباب الأول).

٣ - مخطوط (تاريخ دمشق) لابن عساكر (ت ٥٧١هـ) : وقد أمدني هذا السفر الجليل الضخم بمادة كثيرة متنوعة في (الفصل الثاني من الباب الأول)، فيما يتصل بالطولونيين بالشام، ووقائع الملاعة بين ابن طولون والموثق. ويلاحظ أن هذا المخطوط الضخم اكتمل تحقيقه وطبعه منذ فترة وجيزة، وبعد إعدادي هذا الكتاب، وسأعود إلى المطبوع في المؤلفات القادمة، إن شاء الله.

٤ - مخطوط (عيون التواريخ) للكثيري (ت ٧٦٤هـ) : وترجع أهميته في إمداده هذا الكتاب - في الفصل الرابع من الباب الأول - بعدد من مؤلفات المؤرخ المصري العظيم ابن زولاق، لم تذكرها معظم المصادر الأخرى، مثل: (سيرة المادرائيين).

٥ - مخطوط (رفع الإصر)، لابن حجر (ت ٨٥٢هـ) : ونقصه به التراجم التي لا تزال مخطوطة، لم تمتد إليها يد التحقيق بعد. ولا شك أنه من المصادر المهمة في (التأريخ لقضاة مصر). وقد أفادني في (الباب الثالث) من هذا الكتاب، وهو المعنى في جزء كبير منه بـ (القضاة في مصر)، فساعد على كشف النقاب عن حياة بعض القضاة، وحوى مادة غير قليلة.

ثانياً - مصادر :

ونعني بها الكتب المطبوعة، التي صنفها علماءنا الأقدمون، وهي كثيرة متنوعة، لكنني سأجتهد في تصنيفها وتقسيمها، مع بيان مدى أهميتها في ذلك الكتاب، وهي على النحو الآتي :

(١) مجموعة كتب الصحابة (رضوان الله عليهم) : وهذه أفادتني إفادة هائلة في (الفصل الأول من الباب الثاني) تحديداً، وذلك في تجميع بقايا كتاب (تاريخ الصحابة الذين نزلوا مصر) لابن الربيع الجيزي. وهذه المصادر هي (طبقات ابن سعد)، و(الاستيعاب) لابن عبد البر، و(أسد الغابة) لابن الأثير، و(الإصابة) لابن حجر.

(٢) كتب التراجم والطبقات الأخرى : وهذه كتب تُعنى بتراجم العلماء. ويمكن أن نُقر بأن هذه النوعية من المصادر أهمية قصوى؛ إذ وجدنا بها مادة غزيرة، لا عهد لكتب التاريخ العام والمجلى بها. ويمكن أن نقسمها إلى مجموعة من الفئات :

أ - فئة عُنت بتراجم الأندلسيين (محدثين، وفقهاء، ومؤرخين، وأدباء، وأمرأه) : ومن هذه المصادر : (جذوة المقتبس) للحميدي (ت ٤٨٨هـ)، و(الصلة) لابن بشكوال (ت ٥٧٨هـ)، و(بغية المتلمس) للضبي (ت ٥٩٩هـ)، و(الحلة السراء) لابن الأبار (ت ٦٥٨هـ)، وكذلك كتابه الآخر (تكملة كتاب الصلة، ط. الحسيني)، و(ط. مدريد) على وجه الخصوص، التي أمدتنا بمادة نادرة عن بعض بقايا كتب السير التاريخية بالأندلس في (الباب الأول من الكتاب)، ولولاها لجهلنا كل شيء بهذا الخصوص تقريباً. وأفاد - كذلك - في التعريف بالمؤرخ الأندلسي (ابن جليل) في (الفصل الثالث من الباب الثاني).

وحدير بالذكر أن الكتب المتقدمة خاصة (الجدوة، والبغية) أفادتني كثيراً في التعريف بعلماء الأندلس في (الفصل التمهيدى).

وكذلك كتاب (المغرب في حلى المغرب) لابن سعيد (ت ٦٨٥هـ)، الذي يمتاز بالدقة الكبيرة في إيراد المعلومات، وأفادني في (الفصل التمهيدى) في التعريف بعدد من الشخصيات المهمة فيه. وكذلك كتاب (نفع الطيب) للمقرئ (ت ١٠٤١هـ)، وذلك في معرض تناول الصلات الثقافية بين مصر والأندلس في (الفصل التمهيدى)، وكذلك (الحياة الاجتماعية بالأندلس). ولا ننسى كتاب (المغرب - قسم مصر) لأبي سعيد، فهو من الكتب التي لمؤلفها

الفضل الأكبر في حفظ (سيرة ابن طولون) لابن الداية، ومعظم (سيرة الإخشيد) لابن زولاق من الضياع؛ مما كان له أكبر الأثر في إتمام دراسة (الباب الأول) من هذا الكتاب، وكذلك أفاد قبلها في كتابة (التمهيد)، وعلى وجه الخصوص في دراسة (الأوضاع السياسية في مصر في القرن الرابع الهجري).

ب - وهناك مصادر ترجمت لفئات مخصوصة، منها : (ترتيب المدارك) للقاضي عياض (ت ٥٤٤هـ-)، وفيه ترجم لأعيان مذهب الإمام مالك (ووزعهم على طبقات، وترجم لعلماء كل إقليم على حدة). وهو مصدر غاية في الأهمية، وبه نصوص ليست في غيره، منها : أجزاء من كتاب (أعيان الموالى) للكندي، و(أخبار المحدثين والفقهاء) للخشنى، وإن عابه أنه لم يميز بينه وبين (القضاة)، و(طبقات المالكية)، ولم يوضح منتهى مقتبساته من تلك الكتب المفقودة. وأعتقد أن (طبعة مكتبة الحياة) في بيروت، تحتاج إلى تحقيق من جديد؛ نظراً لكثرة ما فيها من تحريفات وتصحيقات، وعدم خدمة النصوص في الحواشى، وعدم دقة ووفاء الفهارس المفصلة. وقد طالعت طبعة مغربية لهذا الكتاب، فلعلمها أفضل من حيث ضبط النص، لكنها لم تتخدمه هي الأخرى في الحواشى؛ مما يتطلب جهداً جديداً في هذا المضمار.

وكتاب (طبقات الأطباء) لابن أبي أصيبعة (ت ٦٨٨هـ) كتاب مفيد في بابه، ساعدنى على تتبع أخبار (يوسف بن إبراهيم)، والوقوف على كثير من بقايا كتبه، وحياته في بغداد، ودمشق، وذلك كله أفادنى في كتابة (الفصل الأول من الباب الأول). وكذلك كان له دور كبير في دراسة (طبقات الأطباء) لابن جلدل في (الفصل الثالث من الباب الثانى).

وهناك كتاب (تقذيب التهذيب) لابن حجر، وهو خاص بتراجم المحدثين، الذين لهم مرويات في كتب الحديث الستة المشهورة. ولما كان الحديث قاسماً مشتركاً ثقافياً بين معظم علماء القرن الرابع، وعدد من مؤرخيه، فقد كان الاحتياج إلى هذا المصدر كبيراً جداً، وتغلغل مادته في كافة أبواب الكتاب، وعلى رأسها (الباب الثانى).

ج - وهناك كتب التراجم التى غُنيت بالعلماء، والأعيان، والأدباء عامة، ومنها : (معجم الأدباء) لياقوت (ت ٦٢٦هـ-)، وهو مصدر مهم ترجع أهميته إلى مطالعة مؤلفه كثيراً من الكتب التاريخية المفقودة الآن، كان قد رآها بنفسه رأى العين. ومن هنا وجدنا لديه منها مادة ليست عند غيره، فهو أفضل من ترجم لابن الداية، وبه نص مطول من (سيرة العزيز)، لابن زولاق. وكذلك ترجم لابن زولاق ترجمة بما ليس في المصادر الأخرى. وكل ذلك أفاد فى (الفصلين : الأول، والرابع من الباب الأول) من الكتاب. أما (الفصل الثانى من الباب الثانى)، فحوى ترجمة للخشنى المؤرخ الأندلسى، كشفت النقاب عن عمق الصلات بينه، وبين مؤرخ مصر (ابن يونس).

وهناك كتابا : (وفيات الأعيان) لابن خَلِّكان (ت ٦٨١هـ-)، و(الوفاء بالوفيات) للصفدي (ت ٧٦٤هـ-)، وكلاهما أفاد في كتابة أجزاء مهمة من فصول الكتاب ككل، فكلاهما أسهم في معرفة الكثير عن تراجم حكام مصر، فأفادا في كتابة (الحياة السياسية) في (التمهيد) خاصة أولهما، وكذا ما عُرف به ابن خلكان من دقة في إيراد الأنساب، وضبط الأعلام. وأفاد في ترجمة ابن زولاق في (الفصل الثالث من الباب الأول). وبه تراجم لبعض (قضاة مصر)، أفادت في كتابه (الفصل الأول من الباب الثالث) من هذا الكتاب. وبالنسبة لكتاب الصفدي، فقد كان من المصادر المهمة، التي أسهمت تراجمها في الإلمام بـ (الحياة الثقافية في القرن الرابع الهجري).

د - وتوجد مصادر للتراجم، اهتمت بالعلماء الموجودين في قُطر بعينه : وعلى رأس تلك المصادر (تاريخ بغداد) للخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ-)، الذي اهتم بالترجمة لكل من نزل حاضرة الخلافة (بغداد). وبه ترجمة طيبة للقاضي ابن حَرْثويه أحد كبار قضاة مصر، وأفادنا في (ترجمة ابن الربيع في الفصل الأول من الباب الأول من الكتاب). وبعد، فإن (تاريخ بغداد) موسوعة علمية كبرى، تحتاج إلى من يقوم بتحقيقها، وإخراجها في ثوب جديد.

وهناك رائعة المقرئ (المقفى الكبير)، الذي أخرج الموجود منه في ثمانية مجلدات كبار، بفهارسه المفصلة، ذلك المصدر الذي ترجم فيه مؤرخنا لكل من وقف عليه من العلماء، الذين قدموا مصر عبر قرون طويلات ممتدات (من قبل الإسلام حتى عصر المؤلف المتوفى سنة ٨٤٥هـ-). ومن ثم، فإن فائدته لا تقف عند باب من أبواب الكتاب، بل تتوزع عبر مختلف الأبواب (في الفصل التمهيدى : به كتاب تكين إلى العبيدين، وهو مهم للغاية في تفسير توالى حملاتهم على مصر، وفي نجاح شعب وحيش مصر في صدّها، وأورد تفاصيل الخلاف بين كافور وأونوجور). وفي (الفصل الثالث من الباب الأول) نقلنا عنه خطبة ابن زولاق المؤرخ بين يدي المعز لدى دخوله مصر، وأكد تشييعه، وتولية منصب المظالم لبني عُبيد في مصر، وكان ذلك من المعالم الجديدة في ترجمة ذلك المؤرخ. وبه العديد من تراجم (قضاة مصر)؛ مما ساعدنا في دراسة (الفصل الأول من الباب الثالث).

هـ - وأخيراً، أفاد هذا الكتاب من مصادر التراجم، التي جمعت - إلى جانب ذلك - ذكر الحوادث التاريخية. ويأتي - في المقام الأول - موسوعة الذهبي، التي لعلها قاربت الخمسين مجلداً حتى الآن (تاريخ الإسلام)، الذي طالعتُ منه (ثمانية وعشرين مجلداً)، تخص القرون الأربعة الأولى من الهجرة، وهو مصدر به ما ليس في غيره من المصادر الأخرى (خاصة ذكره تاريخ ميلاد ابن الربيع الجيزي، وما أفاده ذلك في ترجمته، والتعريف به، ودراسته، إلى غير ذلك من الفوائد الجمة المبثوثة في تضاعيف أبواب هذا الكتاب).

(٣) كتب التاريخ العام : ويمثلها الطبرى فى (تاريخ الرسل والملوك). ورغم ما يقال عن معاييب النظام الحولى الذى اتبعه فى تنظيم كتابه (من تقطيع أوصال الحادثة الواحدة الممتدة عبر السنين)، ورغم قلة المادة العلمية التى أوردها خاصة بمصر، إلا أنه لم يخلُ من بعض الفوائد، التى أفاض بها على هذا الكتاب (فى ذكره تواريخ أحداث مهمة، أهل ذكرها ابن الداية، والبلوى فى سيرهما، وذلك فى الفصل الثانى من الباب الأول، وساعدنا - أيضاً - على توثيق أشعار، وردت على لسان الواسطى، وهو يكتب للمعتضد يعرضه على حمارويه).

وهناك - أيضاً - كتابا : (الكامل) لابن الأثير (ت ٦٣٠هـ-)، و(نهاية الأرب) للثوئرى (ت ٧٣٣هـ-). وقد أفادا فى كتابة (الفصل التمهيدى، خاصة ما يتصل بالجانب السياسى منه). وأفادنا الثوئرى فى (الفصل الرابع من الباب الأول) فى جزئية تتعلق بسيرة (جوهر) لابن زولاق.

(٤) كتب التاريخ المحلى : وهذه مصادر مهمة، ترجع أهميتها إلى أنها تركز وتعمق اهتمامها بتاريخ إقليم محدد، أو إقليمين مرتبطين معاً. ومن أهم هذه المصادر : كتاب (المقتبس) لابن حبان القرطبى (ت ٤٦٩هـ-)، وهو أعظم مصادر الأندلس قاطبة، رغم ضياع جزء ليس بالقليل منه، لكن الأجزاء التى حُققت وصدرت منه، توقفتنا على عظمة هذا الكتاب، وعبقريه صاحبه. وقد أفادنى المجلد الذى حققه د. محمود مكى، فيه مادة لا بأس بها، ساعدت فى دراسة المؤرخ ابن الفرضى (ت ٤٠٣هـ-) فى (تاريخ علماء الأندلس)، وبه كذلك مادة من كتاب (قضاة قرطبة) لمحمد بن حارث الخشنى (ت ٣٦١هـ-)، أثبتت أهميته عند دراسته. ولا شك أن لكليهما أهمية قصوى فى كتابة الشق الخاص بالمؤرخين الأندلسيين فى (الباب الثانى). ويضاف إلى ذلك الدروس والفوائد الجمة، التى استقيناهما من عمل المحقق فى دقته، وعمقه، وغزارة عمله، وثراء حواشيه وتعليقاته. وبالنسبة للجزء الخامس من هذا الكتاب، فقد بلغت أهميته المنتهى فى كتابة (الفصل التمهيدى) بجانيه : (السياسى، والاجتماعى)، فهو مصدر أساسى موثوق به فى فترة حكم الناصر، وسياسته الداخلية، ثم أخبار غزواته ضد نصارى الإيبان بالشمال، خاصة (غزوة الحندق) سنة ٣٢٧هـ-. وكذلك الجزء الخاص بجانب من حكم (المستنصر) من سنة ٣٦٠ - ٣٦٤هـ-، وتعليق ابن حبان الرائع، وتحليله أسباب الفتنة، وعلاماتها الكبرى مع نهاية القرن الرابع الهجرى بالأندلس.

وكتاب (بغية الطلب) لابن العَلم (ت ٦٦٠هـ-) : وهو خاص بتاريخ حلب، وبه نصوص نادرة من بقايا مصادر تاريخية مفقودة لابن زولاق. فأفادنا فى كتابة (الفصلين الثانى، والرابع من الباب الأول)، خاصة فيما يتصل بتاريخ بنى طولون بالشام. وصاحبه رجل ثقة، ودقيق، وقدم إلى مصر، وذكر لنا أسانيد مروياته.

دراسة في أهم المصادر والمراجع

وكتاب (البيان المغرب) لابن عذارى (توفي في ق ٧هـ) : وهو خاص بتاريخ المغرب والأندلس، ونقلت عنه مادة غزيرة في (الفصل التمهيدى)، تتصل بالسياسة الداخلية والخارجية للأندلس في عهدي : الناصر، والمستنصر، وكذلك أخبار (الدولة العارمية).

وكتاب (أعمال الأعلام، قسم الأندلس)، لابن الخطيب (ت ٧٧٦هـ) : ومؤلفه علامة فيما كتب، وقد استمعت بلغته وأسلوبه البليغ، وهو يصوغ الأحداث التاريخية برشاقة وعمق كبير، فنقلت عنه ما يتصل بمبايعة الفقهاء لـ (هشام المؤيد) بالخلافة في الأندلس، ونص ولاية العهد لـ (شنجول)، وأسباب الفتنة العارمة ببلاد الأندلس نهاية ق ٤هـ.

وكتاب (اتعاظ الحنفاً) للمقريزى (ت ٨٤٥هـ) : وهو كتاب اختص به صاحبه الدولة العبيدية في مصر والشام بالتأليف. ومؤلفه دقيق فيما يورد، ويعتمد على وثائق مفيدة، وشخصيته حاضرة، فيعلق أحياناً على بعض الأحداث والوقائع. وقد أفادنى كثيراً في عرض النواحي السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية في مصر في العهد العبيدى. وحوى بعضاً من (كتاب سيرة المعز) لابن زولاق، خاصة أحداث سنة ٣٦٥هـ (التي يبدو أنه نقلها عنه كاملة). فخدم الكتاب في (الفصل التمهيدى، والفصل الرابع من الباب الأول).

وكتاب (النجوم الزاهرة) لابن تَغْرَى بُرْدَى (ت ٨٧٤هـ) : وهو موسوعة تاريخية مصرية مفصلة، تبدأ من فتح مصر إلى عصر المؤلف في القرن التاسع الهجرى. وقد أفادنا بمعلومات قيمة جديدة، لا تجدها بهذا الوضوح والتفصيل في غيره (خاصة في كتابة التاريخ السياسى لمصر في ق ٤هـ). وكذلك أفاد - من خلال تراجمه الكثيرة - في دراسة الولاة والقضاة في (الفصل الأول من الباب الثالث) من الكتاب.

وأخيراً، كتاب (حسن المحاضرة) للسيوطى (ت ٩١١هـ) : وهو كتاب مهم في النواحي السياسية، والثقافية في مصر بما احتواه من أحداث سياسية، وتراجم عديدة لعلماء مصر من محدثين، وفقهاء، ومؤرخين، وغيرهم. وقد كان المصدر الأول الذى أعاننى في إعادة تشكيل وتكوين كتاب ابن الربيع الجيزى عن (الصحابه)، فأفاد في (الفصل الأول من الباب الثانى)، وكذلك أفاد في كتابة (الفصل الأول من الباب الثالث). بما حواه من مادة عن تاريخ مصر، وتراجم ولائها وقضاها. وأعنتقد أن السيوطى أَلَف هذا الكتاب على عجل، فبه عدد غير قليل من الأخطاء التاريخية، ولعل النساخ أسهموا في الوقوع في الكثير منها، إلى جانب أن محققه لم يذل فيه جهداً، يتناسب مع كتاب كهذا، يحتاج إلى مزيد توثيق لنصوصه، فكثرت التحريفات والتصحيحات فيه، إلى جانب عدم خدمة النصوص بالشرح والتعليق الكافيين في الحواشى.

(٥) كتب الحضارة والنظم : وهى المصادر التى تركز على الأسس النظرية السياسية، وتطبيقها العملية - مثلاً - في شريعة الإسلام في مجال الحكم والإدارة والقضاء. ومن الكتب

المفيدة في هذا المجال : (الأحكام السلطانية، والولايات الدينية)، للماوردي (ت ٤٥٠هـ)، و(الأحكام السلطانية) لأبي يَغْلَى القَرَاء (ت ٤٥٨هـ). وهما كتابان جيدان يساعدان على تقويم الولاة والقضاة في (الباب الثالث) من الكتاب. وكذلك يدخل في مصادر النظم، الكتب التي تناولت النظم الإدارية، ونواحي الخطط والعمران، ويأتى على رأسها : (الانتصار) لابن دُقَمَاق (ت ٨١٤هـ)، فهو رغم ضياع معظمه، وحاجته الماسة إلى التحقيق، إلا أن ما بقى منه يشهد بدقة مؤلفه، وبراعته في مجال (الخطط والعمران).

وهناك (صبح الأعشى) للقلقشندي (ت ٨٢١هـ) : وهو مفيد في كتابة (الفصل التمهيدى) في التعريف بالنواحي الإدارية والتنظيمية (مثل : نقابة الأشراف، والطلابين)، وكذلك أفادنا في النواحي الاجتماعية، حيث ذكر الكثير من مظاهر الاحتفالات والأعياد لدى القبط، والمسلمين في العصر العبيدى خاصة.

وأخيراً، رائعة المقرئى (الخطط) : وهو كتاب جامع حافل بكل مفيد سياسياً واقتصادياً، واجتماعياً في (الفصل التمهيدى من الكتاب). وبالنسبة للفصل الرابع من الباب الأول من الكتاب، فقد احتفظ لنا بقطعة مهمة من (سيرة الماذرائيين) لابن زولاق، وكذلك احتفظ لنا بقدر كبير من (سيرة المعز) لابن زولاق أيضاً.

(٦) كتب السير التاريخية : ويأتى على رأسها : (أخبار الراضى بالله، والمتقى لله) للصُّوْلَى (ت ٣٤٥هـ). وتنبع أهمية هذا الكتاب إلى معاصرة مؤلفه للأحداث، ومصاحبة للمتقى، فهو يكتب أخباره عن كُتُب، ويعرض لأدق دقائق حياة (الراضى)، وعمله وأمراضه، وبطائه، وحقيقة صلة الإخشيد به. ومن ثم، أفادنا في (الفصل التمهيدى).

وكتاب (المجالس والمسايرات) للفاضل النعمان (ت ٣٦٣هـ) : وهو من المقرئين الملازمين للمعز العبيدى، فسجّل لنا حواراته وكلامه، وحكمه ومواعظه، ومواقفه. إلا أننا يجب ألا نُسَلِّم بكل ما فيه؛ لأنه يكتب عن عصبية وهوى. وعلى كل، فقد أفادنا في معرفة أفكار المعز وأهدافه، وعلاقات بلاده بالأمويين في الأندلس، وسر الصدام والتعادى بين الجانبين. وهذا مفيد في (الفصل التمهيدى).

(٧) كتب المؤلف والمختلف، والأسماء والكُنى، والأنساب : وهذه النوعية من المصادر قد تبدو في نظر البعض غير ذات أهمية. والحقيقة أنها ذات أهمية قصوى؛ لأن ضبط الأعلام، وتحقيق صحة الأنساب من عمل المورخ الحق:

أ - كتاب (الإكمال) لابن ماكولا البَحَّانة المدقق (ت ٤٧٥هـ). بمجلداته السبعة يُعد من مصادر الكتاب المفيدة؛ وقد حَظِيَ الكتاب بفهرس محتويات في كل مجلد من مجلداته، وتحقيقات

وتعليقات واسعة في حواشيه، باستثناء (المجلد السابع)، الذي حققه محقق آخر (هو نايف العباس)، فلم يحظ بدقة وجودة تحقيق المجلدات الستة الأولى. وعلى كل، فقد أفدنا منه بعض الإفادة في (العلماء الموالي) للكندى (في الفصل الأول من الباب الثاني). وبالكتاب تراجم العديد من (عمال الخراج، والولاة، والأمراء، وأصحاب الشرطة، وغيرهم)؛ مما ساعد على دراسة (الفصل الأول من الباب الثالث). وإني لأرجو أن يُعاد طبع الكتاب بعد تنسيقه، وتحسين إخراجة، وعمل فهرس مفصلة له، تيسر على الباحثين استخدامه، وتوفيقهم على المعلومة المرادة بسرعة فائقة، نظراً للمنهج المعقد الذي اتبعه ابن ماكولا في تبويه. ويستحق هذا المؤرخ دراسة متأنية منهجية لكتابه المذكور.

ب - كتاب (الأنساب) للسمعاني : وهو يأتي في المقام الثاني بعد (الإكمال) لابن ماكولا. وقد عَمَّت فائدته في (البابين : الثاني، والثالث)، وامتاز بتحقيق نصوصه، وضبطه أعلامه بالحروف، وتنظيم فقراته. وترجم للكثير من الشهود، والقضاة في مصر، وذلك مفيد في دراسة (الفصل الأول من الباب الثالث). والكتاب - بعد طبعته الجديدة - ينقصه بعض التصويبات، والفهارس التفصيلية، التي تيسر سبل استخدامه.

ج - كتاب (تبصير المنتبه) لابن حجر : وفيه تتجلى دقة ابن حجر في الضبط، وتوزعت فوائده على أبواب الكتاب المختلفة.

(٨) كتب الجغرافية : وهي كتب تفيد في التعريف الجغرافي بالأماكن، التي يرد ذكرها في الأحداث التاريخية، لكنها لا تخلو في الكثير من الأحيان من مادة تاريخية نادرة مهمة تفرد بها. وقد أفاد هذا البحث من كتاب (المسالك والممالك) للإصطخرى (المتوفى في النصف الأول من القرن الرابع الهجري)، في الوقوف على وصف الفسطاط في ذلك القرن، ومظاهر الثراء الاقتصادي بها، وكثرة حلقات العلم بمساجدها، وكثرة المصلين بها، خاصة يوم الجمعة (فأفاد في رصد الحياة الاقتصادية، والثقافية في مصر في ذلك القرن). وهناك كتاب (صورة الأرض) لابن حَوْقَل (ت ٣٦٧هـ)، وقد أفاد في معالجة التمهيد، فيما يخص الأوضاع الاقتصادية بالأندلس في عهد الناصر، ورواج وازدهار الحياة هناك، ووجود تبادل تجاري مع المشرق. وكذلك تعرض لبعض مظاهر الحياة الاجتماعية، وطبيعة أهل الأندلس، وأوردنا ذلك في مكانه من (الفصل التمهيدى). وبعد كتاب (نزهة المشتاق) للإدريسى (ت ٥٦٠هـ) من المصادر المفيدة في التعرف بالبلدان الأندلسية الواردة في الكتاب، وكذلك في وصف المعالم العمرانية بالأندلس (كجامع قرطبة مثلاً)، وذلك عند التعرض لذلك في (التمهيد).

وأخيراً، يأتي كتاب (معجم البلدان) لياقوت (ت ٦٢٦هـ) : وهو على رأس المصادر التي تفيد في التعريف بالأماكن والبلدان بدقة كبيرة. فقد زار مؤلفه معظم البلدان التي وصف

مواقعها في كتابه، وضبطها بدقة (بالحروف في معظم الأحيان). وقد اعتمدت عليه في التعريف بـ (معظم ما مرّ من الأماكن في الكتاب، سواء كان ذلك في مصر، أم بالأندلس). ويمتاز على غيره من المصادر الجغرافية بأنه كان يتطرق إلى ذكر أحداث تاريخية وقعت بالمكان الجغرافي الذي يُعرّف به، بل يقوم - كذلك - بالترجمة لعدد من أبرز علمائه المنتسبين إليه. ومن هنا، فلا غرو أن نتخذه مصدراً لعدد من الأحداث التاريخية.

وأخيراً، فإن الطبعة الجيدة الجديدة المحققة، التي اعتمدنا عليها، لها فهارس مفصلة، يَسُرُّ لنا الكثير، ونأمل أن يصدر العاملون في الحقل الجغرافي كتاباً، يذكرّون فيه ما يقابل تلك الأماكن القديمة في العصر الحديث، كما نرجو أن تراجع بعض الفهارس؛ لتكون أكثر دقة، وأن تكون الإحالات لها على (أرقام الأجزاء، والصفحات، لا أرقام التراجم)؛ كي يكون العثور على المعلومة أيسر منالاً، فبعض التراجم يمتد عبر صفحات طويلة.

(٩) **كتب اللغة** : وهذه كان لا بد منها؛ للوقوف على معاني بعض الألفاظ الواردة في النصوص التاريخية؛ حتى يحسن توجيه النص وفهمه، وحسن الاستنباط منه. وقد اعتمدت كثيراً على (لسان العرب) لابن منظور (ت ٧١١هـ)، ثم يليه (القاموس المحيط) للفيروزابادي (ت ٨١٧هـ)، الذي كنا نجد به بعض المعلومات التاريخية المهمة. واعتمدت - أحياناً قليلة - على (مختار الصحاح) للرازي (ت ٦٦٦هـ). وقد نجحت في الوقوف على المعاني الحقيقية لمعظم ما جاءني من ألفاظ، وعبارات وردت في المصادر. وجدير بالذكر، أنني كنتُ أستعين بأحد المعاجم الحديثة (المعجم الوسيط) كثيراً؛ لما يمتاز به من وضوح وشمول، وسهولة ويسر في التناول، فيكون كالضوء الذي يرشدني للبحث في المصادر المعجمية الكبرى. وقد امتاز باحتوائه على كلمات محدثة، ومفاهيم جديدة للألفاظ، نفتقدها في المعاجم القديمة.

(١٠) **كتب الحديث النبوي الشريف** : وهذه استعنت ببعضها - قدر ما تيسر لي - في معرفة مظان ورود عدد من الأحاديث النبوية الشريفة بالكتاب (خاصة التمهيد، والفصل الأول من الباب الثاني). فاستخدمت في ذلك التوثيق عدداً من هذه المصادر، مثل: (صحيح الإمام البخاري، ومسلم، ومسند أحمد، ومستدرک الحاكم، والمعجم الكبير للطبراني، وغيرها).

ثالثاً - مراجع :

استعان الباحث بمطالعة العديد من الكتب الحديثة، التي لها نظرات جديدة مفيدة، ووجهة نظر معتبرة في موضوع الكتاب، منها على سبيل المثال:

١ - (مصر في عصر الإخشيديين)، للدكتورة سيدة كاشف : وهي دراسة رائدة علمية موثوقة في ذلك المجال، درست العصر من مختلف زواياه، وأفادتنا إفادات طيبة في (التمهيد)،

ومناقشة عصر الإخشيد، ودراسة سيرة ابن زولاق عن (الإخشيد) في (الفصل الثالث من الباب الأول). ورغم مضي حوالى نصف قرن على تأليفها هذا الكتاب، فلا يزال الباحثون يعتمدون على هذا المؤلف حتى الآن، رغم وجود بعض هتات يسيرة هنا أو هناك، نشير إليها في مكانها من الكتاب.

٢ - (تاريخ الدولة الفاطمية) د. حسن إبراهيم حسن : وقد أفادنا هذا المؤلف في دراسة علاقة العبيدين بالروم في عهد العزيز (وذلك في الفصل التمهيدى).

٣ - (الأدب الأندلسى)، للدكتور أحمد هيكمل : وقد أفادنا هذا الكتاب القيم في كتابه (الحياة الثقافية والاجتماعية بالأندلس) في (الفصل التمهيدى).

٤ - (معالم تاريخ المغرب والأندلس)، للدكتور حسين مؤنس : وهو كتاب فريد في بابه، استفدت منه خلاصة علمية مركزة عن رأيه في عصر الناصر، والمستنصر، والمنصور (المزاي، والعيوب)، وكذلك تحليله للفترة في نهاية عهد العامين. (وأفادنى ذلك في الفصل التمهيدى).

٥ - (دولة الإسلام في الأندلس)، للأستاذ محمد عبد الله عنان، وكتاب (العلاقات بين الأندلس الإسلامية، وإسبانيا النصرانية) للدكتور رجب عبد الحليم. وقد استفدت منهما في التركيز على العلاقات مع نصارى الشمال (وذلك في الفصل التمهيدى).

٦ - وهناك مجموعة من المراجع جمعت مؤرخى مصر والأندلس في القرن الرابع الهجرى، وألقت عليهم الأضواء، ترجمة، ومؤلفات، فساعدنى ذلك على دراستهم في مختلف أبواب الكتاب. ومن ذلك : (تاريخ الأدب العربى) لبروكلمان، و(تاريخ التراث العربى) لسزكين، و(التاريخ العربى والمؤرخون) لشاكر مصطفى.

٧ - (القبائل العربية في مصر في القرون الثلاثة الأولى للهجرة)، للدكتور البرى : وقد أفادتني هذه الدراسة القيمة في تحليل، ومناقشة بعض القضايا المثارة في كتابى الكندى : (الولادة)، و(القضاء)، وذلك في (الفصل الأول من الباب الثالث).

٨ - مجموعة من الكتب الطبية المفيدة في دراسة النظام الإدارى، والقضائى في مصر : على رأسها : (الشرطة في مصر الإسلامية)، لأحمد عبد السلام ناصف، وكتاب (الإدارة المحلية في مصر في عصر الولاية) للدكتورة صفاء حافظ، وكتاب (القضاء في مصر الإسلامية من الفتح الإسلامى حتى قيام الدولة الطولونية) د. عبد المجيد بدوى. ولا شك أن هاتيك المؤلفات كان لها دور طيب في دراسة (الفصل الأول من الباب الثالث من الكتاب).

٩ - كتب مفيدة في معالجة (النظام القضائى بالأندلس) : منها : (تاريخ القضاء في الأندلس من الفتح الإسلامى إلى نهاية ق ٥٥هـ)، للدكتور محمد عبد الوهاب خلاف. وكتاب

(نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي) لظافر القاسمي. وهي مفيدة في كتابة (الباب الثالث).

رابعاً - دوريات :

هناك مجموعة من الأبحاث والمقالات أفادت الكتاب، منها : بحث الدكتور حسن علي، عن (أبعاد النشاط السياسي لحملات الفاطميين على مصر). وهو بحث مفصل يعالج بدقة وإسهاب وتحليل طيب هذه الحملات. وقد أفادني كثيراً في معالجة الجانب السياسي في مصر (في الفصل التمهيدي). وكذلك ساعدني في تفهم سياسة العبيديين في مصر بحث د. فهمي عبد الجليل عن (أهل الذمة والإدارة في العهد الفاطمي).

وللدكتور محمود مكى بحث عن (التشيع في الأندلس)، استفدت منه في دراسة (الفصل التمهيدي)، في الجزئية الخاصة بعلاقات العبيديين بالأمويين في الأندلس.

وبخصوص الأبحاث المتصلة بعرض التراث التاريخي الأندلسي، والتعريف به، وهو ما أفادني في (اللباب : الثاني، والثالث من الكتاب)، طالعت بحث الدكتور العبادي عن (التراث العربي الإسلامي بالأندلس).

خامساً - رسائل جامعية :

طالع الباحث عدداً كبيراً من الرسائل، التي أفادته في كتابه، ويسرت له سبيل البحث فيه، منها :

١ - (التخطيط الإعلامي للدعوة الفاطمية في مصر) للباحث شعبان أبي اليزيد، بكلية اللغة العربية بالأزهر، وهي رسالة نجح فيها صاحبها في الربط بين مصادر التاريخ الإسلامي، ومفاهيم الإعلام الحديثة، فطَوَّع المادة التاريخية للكشف عن دعايات العبيديين، وتخطيطهم الذكي، وإجادتهم إطلاق الشائعات، وسياسة جوهر الذكية في بنود أمانه الذي منحه المصريين، فتمكن من إخضاعهم له بسهولة ويسر. وقد زادتني هذه الرسالة معرفة بطبيعة سياسة العبيديين في مصر.

٢ - رسالة ماجستير : (أحمد بن يوسف المصري، وكتابه : المكافأة) للباحث سيد محمد قطب، بكلية الألسن/جامعة عين شمس. كتبها صاحبها ببراعة واقتدار، لفت نظري إلى الجديد في الترجمة لأحمد بن يوسف، وعرفني نواحي ثقافته المختلفة، وطبيعة عصره وتفكيره، وطبيعة شخصيته. وكل ذلك كان له أثر طيب فيما كتبت عنه، وعن دراسة مؤلفه عن (سيرة ابن طولون) في (الفصلين : الأول، والثاني من الباب الأول).

٣ - رسالة دكتوراه : (الحياة العلمية في قرطبة على عهد الناصر، والمستنصر) للباحث مصطفى محمد إبراهيم، بكلية اللغة العربية - جامعة الأزهر. وقد أفادتني تلك الدراسة الجديدة في الإنلام بالحياة الثقافية في الأندلس في (الفصل التمهيدي). وكذلك تعرفت منجزات مؤرخي

دراسة في أهم المصادر والمراجع

الأندلس في ذلك العهد الزاهر، وأفادتني في دراستي المفصلة التحليلية المنهجية لمؤلفات هؤلاء المؤرخين في (البابين : الثاني، والثالث) من هذا الكتاب.

سادساً وأخيراً - مراجع أجنبية :

لم تسنح للباحث الفرصة كافية لمطالعة قدر من المراجع الأجنبية؛ نظراً لضخامة وكثافة المراجع العربية، لكن ذلك لم يمنع من مطالعة بعض الكتابات، التي تطرقت إلى هذا الموضوع المنهجي، الذي يحتاج إلى مراجعة المصادر العربية أكثر من مطالعة ما كُتب بأقلام أجنبية. ومما أفاد في هذا الموضوع دراسة (بونس بويجس) بالإسبانية عن عدد من مؤرخي الأندلس الداخلين في الدراسة، مثل : ابن الفرضي، والخشني، وغيرهما. وكذلك ما كتبه توري في (مقدمة فتوح مصر لابن عبد الحكم)، وجست في مقدمة (الولاة، والقضاة للكندي) من دراسة منهجية في تحليل الموارد، وكذلك ما ذكر عن ابن الربيع ومؤلفاته، وما ورد من أسماء مؤلفات الكندي المفقودة الأخرى، ومحاولة بيان ما تدور حوله من موضوعات.

وهكذا، سطر قلمي هذه العجالة السريعة، التي كتبتها - بإيجاز - عن عدد من مصادر ومراجع الكتاب، وإيجابيات بعضها وسلباتها، ومدى إفادتنا منها في أبواب الكتاب المختلفة.

القسم الأول

الدراسة التمهيدية لمناهج المؤرخين
(مصر والأندلس في القرن الرابع الهجرى)

ويشمل هذا القسم:

- أولاً - الأوضاع السياسية في مصر والأندلس .
- ثانياً - الأوضاع الاقتصادية في مصر والأندلس .
- ثالثاً - الأوضاع الاجتماعية في مصر والأندلس .
- رابعاً - الأوضاع الثقافية في مصر والأندلس .

مدخل

نحاول - في صدر دراستنا عن: (التاريخ والمؤرخين في مصر والأندلس في القرن الرابع الهجرى) - أن نعطي صورة واضحة شاملة، بأسلوب مركز، لمصر والأندلس في القرن المشار إليه سلفاً. ويأتى ذلك من خلال رسم الملامح العامة، وبيان الخطوط العريضة للأوضاع السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية في كلا الإقليمين موضع الدراسة.

وغنى عن البيان أن هذا التمهيد لا يُقصد لذاته قصداً، وإنما هو مجرد وسيلة فعّالة لخدمة الموضوع الأساسى، بمعنى: أننا ما دمنا ندرس ونحلل المصادر التاريخية، التى أبدعتها قرائح مؤرخى البلدين، فلا بد من إلمامة - تُقَدَّر بِقَدْرها - بالظروف السياسية، التى نشأ وعاش - فى ظلها - هؤلاء المؤرخون. ولما كانت السياسة موجّهة للاقتصاد فى ذلك العصر - وفى كل عصر - رأينا الإبانة عن أهم الملامح والمعالِم الاقتصادية المؤثرة فى كلتا المنطقتين. ومعلوم أن مردود الأوضاع السياسية والاقتصادية ينعكس - سلباً وإيجاباً - على أفراد المجتمع، ويؤثر فى تشكيل أدقّ دقائقه، وأخصّ خصوصياته، من طبائع وسلوكيات، وطرائق للتفكير، وعادات وتقاليد، ومطاعم ومشارب، وأعياد وأساليب احتفالات، إلى غير ذلك من الأمور المهمة، التى حَدَثَ بنا لبيان مجمل الأحوال الاجتماعية.

وأخيراً، فإن الظروف السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية جميعها تصب - فى النهاية - وتؤثر فى تشكيل الأوضاع الثقافية لأى مجتمع من المجتمعات. وإذا كان المؤرخون فى طليعة المثقفين المتأثرين بكل هاتيك الظروف السابقة، أيقناً ضرورة التعرض لها؛ لأجل إخراج دراسة محكمة عن التاريخ والمؤرخين فى ذلك العصر، فالمؤرخ يراقب - عن كثب، وعلى بصره - الأحداث التى يعاصرها ويتأثر بها حتماً، سواء عند التأريخ لها، أم الكتابة عما سبقها. ولما كانت كتابات المؤرخين هى خلاصة تجاربهم وأفكارهم وثقافتهم فى هذه الحياة؛ فقد رأيت التعرض السريع للحو الثقافي العام فى كل من: مصر، والأندلس؛ كى أبرز صورة واقعية للعلم وللعلماء عامة (وللمؤرخين خاصة)، تأثرت - ولا شك - بمعطيات السياسة، ومتجهات الاقتصاد، وخصائص المجتمع، فأفرزت لنا ما نعتز به من كتابات تاريخية فى مصر والأندلس فى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى، مهمة هذه الدراسة أن تجلّى جوانب هذا التأثير من خلال تراجم المؤرخين، ودراسة مؤلفاتهم بواسطة بيان محتوياتها، ومصادر معلوماتها، ومناهج عرضها، ونقد وتقويم لبعض أحداثها، كل ذلك فى إطار منهجى مقارن يضع الكتابات التاريخية المصرية والأندلسية فى الميزان.

أولاً - الأوضاع السياسية في مصر والأندلس

في القرن الرابع الهجري

(٣٠٠ - ٣٩٩ هـ / ٩١٢ - ١٠٠٨ م)

أ - الأوضاع السياسية في مصر:

بعد سقوط الدولة الطولونية على يد القائد العباسي (محمد بن سليمان) في مستهل ربيع الأول سنة ٢٩٢ هـ^(١)، عادت مصر ثانية إلى عهد التبعية للخلافة العباسية. وورد كتاب الخليفة العباسي المكتفي (٢٨٩ - ٢٩٥ هـ / ٩٠٢ - ٩٠٨ م) بولاية الحسين بن أحمد على الخراج، وجعل إليه النظر في أمر بني طولون وضياعهم، ثم ورد منه كتاب آخر بولاية عيسى التوشري^(٢) على مصر^(٣).

تسلم الوالي الجديد عمله في مصر لسبع خلون من جمادى الآخرة سنة ٢٩٢ هـ^(٤). وفي عهده وقعت أحداث ابن الخليلج^(٥)، ذلك القائد المصري الذي تخلف عن جيش محمد بن سليمان عند مغادرته مصر، واستمال إليه بعض الجنود وغيرهم حتى كثرت جموعه، يبغي الاستقلال بالبلاد عن سيطرة الخلافة. ولم يستطع الوالي التوشري مقاومة ابن الخليلج؛ الذي

(١) الكندي: كتاب الولاة (ط. جست) ص ٢٤٧.

(٢) له ترجمة في (سير أعلام النبلاء)، للذهبي ٤٦/٤١ (ط. مؤسسة الرسالة - بيروت)، وأخرى ضافية في: (النجوم الزاهرة)، لابن تغري بردي (ط. دار الكتب العلمية - بيروت) ج ٣ ص ١٦٢-١٧٣. وذكر السمعاني أن هذا اللقب منسوب إلى (توشري)؛ ولم يرد تعريف به (الأنساب، ط. دار الكتب العلمية - بيروت) ٥٣٦/٥.

(٣) الكندي: كتاب الولاة ص ٢٥٨.

(٤) المصدر السابق: ص ٢٥٨.

(٥) لمزيد من التفاصيل تراجع: تاريخ الطبري (ط. دار المعارف): ج ١٠ ص ١١٩-١٢١، ١٢٨-١٢٩، وصفة تاريخ الطبري، لغريب بن سعد القرطبي (ضمن ذبول تاريخ الطبري، ج ١١، ط. دار المعارف) ص ٢٠-٢١، و(الكامل) لابن الأثير (ط. دار الكتب العلمية - بيروت)، ج ٦ ص ٤٢٨، والعبير للذهبي ٤٢٢/١-٤٢٣، و(تاريخ الإسلام) للذهبي ج ٢٢ ص ١٢، ١٤، والبداءة والنهاية، لابن كثير (ط. دار الريان للتراث) ج ١١ ص ١٠٧، وتاريخ ابن خلدون ٤٤٤/٣ (ط. دار الفكر)، و(النجوم الزاهرة) لابن تغري بردي ج ٣ ص ١٦٤-١٦٩، ولين بول: سيرة القاهرة (مترجم) ص ٩٥، و(مصر في عصر الطولونيين والإخشيديين)، للدكتور حسن محمود، ود. سيدة كاشف: ص ١٢٨-١٢٩، و(مصر العربية الإسلامية)، للدكتور الخربوطلي ص ٨٦، والعلاقات بين الشام ومصر، للدكتور زهبد ص ١٧٦-١٧٧، والشرطة في مصر الإسلامية، لأحمد ناصف ١٨٦، ٢٢١، ورسالة دكتوراه: (التيارات المذهبية والفرعات التحررية) لحسن عبد الحميد حبر ص ١٨٦-١٩٢.

ألقى الهزيمة ببعض القواد؛ مما جعل الخلافة تُهرَع إلى إرسال جيش بقيادة فاتك مولى المعتضد، ومعه القائد بدر الحَمَامِي^(١). وازداد قلق الخلافة، حتى إن الخليفة نفسه أعد مضاربه، يغبى الخروج على رأس جيش آخر؛ للقضاء على هذا الناصر، إلا أن الأخبار توافدت بهزيمة ابن الخليفة وأُسره لست خلون من رجب سنة ٢٩٣هـ^(٢)، ثم أمر به وحُمِل إلى بغداد ومعه وجوه أصحابه، فطُيِف بهم هناك؛ ثم قُتل شر قتلة. ومرت سنوات حكم هذا الوالي، يسودها الاضطراب وعدم الاستقرار، إلى أن وافته المنيّة لأربع بقين من شعبان سنة ٢٩٧هـ.

ولى أبو منصور تَكِين^(٣) حكم مصر لإحدى عشرة خلت من شوال سنة ٢٩٧هـ من قِبَل الخليفة العباسي المقتدر بالله (٢٩٥هـ - ٣٢٠ / ٩٠٨ - ٩٣٢م)، وصدرت إليه الأوامر بالجد في أمر المغرب والاحتراس من العبيدين هناك؛ مما دفعه إلى إرسال جيش كثيف بقيادة (أحمد بن صالح)، الذي نجح في فرض سيطرته على برقة، وجبى منها الأموال، وسار حتى سُرَتْ^(٤)، لكنه واجه جيشاً عبيدياً بقيادة (حَبَاسَة بن يوسف الكَتَامِي)^(٥). ولم يستطع أى من القائدَين فرض إرادته على الآخر، فلجأ حَبَاسَة إلى إضعاف غريمه بإخباره عن عزم الوالي تَكِين على عزله عن برقة؛ مما جعله يعود القَهْقَرَى إلى مصر، ويترك المجال رحباً لحَصْنَه، يستولى عليه أنى شاء^(٦)!

اضطر تَكِين إلى إرسال جيش آخر إلى برقة بقيادة خير المنصوري، وعبد العزيز بن كُليب، لكنهما تنازعا، ففَشِلَا، وذهبت ريجهما، فهزمهما جيش حَبَاسَة، فارتدَّا إلى مصر، تاركين برقة لعدوهما^(٧).

أحوال مصر السياسية من (سنة ٣٠٠ - ٣٢٣هـ / ٩١٢ - ٩٣٥م):

بعد سقوط برقة في أيدي العبيدين كتب والى مصر تَكِين كتاباً إلى صاحب إفريقية، وجعله على لسان أمير المؤمنين الخليفة المقتدر بالله العباسي، يدعو فيه إلى الطاعة والتمسك بها، وكان ذلك

(١) نسبة إلى الحمام الذي يُقْتَنى (الأنساب ٢/٢٥٥).

(٢) الكندي: الولاة ص ٢٦٧.

(٣) ترجم له ابن تَعْرَى بَرْدَى في (النجوم الزاهرة) ح ٣ ص ١٩١-١٩٤.

(٤) مدينة على ساحل البحر الرومي (الأبيض) بين برقة وطرابلس، لأهلها غُل، وبساتين، وآبار غنية، وهم من أسوأ الناس معاملة، لا يبيعون ولا يتاعون إلا بسعر قد اتفق جميعهم عليه، وهم بذلك يختلفون عن أهل طرابلس، فوى الأخلاق الحسنة، والمعاملة الحيدة. (معجم البلدان، لياقوت، ط. دار الكتب العلمية) ج ٣ ص ٢٣٢-٣٣.

(٥) ورد في (الأنساب)، للسمعان في مادة: (الحَبَاسِي) ج ٢ ص ١٦٣: أن هذه النسبة إلى (حَبَاسَة) بنفخ الحاء، وهو قائد الجيش، الذي واه من الغرب بطلب مصر، أيام المقتدر بالله.

(٦) الكندي: الولاة ص ٢٦٨، والمقريزي: المغنى (ط. دار الغرب الإسلامي) ج ٢ ص ٦٠١.

(٧) المصدران السابقان: الجزء نفسه، والصفحة نفسها.

سنة ٣٠٠هـ. وقد حرص تكين - قبل إنفاذ هذه الرسالة - على جمع وجوه أهل مصر، وقرأها عليهم^(١). ولى على هذا النص الفريد، الذى يكاد يتفرد بالسبق إليه المؤرخ المصرى الكندى، تعليق يسير، وهو أنه أراد بهذا الكتاب، الذى كان على يقين من تجاهل العبيدين له، أن يُعَرِّجهم أمام المنخدعين بهم في مصر، ويكشف بغيتهم وخروجهم على الخلافة العباسية^(٢)، فيقف الناس على حقيقة هؤلاء، فإذا غرّوا مصر، كان الشعب ومثله على بينة من أمرهم، فيتم التلاحم بينهم وبين الجيش لمطاردة الغزاة.

كانت هزيمة جيش تكين في برقة^(٣)، ثم وَقَعَ كتابه المشار إليه سلفاً إلى العبيدين من أكبر الدواعى، التى حفزت جيوشهم للمضى قدماً تجاه مصر للاستيلاء عليها. ففى يوم السبت لثمان خلون من شهر المحرم سنة ٣٠٢هـ، قدمت جيوش حباسة بن يوسف من برقة إلى الإسكندرية، واستنجد تكين بجيوش الخلافة، فأعانته بجيش عليه القاسم بن سيما، ثم تبعه دخول الحسين بن أحمد المادرائى ومحمد بن على بن أحمد المادرائى؛ لتدبير شئون مصر الإدارية والمالية أثناء تلك الظروف العصيبة. كما وفد إلى مصر عدد من القادة الكبار، مثل: أحمد بن كَيْغَلُغ، وغيره. وخرج عامة أهل مصر وخاصتهم على قلب رجل واحد، يصعدون اعتداءات العبيدين، وأبلوا في قتالهم بلاء حسناً، حَلَّتْ على إثره الهزيمة الفادحة بجيوش العبيدين، حتى اضطّر حباسة إلى الانسحاب لإفريقية، حيث قتله صاحبها؛ نتيجة فشله الذريع في تلك الموقعة^(٤).

(١) الكندى: الولاة ص ٢٦٨-٢٦٩، والمقريزى: المغنى - نقلاً عن الكندى دون أن يذكر، فيما أرى - ج ٢ ص ٦٠١. وترى د. سيدة كاشف أن ذلك من قبيل الشورى (مصر في عصر الإخشيديين) ص ٢٦، و(مصر في عصر الطولونيين والإخشيديين - القسم الثانى) ص ١٣٠. الحق أنها لو كانت شورى، لأحضر كزار القوم قبل أن يكتب الكتاب، وكذلك قبل استشارة الخلافة، لكن الرواية تفيد أنه أحضرهم بعد إبرام الأمر وانقضائه، فهو لا يبنى منهم رأياً ولا مشورة، وإنما يخططهم به علماً.

(٢) رسالة دكتوراه حسن عبد الحميد حير: (التيارات المذهبية، والزعات التحررية في مصر من منتصف القرن الثالث الهجرى إلى منتصف القرن الرابع الهجرى) ص ٢١٠.

(٣) د. سيدة كاشف: مصر في عصر الإخشيديين ص ٢٦، ود. عبد الله جمال الدين: الدولة الفاطمية: قيامها ببلاد المغرب وانتقالها إلى مصر ص ٩٥.

(٤) تاريخ الطبرى ١٠/١٤٩-١٥٠، وصلته ص ٥١-٥٢، والولاة للكندى ص ٢٦٨-٢٧٣، وتكملة تاريخ الطبرى، للهمدان (ط. دار المعارف، ضمن ذيل تاريخ الطبرى، ج ١١) ص ٢١٧، وسير أعلام النبلاء، للذهبي ١٤/٢٢٣-٢٢٤، وتاريخ الإسلام، للذهبي (ط. دار الكتاب العربى - بيروت، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمرى: ج ٢٣ ص ١٦، واتعاط الخفا للمقريزى (ط. ١٩٤٨)، تحقيق: د. الشبال) ج ١ ص ٩٩-١٠٠، والمُغْنَى للمقريزى ج ٣ ص ١٥٢، وبحث الدكتور حسن على حسن بعنوان: (أبعاد النشاط السياسى والعسكرى في استيلاء الفاطميين على مصر)، المنشور في مجلة: (ندوة التاريخ الإسلامى بكلية دار العلوم - المجلد الرابع ١٩٨٤م) ص ٣٢٢-٣٣٦.

قدم مؤنس بجيوشه من قبل الخلافة إلى مصر، فقام بعزل الوالى تكين عن مصر^(١)، وأقام بالفسطاط يُصَرِّفُ شئون البلاد، مطلق اليد في تصريف أمورها، حتى قدم كتاب المقندر بتولية **ذُكا الأعور**^(٢)، فدخلها يوم السبت لاثنتي عشرة ليلة خلت من صفر سنة ٣٠٣هـ. وخرج مؤنس عن مصر في ربيع الآخر من العام نفسه يقود جيوشه راجعاً إلى دار الخلافة^(٣)، بعد استقرار الأحوال في مصر.

بدأ الوالى ذكا عهده باتخاذ عدد من التدابير الوقائية؛ تحسباً لمحى جيوش المهدي إلى مصر ثانية. وقد قام - في هذا الصدد - بالقبض على عدد ممن يكتابون المهدي، ويوافونه بأخبار مصر، ويُطلعون على أسرارها ونقاط الضعف بها، وسجن كثيراً منهم، وتُكَلِّمُهم بقطع أيديهم وأرجلهم؛ حتى يرتدع الآخرون. وبعد ذلك اهتم اهتماماً خاصاً بالإسكندرية، باعتبارها المكان الذى يُلج منه الأعداء سريعاً إلى داخل مصر، ولا بد أنه أقام التحصينات الدفاعية اللازمة، كما عمرها بالجند والمقاتلة، ورتب لها القواد، يتفقدون شئونها بين الحين والآخر، بقيادة ابنه مُظفر، الذى ولّاه المدينة نفسها^(٤).

وفي شهر صفر سنة ٣٠٧هـ، قدمت جيوش القائم ولّى عهد المهدي إلى الإسكندرية، ويبدو أنه دخل نقواته على حين غفلة من جندها وأهلها؛ مؤملاً الدخول سريعاً إلى الفسطاط. وشاع الرعب والفرع بين الناس ففروا إلى الشام برأً وبحراً، وتعرض أكثر الفارين للهلاك. وأراد الوالى ذكا الخروج بجنده إلى الجزيرة؛ استعداداً للقاء الأعداء، لكن الجند أبوا الانصياع لأوامره، وسألوه العطاء. ويبدو أنه نجح في إرضاء الجند بعد جُهد جهيد، وصرف لهم الحسين بن أحمد الماذرائي العطاء. وقام ذكا ببناء حصن على الجسر الغربى بالجزيرة، وحفر خندقاً يحيط بالجزيرة ويعسكره داخلها؛ حرصاً على الدفاع عنها، لكن المرض داهم الوالى، فتخطفت يد الردى بغتة، وهو مقيم بين جنده في شهر ربيع الآخر سنة ٣٠٧هـ^(٥).

نظراً لخبرة وكفاءة تكين الحربية في مواجهة جيوش المغاربة، أعادته الخلافة إلى ولاية مصر ثانية، فكان عند حسن الظن به، فأتم استعداداته البرية بحفر خندق ثان حول الجزيرة. ويبدو أن قيادة الجيش

(١) وذكرت د. سيدة كاشف أن سبب عزل تكين غير معلوم، والراجح أن كبار القواد المقربين من الخليفة كان لهم

سلطان واسع، وفي استطاعتهم عزل الولاة الذين يقدون لحدهم. (مصر في عصر الإخشيديين ص ٣٠).

(٢) له ترجمة في (النجوم الزاهرة) ج ٣ ص ٢٠٧-٢٠٨. هكذا ضبط بالفنح في (الولاة) ص ٢٧٣. وذكر أنه بالضم،

وأن اسمه بالإغريقية ducas وأنه رومى الأصل:

Iane - Poole: A history of Egypt in the middle ages, P. 80

(٣) الكندى: الولاة ص ٢٧٣.

(٤) الكندى: الولاة ص ٢٧٤، والمقريزى: الخطط ١/٣٢٨.

(٥) الكندى: الولاة ص ٢٧٥-٢٧٦.

العبيدي فطنت إلى صعوبة الغزو البري، ففاجأت جيش تكين بأسطول بحري، يحاول غزو مصر من طريق البحر بقيادة سليمان الخادم، فأمدت الخلافة مصر بأسطول من طرسوس عليه (تُمل الخادم)^(١)، استطاع الإجهاز على أسطول المغاربة، وساعدقم رياح هُوج عاتية تجاه الأعداء، أغرقت مراكبهم، فسقط جندهم بين أسير وقتيل. ولما كان للعبيدين قوات برية بالقيوم وغيرها، فقد تكفلت بها جيوش الخلافة التي أقبلت مسرعة إلى مصر بقيادة مؤنس الخادم، الذي طهر البلاد منهم، وفروا أمامه لا يُلَـوون على شئ إلى برقة، بينما عاد مؤنس وتكبين بقواتهما إلى الجزيرة في ربيع الأول سنة ٣٠٩هـ^(٢). ولم يرحل مؤنس عن مصر - كعادته - إلا بعد أن أبعد نفوذ تكين عن مصر بعزله عن ولايتها، وصرفه إلى الشام^(٣).

ولي مصر هلال بن بدر في ربيع الآخر سنة ٣٠٩هـ، فلم يستطع السيطرة على الجند الرجالة (المشاة) والبحرين، الذين كان يحرضهم محمد بن طاهر صاحب الشرطة؛ للمطالبة بأرزاقهم. وقام بالقبض على صاحب الشرطة وأخيه، وأمر بقتلهما، لكن الأحوال ازدادت سوءاً عبّر عنه الكندي بقوله: "وكانت مصر في أيام هلال من النهب والقتل والفساد على نهاية"^(٤).

حاول الخليفة المقتدر إصلاح الخلل الواقع في ولاية مصر، فعزل ابن بدر، وجعل مكانه (أحمد بن كينغ)^(٥)، وذلك أواخر شهر رجب سنة ٣١١هـ. وقد بدأ عهده باتخاذ إجراءات عقابية مشددة ضد الجند المشاغبين، ولكن شدته جوهت بثور عنيفة، ألقت به خارج القساط، فلم يجرؤ على دخولها؛ مما أدى إلى عزله^(٦)، وتولية تكين مكانه شئون مصر للمرة

(١) ترجم له المقريزي في (المقفي): ج ٢ ص ٦٤٦-٦٤٧، وذكر أنه توفي سنة ٣١١هـ.

(٢) صلة تاريخ الطبرى: ص ٧٣، ٧٥، ٧٨، والولاة ص ٢٧٥-٢٧٧، وتكملة تاريخ الطبرى ص ٢١٧، ونهاية الأرب للنبوي ٤١/٢٨، وتاريخ ابن الوردي ٣٥٣/١، ومروءة الجنان، للباقي ٢٤٦/٢، واتعاط الحنفا (ط. ١٩٤٨م)، تحقق: د. الشيبان) ج ١ ص ١٠٣-١٠٤، والنجوم الزاهرة ٢١٩/٣-٢٢٠، والقبروان ودورها في الحضارة الإسلامية، للدكتور محمد زيتون ١٤٠، وبحت الدكتور حسن على حسن: (أبعاد النشاط السياسي والعسكري في استيلاء الفاطميين على مصر)، نشر في مجلة (ندوة التاريخ الإسلامي بكلية دار العلوم - المجلد الرابع ١٩٨٤م) ص ٣٣٦-٣٤٤.

(٣) الكندي: الولاة ص ٢٧٨. وعلقت د. سيدة كاشف على هذا العزل بأنها ترجح أن مؤنساً كان يعتقد علي تكين؛ لأنه محبوب من أهل مصر. وأقول: إن ابن تغري بردي في (النجوم) ج ٣ ص ٢٢٥، زاد هذا الأمر توضيحاً، وذكر اعتراض أهل مصر على عزل تكين، وإلحاق أعيانها على مؤنس أن يعيده؛ حتى لا تحدث فتنة، فاضطر لإعادته أربعة أيام فقط، حتى رتب مؤنس أموره، وأقنع القواد بعزله، ثم عزله، وأخرجهم من مصر؛ خوف الفتنة. وقد نقلت د. سيدة كاشف ذلك عن المصدر المذكور، وذكرته في: (مصر في عصر الإخشيديين) ص ٣٤.

(٤) الولاة: ص ٢٧٩. وترجم له كل من: المقريزي في (المخطوط): ٣٢٨/١، وابن تغري بردي في (النجوم): ٢٢٦/٣-٢٢٧.

(٥) ترجم له المقريزي في (المقفي): ج ١ ص ٥٦٩-٥٧٢، وأشار إلى شاعرته، وأورد له بعض الأشعار، وذكر وفاته سنة ٣٣٠هـ.

(٦) الكندي: الولاة ص ٢٨٠-٢٨١. ابن تغري بردي: النجوم ٢٣٢/٣.

الثالثة، ففرض هيئته على الجند، وأسقط الرجالة الثائرين منهم، ونفاهم خارج القسطنطينية؛ مما أدى إلى هدوء الأحوال، واستقرار وأمن الناس، فأتوا إليه - وقد اكتسب جبههم واحترامهم - يقدمون له أسمى آيات الشكر والعرفان، بعد أن خلصهم من فساد الجند ونهبهم وفجورهم. وظلت مصر تنعم في ظل الأمير تكين، حتى لَبَّى نداء ربه في السادس عشر من ربيع الأول سنة ٣٢١هـ^(١) مُخْلَفًا وراءه أثرًا طيبًا؛ نتيجة حسن السياسة، والدُرَّة بالأمور، ومعرفة الحروب^(٢).

تدهورت شئون مصر بعد وفاة تكين، فحفلت بصراع مرير بين محمد بن تكين وصاحب الخراج محمد بن علي المافرائي، وصراعات طوائف الجند المشاركة والمغاربة^(٣)، وتَحَطَّت الخلافة في تولية وعزل الولاة في مصر، لدرجة أنها وَلَّت أحد ولاتها - وهو مقيم بدمشق - على مصر، فلم يستطع دخولها؛ لكثرة الاضطرابات بها، وظل على ذلك مدة اثنين وثلاثين يومًا، ثم عُزِل عنها، وهو لم يدخلها بعد^(٤).

ويمكن تلخيص أهم سمات تلك الفترة فيما يلي:

١- شيوع الاضطرابات وعدم الاستقرار الداخلي؛ نتيجة صراع الجند والرعية^(٥) من جهة، وصراعات وانقسامات طوائف الجند من جهة أخرى. والشعب المصري يعاني الأمرين من ذلك الفساد، إضافة إلى معاناته من ولاة عاجزين، وعمال خراج مستبدين، وجيوش هائلة متوالية، تزارحهم في ديارهم، وتضيق عليهم في مآكلهم ومشاربهم، يقدم بها مؤنس الخادم، وقواد العباسيين، في أثناء حملات المغاربة وفي أعقابها. وأثر كثرة تغيير الولاة بَلَّه^(٦) الصالحون الأكفء منهم (مثل: تكين) تأثيراً سيئاً للغاية في حياة الناس، فأبدلهم بالأمن خوفاً، وأيقنوا معه أن الخلافة لا يحكمها في التولية والعزل إلا مصالحها الخاصة، دون اعتبار لمصلحة الشعب، ودون إدراك نمو

(١) الكندي: الولاة ص ٢٨٠-٢٨١. وقد علل ابن تغري بردي إعادة تكين لولاية مصر للمرة الثالثة سنة ٣١١هـ، بأن ذلك كان حرصاً من الخلافة على دفع المخاطر المحتملة للعبيدين على مصر، وتكين - بالطبع - أجدر من يلي هذا الأمر بحكم نجاحاته السابقة. (النجوم الزاهرة ٣/٢٣٢-٢٣٣).

(٢) ابن تغري بردي: (النجوم الزاهرة) ج ٣ ص ٢٣٧.

(٣) تفاصيل هذه المواجهات أوردتها الكندي في (الولاة) ص ٢٨٢-٢٨٤.

(٤) للمصدر السابق: ص ٢٨٢، وزاينابور: معجم الأسرات الحاكمة (مترجم) ص ٤٢. وهذا الوالي هو مؤسس الدولة الإخشيدية بعد، إنه (عبد بن طُغْج الإخشيد).

(٥) كان ذلك في عهد الوالي (ذكا الأعور) سنة ٣٠٥هـ، حينما ذُكر الصحابة والقرآن بما لا يليق (الولاة: ص ٧٤، والنجوم ٣/٢٠٨).

(٦) اسم فعل بمعنى: دُغ، ويكون ما بعدها منصوباً، أو تكون مصدرًا، ويكون ما بعدها مجروراً. وقد تكون بمعنى كيف (كما هو هنا)، ويكون ما بعدها مرفوعاً. (المعجم الوسيط)، مادة: (ب. ل. ة). ج ١/٧٣.

روح الاستقلالية فيه بعد أن ذاقها زمن الطولونيين، وتطلع إليها في ثورة ابن الخليلج^(١). فلم يعد شعب مصر بعد الطولونيين كما كان قبلهم^(٢)، لكنهم - جهالة منهم - ساسوه السياسة نفسها، فدفعوه دفعاً للالتفاف حول أول داعٍ إلى رعاية مصالحه، والاستقلال عن الخلافة، كما سنرى.

٢- التعرض لخطر العبيدين الخارجى:

تطلع العبيدون نحو احتلال مصر، يدفهم إلى ذلك أهداف يريدون تحقيقها: مذهبية، وسياسية، واقتصادية، وأمنية^(٣). وهناك مجموعة من العوامل شجعتهم للتعبيل بمحاولة تحقيق تلك الأهداف^(٤)، منها: أهمية موقع مصر الإستراتيجي، وما تتمتع به من ثراء وخيرات، لا تقارن بها طبيعة بلاد المغرب المجردة القاحلة. وكذلك الضعف الداخلى الذى تعانيه مصر في تلك الآونة، ووجود نشاط شعبي مسترر بها، ومكاتبات ومراسلات تشجع هؤلاء على القدوم إلى مصر، بل تحثهم على ذلك^(٥). وأخيراً، حالة الضعف والتفكك الذى تعانيه الخلافة العباسية^(٦)، والضربات المتتالية، التى تعرض لها على أيدي القرامطة^(٧). لذلك كله، انتهز العبيدون الفرصة، وحاربوا كلاً من: مصر، والخلافة العباسية عن طريق الهجمات الحربية المباشرة، والمؤامرات غير المباشرة^(٨)، ولئن لم تحقق نتائجها المرجوة لأسباب

(١) رغم أنما لم تكن على المستوى المأمول، وصاحبها أفسد ديار مصر، وتركها يباباً من كثرة الفتن والمصادرات والظلم، الذى لحق أعيان البلد، وإن كان إذا أخذ من أحد شيئاً، أعطاه إيصلاً، ووعد به برء ما أخذ منه أنام الخراج، لكنه - في النهاية - كما قال صاحب النجوم في شعر استشهد به:

رام نفعاً وضّرّ من غير قصد
ومن البر ما يكون عقوقاً
(النجوم الزاهرة: ج ٣ ص ١٦٧، ١٧١).

(٢) معالم تاريخ المغرب والأندلس، للدكتور مؤنس ص ٥٧.

(٣) تفاصيل ذلك في بحث د. حسن على حسن (مجلة ندوة التاريخ - مجلد ٤، سنة ١٩٨٤م) ص ٢٩٥-٣١٠، ورسالة ماجستير (التخطيط الإعلامى للدعوة الفاطمية في مصر)، للباحث شعبان أبى الزيد ص ١٦١-٦٧.

(٤) من هنا لا يصح عندي ما أورده القاضي النعمان في (المجالس والمسابقات) ص ٢٥٢، حيث زعم المهدي أن فتح مصر لن يتم على يديه، ولكنه يرسل ابنه على رأس الجيوش إلى مصر؛ كي لا يضع الجهاد، وأنه إن نقل الأمر على القائم، فحُض المهدي له بنفسه، وهذه دعاية كاذبة؛ لأنه لا يعنى الغيب إلا الله. وقد سعوا حثيثاً لفتح مصر، لكن الظروف لم تكن مواتية لهم.

(٥) الكندي: الولاة ص ٢٦٨، ٢٧٢، ٢٧٤، والخطوط ٢/٣٣٤، ٣٤٠، والنجوم ٣/٢٢٠، د. حسن إبراهيم حسن: الفاطميون في مصر ص ٨٩، د. سيدة كاشف: مصر في عصر الإخشيديين ص ٢٨، والقرآن وعلومه في مصر للدكتور البري ص ٨٣.

(٦) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٩٨/١٥، ١٠١-١٠٤، وابن كثير: البداية والنهاية ١١/١٩٦-١٩٧، والنجوم ٣/٢٧٢، وشاكر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون ١/٢٦٩-٢٧٠.

(٧) النجوم ٣/٢٩٩، وعطية القوصي: تجارة مصر في البحر الأحمر ص ٥٨-٥٩.

(٨) مثل: مقتل المعتز على أيدي بعض دعاة البربر المغاربة، وأثره الخطير في دار الخلافة، وفي جند مصر (صلة تاريخ الطبرى ص ١٥٦-١٥٧، ومسكويه: تجارب الأمم ١/٢٣٧، وابن الأثير: الحلة السيرة ١/٢٨٩، والذهبي: تاريخ الإسلام ٦٠٤/٢٣).

عديدة^(١) فقد كانت خطوة مهمة على الطريق، كان من الممكن أن تصل إلى نهايتها المأمولة، لولا قيام الدولة الإخشيدية في مصر، الذي أجل تحقيق أحلامهم في السيطرة على مصر إلى حين.

أحوال مصر السياسية تحت حكم الإخشيديين (٣٢٣-٣٥٨هـ/٩٣٥-٩٦٩م):

هذه مرحلة جديدة من مراحل الحياة السياسية في مصر في ذلك القرن، بما وضع والى مصر الجديد نهاية لعصر الفوضى والضعف والاضطرابات، وحظيت مصر في عهده بكثير من الأمن والاستقرار.

ولاية محمد بن طُغج^(٢) على مصر:

منذ ولاية ابن طغج الصورية الأولى على مصر^(٣)، وهو يرقب الأحداث، ويعد العدة للاستيلاء على ولاية مصر^(٤)، في وقت أصبحت فيه الغلبة للأقوى، ولم يعد للخلافة سيطرة على ولاياتها، وغدا تقليد الخلافة لولاها لا يحظى بشئ من الاحترام، وصارت القوى هي اللغة الوحيدة التي يفهمها الوالى القديم، وذوو المصلحة في الإبقاء عليه؛ حتى يسلموا مقاليد السلطة للوالى الجديد^(٥).

انتهر محمد بن طغج حالة الفوضى السابقة، وتحرك في كلا الإطارين السياسى والعسكرى؛ للوصول إلى مآربه. فعلى المستوى السياسى نجح في استغلال نفوذه صهره الوزير الفضل بن جعفر في الحصول على تقليد منه بولايته على مصر^(٦). وعلى المستوى العسكرى، حاول التفاهم

(١) منها: مهارة وصلابة الوالى تكين، وجهود المصريين، ومشاكل وقلقل المغرب الداخلية، واهتمام الخلافة الفائق وإرسالها الجيوش إلى مصر (الوزراء للصائى ٣٨٠-٣٨١، ود. على إبراهيم حسن: مصر في العصور الوسطى ص٢١٦).

(٢) تفسيره: عبد الرحمن. (المغرب)، لابن سعيد (الجزء الأول من القسم الخاص بمصر) ص١٤٩، ولهاية الأرب للنورى ٤٤/٢٨.

(٣) ورد كتاب ولايته من قبل (القاهر بالله) يوم الأحد ٧ من رمضان ٣٢١هـ (الولاية ص٢٨٢).

(٤) أقصد: أنه يأخذ في الاستعداد الحاسم لدخول مصر وامتلاكها بالقوة المسلحة، التي أخذ في تكوينها وتنميتها وتوطيد نفوذه عن طريقها ببلاد الشام منذ ولايته على الرملة، ثم دمشق المشار إليها سلفاً. (العلاقات بين الشام ومصر في المهدين: الطولون، والإخشيدى)، للدكتور زبود ص٢٧٧-٢٧٩.

(٥) وذلك واضح من الصراع السياسى والحربى على ولاية مصر بين محمد بن تكين، وأحمد بن كيغلف في ولايته الثانية وأتصارهما، وتخطيط الخلافة في التولية والعزل لأكثر من وال، وفي الصلاحيات الواسعة المغطاة للمأذرائى (الولاية ص٢٨٢-٢٨٥، والعلاقات بين الشام ومصر في المهدين الطولون والإخشيدى ص٢٧٩).

(٦) المغرب، لابن سعيد (الجزء الأول من القسم الخاص بمصر): ص١٥٧. وكان الإخشيد قد زوّج ابنته من جعفر بن الفضل بن جعفر، وتوطدت العلاقة بينهما، وكان الفضل بن جعفر ولى الوزارة للخليفة المقنن سنة ٣٢٠هـ (الكامل، لابن الأثير ٧٢/٧). ثم لما ولى الخليفة الراضى، استعمله على شئون الخراج في مصر والشام، فاشترط -

مع (محمد بن علي الماذرائي) المسيطر على شئون مصر الإدارية والمالية؛ ليرتبه يدخل إلى مصر دون صدام. فلما فشلت المحاولة^(١)، لم يجد مفرًا من دخول مصر بقواته برًا وبحرًا. وقد أحرر الوالي ابن كيغلف^(٢) على دخول معركة، لم يكن يريد خوضها، أرغمه عليها الماذرائي، الذي لا يريد لوال قوى كابين طغج أن يكون له سلطان بجانبه. ونجحت قوات ابن طغج في دخول مصر برًا وبحرًا، وألحق الهزيمة بقوات ابن كيغلف، الذي لم يجد بُدًا من التسليم بعد أن عاين قوة بن طغج واستبسال جنده، بينما رأى جنده هو يطلبون الأمان، ولا يشتبون عند النزال^(٣).

وعلى صعيد آخر، رفض الجند المغاربة بقيادة (جشني بن أحمد) التسليم لابن طغج، وأنفوا المقام مع رجل حاربوه وقاوموه، وسينقلص نفوذهم المادي والمعنوي إلى حوار شخصيته المهيبة الخازمة. سار هؤلاء الجند ومعهم قادتهم نحو الفيوم، فأرسل إليهم ابن طغج قائده صاعدًا في مراكبه، الذي اشتبك معهم في معركة، أسفرت عن هزيمة صاعد وأسرته وقلته مع أصحابه، وذلك في شهر شوال سنة ٣٢٣هـ. وشجعهم ذلك على مهاجمة القسطنطينية، فتصدى لهم ابن طغج ففروا إلى الإسكندرية، ومنها إلى بركة، وكتبوا صاحب إفريقية أن يرسل إليهم جيشًا، يستولون به على مصر، فهم أقدر الناس معرفة بطرقها، وسبل السيطرة عليها. لكن القدر لم يمهل القائد حبشيًا، فاعتزل، ثم وافته منيته؛ متحسرًا على ما خلفه بمصر^(٤)، وذلك في صفر سنة ٣٢٤هـ. بعد ذلك قاد بحكم الجند المغاربة بعد محي مدد العبيدين، متوجهًا نحو مصر، فسارع ابن طغج بإخراج جيوشه إلى الصعيد والإسكندرية بقيادة أخيه الحسن، والقائد صالح بن نافع، فأحرقوا النصر على المغاربة، وطيف بالأسرى منهم، وذلك في شهر جمادى الآخرة في سنة ٣٢٤هـ^(٥).

- على كل من: الخليفة، ووزير محمد بن علي بن مُقْلَة أن يكون له مطلق التصرف في هذا الأمر، فالشاهد يرى ما لا يرى الغائب، فوافقه على ذلك. فلما جاء إلى مصر، كتب للإحتشيد بولاية مصر؛ استنادًا إلى الشرط السابق (المغرب، لابن سعيد - قسم مصر - ص ١٥٧).

- (١) المصدر السابق: ١٥٧، ود. سيدة كاشف: مصر في عصر الإحتشيديين: ص ٧١.
- (٢) ذكر القلقشندي في (صبح الأعشى) ج ٣ ص ٤٢٥: أن القاهر بالله ولي (محمد بن طغج) على مصر سنة ٢١هـ، ثم ولي (أحمد بن كيغلف) ثانية ٣٢٣هـ. وأقره عليها المكنتي ثم المستكني بالله بعده. وهذا كلام يماي الحقائق التاريخية الناجية؛ إذ لم يذكر ولاية محمد بن طغج الثانية، التي امتدت من ٣٢٣-٣٣٤هـ، والتي عاصر فيها الخليفة الراضى (٣٢٢ ٣٢٩هـ)، والمنفي لله (٣٢٩-٣٣٣هـ)، ثم المستكني (٣٣٣-٣٣٤هـ).
- (٣) البوالة ص ٢٨٥-٢٨٦، والمغرب (قسم مصر) ص ١٥٨-١٥٩، ونهاية الأرب ٢٨/٤٥، والخطط ٣٢٩/١، والنجوم الزاهرة ٣/٢٧٨، ود. سيدة كاشف: مصر في عصر الإحتشيديين ٧٢-٧٣.

(٤) المغرب (قسم مصر) ص ١٦١.

- (٥) البوالة ٢٨٦-٢٨٨، والمغرب (قسم مصر) ص ١٥٩، ١٦١، ونهاية الأرب ٢٨/٤٥-٤٦، والخطط ٣٢٩/١، واتعاظ الحنفا (ط. المجلس الأعلى) ج ١/٧٤، والنجوم ٣/٢٨٨-٢٨٩، ود. سيدة كاشف: مصر في عصر الإحتشيديين ٧٤-٧٥، ونعت د. حسن علي في (مجلة ندوة التاريخ) - المجلد الرابع ص ٣٤٥-٣٤٨.

تمكن محمد بن طفج من فرض إرادته وولايته على مصر، عن طريق قوته الحربية، التي استطاع بها أن يحقق الانتصارات العسكرية سائلة الذكر في الداخل والخارج على سواء. وقد توطد ملكه بمصر وتثبت برضا الخلافة العباسية عنه^(١)، واطمأنها إلى قوته، واستقرار مصر في عهده، وقدرته على حمايتها من مطامع العبيدين بالمغرب^(٢). فلا غرَؤ في أن يسارع الخليفة الراضي إلى توليته على مصر (صلاً، وحرماً، وخراجاً)^(٣)، فتم له بذلك السيطرة الإدارية، والمالية على تلك الولاية المهمة من ولايات الخلافة. ولا عجب - أيضاً - في أن تجمع له الخلافة بين ولايتي مصر، والشام معا^(٤) فيحقق بذلك الوحدة المصرية الشامية التقليدية، التي ستمنحه فرصة نادرة بعد ذلك للاستقلال بدولته في ظل شرعية الخلافة، واحترامها، وكسب ودها. وأخيراً، لم يخل الخليفة الراضي على ابن طفج بمنحه اللقب^(٥) الذي غنى، بما يتلاءم مع نفوذه الكبير، ومكانته السامية.

علاقات الإخشيد بقوى عصره:

لم يكن من الممكن أن يبلغ الإخشيد ما بلغ من نفوذ وتوسعات، وامتلاك لزم

(١) كان الإخشيد حسن الطاعة للخليفة الراضي، ويرسل إليه الهدايا الرائعة التي تغلب اللب. وفي المقابل يقول الصولي: ما رأيت الراضي يقرض أحداً تقريبه الأمر أباً بكر محمد بن طفج، وكان يستحسن هداياه، ويفرق علينا منها، وكان يصفه بأنه رجل كبير العقل، حسن الطاعة، وهو لا يدري بم كفايته (أخبار الراضي بالله، والمتقى لله) من كتاب (الأوراق) للصول ص ٤٤. وفي المقابل أرسل الراضي إلى الإخشيد - بعد توليته مصر والشام - رسول خاص من لدنه، يحمل الخلع إليه، والطورق، والسوارين؛ تعبيراً عن عظيم مكانته عنده. وقد استقبل ابن طفج، والوزير الفضل بن جعفر هذا الرسول في مصر سنة ٣٢٤هـ، وذلك في احتفال كبير، وركب ابن طفج إلى الجامع العتيق ومعه الوزير، فجلس فيه، وعليه خلع الراضي (المغرب) لابن سعيد (قسم مصر) ص ١٦٥-١٦٦.

(٢) وقد أورد ابن سعيد في (المغرب) بالقسم الخاص بمصر ص ١٦٦: أن الراضي كتب إلى الإخشيد كتاباً - أرسله بعد كتاب الإخشيد إليه في شعبان ٣٢٤هـ بشأن ضياع الماترائي في مصر والشام - يأمره فيه بالحد في أمر المغاربة، وقتال عساكرهم، وإنفاذ العساكر إليهم. ولا شك أن هذا ورد بعد صد ابن طفج المغاربة، وفرار فلولهم المنهزمة إلى برقة. ولعل الراضي لم يقنع بذلك، فأراد مبادأهم بالمجوم. إلا أن ابن طفج رأى بعقله الكبير انتشال المغاربة عنه بقلقلهم، وانتهاجهم سياسة مسالمة معه، بما لا بدع بحالاً لفتح جبهة جديدة عليه وعلى الخلافة لا داعي لها.

(٣) الولاة ٢٨٦.

(٤) تجارب الأمم، لمسنكوتيه ج ١ ص ٣٣٢، وتسكملة تاريخ الطبري، للمهذبان ص ٢٩٨، والكامل لابن الأثير ٧/ ١٢٦، وتاريخ الإسلام للذهبي ٣٤/ ٢٤.

(٥) وهو لقب الإخشيد (بالدال، أو بالنال)، ويعني: ملك الملوك بالتركية (سمر أعلام النبلاء ٣٦٦/ ١٥، والنجوم الزاهرة ٣/ ٢٦٩). وورد كتاب الراضي به، ودُعي به على المنبر في رمضان ٣٢٧هـ (الولاة ٢٨٨، ووفيات الأعيان ٥٨/ ٥، والمغرب - قسم مصر - ص ١٧٤). أما ما ذكرته د. سيدة كاشف في كتاب (مصر في عصر الإخشيديين) ص ٥٥ (هامش ١)، من أن ابن سعيد يرى أن تاريخ منح الراضي ابن طفج لقب الإخشيد كان سنة ٣٢٦هـ، فغير دقيق؛ لأن الرجل جعله تاريخ كتاب ابن طفج إلى الراضي يطلب إليه فيه تلقيه بهذا اللقب (المغرب ١٧٣)، ثم رد عليه بمنحه إياه سنة ٣٢٧هـ. وكذلك لا يصح تاريخ ٣٢٨هـ، الذي ذكره النويري لمنح اللقب (لمائة الأرب ٤٦/ ٢٨).

الأمر في مصر والشام دون أن يصطدم برجالات عصره، ذوى النفوذ الكبير، والتأثير العظيم في مجريات الأمور بدار الخلافة، تلك القوى التي كانت ترقب بزوغ نجم الإخشيد بكثير من الخوف والقلق، وتلقى في رُوع الخلافة مخاطر انفراد الإخشيد بحكم مصر والشام، وما يمكن أن يفضي إليه ذلك من تكرار تجربة استقلال الطولونيين عن الخلافة.

١- علاقته بأمر الأمراء ابن رائق:

كانت الخلافة العباسية في عهد الخليفة الراضى بالله تعالى أشد المعاناة من الضعف والانحلال، وكان الخليفة المذكور - وقد تعاونت عليه علله وشهواته - ليس له من أمر شيء، وكان يستعين على تصريف أمور الدولة (أو بغداد بالأحرى) بإحدى الشخصيات القيادية الفذة، التي منحها منصب (أمير الأمراء)، تلك هي شخصية (محمد ابن رائق)^(١)، الذي سيطر على مقاليد السلطة في العراق، وتطلع إلى بلاد الشام؛ لتقليص نفوذ الإخشيد بها^(٢)، ثم النفاذ منها إلى مصر بعد ذلك.

تقدم ابن رائق بقواته سريعاً نحو الشام، وسيطر على دمشق سنة ٣٢٧هـ؛ مما دفع الإخشيد لتجهيز جيش، يقوده بنفسه لمواجهة ابن رائق، وذلك في المحرم سنة ٣٢٨هـ، لكن سفراء الصلح بين الطرفين حققوا الدماء. وتم الاتفاق على تسليم ابن رائق مدينة الرملة^(٣) للإخشيد^(٤).

نجح ابن رائق في هجوم مباغت سريع في السيطرة على كثير من مدن الشام، وتوجه نحو مصر. جرت معركة شديدة مع الإخشيد وقواته بالعريش، انتهت بانتصار الإخشيد، الذي عادت قواته مظفرة بالأسرى وروعس القتلى إلى القسطنطينية في شوال سنة ٣٢٨هـ. وفي النهاية عقد صلح بين الطرفين امتلك بموجبه ابن رائق الشام إلى الرملة، واتفق أن يرسل له الإخشيد ١٤٠ ألف دينار سنوياً^(٥).

(١) حول مكانة ابن رائق وسيطرته على مقاليد الأمور، يمكن مراجعة: كتاب (أخبار الراضى بالله) للوصول ص ٤٢-٤٤، ١٤٦، ٢٠٩، والكامل لابن الأثير ١٢٣/٧، ووفيات الأعيان ٤٢٥/٣، وسير أعلام النبلاء ١٥/٣٢٥-٣٢٦، وتاريخ الإسلام ٢٤/٢١، ٦٦، والبداءة والنهاية ١١/١٩٧، وتاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٤٤٦، ومصر في عصر الإخشيديين ٧٩-٨٠.

(٢) خاصة أنه ارتفعت مكانته لدى الراضى، وغدا منافساً لابن رائق. ولعل ما أسرَّ به الراضى لبعض جلسائه من تمجيد إحلال الإخشيد محل ابن رائق وصل إلى مسامح الأحرار، بعد تغير الراضى عليه (أخبار الراضى بالله) ص ٤٥، ١٠٢-١٠٣، ١٤٣.

(٣) مدينة عظيمة بفلسطين، كانت رباطاً للمسلمين. احتفظها الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك، وكانت موضع اهتمام الخلفاء في مختلف العصور، وتفرج فيها عدد من العلماء والأئمة. (معجم البلدان ٣/٧٩-٨٠).

(٤) الولاة ٢٨٨-٢٨٩، والمغرب (قسم مصر) ص ١٧٨-١٨٠.

(٥) تكملة تاريخ الطبري ٣٢٢، وتاريخ الإسلام للنذري ٥٧/٢٤، والمقني ٥/٦٥٨.

لقد أسفر اتفاق الإخشيد وابن رائق عن مكاسب واضحة للأخير^(١)، لكن القدر عاجل ابن رائق، ففقد حياته على يد الحمدانيين سنة ٣٣٠هـ^(٢)، فانتهاز الإخشيد الفرصة، وأرسل جيوشه إلى الشام مع علي بن محمد بن كلا^(٣)، ثم خرج بنفسه وبسط نفوذه على بلاد الشام وتسلمها ثانية، وعاد إلى مصر في جمادى الأولى سنة ٣٣١هـ^(٤). وبعد عودته أحس أنه أصبح من القوة وبسط النفوذ في كل من: مصر والشام، بحيث يمكنه أخذ البيعة - دون رجوع إلى الخلافة المتهالكة - لآبته أونوجور على جميع القواد، وذلك في آخر ذي القعدة ٣٣١هـ^(٥).

٢- علاقته بالخليفة العباسي المتقي لله (٣٢٩-٣٣٣هـ):

ولا أقصد بهذه الجزئية أن الخليفة المتقي كان من القوة والنفوذ المادى، بحيث يعد من رجالات تلك الفترة المؤثرين في أحداثها؛ إذ الوقائع التالية تثبت خلاف ذلك تماماً. لكنني أعرض للقاء الإخشيد به؛ لألقى الضوء بطريق غير مباشر على الشخصيات المؤثرة، مثل: أمير الأمراء توزون التركي، وأمراء الحمدانيين، ثم ما نتج عن هذا اللقاء من نتائج، تتعلق بالإخشيد، وأسرته، وممتلكاته بالشام.

تعد فترة حكم الخليفة المتقي لله امتداداً لفترة الضعف، الذي عانته الخلافة أيام سلفه الراضى، بل ازداد نفوذ الأتراك اتساعاً، ودخل في حلبة الصراع أطراف آخرون كالحمدانيين، وكلهم يحاول بسط نفوذه والتحكم في مجريات الأمور، والخليفة بينهم حائر لا حول له ولا قوة، يلتمس النصراء المدافعين عنه. وبلغ به الأمر أن أرسل يستنجد بالحمدانيين من هول بطش ونفوذ أمير الأمراء توزون التركي. وبالفعل أرسل ناصر الدولة جيشاً بقيادة ابن عمه (الحسين بن سعيد)، وتمكنوا من إخراج الخليفة في حرمة، وأهله، ووزيره، وبعض أعيان بغداد. وحدثت مواجهات بين توزون والحمدانيين هُزم فيها الحمدانيون، وتقهقروا إلى الموصل، ثم إلى قريب من بلاد الشام^(٦). وأقام الخليفة في حماية الحمدانيين، حتى

(١) وقد دافع عن موقف الإخشيد من هذا الاتفاق، وعذره عملاً له ما يبرره من الظروف المحيطة به كل من: د. حسن

إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ١٤٥/٣، د. زبد: العلاقات بين الشام ومصر ص ٢٩٨.

(٢) حول ظروف مقتله راجع: (أخبار الراضى بالله) ص ٢٢٦، وتجارب الأمم ٢٧/٢-٢٨ (وذكر أنه قُتل بالموصل

على يد غلمان أبي محمد الحسن بن عبد الله بن حمدان، المعروف بـ (ناصر الدولة)، وتكملة تاريخ الطبرى ص-

٣٣٢-٣٣٣، و(خطوط تاريخ دمشق ٣٢٥/١٥، ووفيات الأعيان ١١٨/٥).

(٣) الولاة ٢٩١.

(٤) الولاة: ٢٩١-٢٩٢، ونهاية الأرب ١٦٧/٢٣، والبداية والنهاية ٢١٥/١١.

(٥) المغرب (قسم مصر)، ص ١٩١ (كان الدعاء في مصر للخليفة المتقي، ثم للإخشيد، ثم لآبته أونوجور، ثم لعمه أبي

المظفر الحسن بن طغج)، والخطوط ٣٢٩/١، والنجوم ٢٩١/٣، وتاريخ الإسلام، للدكتور حسن إبراهيم حسن ٣

١٤٥/، و(مصر في عصر الإخشيديين) للدكتورة سيدة كاشف ص ٨٩.

(٦) كان ذلك خلال عامي ٣٣١-٣٣٢هـ (نهاية الأرب ١٧٠/٢٣-١٧٣، وتاريخ ابن خلدون ٢٩٨/٤).

أحسن منهم الضجر والسأم^(١)، ففكر في مراجعة توزون ببغداد. ويدلو أن الخليفة المتقي لم يكن يثق بحواب توزون ولا بتمام حماية الحمدانيين له، فأرسل إلى الإخشيد يشكو له حاله، ويستدعيه لحمايته. واقتصر الإخشيد تلك الفرصة الذهبية النادرة، وقدم بقواته، حاملاً الأموال والهدايا. وتم اللقاء بالرقة في منتصف المحرم سنة ٣٣٣هـ^(٢). وقد بالغ الخليفة في إكرام الإخشيد، وبالغ الإخشيد في احترام الخليفة وتقديره. وحمل الإخشيد إلى الخليفة الكثير من الأموال والهدايا والتحف الثمينة النادرة، وبراً وأحسن إلى جميع من مع الخليفة، وعلى رأسهم: وزيره أبو الحسين علي بن محمد بن مقلّة^(٣). وقد عرض الخليفة على الإخشيد أن يصطحبه إلى بغداد، ويولي إمرة الأمراء. وبعد موافقة سريعة، بادر الإخشيد إلى التخلص من هذا الأمر بذكاء^(٤). وفي الوقت نفسه عرض هو أن يصطحب الخليفة إلى مصر، أو يبقى ببلاد الشام ولا يعود إلى توزون. فالأمر لا أمان لهم، وهو على استعداد لإمداده بالأموال والرجال، لكن الخليفة اعتذر^(٥)، وكذلك اعتذر وزيره^(٦). وتحرك الخليفة في طريقه إلى بغداد، فتحققت مخاوف الإخشيد، وقبض توزون على الخليفة ووزيره^(٧)، ووكلَ بهما، وسُملتَ عينا المتقي، فدخل بغداد فاقد البصر، مخلوعاً من منصبه في المحرم ٣٣٣هـ^(٨)، بينما مرّ الإخشيد على بلاد الشام، فاطمأن على أوضاعها، ودير

(١) أقام عندهم المتقي من شهر ربيع الآخر سنة ٣٣٢هـ إلى غاية هذه السنة (راجع: تجارب الأمم ٦٧/٢، وتاريخ ابن خلدون ٥١٩/٣).

(٢) نهاية الأرب ١٧٦/٢٣. والرقعة: مدينة مشهورة على الفرات، بينها وبين حرّان ثلاثة أيام، وهي داخلية في بلاد الجزيرة؛ لأنها من جانب الفرات الشرقي (فهى واقعة بين العراق والشام). (معجم البلدان ٦٧/٣).

(٣) انفراد المسعودي بين المصادر يجعل كنيته (أبا الحسن)، وذلك في (مروج الذهب مجلد ٢، ص ٦٩٢)، ولعله تحريف من الناسخ. ويجب التفريق بينه وبين الوزير (محمد بن علي بن الحسن بن مقلّة)، الذي قبض عليه سنة ٣٢٦هـ، فقطعت يده، ثم لسانه بأمر ابن رائق؛ لتخريبه عليه. وسجن عامين حتى مات في عيبه ٣٢٨هـ. (راجع النجوم ٣/ ٣٠١-٣٠٢، ٣٠٨). ويُكنّى أن هذا الترجيح له ليس هو المصاحب للخليفة المتقي إلى الرقة، ويعلم على الظن أن المذكور أعلاه في المتن هو ابنه؛ بدليل استفساره عن أحوال ولده أبي الحسين أثناء معالجه يده بواسطة الطبيب ثابت بن سنان، وكانت تطيب نفسه عندما يبلغه الطبيب باستتار وسلامة ولده (وفيات الأعيان ١١٥/٥).

(٤) لما تدارك الموقف المتأزم، وأدرك الخطورة التي يمكن تعرض لها في بغداد، وضياح ملكه في مصر والشام، فاعتذر بأن العبيدين سيفزون مصر، فأمره الخليفة بالعودة سريعاً (المغرب - قسم مصر - ص ١٩٢).

(٥) فهو لا يريد أن يدع عاصمة ملكه، كما أن وسطاء الصلح بينه وبين توزون أكدوا له أنهم أخذوا عليه أغلظ الأيمان وأوثقها، وأشهدوا عليه القضاة والعلماء، أن يسمع ويطيع الخليفة في أمره ونهي، فوثق به الخليفة وصدقه (تجارب الأمم ٦٧/٢، والكمال ١٨٦/٧، وفوات الوفيات ١٧/١). ولا يصح ما ذكره د. علي إبراهيم حسن في (تاريخ جوهر الصقلي) ص ٢٨، من أن الإخشيد كان يفاوض توزون؛ ليعمده بحماية الخليفة.

(٦) وذلك مراعاة للخليفة المتقي (تاريخ الإسلام ١٢/٢٥).

(٧) ندم الوزير على عدم استحبابه لنصح الإخشيد له، فقد قبض عليه، ونهب ما منحه الإخشيد من أموال (تجارب الأمم ٦٨/٢). وكانت وزارته سنة، وخمسة أشهر، واثني عشر يوماً (الكمال ١٨٧/٧).

(٨) تجارب الأمم ٦٧/٢-٦٨، وتكملة تاريخ الطبري ص ٣٤٧، والكمال ١٨٦/٧-١٨٧، وتاريخ الإسلام ١١/٢٥-١٢، والنجوم ٢٩١/٣-٢٩٢. ومات توزون بعد جرمه في حق المتقي بأقل من عام، بينما مات الخليفة في -

شوتها^(١)، ثم عاد إلى مصر في جمادى الأولى سنة ٣٣٣هـ^(٢) تناوشه مشاعر متباينة، فهو - من جهة - يشعر بالغبطة والسرور بما أنعم عليه المتقى من توطيد ملكه في مصر والشام، وتوليته وأسرته حكم تلك البلاد مدة ثلاثين عاماً، يخلفه عليها من بعده ابنه (أونوجور)^(٣)، ومن جهة أخرى يملؤه الأسف على ما جرى للخليفة المتقى من إيناء وخلع. وعلى كل، فقد أقرّه الخليفة الجديد (المستكفى ٣٣٣-٣٣٤ هـ/٩٤٤-٩٤٦م) على مصر والشام، على ما جرت عليه عادة الخلفاء من قبل^(٤).

٣- علاقته بالحمدانيين

نركزها في النقاط الآتية:

- أ- دور الحمدانيين المؤثر في الصراع الدائر بين القوى المختلفة في عصر الخليفة المتقى لله، وقوة الإخشيد المتصاعدة في مصر والشام؛ مما أدى إلى صراع خفي بين القوتين.
- ب- تحول العداء المستر إلى صراع ظاهر سنة ٣٣٣هـ، تمكن سيف الدولة على أثره من السيطرة على حلب وسائر الشام، لكن الإخشيد سار بقوته، وهزم سيف الدولة، الذي ظل معسكراً رغم ذلك^(٥).
- ج- تيقن الإخشيد أن الانتصار على سيف الدولة ليس حاسماً؛ مما دفعه إلى الدخول في مفاوضات صلح معه في ربيع الأول سنة ٣٣٤هـ^(٦). وتم دعم الاتفاق بإقامة علاقة مصاهرة بينهما^(٧)، ثم توفي الإخشيد بعدها بقليل في دمشق في شهر ذى الحجة سنة ٣٣٤هـ^(٨).

= سجنه في شعبان ٣٥٧هـ (سمر أعلام النبلاء ١١١/١٥)، وتاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٤٥١.

(١) النجوم ٢٩٢/٣.

(٢) الولاة ٢٩٢، والنجوم ٢٩٢/٣-٢٩٣.

(٣) المغرب (قسم مصر): ص ١٩٢.

(٤) الولاة ٢٩٢، والنجوم ٢٩٣/٣.

(٥) الكامل ٢٠٣/٧، والمغرب (قسم مصر) ص ١٩٣-١٩٤، ومصر في عصر الإخشيديين ص ٣٥٠-٣٥١.

(٦) حول وجهة نظر الإخشيد في هذا الصلح ونصوصه يراجع: المغرب (قسم مصر) ١٩٤-١٩٥، وبنية الطلب ٥

/٢٤٠٩، وتاريخ الإسلام السياسي، للدكتور حسن إبراهيم حسن ١٢٨/٣، ومصر في العصور الوسطى

للدكتور علي إبراهيم حسن ٢٢٤، وبحث (دور الحمدانيين في حماية النفور الإسلامية) للدكتور فهمي عبد الجليل

في (ندوة التاريخ ع ٨، ١٩٩٠م ص ٢٤١-٢٤٢).

(٧) تكملة الهمدان ٣٥٢، وتاريخ الإسلام للذهبي ٢٥/٢٤.

(٨) الولاة (ط. جست) ص ٢٩٣.

وقبل أن نسدل الستار على فترة حكم الإخشيد، نركز سمات عصره في النقاط الآتية:

١- تميزت فترة حكم الإخشيد بشيوع الهدوء والاستقرار إلى حد بعيد^(١). وقد ساعد على تحقيق ذلك: شخصية الإخشيد القوية، وثباته في منصبه لفترة لا بأس بها^(٢)، وقضاؤه على الفتن في مهدها^(٣)، وحسن التنظيم الإداري لأجهزة دولته^(٤)، وإشرافه على تحقيق العدالة في البلاد^(٥). وبمقارنة يسيرة بين مصر والشام في عهده، وبين دولة الخلافة العباسية وحاضرتها (بغداد)، نجد الأمن والاستقرار في دولة الإخشيد، بينما الخلافة تُنتقص من أطرافها^(٦)، وتتلاحق الفتن بها، حتى نزح كثير من أهل بغداد وتجارها إلى مصر والشام مع الحجاج^(٧)؛ فراراً مما حلّ ببلادهم، وطلباً للسكينة والطمأنينة.

٢- حظيت دولة الإخشيد بجيش قوى وأسطول متمكن^(٨)، أحسن الإخشيد تكوينهما وإعدادهما، ورَدَّ بهما أطماع الداخل (أمير الأمراء ابن رائق، وسيف الدولة بن حمدان)، وأطماع الخارج (البيديين).

(١) لم تذكر المصادر سوى ثورة واحدة قام بها رجل علوى في مصر في عهد الإخشيد، ويدعى (ابن السراج)، قام بها في الصعيد، مستغلاً فرصة خروج الإخشيد؛ ليسط نفوذه على بلاد الشام بعد مقتل ابن رائق، إذ خرج بالجيش في السادس من شوال سنة ٣٣٠هـ. فلما خلت الفسطاط من الجند، خرج هذا الخارج في حركة لمب وسلب، ثم هرب إلى البيديين بالمغرب (الولاة ٢٩١، المغني ٤٥٣/٧، ود. سيدة كاشف: مصر في عصر الإخشيديين ٣٣٨). ولعله كان على صلة بالبيديين، وأوعزوا إليه بضرب الاستقرار في مصر.

(٢) من ٣٢٣-٣٣٤هـ. ودولته نموذج للدولة المستقلة عن سلطان الخلافة العباسية مع الاحتفاظ لها بسلطانها الروحية، مستقلة ما حل لها من ضعف وهرم (مقدمة ابن خلدون ٧٦٤/٢).

(٣) فضاؤه على تنازع المالكية والشافعية وأتباعهم في مصر، وكرهيته النجاح في مجلسه (المغرب - قسم مصر - ص ١٧٣، ١٨٢).

(٤) يمكن مراجعة ما يتصل بالنظام الإداري في العصر الإخشيدى (خاصة الشرطة) في: د. على إبراهيم حسن: مصر في العصور الوسطى ٣١٤-٣١٥، ود. سيدة كاشف: مصر في عصر الإخشيديين ص ١٥٥ وما بعدها، وأحمد عبد السلام ناصف: الشرطة في مصر الإسلامية ص ١٢٨.

(٥) عن طريق حلوسه للنظام (المغرب - قسم مصر - ص ١٩٠-١٩١، ومصر في عصر الإخشيديين ص ٢٢٨).

(٦) فمثلاً لم يبق للراضى سوى بغداد وأعمالها، والحكم فيها لابن رائق. وبقية أطراف الخلافة في أيدي المتغلبين عليها (فالبصرة في يد ابن رائق، وخوزستان في يد البريدي، وفارس في يد عماد الدولة بن بويه... والموصل، وديار بكر، ومُصَرّ، وربيعة في يد بني حمدان، ومصر والشام في يد الإخشيد، والمغرب وإفريقية في يد القائم، والأندلس في يد الناصر... والبحرين والهمامة في يد أبي طاهر القُرَيْطِيّ (تجارب الأمم ٣٦٦/١، والكامل ١٢٣/٧، وهامة الأربع ١٣٥-١٣٦).

(٧) نكتلة تاريخ الطبري (أحداث ٣٣١هـ): ص ٣٤٠، وتاريخ الإسلام ٦/٢٥.

(٨) يراجع: وفیات الأعيان ٥٩/٥، وسمر أعلام النبلاء ٣٦٦/١٥، وتاريخ الإسلام ٣٠/٢٥-٣١، ١١٢، والمخطوط ٨٦/١، ومصر في عصر الإخشيديين ص ٢٤٥ وما بعدها.

٣- نجح الإخشيد في إقامة علاقات سياسية متوازنة مع مختلف القوى ذات النفوذ الروحي والمادى - داخلياً وخارجياً - في عصره، فحصل على ما يريد من مُلك له ولولده من بعده في عهود الخلفاء العباسيين المعاصرين له (الراضى، والمتقى، والمستكفى، والمطيع)^(١)، مانحاً إليهم كل ود واحترام وتقدير. كما استخدم نظام المصالحات والمصاهرات السياسية مع المنافسين له (ابن رائق، وسيف الدولة) في الوقت المناسب. وأخيراً، نجح - بذكاء - في إقامة علاقات سلمية مع قوتي: الروم^(٢)، والبيديين في عهد القائم^(٣). وبذلك ضمن بقاء حكمه، وامتداد نفوذه، واتساع دولته.

مصر بعد الإخشيد:

بعد وصول نبأ وفاة الإخشيد إلى مصر في يوم الاثنين لليلتين خلتا من المحرم ٣٣٥ هـ^(٤)، دخلت البلاد منعطفاً جديداً بعد خلو مركز القيادة من مؤسس الدولة الإخشيدية. واجتمع أهل الرأى والحكم يتشاورون فيمن يلى الأمر بعده. ورغم وجود تقليد لأونوجور^(٥) أكبر أولاد الإخشيد بولاية العهد بعد أبيه، إلا أنه يبدو أن صغر سنه^(٦) جعل هؤلاء المجتمعين يترددون في توليته بادئ الأمر، خاصة في ظل وجود أمثال: محمد بن على المادرائى، والوزير جعفر بن الفضل بن جعفر بن الفرات، وصاحب الخراج محمد بن على بن مقاتل، وأبى المظفر الحسن بن طفج أخى الإخشيد. ولا بد أن يكون من هؤلاء من له تطلع إلى السلطة. ولم يطل التشاور بين هؤلاء الكبراء، حتى حسمه المادرائى لصالح أبى القاسم أونوجور بن الإخشيد. ولعل في كتاب التعزية، الذى أرسله الخليفة المطيع لأونوجور، وقرئ في المسجد الجامع، إقراراً من الخلافة بما تم الاستقرار عليه^(٧).

(١) الولاة ص ٢٩٣ (دعى للمطيع لله في مصر يوم الجمعة ٣ من شوال ٣٣٤ هـ)، وأقر الإخشيد على عمله (المغرب - قسم مصر - ص ١٩٥).

(٢) يلاحظ رد الإخشيد على كتاب رومانوس البيزنطى إليه، وما احتواه من بيان سياسة الإخشيد، وما يدل عليه من مكانته العظيمة لدى الروم (المغرب - قسم مصر - ص ١٦٧-١٧٢، وصبح الأعشى ١٠/٧-١٨).

(٣) يراجع في العلاقة بينهما: المغرب (قسم مصر) ص ١٧٥-١٧٧، وتاريخ الدولة الفاطمية، للدكتور حسن إبراهيم حسن ١١٩-١٢١.

(٤) الولاة ص ٢٩٣.

(٥) ويعنى بالعربية اسم (عمود). (وفيات الأعيان ٩٩/٤، وتاريخ الإسلام ١٥٠/٢٦). وقد وقع كلا المصدرين في وهم واحد؛ إذ ذكرا أن الراضى هو الذى عقد لأونوجور على ولاية مصر.

(٦) ولد أونوجور يوم الخميس التاسع من ذى الحجة سنة ٣١٩ هـ بدمشق (وفيات الأعيان ٩٩/٤). وهذا يعنى أنه ولى مصر وعمره حوالى ١٥ سنة.

(٧) حول ظروف تولية أونوجور مصر يراجع: مؤلف مجهول: الذيل على كتاب الولاة للكندى ص ٢٩٤، والمغرب (قسم مصر) ص ١٩٧-١٩٨، والمقننى ٣١٣/٢-٣١٤.

وفي شهر ربيع الأول سنة ٣٣٥هـ، ورد الخبر باستيلاء سيف الدولة بن حمدان على دمشق، وطَبْرَةَ، وتوجه نحو الديار المصرية، حتى وصل إلى الرملة، وأنه دُعي له على جميع منابر الشام. أفلق هذا الأمر أونوجور والقادة في مصر، فتحرّكت الجيوش على رأسها كافور غلام الإخشيد، وتم اللقاء بين الجانبين في معركة هائلة، هُزم فيها سيف الدولة، وارتدَّ إلى الشام، وتبعته جيوش مصر، فتخلّى عن دمشق وحلب، وهزم إلى الرقة^(١). واضطر سيف الدولة إزاء هذا الانكسار، الذي تعرضت له قواته إلى العود إلى اتفاق الصلح، الذي أبرم من قبل مع الإخشيد، فكانت دمشق لأونوجور، وحلب وما وراءها شمالاً في يد سيف الدولة، وأقر أونوجور يأنس المؤنسي على دمشق، وعاد بقواته مع عمه الحسن، وقائده كافور إلى مصر سالمين^(٢).

استغل أبو نصر غَلْبُون بن سعيد المغربي (متولى أسيوط وإلحيم من صعيد مصر) خروج الجيوش لمجابهة سيف الدولة بالشام، فخلع الطاعة، فأرسل إليه كافور من الشام جنداً محاربه، لكنه نجح في إنزال الهزيمة بهم واتسع نفوذه، فوصل إلى الشرقية، ومنها وصل إلى القسطنطينة، ونزل دار الإمارة بها، فخرجت إليه جماعة من الجند الإخشيدية، وطاردوه ولحقوا به وقتلوه، وخلصوا البلاد من شره المستطير، الذي أدى إلى تعطيل الحج في مصر؛ لشدة الانشغال بثورة هذا الثائر، وذلك في شهر ذي الحجة سنة ٣٣٦هـ^(٣).

يبدو أن المكانة التي شغلها كافور في عهد الإخشيد، ودوره في إلحاق الهزيمة بسيف الدولة بالشام باعتباره قائد الجيش، وجهوده في تهية الأوضاع بالشام، ثم خلو الساحة من بعض ذوى النفوذ والسيطرة في مصر آنذاك^(٤). كل ذلك مهّد له الأمر لفرض نفسه على مجريات الأمور، فأصبح مدير شئون أونوجور، والقائم على أمر ولايته. ووصل الأمر به أن شغل الأمير الحدث

(١) حول تفاصيل صراع كافور وسيف الدولة بالشام تراجع المصادر والمراجع الآتية: المغرب - قسم مصر - ص ١٩٧-١٩٨، ومختصر تاريخ دمشق ١٢٩/٢١، ولهاية الأرب ج ٢٨ ص ٥٠، ومرآة الجنان ٣١٩/٢، والبدية والنهاية ٢٢٧/١١، وتاريخ ابن خلدون ٣٠١/٤، وصبح الأعشى ١٦٤/٤، والمقفى ٣١٥/٢، ومصر في عصر الإخشيديين ص ٣٥٣-٣٥٤، والعلاقات بين الشام ومصر في العصرين الطولوني والإخشيدى، للدكتور زيود ٣١٥-٣١٧، وبحث (دور الحمدانيين في حماية النفور الإسلامية)، للدكتور فهمي عبد الجليل (في مجلة ندوة التاريخ)، العدد الثامن ١٩٩٠م، ص ٢٤٤-٢٤٥.

(٢) النجوم ٣/٣٣٥.

(٣) الذيل على كتاب الولاة للكندي ص ٢٩٥-٢٩٦، ولهاية الأرب ٥٠-٥١ و٢٨ و٣٦/٢٥، والمقفى ٣١٥/٢.

(٤) مثل: صاحب الخراج محمد بن علي بن مقاتل، الذي قبض عليه في بداية عهد أونوجور، وسجن حتى مات ٣٥٠هـ (المغرب - قسم مصر - ص ١٩٨، والمقفى ٣١٤/٢، والنجوم ٣/٣٧٦)، والحسن بن طافع الذي توفى سنة ٣٤٢هـ بالرملة (المصدر السابق ٣/٣٥٤). ومحمد بن علي الماذرائي الذي توفى ٣٤٥هـ (المصدر السابق ٣/٣٦١).

عن شئون البلاد^(١)، وأصبح هو الأمر الناهي، والحاكم الحقيقي لها. والظاهر أن الخلاف الذي دبَّ بين أونوجور وكافور تصاعد شيئاً فشيئاً بدءاً من سنة ٣٤٣هـ - بازدياد نفوذ كافور، حتى بلغ أوجَه سنة ٣٤٧هـ، بعد أن شبَّ أونوجور، وأصغى لوجوه الأمراء والقواد، الذين حرضوه، بل تأمروا معه ضد كافور؛ ليسترد ملكه المقتصب، وليدفع عن نفسه الحجر الذي فرضه كافور عليه، ولعله سيتم حياة اللهو والصيد والملاذات التي يعيشها. لكن كافوراً تنبه لذلك الأمر، وتدخلت أم أونوجور، وأصلحت بينهما؛ خوفاً على ابنها من بطش كافور، وإشفاقاً عليه من عواقب الفتنة^(٢) وظلت الأمور تسير على هذا النحو حتى توفي أونوجور - بعد مرض شديد ألَمَّ به - يوم السبت السابع، أو الثامن من ذى القعدة سنة ٣٤٩هـ، ودفن بالقدس عند أبيه^(٣).

بعد وفاة أونوجور بن الإخشيد، أقام كافور أخاه أبا الحسن على بن الإخشيد مكانه، وأقره الخليفة المطيع على إمرة مصر على الجند والخراج، وأضاف إليه الشام، كما كان لأبيه ولأخيه من قبل^(٤). وبالرغم من كبر سن عليّ نسبياً عن أخيه أونوجور عند ولايته مصر^(٥)، إلا أنه كان أضعف من أخيه وأقل شأنًا؛ نظراً لازدياد نفوذ كافور^(٦) عن ذى قبل.

وقد تعرضت مصر والشام وأقريطش^(٧) في عهده لنكبات متواليات، أسفرت عن تأمر سيف

(١) فكان يطلق كل عام ٤٠٠ ألف دينار (الخطط ٣٢٩/١، والنجوم ٣٣٤/٣)، ويتركه مُغرَى بالصيد والأكل والشرب والنزه (المقفى ٣١٧/٢).

(٢) تراجع ذلك الخلاف في: (تاريخ الإسلام ٢٥/٢١٨، وتاريخ ابن خلدون ٤/٤٠٨، والمقفى ٢/٣١٧) (وفيه أن أنوجور شكاً كافوراً لغاتك غلام أبيه الإخشيد، عندما ذهب إلى الفيوم، فوعده فاتك النصر، ثم لم يجرؤ على مخالفة كافور، فغضب أنوجور، ومهدى في لهو ولعبه).

(٣) وفيات الأعيان ٤/٩٩، والخطط ٣٢٩/١، (مع ملاحظة وجود تحريف - في الغالب - في تاريخ وفاته فجعل لفظة سبع بدلاً من تسع)، والنجوم ٣/٣٣٥.

(٤) النجوم ٣/٣٣٦. ذكر أن كنية (عليّ بن الإخشيد) هي (أبو الحسن) على سبيل التحريف.

(٥) فقد كان عمره حوالى ٢٣ سنة؛ لأنه ولد يوم الثلاثاء ٢٦ من صفر سنة ٣٢٢هـ بمصر (وفيات الأعيان ١٠/١).

(٦) هو كافور بن عبد الله الإخشيدى. كان عبداً لبعض أهل مصر، ثم اشتراه الإخشيد سنة ٣١٢هـ. وظل يترقى في المناصب، حتى غدا قائد جند ولَدَى الإخشيد؛ لنشاطه، وذكائه، وإخلاصه. وكان له موقع متميز لديه. وساعدته الظروف على الاستبداد بالحقم في مصر، وكان له فضل تأخير استيلاء البيهدين على مصر، وتوفي سنة ٣٥٧هـ (ترجمته في مصادر كثيرة، منها: المصدر السابق ٤/٩٩-١٠٥، والخطط ٢/٢٦٦-٢٧، ومخطوطة (ترجمان الزمان في تراجم الأعيان) لابن دقماق (نسخة مصورة عن أحمد الثالث) ورقة ٤٥-٤٦، والنجوم ٣/١٢-٢).

(٧) جزيرة مهمة يونانية تقع في بحر المغرب (الأبيض)، وهى جزيرة كريت الآن. (الأنساب ١/٢٠٠، ومعجم البلدان ١/٢٨٠، وهامش ٦ ص ١٢ تحقيق (عيون الأنباء) لابن أبي أصيبعة، وتعليق محقق (نهاية الأرب ج ٨ ص ١٢١، هامش ١). وحول فتح هذه الجزيرة وإرتباطها الإدارى بمصر، وسقوطها على يد رومانوس البيزنطى ٣٥٠هـ، واستنجاح أهلها بكافور وبالمز في المغرب، واستعداد المزم تحريك أسطوله بالتعاون مع أسطول مصر؛ لضرب الروم. لكن عدم استحابة مصر له، حمله يتراجع فيما يبدو. حول ذلك كله، وهدف المزم من وراء هذا التدخل تراجع: -

الدولة مع القرامطة، فأمدهم بما احتاجوا إليه من الحديد لتصنيع السلاح اللازم للهجوم على طَبْرِئَة، والاستيلاء عليها من أيدي على بن الإخشيد وجنده، وذلك سنة ٣٥٣هـ^(١). وكانت قد سبقتها اضطرابات في مصر سنة ٣٥١هـ؛ بسبب الغلاء الفاحش الذي تعرضت له مصر بعد انخفاض مياه النيل^(٢). ويبدو أن الروم استغلوا هذه الظروف القاسية، فهاجموا بلاد الشام، وامتلكوا كلاً من: حلب، والمَصْبِصَة، وطَرَسُوس^(٣). وظلت الأحوال تنتقل من سيئ إلى أسوأ، حتى مات على بن الإخشيد غليلاً لإحدى عشرة خلت من المحرم سنة ٣٥٥هـ^(٤).

استبد كافور بالأمر صراحة بعد موت على بن الإخشيد، وأعلن أنه ولي من قبل الخليفة المطيع على مصر والشام، وذلك في صفر ٣٥٥هـ^(٥)، رافضاً تولية (أحمد بن علي بن الإخشيد)؛ لصغر سنه^(٦). وفي فترة حكم كافور تلك لم تعرف البلاد الهناقة والاستقرار ما بين هجوم القرامطة^(٧)، والعبيدين^(٨)، والزلازل المروعة والقحط والمجاعات^(٩). ولم يستطع كافور - رغم كفاءته^(١٠) - السيطرة على شئون البلاد، حتى رحل عن دنيانا في جمادى الأولى سنة ٣٥٧هـ^(١١).

-
- المجالس والمساربات ص ٤٤٢-٤٤٧، والمز لدين الله، للدكتور حسن إبراهيم حسن وغيره ص ٤٨-٥١، وتاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام ص ٦٩.
- (١) البداية والنهاية ٢٧٠/١١، ومخطوط (عقد الجمان) للعيني (نسخة أحمد الثالث) ورقة ٤٨.
- (٢) المخطوط ٣٢٩/١-٣٣٠.
- (٣) وفيات الأعيان ٩٩/٤، وتاريخ الإسلام ١٥٠/٢٦.
- (٤) وفيات الأعيان ٩٩/٤، والنجوم ٣٧٤/٣.
- (٥) سمر أعلام النبلاء ١٩١/١٦.
- (٦) كان ابن إحدى عشرة سنة يوم وفاة كافور (النجوم ١١/٤).
- (٧) هاجم أعراب بني سليم ركب الحخيخ من مصر والشام سنة ٣٥٥هـ، وتمزق الناس في الصحارى، وفقد أهل الشام أموالهم، التي فروا بها من هجوم الروم عليهم (الكامل ٢٩٦/٧، ومرآة الجنان ٣٥٨/٢). ويبدو أن هؤلاء الأعراب كانوا من القرامطة - أو على صلة بهم - ويبدو أن كافوراً كان على علاقة حسنة بصاحب هَجَر القرمطى، إذ وافق رسله مصر، عائداً بما تيسر استرجاعه من مناع هؤلاء الحخيخ. ورد كافور ذلك المناع إلى أصحابه (الذيل على الولاة للكندي ص ٢٩٧).
- (٨) كان كافور يظهر الود واللين للمعز، ويظهر الخضوع للعباسيين، ويغدع هؤلاء وهؤلاء (سمر أعلام النبلاء ١٩٢/١٦).
- (٩) وكان يتبادل الهدايا مع المعز (مخطوطة عقد الجمان، نسخة أحمد الثالث، أحداث ٣٥٣هـ) ورقة ٤٤، وتاريخ الإسلام ١٥١/٢٦. لكن هذا لم يمنعه من صد حملة المعز على الواحات (المخطوط ٢٧/٢).
- (١٠) المصدر السابق ٢٧/٢.
- (١١) حول مواهب كافور وعناصر نجاحه في حكم مصر، لولا انخفاض النيل والكوارث (راجع: مخطوط أعيان المعصر وأعيان النصر - نسخة دار الكتب المصرية؛ للصفدي ورقة ١٤٣-١٤٤، والمخطوط ٢٠٧/٢، ومصر في عصر الإخشيديين ١٣٣-١٣٤).
- (١١) وهو المرجع عندى؛ بليل ما ذكره النهى، وابن خلدون من أنه ولي مستقلاً بمصر عامين، وأربعة أشهر (تاريخ الإسلام ١٥٢/٢٦، وتاريخ ابن خلدون ٤٠٩/٤).

اجتمع الرأي على تولية أبي الفوارس أحمد بن علي بن الإخشيد شئون مصر على أن يدبر له الأمر الوزير جعفر بن الفضل بن جعفر بن الفرات^(١)، لكن الدولة الإخشيدية كانت تعاني الاحتضار؛ نتيجة عدم وجود القيادات القادرة على انتشال البلاد مما هي فيه، ناهيك عن الأزمات الاقتصادية الطاحنة الناتجة عن نقصان مياه النيل؛ مما أدى إلى انتشار الأوبئة والمجاعات بين الناس^(٢)، بالإضافة إلى سيطرة الحسن بن عبيد الله بن طغج على الرملة، وأخذه البيعة لنفسه هناك، واحتجانه أموال كافور بالشام لنفسه^(٣)؛ مما عجل بمقدم جيوش العبيديين بقيادة جوهر، الذي لم يلق سوى مقاومة من بقايا الإخشيديين في مصر والشام^(٤)، استطاع بعدها أن يقنع أهل مصر أنه أمين على أرواحهم، وأموالهم، وعقائدهم، فدخلها دخول الفاتحين في شهر شعبان سنة ٣٥٨هـ^(٥).

مصر تحت نير^(٦) العبيديين من سنة (٣٥٨هـ - ٣٩٩هـ / ٩٦٩ - ١٠٠٨م)^(*):

رأينا - فيما مضى - كيف دأب العبيديون منذ بدايات القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، على توجيه الحملات العسكرية، واحدة تلو الأخرى إلى مصر؛ لإخضاعها لنفوذهم،

(١) له ترجمة في: (تاريخ بغداد، ٢٣٤/٧-٢٣٥، ومعجم الأدباء ١٦٣/٧-١٧٦).

(٢) المغرب (قسم مصر)، ص ٢٠١، والمخطوط ٩٩/١.

(٣) الذيل على كتاب الولاة ٢٩٧.

(٤) وفيات الأعيان ٦١/٥، وغاية الأرب ٦١/٢٨-٦٢، والنجوم ٣١/٤-٣٢.

(٥) حول أمان جوهر للشعب المصري براجع: اتعاظ الخفا (ط. الفكر العربي ١٩٤٨) ص ١٤٨-١٥٣، ومصر في عصر الإخشيديين ٣٦٦-٣٧٠، وذكوره حسن عبد الحميد ٢٦١-٢٦٤.

(٦) الخشية المفترضة فوق عنق الثور، أو عنق الثورين المقرونين؛ جَزَّ المِخْرَاتِ أو غيره. (المعجم الوسيط، مادة: ن.ى.ر) ج ٢ ص ١٠٠٥. وهذا يدل على مقدار ما سعيانه المصريون من قيود وأغلال تحت الحكم العبيدي.

(*) اختلف المؤرخون حول صحة ما ادَّعَوْهُ من الانتساب إلى (إسماعيل بن جعفر الصادق)، وانتهاء بالسيدة (فاطمة الزهراء)، التي لَقَّبُوا لأجل انتسابهم إليها بـ (الفاطميين):

١- من المؤيدين: ابن خلدون في: (أخبار ملوك بني عُبد وسيرهم) ص ٣٥، وبعدها، وابن الأثير في: (الكامل) ٤٤٦/٦-٤٤٨، والمقريزي في: (اتعاظ الخفا- ط. دار الفكر - ص ١٧، ٢٥-٧٠)، والمقفي ٥٢٣/٤-٥٧٠.

٢- ما عليه أغلب المحققين: وهم علماء أهل السنة والفتاوى من أصحاب التواريخ والأنساب، الذين يرون أنهم كاذبون فيما ادَّعَوْهُ من نسب؛ لأنهم رافضة خبيثاء. وهم أصل القرامطة، الذين هلك الدين على أيديهم. وأثبت الوثائق أن الصلة جد وثيقة بين العبيديين والقرامطة. (راجع: الفرق بين الفرق للبغدادي ص ٤١-٤٢، وجمهرة أنساب العرب لابن حزم (ط. بروفنسال) ص ٥٤، وكشف أسرار الباطنية للحمادي ص ٢٠-٢٩، ٣١ وما بعدها، والمُلل والنُحل للشهرستاني ١٤٧/١، ١٦٧-١٦٨، ١٩١، ومعالم الإيمان ٣/٣٤، وكتاب (فضية نسب الفاطميين أمام منهج النقد التاريخي) للدكتور عبد الحليم عويس.

٣- خلاصة الرأي عندى: أنه لا يصح نسب هؤلاء العبيديين؛ لعدم جدارتهم بالانتساب إلى بيت النبوة. ولو فرض - حداً - صحة نسبهم، فأعلمهم لا يحملهم جذرين حقيقة هذا الانتساب. وسبقنا إلى إقامهم جُلَّةَ المؤرخين -

ماواتهم ظروفهم الداخلية، وشجعتهم أحوال البلاد المصرية. وتعد آخر هذه المحاولات وأنجحها تلك الحملة التي قادها جوهر^(١) من قبل المعز، التي تضافرت على تحقيق أهدافها عدة عوامل سبقتها^(٢)، وسياسة متوازنة صحتها^(٣)، وأخيراً حُنْكة ومهارة في إدارة شئون البلاد تبعتها. والذي يعين في - المقام الأول - الخطوط العامة للسياسة، التي انتهجها جوهر في مصر بعد دخولها، ويمكن تركيز تلك الخطوط فيما يلي:

أولاً - بذل القائد جوهر جهوداً كبيرة؛ لبسط نفوذ الدولة الشيعية الإسماعيلية على كافة أنحاء مصر، مع قبضة كافة الأحواء فيها؛ لتستقبل سيده ومولاه المعز. ومن هنا، فقد بادر إلى إنشاء عاصمة للدولة الجديدة سميت (القاهرة)، وعُني بإنشاء قصر للمعز بها، يكون مقراً للحكم، وإقامة مسجد جامع بها، يكون مركزاً لنشر المذهب الشيعي للدولة الجديدة^(٤).

ثانياً - تخفيف المعاناة عن جموع الشعب المصري، الذي طحنته المجاعات سنوات

- النفات كالذهبي، الذي سُمّاهم العبيدين، ووصم من لقبهم بالخلفاء الفاطميين بألم جهة الناس (تاريخ الإسلام: ٢٣/٢٤). وأخيراً، فالحدث يقول: "وَمَنْ نَطَأَ بِهِ عَمَلَهُ، لَمْ يُسْرِغْ بِهِ نَسَبُهُ". (ذيل حديث طويل لرسول الله ﷺ)، أحرجه مسلم في (صحيحه)، كتاب (الذكر والدعاء)، باب (فضل الاجتماع على تلاوة القرآن) ج ٤ ص ٢٠٧٤ (رقم ٢٦٩٩). وشرحه النووي في شرح (صحيح مسلم) ج ١٧ ص ٢١-٢٢. وكذا أحرجه ابن ماجه في (سننه) في (المقدمة)، باب (فضل العناء والحث على طلب العلم) ج ١ ص ٨٢ (حديث ٢٢٥) بلفظ: "وَمَنْ أُنْطَأَ".
- (١) هو القائد أبو الحسن جوهر بن عبد الله الرومي، المعروف بـ (الكاتب). كان من موالى المعز، وارتفعت مكانته لديه بدءاً من سنة ٣٤٥هـ، وبلغ مكانة كبرى بفتح المغرب الأوسط والأقصى ٣٤٧هـ. وشرحه ذلك لإرسال المعز له في الجيوش إلى مصر، فكان عند حسن الظن به وفتحها ٣٥٨هـ، وضبط أمورها حتى دخلها مولاه ٣٦٢هـ. ثم خبا ذكره حتى ظهر أيام العزيز في حرب هفتكين التركي. توفي جوهر ٣٨١هـ. (مخطوط تاريخ دمشق ٥٣/٤، والكمال ٢٦١/٧، ٤٥٦، ووفيات الأعيان ٣٧٥/١-٣٨٠، والبيان المغرب ٢٤٥/١ وسير أعلام النبلاء ٤٦٧/١٦-٤٦٨، وتاريخ الإسلام ٣١/٢٧-٣٢، والوفاء بالوفيات ١١/٢٢٤-٢٢٦، والمخطوط ٣٧٧/١-٣٧٩، والنجوم ٢٩/٤-٣٥).
- (٢) تشمل في ضعف الخلافة العباسية وانسلاخها من مصر بالفتن والصراعات وما عانته مصر من مجاعات وقحط، وأوبئة وأمراض، ثم انتشار الدعاة العبيدين يتون أفكارهم بين الناس بحرية وعلاية، خاصة أيام حكم كافور، إلى جانب مكاتبات جعفر بن الفضل بن جعفر بن الفرات للمعز، وإغراقات ابن كلس له بالمغرب بالهني إلى مصر، إلى غير ذلك من العوامل الدعائية، التي تراعى تفاصيلها في: (النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة لابن سعيد ص ١٠١، وكرر الدرر ١٢٠/٦-١٢١، ١٢٨، ٢٢٦، وسير أعلام النبلاء ٤٦٧/١٦، وفوات الوفيات ٢٩٣/١، والفضائل الباهرة لابن ظهيرة ص ١٨٠، وصبح الأعشى ٣/٣٤٥، وتمام الحنفيا (ط. دار الفكر العربي) ص ١٤٣، والمخطوط ٢٧/٢، ومصر في عصر الإخشيديين، للذكورة سيده كاشف ص ٣٦٠-٣٦٥، وبمحت ذكور حسن على حسن في (مجلة ندوة التاريخ)، المجلد الرابع (١٩٨٤م) ص ٣٨٠-٣٨٩.
- (٣) في برد الأمان الذي أعطاه لأهل مصر (حللها كل من: علي إبراهيم حسن في: تاريخ جوهر الصقلي ص ٤٣-٤٤، ومصر في عصر الإخشيديين ص ٣٧٠، وبمحت د. حسن على في (مجلة ندوة التاريخ)، المجلد الرابع (١٩٨٤) ص ٣٨٠-٣٩٠، وماجستير شبان أبي الزيد عن (التخطيط الإعلامي) ص ١٣٥-١٣٨ وما بعدها).
- (٤) المخطوط ٣٧٨/١، ٢٧٤-٢٧٣/٢، وتمام الحنفيا (ط. دار الفكر العربي) ص ١٥٤-١٦٢، والنجوم ٣٥/٤ وما بعدها، وسَمَطُ النجوم العوالي ٤٠٧/٤.

متواليات، فاستحدثت من السياسات ما يضمن به توفير الأقوات لتلك الأفواه الجائعة، والبطلون الخاوية^(١). وفي الوقت نفسه اتبع طريق الحزم والشدة مع كل من يعكر صفو الأمن، أو يلجأ لأسلوب السلب والنهب، فضمن بذلك احترام ممتلكات الناس، وعم ترويع الآمنين منهم^(٢)، فاستقرت الأوضاع، ووثق الناس بما وعدهم في وثيقة الأمان. وسهّل ذلك عليه القضاء على شراذم الجند الإخشيدية ومن ثار معهم من القادة^(٣)، الذين ساءهم أن يفقدوا سلطاتهم ونفوذهم.

ثالثاً - بعد أن اطمأن الناس إلى عدله وكفائته^(٤)، أخذ في القيام بإجراءات وتعديلات إدارية ومذهبية متدرجة^(٥)؛ كى يضمن بها عدم ثورة الناس من جهة، وصيغ الدولة بالصيغة الشيعية، التي يدين بها من جهة أخرى.

رابعاً - وجّه جوهر القائد جعفر بن فلاح^(٦) إلى الشام؛ للسيطرة عليها، فالتقى بالرملة الحسن بن عبيد الله بن طنج (صاحب الشام)، فهزمه جعفر وأسره، وأرسله إلى مصر^(٧). ثم سار

(١) غاية الأرب ١٣٠/٢٨، وإغاثة الأمة بكشف الغمة، للمقريزي ص١٣، واناظر الحنفا (ط. دار الفكر العربي) ص ١٦٩، وتاريخ جوهر الصقلي، لعلي إبراهيم حسن ص٧٥.

(٢) سمر أعلام النبلاء ٤٦٧/١٦، واناظر الحنفا (ط. دار الفكر العربي) ص١٦٨، وتاريخ جوهر الصقلي ص٧٦، والشرطة في مصر الإسلامية ص٦٧.

(٣) مثل: ثورة القائد تير الإخشيدى، الذى ثار بأسفل الأرض، داعياً للخليفة المطيع لله، ولم يجب جوهرًا إلى الطاعة، وذلك في شعبان سنة ٣٥٩هـ، وأعمل النهب والسلب، فحورب، فاهزم وطورد، ففر يبريد الشام، لكنه قبض عليه في صور بالشام، وحُبس، فحرق نفسه، فمات سنة ٣٦٠هـ. (غاية الأرب ١٣٤/٢٨، والخطط ٤١٣/٢، والمقفى ٥٨٥/٢).

(٤) كان جوهر يجلس للمظالم كل أسبوع يوماً، ثم عين صاحباً للمظالم. وهذا يدل على مدى حرصه على رد الحقوق لأهلها، وإشاعة العدل، حتى أتى عليه الناس؛ لحسن سيرته فيهم. (وفيات الأعيان ٣٧٩/١، واناظر الحنفا (ط. دار الفكر العربي) ص١٦٥، ١٨١، والخطط ٢٠٧/٢، والنجوم ٣٤/٤).

(٥) ومثل ذلك في وضع موظف مغربى مع كل موظف مصرى في الدواوين، وكذلك مع القاضي المصرى أبى طاهر النُعلَى وُضِعَ قاضٍ للمغاربة (ابن توبان). وبالتدريج يتم إلغاء دور الموظف والقاضى المصرى؛ ليحل محله المغربى؛ لتلا بثور الناس. بالإضافة إلى تعديلات في الأذان، وزى الخطباء، وقطع الخطبة للعباسيين، وجعلها للمعز العبيدى، وغير ذلك من مبتدعات في العبادات. (أخبار الدول المنقطعة ص٢٩، وأخبار ملوك بنى عبّيد ص٥٠، والكامل ٧/٣٠٩-٣١٠، وغاية الأرب ١٣٣/٢٨، وكتر الدرر ١٣١/٦، وتاريخ الإسلام ٣١١/٢٧-٣٢٢، ومخطوطة (عيون التواريخ) - النسخة التيمورية ٥٦/١٢، والخطط ٢٧٠/٢، ٣٤٠، وتاريخ الدولة الفاطمية، للدكتور حسن إبراهيم حسن ص٣٠٧، وبحث (أهل الذمة والإدارة الإسلامية)، للدكتور فهمى عبد الجليل، المجلد الثانى، ١٩٨٢ (ص١٤٢).

(٦) له ترجمة في: (وفيات الأعيان ٣٦١/١-٣٦٢، وتاريخ الإسلام ٢٠١/٢٦).

(٧) البيان المغرب ٢٢١/١، وغاية الأرب ١٣٥/٢٨، وتاريخ ابن خلدون ٦١/٤-٦٢. وقد أرسله جوهر ومجموعة الإخشيديين من مصر إلى المغرب بالمغرب (تاريخ الإسلام ٤٤/٢٦، واناظر الحنفا - ط. دار الفكر العربي - ص١٦٧).

جعفر - بعد ذلك - إلى دمشق، فملكها سنة ٣٥٩هـ^(١). وفي سنة ٣٦٠هـ، غزا الحسن الأعصم^(٢) القُرْمِطِيَّ الرملة^(٣). وتقدمت جيوش القرامطة سريعاً، قاصدة السيطرة على مصر، فأخذ جوهر يتأهب لقتالهم، وقام بجفر عدة خنادق؛ للدفاع عن البلاد، وفرق السلاح على المغاربة والمصريين معاً؛ مما يدل على دقة موقفه وحرصه الشديد. وواصل القرامطة زحفهم حتى بلغوا (عين شمس) في المحرم سنة ٣٦١هـ. وفي مستهل ربيع الأول التحم الفريقان على باب القاهرة، واستمر القتال أياماً، حتى أوقع جوهر الهزيمة بأعدائه، الذين سقط منهم قتلى كثيرون، ونُهبت خيامهم بتدبير جوهر مع الأعراب من بني عقيل، وبني طَيٍّ، مقابل جوائز أنفذهها إليهم. واضطر القرمطي بعد هزمته المنكرة، التي لم يذق القرامطة مثلها من قبل، إلى الانسحاب. ولولا خشية جوهر من الحيلة والمكيده في القتال ليلاً، لطارد فلولهم، وقبض على زعيمهم. وقام جوهر بالقبض على نحو ألف من الجند الكافورية والإخشيدية، الذين كانوا يقاتلون مع القرامطة^(٤)؛ نكاية في العبيدين. وبذلك هيأ جوهر الأمور، ومهد البلاد لاستقبال مولاه المعز تمهيداً.

استنهض القائد جوهر مولاه المعز، وطلب إليه المسير إلى مصر، شارحاً له خطورة القرامطة على مصر والشام^(٥). هنا نظر المعز في شئون المغرب قبل الرحيل عنه، واستتاب عنه يوسف بن زيري، وفوَّض إليه أمور البلاد، وأمر الناس له بالسمع والطاعة^(٦)، وزوده بنصائح تعينه على حكم تلك البلاد^(٧). وبعد ذلك سار المعز في طريقه إلى مصر، حاملاً ركائبه وخزائنه، ومعه جيوشه وآل بيته وحاشيته، وتوابيت آبائه، فوصل إلى الإسكندرية لست بقين من شعبان سنة ٣٦٢هـ، فاستقبله قائده جوهر، وكبار رجال مصر وأعيانها، وقاضيه أبو طاهر الذُهَلِيَّ. وقد أحسن المعز استقبالهم، فأكرمهم وخلع عليهم،

(١) نهاية الأرب ١٣٥/٢٨.

(٢) هو أبو علي الحسن بن أحمد بن أبي سعيد حسن بن يَهْرَام الجُبَّائِي القُرْمِطِيَّ. ولد ٢٧٨هـ، وأصله من الفرس. سيطر على الشام سنة ٣٥٧هـ، ثم عاد إليها سنة ٣٦٠هـ، وهزم جعفر بن فلاح وقتله. وتوفى بالرملة سنة ٣٦٦هـ، وبوفاته كتبت نهاية القرامطة إلى حد كبير (سير أعلام النبلاء ١٦/٢٧٥-٢٧٥)، والمعر للذهبي ١٢٣/٢، والوفا بالوفيات ١١/٣٧٣-٣٧٦، و امرأة الجنان ٢/٣٨٥، والبداية والنهاية ١١/٣٠٥-٣٠٦.

(٣) البيان المغرب ١/٢٢٨، ووفيات الأعيان ٢/١٤٩-١٥٠، والدولة الفاطمية للدكتور عبد الله جمال الدين ص ١٦٠.

(٤) ذيل تاريخ دمشق، لابن القلانسي - (ط. أمدرود) ص ٢، والكامل ٧/٣٢٦-٣٢٧، وفوات الوفيات ٢/٦٢، واتعاظ الحنفا (ط. دار الفكر العربي) ص ٢٥٠-٢٥١، وتاريخ الخلفاء ص ٤٥٩.

(٥) تاريخ الدول المنقطعة ص ٢٥.

(٦) النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة، لابن سعيد ص ٤٤-٤٥، واتعاظ الحنفا (ط. دار الفكر العربي) ص ١٤٢-١٤٣. ويراجع التعليق على هذا الاختبار في: (معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ١٣٨-١٣٩، وقيام الدولة الفاطمية، لعلادة على الحمد ص ٢٤٨).

(٧) اتعاظ الحنفا (ط. دار الفكر العربي) ص ١٤٥، والمؤنس لابن أبي دينار ص ٧٥، ويراجع شرح د. حسين مؤنس لهذه الوصايا والنصائح في المعالم ص ١٣٨.

وأعلمهم أن هدفه الحق والجهاد ضد الروم، وأن غايته أن يقيم أوامر جده ﷺ، وأن يُخْتَمَ له بالصالحات^(١). وتقدم بعد ذلك نحو القاهرة، ودخل قصره بها في الخامس من رمضان سنة ٣٦٢هـ^(٢).

ظهرت أولى ملامح سياسة المعز، لما جمع أشرف أهل مصر، وكان قد سأله بعضهم عن نسبه، وسَلَّ لهم نصف سيفه، وقال: هذا نسبي. ونثر عليهم ذهباً كثيراً، وقال: هذا حسي. فقالوا جميعاً: سمعنا وأطعنا^(٣). وهذا يعني أن سياسته قائمة على (الترغيب، والتهريب)، وأن مَنْ لم يُغْرِه المال أُرْهِبَ السيف. إلا أن ذلك لا يمنع من بيان بعض الخطوات الإيجابية، التي سلكها المعز في إدارة شئون مصر، مثل اهتمامه بالمظالم^(٤)، وتنظيمه أمور الجند ومكان سكنائهم خارج القاهرة^(٥)؛ لئلا يضيّقوا على الناس دورهم، إلى جانب التنظيمات الداخلية، التي أحدثها في شئون المال والخراج، والشرطة، والحسبة، وغيرها من الأعمال^(٦). وحرص المعز على إشاعة الأمن بين الناس^(٧)، ويُذَكِّر له تأمينه طريق الحج البري، فسلكه الحجاج بعد انقطاع دام سنين^(٨).

وعلى الصعيد الخارجي كان اهتمام المعز بشئون الحجاز عظيماً^(٩)، وكان حريصاً على بسط نفوذه هناك، وأن يُدْعَى له بالحرمين الشريفين بدل الخليفة العباسي^(١٠)، على اعتبار أن ذلك نوع من الزعامة الروحية، التي يتطلع إليها المعز؛ لتحقيق أهدافه في إمامة المسلمين

(١) مخطوطة (تاريخ القضاة)، نسخة البلدية، ورقة ١١٨، والكمال ٣٣٢/٧، وسير أعلام النبلاء ١٦١/١٥-١٦٢.

(٢) مخطوطة (تاريخ القضاة)، نسخة البلدية، ورقة ١١٨، وأخبار الدول المنقطعة ص ٢٥، والكمال ٣٣٢/٧، ووفيات الأعيان ٢٢٧/٥، وكتر الدرر ١٤٧/٦.

(٣) أخبار الدولة المنقطعة ص ٢٧-٢٨، ووفيات الأعيان ٨٢/٣.

(٤) كان النظر فيها يضاف إلى (قاضي القضاة) تارة، وأخرى بنفرد بها أحد عظماء الدولة (الخطط ٢٠٧/٢).

(٥) اتعاط الخنفا (ط. دار الفكر العربي) ص ١٩٧، والمؤنس ٦٦.

(٦) تراجع أعماله الداخلية، والمناصب المسندة إلى وزيره يعقوب بن كلس في: (اتعاط الخنفا- ط. دار الفكر العربي - ص ١٩٢-١٩٦، والشرطة في مصر الإسلامية ص ٢٠٩).

(٧) اتعاط الخنفا (ط. دار الفكر العربي) ص ١٩٤.

(٨) كان ذلك سنة ٣٦٤هـ (المصدر السابق: الطبعة الثانية، طبعة المجلس الأعلى ١٩٦٧م) ج ١ ص ٢٢٣.

(٩) أدرك المعز بثاقب فكره أهمية الحجاز منذ كان بالمغرب؛ لذلك رأبها يتدخل في الحرب بين بني حسن، وبني جعفر بن أبي طالب بالحجاز، فأرسل ملاً ورجلاً سراً، سعوا بالصلح بين الطرفين، ودفعوا ديوات القتلى عن بني حسن، وتم الصلح في المسجد الحرام سنة ٣٤٨هـ. عرف بنو حسن ذلك الجميل للمعز، وبادروا بالدعاء للمعز لما فتح جوهر مصر، فقلد حسن بن جعفر الحسن الحرم وأعماله. (اتعاط الخنفا- ط. دار الفكر العربي) ص ١٤٥-١٤٦.

(١٠) دُعِيَ للمعز في الحرمين مكان الخليفة العباسي سنة ٣٦٣هـ (الكمال ٣٤٩/٧)، و امرأة أختان ٣٧٢/٢، والبدابية والنهاية ٢٩٥/١١.

جميعاً، وسحب البساط من تحت قدمي الخلافة العباسية^(١).

أما بالنسبة للقرامطة، فإن المعز لما قدم إلى مصر وتيقن خطراً عليهم عليه وعلى دولته، أرسل إلى زعيمهم (الحسن بن أحمد القرمطي) كتاباً مطوّلاً مفصلاً يهدده فيه ويتوعده، ويحضه على اتباع آباءه الذين كانوا يتبعون العبيدين، ولا يخرجون عن مراسمهم في جميع تصرفاتهم^(٢). وكان رد القرمطي موجزاً معبراً^(٣)، أردفه بتسيير جيوشه إلى مصر، وذلك سنة ٣٦٣هـ. وقد توجهت سرايا من هذه الجيوش للسيطرة على الوجه البحري، بينما توغلت الأخرى في الصعيد. وقد أعمل المعز الجانب الحربي^(٤) والمعنوي^(٥) معاً في مواجهة القرامطة، حتى تمكن - في النهاية - من إلحاق الهزيمة بهم، وطاردتهم قواته إلى بلاد الشام^(٦). وهكذا، تمكن المعز بخبرته ودهائه من السيطرة على مصر، ورد الخطر الخارجي عنها، وظل - كذلك - النجم الأواحد للامع في حكم مصر، حتى وافته المنية في شهر ربيع الآخر سنة ٣٦٥هـ^(٧).

بعد وفاة المعز ولى بعده ابنه العزيز، الذي اتسم عهده بالتسامح المفرط مع أهل الكتاب، فاتخذ يعقوب بن كلس اليهودي الأصل له وزيراً، يدير له دولته، ويصرف له شئونها^(٨)، فقام ابن كلس بهذه المهام أحسن قيام^(٩)، حتى إن العزيز لم يعزله من منصبه سوى

(١) د. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٣٧، ود. عطية القوصي: تجارة مصر في البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية ص ١٠٩-١١٠.

(٢) اتفرد المقرئى بإيراد الكتاب بنصه كاملاً في (اتعاظ الخنفا). وقد نشره د. الشيال في (ط. دار الفكر العربي ١٩٤٨) ناقصاً؛ لنقص المخطوطة (ص ٢٥١-٢٦٥)، ثم نشره كاملاً في (الطبعة الثانية، ط. المجلس الأعلى ١٩٦٧)، فورد باقي الكتاب ج ١ ص ٢٠٠-٢٠١.

(٣) أخبار الدول المنقطعة ص ٢٦، وتاريخ ابن أبي الهيثم ص ٥٢، ونهاية الأرب ١٤٨/٢٨-١٤٩، واتعاظ الخنفا (ط ٢-المجلس الأعلى) ج ١ ص ٢٠٢.

(٤) بالاشتراك المباشر (نهاية الأرب ١٤٩/٢٨، واتعاظ الخنفا (ط ٢- المجلس الأعلى) ج ١ ص ٢٠٢-٢٠٣.

(٥) بإعمال الحيلة عن طريق التآمر مع أمير العرب بالشام (وكان في جند القرامطة بقواته الكثيرة)، وهو حسان بن الخرج الطائي، فيهمز الطائي بجمده، ويقر من المعركة أمام المغاربة، وذلك مقابل منح المعز له مائة ألف دينار. وقد خدعه المعز بتزييف معظمها. وكان قراره سبباً في هزيمة القرامطة. (ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ٣، والكمال ٣٤٣-٣٤٤، وتاريخ ابن أبي الهيثم ص ٥٢-٥٣).

(٦) ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ٣، والكمال ٣٤٤/٧، وتاريخ ابن أبي الهيثم ص ٥٣، واتعاظ الخنفا (ط ٢-المجلس الأعلى): ج ١ ص ٢٠٦.

(٧) مخطوط تاريخ القضاء (البلدية) ورقة ١٤٨، وأخبار الدول المنقطعة ٢٦-٢٧، ووفيات الأعيان ٢٢٨/٥.

(٨) كان وزير تنفيذ، كوسيط بين الإمام وعباده، معتمداً على رأى الإمام وتديروه. وعبر عنها - بعد ذلك - بالوساطة. (حول معنى الوزارة، ونوعيتها: التفويض، والتفويض يراجع: قوانين الوزارة للمأزدي ص ٦١-٦٩، وصبح الأعشى ٤٤٩/٥).

(٩) راجع مواصفات الوزير الجيد، والتي كان - ولا شك - يتحلّى بها ابن كلس في (المصدر السابق) ٧٧/١-٨٠).

فترة قليلة^(١)، اضطر بعدها إلى إعادته؛ لاضطراب شئون البلاد. وظل هذا الوزير في منصبه حتى وفاته سنة ٣٨٠هـ^(٢)، فضرِبَ العزيز في الوفاء له، والحزن عليه إبان مرض موته، وبعد وفاته، أروع الأمثلة^(٣).

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فبعد وفاة ابن كلس ولى الوزارة للعزيز عدداً من الوزراء^(٤)، حتى وجد بغيته سنة ٣٨٤هـ في عيسى بن نَسْطُورَس النصارى، فسَلَّم له الدواوين، فنظر فيها جميعاً وأمر ونهى، وصار الواسطة بين العزيز وسائر الناس^(٥). واستتاب بالشام يهودياً اسمه (مَنْشَأ إبراهيم بن القَزَّاز)، فاعتز بهما النصارى واليهود، وآذوا المسلمين وظلموهم، حتى شكوا المسلمون إلى العزيز، فأدرك خطأه في الاعتماد الكامل على أهل الذمة، وظهرت له خطورة ذلك على استقرار البلاد، فقبض عليهما، وصادر منهما مالاً كثيراً^(٦). وقد علل بعض الباحثين ظاهرة ميل العزيز إلى استخدام أهل الذمة في المناصب الإدارية الكبرى، بأنه كان في حاجة ماسة إلى رجال أكفأ يديرون له البلاد، كما أن بعضهم (مثل: ابن كلس) تفانى في خدمة الدولة والإخلاص لها. ويشيرون إلى سبب مهم، وهو أن العبيدين وجدوا أنفسهم أمام أهل البلاد السَّيِّئِينَ (وهم الغالبية)، الذين يعادونهم، فتعاونت الأقلية الحاكمة مع أقلية محكومة (أهل الذمة)؛ لتحقيق أغراض أهل السلطة، الذين يطمنون إليهم؛ إذ لا خطر عليهم منهم^(٧). ولا بأس من كبح جماحهم، عندما يشيع ظلمهم، بدرجة تثير جماهير أهل السنة.

(١) مدققا شهران (سنة ٣٧٣هـ)، وصودرت منه خمسمائة ألف دينار متهماً بفساد السم ل (ألف تكين)، ثم أعيد إلى منصبه، ورُدَّتْ له أمواله، بعد أن اختلَّت دواوين البلاد. (تكملة تاريخ الطبرى، للهمذان ص ٤٤٨، والكامل ٧/ ٣٥٨، واطعاف الحنفا (ط. المجلس الأعلى) ١/ ٢٦٢).

(٢) المصدر السابق (ط. المجلس الأعلى) ج ١ ص ٢٦٨.

(٣) ذيل تجارب الأمم ص ١٨٥، وذيل ابن القلانسي ٣٢، واطعاف الحنفا (ط. المجلس الأعلى) ج ١ ص ٢٦٩.

(٤) المصدر السابق ١/ ٢٦٩-٢٨٣.

(٥) واطعاف الحنفا (ط. المجلس) ١/ ٢٨٣.

(٦) الكامل ٧/ ٤٧٧، واطعاف الحنفا - ط. المجلس - ج ١ ص ٢٩٧، ومخطوط عقد الجمان - نسخة أحمد الثالث - ١٠/ ١٢٣، وحسن المحاضرة ١/ ٦٠١. وأضاف بعض المصادر أن ابن نسطورس أعيد بشفاعته ست الملك بنت العزيز، على أن يستخدم المسلمين في دواوينه (الذيل على تجارب الأمم) ١٨٦-١٨٧، وكذلك ابن القلانسي ص ٣٣، وأخبار الدولة المنقطعة ٤١، وبحث (أهل الذمة والإدارة الإسلامية)، للدكتور فهمي عبد الجليل في (مجلة الندوة) مجلد ١٩٨٢/٢ ص ١٤٤-١٤٥.

(٧) بحث د. فهمي عبد الجليل السابق ص ١٧٣-١٧٤، وأهل الذمة في مصر للدكتور سلام شافعي ص ٢٨، وموسوعة التاريخ الإسلامي، للدكتور أحمد شلى ١٣١/٥.

ويمكن تركيز أهم عناصر أحداث بقية فترة حكم العزيز في النقاط الآتية:

١- موقفه من بلاد الشام:

اهتم العزيز بإخضاع بلاد الشام لسلطته^(١)، لذا ألقاه استيلاء (ألف تكين)^(٢) على دمشق، وتهديده عدداً من بلاد ساحل الشام (مثل: صيدا، وعكا، وطبرية). وقد حاول العزيز استمالته، فأبى إلا مخالفته، فأرسل إليه الجيوش بقيادة (جوهر). لما علم ألف تكين بذلك، تحالف مع القرامطة بقيادة الحسن القرمطي، الذي أناب عنه بعض القواد، وتمكنت قواتهما معاً من إلحاق الهزيمة بجوهر، الذي تفرق من الرملة إلى طبرية، ثم عسقلان، وقد عانت جيوش جوهر حصاراً شديداً، أشرفت معه على الهلاك، إلى أن تمكن جوهر بدهائه من الحصول على أمان، انسحب على أثره بما بقي من جنده إلى مصر، بعد معارك طاحنة وظروف قاسية، استمرت من ذي القعدة سنة ٣٦٥هـ، إلى أواخر سنة ٣٦٧هـ^(٣)، حينما هبَّ العزيز لنجدة جوهر، وخرج بنفسه على رأس جيش كبير، قاتل به ألف تكين في المحرم من سنة ٣٦٨هـ، ونجح في إنزال الهزيمة به وأسرته، والعودة به إلى مصر، حيث عزَّزه وكرَّمه، وخلع عليه^(٤). واسترضى القرامطة بسبعين ألف دينار، يدفعها لهم سنوياً^(٥)، يستجلب بها ودهم، ويتخلص من شرهم. ولعل سياسة العزيز القائمة على التسامح والعفو، هي التي أثمرت ثمرتها المرجوة مع الزمن، فإذا به يتجح في احتواء القرامطة، فيأتيه رسولهم سنة ٣٨٢هـ، يُعلمه أنهم في دعوته ونصرته^(٦).

٢- صلته بكل من المغرب والحجاز:

جمعت بين كلا هذين الإقليمين؛ لأن صلة العبيدين بهما -في عهد العزيز- غدت إلى حد

(١) تعرض للأسباب الاستراتيجية لذلك الاهتمام الباحث سمير عبد الفناح في ماحسن (مصر في عهد العزيز بالله الفاطمي) ص ١٢.

(٢) ورد اسمه بصور متعددة في المصادر: الفتيكن (الكامل ٣٥٨/٧)، وهفتكين (سير أعلام النبلاء ٣٠٧/١٦)، وأفتكين (نهاية الأرب ١٥٦/٢٨). وقد حققه د. صبحي عبد المنعم، ورجَّع صورته المذكورة أعلاه بالمتن ومعناها بالتركية: عبد جلد (تاريخ ابن أبي الهيثم، هامش ٥ ص ٥٨). وهو مولى مُعز الدولة بن بُوته، وسار بقواته بعد هزيمته في فتنة الأتراك بالعراق. وتوجه إلى الشام، وسأله أهل دمشق أن يزل بينهم ويزيل عنهم حكم العبيدين، فأجابهم وأصلح كثيراً من أحوالهم، وقطع خطبة للمعز، وخطب للخليفة العباسي الطائع لله في شعبان سنة ٣٦٤هـ. ثم دخل في معارك كثيرة ضد جوهر أيام العزيز وانتصر فيها، حتى تغلَّت عليه جيوش العزيز، ووقع أسيراً بعد أن ضرب أروع الأمثلة في الشجاعة؛ ممَّا دفع العزيز للعفو عنه وتقريبه منه في مصر. مات بعد دس ابن كلث السمل له؛ لخلاف بينهما أول ٣٧٣هـ. (الكامل ٣٥٥/٧-٣٥٨)، وسير أعلام النبلاء ٣٠٧/١٦-٣٠٨، وتاريخ الإسلام ٢٦/٤٠٦-٤٠٧، وتمعاض الحنفا - ط. المجلس الأعلى - ج ١ ص ٢٦٢.

(٣) هذا هو التاريخ الذي اخترته موافقاً تفاصيل الأحداث في (تمعاض الحنفا - ط. المجلس الأعلى - ج ١ ص ٢٣٩-٢٤٢).

(٤) الكامل ٣٥٧/٧-٣٥٨، وتمعاض الحنفا - ط. المجلس الأعلى - ج ١ ص ٢٤٢-٢٤٥.

(٥) تكملة تاريخ الطبري ص ٤٤٨، والكامل ٣٥٨/٧ (جعلها عشرين ألف دينار - أحداث سنة ٣٦٤هـ).

(٦) وتمعاض الحنفا (ط. المجلس الأعلى) ج ١ ص ٢٧٤.

ما صلة معنوية روحية. ومع ذلك، فقد حرص العزيز منذ بداية عهده على توثيق علاقته بالمغرب، إذ أرسل سنة ٣٦٥هـ، أموالاً من دنائير الذهب إلى هناك، حيث وزعت على الناس، وأقر بُلُكَيْن (يوسف) ابن زيرى^(١) على ولاية إفريقية.

وزاده ما لم يكن تحت إمرته في عهد المعز (مثل: أَطْرَابُلس، وسُرْت، وأجْدَابِيَّة)، فأرسل إليها يوسف عماله، وعظم شأنه، وأَمَّنَ^(٢) ناحية العزيز، واستبد بالملك، وكان يظهر الطاعة للعزيز؛ بحاملة ومراقبة لا طائل وراءها^(٣).

بالنسبة للحجاز، فقد ظل على ولائه للعزيز، فخطب له بالحرمين سنة ٣٦٥هـ، ولم تعترض السلطة البويهية الحاكمة بالعراق؛ نظراً للخلافات المحتملة بين التُّرك والذَّيْلَم هناك^(٤). ويبدو أن عطاء مادياً كان يصرف لأمرء الحجاز مقابل ذلك^(٥)، فلعله ضعف أو توقف، وربما تجرأ هؤلاء؛ لانشغال العزيز بالحروب في الشام، فلم يخطبوا له في هذا العام، إلا بعد أن استخدم القوة ضدهم، فأرسل جيشاً حاصر مكة بالتحديد، وضيق على أهلها، حتى قل الطعام، وارتفعت الأسعار، وعادوا سيرتهم الأولى^(٦). وبعد ذلك لا تقيد المصادر وجود أى عمرد، فخطب للعزيز - مثلاً - في سنوات: ٣٧٠، ٣٨٠، ٣٨٥هـ^(٧).

٣- صلته بالبويهيين، والروم، وأموي الأندلس:

تتسم علاقة العزيز بهذه القوى الثلاث بالعداء، الذي حال دون تحويله إلى صدام مباشر ظروف خدمت العزيز، ووفرت عليه ما ينتج عن ذلك من المخاطر الجسام.

(١) وفيات الأعيان ٢٨٦/١، والخطط ٢٨٤/٢ (وتوقف عند إقراره على إفريقية، وسماه تحريفاً: يوسف بن ملكين). وهو أبو الفتح يوسف بن زيرى بن مَتَاد الحِمَيْرِي الصَّنْهَاجِيّ. ولاء المعز إفريقية ٣٦٢هـ، وكان حسن السيرة، تام النظر في مصالح دولته ورعيته، حتى توفي في يوم الأحد ٢١، أو ٢٣ من ذي الحجة ٣٧٣هـ في عهد العزيز). (وفيات الأعيان ٢٨٦/١-٢٨٧، والبيان المغرب ٢٣٩/١).

(٢) ورد مشدداً في (الكامل) ج ٧ ص ٣٦١، وقد يعني أن ولايته على كل تلك المناطق تأمين للوجود العبيدي في مصر. وورد مُعَرَّي من التشديد في (اتعاظ الحنفا - ط. المجلس الأعلى) ١: ٢٣٨، وقد يعني هذا أن العزيز بتوليته إياه على تلك المناطق قد أعطاه الأمان والثقة، ومنحه رضاه، فبدوم على طاعته.

(٣) ورد النص كاملاً في (الكامل) ٣٦١/٧، ونقله عنه المقرئ (اتعاظ الحنفا - ط. المجلس الأعلى) ج ١ ص ٢٣٧-٢٣٨ بزيادة لفظة: (ومراقبة) في (الكامل).

(٤) أخبار الدول المنقطعة ٣٣.

(٥) د. عطية القوصي: تجارة مصر في البحر الأحمر ص ١١١-١١٢.

(٦) الكامل ٣٦٢/٧، وتاريخ ابن خلدون ٦٥/٤، واتعاظ الحنفا - ط. المجلس الأعلى - ج ١ ص ٢٣٨.

(٧) البداية والنهاية ٣٠٦/١، ٣١٦، ٣٣٥ (على التوالي).

فبالنسبة للعلاقة مع بنى بويه، فقد كانت أعمال الجاسوسية بينهما قائمة^(١)، والرسائل الودية متبادلة^(٢). وقرب وفاة عضد الدولة (ت ٣٧٢هـ) كاد أن يُسيّر الجيوش لمهاجمة مصر، لكن خروج أخيه فخر الدولة عليه حال دون ذلك، ثم أدركته الوفاة^(٣).

وبخصوص علاقته بالروم، فقد عزم العزيز على جهادهم أكثر من مرة، وجهد لذلك الأساطيل اللازمة، لكن يبدو أن هناك عيونا للروم بين الصفوف تأمرت على سفن بنى عبيد فأحرقتها^(٤) وقد حكمت العلاقات مع الروم هدنة بين الطرفين، أظهرت ما للإسلام آنذاك من عزة ومنعة^(٥).

بالنسبة للعلاقة مع الأندلس:

لم أجد بخصوص صلة العزيز بالأمويين في الأندلس من علاقة مباشرة، سوى ما تناقلته المصادر من حادثة وحيدة، تُنم عن مدى البغض والكراهية بين الجانبين. وملخص الواقعة: أن العزيز العبيدي كتب إلى الخليفة الحكم المستنصر الأموي بالأندلس كتاباً، يَسُبُّ فيه ويهجو، فرد عليه المستنصر رداً مفجعاً قائلاً له: "أما بعد، فإنك قد عرفتنا فجهوتنا، ولو عرفناك لأجبناك"^(٦). ويعلق الذهبي قائلاً: يعنى أن العزيز دَعَى في نسبه لا تُعرف له قبيلة ينتسب إليها حتى يهجو^(٧) وهكذا، عرضنا لأهم أحداث عهد العزيز، الذى توفى يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من رمضان ٣٨٦هـ^(٨).

ولى الحاكم بأمر الله بعد وفاة والده العزيز، وكانت سنه يومئذ حوالى إحدى عشرة سنة ونصف^(٩). وطَبَعَى ألا يكون الحاكم - فى تلك السن المبكرة - قادراً على الاضطلاع

(١) راجع أخبارها المبالغ فيها فى: أخبار الدول المنقطعة ٣٤، وتاريخ الإسلام ٤٧١/٢٦، واناظر الحنفا (ط. المجلس) ٢٦١/١.

(٢) الكامل ٣٩٠/٧، والعبر للذهبي ١٣١/٢، والبداءة والنهاية ٣١٤/١١، وتاريخ الخلفاء ٤٦٥.

(٣) أخبار الدول المنقطعة ٢٥، واناظر الحنفا (ط. المجلس) ٢٥٢/١.

(٤) حدث ذلك سنة ٣٧٧هـ (تاريخ الإسلام ٤٨١/٢٦، والنجوم ١٥٥/٤). وسنة ٣٨٦هـ (اناظر الحنفا - ط. المجلس - ٢٩٠/١، واخطط ١٩٦/٢).

(٥) راجع شروط الهدنة فى: (النجوم الزاهرة ١٥٥/٤، وتاريخ الدولة الفاطمية د. حسن إبراهيم حسن ص ٢٥٧).

(٦) وفيات الأعيان ٣٧٢/٥-٣٧٣، وتاريخ الإسلام ١٣٠/٢٧، ومخطوط (أعيان العصر وأعيان النصر)، للصفدى (مصورة بدار الكتب) ص ٢١٠ (وذكر أنه لا تصح الرواية بالعكس أى: لا يصح أن يكون العزيز هو صاحب الرد المفجع؛ لأن الدعوى فى نسبه هو العزيز لا المستنصر، فالأمويون نسبهم معروف مشهور، لا مجال للريبة فيه)، والنجوم ١٥٣/٤، والنقح ٥٥٨/٣، والمؤنس ص ٦٨.

(٧) تاريخ الإسلام ١٣٠/٢٧.

(٨) أخبار الدول المنقطعة ص ٤٢ (وذكر أنه توفى عن ٤٢ سنة، و٨ أشهر، و١٤ يوماً)، وفيات الأعيان ٣٧٤/٥.

(٩) اناظر الحنفا (ط. المجلس الأعلى) ج ٢ ص ٤، ومصادر ترجمة الحاكم كثيرة، منها: مخطوط تاريخ القضاة، -

بمسئوليات الحكم في دولة متسعة الأرجاء كالدولة العبيدية. وقد كان الحسن بن عمار (شيخ كُتامة) ذا مكانة بارزة أيام العزيز، وتولى إدارة الدولة للحاكم، الذى خلع عليه في الثالث من شوال سنة ٣٨٦هـ، ولقبه (أمين الدولة)، فصارت إليه مقاليد الأمور. وقد أشار عليه أصحابه بالتخلص من الحاكم، لكنه لم يعبأ بذلك؛ استهانة به لصغر سنه. وفي الوقت ذاته، كان بَرْجَوَان^(١) يلازم الحاكم ويحرسه، ويمنعه الركوب، والظهور من قصره، ويتربص بابن عمار الدوائر؛ كى ينفرد بالوصاية على الحاكم من دونه. وحانت الفرصة لما اقتتل المغاربة والترك، وشارك ابن عمار في القتال، فسادت الفوضى، وتدخلَ برجوان في الأمر ليصلحه في الظاهر، وليغري الغلمان والجند بابن عمار في الباطن، حتى إنهم نهبوا داره، وكادوا يفتكون به. وتم المراد، وعُزل ابن عمار في السابع والعشرين من شعبان سنة ٣٨٧هـ، بعد حوالى أحدَ عَشَرَ شهراً من النظر في شئون الدولة^(٢).

حلَّ برجوان محل ابن عمار في الوصاية على الحاكم، ويذكر أبو شجاع^(٣) أنه كان يواصل النظر في قصر الحاكم ثمارة كله إلا ساعة وقت الظهيرة، ثم يعود إلى مباشرة أعماله حتى منتصف الليل، وأنه كان يوق السياسة حقها، وينفذ كتابه فهد بن إبراهيم الأمور بين يديه كأحسن ما يكون التنفيذ. وفحاة دبر الحاكم مع الخادم رَيْدَان^(٤)، وبعض العبيد مؤامرة قتل برجوان، وتم تنفيذها في السادس عشر من ربيع الآخر سنة ٣٩٠هـ^(٥). وقد أحدث قتل

- ورقة ١٢٠، ومخطوطة التاريخ المُطْفَرى، لابن أبي الدم الحَمَوَى (نسخة ٦٠٤ تاريخ بالمعهد) ص ١٦١، ووفيات الأعيان ٢٩٢/٥-٢٩٨، والبداية والنهاية ١١/٣٤٠، والمخطوط ٢٨٥/٢ وبعدها، والنجوم ١٧٧/٤ وبعدها.

(١) ترجمته في: تاريخ الإسلام ٢٧/١٩٦، والبداية والنهاية ١١/٣٤٩-٣٥٠، والمقفى ٢/٥٧٢-٥٧٥.

(٢) تراجع تفاصيل ما دار من أحداث منذ ولاية الحاكم حتى عزل ابن عمار في (الكامل ٧/٤٧٩-٤٨٠، وتاريخ ابن خلدون ٤/٧١-٧٢، والمخطوط ٢/٣٦-٣٧، واناظر الخفا (ط. المجلس الأعلى) ج ٢ ص ٥٥، ١١-١٣ (حيث حُدِّثَتْ إقامته في داره، وأطلقت له عطاياه كالمعتاد). وفي المصدر السابق ٢/٢٦: أذن له بالركوب إلى القصر عدة أيام من (٥ من شوال إلى ١٤ من شوال ٣٩٠هـ)، ثم أوعز الحاكم إلى مجموعة من الأتراك أن يقتلوه عند مُنْصَرَفِهِ من القصر.

(٣) ذيل تجارب الأمم ص ٢٣٠.

(٤) يُنسب إليه البستان المعروف بـ (الرَيْدَانِيَّة) الموجود خارج باب الفتوح، وهو أحد أبواب القاهرة. وقد قتل الحاكم ريدان الصقلي هذا بعد ذلك على يد صاحب السيف مسعود الصقلي أوائل سنة ٣٩٣هـ. (وفيات الأعيان ١/٢٧١، والمخطوط ٢/١٣٩). وقد فات مُحَقِّقُ كُتَاتِي: (تاريخ الإسلام) ٢٧/١٩٦، و(اناظر الخفا) ج ٢ ص ٢٥ وغيرها، تصويب هذا العَلَم، فأثبتاه بالزاي (زيدان) بدل الراء، وهو غير صحيح.

(٥) ذيل تجارب الأمم ٣١، وذيل ابن القلانسي ص ٥٥، والكامل ٧/٤٨٢ (قتل ٣٨٩هـ، وهو غير صحيح)، وتاريخ الزمان لابن العَبْرِي ص ٧٤ (قال مقالة ابن الأثير)، وتاريخ ابن أبي الهيثم ٧٧-٧٨، والمخطوط ٢/٣-٤، واناظر الخفا ٢/٢٥-٢٦.

برجوان غيلة هزة عنيفة في الدولة بين الأروياء والعوام على سواء، حتى اضطر الحاكم إلى جمع الناس، وشرح ملابسات قتله برجوان، بل أصدر مرسوماً، ضمته أسباب ذلك، حتى هدأت الأحوال، واستقرت البلاد^(١).

دخل الحاكم - بعد تخلصه من برجوان - مرحلة جديدة، انفرد خلالها بالحكم، وتخلص من الوصاية، التي كانت مفروضة عليه، فإذا به وكأنما أطلق من عقال، وفك من إسار، وإذا به يقوم بعدة إجراءات، ويصدر مجموعة من القرارات الغريبة التي هزت المجتمع هزاً^(٢)، وتحول إلى وحش كاسر متعطر إلى الدماء، يسفكها بغزارة، ولا يكاد ينجو من سيفه البتار أحد من رجال دولته المقربين إليه^(٣). وانعكس ذلك - ولا شك - على الناس جميعاً بجميع فئاتهم وطبقاتهم، فكأنما يعيشون في سجن كبير. وقد حاول الباحثون^(٤) تحليل هذه الظاهرة العجيبة (عهد الحاكم، وأفعاله)، وحاولوا تَفْهَمُهُ، وتعليل تصرفاته، وتلمس الجوانب المضيئة خلال فترة حكمه. ورغم ذلك، فإن اعتقد أننا لا نزال في حاجة لتضافر الجهود لدراسة نفسية هذا الرجل، وتحليلها على النحو المرصّي.

وعلى كل، فقد ظلت أمور الدولة وعلاقاتها الخارجية تمضي بقوة الدفع، التي خلفها له جده وأسوه من قبل. فقد ظلت هيمنة العبيدين على الحجاز^(٥)، ونفوذهم في إفريقية قائماً.

(١) أسهب أبو شجاع في ذكر أسباب قتل برجوان، فذكر أنه شدد على الحاكم، وضيق عليه بكثرة النصع والتهذيب، فضعف الركوب؛ خوفاً عليه، ومنعه التبذير في غير موضع الاستحقاق، فاحتلمها الحاكم ذنباً له. كما أن ريدان أوقع بينهما لما أغرى الحاكم به، بأنه يريد أن يجعل من نفسه كافوراً، ومن الحاكم ابن الإخشيد في الحجر عليه. (ذيل تحارب الأمم ٢٣٠-٢٣١). واقتضب ابن الأثير (الكامل ٤٨٢/٧)، وابن خلدون (تاريخه ٧٢/٤) الأسباب بقولهما: لازم برجوان خدمته، فنقل مكانه على الحاكم. أما الأسباب التي ذكرها الحاكم بنفسه، فهي عدم قيامه بالخدمة ولهاونه، وانشغاله باللهو، وإساءته الأدب معه (ذيل ابن القلائسي ٥٥-٥٧)، واتعاط الحنفا ٢٥/٢-٢٩). ويمكن أن أضيف تقربه للقلوب، واصطناعه الغلمان والمشاركة (التحوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة) ص ٥٥. فلعل ذلك كله عجل به؛ لينفرد الحاكم بالحكم.

(٢) تراجع تفاصيل إجراءاته حول: العمل ليلاً، ومنع النساء من الخروج عشاء، واضطهاد أهل الذمة وهدم كنائسهم، ومنع بيع وأكل بعض الأطعمة، وإشاعة التحسس على الناس في: ذيل ابن القلائسي ٦٦-٦٨، وتاريخ الزمان ٧٦-٧٧، وكت الدرر ٢٧٨/٦، والخطط ٢٨٦/٢، ٤٩٦، واتعاط الحنفا ٣٨/٢، ٥٣.

(٣) رأينا قتله برجوان، وابن عمار، وريدان. وقتل جماعة أعيان ٣٩٥هـ (التحوم ٢١٣/٤).

(٤) موسوعة التاريخ الإسلامي للدكتور شلي ١٣٣/٥-١٤١ (إيجابياته، ونشأته المضطربة)، و(مصر العربية الإسلامية)، للدكتور الخروبولى ص ٥٢، ١٥٥ (غاياته طيبة، لكن أخطأ في الوسائل، فبدا شاذاً)، و(الحاكم بأمر الله) لعنان ص ١٦٥-١٧٤ (وتفسير يحمل لتصرفاته الشاذة)، والدكتور أحمد كامل في ماحسته (الحاكم بأمر الله في عصره) ص ٥٢-٥٣، ٦٩، ٧٨-٨٧ (كان على وعى بما يدور حوله، ثم انتقم لنفسه، ويجرّص على العدالة، ومن قتلهم يستحقون القتل).

(٥) خطب له هناك ٣٩٤، ٣٩٥هـ (البداية والنهاية ٣٥٦/١١-٣٥٧).

وبفضل الأسطول الذي أقامه العزيز تم صد الهجوم البيزنطي على الشام^(١)، فعقدت هدنة بين الطرفين مدتها عشر سنوات^(٢). ويبدو أن سياسته الداخلية الفاشمة الباطشة^(٣) كانت من عوامل ثورة أبي رَكْوَة على الحاكم، والتي كلفته كثيراً، حتى تغلب عليها^(٤). ونمضى الأمور على هذا النحو حتى نهاية القرن الرابع الهجري، وهو منتهى تلك الدراسة، بإذن الله.

ب- الأوضاع السياسية في الأندلس في القرن الرابع الهجري:

ولى الأمير عبد الله بن محمد حكم الأندلس في الفترة الممتدة من يوم السبت السابع عشر من صفر سنة ٢٧٥هـ إلى يوم وفاته (الثلاثاء) التاسع والعشرين من صفر سنة ٣٠٠هـ^(٥). وخلال هذه الفترة التي تربو على خمسة وعشرين عاماً أياماً قلائل^(٦)، لم يهدأ للأمير عبد الله بال، ولم يقر له قرار؛ ذلك أنه ورث تركة ثقيلة في حكم البلاد. لقد تابعت طوال عهده المحن والثورات، وتغلب الخارجون على مختلف الجهات بالأندلس^(٧)، حتى أتى على الأمير وقت، كانت فيه خيول عمر بن حفصون^(٨) زعيم الثوار غادية ورائحة بجوار قرطبة وضواحيها، تهدد

(١) جعله ابن الأثير أول فتح خلال وصاية برحوان سنة ٣٨٦هـ. (الكامل ٧/٤٨٠-٤٨١). والظاهر وقوع

اشتباكات بحرية أخرى سنة ٣٨٩هـ (ذيل تاريخ ابن البطريق) ص ٢٤٣-٢٤٦.

(٢) ورد ذكر الهدنة سنة ٣٦٨هـ، لما راسل برحوان بسيل ملك الروم (ذيل أبي شجاع ص ٢٣٠)، والكامل ٧/

٤٨٢). وورد ذكر هدنة أخرى سنة ٣٩٠هـ (ذيل تاريخ الأنطاكي) ص ٢٤٨.

(٣) ذكر ابن خلدون في المقدمة ٥٧٥/٢: أن مغالة أى حاكم في البطش مضّر بالملك، ومفسد له في الأكثر. وقد

أدى ذلك لمقتل الحاكم ٤١١هـ، وهناك روايات تفيد تألقه، وتذكر مظاهر ذلك (النجوم ٤/١٨٤-١٨٧)،

وحسن المحاصرة ٢/٢٩١، (وتاريخ الخلفاء) ص ٤٧١. وأرجح وقوعه، فهو من مظاهر تقديس الأئمة عندهم

(دعائم الإسلام) للفاضل النعمان ١/٣٤٩-٣٥٠.

(٤) يُنسب لبني أمية بالأندلس، ويزعم دعوته إلى التقوى والعدل في الحكم بدل بطش الخاكم وجبروته، وكان

يريد أخذ مصر، ولأنصاره الشام، وقُتل ٣٩٦هـ. (البيان المغرب ١/٢٥٧-٢٥٨، والنجوم ٤/٢١٦-٢١٨).

(٥) هذا هو التاريخ الذي اخترته لمعاصرة صاحبه للأحداث (العقد الفريد لابن عبد ربه، مجلد ٣ ج ٥ ص ٢٥٩).

(٦) جعل ابن الخطيب هذه الأيام ١٥ يوماً (أعمال الأعلام قسم الأندلس): ص ٢٨. والصواب - عندي - أن

هذه الأيام تبلغ اثني عشر يوماً.

(٧) كبير الثوار في الأندلس، بدأ خروجه وعصيانته في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨-٢٧٣هـ)، وذلك

سنة ٢٦٧هـ بناحية (رَبِيّة)، وقويت شوكته بانضمام المولدين إليه، زاعماً أنه يريد تحريرهم من العبودية. كاد

الأمير المنذر بن محمد (٢٧٣-٢٧٥هـ) يقضى عليه لولا موته. تحصن بقلعته الحصينة في (بُشْتَر)، وتمكن الأمير

عبد الله من هزيمته، ثم توفي سنة ٣٠٥هـ، وولى بعده أولاده: جعفر، ثم سليمان، ثم حفص، وبعد ذلك انقرض

أمرهم. (المقتبس، ط. العربي) ص ٧٢ وما بعدها، وحذوة المقتبس ٢/٤٦٧-٤٧٧، وأعمال الأعلام (قسم

الأندلس) ص ٣١ وما بعدها، والإحاطة ٤/٣٨-٤٢).

(٨) كبير الثوار في الأندلس، بدأ خروجه وعصيانته في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨-٢٧٣هـ)، وذلك

سنة ٢٦٧هـ بناحية (رَبِيّة)، وقويت شوكته بانضمام المولدين إليه، زاعماً أنه يريد تحريرهم من العبودية. كاد

الأمير المنذر بن محمد (٢٧٣-٢٧٥هـ) يقضى عليه لولا موته. تحصن بقلعته الحصينة في (بُشْتَر)، وتمكن =

قصر الأمير نفسه كل حين^(١).

وبالرغم مما حل بالأندلس خلال عهده؛ نتيجة تراكمات عهود سابقة، وعدم قدرة الأمير على تدارك الأمر، إلا أنه امتاز بالثبات العظيم في مواجهة الثورات والضربات المتوالية^(٢)، ونجح في إنزال الهزيمة بابين حفصون^(٣)، وظل حتى أواخر عهده يرسل الصوائف ضد الخارجين^(٤)، على قلعة في الموارد، وضعف في الإمكانيات، وندرة في الثَّصْرَاء.

حيات الأقدار الأمير عبد الرحمن الثالث^(٥) حفيد الأمير عبد الله، لإنقاذ الأمة الأندلسية من التردى والضياع. لقد ولي حكم البلاد، والأعداء متربصون به من كل جانب، وكان عليه أن يتوج كفاح جده، فيعيد الوحدة للبلاد، واهية للأمويين، فينقذ الأندلس من نفسها، ويتفرغ لنصارى الشمال المُخْدِقِينَ لها.

الأمير عبد الرحمن الثالث وتوحيد الجبهة الداخلية:

حدد عبد الرحمن الثالث أعداءه جيداً، وسلك الطرق العملية الموصلة إلى القضاء على هؤلاء الأعداء، واحداً تلو الآخر. ومن أوائل المناطق التي أخضعها الأمير عبد الرحمن لسلطانه

- الأمير عبد الله من هزمته، ثم توفى سنة ٣٠٥هـ، وولى بعده أولاده: جعفر، ثم سليمان، ثم حفص، وبعد ذلك انقض أمرهم. (المقتبس، ط. العربي) ص٧٢ وما بعدها، وجزوة المقتبس ٤٦٧/٢-٤٧٧، وأعمال الأعلام (قسم الأندلس) ص٣١، وبعدها، والإحاطة ٣٨/٤-٤٢).

(١) أخبار مجموعة ص١٣٣.

(٢) معالم تاريخ المغرب والأندلس. للدكتور حسين مؤنس ص٣٠٦.

(٣) من أهمها: غزوة بُلى poley ضد ابن حفصون، التي أسست كل غزوة تقدمتها (العقد الفريد مجلد ٣ ص٢٥٩). وتناولها الذهبي في (تاريخ الإسلام) ١٨٥/٢٢، وقال: تكبد فيها ابن حفصون خسائر فادحة، وكان لها دورها في اكسار شوكة بعد ذلك أيام عبد الرحمن الثالث. وجعلها ابن الخطيب في (الإحاطة) ج٤ ص٤١، سنة ٢٧٧هـ. والصواب: أنها سنة ٢٧٨هـ (المقتبس - ط. إسماعيل العري) ص١١٦ وما بعدها، وعان في: دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الأول ص٣٢٥.

(٤) منها صانفته إلى (بشتر) معقل ابن حفصون الحصين، وكذلك إلى غيره من الخارجين سنة ٢٩٩هـ، (المقتبس - ط. العربي) ص١٦٩-١٦٩.

(٥) هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية (الداخل). أمثنته كفاءته أن بلى بعد جده، وكان عمره يوم قُتل أبوه يوماً، أو عشرين يوماً. وكفله جده وأحسن تشيته للمهمة الثقيلة، التي تنتظره. ولد حوالي ٢٧٧هـ، وولى ٣٠٠هـ، وتوفى ٣٥٠هـ بعد ما نجح في توحيد الأندلس، والقضاء على الأعداء في الداخل والخارج (العقد الفريد مجلد ٣ ص٢٦٠-٢٦٤، وأخبار مجموعة ١٣٥-١٤١، والكمال ٧/٢٧٠، والحلة السراء ١٩٧/١-٢٠٠، والبيان المغرب ١٥٦/٢ وما بعدها، وأعمال الأعلام (قسم الأندلس) ص٢٨-٤١).

(إشبيلية)^(١). وكان بنو حجاج قد استقلوا بالأمر هناك^(٢). وبعد وفاة (إبراهيم بن حجاج) سنة ٢٨٨هـ^(٣)، ولى ابنه عبد الرحمن حتى توفى سنة ٣٠١هـ. فلما مات اجتمع أهل إشبيلية على تولية (أحمد بن مسلمة)؛ مما دفع (محمد بن إبراهيم بن حجاج)^(٤) إلى مخالفته، والاتصال بالأمير عبد الرحمن الثالث، الذى بعث جيوشه لمحاربة ابن مسلمة، وأمر محمد بن إبراهيم بن حجاج بالتضيق على أهل إشبيلية، وعقد له مع قاسم بن الوليد صاحب شرطة الأمير لإتمام هذه المهمة. فلما حوصر ابن مسلمة، استغاث بجيوش عمر بن حفصون، الذى أعانته بالفعل، لكن جيوش الأخير هُزمت، واضطر إلى الفرار من المعركة. هنا قلب ابن مسلمة الأمر على وجوهه، وعلم أن لا طاقة له بالحرب، وأصلح ما بينه وبين الأمير عبد الرحمن مقابل أن يوليه إشبيلية. وبذلك دخلت قوات الناصر هناك دون قتال. لم يعجب هذا الأمر محمد بن إبراهيم بن حجاج، واعتدى على بعض أغنام لأهل قرطبة، وهو فى طريقه إلى قرمونة^(٥)، ولم يرفع الحصار عن إشبيلية كما أمر بذلك، بل سار من قرمونة إلى إشبيلية مهاجماً إياها. هنا أرسل الأمير عبد الرحمن مزيداً من القوات لتأمين إشبيلية، وما زال يتوعد إلى محمد بن إبراهيم بن حجاج ويلاينه،

(١) مدينة كبيرة عامرة حصينة ذات أسوار، وأسواق كثيرة. أهلها مياسر، وحلّ تجارهم الزيت. هوإها طيب، وما شجر الزيتون، وسائر الفواكه. تفوق غيرها من نواحي الأندلس بزراعة القطن، وتصدره للمغرب وبقية مدن الأندلس، وتقع على النهر الكبير (نهر قرطبة)، وتسمى حصص الشام؛ لزلزل أهل حصص من المشرق بها، (البلدان لليعقوبى ١١٠، ونزهة المشتاق للإدريسي ٢٣٩/١، ٥٤١/٢، ورحلة ابن جبير ٢٣٢-٢٣٣، ووصف الأندلس لابن الشباط ١٣٨-١٣٩، ١٦٤).

(٢) كان بيت بنى حجاج بيت رئاسة وشرف بإشبيلية، وقد استبدوا بالأمر دون بنى أمية، وكان إبراهيم بن حجاج زعيمهم، فحالف الأمير عبد الله، ثم هادنه على أن يوليه بلده ولا يعرض له. فحصى الأموال، وأخضع الرجال، وتوسط على الأمير عبد الله، حتى ساء ما بينهما، فحدث الخلاف والتحالف مع ابن حفصون، (البيان المغرب ٢/ ١٢٥-١٢٩، وأعمال الأعلام (قسم الأندلس) ص٣٤-٣٥).

(٣) البيان المغرب ٢/ ١٢٩، وأعمال الأعلام ٣٥. ومن ثم، فلا يصح ما ورد فى كتاب : (التاريخ السياسى لمدينة إشبيلية فى العصر الأموى) للدكتور حمدى عبد المنعم ص١٠١، من أن وفاته سنة ٢٨٩هـ/ ٩١٠-٩١١م.

(٤) وكان محمد هذا مقيماً فى مدينة قرمونة، وله بها فضل وشهرة زادها على أبيه، وظل يحكم حتى بعد وفاة أبيه، وإلى ممات أخيه. ولم يستقر بإشبيلية ولا حكمها. وكان له جاه يوفق أحماء، فمدح بجيد الأشعار، ومنع المادحين، وكانت دولته أضخم من دولة أخيه وأطول؛ إذ عاش بعد وفاة أبيه ١٤ سنة. وتوفى أخوه سنة ٣٠١هـ، فقيل : دس لأخيه جارية ستمته، فمات. توفى هو سنة ٣٠٢هـ، وبموته انقضى أمر بنى حجاج (البيان المغرب ٢/ ١٢٩، وأعمال الأعلام ٣٥).

(٥) سماها ياقوت (قرمونية)، وذكر أن أكثر الناس يسميها (قرمونة). قال فى (معجم البلدان) ٤/ ٣٧٥ : هى كورة بالأندلس، يتصل عملها بأعمال إشبيلية، غرى قرطبة وشرقى إشبيلية، قدومة النيان، عصت الأمير عبد الرحمن بن محمد، فخرها بجنده وفتحها، ثم عادت إلى بعض ما كانت عليه.

حتى عاد إلى الطاعة والجماعة. ثم أنزله الأمير قُرْطُبَة^(١)، على أن يترك نائباً عنه في قرمونة، وأحسن الأمير إليه وإلى من معه، وأكرمهم ووصلهم، بل ولاه الوزارة من حينه، حتى وقع ما أغضب الأمير عليه فحبسه وعزله^(٢)، ثم أطلقه، فمات بعدها بقليل في شهر شوال سنة ٣٠٢ هـ^(٣). وبذلك انقضت أيام بني حجاج النائرين بإشبيلية.

من الثوار الذين عُيى الأمير عبد الرحمن بالقضاء على ثورتهم عمر بن حفصون وأولاده من بعده. وقد كان عمر قد حل به الضعف في عهد عبد الرحمن، ورأى أن يسالم الأمير، فأمنه، وكتب له عهداً ولعقبه من بعده ما وقَّفاً. وارتحن عنده عبد الرحمن بن عمر بن حفصون؛ لضمان تنفيذ الاتفاق. لكن الأمر اختلف بعد موت ابن حفصون سنة ٣٠٥ هـ^(٤) إذ عاود بنوه نُكَّثَ العهد، وشق عصا الطاعة، وقطع الطرق، والاعتداء على الآمنين، لكن الأمير عبد الرحمن وجيوشه كانوا لهم بالمرصاد، حتى وفاة حفص آخرهم بعد سنة ٣٢٠ هـ^(٥).

بعد أن نجح الخليفة عبد الرحمن الناصر في افتتاح مدائن غربي الأندلس^(٦)، سَمَتَ همته لفتح مدينة طَلَبُطَّة^(٧). ورأى الناصر -قبل أن يرسل إليها الجيوش- أن يقدم الإعدار والإنذار أولاً؛

(١) هي أعظم مدن الأندلس، وهي قاعدة الأندلس، وأم المدائن، ومُسْتَقَرَّ الخلافة، ودار الإمارة. بينها وبين الساحل خمس ليال. وآثار بني أمية بها ظاهرة، وبها الجامع المشهور. وهي حصينة بسور من حجارة، ومبانيها متصلة من الشرق والشمال، ومساكن العامة في روضها، وأكثر ركوب أهلها العجلات (المسالك والممالك لابن خُرْداذبَة ٨٩، والمسالك والممالك للإصطَخْرِي ٣٥، وثرثرة المشتاق ٥٧٤/٢-٥٧٥، وفرحة الأنفس لابن غالب ص ٣٦).

(٢) ابن حيان في (المقتبس) : ٨٣/٥-٨٤.

(٣) تراجع التفاصيل في المقتبس ٦٩/٥ وما بعدها، والبيان المغرب ١٢٩/٢-١٣١، وأعمال الأعلام (قسم الأندلس) ٣٥، وتاريخ ابن خلدون ١٧٥/٤، والتاريخ السياسي لمدينة إشبيلية، للدكتور حمدى عبد المنعم ص ١٠٢-١١٨.

(٤) المقتبس لابن حيان ١٣٨/٥، وهو أرجح من تاريخ ٣٠٦ هـ، الذي أورده ابن الخطيب في (الإحاطة) ٤٢/٤، وأعمال الأعلام (قسم الأندلس) ص ٣٢. وقد بعد كل من الضنى في (بغية الملتبس) ص ٤٠٦، والذهبي في (تاريخ الإسلام) ٤٠٧/٢٠، لما ذكرنا وفاته سنة ٢٧٥ هـ.

(٥) تعاقب بعد وفاة عمر بن حفصون بنوه : جعفر، ثم سليمان، ثم حفص. وقد حاصرتهم قوات الناصر في قلعتهم الحصينة (تُبَشْتَر)، التي مات بها أبوه (في كورة رية). وقاد الناصر الحملات بنفسه سنة ٣٠٨، ٣١١ هـ، ثم أوفد قائده الوزير عبد الحميد بن بسيل سنة ٣١٤ هـ (بسبب القحط). وأنزل بهم ضربات موجعة، وماتوا واحداً بعد الآخر، ولم يتخدد الناصر بظلمهم الأمان؛ لتعدد نكبتهم وخيانتهم، خاصة بعد التأكد من ارتدادهم، ودفن أبيهم عمر، وأخيهم سليمان على النصرانية (المقتبس ١٦٨/٥-١٦٩، ١٨٤-١٨٥، ٢٠٤-٢٠٦، ٢٠٩-٢١٢، والبيان المغرب ١٨٣-١٨٤، ١٩٢-١٩٧، وأعمال الأعلام (قسم الأندلس) ٣٢-٣٤، ودولة الإسلام في الأندلس لعنان (المصر الأول، القسم الثاني) ص ٣٨٣-٣٨٦).

(٦) مثل : باجة، وأكثونية، وماردة، وبَلْبَلُوس، وششتين. وذلك سنة ٣١٧ هـ (المقتبس ٢٤٥/٥-٢٨٠).

(٧) هي أم المعافل، وقاعدة المدائن منذ الملوك الأوائسل، وليس في الجزيرة أمتع منها. وأهلها أحلاط من العرب، -

كسى يقطع على أهلها وقادتها الحجة، فأرسل إليهم وفداً من أكابر الفقهاء والشخصيات^(١)، داعياً إياهم إلى الطاعة والجماعة. فلما تبين له خداعهم، خرج إليهم بالجيوش سنة ٣١٨هـ، وقد أعمل فكره وعقله وخبرته في تشديد الحصار على طليطلة ومن بها^(٢). وفي سنة ٣١٩هـ واصل إرسال قادته وجيوشه إلى هناك؛ لمزيد من تشديد الحصار^(٣). وفي سنة ٣٢٠هـ خرج الناصر بنفسه يغزو تلك المدينة الحصينة للمرة الثانية. وقد حاول أهلها وقادتها الاستجداد بالنصارى في الشمال، لكن قوات الناصر تصدت لهم، وأجبرهم على الفرار؛ بما دفع قائد وأمر طليطلة (ثعلبة بن محمد بن عبد الوارث) إلى طلب الأمان، فأمنه الناصر، وعفا عنه. فامثل أهل طليطلة فعله، فأمن الناصر الجميع، وهدم ما رأى هدمه من المدينة، وأعاد تجديد ما رآه، وترك فيها من القوات والقادة ما يضمن حسن السيطرة عليها^(٤).

تعد غزوة الخليفة الناصر لسرقسطة^(٥) سنة ٣٢٥هـ، وما تبعها من استئمان صاحبها (محمد ابن هاشم التجيبي) سنة ٣٢٦هـ^(٦) أعظم برهان على ما يمتلكه الناصر وجيوشه وقادته من قدرات فائقة على الحرب والتدبير، والحصار الطويل، وإرغام العدو - في النهاية - على الانصياع للطاعة، والاستسلام للجماعة^(٧).

- والبربر، والموال. وبما هم عظيم (تأخ)، وأهلها خارجون عن الطاعة، ولا بدفعون لى أمية حباية. كانت عاصمة الروم، ووجد بها المسلمون كنوزاً هائلة. لها فواكه وساتين عديدة المثال (البلدان ص ١١١ - بكسر الطاء الثانية، والمسالك والممالك للإصطخرى ٣٦، ونزهة المشتاق ٥٥١/٢، ومعجم البلدان ٤٥/٤ - ٤٦، بفتح الطاء الثانية، وفرحة الأنفس ص ١٩، يضم الطاء الثانية، ووصف الأندلس لابن الشباط ص ١٤٨، والمغرب على المغرب (قسم الأندلس)، ٩٨/٢، ونفع الطب ١٥٦/١ - ١٥٧).

(١) من أكابر الفقهاء: محمد بن عبد الملك بن أيمن، ومحمد بن عبد الله بن أبي عيسى. ومن وجود أهل الخدمة: عبيد الله ابن عبد الله الزنجاني في نقر معهم. (المقتبس ٢٨٠/٥).

(٢) البيان المغرب ٢٠٣/٢ - ٢٠٣، والمقتبس ٢٨٠/٥ - ٢٨٤.

(٣) البيان المغرب ٢٠٤/٢، والمقتبس ٢٨٧/٥ - ٢٨٨.

(٤) مروج الذهب ١٣٩/١، والمقتبس ٣١٧/٥ - ٣٢٢، والكامل ٣٦٧/٧ - ٣٧٠ (وجعل تاريخها سنة ٣١٥، وهو غير صحيح)، والبيان المغرب ٢٠٦/٢ - ٢٠٧، ومخطوط عيون التواريخ (نسخة الظاهرية) ورقة ١٦ (ومعلوماته غير صحيحة، إذ جعل الفتح ثم قهراً؛ لفرض الطاعة، وأن خلقاً من أهلها قتلوا، كما جعل تاريخها ٣١٦هـ)، وتاريخ ابن خلدون ١٨١/٤، والمسعودي في الأندلس للوزي (ترجمة: د. حسن حسني) ٢٣١/١ - ٢٣٦.

(٥) بلدة مشهورة بالأندلس، تحصل أعماها بأعمال تطيلة. ذات فواكه عذبة، ولها فضل على سائر فواكه الأندلس، وتقع على ممر كبير، وتنتج التباة والمنسوجات الرقيقة الراقية، وتشتهر بالملح الأبيض الصافي. (معجم البلدان ٣/ ٢٤٠، ووصف الأندلس لابن الشباط ١٥٠).

(٦) نصر الأمان في (المقتبس) ٤٠٥/٥ - ٤٠٧. وشهده من الفقهاء: عمر بن يحيى بن عمر بن لبابة (الذبل والكنمة، للمراكشي، السفر الخامس، القسم الثاني ص ٤٧٢ (رقم ٨٣٩). لكن به تحريفاً؛ إذ جعل اختلاص هذا الناصر سنة ٣٣٦هـ، بدلاً من ٣٢٦هـ.

(٧) المقتبس ٣٥٧/٥ - ٣٦٥، ٣٩٣ - ٣٩٩، وترصيع الأخبار للدلائى ص ٤٥.

وهكذا، نجح الناصر بهذه المعارك التي خاضها، وبغيرها^(١)، وبجاداته فن الحصار، واستئصال القواد وتأمينهم، في توحيد البلاد تحت رايته.

علاقات الناصر مع نصارى الشمال:

لم يكن حرص الناصر على إخضاع كافة الثائرين لسلطان بني أمية بالأندلس نابعاً من فراغ، وإنما كان عملاً له ما وراءه من مواجهة اعتداءات نصارى الشمال، وكَفَّ ترويع الأميين في مناطق الشغور خاصة، وإبراز هبة المسلمين كعامل مهم يردع به أطماع ممالك الشمال المسيحية^(٢). لقد توالى انتصارات الناصر الداخلية، وأحسن قيادة جيوشه، وأحسن التصرف مع شعبه ومع الثائرين عليه، حتى استقطبهم، وضمهم إلى صفوفه، فحرم أعداء الشمال من تأييد حكام الشغور. لقد كان نجاح الناصر - في تحقيق ذلك كله - يُعْظَم فرصة انتصاره على النصارى، ويحقق أهدافه حيالهم^(٣).

علاقة الناصر بالمغرب:

ونعني بذلك موقفه من العبيدين المناوئين لأهل السنة، وموقفهم منه. ولا شك أن العداء الشديد متبادل بين الطرفين؛ نظراً لاختلاف المذهب من جهة، ولتناقض المصالح من جهة أخرى. وقد بذل كلا الطرفين ما في وسعه - في ضوء ظروفه الداخلية، وعلاقاته الخارجية - للسيطرة على الآخر، بل لتقليص نفوذه في مناطق سيادته؛ توطئة للقضاء عليه. لقد تطلع العبيديون للسيطرة على المغرب الأوسط والأقصى؛ تمهيداً للعبور إلى بلاد الأندلس ونشر التشيع بها. وفي الوقت نفسه أحسَّ الناصر - منذ ادعاء العبيديين الخلافة - خطورتهم الشديدة، وتهددهم القوى لدولته، خاصة وهم يمتلكون أسطولاً بحرياً قوياً، يستطيعون به العبور إلى الأندلس.

(١) مثل، فتح إفريقية (٣٠٠هـ). (المقتبس ٦٦/٥)، وفتح القائد أحمد بن محمد بن إلياس ماردة صلحاً ٣١٦هـ (السابق ٢٣٨/٥ وبعدها). وقيل ذلك إخضاع بني ذى النون بكورة شتت بركة ٣١٢هـ (السابق ١٩٥/٥-١٩٦، وثورات البربر في الأندلس في عصر الإمارة الأموية (١٣٨-٣١٦هـ) للدكتور حمدي عبد المنعم ص ٦٣).

(٢) وهي ممالك: ليون، ونبرة (نافار)، وقشتالة. (حول التعريف بها، وبظروفها الداخلية التي أثرت في علاقاتها بالمسلمين في الأندلس يراجع: صبح الأعشى ٢٧٠/٥، وكتاب الدكتور رجب عبد الحليم: العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية ص ١٩٣-٢١٠).

(٣) حول عوامل القوة في عهد الناصر، وتأثيرها في العلاقات بإسبانيا النصرانية ينظر في (العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية) ص ١٦٦-١٦٨، ويمكن مطالعة أخبار بعض حروب الناصر ضد نصارى الشمال سنوات: ٣٠٨، ٣١٢، ٣٢٧ (ضد نصارى حليقية، والبشكنس، وجموع النصرانية من الجلالة في موقعة الخندق) في: (المقتبس ١٥٩/٥-١٦٨، ١٨٩-١٩٥، والبيان للمغرب ١٨٤/٢-١٨٩، وأعمال الأعلام (قسم الأندلس) ص ٣٦).

ويمكن تحديد المعالم العامة لسياسة الناصر في بلاد المغرب في النقاط الآتية:

- ١ - قطع الصلة بين العبيدين بالمغرب، وثوار الأندلس (خاصة عمر بن حفصون)^(١).
- ٢ - استغلال الصراع القائم ببلاد المغرب بين صنهاجة وكُتامة المواليين للعبيدين من جهة، وبين زناتة المعادين لهم من جهة أخرى، إذ قام الناصر بتأييد زناتة، ومدها بما تحتاج إليه من سلاح وعتاد؛ لزراعة استقرار العبيدين بالمغرب^(٢).
- ٣ - إعلان الناصر قيام الخلافة الأموية بالأندلس في ذي الحجة سنة ٣١٦هـ، ونصّب نفسه أميراً للمؤمنين^(٣)، متحدياً بذلك بني عبيد، مهدداً نفوذهم.
- ٤ - الترحيب بكافة الخارجين على طاعة العبيدين، وتقديم الرعاية لهم في الأندلس^(٤)، وإرسال الجيوش الأندلسية التي تمكنت من ضم سبتة^(٥) وطنجة^(٦)؛ مما ساعد على التحكم في الشواطئ القريبة من الأندلس، ومنع الأسطول العبيدي من الهجوم على الأندلس.
- وبعد، فقد وُقِّع الخليفة الناصر في إدارة شئون الأندلس (داخلياً، وخارجياً)، رغم قسوة وصعوبة الظروف، التي ولى فيها أمور البلاد، لكن كما يقول المثل العربي: (وَأَقْبَ شَرْ طَبَقَةً)^(٧). ولعل من أفضل من عبّر عن منجزات الناصر بصدق مُنذر بن سعيد القاضي في خطبة له بين يديه، إذ يقول: "ألم تكن الدماء مسفوكة فحققتها، والسبل مَحُوفَةً فَأَمْنُهَا، والأموال مُنْتَهَبَةً فَأَحْرَزَهَا، والبلادُ خراباً فَعَمَرَهَا، والثغورُ مُهْتَزَّمةٌ فَحَمَاهَا ونصرها؟"^(٨).
- وبالنظر والتأمل في عوامل نجاح الناصر، يمكن رصد الخطوط العامة لسياسته كما يلي:
- ١ - تقديم الاهتمام بالأولويات دون التشاغل بتوافه الأمور^(٩)، التي يمكن أن يقوم بها

(١) البيان المغرب ١٦٥/٢، وتاريخ الحربة الإسلامية في المغرب والأندلس للدكتور سيد سالم، والدكتور مختار العبادي ص ١٧٤.

(٢) البيان المغرب ١٨٠/١.

(٣) المغنيس ٢٤١/٥-٢٤٢، ونحت: (مظاهر من الصراع المذهبي بالأندلس) د. فرحات الدشراوي في (الخطبة العربية للثقافة) ع ٢٧، ١٩٩٤م، ص ٢٥-٢٦.

(٤) البيان المغرب ١٧٥/١.

(٥) السابق ١٨٨/١.

(٦) الاستقصا ١٧٨/١.

(٧) وهو يُعزب للموافقين في الشدة وغيرها، فطروف الأندلس عدت تولي الناصر شئونها كانت قاسية، وهو رذل هذه الظروف، وعلى موعد مع القدر؛ لصارعنها والتغلب عليها. (لمزيد من شرح مورد المثل، وأصل مضربه، يراجع: لسان العرب، مادة ش.ن.ن، ج ٤ ص ٢٣٤٥، والمعجم الوسيط ١/٥١٦، ومعجم الأدباء لياقوت ج ١١).

سواء: فاهتم بشأن الثغور وحمايتها، وتأمين أهلها وحل مشكلاتهم، واستشارة ذوي الخبرة فيما يصلح لهم^(١).

٢ - حسن تنظيم الدولة، والتدقيق في اختيار المسؤولين والوزراء والقواد^(٢):

فحظيت الأندلس في عهده بنظم إدارية راقية^(٣). وكانت له سياسة في كثرة تغيير الوزراء، ونقلهم من وظائفهم كل عام تقريباً^(٤)، كما كان يحسن توزيع الأعمال على وزرائه؛ حتى يتم تصريف شئون الرعية، والتسهيل على الناس^(٥). وكان شديد الحرص على تحقيق العدل في البلاد، فاهتم بخطة المظالم^(٦)، وبتولية القضاة وتوجيههم^(٧).

٣ - سياسته مع المتمردين والثائرين: العفر خُلَّة أصيلة في الناصر^(٨). وقد أحسن عندما ولى الأندلس، وقام بإصدار عهود أمان لكافة الخارجيين عند استسلامهم، على أن يعودوا إلى

- الأمير عبد الله بن محمد انشغاله بالأمر السيرة، كالحكم للمرأة في غرنا، والحَمَال في مَن ما يحمله، والدَلَال في مَن ما ينادى عليه. وأضاع الأمور المهمة، والنظر في الخروب، ومداواة الثائرين، حتى اضطرت جزيرة الأندلس. وأمر الناصر بضرب رجل، أتاه يشكو ويصيح؛ لأنه اشترى حملاً من السوق، فإذا به عيب، وقد ألزمه أهل السوق به، وهو لا يريد أخذه. فعاقبه الناصر؛ لأنه شغفه بأمر يمكن لصاحب السوق علاجه.

(١) اهتم الناصر بغيره سواء المظنة جهة بلاد المغرب، أم تلك المتاحمة للنصارى في الشمال. وأعتقد أنه كان يُنحِرُ لها مرائبها، وقوادها (يمكن معرفة بعض مواصفات المرائبين لها، وشروط قادتها والقائمين عليها في (مخطوطة تحفة الأنفس لابن هذيل ورقة ١٣، ٣٨). وكان الناصر يستشير ذوي الخبرة بالثغور لِمَا فيه صلاحها (ترتيب المدارك مجلد ٢ ج ٤ ص ٤٥٤). وكان يزيل شكاوى أهلها، ويخفف عنهم مغارمهم، كما حدث مع أهل ثغر طُرُوشَة في ربيع الآخر سنة ٣٢٩هـ (المقتبس ٤٦٨/٥)، وبمحت دكتور كمال أبو مصطفى (تاريخ مدينة طرطوشة)، في ندوة السعودية ١٩٩٣م، ص ١٢.

(٢) اعتمد الناصر على عدد من الوزراء والقادة العظام، ويمكن معرفة أسماء بعضهم والتعريف بهم في: أحبار مجموعة ١٣٧-١٣٨، وحنوة المقتبس ٥٣٦/٢، ٥٥٤، والبيعة ص ٤٥٥، وتعريف د. محمود مكي بالقائد العظيم أحمد بن محمد بن أبي عبيدة (ت ٣٠٥هـ) في تعليقاته على (المقتبس) لابن حيان (بتحقيقه) ص ٥٥٥-٥٥٦، ود. حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٠٨. وأعتقد أن الناصر كان يطبق معايير اختيار الأكفاء للقيادة (الإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة) للمديحي ٣٦١ وما بعدها. وكان الناصر يعزل كثيراً من الوزراء دفعة واحدة؛ لما يذكره عليهم، فلعلهم فُصِّروا في أداء واجهم (المقتبس ٤٧٠/٥-٤٧٢).

(٣) يمكن معرفتها من خلال كتاب: (نظم وإدارة بني أمية بالأندلس) للدكتور التهامي الراحي ص ٢٨ وبعدها.

(٤) فلعله أراد عدم استئثار أحد بسلطة دونه، فهو يريد جمع كل السلطات في يده، وعدم إعطاء فرصة للخروج عليه، أو للتبسط معه. (شيوخ العصر في الأندلس، للدكتور حسين مؤنس ٦٢-٦٣، ومعالم تاريخ المغرب والأندلس ٣٢٣-٣٢٥).

(٥) البيان ٢٢٠/٢.

(٦) تاريخ القضاء في الأندلس، للدكتور خلاف ٥٤٧-٥٤٨.

(٧) تراجع بعض توجهاته لقضاته في: (قضاة قرطبة ط. الكتاب المصري اللبناني) ص ٢٣٢-٢٣٣.

(٨) البيان ٢٠٦/٢.

الطاعة والجماعة^(١). وكانت سياسته مع المعاندين منهم تقوم على الإرهاب وإظهار القوة، والمحاصرة للقلاع والحصون فترة طويلة، حتى يستسلم الثوار، ويطلبوا الأمان، فيمنحهم إياه، ويترلم بجواره في قرطبة مكرمين، حتى ينصلح حالهم، فيستفيد منهم في حروبه وغزواته، ثم يوليهم بلادهم بعد الاطمئنان إلى إخلاصهم. فهي سياسة تتراوح بين الشدة واللين الحذر، الذي يحفظ للدولة هيبتها، ويحقق بالسلم ربما ما يمكن الاستغناء به عن الحرب^(٢). والناصر خلال ذلك كله لا يقف مدافعاً عما بقي تحت سلطانه كما فعل جده عبد الله^(٣)، بل كان بشخصيته وعزمه، وعلمه بسوء حال شعوب الثائرين، يجبرهم على الاستسلام والانقياد له^(٤)، حتى بسط نفوذه على كافة النواحي. وقد يؤخذ عليه قسوته أحياناً^(٥)، ونعتقد أنها كانت في ظروف استثنائية، وفي أمور لا تقاوم فيها، ولا تسامح من وجهة نظره.

٤ - حسن متابعته تنفيذ توجيهاته: فقد كان يهتم بمصالح أهل الكور والثغور والحصون التي يفتحها، فينظم شئونها، ويأمر بتعميرها، وإصلاح ما خرب منها، ثم يعود بعد فترة - بصورة مفاجئة - في زيارات ميدانية، أو عند العود من إحدى الغزوات الأخرى فيشرف بنفسه على تنفيذ ما أمر به من قبل^(٦).

٥ - موضوعيته واتزان علاقاته الخارجية: أيقن الناصر أنه لا سبيل إلى القضاء على العبيدين بالمغرب، فقام بالممكن مُتَمَلِّلاً في إثارة القلاقل، وإمداد الثائرين عليهم بصفة دائمة، بحيث تشغل الدولة العبيدية عن التفكير في ضرب الأندلس، بالإضافة إلى السيطرة على أهم المدن المغربية، التي تعد مفاتيح دخول الأندلس (سبتة، وطنجة) وإعداد أسطول ضخم مستعد للدفاع عن الشواطئ الأندلسية. وبالنسبة للنصارى في الشمال، فهو وإن لم يستأصل شأفتهم^(٧)،

(١) المقتبس ٥٥/٥، ٥٨ وغيرها، والبيان ٢٠٠/٢-٢٠١، ودولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الثان ص ٣٧٧-٣٧٨، وفي تاريخ المغرب والأندلس ١٨٠، ومعال ص ٣١٣.

(٢) النقود الإسلامية (الكتاب الثان) د. طاهر راغب ص ٨٨-٨٩.

(٣) دكتوراه (الحياة العلمية في قرطبة)، لمصطفى محمد إبراهيم ص ٥٧.

(٤) موسوعة التاريخ الإسلامي ٥٣/٤.

(٥) مثل: قتله بعض حواريه أو إحرافهن، وتسليط أسود مغربية على بعض من يسخط عليهم، وقلته ولده عبد الله بيده. (البيعة ٣٤٦-٣٤٧، ٣٥٠، والمغرب خمس الأندلس- ١/١٨٦، والبيان ٢/٢١٧، ومخطوط عيون التواريخ (الظاهرة) ورقة ٦٠، وتاريخ ابن خلدون ٤/١٨٤، والجموع ٣/٣٤٦).

(٦) يراجع في ذلك ما يختص به (بيشتر) سنة ٣٠٨ هـ (البيان ٢/١٧٩-١٨٠، وسنة ٣١٧ هـ (المقتبس) ٥/٢٥٠. وكلذا ما يتعلق به (سرقسطة) سنة ٣١٦ هـ، ٣٢٦ هـ في (المقتبس) ٥/٢١٥، ٤١٩.

(٧) يذكر عنان في (دولة الإسلام في الأندلس) ع ١٤ في ص ٤٧٥-٤٧٧: أن حروب الناصر وفتحاته في بلاد النصارى براها البعض أقرب إلى الغامرة وحب الغنيمة، إلا أن فيها معنى الجهاد، ولم تنح فيها فرصة الاستقرار. وينظر للأمر مثالية ناحت آخر، ف يرى أن الناصر-من بعده المستنصر، والمنصور-أعرفوا في الاهتمام بالمغرب، ومواجهة الشيعة به على حساب تحويل الأندلس كلها إلى دولة إسلامية (يقصد: بما فيها ممالك نصارى -

إلا أنه نجح في إلحاق عدة هزائم بهم، وأظهر لهم من القوة والهيبة ما جعلهم يتورعون عن الاعتداء على النفور الأندلسية. ووصل الأمر - في النهاية - إلى وجود سفارات، ووفود تأتي إلى قرطبة بالمهدايا والرسائل والكتب، تخطب ود. الناصر، وتلح في السلم، والمصالحة،^(١) فاستجاب لهم مع الحذر من غدرهم وعدوانهم.

الخليفة الحَكَم المستنصر بالله* (٣٥٠-٣٦٦هـ/٩٦١-٩٧٦م):

توفي والده الخليفة الناصر بعد عمر مديد بلغ ثلاثاً وسبعين سنة، بعد أن قضى في حكم الأندلس ما يزيد على نصف قرن^(٢)، حقق خلالها إنجازات طيبة على المستوى الداخلي والخارجي على سواء. وعلى الرغم مما عيَّب على الناصر من حكم مطلق، إلا أنه أحسن إعداد ولي عهده الحكم، ودَرَّبَه على تحمل مسؤوليات الحكم، والنهوض بأعبائه الضخمة^(٣). ولا شك

- الشمال). بحث : الأندلس بين الاختيار والاعتبار : محاولة لدراسة ضياع الأندلس من الفتح حتى نهاية العصر الأموي) ص ١١ (ندوة السعودية ١٩٩٣م).

(١) تراجم السفارات الواردة على الناصر من قبل ملوك القسطنطينية، والصفالية، والجلالقة، وورشلونة وغيرهم في سنوات ٣٢٣هـ، ٣٢٤هـ، ٣٣٤هـ، ٣٣٨هـ، ٣٤٢هـ في: المقتبس ٣٦٨-٣٦٥/٥، ٣٧٩-٣٨١، ٤٤٩-٤٥٠، ٤٥٤، والبيان ٢/٢١٣، ٢١٦-٢١٥، ٢١٨، وتاريخ الإسلام ٢٦/١٣٣-١٣٤. وأعمال الأعلام ٣٧، والفتح ٤١/٣٦٦-٣٦٧. وأزهار الرياض ٢/٢٥٨، وبعدها، وعنان : دولة الإسلام في الأندلس ع ١٤ ص ٢٢ و٤٥٨-٤٥٤، وفي تاريخ المغرب والأندلس ٢١٣-٢١٨، ومحاسن سُلَوى عبد الحائق ص ١١٤-١١٦، ودولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين ٢٥٤-٢٥٥. وأحياناً، فإن ابن خلدون يذكر أنهم كانوا يُحكِّمون الناصر فيما سحر بينهم من منازعات (تاريخه ١٨٢/٤-١٨٤).

(٢) له ترجمة في : الخُدُود للحمدي ١/٤٢٦-٤٢٧، والبعية ص ١٨-٢١، والحنة السراء ١/٢٠٠-٢٠٥، والمغرب (قسم الأندلس) ١/١٨٦-١٨٧، والبيان المغرب ٢/٢٣٣، وبعدها، ونهاية الأثر ٢٣/٤٠٠-٤٠٢، وتاريخ الإسلام ٢٦/٣٥٨-٣٥٩ (وفيات سنة ٣٦٦هـ)، والإحاطة ١/٤٧٨-٤٧٩، والفتح ٢٦/٣٨٦-٣٨٧. (٢) لا يفوقه في طول فترة حكمه سوى المستنصر العبيدي، الذي حكم ٦٠ سنة. (الدباية والنهاية ١١/٢٥٣).

(٣) ودلائل ذلك موفرة متضافرة في المصادر : لقد عُيِّنَ الناصر بترتيبه تربية خاصة متميزة عن سائر إخوته في قصر الإمارة (المقتبس ١٨/٢٠-٢٠). واستخدمه على قصده مع الوزير ابن خُدَّو لما حرج الناصر لفتح سنة ٣٠٨هـ (البيان ٢/١٧٦)، وسنة ٣٠٩هـ (المقتبس ٥/١٧١-١٧٢)، وكان ما بين السادسة من عمره. وفي حوال ٣١٠هـ (وهو ابن ثمان سنين) أخذ له الناصر البيعة بولاية العهد من بعده وقد ترعرع (البيان ٢/٢٢٨)، وأعمال الأعلام ٤١. وفي سنة ٣١٥هـ أحضره الناصر من قرطبة، استبقاً إليه، وتعبداً له على حو المعارك والجهاد في بداية عزوة بيشتر، ثم أمر الفاتدة بإعادته، فأعادوه، وعادوا للمعركة ثانية دون أن يلم أحد منهم بمسزله ولا بأهله. (المقتبس ٥/٢١٢). ثم خرج لأول مرة مع والده للفرز في العام التالي (البيان ٢/١٩٣-١٩٤). وأُخرج معه سنة ٣١٦هـ؛ ليرى أنه وهو يضبط أمور بيشتر، ويصرف شئونها (المقتبس ٥/٢١٥-٢٢٠). وفي سنة ٣٢٩هـ اختبر الناصر كفاءته، فأُسند إليه عدة أعمال للإشراف عليها كالجاية والخزانة، ودار الضرب، ففهم ما في هذا كله، وأحسن إدارته، فاستراح الناصر إلى كفاءته. (المقتبس ٥/٤٦٩-٤٧٠). وفي سنة ٣٣٠هـ قلده أبوه الإشراف على مملكته ككل بدل (أحمد بن شُهَيْد، الذي صُرف عن حطة الإشراف، فاستراح الناصر بذلك إلى أمين دى قسوة (المقتبس ٥/١٨٧). وفي عام ٣٤٥هـ، عهد أبوه إليه بالنظر وإبداء الرأي في شروط الصلح مع ملك حليقية (أردزون بن رُذْمِر)، فأفضاه الحكم (البيان ٢/٢٢١). ويعلق دوزي في كتابه: (المسلمون في الأندلس)، مترجم، ج ٢ ص ٤٥ : أراد الناصر وقد كثرت سنه، ورأى الأمر يتعلق بانه الحكم من بعده، فأشركه في ذلك الأمر.

أن طول عمر الناصر^(١) أعطى الفرصة كاملة لنضج شخصية الحكم، وتراكم خبراته. وبالإضافة إلى ذلك، فقد تسلم بعد وفاة والده دولة مستقرة قوية مهيبة الجانب موحدة. ومن هنا، فإن عهد المستنصر يعد امتداداً لعهد أبيه، وجئى لثمرات كفاحه الطويل. وعلى الجملة، فقد كانت سياسة الابن كأبيه، فلم يغب إلا شخصه^(٢).

وأحب أن أبين الملامح العامة لسياسة المستنصر الداخلية مركزة فيما يلي:

١ - حرصه الشديد على إقامة شرع الله بين رعيته: فقد تطلع المستنصر إلى القضاء على الخمر نهائياً في الأندلس، وأمر بإزالتها، وتشدد في ذلك، حتى استشار المقربين منه في استئصال شجرة العنب من كافة جهات الأندلس، لكنه توقف عن ذلك لما قيل له: إنما يمكن عملها من التين وغيره^(٣).

٢ - اهتمامه بأحوال رعيته وتفقدته لها: وسلك في سبيل ذلك طرقاً عدة، منها: الاهتمام بإقامة العدل بين الناس، فهو يستشير الثقات من أهل العلم والخبرة قبل تولية المناصب^(٤)، ويهتم بتوجيه قضائته للحكم بالعدل، وإعطاء كل ذي حق حقه^(٥). وكان يرسم لعماله ولولاته منهج الحكم الصحيح، الذي يجب أن يتوخوه في مهامهم الموكلة إليهم^(٦). وكان يقرب عماله، ويتابع سيرهم في رعيته، وذلك عن طريقين: إما أن يرسل من لدنه مندوبين يسألون أهل كل

(١) أحس الناصر بذلك، فقال يوماً للحكم: "لقد طَوَّنَا عليك يا أبا العاصي". (الحلة السراء ١/٢٠٠). ومن هنا، فقد ولى الحكم الخلافة وهو في سن الكهولة، فقد ورد في (الجنوة) ٤٣/١، والمغرب (قسم الأندلس) ١٨٦/١: أنه ولى وهو ابن ٤٧ سنة. ووردت رواية أخرى في (الجنوة) تقول: وقيل: ٤٨ سنة، وشهرين، وبومين (الخميس ٣ من رمضان ٣٥٠هـ). وأعتقد أن الرواية الأخيرة هي الأرجح، فهي تتفق تماماً مع ما ورد من تحديد مولد الحكم بغرة رجب، ساعة صلاة الجمعة سنة ٣٠٢هـ. (المقتبس ١٠١/٥-١٠٢، والبيان ١٦٦/٢).

(٢) النفع ١/٣٨٢، وأزهار الرياض ٢/٢٨٦.

(٣) جذوة المقتبس ١/٤٣، والبغية ١٨، والحلة السراء ١/٢٠٣، والمغرب (قسم الأندلس) ١٨٦/١، ونهاية الأرب ٢٣/٤٠٠، وتاريخ الإسلام ٢٦/٣٥٩.

(٤) كان أحمد بن مطرف بن عبد الرحمن المعروف بـ(ابن المشاط)، المتوفى ٣٥٢هـ صاحب الصلاة، وكان رجلاً مُطْعِماً عند حكام الأندلس، يشاورونه فيمن يصلح للأمور، ويرجعون إليه في ذلك. وقد سأله المستنصر يوماً عن يلازمه من أحداث (شباب وأعد) قرطبة، يصلح أن يؤهل لخال ربيعة، فأشار المشاط بـ(خلف بن أحمد) المعروف بـ(ابن أبي جعفر)، الذي كان من أزم تلاميذه له، وكان أحد رجال القاضي محمد بن يَتَّى بن زَرْب العدول (جذوة المقتبس ١/٢٢٨، ٢٢١).

(٥) تراجع توجيهاته الصادرة في ظُهر (مرسوم) ولايته للقاضي محمد بن إسحاق بن السليم. (تاريخ قضاة الأندلس، للباهي ص ٧٥-٧٦). وقد انتصف لشاعر ضُرب ظلماً من عامل مُرْسِيَّة (الذيل والصلة للبراكشي، السفر الخامس، القسم الأول ص ٢٤٠-٢٤٢)، وكان يهتم بالمظالم (تاريخ القضاة في الأندلس) لندكتور خلاف ص ٨٢-٨٤، ٥٥٠.

(٦) كفعله مع عامله على شطر كورة رُبَّة. (المقتبس، ط. المحيى) ص ٧٧-٧٨.

إقليم عن أحوالهم، ويعرفون منهم رأيهم في عملهم، ويلمسون بأنفسهم رضا الناس أو سخطهم على معاشهم وحياتهم^(١). وإما أن يستدعى وفود الولايات والكرور إلى حضرته بقرطبة، وهي وفود تضم العمال، وممثلى عامة الناس، ويستمع من العمال إلى تقارير عن كورهم، ويسأل الطرف الآخر عن مدى صدق ما رُفِع إليه، فإن صدقوا عاملهم كافأه، وإن كذبوه عاقبه^(٢).

٣ - المهذوء والرفق: وهذه سمة بارزة في عهده، فلم نقرأ -فيما قرأنا- عن ثورة تار، أو اضطراب إقليم، أو خروج عن الطاعة. لقد مر عهده في أمن وسلام، وسكينة واطمئنان. ولعل مرد هذا يرجع إلى جهود أبيه الناصر من قبل، وإلى صفى: التسامح^(٣)، والرفق^(٤) اللتين يتحلى بهما المستنصر.

والآن، أحاول تركيز العنصر الثانى والأخير في سياسة المستنصر، وهو علاقاته الخارجية، على النحو الآتى:

موقفه من المغرب:

أ - استمرار النفوذ الأموى الأندلسي في المغرب في بدايات عهد المستنصر، كما كان أيام الناصر. وزاد الاهتمام بمدينة سبّته، فَبُنِيَ حولها سور سنة ٣٥١هـ^(٥)، وأسقطت الضرائب عن أهلها سنة ٣٥٣هـ^(٦).

ب - استكمال المستنصر تحصينات ثغر ألمرية المتاخمة للسواحل المغربية؛ لمواجهة أى هجوم عبيدى محتمل، وذلك سنة ٣٥٣هـ^(٧).

ج - استمرار المستنصر استقبال وفود المغرب المايعة له، المعادية للعبيدين^(٨).

(١) السابق: ص ١٠٠.

(٢) المقتبس (ط. الخجى) ص ٥٧، ١٥١-١٥٢.

(٣) الأمتلة على تساعده متعدد، منها: أنه كان يوقع العقوبة مستحقها، ثم يقبل فيهم شفاعة الشافعين، ويردهم بعد فترة إليه، ويعفو عنهم (عفا عن كثير خدمه وبعض خدمه الصقالبة لما أهلوا، فغرمهم، وقتل عطاء كبيرهم، ثم عفا عنهم). (السابق ١٠٣-١٠٤، سنة ٣٦٢هـ). وعفا عن محمد بن سعيد (ابن حال أبيه الناصر)، فأخرجه من السجن سنة ٣٦٣هـ (السابق ١٥٣). وسخط على حازن بيت المال (أحمد بن محمد بن حاجب) سنة ٣٦٤هـ، ثم أطلقه وردّه إلى منصبه (السابق ٢٠٢).

(٤) يجزم المؤرخون بأن عصره كان عصر هدوء ورفق بالرعية. (جمهرة أنساب العرب لابن حزم (ط. بروفيسال) ص ٩٢، والرحلة السيرة ٢٠٣/١، وأعمال الأعلام ٤١، وعنان: دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الثامن ص ٢٨٤). ومن أبرز مظاهر رفقهِ وإشفاق قلبه: إكثاره من إخراج الصدقات وتوزيعها هو وابنه هشام، حاشية في رمضان، على الفقراء والمحتاجين. (المقتبس، ط. الخجى) ص ٢٣، ٢٢٦، ٢٣٣-٢٣٤.

(٥) البيان المغرب ١/٢٢٧.

(٦) السابق: ١/٢٢٧.

(٧) السابق: ٢٣٦/٢.

(٨)راجع في ذلك: المقتبس (ط. الخجى) ص ٢٦-٢٧، ٣٢، ٨٠-٨١، وبعدها، والبيان المغرب ٢/٢٤١-٢٤٢.

موقفه من نصارى الشمال:

أ - واجه المستنصر نكت الجلالقة بعهودهم عقب وفاة الناصر، فردّ جيوشهم التي طمعت في اجتياح ثغور المسلمين، وضرب بلادهم بنفسه سنة ٣٥١هـ^(١)، وسنة ٣٥٢هـ^(٢).

ب - رغم أحداث الغدر والنكت المتوالية^(٣) من جانب النصارى في الشمال، إلا أن المستنصر لم يفلق الباب أمام المصالحة معهم، فظل يستقبل وفودهم ورسلمهم وسفراءهم، ويجدد المعاهدات معهم^(٤)، بل حَكَمَوه فيما شجر بينهم من خلافات، وسارعوا إليه؛ ليحوزوا رضاه وتأييده^(٥).

وهكذا، مضى عهد المستنصر الأموى بالأندلس، وبقي أن نذكر بعض الملاحظات النقدية، التي وجهت إليه، وكان لبعضها آثار بعيدة المدى في عدم استقرار الأندلس، وهي كما يلي:

١ - يذكر الدكتور حسين مؤنس^(٦) أن المستنصر أسرف في الانصراف إلى العلم، وأن ذلك صرفه عن القيام بمطالب الحكم كما ينبغي. ويرى أنه لو عدّل سلوكه نوعاً ما، فاكتمى بتشجيع العلم دون الاشتغال به (قراءة، وتأليفًا، وتعليقًا)، ما ظهر مثل ابن أبي عامر، وما وجد له سبيلاً إلى السلطان.

والحق أن الوضع السياسي في عهد المستنصر كان مستقرًا، وأحسن المستنصر توزيع مهام الدولة على خيرة رجاله وقواده، وكان أخف استبداداً من أبيه الناصر. أما ظهور ابن أبي عامر وسيطرته على السلطة، فليس راجعاً إلى انشغال المستنصر بالعلم، وإنما إلى ضعف صحته واعتلاله أو آخر حياته، وإصابته بالفالج^(٧)؛ مما شجع على غو نفوذ كبار رجالات الدولة، ومنهم: ابن أبي عامر، الذي استطاع بكفاءة - أمام الحكم - التدرج السريع في المناصب. هذا إلى جانب عوامل أخرى، سنظهرها بعد قليل.

٢ - أعطى الحكم لأمر العبيدين في المغرب اهتماماً مبالغاً فيه، وظل مشغولاً بخطرهم حتى بعد رحيلهم إلى مصر واستقرارهم بها، وجنّد كل إمكانات الدولة من جند وقادة وأساطيل وأمور، وحفلات استقبال ضخمة للمثالث منهم، ونفقات إسكانهم وإعاشتهم في قرطبة، وإرسال الهدايا إلى مناصريه هناك، كل ذلك لأجل أن يعلنوا الطاعة له، والدعاء على منابريهم.

(١) المصدر السابق : ٢/ ٢٣٥.

(٢) السابق : ٢/ ٢٣٦.

(٣) كما حدث ذلك سنة ٣٦٣هـ (المقتبس ط. الحجي) ص ١٨٨-١٨٩، وسنة ٣٦٤هـ (السابق ٢١٨-٢٢٢).

(٤) التفاصيل في المقتبس (ط. الحجي) ص ٢٠-٢٢، ١٣٨-١٣٩، ١٨٢-١٨٣، وتاريخ ابن خلدون ١٨٦/٤-١٨٧، والفتح ١/ ٣٨٤-٣٨٦، وغيرها.

(٥) دولة الإسلام في الأندلس، لعنان ع ١٤ ق ٢ ص ٤٨٩.

(٦) معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٣٣.

(٧) المقتبس (ط. الحجي) ص ٢٠٣ وبعدها (سنة ٣٦٤هـ)، ودولة الفرنجة ص ١٣٠.

وكان يكفيه ما اكتفى به والده من حماية سواحل الأندلس، والاحتلال المستلم لسبته وطنجة. ويسبدو أن هناك أطرافاً مستفيدة من إعطاء صورة غير حقيقية لخطر العبيدين، فاكتمبت من ذلك جاهاً ونفوذاً ومناصب وأموالاً. ولا شك أن ذلك أثر في احتياجات الأمن والدفاع عن الشغور الشمالية، وكان الأولى توجيه وتكثيف جهوده إلى أولئك النصارى ناكثي العهود، وناقضى الموائيق^(١). ويضاف - إلى ذلك - أن الإكثار من اجتلاب هؤلاء البربر بمجندهم إلى قرطبة، ومزاحمتهم أهلها، لم يعد على الأندلس بشئ، بل كلف خزائنها الكثير، وثبت - بعد قليل - عدم جدارة هؤلاء المجتلبين، وعدم إخلاصهم وولائهم للمستنصر؛ مما جعله يزل بهم النكبات، ويخرجهم من الأندلس^(٢). وبإلته أخرج جميع البربر الوافدين من المغرب، إذاً لجُنب البلاد مأساة ستقع بعد سنوات قليلة، فيها يتقاتل البربر مع سكان قرطبة في الفتنة الكبرى، التي هدمت الخلافة الأموية بالأندلس^(٣).

٣ - وأخيراً، دفعت عاطفة الأبوة الحكم المستنصر إلى الوقوع في خطأ قاتل، مال في ارتكابه إلى هواه، وعاطفته الشخصية، وهو ما لا يليق برجل دولة مثقف سياسى؛ خبير بمحن مثله. وذلك عندما عهد بالأمر من بعده لابنه الوحيد هشام الطفل الصغير^(٤)، مما يعنى فتح الباب لتدخل الأوصياء والطامعين من ذوى النفوذ في تسيير شئون الحكم؛ مما أضعف نفوذ الخلافة، ومهد الطريق إلى إحلال سلطة العامرين محلها؛ مما جرَّ على البلاد الويلات، وأنذر بأوخم العواقب، عندما حلت الساحة من القائد، الذى يستطيع إدارة الدولة.

الأندلس بعد وفاة المستنصر:

توفي الخليفة الحكم المستنصر في الرابع من شهر صفر سنة ٣٦٦هـ^(٥)، وخلف وراءه دولة قوية مستقرة في الداخل، مرهوبة الجانب في الخارج. وكانت في الأندلس بعض القوى ذات

(١) معالم تاريخ المغرب والأندلس ٣٣٥-٣٣٧.

(٢) أساء جعفر ويحيى ابنا عليّ الأندلسي الأدب مع المستنصر، وأظهرا له من التبسط والجفاء ما لا يحتمل، فحبسهما. وبعد فترة أكرمهما، وأطلقهما، وسبهما إلى بلاد المغرب ٣٦٣هـ (المقتبس، ط الحجي) ص ١٧١-١٧٤. وكذلك الحسن ابن كُتُون الذى ظل في كنف المستنصر حتى ٣٦٥هـ، ثم اختلفا، فصادر أمواله، وأجلاه وعشيرته إلى المشرق، فتوجه إلى تونس. وكان هدف الحكم التخفيف منهم، والراحة من نفقاتهم، مع التخلص من لوم قومه له عليهم. ونزل الحسن مصر، وأعلن الطاعة للعزيز، فأكرمه، وأقام مع عشيرته حتى سنة ٣٧٣هـ ثم ولاه العزيز المغرب، وأمر يوسف بن زبري بإمداده. ودخل المغرب فاطاعه البربر، وأظهر دعوة بني عبيد. (الاستقصاء ١٨٤/١-١٨٥).

(٣) تنبه إلى هذه العواقب في تحليل علمي رائع ابن حُثَّان في (المقتبس، ط الحجي) ص ١٨٩-١٩٣.

(٤) في سنة ٣٦٥هـ أعلن المستنصر عن أخذ البيعة لابنه هشام من الخاصة والعامة بسائر كور الأندلس وقرطبة، ومن في طاعته ببلاد المغرب. وهذا يعنى: أنه بوع له وهو ابن ١١ سنة، وولى الخلافة وهو ابن ١٢ سنة. (البيان ٢/٢٤٩، وتاريخ القضاء في الأندلس، للدكتور خلاف ص ٤٨٤-٤٨٥)، وبالتالي، فغير دقيق ما ذكره الذهبي من أن هشاماً ولى وله ٩ سنين (تاريخه ٢٦/٣٥٩).

(٥) البداية والنهاية ١١/٣٠٤، وأعمال الأعلام (قسم الأندلس) ٤٣.

الستطلعات المتباينة حول مستقبل الخلافة الأموية بالأندلس، منها: ولّى عهد الحكم (ابنه هشام) وأمه (صُبُح)، والحاجب (جعفر بن عثمان المصحفى)^(١)، وهؤلاء يريدون إنفاذ عهد الخليفة الراحل. وهناك الفتيان الصقالبة القائمون على شئون الحكم والقصر، وكانوا يرون تولية الخليفة ابن الناصر^(٢). وهناك (ابن أبي عامر)^(٣)، ذلك الرجل الكفاء اللامع، ذو المواهب المتعددة، الذى حاز إعجاب وثقة الحكم، فتدرّج في المناصب، حتى صار من المقرّبين إليه^(٤). وكان يتطلع إلى حكم الأندلس من خلال الوصاية على الخليفة الصغير (هشام المؤيد).

لقد أفلح ابن أبي عامر -بغض النظر عن مراعاة القيم والأخلاق- في القضاء على كافة منافسيه، واستولى على الحكم في الأندلس دون منازع. ودون دخول في تفاصيل مؤلة، نكتفى بإيراد عبارة جامعة تعبر عن مراحل بلوغه هدفه المأمول: "استعان -أولاً- بالمُصْحَفِيِّ على الصقالبة"^(٥)، ثم بغالب على المصحفى^(٦)، ثم بجعفر ممدوح ابن هانئ على غالب^(٧)، ثم بعبد الرحمن بن هاشم التحيبي على جعفر^(٨)، وعدا بنفسه على عبد الرحمن^(٩)، وقال للدهر: "هل من مبارز لي؟"^(١٠).

(١) مؤدب الحكم في صفرد. ولما ولّى الخلافة استنورده، وحمله على كتابته الخاصة، وولاه الشرطة أيضاً، وأخدمه ابنه هشاماً. أشرف على أخذ البيعة لشام المؤيد وحجه. استطال عليه ابن أبي عامر؛ لعدم كفايته في الدفاع عن الثغور، وتغلب عليه بمساعدة صهره غالب القائد مولى الخليفة الناصر. قبض عليه ابن أبي عامر، وظل في محبسه حتى توفى سنة ٣٧٢هـ. (الجدوة ٢٨٩/١، والغنية ٢٥٧، والحلة السراء ٢٥٧-٢٥٩).

(٢) البيان المغرب ٢٦٠/٢.

(٣) هو محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أبي عامر. دخل جده عبد الملك الأندلس مع طارق بن زياد، وله أثر جميل في فتحها، ونسزل الجزيرة الخضراء، فساد أهلها، وكثر عقبه ها. وكان والد المنصور من أهل الدين والعفاف والزهد. صاحب الخليفة الحكم، وولى له الأعمال من القضاء وغيره، وصار في أهل الخدمة، ثم اختصه بخدمة أم ولده هشام، فاتصل بولى العهد، وعظمت منزلته عند الناس لقضاء الحاجات. تولى الحماية بعد جهد كبير، واستند بالأمر، وغزا الصارى، ودوّخ بلادهم وحوشهم حتى توفى سنة ٣٩٢هـ. (الجدوة ١٣١/١-١٣٣، جعل وفاته ٣٩٣هـ، والبيان ٢٥٦/٢ وما بعدها، وتاريخ الإسلام ٢٧/٢٩١، والإحاطة ٢/١٠٨-١٠٨).

(٤) يمكن مراجعة الماحب التى نقلها المنصور أباه الحكم في: (المقتس، ط. اخجي) ص ٤٣-٤٤، ٧٢، ١٢٣، ١٣٨، ١٦٩-١٧٠، والمعجب ٢٩-٣٠، والبيان ٢/٢٣٩.

(٥) المصدر السابق: ٢/٢٦٠-٢٦٤.

(٦) أظهر ابن أبي عامر نخادى المصحفى في الدفاع عن الثغور، وإنقاذ أهلها، وقوّى شوكة غالب، وتزوج ابنته أسماء، ثم صرف المصحفى عن الحماية سنة ٣٦٧هـ، وقبض عليه (السابق ٢/٢٦٥-٢٧٠).

(٧) المقصود به: جعفر بن على بن حمدون، الذى ولّى المغرب مع أخيه يحيى من قبل المستنصر (البيان ٢/٢٧٨-٢٧٩).

(٨) ذكر ابن عذارى (المصدر السابق ٢/٢٧٩): أن الذى قتله بإيعاز من المنصور هو أبو الأخوص مَن من عبد العزيز التحيبي فارس العرب مع طائفة من أصحابه الأندلسيين سنة ٣٧٠هـ، ثم قتله المنصور.

(٩) ظروف مقتل عبد الرحمن بن مطرف صاحب سرقسطة، الذى أغرى عبد الله بن المنصور بالقيام على والده سنة ٣٧٩هـ في (السابق ٢/٢٨٣-٢٨٤).

(١٠) المغرب (قسم الأندلس) ٢٠٢/١.

تحقق لابن أبي عامر أمه، واستطاع عزل الخليفة هشام المؤيد وحجبه عن إدارة شئون دولته، ومنعه من لقاء رعيته، ومن التصرف في أمواله^(١)، واتخذ مجموعة من الإجراءات، التي تهدف - في النهاية - إلى تركيز سلطات الدولة كلها في يديه، وتشكل - في مجموعها - الملامح العامة للسياسة الداخلية، وهي:

١ - تمزيق الروابط بين أفراد القبائل العربية بالأندلس، فشئت شمل القبيلة الواحدة، بعد أن كانت كل قبيلة تمتاز بأفرادها ويمكن معين تقطنه، وبراية تقاتل تحتها. وأحل محل ذلك أن يكون الولاء للقائد، وله شخصياً في النهاية، فضمن بذلك إضعاف هذه القبائل، والقضاء على العصية^(٢).

٢ - إضعاف شأن البيوتات القرطبية ذات الأصول العريقة بالأندلس، والتي كانت تتوارث المناصب والخطوط (مثل: أسرة بني حدير، وابن أبي عبدة، وغيرها)، فاستغنى عن كفاءات رجالها، وخبرات قادتها ووزرائها؛ خوفاً من ولائهم لبني أمية. وبذلك أضعف نفوذهم في سبيل تفرد بالسلطة، واستبداده بشئون الحكم^(٣).

٣ - قضى على نفوذ العلماء والفقهاء الروحي، وأضعف مكانتهم أمام عامة الناس، فقلّت قيمتهم وانحط إجلالهم في عيونهم. لقد جمعهم على بيعة هشام المؤيد^(٤)، رغم مخالفتها لشرط الإمامة، فأظهروهم أمام الناس مشاركين في هذا الأمر، أو على الأقل اضطروا للموافقة؛ قهراً وخوفاً^(٥). وكان يتدخل في أحكام القضاة أحياناً، فيسيّرهما تبعاً لهواه^(٦)، أو يتدخل لإصدار الفتاوى التي يريدونها من بعض العلماء^(٧). وقد دفع البعض للتأمر ضده، لكن يقظته وعيونه المنبهة في كل مكان أحبطت كل تخطيط معادٍ له، ساعٍ إلى إقصائه عن السلطة^(٨).

(١) الحمرة لابن حزم ٩٢، وتاريخ الأندلس لابن الكَرْدُبُوس ٦٢، والبيان ٢/٢٧٢.

(٢) نفع الطيب ١/٢٩٣.

(٣) مقدمة الدكتور محمود مكي لكتاب (المقتبس) لابن حبان ص ١٢٣.

(٤) أورد ابن الخطيب أسماء الفقهاء الذين شهدوا بيعة المؤيد بالخلافة (أعمال الأعلام) ص ٤٨-٥٧.

(٥) شيوخ العصر في الأندلس، للدكتور حسين مؤنس ص ٧٤، وما بعدها.

(٦) كما في حالة الشاعر (قاسم بن محمد القرشي الروان) شاعر الدولة العامية، الذي شهد عليه عند القضاة بما يوجب القتل، فسُجن، فُكِب إلى المنصور قصيدة طويلة يستعطفه فيها، فخلصه. (جنوة المقتبس ٢/٥٢٥-٥٢٦).

(٧) فكان يتعرض لأحكام القاضي محمد بن إسحاق بن السليم (ت ٣٦٧هـ)، وينقض قضاياه؛ حتى يجبره على تغيير رأيه المعارض لتولية صبي كهشام المؤيد، فاضطر ابن السليم إلى منارته حتى تولى (ترتيب المدارك ج ٤ ص ٥٤٨-٥٤٩)، والقضاء والقضاة في الأندلس، للدكتور السيد محمد داود ص ١٨٩-١٩٠).

(٨) كانت عيون المنصور في كل مكان في دولته (أعمال الأعلام ٧٦-٧٧، وتاريخ قضاة الأندلس للنباهي ص ٨٠). ولاحظ إحباط مؤامرة استهدفت حياة هشام المؤيد، وبالتالي سلطان المنصور (الحلة السراة ١/٢٧٩-٢٨٠)، وفيها صلب عبد الملك بن منذر ٣٦٧هـ.

٤ - استطاع بشدته وصرامته أن يحفظ أمن الناس، ونشر الاستقرار في عهده^(١)، وفي مقابل ذلك كان حريصاً على الارتقاء في الألقاب، وإحاطة نفسه بكل مظاهر الفخامة والوقار، فلقب بالمنصور^(٢)، وأمر أن يُحاطَب بالملك في المكاتبات والمراسلات^(٣)، بل فكر جدياً في انتزاع لقب الخلافة، لكن عواقب ذلك دفعته إلى التراجع^(٤).

سار المنصور في علاقته بالمغرب مسير الناصر والمستنصر، وإن فاقهما في استجلاب جند البربر والاستعانة بهم في حروبه وغزواته. وقد استدعى المنصور جعفر بن علي بن حمدون المعروف بـ(ابن الأندلسي) من المغرب؛ ليستعين به على القائد (غالب)، فحضر معه ستمائة من خيرة جند البربر، فأكرمهم المنصور وأحسن إليهم، وتمكن بهم من القضاء على منافسه (غالب) سنة ٣٧٠هـ. وعلى طريقة المنصور المعهودة في الغدر، قتل جعفرًا بعد أن دعاه إلى مجلس أنس وشراب، فشرب حتى الثمالة وسكر، ثم وكل به من قتلته في طريق منصرفه إلى داره، وذلك سنة ٣٧٢هـ^(٥).

وفي سنة ٣٧٥هـ، جهز المنصور جيشاً كثيفاً، أرسله إلى المغرب؛ لمهاجمة الحسن بن قُتُون الشريف الحسني، الذي حاول الخروج على الدعوة المروانية. وقد أراد المنصور بذلك أن يظهر أنه حامى حمى الخليفة هشام المؤيد، المحافظ على ممتلكاته بالمغرب، رغم أنه -في الحقيقة- يدافع عن نفوذه هو، فهو الأمر النهائي. هذا، وقد نجح الجيش في محاصرة ابن قُتُون، الذي لم يجد مفرّاً من الاستسلام، فأمنه قائد الجيش، لكن المنصور - على طريقته - خان العهد والميثاق، فأمان قائده أمانه، وأمر بقتله، وبتشريد أتباعه^(٦).

كانت للمنصور إستراتيجية جديدة، تختلف عن سبقة من خلفاء بني أمية، إذ كان يهدف إلى القضاء الكامل، والاستئصال التام لقوى الشمال النصرانية^(٧). ولذلك وجدناه يواصل الغزو لها طوال سني حكمه، حتى بلغت ٥٢ غزوة^(٨). وكان المنصور لا يُعَوِّل كثيراً على سفارات

(١) نهاية الأرب ٤٠٥/٢٣.

(٢) البيان المغرب ٢٧٩/٢ - ٢٨٠ - (٣٧١هـ).

(٣) السابق ٢٩٤/٢ (سنة ٣٨٦هـ).

(٤) حول هذا الأمر تراجع: (نُظُت العروس لابن حزم ٧٧، ودولة الإسلام في الأندلس ١٤، في ٢ ص ٥٥٤).

(٥) الحلة السراء ٣٠٦/١، والبيان المغرب ٢٧٩/٢ - ٢٨١، وتاريخ ابن خلدون ١٠٩/٤. وقد جانب ابن خُتُون الصواب لما جعل وفاة جعفر بالأندلس ٣٦٤هـ. (وفيات الأعيان ١/٣٦٠).

(٦) الحلة السراء ٢٢٦/١، والبيان المغرب ٢٨١/٢.

(٧) العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية، للدكتور رجب عبد الحليم ص ١٦٥.

(٨) النفع ٤٠٢/١، ومقدمة د. محمود مكي لديوان ابن ذُرْاج ص ٥٢.

الصلح والمسالمة؛ لأنه يوقن أنها ستار يخفى وراءه استعدادات هائلة لغزو بلاد المسلمين^(١). ولم يكن المنصور ينتظر حتى يهاجم نصارى الشمال الثغور الإسلامية، فيهب للدفاع عنها، أو يكتفى برُسُو الأساطيل هناك؛ لمنع العدو من مجرد التفكير في الهجوم، وإنما كان يبدأ بالهجوم، ويفزو الأعداء في عقر دارهم، ويوسعها تدميراً وتخريباً^(٢)، وغزواته خير شاهد على منهجه، الذى اتبعه في التعامل مع ممالك الشمال النصراني^(٣). وظل المنصور على غرامه بجهاد النصارى حتى أواخر أيامه، إذ وافته منيته وهو عائد من إحدى غزواته قشتالة ليلة الاثنين السابع والعشرين من رمضان سنة ٣٩٢هـ^(٤).

ولى عبد الملك بن المنصور حجابة الخليفة هشام المؤيد بعد وفاة والده^(٥). وملخص أحداث ولايته ذات السنوات السبع تتمثل في نجاحه في ضبط الأمور داخل الأندلس، رغم ضعف مؤهلاته وإمكاناته بالقياس إلى والده^(٦). وقد أخذ عليه اهتمامه في الشراب والملاذات^(٧)، وتركه تصريف الدولة لقلمانه ووزيره عيسى بن سعيد بن القُطّاع، حتى انكشفت أمامه مؤامراتهم ضده، فانقم منهم^(٨)، وأفاق إلى نفسه، ودبر شئون دولته، فحظى بحب الناس ورضائهم^(٩). وظل في علاقته بالخليفة هشام حريصاً على حجبهِ والاستبداد بالأمر دونه، رغم ثورة بعض الناس مطالبين بظهور الخليفة^(١٠)، وحصل عبد الملك بن المنصور على لقب المظفر^(١١).

وبالنسبة للمغرب، فقد حرص على مخاطبة أمرائه المواليين للخلافة الأموية، وإجابه المعز بن زيرى بتوليته على فاس والمغرب الأقصى^(١٢).

- (١) فقد اعتلوا على ثغور المسلمين بعد وفاة المستنصر، وخارت العزائم عن ردهم على أعقابهم إلا ابن أب عامر، الذى غزا بلادهم ٣٦٦هـ، و٣٦٧هـ في ثلاث غزوات خلال عامين؛ مما ملكه جيوش الأندلس. (البیان ٢٦٦-٢٦٧/٢).
- (٢) اعتقد أن التدمير والتخريب الذى كان يحدته المنصور في غزواته للنصارى سلوك غير إسلامي؛ فقد ورد في توجيهات عمر لعمر وحده في فتح مصر: " لا تغربوا ولا تفسدوا، ولا تعرضوا لأهل قرى مصر ومنازلها ". (المغرب قسم مصر ص ١٧).
- (٣) تفاصيل حروبه مع النصارى تراجع في: (البیان ٢٩٤-٢٩٨، وأعمال الأعلام ٦٧-٧٣، وأزهار الرياض ١٠٦/٥-١٠٩).
- (٤) الإحاطة ١٠٧/٢.
- (٥) وكان والده قد رشّحه للحجامة من بعده سنة ٣٨١هـ. (البیان ٢٩٣/٢).
- (٦) تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ٦٦.
- (٧) البیان ٣/٣، وأعمال الأعلام ٨٤.
- (٨) الذحيرة، القسم الأول، المجلد الأول ص ١٢٣-١٢٩، والمغرب (قسم الأندلس) ح ١ ص ٢١٣، والبيان ٢٤٤/٣-٢٩٠.
- (٩) المغرب (قسم الأندلس): ٢١٢/١.
- (١٠) نهاية الأرب ٤٠٧/٢٣.
- (١١) البیان ١٥/٣.
- (١٢) أعمال الأعلام ٨٤، وتاريخ ابن خلدون ٤٦/٧-٤٧، وصح الأعشى ١٦٨/٥، ١٨٦، والفتح ٤٢٣/١.

وبالنسبة لجهاد النصارى، فقد واصل هجومه على ممالك النصارى الشمالية، مقتنياً بذلك آثار والده، وظل في غزو بلادهم وتخريبها حتى عند اشتداد علته، التي مات فيها في صفر سنة ٣٩٩هـ^(١).

ولى عبد الرحمن بن المنصور بعد وفاة أخيه عبد الملك، ولم تكن له أية مؤهلات للقيادة، بل إن المؤرخين يتهمونه بالفسق والجون والخلاعة. وقد كان فتى غراً مغروراً، دفعه جنون العظمة للضغط على الخليفة المحجوب المقهور، وهدده بالقتل، حتى أصدر مرسوماً بتوليته العهد من بعده^(٢). هنا انقلب الناس - خاصتهم وعامتهم - على عبد الرحمن، وأظهروا له التأيد، بينما أبطنوا له الكراهية والبغضاء. وأراد تقليد أخيه في غزو بلاد النصارى، وفي أثناء ذلك وصلت إليه أنباء استيلاء محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر على شئون الحكم، فأراد العود إلى قرطبة. وفي الطريق خذله جنده ورجاله، وانقضوا من حوله، حتى قبض عليه، وتم قتله وصلبه في شهر رجب من سنة ٣٩٩هـ^(٣). وبذلك فتح باب شر كبير على بلاد الأندلس، ودخل أهلها مع البربر في صراعات دامية، شاع فيها القتل والنهب والسلب، والتدمير في كل مكان، حتى خربت قرطبة ومدينة الزاهرة، وظلت الفتنة متأججة، حتى ثمايتها المحتومة، التي أدت إلى سقوط الخلافة الأموية بالأندلس سنة ٤٢٢هـ^(٤)، ودخلت البلاد في طور جديد من الضعف على يد (ملوك الطوائف).

خلاصة مقارنة:

في هذه الخلاصة المركزة نذكر أوجه الاتفاق والاختلاف بين كل من: مصر، والأندلس من حيث الأوضاع السياسية، التي عايشها كل منهما خلال القرن الرابع الهجري، وذلك على النحو الآتي:

أولاً - مرت مصر في القرن الرابع الهجري بمراحل ثلاث متعاقبات: مرحلة ما بين العصرين الطولوني والإخشيدى، وهذه عانت خلالها مصر من الفوضى والاضطرابات السياسية، وصراعات الجند الداخلية. ويضاف - إلى ذلك - حالة النفير العام والطوارئ؛ نتيجة للخطر العبيدي على مصر، ومحاولات غزوها أكثر من مرة، ونخب الخلافة العباسية ورجالاتها في سياسة تولية وعزل الولاة في مصر؛ مما أدى إلى عدم الاستقرار. وفي مرحلة حكم الدولة الإخشيدية عرفت مصر الاستقرار والهدوء في ظل الاستقلال شبه التام عن العباسيين؛ نتيجة الاهتمام الأكبر باستقرار أوضاعها الداخلية، والالتزان في علاقاتها الخارجية. ثم انتقلت مصر إلى مرحلة جديدة

(١) البيان ٣٦/٣-٣٧.

(٢) المصدر السابق: ٣٨-٣٩، وأعمال الأعلام ٩١-٩٣ (في ربيع الأول ٣٩٩هـ).

(٣) البيان ٤٩/٣-٥٠، وأعمال الأعلام ٩٦-٩٨.

(٤) تفاصيل الفتنة في: (البيان ٥٠/٣) وما بعدها، وكتاب العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية، د. رجب عبد

الحليم ٢٦٤-٢٦٨، وقم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي، للدكتور العمري ج ٢ ص ١٢٢-١٢٣.

خضعت فيها لحكم العبيدين، الذين سيطروا على شئون البلاد من كافة نواحيها. ولم تستقر الأوضاع السياسية في ظلهم على النحو المعقول، فعانت مصر من هجمات القرامطة، وسيطرة أهل الكتاب على مقدراتها في شئون الإدارة والمال، إلى جانب عمليات الابتزاز المالي، واصطناع الرجال بالأموال، بالإضافة إلى القرارات والإجراءات المتناقضة، التي أشاعت جوّاً عاماً من السخط والكراهية، والخوف والفرع في كافة طبقات الشعب المصري.

أما الأندلس، فإنها لم تمر بتلك المراحل، وإنما حُكمت بخلافة أموية، يعد عهد الناصر والمستنصر أفضل فتراتها، بما تحقق من قضاء على الثائرين، وحماية البلاد من هجمات نصارى الشمال، وبما تم إرساؤه من نظم إدارية ناجحة تقوم على الكفاءات، وتحقيق للأندلس الاستقرار والوحدة، والهبة والعزة. وبدأ الأُمَيار بترويج المستنصر ولده الصغير للخلافة من بعده، ففتح ذلك البابَ لتدخل الأوصياء والصراع فيما بينهم، حتى سيطر على الحكم المنصور دون وجه حق وبطرق غير سوية، إلا أن مهارته وكفاءته غطّت على سلبياته، خاصة انتصاراته المدوية على النصارى. وموته ظهرت عوامل الأُمَيار في عهد ابنه عبد الملك، ثم وقع الأُمَيار الكامل في حكم ولده الآخر عبد الرحمن؛ مما أدى إلى نهاية مأساوية مبكرة للمسلمين بالأندلس.

ثانياً - كانت العلاقات السياسية بين مصر والأندلس في هذا القرن عدائية؛ نتيجة تعادى العبيدين والأمويين، ووصلت في بعض مراحلها إلى التهديد^(١) والسباب واللعن المتبادل بين الطرفين بعد فشل الاتفاق السلمي بينهما. وقد حال رحيل العبيدين إلى مصر دون وقوع الصدام الحربي المباشر بين الطرفين، وإن ظل أسلوب الدس والوقعة، والتحريض وإثارة القلاقل قائماً بين الطرفين عن طريق أنصارهما في بلاد المغرب.

ثالثاً، وأخيراً - كان الاستبداد في الحكم هو الطابع الغالب والمسيطر على أوضاع مصر والأندلس السياسية، وكأنه كُتب على شُعبي الإقليمين أن يُحكَمَا حكماً وراثياً مستبدًا، وإن كان حكم العبيدين أشد قهراً وتسليطاً لاختلاف المذهب العقدي مع الشعب المحكوم. وقد نتجت عن طبيعة الحكم الواحدة نتائج خطيرة كانت سريعة حاسمة في الأندلس، وبطيئة تظهر على المدى البعيد في مصر؛ نظراً لاختلاف ظروفهما، وطبيعة شعبيهما^(٢).

(١) وأحر ما لدينا في هذا الشأن أبيات شعر، أثرت عن المنصور بعد أن اشتد سلطانه وتوالى ظفّره، كتب بها إلى صاحب مصر العبيدي يتوعده. ولا تدرى مناسبتها، ولا ظروفها، ولا تاريخها بالتحديد. (الأبيات في: الحلة السراء ٢٧٥/١-٢٧٦).

(٢) كان الإسراف في اجتلاب البربر وانتياهم من المغرب إلى الأندلس، والاعتماد عليهم في جيوش المنصور ولديه ذا دور خطير في الفتنة، التي أعقبت مقتل عبد الرحمن بن المنصور في ظل صراع سكان قرطبة حادّي الطباع مع البربر البداة الجفّة. وكان جلب العزيز في مصر للترك سبباً في اضطراب الأحوال فيما بعد عهد الحاكم في مصر؛ للتنازع بين طوائف الجند (حول اتقاء العزيز لهم وخطورة ذلك تراجع: (الخطط ٢٨٤/٢-٢٨٥، واتعاظ الحفا (ط-٢) المجلس الأعلى) ٢٩٤/١، وموسوعة التاريخ الإسلامي ١٢٦/٥).

ثانياً - الأوضاع الاقتصادية العامة في مصر

والأندلس في القرن الرابع الهجري

١- مجمل الأوضاع الاقتصادية في مصر:

من خلال معالجتنا للأوضاع السياسية في مصر في ذلك القرن، اتضح لنا أن فترة ما قبل الدولة الإخشيدية كانت مملوءة بالاضطرابات، وعدم الاستقرار؛ ولذلك لا نتوقع وجود نشاط اقتصادي واضح بها^(١). ومن هنا فإن تركيزنا سيكون حول فترة الحكم الإخشيدى، والعبیدی خاصة؛ إذ عرفت مصر خلال هذين العصرين الاستقرار، وما يترتب عليه من وجود سياسة اقتصادية واضحة، تنعكس آثارها على مجالات الحياة المختلفة.

في عهد الإخشيد يذكر ابن سعيد^(٢) أنه كان إذا أقبل شهر رمضان، أطلق النفقات للمسجد الجامع، وأمر بعمارة المساجد وترميمها، والعناية بمظهرها، وإضاءتها بالمصابيح، وتوفير الأئمة لها. وهذا لون من الاهتمام بالعمران في ذلك العصر. وكان الإخشيد يهتم بإقامة المتنزهات الفخمة التي تستكلف أموالاً كثيرة؛ كى يفاخر بها أهل العراق^(٣)، وكان كثيراً ما يقيم ببستانه المعروف بـ(المختار)، والذي أقام إلى جانبه ميداناً. وكان كافور - من بعده - يقيم به أيضاً^(٤). وبخصوص كافور فقد أمر ببناء دار له، يبدو أنها كانت على قدر كبير من الأبهة، وذلك بمدينة العسكر^(٥) سنة ٣٤٦هـ، بجوار بركة قارون. وقد تكلفت مائة ألف دينار، وهو رقم مبالغ فيه. وعلى كل، فقد سكنها شهر رجب من السنة المذكورة، وانتقل منها بعد أيام؛ بسبب الوباء الذي وقع لغلمانها من بخار تلك البركة^(٦). وهذا - ولا شك - لون من الإسراف في الإنفاق. وفي العام نفسه قام كافور الإخشيدى بعمل نافع في دولة الإخشيديين، لما قام ببناء مَارَسْتَان لعلاج المرضى^(٧).

(١) بالإضافة لبعض الكوارث التي أصابت الزراعة، كما في سنة ٣١١هـ، لما هاجمت أسراب الحراد غلة مصر، فأتت عليها، محظوظة نزهة الأنام في تاريخ الإسلام لابن دُفَّاق : ورقة ٢٨.

(٢) المغرب (قسم مصر) ص ١٦٣.

(٣) السابق : ١٦٠-١٦١.

(٤) وصفه المقرئى في (الخطط) ١/٣٦٠، ٤٥٧.

(٥) هي ثاني مدينة اتخذها العرب عاصمة لمصر بعد الفسطاط. بناها أبو عَوثَ نأمر صالح ابن على ١٣٣هـ، وصار أمراء مصر يسزلون بها، وكثرت بها الأسواق. (م. البلدان ٤/٣٩، والخطط ١/٣٠٤، والقاموس الجغرافي القسم الأول - البلاد المدرسة) ص ٨٤.

(٦) الخطط ١/٣٠٤.

(٧) المصدر السابق : ٤٠٦/٢.

شهدت الدولة الإخشيدية عدداً من مظاهر النشاط الاقتصادي، فقام كافور سنة ٣٣٦هـ بمشروع حفر خليج بساحل مصر، يَسَّر على الناس وصول الماء إليهم عند جفاف النيل^(١). وشهدت الصناعة رواجاً، خاصة صناعة السفن^(٢)، وازدهرت التجارة^(٣)، وانتعشت حركة البيع والشراء، وبدأت مظاهر ذلك في مدينة الفسطاط وأسواقها وحوانيتها^(٤)، وكذلك فيما يدخل إلى خزانة الدولة من الأموال، وانتشار الثراء والضياع^(٥). وقد عنى الإخشيد بدار الضرب وبلغت العملة في دولته درجة من القوة تدل على نمو الاقتصاد فيها^(٦). وساعد ذلك الإخشيد - ومن بعده كافور - على صرف الرواتب لأرباب الحاجات والفقراء، وكان منهم طائفة من الأشراف الذين افتقروا بعد النعمة^(٧).

وأخيراً، فقد عانت البلاد من محن وبلاء بعد الإخشيد، تمثل فيما حل بها من جفاف وانخفاض لمياه النيل، وزلازل مدمرة^(٨)، وما نتج عن ذلك من أوبئة وغلاء في الأسعار شديد، وتفاقمت الأزمات في المجاعة التي امتدت بعد وفاة كافور^(٩)؛ مما أزهق الناس وأضعفهم، وساعد على ترحيب الكثيرين بمقدم العبيدين، على أمل الخلاص مما هم فيه من ضيق وعنت شديد.

اهتم العبيديون في مصر ببناء عاصمة جديدة للملكهم (القاهرة). وقد شرع جوهر قائد المعز في حفر أساساتها بمجرد دخوله مصر بجيوشه، وحرص على تقسيمها إلى حُطَط وحارات، تنزل فيه فرق الجيش المختلفة^(١٠)، وبُنيت بها عدة قصور لنزول المعز وحاشيته وقواده وكبار رجال دولته^(١١)،

(١) السابق: ٣٤٤/١، ومصر في العصور الوسطى، لعلي إبراهيم حسن ٣٩٩.

(٢) المغرب (قسم مصر) ص ١٦٠، ١٦٦، ١٧٣، ١٩٧.

(٣) مصر في عصر الإخشيديين ٢٧٩، وتجارة مصر في البحر الأحمر، للدكتور القوصي ٧٩-٨٠، ورؤية الرحالة المسلمين ٣٠٨-٣٠٩. وراجع كتاب رومانوس للإخشيد، وبه طُنب تيسر التجارة بين مصر وبيزنطة (المغرب - قسم مصر ص ١٧٢).

(٤) المسالك والممالك للإصطخرى ٣٩-٤٠، وأحسن التقاسيم للمقدسي ١٦٨-١٦٩، والخطط ٣٣٠/١-٣٣٣.

(٥) راجع مقدار خراج مصر - الذي بلغ في عهد مليوني دينار سوى ضياعه التي يمتلكها - في: الخطط ٩٩/١، ومصر في عصر الإخشيديين ٣٤٢-٣٤٣. وما يدل على عظم الأموال والثراء في مصر أخبار مصادرات الإخشيد لأثرياء مصر، ويمكن مراجعتها في: المغرب (قسم مصر ص ١٥٤، ١٦٠، ١٦٣-١٦٥). وكذلك تركة كافور المائلة، التي خلفها من بعده (الخطط ٢٧/٢).

(٦) حول أهمية سك العملة في دعم الاستقلال السياسي والاقتصادي، وجهود الإخشيد في ذلك المضمار. راجع المغرب (قسم مصر) ص ١٨١-١٨٢، ومقدمة ابن خلدون ٦٣٧/٢، ٧٠٠-٧٠٦، ومصر في العصور الوسطى ٣١٤.

(٧) الخطط ٩٩/١، وتاريخ الدولة الفاطمية، د. حسن إبراهيم ٢٩٧، ومصر في عصر الإخشيديين ص ٢٠٠.

(٨) كما حدث سنة ٣٤٤هـ، والذي هدم البيوت، وأفرغ الناس (تاريخ الإسلام) للذهبي ٢٠/٢.

(٩) مثل: غلاء سنة ٣٣٨هـ، ٣٤١هـ، ومجاعة استمرت ٩ سنوات متوالية بدءاً من ٣٥٢هـ، واشتداد الغلاء آخر عهد كافور (إغاثة الأمة ١٠-١١، والخطط ٢٧/٢).

(١٠) صورة الأرض ١٣٨، وصح الأعشى ٣٤٤/٣، والخطط ٣٦١/١، وبعدها، والنجوم الزاهرة ٣٥/٤ وبعدها.

دولته^(١)، كما بنيت بها دور لتخزين ما يحمل إلى الناس من أطعمة ونحوها في الأعياد والاحتفالات المختلفة^(٢)، وأقيمت بها مخازن لحفظ الغلال^(٣)؛ كى توزع على الناس عند انخفاض النيل، وانتشار الجماعات. ومن أوائل ما وضعه جوهر في الحسبان إنشاء الجامع الأزهر بمدينة القاهرة؛ ليكون منطلقاً لنشر الدعوة الشيعية في أرجاء مصر وبين جموع شعبها. وقد حظي هذا الجامع باهتمام كبير عبر العصور، وأدخلت فيه عدة تجديدات^(٤). وعُني المعز - كذلك - بهيئة مصلى العيد، واتخذ من الترتيبات ما يوصل التكميلات إلى الحرم بالقصر^(٥). وتوسع بنو عبيد في إنشاء مزيد من المساجد، فأقام العزيز مسجداً تم بناؤه في عهد ابنه الحاكم ونُسب إليه^(٦). وكذلك أنشئ مسجد راشدة في عهد الحاكم ٣٩٣هـ^(٧). وفي المقابل دفع التعصب الحاكم إلى هدم مسجد عمرو بن العاص بالإسكندرية سنة ٣٩٤هـ^(٨). وإذا كان العبيديون تسامحوا في ترميم بعض الكنائس، بل في إقامة الجديده منها^(٩)؛ فإن الحاكم كان يأمر - أحياناً - بهدم بعض الكنائس، وذلك في ثورات غضبه وهياجه المعهودة^(١٠). ولم يعدم العزيز بناء منظره يجلس فيها، وأمامها بستان عظيم، وكانت كأنها من جَنَّات الدنيا المزخرقة، وبها عدة أماكن مجهزة لنزول الوزير وغيره من رجال الدولة^(١١).

(١١) الخطط ١/٣٨٣-٣٨٥، ٤٥٧، ومخطوط عقد الجمان ١٠/ورقة ١٢٤.

(١) وتسمى كل دار منها بـ(دار الفطرة). (الخطط ١/٤٢٥).

(٢) وتعرف بالأهراء السلطانية، وتعدد أماكنها بالقاهرة (السابق ٤٦٤/١-٤٦٥).

(٣) الخطط ٢/٢٧٢-٢٧٥. وذكر المقرئى أنه بدأ في إنشائه السبت ٢٤ من جمادى الأولى ٣٥٩هـ، واكمل ٩ من رمضان ٣٦١هـ، وصُبت فيه الجمعة ٧ من رمضان ٣٦١هـ، ومكتوب في لوحة بالمسجد بجوار المحراب أنه مبنى بأمر المعز على يد جوهر، وذلك سنة ٣٦٠هـ (السابق ٢/٢٧٣). والمح أن التاريخين الأولين صحيحان؛ وأما تاريخ اللوحة، فقد يحتاج إلى تفسير، ولعله يعنى تاريخ الانتهاء من هذا الجزء من المسجد. أما بخصوص تاريخ أول جمعة جُمِعَتْ فيه، فالصواب أنها كانت سنة ٣٦٢هـ؛ لأن المعز كما ذكرت من قبل دخل مصر في الخامس من رمضان (وكان يوم الثلاثاء)، ثم افتتح الجامع الأزهر، وصلى فيه أول جمعة بعد دخوله بثلاثة أيام (الثامن من رمضان). ومن ثم، فإن القلقشندى لم يكن على صواب (صبح الأعشى ٣/٣٦٠) عندما ذكر أن جوهرًا بنى الجامع بعد دخول المعز إلى القاهرة، وإقامته بها، وأنه جمعت فيه الجمعة في السابع من رمضان سنة ٣٦١هـ. ومن عجب أن نص المقرئى الذى نقلته آنفاً، واحتاج إلى تعليق وتصويب منى، قد نقله مؤلفا كتاب : (المعز لدين الله) ص ٢١٩، ولم يُعلّق عليه!

(٤) كان مصلى العيد يقع شرقى القصر الكبير من خارج باب النصر. وقد بناه جوهر - أولاً - في رمضان ٣٥٨هـ لصلاة العيد، ثم جدّده العزيز. وقد أمر المعز بعمل مصاطب، تصل المصلى بالقصر، ويقف عليها المؤذنون؛ حتى يصل التكبير من المصلى إلى القصر. (الخطط ١/٤٥١)، واتعاط الحفا - ط. دار الفكر ص ١٦١).

(٥) الخطط ٢/٢٧٧ (٣٨٠هـ)، ومخطوط (عقد الجمان) ١٠/ورقة ١٢٤.

(٦) صبح الأعشى ٣/٣٤١، والخطط ٢/٢٨٢-٢٨٣.

(٧) اتعاط الحفا (ط. المجلس) ٤٩/٢ (٣٩٤هـ).

(٨) أهل الذمة في العصر الفاطمى الأول، د. سلام شافعى ٢٢٤.

(٩) هُدمت كنيسة بجانجامع راشدة (اتعاط الحفا) ٤٨/٢ (٣٩٤هـ).

(١٠) الخطط ١/٤٦٥، ٤٧٠.

دخل العبيديون مصر بقيادة جوهر الصَّقَلِيّ، وهي تعاني مجاعة شديدة تمتد منذ سنوات، ولنا أن نتوقع ما يبذله جوهر؛ لتخفيف تلك المعاناة على المدى العاجل والممتد؛ لمحاصرة تلك الأزمة الغذائية الطاحنة^(١). وقد اعتنى العبيديون بالأراضي الزراعية، وخفضوا وطأة الضرائب على الفلاحين^(٢)، فعمرت الأرض بصنوف المحاصيل الزراعية طوال العام^(٣). وساهم المعز في منع احتكار التجار السلع؛ تجنباً لارتفاع الأسعار، وكذلك لم يسمح بهبوط الأسعار هبوطاً حاداً، يؤدي إلى خسائر فادحة لهؤلاء التجار، وذلك عندما نفي في شوال سنة ٣٦٢هـ عن النداء العام بمقدار زيادة النيل^(٤).

اهتم العبيديون بالصناعة اهتماماً كبيراً، ولعل في تنوع النشاط الصناعي في عصرهم دليلاً على ازدهارها، فوجدت صناعة المنسوجات، وصناعة الأسلحة، والسفن، والصناعات الخشبية، والصناعات النباتية والزيتية^(٥). ويعد عهد العزيز من أفضل عصور الابتكار في كثير من المجالات خاصة المجال الصناعي^(٦). ومن البديهي أن تزدهر التجارة في ظل نمو الزراعة والصناعة، وتقدم العبيديين في شئون النقل البحري خاصة، فتوطدت صلاتهم التجارية مع بيزنطة^(٧)، ومع بلاد المغرب والأندلس^(٨). ورغم العداء السياسي الشديد مع الأندلس، إلا أن الحدود كانت مفتوحة في ذلك الزمان، ولا توجد قيود تمنع انسياب حركة التجارة بين المشرق والمغرب. وساعد على رواج التجارة موقع مصر الجغرافي الممتاز، وتعدد مراكزها التجارية داخلياً وخارجياً^(٩).

زاد الخراج في العصر العبيدي في مصر زيادة ملحوظة، إذ يذكر المقرئى أن الخراج بلغ في السنة، التي دخل فيها جوهر القائد مصر (٣٥٨هـ) ثلاثة ملايين دينار، وأربعمئة دينار

(١) على المدى العاجل : وزع القمح بين الناس، ثم قام بتوزيع الصدقات (نهاية الأرب ١٣٠/٢٨)، وقام المختب ٣٥٩هـ بتوجيه الأوامر إلى القسّاحين بعدم توزيع القمح إلا في وجوده، وعاقب المخالفين من الطحّاتين (اتعاظ الحنفا - ط.دار الفكر - ص١٦٩، ١٧٢). وعلى المدى البعيد قام بخفر الترع والخسور؛ لارتفاع ماء النيل. (الخطط ١/٦١، ١٠١، وتاريخ الأمة القبطية ١٠/٣، وتاريخ جوهر ٧٥).

(٢) اتعاظ الحنفا (ط.دار الفكر) ص١٦٦.

(٣) أنواعها بالتفصيل، وأوقات زراعتها في (الخطط) ١/١٠١-١٠٣.

(٤) المصدر السابق : ٦١/١، وتاريخ الدولة الفاطمية ٥٧٢-٥٧٣.

(٥) راجع : صورة الأرض ١٤٣، واتعاظ الحنفا (ط.دار الفكر) ص١٩٢، والخرف والصاعات لأبي سديرة ١٧٢-١٧٣، ٢٠٦، ٢٢٨-٢٢٩، ٢٣٤-٢٤٤، وتاريخ الدولة الفاطمية، للدكتور حسن إبراهيم ٥٩٤ وبعدها، وتاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، للدكتورين العبادي، وسالم ص٨٨-٩٣.

(٦) اتعدت أيامه عثمائم مذهبة، بما حبر وعزل غالبية الثمن بدمياط (الخطط ١/٢٢٦)، وأنواع مبتدعة من السفن (نهاية الأرب ١٦٣/٢٨)، وغير ذلك.

(٧) رؤية الرحالة المسلمين، للدكتورة أمينة الشورنجي ص٣٧٢ وبعدها.

(٨) رؤية الرحالة المسلمين، للدكتورة أمينة الشورنجي ص٣٨٥-٣٨٩.

(٩) تاريخ الدولة الفاطمية ٥٩٨-٦١٨ وما بعدها.

ونيفاً^(١). وقد اتخذت مجموعة من الإجراءات الاقتصادية على يدى: يعقوب بن كلس، وعُسلوج ابن الحسن، فيما يتصل بالشدة في استخراج الأموال، والمطالبة ببقاياها عند الناس، والاستقصاء في طلبها، وطرح مزيد من الضياع للمتقربين، كل ذلك شجع على زيادة إيرادات الدولة^(٢)، بالإضافة إلى تخفيض قيمة الدينار الراضى، الذى كان يُعامل به في مصر؛ إذ رفض ابن كلس ومسئولو الخراج التعامل إلا بالدينار المعزى، فهبطت قيمة الآخر أكثر من الربع^(٣)، ولم يستطع الوقوف أمام عملة العبيدين الجديدة القوية المعبرة عن قوة اقتصادهم^(٤). وقد أورد لنا المقرئى أرقاماً لقيمة ما استخرج من أموال عدد من مدن وبلدان مصر، ترجع إلى عهدى: (المعز، والعزیز)^(٥)، إلا أنما مبالغ فيها جداً، لكنها على أية حال تدلل على مقدار الطفرة الحادثة في إيرادات الدولة. وعلى الجانب الآخر يجب ألا تغفل الأثر السلبي لذلك على عامة الناس، ففى الوقت الذى أراد فيه المعز تعويض الأموال الطائلة التى أنفقها في غزو مصر^(٦)، وتخفيف آثار المجاعة بها، كان الناس يفقدون أموالهم، ويعانون الأزمات المالية الحاتقة^(٧)، وكانت المبالغة - من جانب ابن كلس - في جباية الضرائب من بلد، مثل: تنيس، وهى مشهورة بصناعة المنسوجات، تؤثر تأثيراً سلبياً في إنتاجها ورواج صادراتها^(٨)؛ لانعدام التوازن بين الإيرادات والمصروفات^(٩).

وأخيراً، فلا ينبغي أن نُخدع بمظاهر العمران من قصور ونحوها، أو بكمّ الكنوز والثروات والذهب والمجوهرات، والمقتنيات النادرة لدى الحكام وبلاتهم ورجال دولتهم^(١٠)، فعلى الجانب الآخر توجد أخبار تظهر وتختفى - على استحياء - في المصادر، تعبر عما يقاسيه الناس من

(١) المخطط ٨٢/١.

(٢) اتعاظ اخفا (ط. دار الفكر) ص ١٩٧، وأهل الذمة في مصر في العصر الفاطمى الأول د. سلام شافعى ٤٧-٤٨.

(٣) اتعاظ اخفا (ط. دار الفكر) ص ١٩٩، ورؤية الرحالة المسلمين ص ٧٦.

(٤) وهى قوة مصطنعة؛ لأنها تنافس عملة أضعفت (الدبهار الراضى).

(٥) اتعاظ اخفا (ط. دار الفكر) ص ١٩٩.

(٦) فسر المقرئى حيلة أمل المعز في مصر، فقال: كاد يظن أنه سيجد فيها الأموال مجتمعة، فوجد لها قد فرقتها مؤن مصر وكثرة عساكرها. وما أنفقه المعز على مصر لا يُحصى، ولا يعرف مقداره إلا هو، أو خزائنه. (اتعاظ اخفا، ط. دار الفكر ص ١٩٩).

(٧) لأهم حسموا أكثر أموالهم بعد هبوط قيمة العملة، التى كانت معهم (قدبهار الراضى). (المنصور السابق، ط. دار الفكر ص ١٩٩).

(٨) صورة الأرض ١٤٣، وأحسن التقاسيم للمقدسى ص ١٨١.

(٩) فهناك عوامل تتحكم في زيادة الجباية الحقيقية وقتلها. ومن ذلك: ضرورة مراعاة مستوى الإنتاج وقيمه ومقداره عند فرض الضرائب، وإلا أحس المنتحون بالظلم الفادح، فنامر الاقتصاد. (المقدمة ٧٢٩/٢-٧٣١، وبحث التفكير الاقتصادى لدى ابن خلدون، للسبب التكرينى، في مجلة (الأفلام الغدادية)، ج ٦، السنة الأولى، رمضان ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٥م). ص ٩٦-٩٧.

(١٠) راجع: الجماهر في معرفة الجواهر، للبرق ٢٣٨، ووفيات الأعيان ١٠١/٣-١٠٢ (حيوانات نادرة)، ولهاية الأرب ١٤٣/٢٨، واتعاظ اخفا (ط. دار الفكر) ص ١٤٤، والمخطط ٣٣١/١، ٤١٥، ٤١٨، وتاريخ الدولة الفاطمية ٥٥١-٥٥٨، وتجارة مصر في البحر الأحمر، لعطية القوصى ص ١٣٤.

غلاء فاحش في الأسعار^(١).

مجمال الأوضاع الاقتصادية في الأندلس في القرن الرابع الهجري:

لعل جهود خلفاء بني أمية بالأندلس في مجال العمران في هذا القرن هي أبرز آثار حضارتهم الماثلة للعيان في زمنهم، والتي لا تزال بعض بقاياها شاهدة على عظمة منجزات هؤلاء القوم حتى العصر الحالي^(٢). لقد أُولع هؤلاء الخلفاء بكل مظاهر التشييد والعمران أيما إيلاع، حتى بلغوا في ذلك درجة من الإسراف، عرَّضهم لانتقادات بعض رجال زمانهم^(٣)، وجعلهم في عداد المسرفين في نظرنا، ونظر الباحثين الآخرين^(٤). لقد رأى الخليفة الناصر أن أهمة الملك تقتضى ما قام به من منشآت وتجديدات، وأن تخليد آثار الملوك من بعدهم إنما يكون بهذه الطريقة^(٥). ومن هنا رأينا أكبر حركة عمران في عصره، الذي امتد أكثر من نصف قرن. لقد حظى المسجد الجامع بقرطبة بعمليات تجديد وتوسيعات متتالية؛ ليلائم النهضة الحضارية والعمرانية، وكثرة عدد السكان بقرطبة عاصمة الخلافة. واستمر ذلك في عهد ابنه المستنصر من سنة ٣٥٤هـ إلى سنة ٣٥٥هـ، فجددت منارته، وأبوابه، ومقصورته، ومنبره، وتضاعفت مساحته، وتم إجراء الماء العذب إليه في أنابيب، تحفظها من التلوث. وأنشئت دار الصدقة؛ لتكون مقراً لتوزيع الصدقات على الفقراء والمُعوزين^(٦). كما أنشئ مسجد آخر في عهد الحكم، استمر بناؤه خمس سنوات كاملة، واكتمل بناؤه سنة ٣٦٥هـ، وتكلف أموالاً طائلة^(٧). وإذا كان الناس على دين ملوكهم، فقد كثرت المساجد جدًّا في قرطبة وغيرها^(٨)، وشرح ذلك الدكتور مؤنس بأن الناس -فيما يبدو- كانوا ينشئون زوايا صغيرة في بيوتهم، ويعدونها مساجد،

(١) كما في سنة ٣٨٦هـ (اتعاظ الحفا.ط. المجلس الأعلى) ٢٩١/١ : غلاء سعر الفمخ، وسنة ٣٨٧هـ (السابق ٨/٢):

وتثبت سعر الحنيز). وفي سنة ٣٩٧هـ (السابق ٦٩/٢): مواجهة اضطرابات الأسعار بتسعر السلع، وغلاء

٣٩٨هـ وانعدام الأقوات، وظهور الأوبئة (الكامل ٤٩/٨-٥٠، والخط ٢٨٦/٢).

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامي، للدكتور شلي ٩٦/٤-٩٧، ١٠٠-١٠١.

(٣) مثل : قاضي الجماعة منذر بن سعيد البلوطي. (المغرب، قسم الأندلس) ١٧٩/١-١٨٠، وتاريخ قضاة الأندلس للنباهي ٧١-٧٢، وأزهار الرياض ٢٨١/٢-٢٨٢).

(٤) انتقد ابن خلدون هذا المسلك بعمامة (المقدمة ٥٥٦/٢، ٥٩٩-٦٠٠)، وانتقده من المعاصرين د. عبد الحليم عويس في (التكاثر المادي وأثره في سقوط الأندلس) ص ٥-١٩، وقيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي، للدكتور العمري ١٣٧/١-١٣٧.

(٥) للناصر شعر مأثور، يدافع فيه عن وجهة نظره، ويعلل شغفه بالعمران (الفتح ٥٢٠/١-٥٢١، ٥٧٥).

(٦) نزهة المشتاق ٣٥٩/١-٣٦٠، ٥٧٥/٢، والبيان (٣٤٨هـ) ٢٢٩/٢-٢٣١، ٢٤٠ (أحداث ٣٥٦هـ)،

والفتح ٥٤٨/١ وبعدها، وبحث د. سحر سالم : (مصحف عثمان بن عفان في الأندلس) في (المجلة العربية للثقافة)

السنة ١٤، ع ٢٧، سبتمبر ١٩٩٤م، ص ٦٣ وبعدها.

(٧) البيان ٢٥٩/٢.

(٨) الفتح ٥٤٠/١.

وبكثرة عدد الدور، وانتشار حركة العمران، بلغت هذه المساحد أعداداً هائلة^(١).

تطلبت مقتضيات التوسع العمراني، ثم أُبْهَتْ الخلافة أن ينشئ الناصر عاصمة جديدة، تنسج طرقها وشوارعها لجيوشه الجرّارة دون إيذاء عامة الناس. ومن هنا بدأ ينشئ مدينة الزهراء وجامعها^(٢) وقصر الحكم، مع توصيل المياه العذبة إليه في مشروع ضخم. وقد بدئ في إنشاء هذه المدينة - بإشراف ولي العهد الحكم - أول المحرم سنة ٣٢٥هـ، واستوعب ذلك طوال عهد المستنصر تقريباً، حتى انتهى من بنائها سنة ٣٦٥هـ (أى: استغرقت حوالي أربعين عاماً^(٣)). ولنا أن تصور - بعد ذلك - مقدار ما تكلفته من جهد ومال، وهو لون من الإسراف المقوت. وفي عهد المنصور أنشأ مدينة الزاهرة على مقربة من جنوب قرطبة سنة ٣٦٨هـ، وأنشأ بها مسجداً وقصراً وجعلها مقر دواوين الحكم ومركزه، بينما كان المؤيد ينتقل بين قرطبة والزهراء^(٤).

واهتم الناصر ببناء مدن ثغرية، تكون في مواجهة النصارى، وتكون شجى في حلوقهم، وتعمّر بالمرابطة والسفن الحربية؛ لمواجهة الهجمات البحرية، فأقام مدينة أُلْمَرِيَّة سنة ٣٤٤هـ^(٥)، ومن قبل أعاد الناصر إحياء مدينة سالم سنة ٣٣٥هـ^(٦). ويضاف - إلى ما سبق من مظاهر العمران - ما يتعلق ببناء الحصون، والقلاع في مناطق الثغور^(٧)، وتعمير المناطق المفتوحة بعد سقوطها في أيدي المسلمين^(٨). واهتم الخليفة المستنصر بتنظيم عمارة السوق، وتوسيع طريقها؛ تيسيراً على الناس الصادقين والواردين^(٩)، كما لمس الحكم بنفسه - وهو في طريقه إلى دار الطراز - وقد مرَّ على مقبرة باب اليهود المعروفة بـ(أم سلمة)، فرأى ضيقها؛ لتكاثر الدفن بها، فاشتري دوراً كثيرة من أصحابها، وأمر بهدمها، وتوسعة المقبرة^(١٠).

ساعد الاستقرار السياسي والأمن الداخلي في عهد خلفاء بني أمية على ازدهار مظاهر

(١) معالم تاريخ المغرب والأندلس ٣٢٧.

(٢) تم بناؤه ٣٢٩هـ (أزهار الرياض ٢/٢٦٦). وتعريف الزهراء في (صورة الأرض ١٠٧، ومعجم البلدان ١٨١/٣).

(٣) المغرب (قسم الأندلس) ١٨١/١، والبيان ٢٣١/٢، وبعدها، وأزهار الرياض ٢/٢٦٧، ٢٧١، والفتح ١/٥٢٣-٥٢٤، ٥٦٨-٥٦٣.

(٤) أزهار الرياض ١١١/٥، ونحت عان عن (جغرافية الأندلس) في مجلة (نظّوان) بالمغرب (العددان: ٣، ٤)، ١٩٥٩/١٩٥٨، ص ٤١.

(٥) تراجع عنها في: (تاريخ الجغرافية، والجغرافيين بالأندلس) للدكتور مؤنس ص ٣٨٢، وتاريخ مدينة ألمرية، للدكتور محمد أبو الفضل ص ٤٤-٤٥، ٥٦.

(٦) صورة الأرض ١١٢، والبيان ٢/٢١٣-٢١٤.

(٧) المقنيس ٥٥٦-٤٥٧ (سنة ٣٢٨هـ).

(٨) مثل: متابعة البناء في قلعة بيشتر ٣١٧هـ. (البيان ٢/٢٠١).

(٩) المقنيس (ط. الخجي) ص ٦٧-٦٨، ٧٠-٧١.

(١٠) المقنيس (ط. الخجي) ص ٩٢.

النشاط الاقتصادي من زراعة وصناعة وتجارة^(١). ومن هنا، فقد ازدهرت الزراعة بالأندلس، وكثر الإنتاج خاصة عند هطول الأمطار بغزارة كافية^(٢). كما اهتم المستنصر بتنظيم عمليات السرى، فأقسام السدود والقناطر لتنظيم الاستفادة من مياه الأنهار^(٣)، واستخدمت آلات الري المختلفة^(٤)، وأثمر هذا كله زراعة جيدة لمختلف المحاصيل والفواكه التي تشتهر بها كثير من مدن الأندلس^(٥). وفي بعض السنوات كان القحط يعم البلاد^(٦)؛ نتيجة منع القطر من السماء، فترفع الأسعار مع قلة المحاصيل وندرتها، وهلاكها أحياناً؛ مما كان يدفع الخلفاء إلى سد حاجات الناس، والإكثار من توزيع الأطعمة والصدقات على الناس^(٧)، لدرجة كانت تمنع الناصر من الخروج بنفسه في غزواته المعتادة^(٨)؛ مشاركة للناس، وإشرافاً على توزيع الغذاء، وضبط أمور البلاد.

وبخصوص الصناعة، فقد عمرت أرض الأندلس بالكثير من المعادن كالنحاس والذهب والفضة، والرخام الأبيض، فقام على ذلك العديد من الصناعات المعدنية والحربية^(٩). وبرع الأندلسيون في صناعة السفن، وقاموا بإنشاء الأساطيل البحرية اللازمة للدفاع عن ثغور الأندلس^(١٠). وطبعاً أن تروج التجارة بين مدن الأندلس، وأن تساعد ثغورها في تيسير حركة التبادل التجاري مع المغرب^(١١)، ومصر^(١٢)، وممالك الشمال النصراني^(١٣).

- (١) ابن حزم وجهود في البحث التاريخي والحضاري، للذكور عبد الحليم عويس ٢٨-٢٩.
- (٢) كما في سنة ٣٦١هـ (المقتبس، ط. الخي) ص ٦٦، والنقود الإسلامية (الكتاب الثاني)، للذكور طاهر راغب ٩٣.
- (٣) أنشرف المستنصر على هذا نفسه، واستعمل إنجازه قبل حلول الشتاء (السابق: ٥٨).
- (٤) مثل: آلة تعرف بـ (السانية)، وهي كلمة أندلسية تقابل (الساقية). (الإحاطة ٥/٢٢ بالهامش).
- (٥) النفع ٢٠٠/١.
- (٦) مثل: قحط سنة ٣٠٣هـ، ويُسبب مجاعة ٢٦٠هـ (المقتبس ١٠٩/٥-١١٠). وفي سنة ٣١٧هـ ظهر القحط أيضاً (اليان ١٩٩/٢)، ومجاعة ٣٥٣هـ (السابق ٢/٢٣٦).
- (٧) السابق: ٢/٢٣٦.
- (٨) كما في قحط ٣١٤هـ (السابق ٢/١٩٢).
- (٩) النفع ٢٠٠-٢٠٢/١.
- (١٠) (المقتبس ٣٢٤-٣٢٣/٥) و(ط. الخي) ص ٢٣-٢٥، وتاريخ مدينة المربة، للذكور أبي الفضل ٧٢-٧٤.
- (١١) كاستيراد سائلك الفضة الخالصة والدياج، وغيرها من نفيس المتاع بأوسط الأسعار، واستفاد بتلك الصفقات ثغور الأندلس (استودوها من ثغار جزيرة سرديانية بالمحيط الأطلنطي (المقتبس ٤٧٨/٥، ٤٨٥، أحداث سنة ٣٣٠هـ).
- (١٢) حيث وجدت منسوجات مصرية بأسواق الأندلس. وقد تمجد الأندلس تصديرها إلى أقاصي خراسان وغيرها. (صورة الأرض ١٠٥). وذكرت د. سعاد ماهر في (النسيج الإسلامي) ص ١٢٣-١٢٤: أن نسيج الأندلس يشبه جداً نسيج مصر، وقالت: توجد قطعة نسيج تعود إلى عصر المؤيد؛ مما يدل على وجود مصانع طراز بالأندلس، استفادت من مساحين من مصر للعمل بها.
- (١٣) حول العلاقات الاقتصادية مع تلك الممالك تراجع التفاصيل في كتاب: (العلاقات بين الأندلس وإسبانيا النصرانية) ص ٤٦٦-٤٧٦ (وذكر أن التبادل التجاري كان يتم على الحدود، وفي مناطق الثغور في المربة، وطرطوشة، وغيرها).

وعلى الجملة، فقد حظيت الأندلس ونعمت - نتيجة الازدهار الاقتصادي - بوفرة في الدخل، وارتفاع في إيرادات الدولة، فبلغ الخراج في قرى وكور الأندلس خمسة ملايين، و ٤٨٠ ألف دينار^(١)، وكان الناصر يقسم تلك الجباية أثلاثاً: للجنود، وللبناء والتعمير، وللدخار^(٢). وكانت الدولة لا تنهون في جباية الخراج من مختلف أقاليمها^(٣)، فهو ضروري لبسط سيادتها، ووسيلة للوفاء بالتزاماتها، وقد تُفرض ضريبة خاصة عند غزو الجيوش سنوياً^(٤)، لكن ذلك لا يعنى أنها تنعت في جمع الخراج، أو تكلف الناس مالا يطيقونه، بل كان الخليفة يُنَفِّع عماله إذا اشتطوا في استخراج الأموال من الرعية^(٥)، وفي بعض المناسبات السارة كانوا يسقطون قدرًا من الضرائب عن كاهل الناس^(٦)، أو يسقطون ضريبة مستثناة لدى الناس؛ لتحقيق هدف سياسي^(٧). وقد شهد الرحالة ابن حوقل^(٨)، الذي زار الأندلس في القرن الرابع الهجري بمدى ما تَنَمَّع به هذه البلاد وأهلها من الغنى والثراء، وما تمتلئ به أسواقهم من صنوف الأطعمة والفواكه وأسعار رخيصة. ومن ثم، نتوقع لعملة بلاد الأندلس الثبات والقوة الاقتصادية الحقيقية في ظل ذلك الرخاء الحقيقي على مستوى العامة والخاصة^(٩)، وفي ظل إشراف الخلفاء على دور الضرب، وحرصهم على نقاء العملة وخلوص وزنها^(١٠)، ومعاينة أى تلاعب في هذا الشأن^(١١). وامتد النفوذ الاقتصادي وراء السيطرة السياسية والعسكرية للأندلس

(١) أزهار الرياض ٢/٢٧١. ونقل ابن حوقل في (صورة الأرض) ص ١٠٧: أنه سمع غير واحد من ثقات محصلي الخراج بالأندلس في عهد الناصر أن قيمة ما جمعه إلى سنة ٣٤٠هـ، كانت ٢٠ مليون دينار إقليلاً، بخلاف ما في حزائنه من حلى ومتاع ونحوه.

(٢) البيان المغرب ٢/٢٣١-٣٣٢، وأزهار الرياض ٢/٢٧١. وفي (تاريخ الأندلس) لابن الكردوبس ص ٥٩: جعل بدل ثلث البناء (توزيع العطاء على الشعراء، والوافدين). وأرى أن رواية ابن عذارى أرجح. فالخليفة يرسل الجيوش لإجبار الخارجين على الوفاء بالخراج (المقتبس ٥/٤٨٦).

(٣) فالخليفة يرسل الجيوش لإجبار الخارجين على الوفاء بالخراج (المقتبس ٥/٤٨٦).
(٤) وهي ضريبة الحشد التي تُفرض على أصحاب الضياع في الريف، وتُعطى لجيش الخليفة في غزواته (الحلة السيرة ٢/١٠٠ بالمأش).

(٥) البيان ٢/٢٣٩ (أحداث ٣٥٦هـ).

(٦) مثل: إسقاط سدس المغارم عن الرعية؛ فرحاً بشفاء المستنصر، (المقتبس، ط. المحي، أحداث ٣٦٤هـ) ص ٢٠٧-٢٠٨، والبيان ٢/٢٤٩.

(٧) مثل: إسقاط ضريبة الرتبون المأخوذة على الزيت المستخرج منه بقرطبة، وكانت مستكربة للناس. وقد سُرَّ الناس بإسقاط هشام المؤيد لها في صفر ٣٦٦هـ. ثم أُشيع أن الذي أشار على الخليفة بذلك أنى عامر، فأجبه الناس (المصدر السابق ٢/٢٥٩).

(٨) صورة الأرض ١٠٩، وبعدها.
(٩) على الخاصة ولزائم الفاحش معروف، ومثاله: anecdote التي قدمها ابن شهيد الناصر (أزهار الرياض ٢/٢٦٢-٢٦٣).

(١٠) البيان ٢/١٩٨ (٣١٦هـ)، والنقد الإسلامية (الكتبات الثاني)، للدكتور طاهر راغب ص ١٢٧.

(١١) غزل الناصر صاحب السكة، عندما عثى في ورن الدينار سنة ٣٣٠هـ (المقتبس ٥/٤٨٦-٤٨٧).

في بلاد المغرب، فضُرِبَت السَّكَّةُ باسم الخليفة المستنصر هناك^(١).

خلاصة مقارنة:

١ - شهدت كل من: مصر، والأندلس نهضة اقتصادية واضحة في المجال الزراعي والصناعي والتجاري. وقد انعكس ذلك على ازدياد قيمة إيرادات الدولة، لكن الفارق بينهما أن هذه النهضة كانت حقيقية منعكسة على حياة الشعب الأندلسي، بينما لم نشهد لها انعكاساً واضحاً على حياة الناس في عصر بني عُبيد في مصر. فالأسعار رخيصة في أسواق الأندلس، ومظاهر الغنى والازدهار بارزة للعيان في الأسواق، وفي حياة الناس. أما ما يحدث من أزمات اقتصادية ومجاعات، فهو يعود في الأندلس إلى القحط، ونجاولون علاجه بتوزيع الغذاء والصدقات على الناس، مما يدخره الخليفة للنكبات والنواب. أما في مصر، فالغلاء وارتفاع الأسعار متكرر لا لانخفاض مياه النيل فحسب، وإنما لسوء تدبير الحكام^(٢)، ووجود انحرافات في القوائم على شئون الغذاء. صحيح أن العقاب ينزل على المنحرفين^(٣) والمحتملين^(٤)، لكن تكراره يعنى وجود خلل إداري اقتصادي. ثم إن موائد الأطعمة التي تُخفَّل بها الأعياد والاحتفالات الكثيرة، التي يقيمها العبيدون وإقبال الناس عليها بنهم شديد، هو دليل على نقشي الفقر والحاجة بين صفوف عامة الشعب.

٢ - مقدار ما خلف كل فريق من آثار تشهد له بالتقدم والازدهار الاقتصادي، يتضح بصورة كبيرة في مجال العمران وتتفوق فيه الأندلس على مصر. وللأسف فحكام الأندلس مدانون لهذا السرف الشديد، الذي كان ينبغي أن يُفَقَّ في أمور تعود بالنفع والفائدة على جموع الناس. وكذلك ما أتفق حكام الأندلس من أموال باهظة في سبيل السيطرة على بلاد المغرب، واصطناع الرجال والمؤيدين هناك كان من قبيل الإنفاق المبالغ فيه، والموضوع في غير محله. وقد أدرك المستنصر ذلك، وندم عليه^(٥).

٣ - يمكن الحكم -بصفة عامة -من الناحية الاقتصادية -على عصر الخلافة في الأندلس بأنه كان عصر ازدهار ورخاء (فيما عدا بعض سنوات القحط والمجاعات)، وأن عهد المستنصر ثم

(١) السابق (ط. الخجي) ص ١٨٢ (٣٦٣هـ).

(٢) إغانة الأمة، للمقريزي ص ٨٤، ٨٧.

(٣) ارتفعت الأسعار، فمع العزيز بيع القمح لغير الطحّانين (اتعاظ الحفا - ط. المجلس الأعلى) ج ١ ص ٢٩٠-٢٩١. وفي سنة ٣٩٨هـ عاقب الحاكم الخازين، لعدم وجود الخبز مساء (السابق ٧١/٢).

(٤) كمعاقبة الحاكم صاحب ديوان الفتكات في دولته بضرب عنقه (سنة ٣٩٤هـ)؛ لسرفته ٢٠٠ ألف دينار ذهب (اتعاظ الحفا ٤٨/٢).

(٥) وذلك أواخر أيامه (البيان للمغرب ٢٥٢/٢).

المنصور فالمظفر^(١) كانت عهود رخاء واستقرار، أعقبها ضياع وهيار. أما مصر، فإن عهد الإخشيد كان على درجة كبيرة من الازدهار، وبعده حلت بالبلاد النكبات. وفي عصر العبيديين يعد عهد العزيز^(٢) في ذلك القرن أفضل العصور، فقد استقرت فيه أمور الاقتصاد، وظهرت فيه علامات الازدهار والرخاء، ثم اهتزت الأوضاع في عهد الحاكم؛ لطبيعة حكمه، وتناقض تصرفاته وقراراته !

(١) يعد عصره عصر رخاء وحصب ؛ لأنه حتى لمرات كفاح سابقه (الناصر، والمستنصر، وأبيه المنصور). (المعجب ص ٤٠، ومقدمة : د.عمود مكي لديوان ابن قزّاج ص ٢٧).

(٢) تذكر المصادر أن أيام العزيز كلها أعراس وأعياد، ويُضرب بها المثل في ذلك. (النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة) لابن سعيد ص ٤٨، واتعاط الحنفا، للمقريزي (ط. الثانية - ط. المجلس الأعلى) ج ١ ص ٢٩٧.

ثالثاً - الأوضاع الاجتماعية العامة في مصر والأندلس في القرن الرابع الهجري

١ - مجمل أوضاع مصر الاجتماعية:

عانت مصر في فترة ما قبل العصر الإخشيدى في ذلك القرن من الاضطرابات السياسية المفضية إلى المتاعب الاقتصادية. وقد انعكس ذلك على المجتمع المصرى، الذى لا بد أن عامته تكبدت ويلات الفقر، والقلق النفسى وسط أجواء تمور بصراعات الجند الداخلية واعتداءاتهم على أموال الناس وممتلكاتهم، إلى جانب مُقاساتهم تحول بلادهم إلى هدف لهجمات العبيدين، ومرتع يبعث فيه جند الخلافة، الذين تتواتر إمداداتهم لمواجهة الخطر العبيدى بما له من تأثير بالغ في حياة الناس ومعيشتهم.

وطبيعى في مثل هذه الأجواء الفاسدة أن تظهر عوامل الانحلال الخلقي واللهو والجون، الذى تصدى لشئ منه الوالى تكين^(١) في محاولة منه - فيما يبدو - لإعداد شعب مصر لمواجهة خطر العبيدين. وقد أثمرت جهود هذا الوالى المخلص، فنجح في جمع المصريين على قلب رجل واحد بصورة لا مثيل لها من قبل، وألحق بالعبيدين هزيمة كبيرة سنة ٣٠٢هـ؛ بفضل توحيد كلمة الناس ومشاعرهم وتضحياتهم، وحسن بصيرتهم عند الخطر، رغم ضعف خبرتهم القتالية، واستشهاد عشرة آلاف منهم^(٢). وظل الروح الجهادى نامياً ومتصاعداً في صفوف شعب مصر، وظهر دورهم الإيجابي، عندما وجدوا القيادة الواعية الأمينة ممثلة في الوالى تكين، فشاركوا في صد الغزوة العبيدية الثانية، وشاركوا الجند في قتل الأسرى المغاربة من الجيش العبيدى، وذلك في شوال سنة ٣٠٧هـ^(٣) وعندما قام مؤنس بعزل الوالى تكين، غضب شعب مصر وثار، وأرسل نوابه يطالبون مؤنساً برده واليهم الكفاء إلى منصبه، فاضطر إلى الموافقة صاغراً، ريثما يدبر أموره لإحجاد أية ثورة شعبية، ثم قام بعزله بعد أيام قلائل^(٤). ويبدو أن الناس لم تستطع

(١) يذكر الكندى أنه أمر بجمع المؤنثين (المتشبهين من الرجال بالإناث)، وأمرهم بإظهار المعازف والمزامير والطبول، وشهرهم في لباسهم، وطيف بهم القسطنطين، وذلك يوم الثلاثاء السابع من ذى القعدة سنة ٣٠٠هـ. (الولادة - ٢٦٩).

(٢) المصدر السابق: ص ٢٧٠.

(٣) الولادة: ص ٢٧٦. ويلاحظ أن الوالى أمر بتعمير الأسارى، فأطلق أهل القيروان، وطرابلس، وبرقة، وصقلية. وأذن للناس بقتل الأسرى من كُتامة وزُويّة (البربر المغاربة). ولا شك أنها حكمة من ذلك الوالى، الذى أدرك أن أشد عناصر الجيش العبيدى هم الكتاميون. وهم عموده الفقرى الذى قامت دولتهم على أساسه. أما الآخرون، فقد يكونون محبرين على القتال في صفوف العبيدين.

(٤) وذلك سنة ٣٠٩هـ (النجوم ٢٢٥/٣).

المقاومة، فظلوا يترقبون الأحوال، حتى أُعيدَ تكيين إلى منصبه ثانية، فخلّص الناس من الجند المشاغبين، فأحس شعب مصر، الذي لا يعرف النكران، بالأثر الطيب لهذا العمل، فتوجه الناس يشكرون الوالي، ويحمّلون له حسن صنيعه^(١) وهكذا، استخلصنا سمة مهمة لهذا الشعب في تلك الفترة، وهى أنه يتوحد في ساعات الخطر^(٢)، ويتوق إلى القيادة الماهرة الحكيمة، التى تحسن توجيهه، وعند ذلك يعطيها إخلاصه وتفانيه بلا حدود، ويطالب ببقائها، ويحرص على إظهار الامتنان لها، ويتأسف لفواتها^(٣).

لا نلمس تطوراً كبيراً في الحياة الاجتماعية في مصر في العصر الإخشيدى؛ لأن التغيرات الاجتماعية تحتاج إلى زمن طويل، ولا تتم بين يوم وليلة. وعلى كل، فالمادة المتوفرة لدينا عنها أكبر حجماً مما عليه الحال في الفترة السابقة؛ نظراً لما حظيت به مصر في ظل استقلال الإخشيديين شبه التام من اهتمام، وما تمتعت به مصر من استقرار سياسى واقتصادى. وقد كان المجتمع المصرى مجتمعاً متآلفاً متناسقاً في ذلك العصر، ويعد العلويون فيه على رأس عناصره^(٤) المكونة لنسيجه، المتمتع بامتزاج اجتماعية واقتصادية طيبة.

وقد كان الإخشيد على صلة وثيقة بزعمى الأشراف في عهده: عبد الله بن طباطبا الحُسَيْنِي، والحسن بن طاهر الحُسَيْنِي، على ما بينهما من تنافس على الرئاسة^(٥). وكان الحسن بن طاهر وسيطاً في الصلح بين الإخشيد وابن رائق، وكان أبو إبراهيم الرُّسَيْي العلوى موضع احترام وتقدير الإخشيد؛ إذ قبل شفاعته في الكاتب البغدادى المستر (سهل بن محمد)^(٦). ولم تتغير مكانة العلويين بعد وفاة الإخشيد، فقد لقوا معاملة طيبة، وتجلّ واحتراماً في عهد كافور، الذى تفقّد نساء الأشراف، وخصّهن بالإحسان والعتاء والرعاية^(٧). وبالإضافة لما تقدم، فقد كانت لهم نقابة تعرف بـ (نقابة الطالبين)^(٨).

(١) الولاة ص ٢٨٠ (سنة ٣١١هـ).

(٢) ومن هنا فلا حجة لما يذكره الذهبي من فزع العوام من جيوش العبيدين، وإظهارهم القلق الشديد وكثرة البكاء، والتأهب للهروب، لما ملكت جيوش القائم الجزيرة من الفسطاط، وذلك سنة ٣٠٨هـ. (تاريخ الإسلام ٣١/٢٣).

(٣) كان ذلك - أيضاً - موقف الناس لما استعفى القاضي العادل الحازم ابن خربوية من منصب القضاء، فأعفى سنة ٣١١هـ. (السابق ٣٥٠/٢٣).

(٤) تناولت د. سيدة كاشف عناصر المجتمع المصرى وطبقاته في: (مصر في عصر الإخشيديين) ص ٢٣٣-٢٤٤.

(٥) المغرب (قسم مصر): ص ١٦٦.

(٦) السابق: ص ١٨٨.

(٧) المغرب (قسم مصر): ص ٢٠٠-٢٠١.

(٨) وهى التى عرفت - بعد ذلك - بـ (نقابة الأشراف)، ويتولاها شيخ هذه الطائفة وأهلها قدراً، وله النظر في أمورهم، ومنع من يدخل فيهم من الأدعياء، وإذا ارتاب بأحد طالبه بإثبات نسيه. ويقوم بعبادة مرضاهم، والسير في حناجرهم، والسعى في حوائجهم، والأخذ على يد المعتدى منهم، ولا يقطع أمراً يتعلق بهم إلا بموافقة مشائخهم. (صبح الأعشى ٤٨٢/٣). وكان أبو القاسم أحمد بن محمد بن طباطبا العلوى نقيب الطالبين (ت ٣٤٥هـ). (وفيات الأعيان ١٢٩/١-١٣١، وتاريخ الإسلام ٣١٢/٢٥).

ووجد في المجتمع المصري - آنذاك - طائفة من كبار الموظفين والملوك والتجار، وهؤلاء هم الأثرياء من القوم، وكانت بأيديهم إدارة شئون البلاد، وعلى رأسهم أسرة المادرائين المشهورة^(١).

وأخيراً، هناك عامة الناس وأهل الذمة، والأولون منهم من المسلمين هم غالبية السكان، وهم المقياس الحقيقي لحال المجتمع وسماته في تلك الفترة. وأعتقد أنهم كانوا أحسن حالاً في ظل دولة شبه مستقلة، يسعى مؤسسها ومن بعده غلامه كافور لتثبيت أركانها ودعائمها، ولا يكون ذلك إلا بالاهتمام بهذا العنصر السكاني المهم، الذي على أكتاف أفرادته تنهض تلك الدولة. وقد تعرض عوام الناس ليلاء كبير وفناء عظيم في المجاعة الحادثة في عهد كافور؛ بدليل أن الأغنياء لم يجدوا من يقلل الزكاة (ربما لأن الفقراء يريدون الطعام لا المال)، فأتوا إلى كافور، فقال: ابنوا لها المساجد، واتخذوا لها الأوقاف^(٢). أما أهل الذمة، فلم نسمع عن وقوع اضطهادات لهم من قبل الدولة، وكان الإخشيد يتدخل باستخدام القوة، عندما تلجأ إليه بعض الطوائف النصرانية ضد الأخرى، ويقوم بإلغاء الخلاف بينهم^(٣). وقد وردت بعض النصوص تفيد وقوع مصادمات واعتداءات من عامة المصريين على بعض كنائس النصارى في مصر كرد فعل غاضب غير مسئول؛ نتيجة اعتداءات البيزنطيين على المسلمين في أطراف الشام^(٤)، وعندما ينتج العوام على السماح لنصارى مصر بتعمير الكنائس^(٥).

يمكننا أن نشير - في عجالة - إلى أبرز مظاهر الحياة الاجتماعية، وأهم خصائص المجتمع في العصر الإخشيدى على النحو الآتي:

١- في ظل حالة الاستقرار السياسى، والنمو الاقتصادى أحب الناس الإخشيد، وسُرُّوا برجوعه سالماً من حربه في الشام أمام ابن رائق، وزينوا له الطرق والأسواق، فأقرَّ الزينة على حالها (يوم رجوعه الخميس سنة ٣٢٨هـ)، ثم ركب من الغد إلى الجامع العتيق لصلاة الجمعة، فكان يوماً عظيماً مشهوداً^(٦).

٢- كثرة المواكب والاحتفالات^(٧): مثل موكبه الأسبوعى إلى مسجد ابن طولون لأداء

(١) ستعرض لهذه الأسرة بالتفصيل عند دراسة بقايا كتاب المؤرخ ابن زولاقي عنها، إن شاء الله.

(٢) صبح الأعشى ٣/٣٤٢.

(٣) عرض تفاصيل هذا الخلاف يحيى بن سعيد الأنطاكي في ذيله على (تاريخ ابن البطريق - أحداث ٣٢٨هـ -

ص ٢٣-٢٧، ومصر في عصر الإخشيديين ص ٢٤١-٢٤٢.

(٤) تفاصيله في (تاريخ ابن البطريق - أحداث ٣٤٩هـ): ص ٩٢-٩٣.

(٥) المغرب (قسم مصر) ١٨٣-١٨٤.

(٦) المغرب (قسم مصر) ص ١٧٥.

(٧) مثل: عيدى الثوروز، والمهرجان الفارسيين، اللذين كانت تُمنح للإخشيد فيهما الهدايا (خاصة الخمر). -

صلاة الجمعة^(١)، وحضوره ختم القرآن في شهر رمضان^(٢)، واستعراضه الجند ليلة عيد الفطر مقتدياً في ذلك بابن طولون^(٣).

٣- شيوخ الترف في حياة القوم في حفلات السمر^(٤)، ومآدب الطعام والشراب^(٥).

٤- ظهور بعض ألوان الانحراف في المجتمع؛ مما دفع الإخشيد لمحاربة ذلك، ومحاولة القضاء عليه^(٦).

٥- وأخيراً، نما وعى الشعب المصرى في تلك الفترة، فازدادت إيجابيته ومتابعته للأحداث، وانفعاله بها وتفاعله معها. ولعل اتباع الإخشيد سياسة اللين والمداورة، مع ما تحقق من ازدهار مع حسب الناس للتطلع^(٧)، شجع الناس على ألا تكون على هامش الأحداث، بل كانت في قلبها، وتدخل في مجرياتها^(٨)، ويعمل لها حساب في هذا الصدد^(٩).

- (السابق ١٨٦). وكذلك الاحتفال بليلة عيد الفطاس النصراني (ليلة ١١ طوبة - ٦ كانون الثاني/يناير). وقد شهد المسعودى بنفسه مظاهر الاحتفال بذلك العيد، عندما كان بمصر سنة ٣٣٠هـ. وشارك فيه الإخشيد بنفسه، ومعه مئات الآلاف من المسلمين والنصارى في الزوارق النيلية، وعلى الشواطئ، حيث يشعلون المصابيح طوال الليل، ويسرفون في الأكل والشرب، والملبس والملاهي، وبغض أكثرهم بالنيل؛ زاعمين أنه أمان من المرض، وشفاء من الداء. (مروج الذهب مجلد ١ ص ٢٩٨-٢٩٩، والمخطوط ٢٦٥/١).

(١) المغرب (قسم مصر) ص ١٥٩، ١٨٥.

(٢) السابق ١٦٠، ١٨٥.

(٣) المغرب (قسم مصر) ١٦٣.

(٤) بعض ملامح مجالس السمر في (المصدر السابق ص ١٦٣، ١٨٤).

(٥) السابق: ١٥٤، ١٨١، والمخطوط ٣٣٢/١.

(٦) فقد أمر بدمدب المواخير (جمع ماحور)، وهى بيوت تجمع الفسقة والفاستدين، وأهل الريبة، وهدم دور المقامرين وعاقب أهلها. (المغرب - قسم مصر - ص ١٨٠، ١٨١، و (المسعودى) للخربوطلى ص ١٦٠). ولا يصح ما ورد في (اتعاظ الخفا - ط. دار الفكر ١٤٣، والمخطوط ٣٥٣/١) من أن ابنة الإخشيد ذهبت إلى سوق الرقيق؛ لتشتري جارية، تستمتع بها. ذلك في - غالب الظن - من قبل الدعاية الكاذبة، التى روح لها المعز؛ ليعين استثناء الفساد في مصر، فيُهوّن على جيشه وجنده أمر غزوها، والاستيلاء عليها.

(٧) ينصف شعب مصر - حتى الآن - بحب التطلع، والوقوف لمشاهدة ما يصادفه من أشياء، والتكالب والتزاحم عليها في الشوارع والطرقات، ولو عَرَّضه ذلك للأخطار. (راجع ذيل تاريخ ابن البطريق - أحداث ٣٤٩هـ، ص ٩٣، بخصوص تجمع الناس زمن كافور عند إنزال مركب جديد في الأسطول إلى البحر، وتزاحمهم، حتى قتل منهم غرقاً زهاء ٥٠٠ رجل).

(٨) تابع الناس أخبار حرب الإخشيد وابن رائق بالشام (شعبان ٣٢٨هـ)، وكان لهم رد فعل عنيف لما سمعوا بالهزيمة أولاً، ووقعت اضطرابات واحتجاجات حتى ركب أبو المظفر ابن طغج، ومحمد بن على المادرائى؛ لتسكين غضب الناس. ثم وردت الأخبار بنحول الهزيمة إلى نصر، ودخول الأسرى، ورعوس القتلى، فزُيِّت الأسواق. (المغرب - قسم مصر - ص ١٧٨).

(٩) راجع تفاصيل موقف الرعية الناصر الغاضب، مما بلغهم عن أحد الفقهاء بشأن السماح بترميم ما تهدم من كنيسة أبى شنودة سنة ٣٢٦هـ، وما قاموا به من محاولات لقتل هذا الفقيه، ومحاصرتهم الطسرق، وإغلاقهم =

في عصر بني عبيد في مصر لم يطرأ كبير تغيير على تركيبة الشعب المصري^(١)، اللهم إلا ما استحدث من عنصر المغاربة (من قبيلة كتامة)، الذين كانوا يمثلون العنصر الأساسي في جيوش العبيديين، وساعدوهم على إقامة دولتهم بالمغرب أولاً، وكانوا يتمتعون هم وكبرائهم (كالحسن بن عمّار أمين الدولة مثلاً) بمكانة ممتازة^(٢)، أهدرت بعد ذلك على يد الحاكم، الذي أراق دماء سائر الناس على مختلف طبقاتهم حتى شيوخ كتامة وأصاغرهم^(٣).

وبالنسبة لعامة أهل مصر، فقد تعددت صداماتهم مع الحكام الجدد^(٤)، ومع الجند المغاربة^(٥). ورغم ما قيل عن كثرة الأعياد والمواسم^(٦)، التي يُتاح فيها الأكل والشرب ببذخ شديد، إلا أن هناك من لا يجد ما يسد رمقه، ومن لا يتوفر له القوت الضروري للحياة^(٧).

- الدروب، وقذفهم الجند الإخشيدي بالحجارة. ولم تُهدأ آثارهم حتى علموا بإبقاء الكنيسة على ما هي عليه (المصدر السابق ص ١٨٣-١٨٤). وهذا الموقف وغيره مما كان الإخشيد يعمل له ألف حساب، ينفي صحة ما تذكره د. سيدة كاشف في (مصر في عصر الإخشيديين) ص ٣٧٦-٣٧٧، من أن الشعب المصري في العصر الإخشيدي كان هادئاً خاضعاً، يلب على أفراد طابع الانصراف إلى شغلهم الخاصة، والعيش على هامش الحياة السياسية، وأنه لم يكن هناك رأى عام، تحسب الحكومة حسابه.

(١) تفاصيل طبقات المجتمع المصري في العصر الفاطمي تراجع في: (تاريخ الدولة الفاطمية) د. حسن إبراهيم حسن ص ٦٢١-٦٢٤.

(٢) المجالس والمساربات ص ٢١٩-٢٢٠، ٢٢٢ وما بعدها، والخطط ١١/٢-١٢.

(٣) ذيل تاريخ ابن البطريق: ص ٢٥٧.

(٤) راجع نماذج ذلك في: (اتعاظ الحنفا، ط. دار الفكر) ص ١٨٠-١٨١.

(٥) المصدر السابق: ص ١٨٣، وط. المجلس الأعلى ١/٢٢٣.

(٦) هناك أعياد إسلامية معروفة، عملوا لها طقوساً جديدة مرتبطة بالطعام والشراب (في عيدي: الفطر، والنحر).

(السابق، ط. المجلس) ١/٢٢٣، ٢٦٧، والخطط ١/٣٨٧، ٤٣٦، والنجوم ٤/٩٨-١٠٢. واحتفلوا بشهور

عربية لم يحتفل بها السلف، مثل: غرة رمضان (الخطط ١/٤٩١)، وليالي الجُمُع في رجب (اتعاظ الحنفا- ط. المجلس - ١/٢٦٧). وهناك أعياد اخترعها العبيديون في مصر: مثل، عيد القدير (الكاظم ٧/٢٨٠)، والخطط

١/٣٨٩، وليالي الوفود (المصدر السابق ١/٤٦٥-٤٦٦، ٤٩١) والتعريف بمصطلحات صبح الأعشى ٢٩٣،

ويوم عاشوراء (اتعاظ الحنفا ٢/٦٧، والنجوم ٤/٢١٩)، ويوم ميلاد وكذى الحاكم (اتعاظ الحنفا ٢/٥٥، ٥٨).

وتوجد أنساب فارسية الأصل، انتقلت إلى النصارى، مثل: عيد النوروز (تاريخ اليعقوبي ١/٢٣٤، و (صبح

الأعشى): ٤١٨-٤٢٠، واتعاظ الحنفا ٢/١٨، ٥٩، وتاريخ الدولة الفاطمية ٦٥٩-٦٦١. وعيد المهرجان

(المروج: بمجند ص ٤٩٩-٥٠٠، وصبح الأعشى ٢/٤٢٠-٤٢٢، واتعاظ الحنفا ١/٢٧٢). كما شارك العبيديون

النصارى في أعيادهم الدينية الخاصة بهم، مثل: (ميلاد المسيح: الخطط ١/٤٩٤)، وخميس العهد (السابق ١/٢٦٦)،

وعيد الصليب (صبح الأعشى ٢/٤٢٨، والخطط ١/٢٦٦-٢٦٧، واتعاظ الحنفا، ط. المجلس ١/٢٧٦)، وعيد

الشهيد (الخطط ١/٦٨-٦٩). راجع دراسة الأعياد في العصر العبيدي تفصيلاً للدكتور عبد المنعم سلطان في:

(المجتمع المصري في العصر الفاطمي) ص ١٢٩ وبعدها.

(٧) راجع نماذج الفقر المدقع في طبقة العامة من الناس في الذيل على كتاب الكندي ص ٦٠٧، والمغرب (قسم الأندلس) ١/١٦٦-١٦٧.

وبخصوص العلويين في ظل الحكم العبيدي، فقد ارتقت منزلتهم، وحُظُوا بالاحترام والتقدير، بل قُدِّموا في منزلة خلال الموابك والمجالس التي يحضرها عظماء رجال الدولة، على مكانة الأمراء^(١). وخُصِّصَتْ لهم نقابتان: (الأشراف، والطالبيون)^(٢)؛ لرعاية مصالحهم.

أما المرأة في العصر العبيدي، فكانت حرة طليقة دون قيود تُحدِّد من حركتها ونشاطها الطبيعي في المجتمع المصري، إلا أن إساءة استخدام هذه الحرية خاصة عهد الحاكم، وشيوع الفجور والاختلاط بالرجال، بعد أن حوِّل الحاكم الليل إلى نهار مضى، دفع الحاكم إلى اتخاذ إجراءات عنيفة ضد المرأة^(٣)، قُبِدَتْ حركتها إلى حد بعيد. أما نساء القصور^(٤)، فقد احتفظ لنا التاريخ ببعض أخبارهن، فهناك تغريد زوج المعز^(٥)، التي كانت تهتم بأعمال الخير والبر، ومن بعدها ست الملك التي كان لها دور في إدارة البلاد عند الوصاية على أخيها الحاكم، بالإضافة إلى ما قامت به عمة الحاكم من أعمال نافعة للناس آنذاك^(٦).

وإذا أردنا رصد السمات العامة لمجتمع مصر في ظل حكم العبيدين، خرجنا بما يلي:

- ١- لم تكن عناصر المجتمع متناسقة في ذلك العصر، فهناك أغلبية الشعب (سنية المذهب)، تنظر بعين الترقب والتوجس إلى الحكام الجدد. وهناك أقلية شيعية حاكمة، لها أهداف تريد تحقيقها، ولو على حساب هذه الأغلبية، وتساندها أقلية من أهل الذمة، تولت مناصب إدارية ومالية مهمة، ألحقت بالأهالي ظملاً اجتماعياً فادحاً. وقد اضطر الحكام العبيديون إلى عزلهم إلى حين هدوء نائرة جموع الشعب، وامتصاص غضبهم. وفي عهد الحاكم اضطهد أهل الذمة، وهدم كنائسهم، ضمن ما اتخذ من إجراءات قاسية عَمَّت المجتمع كله مسلمين ونصارى.
- ٢- عرف العبيديون طبيعة المصريين الهادئة الطيبة، التي لا تتور إلا إذا استثرت. ومن هنا

(١) اتعاظ الحنفا (ط. الفكر) ص ٢٠٠، والخطوط ٣٥٨، والمجتمع في العصر الفاطمي ص ٣٦.

(٢) راجع في التعريف بهما: (صبح الأعشى ٤٨١/٣، ٤٩٦، والخطوط ٣٨٦/١)، وفي التعريف ببعض من ولى نقابة الأشراف (المقفى ٣٧/١، ٣٨، ٤٦٥-٤٦٦). وقد فرق بينهما د. عبد النعم سلطان، فجعل الأشراف أقارب

العبيدين، والطالبيين نسبة إلى أبي طالب (المجتمع المصري في العصر الفاطمي) ص ٣٦-٣٧.

(٣) راجع (اتعاظ الحنفا ٣٨/٢، ٥٣، ٧٦، والخطوط ١٠٨/٢، والمرأة في مصر في العصر الفاطمي ٨٤-٩١، والحاكم بأمر بالله، لعنان ١٧٢).

(٤) نقصد الحرار منهن. أما الجوارى، فلا يتضح لهن تأثير في المجتمع، وإن كان لبعضهن سيطرة على قلوب حكام بني

عبيد (مخطوط مسالك الأبصار، عن مصورة أحمد الثالث - ٢٦ معارف عامة) ص ١٣٨-١٣٩.

(٥) هي أم العزيز التي بنت جامع القرافة ٣٦٦هـ (الخطوط ٤٨٦/١، ٣١٨/٢، والمرأة في مصر في العصر الفاطمي ص ٦٠-٦١). وأقامت مدرسة منازل العز التي صارت متروهاً (الخطوط ٣٦٤/٢).

(٦) هي ست الملك بنت المعز (وهي غير أخت الحاكم)، التي بنت أحواضاً وآباراً للسقيا بالقرافة (الخطوط ٤٦٠/٢).

كان حرص بني عبيد على نشر مبادئهم بحدوء وبالتدريج. فأدرك هؤلاء حب المصريين للجديد، وتطلعهم إليه بشغف، وميل عامتهم إلى الاحتفالات والموائد، فأكثروا من الاحتفالات، وحافظوا على القديم منها، وابتدعوا لهم الجديد، وزينوا لهم الإغراق في ذلك حتى آذاهم، رابطين ذلك كله بالبذخ في تقديم الأطعمة والأشربة ومظاهر اللهو المختلفة، مستغلين حالة البؤس والفقر التي يعانيها الناس، لعلهم بذلك يتقربون إلى قلوبهم، ويحظون بتأييدهم^(١).

٣- نتيجة ما يحدث في الأعياد والاحتفالات من انحرافات أخلاقية، وأعمال فاحشة، تخالف تعاليم الإسلام وتوجيهاته، ضعف الوازع الديني في نفوس الناس، وتضعف السياج الأخلاقي الحامى لهم والضابط لسلوكهم. ولذلك شاع شرب الخمر، وارتكاب الفواحش والمنكرات، وانتشرت السرقات، وعاث المفسدون في الأرض^(٢) ففقد المجتمع في أحيان كثيرة أمنه واستقراره، رغم محاولات بعض العبيدين درء المفسد، والضرب بقوة على أيدي المفسدين، ومنع ما يحدث من تجاوزات في الأعياد والاحتفالات^(٣).

٤- ضعفت حاسة الإيجابية عند الشعب المصري، والتي رأينا بعض مظاهرها في العصر الإخشيدى، وحلت محلها مشاعر عاطفية مخلوطة^(٤)، وتصرفات مندفعة^(٥)، وخوف وفرع ملأ القلوب^(٦)؛ نتيجة الحكم الجائر الباطش الداعي إلى السلبية والانكفاء على الذات^(٧)، الذى قاسى منه

(١) المعز لدين الله، د. حسن إبراهيم، وغيره ص ٢٨٧، وماجستير أحمد كامل ص ٢٧-٢٨، ودكتوراه زغروت ص ٢٧-٢٨، وماجستير (التخطيط الإعلامى) ١٢٧. ولا يصح قول من عدت الاحتفالات والأعياد اهتماماً من بني عبيد برفاهية الشعب المصري (المرأة في مصر في العصر الفاطمى ص ٣٣).

(٢) أجل المقرئى ما شاع في هذه الاحتفالات من منكرات وفواحش وانحرافات في عبارات بليغة حاملة في: (المخطوط) ٤٩٣/١-٤٩٤.

(٣) بذلت في ذلك محاولات أيام المعز والعزير، والحاكم في أعياد الصليب، والنيروز، والنحر، سنوات: ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٨١، ٣٩٩هـ. (اتعاظ الحنفا - ط. المجلس - ١/٢١٤، ٢٧١-٢٧٢، ٧٩/٢، والمخطوط ١/٢٦٧-٢٦٨).

(٤) من مظاهر ذلك: توسلات العامة، ووجوه الرعية، والتجار إلى العزيز، وحمل الناس السلاح، وطلبهم إليه ألا يخرج بنفسه لغزو الروم بالشام، وأرادوا الخروج هم للقتال، وهو يشكرهم، ويتظاهر بالجهاد قائلاً: "إنما أسر لصرة الإسلام، والذب عن بلدانه، وصيانة أهله". وما إن قدم رسول ملك الروم بخبره بالهدنة، حتى أحجب إلى الصلح. (اتعاظ الحنفا - ط. المجلس ج ١ ص ٢٨٧-٢٨٨). وكذلك موقف الناس وابتهاجم في الشوارع، وعلى أبواب الدُور ليلاً بالنصر على أبي رَكُوة (السابق ٢/٦٣).

(٥) مثل: هجوم الرعية على الروم التهمين بأحراق أسطول العزيز ٣٨٦هـ، إذ قتلوا منهم مائة وسبعة أشخاص، وألقوا حتثهم في الطرقات، قيل أن ثبت التهمة ويعترفوا، (المخطوط ٢/١٩٥-١٩٦).

(٦) راجع نضرب العامة والخاصة إلى الحاكم، لما علموا نيته في البطش بالناس، يسألونه الشفاعة والعفو سنة ٣٩٥هـ (اتعاظ الحنفا ٢/٥٤-٥٥).

(٧) كالسجل الذى أصدره الحاكم بترك الناس الخوض فيما لا يعنى، وأن يشتغل كل بمعيشته عن الخوض في أعمال الحاكم وأوامره. ومرسوم آخر بعدم الخوض في أحوال السلطان، وأوامره، وأسرار الملك (السابق ٢/٦٩، ٧٧، سنة ٣٩٩ هـ). ففرغ الناس، فصدر سجل بطمائتهم لخوفهم من أوامر الحضرة (السابق ٢/٧٧).

الأهلون السويلات، فاستبدلوا بالقوة والعزة ضعفاً وخضوعاً وذلة. وبعد أن جنى هذا العصر على النفوس، أضعف العقول، وملأ بالخزغيات والأباطيل والعقائد الفاسدة^(١).

٢- مجمل أوضاع الأندلس الاجتماعية:

استطاع الخليفة الأموي الناصر توحيد الجبهة الداخلية بالأندلس على تعدد، وتنوع عناصرها^(٢) بحيث استفاد من الروابط التي تشد طبقات هذا المجتمع بعضها إلى بعض في أغلب الأحيان، وتطبعهم بالطابع الأندلسي المميز كالبينة المشتركة، والثقافة المشتركة، والخلافة الواحدة، والسياسة الموحدة، والهدف الواحد الذي يجتمع عليه الكل، وهو بناء حضارة أندلسية رائعة، يسهم الجميع في إقامة صروحها، بقض النظر عن أصله وجنسه^(٣).

يأتي على رأس عناصر المجتمع الأندلسي في عصر الخلافة العنصر العربي، الذي ينتسب إليه الفاتحون، ودخل أفراد الأندلس ضمن الجيوش الإسلامية الفاتحة، واضطروا إلى التزاوج من الإسبانيات، فتكونت من هؤلاء وأولئك - عن طريق المصاهرة - سلالات جديدة، صارت أبرز عناصر المجتمع الأندلسي، وأهم مكوناته البشرية^(٤). وكانت للعرب مكانتهم في دولة بني أمية بالأندلس، وعانت شبه الجزيرة من صراعات القيسية واليمينية. ولما ولي الناصر استبدل بالعنصر العربي عنصراً جديداً هو (الصقالبة)^(٥)، الذي استكثر منه، فكان منهم الغلمان والخدم وقتيان القصور، بل اعتمد عليهم في بناء جيشه، فغدوا أهم عناصر الجيش. وبلغ إهمال العنصر العربي؛ نظراً لاستحكام العنصرية القبلية في أفرادهم، بلغ أوجّه في غزوة الخندق (٣٢٧هـ)، التي

(١) وهي المتصلة بتقديس الأئمة، وقبور الأولياء الصالحين، والقيام بالسجود لها، مع ما فيه من شرك، يعود إلى مبادئ الفاسدة، ودعائهم المبطلين (سمر أعلام النبلاء ١٠/١٠٦، والبداءة والنهاية ١٠/٢٧٢-٢٧٣). وكذلك أسطورة اختفاء المعز، والزعم بأن الله رفعه إليه (سنة ٣٦٢هـ)، وأنه غاب في السماء. وأدى ذلك إلى ابتلاء قلوب الرعية منه رعباً. (تاريخ ابن أبي افيحاء ص ٥٢).

(٢) تراجع: العناصر البشرية في المجتمع الأندلسي في: (الأدب الأندلسي، د. هيكل ٣٠-٣٢، ودولة الإسلام في الأندلس، لعنان ١٤ في ٢ ص ٥١٤-٥١٦)، وظهر الإسلام، لأحمد أمين ج ٣ ص ٢.

(٣) الأدب الأندلسي، د. هيكل ٣١.

(٤) المرجع السابق: ص ٣١-٣٢.

(٥) جمع صقل، وهم الروس غالباً، وكانت بعض الشعوب الأوروبية تبنيهم عبيداً للأندلسيين، وكانوا يُخصَّون، ويعملون في خدمة القصور، حيث بلغ عددهم في مدينة الزهراء لحين وفاة الناصر (٣٧٥٠ شخصاً). (راجع: صورة الأرض ١٠٦، وأعمال الأعلام ٤٠، والنفع ١/٥٦٧، وفي تاريخ المغرب والأندلس د. العبادي ص ٢١١-٢١٣، والعلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي، الدوميللي (مترجم) ص ٣٤١، ٣٤٤، و (الحضارة) للدكتور مونس ص ٣٢ (هامش ١)، وبحث (اللغة العربية وسكان الأندلس في القرون الوسطى)، ببرس الفرنسي، المنشور في: مجلة المجتمع العلمي العربي بدمشق، مجلد ١٩ (١٩٤٤م) ص ٣٩٩-٤٠٠، وتاريخ النصارى في الأندلس، د. عبادة كحيلة ٣٥-٣٧.

أسند الناصر قيادة الجيش فيها إلى الصقالبة؛ مما أثار الجند العربي المشارك فيها، وتآمروا ضد الناصر، فكانت الهزيمة التي كاد الناصر يفقد حياته من جرّائها. وقد نجح المنصور في القضاء على نفوذ الصقالبة، الذي كان قد تنامي وتزايد في عهد الحكم المستنصر، واستحدث عنصراً جديداً، اعتمد عليه بدرجة كبيرة في تكوين جيوشه، هو عنصر (البربر)، الذي بدأ الاهتمام به في عهد المستنصر. وقد ترتب على الاستكثار من هذا العنصر تراجع مكانة العرب والصقالبة، وانقراض الأندلسيين حاسة الجندية، فضاءلت الروح الجهادية عندهم، وخذت جذوة الحماس للغزو، فاستكانوا واستسلموا إلى ذلك العنصر الحربي المحترف، الذي حقق به المنصور انتصاراته المدوية على نصارى الشمال، ثم انقلب إلى خطر ماحق، وشر مستطير في الفتنة، واصطدم مع أهل قرطبة الكارهين له، فكانت الكارثة^(١).

ومن عناصر المجتمع الأندلسي أهل الذمة من اليهود والنصارى، وقد لقوا من المسلمين كل عدل وإنصاف، وترك لهم الأمويون حرية إدارة شئونهم الدينية والإدارية^(٢)، بل استعان الناصر بالناخبين من اليهود في بعض المهام الدبلوماسية^(٣). وهناك (المولّدون)^(٤)، وهم المسلمون من أصل إسباني، وبعبارة أخرى: هم (مسلمو الإسبان). وكانوا يحتلون مكانة بين الطبقات المتوسطة والميسورة، وبينهم الكثيرون ممن أحرزوا الجاه والنفوذ والثروة. وعلى كل، فقد كان هؤلاء يعدون أقل مكانة من المسلمين الأصليين^(٥).

وأخيراً، فإن للمرأة في المجتمع الأندلسي تأثيراً لا يستهان به، بعد أن أكثر المسلمون من الاقتران بالإسبانيات؛ مما أدى إلى تحول المجتمع - بعد عدة أجيال - إلى عناصر لاتينية، وبالتحديد إسبانية من جهة الأم^(٦). ولا شك أن كثرات منهن لم يكن مخلصات لأزواجهن، وربما عملت بعضهن جاسوسات لصالح نصارى الشمال. وقد وصل الأمر أن بلغ بعضهن

(١) بحث (المنصور بن أبي عامر: المسند المنتصر) د. عمود مكي، مجلة العربي بالكويت، ع ٢٢٤ (يولي ١٩٧٧م) ص ١٣٩.

(٢) تاريخ النصارى في الأندلس، د. كحيلة ص ٨٤، وبعدها.

(٣) هو حسداى بن إسحاق الإسرائيلي الكاتب (راجع مهامه في المقتبس ٤٥٤/٥، ٤٦٦-٤٦٧، ٤٧٣، سنوات ٣٢٨-٣٣٣هـ).

(٤) وهؤلاء يختلفون عن (المستعربين)، أي: الإسبان الذين عايشوا المسلمين في المجتمع الأندلسي مع بقائهم على دينهم، واتخذوا العربية لغة، واتبوا بعض تقاليد الإسلام، كالتحان، عادة وأسلوباً (كتاب المقتبس، ط. الحجي ص ٢٠ هامش ١).

(٥) عنان: دولة الإسلام في الأندلس ١٤ ق ٢ ص ٥١٤-٥١٥، ود. كحيلة: تاريخ النصارى في الأندلس ٤٣-٤٤، وبحث (جوانب من تاريخ أهل الذمة في الأندلس) د. عمر بنميرة ص ٨-٩ (ندوة السعودية ١٩٩٣م).

(٦) العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي، الدوميللي (مترجم) ٣٣٨-٣٣٩، ٣٤١.

مراكز حساسة في قصور الخلفاء، مثل: مرجان زوج الخليفة الناصر^(١)، ذات الدلال والتأثير الكبير في هذا الخليفة العظيم، وكان ابنها الحكم أثراً لديه دون سائر إخوته، وصار ولي العهد وخليفة من بعده. ونذكر من هؤلاء النساء (صُبْح) زوج الخليفة المستنصر، والدور الذي لعبته في حياة زوجها وبعد وفاته، وصلتها الوثيقة بابن أبي عامر حتى وصل إلى قمة السلطة في الأندلس، وصار حاجباً لابنها الخليفة الصغير هشام المؤيد^(٢)، ثم تدهورت العلاقات بينهما بعد اقتضاح نوايا المنصور في الاستبداد بالسلطة والحجر على الخليفة^(٣). وكان من أسباب قتل المظفر بن المنصور وزيره عيسى بن سعيد عداوته للحرم (نساء القصر)^(٤). وأخيراً، فقد لعبت أم المظفر دوراً ملموساً في الثورة على عبد الرحمن بن المنصور؛ لاثامها إياه بدس السم لابنها^(٥)، تلك الثورة التي انتهت بمقتل عبد الرحمن، وضياح الخلافة الأموية بالأندلس.

والآن، نركز - في اختصار شديد - أهم مظاهر الحياة الاجتماعية في الأندلس في القرن الرابع الهجري:

١- اعتزاز الأندلسيين بأنفسهم وبلادهم وبأزيائهم وعاداتهم: فالجاري على ألسنة الناس دوماً هو أن يُسمُّوا كل ناحية مشتملة على عدة مدن وقرى إقليماً، مثل: إقليم (مصر)، وإقليم (إفريقية)، وهكذا. أما أهل الأندلس خاصة، فمن شدة اعتدادهم بأنفسهم يسمون كل قرية كبيرة جامعة في بلادهم إقليماً، فيقول الأندلسي: أنا من إقليم كذا، أى: من بلدة كذا^(٦). والفقراء منهم لا يعرفون السؤال، فهو أمر مستقيم عندهم إلى نهاية، فهم لا يعرفون ذلك الدل، ولا الكسل الذي يقعدهم عن الكد. وإذا رأوا شخصاً صحيحاً معافى يسأل الناس سيّوه وأهانوه، فلا يوجد بالأندلس سائل إلا أن يكون صاحب عذر حقيقي^(٧). وهم - في الغالب -

(١) يمكن معرفة مكانتها عند الناصر، ودلالها عليه، وكيف توصلت بأساليبها الناعمة المؤثرة إلى ذلك بمطالعة (المقنيس ٧/٥ وما بعدها، والنفع ٣٦٠/١-٣٦١).

(٢) حول صبح (الجارية الناقارية الأصل)، وشغلها بابن أبي عامر، ومساعدتها منذ عهد المستنصر له، حتى وصل إلى ما وصل إليه، راجع: (البيان ٢٣٩/٢، ٢٨٠، وعنان: دولة الإسلام في الأندلس ع ١٤ ق ٢ ص ٥٢٤-٥٢٥، ٥٣٦-٥٣٧، وظهر الإسلام ١٢٦/٣).

(٣) المغرب (قسم الأندلس ١٩٥/١، ودولة الإسلام في الأندلس ع ١٤ ق ٢ ص ٥٣٧). والظاهر أنها لم تستطع الوقوف أمام المنصور بعد أن سيطر الأخير على الأمور كلها، وسلب السلطة منها ومن ابنها، فاحتفت أخبارها حتى سنة ٣٨٩ هـ، فيذكر لنا ابن الفرضي في (تاريخ العلماء والرواة) ٢١٠/١ أنها توفيت في هذه السنة.

(٤) البيان ٢٩/٣.

(٥) المصدر السابق ٥٢/٣، ومعانم تاريخ المغرب والأندلس ٢٥٣ وبعدها (تأمرت الدلائل أم المظفر مع محمد بن هشام بن عبد الجبار؛ للظفر بعد الرحمن بن المنصور، وانتزاع الخلافة من هشام المؤيد).

(٦) معجم البلدان ٤٢/١.

(٧) النفع ٢٢٠/١، ٢٢٣.

لا يلبسون العمائم، وإذا رأوا أحداً من المشرق يلبسها، يظهرون التعجب والاستظراف، ولا يقلدونه؛ لأنهم لم يستحسنوا غير أوضاعهم^(١). وقد اعتادوا النظافة الشديدة فيما يلبسون ويفرشون، وغير ذلك مما يتعلق بهم، ويُقدّمونه على طعامهم^(٢).

٢- الترف والتعظيم المفضى إلى الترهل: وقد شجعهم على ذلك كثرة خيرات بلادهم، وتوفر طعامهم وغذائهم وفاكهتهم في كافة الأقاليم مع تنوع في ذلك^(٣)، فاندفعوا يسرفون على أنفسهم في الطعام والشراب؛ مما أضعف عزائمهم، وقوّض بنيان دولتهم^(٤).

٣- تعدد مظاهر الاحتفالات^(٥)، والمواكب^(٦)، ومناسبات الجلوس والتهان^(٧)، ومجالس السمر والشراب، وما يترتب على ذلك من فساد ومجون^(٨)، وذلك على مستوى الحكام وعلية القوم.

٤- على الرغم مما يشيع في المجتمع الأندلسي من مظاهر التراحس^(٩)، والتمسك بأداء الشعائر^(١٠)، إلا أن هذه المعاني السامية لم تتغلغل في نفوس وقلوب عوام الناس (خاصة أهل قرطبة)^(١١)، فاستجابوا لأول ناعق، وخربوا بأيديهم حضارة بلادهم، ومظاهر رقي مجتمعاتهم، الذي كان يبدو بَرَاقاً من الخارج، لكنه خِوَاء من الداخل.

(١) السابق: ٢٢٣. ولذا كان تعديل عبد الرحمن بن المنصور أرباء رجال الدولة ذا أثر كبير في انعطاف مكانتهم لدى العامة، فانغلقوا عليهم سخرية واستهزاء، وهُوّن ذلك عليهم الثورة بعد ذلك.. (البيان ٤٨/٣).

(٢) النفع ٢٢٣/١.

(٣) صورة الأرض ١٠٩، ووصف الأندلس لاسن الشباط ١٢٩-١٣٠.

(٤) براجع بحث: (تغريب المائدة في الأندلس)، لسهام الدباي، المجلة العربية للثقافة، ٢٧٤، السنة ١٤ (سبتمبر ١٩٩٤م) ص ١٦٥-١٨٠.

(٥) راجع: المقتبس ٣٢١-٣٢٠/٥ (٣٢٠هـ)، وترتيب المدارك ٤٢٩/٤/٢، ووفيات الأعيان ٢٢٧/٧-٢٢٨، وأزهار الرياض ٢٨٢/٢ وبعدها.

(٦) راجع: المقتبس (ط. الحجى) ص ٢٠٨، ٢١٢-٢١٣، ٢٢٣، والنفع ٤١٩/١.

(٧) المقتبس (ط. الحجى) ص ٢٩٩-٣٠، ٥٩-٦٢، ٩٣-٩٥، ١٥٢-١٥٣، ١٨٤-١٨٦، ٢٢٩-٢٣٣.

(٨) (المغرب - قسم الأندلس) ١٨٤/١، ١٨٩، والبيان ٢٨٩/٢، ٣٨٩/٣، وبعدها، والنفع ٢٤٤/٣.

(٩) كما في صدقات الناصر في فحط سنة ٣٠٣هـ (البيان ١٦٨/٢) وصدقات المستنصر الكثرة في رمضان

(المقتبس، ط. الحجى ص ٢٢٦، ٢٣٣-٢٣٤)، وإعناق الرقاب بعد شفاء الحكم (السابق ٢٠٦)، والبيان ٢/٢

٢٤٨-٢٤٩، ورعايته أولاد إخوانه المتوفين (المقتبس، ط. الحجى ص ٩٢)، واستحابة الناس لنداء خطيب

الجمعة (القاضي محمد ابن إسحاق بن السليم بالتصدق على الفقراء سنة ٣٦٣هـ) (السابق ١٤٩-١٥٠).

(١٠) صورة الأرض ١١١، وأزهار الرياض ٢٧٢/٢.

(١١) راجع نماذجهم ومعابهم في: البيان ٩٠/٣، ومقدمة د. محمود مكي للمقتبس ص ١١٣-١١٧.

خلاصة مقارنة:

١- عانى المجتمع المصري في القرن الرابع الهجري من تميز طائفة الجند على عامة الشعب في فتراته المختلفة، ومن احتكار المغاربة الحكم في العصر العبيدي، بعد أن تحوّل العبيديون المصريين من إدارة شئون الحكم في بلادهم شيئاً فشيئاً، ثم اعتمدوا على الصقالبة^(١)، فظهر منهم: برحوان وصيّ الحاكم، ورّيدان حامل المظلة.

أما الأندلس، فقد اعتنى الناصر بجلب الصقالبة إلى الأندلس، وتسوّموا ذروة السلطة بها إلى جانب الأسر الأندلسية العريقة، وجلب المستنصر من بعده البربر، وجعلهم المنصور مُعتمّده الرئيسي في الجيش. وبذلك نرى تنوع أهم العناصر في كلا الإقليمين، لكن حكام الأندلس نجحوا في المحافظة على وحدة البلاد، وتكامل عناصرها حتى وفاة المظفر. أما مصر، فالعبيديون الحكام لم يستطيعوا المزج بين طبقات المجتمع، فكان عدم التناقص بينها قائماً.

٢- اعتمد العبيديون في مصر على أهل الذمة (يهود، ونصارى) اعتماداً كبيراً في الشئون الإدارية والمالية، حتى ضجّ الشعب من ذلك، وحاول حكامه استرضاءه. أما في الأندلس، فلا توجد هذه الظاهرة، وإن استعين ببعض الناهجين منهم في بعض المهام المحددة^(٢).

٣- كثرت الاحتفالات والأعياد والمواكب والمراسم في مصر في عصر العبيديين بالذات، وكانت مرتبطة بالطعام والشراب، ويشترك فيها الخواص والعوام، وتقام وتبتدع لأهداف سياسية، ونتج عنها فواحش ومنكرات، واختلاط سعي بين المسلمين والنصارى، ومجاعة ومشاركة لهم في أباطيلهم^(٣)، مما أضعف الوازع الديني، وأوهى العقائد الدينية لدى المصريين. أما الأندلس، فالاحتفالات فيها

(١) اعتمد المر على عنصر (الصقالبة)، وطُلبوا من جميع الناس، وأخذوا بالثمن سنة ٣٦٤هـ (اتعاظ الخفيا، ط. المجلس ١/٢٢٣). وبرحوان كان خصياً صقلياً (المقتضى ٢/٥٧٢). وقد كان المر يقدم كُتامة على الصقالبة؛ لأن الأولى ساندته طائفة. أما الأخيون، فاستقوا بجد السيوف (المجالس والمسائرات ٢٤٦).

(٢) وقد حنرت بعض المصادر من استكاثهم وتقريهم، وحنرت من شرهم (مخطوط منهج الصواب في قبح استكاث أهل الكتاب نسخة أحمد فثالت) ورقة ١١-٣٣، ومخطوط (للثمة في استعمال أهل الثمة) - مصورة دار الكتب ٨١- وبها.

(٣) ولا أوافق د. الخربوطلي في كتابه: (السعودي ص ١٥)، لما اعتبر مشاركة المسلمين النصارى في عيد الفطاس وغيره دليلاً على تماسك عناصر المجتمع مسلمين وأقباطاً آنذاك. فالأمر ينبغي أن يُنظر إليه من زاويته الشرعية، التي توجب تمييز المسلمين عن سواهم، وعدم الذوبان في غيرهم. وقد أُرث عن عليّ قوله: "لا تدخلوا عليهم كنائسهم في أيام أعيادهم، فإن السحطة تنزل عليهم، فتصيبكم معهم". (تاريخ بغداد ٨/٢٦). وفي تفسير ابن كثير (ط. دار إحياء الكتب العربية) ج ٣ ص ٣٢٨-٣٢٩ في تفسير قوله (تعالى): "وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا". (الفرقان: ٧٢)، قال أبو العالية وطاوس، وابن سيرين، والضحاك، والربيع بن أنس، وغيرهم: هو أعياد المشركين.

قليلة ومناسبتها محدودة^(١) بالنسبة لمصر العبيدية. والنصوص تشير إلى مجالس السمر والشراب لدى الخواص. وإن وجدت لدى العوام، فهي تختلف عن احتفالات مصر الصاخبة، التي تُرتكب فيها المنكرات جهاراً نهاراً على رؤوس الأشهاد. وبالنسبة لأعياد أهل الكتاب فهي محدودة، ولا نرى ثقافة المسلمين عليها كما كان الحال في مصر.

٤ - يشترك عوام أهل مصر والأندلس في صفات الغوغاء، الذين يُسودون غير السيد، ويفضلون غير الفاضل، ويتشوقون إلى اللهو واللعب، ويحبون الاجتماع حول مضروب، أو يقفون عند مصلوب. يُصاح بهم فلا يرتدعون، لا ينكرون منكرات، ولا يعرفون معروفات. إذا اجتمعوا غلبوا، هَمَج رَعاع يتبعون كل ناعق^(٢). وينفرد عامة أهل مصر بغلبة الفرح عليهم، والغفلة عن العواقب، فلا يدخرون أقوات سنتهم ولا شهرهم، وعامة ماكلهم من أسواقهم، وتراهم فارغى البال، كأنما فرغوا من الحساب^(٣). وهذا على عكس أهل الأندلس، الذين يتصفون بالحرص والحذر، وما يترتب على ذلك من قلق، يخفف منه ميلهم إلى الفكاهة^(٤)، وطردهم للأحزان والآلام^(٥). وأخيراً، فإن أهل الأندلس قوم ذوو خيلاء وغرور واعتداد بالنفس، وثورة لأتفه الأسباب. وكان عامة أهل قرطبة قوماً لا دين لهم، ولا شجاعة فيهم، ولا عقول معهم^(٦)، فخرّبوا ديارهم بأيديهم. أما أهل مصر، فأهدأ طبعاً، وأطول صبراً على ظلم حكامهم، ويريثون ولا يسارعون في الثورة عليهم، فحفظوا ديارهم وأوطانهم، وإن أورتهم ذلك جنباً شديداً، وهلعاً عظيماً، وسلبية مقبنة.

(١) تاريخ النصارى في الأندلس، د. كحيلة ص ١٠٧، وبعدها.

(٢) مروح الذهب مجلد ٢ ص ٣١-٣٢.

(٣) مقدمة ابن خلدون ٣٩٢/٢، والخطط ٥٠/١، وحسن المحاضرة ٣٣٦/٢-٣٣٩. وراجع تعليق د. هيكال في (الأدب الأندلسي) ص ٤٩-٥٠، ود. مؤنس في (الخضارة) ص ٣٢-٣٣، ورفض الأخير ما يقال عن البيئة وتأثيرها في سلوك الإنسان وطبائعه.

(٤) النفع ٣٨١/٣.

(٥) المصدر السابق: ٤٤٠/٣-٤٤١ (يلبسون البياض في الحزن، لا السواد كما يفعل المشارقة).

(٦) تفاصيل ذلك في فتنه البربر نهاية في ٤هـ (البيان ٩٠/٣).

رابعاً وأخيراً: (الأوضاع الثقافية العامة في مصر والأندلس في القرن الرابع الهجري)

١ - الخطوط العامة للثقافة في مصر:

أولاً - القراءات: وقد شهدت مصر عدداً من علماء القراءات في هذا القرن، منهم: أحمد بن أسامة بن أحمد التجيبي المصري، الذي كان من أئمة القراءات، وعُمر طويلاً فجاوز المائة، وتوفي في رجب ٣٥٦هـ^(١) وهناك المقرئ المصري محمد بن علي (أبو بكر الأذفوي)، الذي لازم أبا جعفر النحاس، وبرع في علوم القرآن^(٢)، وهو آخر أساتذة مدرسة ورّش العظام في القرن الرابع الهجري (ت ٣٨٨هـ)^(٣). وأخيراً، فهناك آل غلبون: الوالد عبد المنعم بن عبيد الله بن غلبون المقرئ، أبو الطيب الحلبي الأصل، الذي ولد بحلب سنة ٣٠٩هـ^(٤)، ثم قدم مصر واستوطنها حتى وفاته بها في السابع من جمادى الأولى سنة ٣٨٩هـ^(٥). وكان حافظاً للقراءة، ضابطاً، ألف كتاب (الإرشاد في القراءات)^(٦). وكان ابنه أبو الحسن طاهر أحد المهرة المحققين في مجال القراءات في مصر. وله مؤلف: (التذكرة في القراءات). وقد توفي في مصر - أيضاً - في سن الكهولة، ودُفن بها مع والده^(٧) في ٢٠ من شوال سنة ٣٩٩هـ^(٨).

ثانياً - التفسير: من علماء التفسير في مصر: أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحّس، الذي تفوق في عدة علوم، يأتي التفسير على رأسها. واشتغل بالتأليف في علوم القرآن. من

(١) تاريخ الإسلام ١٣٥/٢٦. ورجح تاريخ الوفاة المذكور ابن الجزري على تاريخ ٣٤٢هـ في (طبقات القراء) ١/ ٣٨، وحسن المحاضرة ٤٨٨/١.

(٢) معرفة القراء الكبار، للذهبي ٢٨٤/١، وحسن المحاضرة ٤٩٠/١.

(٣) القرآن وعلومه في مصر ص ٢٢٥.

(٤) وقد أخطأ السيوطي لما جعل تاريخ مولده سنة ٣٥٩هـ (حسن المحاضرة) ٤٩١/١.

(٥) ولم يكن ابن خلكان على صواب، لما جعل تاريخ الوفاة ٣٠٩هـ (وفيات الأعيان ٢٧٧/٥). واعتقد أنه سهر من الناسخ، لم ينته إليه المحقق.

(٦) وفات الأعيان ٢٧٧/٥، ومعرفة القراء الكبار ٢٨٥/١-٢٨٦، وطبقات السبكي ٣٣٨/٣، وطبقات الإسنوي ٤٠١-٤٠٢، وطبقات ابن الجزري ٤٧٠/١-٤٧١، وحسن المحاضرة ٤٩٠/١-٤٩١، وتاريخ التراث العربي (ط. الهيئة العامة) ٣٣/١ (وسماه ابن عبد الله تحريفاً).

(٧) الكواكب السيارة ١٤١-١٤٣.

(٨) معرفة القراء الكبار ٢٩٧/١، وتاريخ الإسلام ٣٧٢/٢٧، والواق بالوفيات ٤٠٤/١٦-٤٠٥، وطبقات الإسنوي ٢/ ٤٠١، وحسن المحاضرة ٤٩١/١، وتاريخ التراث العربي (ط. الهيئة) ٣٢/١ (أورد اسم جده عبيد الله صحيحاً).

مصنفاته: (تفسير القرآن)، (الناسخ والمنسوخ)، وغيرها. توفي في مصر سنة ٣٣٨هـ^(١). ويأتى - بعد ذلك - المفسر أبو بكر محمد بن الحسن بن زياد النقاش، وهو عراقي الأصل، ورحل إلى بلاد كثيرة (منها: مصر)؛ طلباً للعلم. وقد أتم بمصر فترة من الزمن، وخلف كتاباً في التفسير، سمّاه (شفاء الصدور)^(٢)، وتوفي ٣٥١هـ^(٣). وأخيراً، المفسر المصري أبو بكر الأدفوى، الذى ترك مصنفًا كبيراً في التفسير، سمّاه (الاستغناء في التفسير)، ويقع في مائة وعشرين مجلداً، استغرق تأليفه اثنتي عشرة سنة^(٤)، وتوفي بمصر سنة ٣٨٨هـ^(٥).

ثالثاً - الحديث: عُنِيَ علماء مصر بحديث رسول الله ﷺ. رواية، وتأليفًا، ورجالاً. من أبرز هؤلاء المحدثين وأشهرهم في ذلك القرن: الإمام الحافظ القدوة، محدث الديار المصرية (أبو القاسم حمزة بن محمد الكنانى)^(٦)، الذى ولد سنة ٢٧٥هـ، وسمع الحديث سنة ٢٩٥هـ، ورحل إلى العراق في طلبه سنة ٣٠٥هـ. وخلف في مصر حديثاً وتلاميذ كثيرين، وتمنى على الله أن يقبضه قبل دخول العبيدين مصر، فتوفى في ذى الحجة سنة ٣٥٧هـ^(٧).

ومن محدثي مصر أيضاً: (أبو محمد الحسن بن رشيق العسكري)، وهو إمام صادق معذل، له فهم ومعرفة وإسناد عال. ولد سنة ٢٨٣هـ، وتوفي سنة ٣٧٠هـ^(٨). ويأتى - بعد ذلك - إمام الحديث في مصر الحافظ (أبو محمد عبد الغنى بن سعيد الأزدي)^(٩)، الذى أثنى على علمه المحدث الشهير الدارقطني (ت ٣٨٥هـ). له تأليف نافعة في رجال الحديث، مثل: (مُشْتَبِه

- (١) طبقات النحويين للزبيدي ٢٢٠-٢٢١ (وجعل وفاته ٣٠٧هـ خطأ)، ومعجم الأدباء ٢٢٤/٤-٢٣٠، ووفيات الأعيان ٩٩/١-١٠٠، وتاريخ الإسلام ١٥٥/٢٥، والبدية والنهاية ٢٣٦/١١، والمقفى ٧١٣/١-٧١٥، ومخطوط (طبقات النحاة واللغويين) لابن قاضي شعبة (الظاهريه) ص ١٩٤-١٩٦.
- (٢) طعن أكثر من محدث فيه، وضعف ما ورد به من أحاديث (المقفى ٥٦٢/٥).
- (٣) تاريخ بغداد ٢٠١/٢-٢٠٥، واللباب لابن الأثير ٣٢١/٣-٣٢٢، ووفيات الأعيان ٢٩٨/٤-٢٩٩، والعمر للذهبي ٩٨/٢، وتاريخ الإسلام ٩/٢٦، والوفاء بالوفيات ٣٦٤/٧-٣٦٤، والمقفى ٥٦٢-٥٦٠/٥.
- (٤) تاريخ الإسلام ١٧٧/٢٧، ومخطوط (مسالك الأبصار) للعمري (مصورة أحمد الثالث) ص ٢٣٦، والمقفى ٦/٢٥١-٢٥٠.

- (٥) مخطوط (مسالك الأبصار، مصورة أحمد الثالث) ص ٢٣٦، والمقفى ٢٤٩/٦-٢٥١، وطبقات المفسرين للدوادى ١٩٤/٢-١٩٦.

- (٦) بغية الطلب ٢٩٥٧/٦-٢٩٦٠، وسير أعلام النبلاء ١٧٩/١٦-١٨١، وتاريخ الإسلام ٤٣٧/٢٦-٤٣٨، والمقفى ٦٦٦/٣-٦٧١.

- (٧) ورد في سير أعلام النبلاء ١٨١/١٦: أنه بلغه أن عسكر المغز المغاربة وصلوا إلى الإسكندرية، فدعا الله أن يمته قبل دخولهم مصر، فدخلوا بعد موته بثلاث. وى (المقفى) ٦٧٠/٣: بثلاثة أيام. وأشك في صحة هذا الكلام، لأن جوهرًا دخل مصر في شعبان ٣٥٨هـ، (انتعاض، ط. دار الفكر ص ١٥٧)، وهذا المحدث مات في ذى الحجة ٣٥٧هـ، أى: قبل دخولهم بحوالى ٧ شهور.

- (٨) سير أعلام النبلاء ٢٨٠-٢٨٢، والوفاء بالوفيات ١٦/١٦-١٧.
- (٩) مخطوط تاريخ دمشق ٤١٢/١٤، والمنظم لابن الجوزى (ط. الهند) ٢٩١/٧-٢٩٢، ووفيات الأعيان ٢٢٣/٣-٢٢٤، ومختصر تاريخ دمشق، لابن منظور ١٦٥/١٥-١٦٦، ومخطوط (مسالك الأبصار، نسخة أحمد الثالث) ص ٣٣٨-٣٣٩.

النسبة)، و(المؤلف والمختلف)^(١). ولد سنة ٣٣٢هـ وتوفي سنة ٤٠٩هـ، وكانت جنازته حاشدة، وتآلم لفقده الخاص والعام، وكان يُنادى فيها: هذه جنازة الحافظ لكتاب الله، ونافى الكذب عن رسول الله^(٢).

وفي النهاية، فقد انتشر المحدثون في أقاليم مصر الأخرى، فهناك المحدث خالد بن محمد الدمياطي (المتوفى سنة ٣٣٠هـ)^(٣)، ومحمد بن إبراهيم الأسواني (ت ٣١٥هـ)^(٤).

رابعاً - الفقه: عرفت مصر في القرن الرابع الهجري عدداً من المذاهب الفقهية المشهورة، وقام علماء هذه المذاهب بتدريسها في المساجد، وتعليم الناس أحكام دينهم. ومن فقهاء مصر المالكية: محمد بن أحمد بن أبي يوسف (أبو بكر بن الخلال)، وكان يدرس بجامع مصر، وأخذ عنه الناس. أُلّف أربعين جزءاً من متقى قول الإمام مالك. توفي سنة ٣٢٢هـ^(٥). والفقيه محمد بن أحمد بن أبي الأصبغ الحرّاني، الذي سكن مصر، وأمّ بالجامع العتيق، وكان فقيهاً مشهوراً، فصيح اللسان. توفي في شوال سنة ٣٣٩هـ^(٦). وأخيراً، نذكر شيخ المالكية محمد بن القاسم بن شعبان المصري، وكان ذا باع طويل بالفقه والسنة. وترك عدة مؤلفات بديعة، مثل: (الزاهر في الفقه)، و(أحكام القرآن)^(٧). توفي في شهر جمادى الأولى سنة ٣٥٥هـ^(٨).

ومن أشهر فقهاء المذهب الحنفي في مصر: أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي الشهير بـ (الطحاوي)^(٩)، وكان رأس المذهب الحنفي في مصر، بعد أن تحول عن المذهب الشافعي لما انتهره خاله المزني الشافعي في بداية عهده بالطلب^(١٠). ولد سنة ٢٣٩هـ^(١١)، ونبغ

(١) وفیات الأعيان ٢٢٣/٣.

(٢) عسوط تاريخ دمشق ٤١٢/١٤.

(٣) المقفى ٧٣٩/٣ - ٧٤٠.

(٤) السابق ٨٥/٥.

(٥) الديباج ١٨٨/٢.

(٦) تاريخ الإسلام ١٧٦-١٧٧/٢، والديباج ٣٠٧/٢، وطبقات ابن الجزري ٦٨/٢.

(٧) سير أعلام النبلاء ٧٨/١٦.

(٨) تاريخ الإسلام ١٣١-١٣٢، والسر ٧٨/١٦، والديباج ١٩٤/٢ - ١٩٥. وغير صحيح ما ذكره الأخير

١٩٥/٢: أن موته وافق دخول بني عبيد الروافض مصر، وأنه شدد الدم لهم؛ لأن بني عبيد دخلوا سنة ٣٥٨هـ.

(٩) طبقات الفقهاء للشيرازي (ط. إحسان) - ١٤٢، ووفيات الأعيان ٧١/١ - ٧٢، وسر أعلام النبلاء ٢٧/١٥ -

٣١، والرواي ٩/٨ - ١٠، ومرآة الجنان ٢٨١/٢، وطبقات المفسرين للداودي ٧٣/١ - ٧٥، والطبقات السنية في

تراجم الحنفية ٤٩/٢ - ٥٢.

(١٠) طبقات الشيرازي - ١٤٢، والسر ٢٩/١٥.

(١١) سير أعلام النبلاء ٢٨/١٥. وفي (وفيات الأعيان) لابن خلكان ٧٢/١: ذكر أنه ولد ٢٣٨هـ، وقال: لكن

السمعان جعل ولادته سنة ٢٢٩هـ، وهو الصحيح. هذا كلام ابن خلكان. وبالرجوع إلى (الأنساب ٥٣/٤)،

تبين لي أن السمعاني جعل ولادته سنة ٢٣٩هـ لا ٢٢٩هـ، كما نقل ابن خلكان خطأ فيما مضى.

في فقه الحنفية^(١)، وترك مؤلفات فقهية غاية في الأهمية، مثل: (أحكام القرآن)، و (اختلاف العلماء)، و (مُشْكِلُ الآثار)، و (شرح معاني الآثار)^(٢). وكانت وفاته سنة ٣٢١هـ.

وأخيراً، نشير إلى عالم عصره، وإمام الشافعية في مصر: الفقيه أبي بكر محمد بن أحمد الكناني، المعروف بـ (ابن الحَدَّاد)^(٣). ولد سنة ٢٦٤هـ، ونبغ في المذهب الشافعي، وألّف مجموعة من الكتب، منها: (الفروع) في المذهب الشافعي، و (أدب القاضي) في أربعين جزءاً، و (الفرائض) في حوالي مائة جزء^(٤). وتوفي سنة ٣٤٤هـ.

خامساً - اللغة: ازدهرت اللغة العربية في مصر في القرن الرابع الهجري، واكتمل انتصارها على اللغة القبطية، التي أخذت طريقها نحو الاندثار^(٥). ورأينا في هذا القرن لغويين ونحويين على درجة كبيرة من القدرة على هضم واستيعاب نتاج علماء البصرة والكوفة، ثم التجديد والإبداع. ومن هؤلاء: (علي بن الحسن الهَمَّانِي الأزدِي اللغوي)^(٦)، الذي يعرف بـ (كُرَاع السمل)^(٧)؛ لأنه كان دميم الخلقة. ومن مصنفاته اللغوية الجيدة: كتاب (المنظّد) في اللغة على الحروف، واختصره مستعبداً الاستشهادات في كتابه (المجرد). وجعل كتابه (المنجد) فيما اتفق لفظه واختلف معناه^(٨). وقد توفي حوالي سنة ٣١٠هـ.

ومن علماء اللغة والنحو في مصر - أيضاً - شيخ العربية، وورث علمها عن أبيه وجده، وقسيم الشيخ أبي جعفر النحاس، ومنافسه في إبداع مؤلفاتها: (أبو العباس أحمد بن محمد بن الوليد التميمي)^(٩)، صاحب كتاب (الانتصار لِسَبِيوَيْهِ عَلَى الْمُتَرَدِّدِ)، و (المقصود والممدود). توفي

(١) بعض مسائله الفقهية في (الاستذكار) ٤١٩/١، ٣٦٨/٢. وجعله د. غنام - في رسالته للدكتوراه ص ٣٨٠ - مجتهداً في المذهب الحنفي. وذكر صاحب ماجستير: (الربيع المرادي) ص ١١١-١١٢: أن الطحاوي كان تلميذ الربيع تلميذ الشافعي.

(٢) وفيات الأعيان ٧١/١، والسير ٢٩/١٥، ومعجم المطبوعات العربية، لسركيس ١٢٣٢/٢-١٢٣٣، وتاريخ الأدب العربي، لبروكلمان (ط. دار المعارف) ٢٦١/٣-٢٦٥.

(٣) الأنساب ١٨١/٢، والسير ٤٤٥/١-٤٥١، والوفاء بالوفيات ٦٩/٢، وطبقات السبكي ٧٩/٣-٨٣، والمقفي ٢٥٣/٥. وبعدها.

(٤) سير أعلام النبلاء ٤٤٧/١٥.

(٥) تاريخ اللغة العربية في مصر، د. أحمد مختار ص ٤٥.

(٦) إنباه الرواء ٢٤٠/٢، ومخطوط (الوفاء بالوفيات، نسخة أحمد الثالث) ج ٢٠ ورقة ١٧٩.

(٧) الكُرَاع من الإنسان: مادون الركبة إلى الكعب، وهو يذكر ويؤنث. وفي البقر والغنم: مُسْتَذَقُ الساق العاري من اللحم. الجمع: أَكْرُع، وأكارع. وفي الثفل: (لا تطعم العبد الكُرَاع، فيطمع في الذراع) والمعنى: أنه شديد النحافة (اللسان مادة ك.ر.ع، ج ٣٨٥٨/٥، والمعجم الوسيط ٨١٤/٢).

(٨) تاريخ اللغة العربية في مصر ١٣٦-١٣٧، وماجستير (الحياة العلمية في مصر من قيام الطولونيين إلى سقوط الإخشيديين) ص ٢٥٧، وبعدها.

(٩) تاريخ الإسلام ٧٢/٢٥، ومرآة الجنان ٣١١/٢-٣١٢.

سنة ٣٣٢هـ. وهناك النحوى المصرى (على بن الحسن) المعروف بـ (عَلَّان)، وكان من ذوى النظر والتدقيق فى المعان^(١). توفى فى مصر سنة ٣٣٧هـ.

وأخيراً، يأتى (أحمد بن إسماعيل النحاس، أبو جعفر النحوى)، الذى تلقى كتاب سيبويه على الزَّجَّاج ببغداد، ثم عاد إلى مصر، فأبدع أكثر من خمسين مصنفًا، من أشهرها فى مجال النحو: (إعراب القرآن)، وفيه حشد وجوه الإعراب دون اختيار، أو تعليل^(٢). وكذلك ألف (الكافى فى علم العربية)^(٣). توفى سنة ٣٣٨هـ.

سادساً - الأدب: من شعراء مصر فى العصر الإخشيدي: سعيد المعروف بـ (قاضى البقر)^(٤)، وأبو الفتح بن البيهقي^(٥)، وكلاهما يشترك فى غلبة أشعار الجون، ووصف مجالس الشراب عليه.

وبعد الشاعر المتنى أشهر شعراء العربية دخولاً إلى مصر، ومكثاً بها^(٦). وتعد مدائحه فى كافور من أشهر ما قيل فى هذا المجال. ولما أيس من بلوغ مراده عنده^(٧)، عدا عليه فهجاه، وقرَّ من مصر ليلة عيد النحر سنة ٣٥٠هـ^(٨). وتوجه إلى عضد الدولة، ثم قُتل بعد انصرافه نحو البادية سنة ٣٥٤هـ.

ويأتى على رأس شعراء العصر العبيدى الشاعر مميم بن المعز^(٩)، الذى أراد تعويض ما لحقه من ظلم بعزله عن ولاية العهد^(١٠)، عن طريق الاتجاه للتلذذ والتنعيم فى بساتين مصر، ومتزهاً^(١١)، والانخراط فى احتفالاتها وأعيادها، يديج الأشعار، ويسمع الغناء، ويشرب كنوس

(١) طبقات النحويين للزبيدي ص ٢٢٢.

(٢) المصدر السابق: ٢٢٠.

(٣) السابق: ص ٢٢ والمستفاد من ذيل تاريخ بغداد لابن الدماطى ص ٧٢-٧٣.

(٤) المغرب (قسم مصر) ص ٢٧٢، وفى الأدب المصرى الإسلامى حتى الفاطميين، د. محمد كامل حسين ٢٣١.

(٥) المغرب (قسم مصر): ص ٢٧٢-٢٧٣.

(٦) يبدو أنه دخل مصر بعد وفاة الإخشيد ورثاء، وعزى ابنه أونوجور بمصر سنة ٣٣٥هـ (بغية الطلب ٦٧٥/٢). ثم

دخلها مرة المشهورة سنة ٣٤٦هـ، ومدح كافورا، وأونوجور (وفيات الأعيان ١/٢٢٢).

(٧) كان كافور وعده بأشياء (مناصب)، فلما رأى تعالى المتنى عليه منعه، فلما سئل فى ذلك، قال: (من ادَّعى النبوة، يَدَّعى أنه يحكم معنى). (المصدر السابق ١/١٢٢).

(٨) الوفاة بالوفيات ٦/٣٣٦-٣٤٦، وملكة الجنان ٢/٣٥١-٣٥٧، والبدية والنهاية ١١/٢٧٣-٢٧٦، وفى الأدب المصرى د. محمد كامل حسين ٢٤٢. وله أشعار فى الأهرام (المخطوط ١/١١٨).

(٩) أخبار الدول المنقطعة ٢٨، والحلة السراء ١/٢٩١. ووفيات الأعيان ١/٣٠١-٣٠٣، وملكة الجنان ٢/٤٠٤-٤٠٥، والبدية والنهاية ١١/٣١٣ (ت ٣٦٨هـ - خطاً)، وتاريخ التراث العربى (ط. السعودية) مج ٢ ج ٥ ص ١٠-١١.

(١٠) الحلة السراء ١/٢٩١. وذكر أنه شاعر بنى عبيد، وكان ولى عهد أبيه وبه بُكى، ثم خُلِع بإشارة جوهر؛ لأنه عقيم لا يولد له. ولى العهد أخوه عبد الله، فلما مات ولىه نزار (العزير).

(١١) الدهارات، للشابشنى ص ٢٨٩.

الراح، مشاركاً أهل مصر هزلم ولهوهم^(١)، مطمئناً أحياه العزيز من جهته، ومؤكداً بعده عن شئون السياسة والحكم. وظل هكذا حتى وفاته بمصر في ذي القعدة سنة ٣٧٤هـ.

وأخيراً، فإن من أشهر كتّاب النثر في العصر الإخشيدى: إبراهيم بن عبد الله النجيمى الكاتب (توفى حوالى ٣٥٥هـ)^(٢). حظى بمكانة طيبة في بلاط الإخشيد، وغدا زعيم الكتّاب في عهده بعد أن هيأته مؤهلاته في النحو واللغة والعربية لتسّم هذه المكانة، التى تأكدت بكتابه الذى أنشأه على لسان الإخشيد رداً على رسالة الإمبراطور رومانوس الرومى إليه^(٣). وفى عهد كافور ظلت مكانته محفوظة لديه، وكان من البارزين في بلاطه، الذى ضم العلماء والشعراء والكتّاب^(٤).

سابعاً وأخيراً - علم التاريخ: اهتم مؤرخو مصر في هذا القرن بالتأريخ لبلدهم. فأول ما استرعى انتباههم كتابة سير حكامهم، ممن استقلوا بمصر، وحققوا لها من النمو والازدهار ما حاز إعجابهم، ودفعهم إلى تسجيل حياتهم، وتخليد مآثرهم. ولذلك نرى اثنين من مؤرخي هذا القرن يدونان سيرة (أحمد بن طولون)، ولكل منهما، وهما: (أحمد بن يوسف بن إبراهيم) المشهور بـ (ابن الداية) المتوفى حوالى سنة ٣٤٠هـ. والآخر (البلوى) الذى طوّر كتابة هذه السيرة، وفصلها تفصيلاً. واهتم المؤرخ (ابن زولاى ت ٣٨٧هـ) - كذلك - بتدوين سيرة (الإخشيد)، وسيرة النحوى المصرى المعروف بـ (سيبويه المصرى). وسجل - أيضاً - سيرة أسرة (المادرائين)، وكتب سيرة (جوهر)، و(المعز).

أما الاتجاه الثانى من اتجاهات التأليف التاريخى المحلى في مصر في ذلك القرن، فهو كتب (التراجم)، وقد واكبت هذه المؤلفات حركة الازدهار العلمى في ذلك القرن، وكثرة العلوم والعلماء، وكثرة الرحلات؛ طلباً للعلم، فأراد بعض المؤرخين أن يؤرخ لتلك الحركة العلمية المهمة، فأرخ بعضهم للعلماء الأوائل في مصر (الصحابه)، مثل: محمد بن الربيع الحيزى (ت ٣٢٤هـ)، وتلاه (ابن يونس الصّدقى) المتوفى سنة ٣٤٧هـ، فألف عن (تاريخ المصريين)، و(تاريخ الغرباء)، أى: العلماء الوافدين على مصر من الخارج. واهتم الكندى (ت ٣٥٠هـ) بنوعية معينة من العلماء هم (العلماء الموالي).

(١) الخطط ١٥٤/٢ - ١٥٥.

(٢) إنباه الرواه ١٧٠/١ - ١٧١، والوائ ٣٤/٦، والأعلام للزركلى ٤٢/١، وفى الأدب المصرى الإسلامى د. محمد كامل حسين ١١٣ وبعدها، والأدب العربى في مصر، د. عبد الرزاق حميدة ص ١٢٤ وبعدها. وهو ينسب إلى (نجيم)، وهى عملة بالبصرة. (الأنساب ٤٦٣/٥). وذكر القفطى في (إنباه الرواه) ١٧٠/١: أنها قرية على ساحل البحر الهندى في طريق فارس من البصرة.

(٣) نصه في المغرب (قسم مصر) ص ١٦٧ - ١٧٢.

(٤) إنباه الرواه ١٧١/١.

وبالنسبة للاتجاه الثالث في كتابة (التاريخ المحلى) في مصر، فقد اهتم أصحابه بالتأريخ للنظم والحضارة، فكتب المؤرخ الكندى عن (الولاية)، و(القضاة) في مصر، وكذلك اهتم ابن زولاق بتكملة ما بدأه الكندى عن القضاة.

وأخيراً، فقد عُني فريق من المؤرخين بتدوين (الحوادث التاريخية) عن طريق السرد التاريخي لها. وأهم من يمثل هذا الاتجاه ما دوّنه المؤرخ ابن زولاق بإيجاز من تاريخ مصر في مخطوطة (مختصر تاريخ مصر).

٢- الخطوط العامة للثقافة في الأندلس:

أولاً - القراءات: شهدت بلاد الأندلس اهتماماً متزايداً بالقرآن الكريم وإقرائه، وتلقين ذلك لطلاب العلم. ومن هؤلاء: أحمد بن عمر بن أبي الشعرى المقرئ القرطبي^(١). كان أهل قرطبة يتلقون عليه الكتاب العزيز، وكان يكتب المصاحف، والناس يقبلون ويتنافسون على شرائها؛ لجودة خطه وجماله. توفي سنة ٣٥٠هـ. وهناك (أحمد بن حكم بن محمد العاملي القرطبي)^(٢). كان من أهل العناية الشامة بالقرآن، وتجويد تلاوته على أئمة المقرئين. ذكره القاضي (أحمد بن ذكوان) للمنصور بن أبي عامر، فرقاه في المناصب، حتى تقلد قضاء طليطلة، إلى أن توفي سنة ٣٩٠هـ. وكان الأندلسيون يرحلون إلى المشرق؛ لاستكمال معارفهم بالقراءات، فمثلاً رحل المقرئ (خلف ابن قاسم بن سهل الأندلسي)^(٣) إلى الرملة ومصر؛ لتلقى القراءات هناك، ثم رجع إلى الأندلس، وأقرأ بها وألف. ولد ٣٢٥هـ، وتوفي سنة ٣٩٣هـ.

ثانياً - التفسير: ممن اهتم بالتفسير إلى جانب القراءات بالأندلس المفسر (يحيى بن مجاهد الإلبيري)، وكانت له رحلة إلى مصر؛ لتلقى العلم. وكان لا نظير له زهداً وعبادة. توفي شهر جمادى الأولى ٣٦٦هـ^(٤). وهناك (عبد الرحمن بن محمد بن عيسى بن فطيس)، وكان مشاركاً في سائر العلوم، وخلف بعده مكتبة ضخمة، وعدة مؤلفات، منها: أسباب الغزول، والناسخ والمنسوخ، وهما على قدر كبير من الأهمية لطالب التفسير. توفي سنة ٤٠٢هـ^(٥).

ثالثاً - الحديث: كان للأندلسيين ولع بحديث رسول الله ﷺ، حفظاً، ورواية، ودرساً. وعلى رأسى محدثي الأندلس يأتي الإمام المحدث (أبو محمد قاسم بن أصبغ البياضي القرطبي)^(٦)،

(١) الصلة لابن بشكوال (نشر الحسين) ١١/١.

(٢) الذيل والصلة للمراكشي، السفر الأول، القسم الأول ص ٩٩-١٠٠.

(٣) طبقات القراء لابن الجزري ٢٧٢/١.

(٤) طبقات المفسرين، للدودي ٣٧٥/٢.

(٥) السابق ٢٨٥/١-٢٨٧.

(٦) ترجم له: ابن الفريسي في (تاريخ العناء والرواة للعلم بالأندلس) ٤٠٦/١-٤٠٨، والجلوة ٥٢٦/٢-٥٢٨، ومخطوط عيون التواريخ، نسخة الظاهرية) ورقة ٨٥، ومخطوط الوافي بالوفيات (مصورة دار الكتب) ٢١٢/٧.

الذى كان مُسند عصره، وحافظ بلده (الأندلس). ورحل إلى المشرق، وسمع على أعلامه، ثم أتى إلى بلده، وطال عمره (٢٤٤-٣٤٠هـ)، حتى سمعت منه أجيال أندلسية متعاقبة. وكان مكثراً مصنفًا. من أهم مصنفاته: كتاب في السُّنة حسن، و(غرائب حديث مالك مما ليس في الموطأ)، و(المجتبى على أبواب المنتقى) لابن الجارود. والمحدث الحافظ (خالد بن سعد القرطبي)^(١): كان بصيراً بعلل الحديث، عالماً بطرقه، مقدِّماً على أهل زمانه في ذلك. وضع كتاباً للخليفة الحكم المستنصر في (رجال الأندلس). وكان المستنصر يقول: "إذا فاخترنا أهل المشرق بـ (يحيى بن معين)، فاخترناهم بـ (خالد بن سعد)".^(٢) توفي سنة ٣٥٢هـ.

وأخيراً، نأتى إلى دُرّة المحدثين بالأندلس الإمام الحافظ (أبي عبد الله محمد بن أحمد بن محمد ابن يحيى بن مُفرّج، مولا هم الأموى القرطبي)^(٣). هذا المحدث تلقى على الإمام (قاسم بن أصبغ)، ورحل إلى المشرق سنة ٣٣٧هـ، فسمع الحديث في مكة والمدينة، واليمن، والشام، ومصر، ثم عاد إلى وطنه سنة ٣٤٥هـ^(٤)، فكان من أكثر الناس عناية بالحديث حفظاً، وبصراً برجاله، وتصحيحاً وتجويداً وضبطاً لكنبه^(٥). كانت له صلة طيبة بالمستنصر، وجمع له مسند حديث (قاسم بن أصبغ)، وكان له فقه وفهم للحديث، فترك كتباً في فقه التابعين مبنية على الحديث، مثل: (فقه الحسن البصري) في سبع مجلدات، و(فقه الزهرى) في أجزاء كثيرة^(٦). ولاه المستنصر القضاء حتى وفاته (أى: المستنصر) سنة ٣٦٦هـ، وامتدت له الحياة بعد المستنصر، حتى لقي ربه سنة ٣٨٠هـ.

رابعاً - الفقه: كان للفقهاء الأندلسيين دور متميز فعّال، وتأثير كبير في حياة المجتمع (العوام والخواص) في تلك الفترة التي ندرسها (خاصة قبل سيطرة المنصور على مقاليد الأمور). وكان المذهب المالكي الأوسع انتشاراً هناك؛ نظراً لتبني الحكام له، ورضا الناس عنه. ومن فقهاء المالكية آنذاك: (أبو عبد الله، محمد بن عمر بن بُبابة القرطبي)^(٧)، الذى كان إماماً في الفقه، بصيراً بالفقهاء، حافظاً لآراء الفقهاء. توفي سنة ٣١٤هـ. وهناك الفقيه (محمد بن يحيى بن عمر لبابة القرطبي)^(٨): كان يحفظ الفقه على مذهب مالك وأصحابه،

(١) راجع تاريخ العلماء لابن الغزوى ١٠٤/١-١٠٦، وتاريخ الإسلام ٧٢/٢٦-٧٣.

(٢) تاريخ العلماء لابن الغزوى ١٥٥/١.

(٣) تُرحم له في: (تاريخ العلماء) ٩٣/٢-٩٥، والجدوة ٧٦/١-٧٧، ومخطوط تاريخ دمشق ٧١٩/١٤، والعبر للنهضى ٢/

١٥٦، والديباج ٣١٤/٢.

(٤) تاريخ العلماء لابن الغزوى ٩٣/٢-٩٥.

(٥) مخطوط تاريخ دمشق ٧١٩/١٤.

(٦) الجدوة ٧٦/١.

(٧) البيان المغرب ١٩٢/٢، ومخطوط (عيون التواريخ) ١٠٤/١٢-١٠٥، والديباج ١٨٩/٢-١٩١.

(٨) تاريخ العلماء لابن الغزوى ٥٣/٢-٥٤، والجدوة ١٠٩/١، وتاريخ الإسلام ١٤٢/٢٥-١٤٣.

وبينه وبين أصحاب الحديث عداً متبادلاً. ترك بعض المؤلفات الفقهية، مثل: (المنتخب)، و(الوثائق). توفي سنة ٣٣٠هـ^(١). ومن علماء المالكية وفقهائها أيضاً: (عبد الله بن محمد ابن أبي دُلَيْمِ القرطبي، المتوفى سنة ٣٥١هـ^(٢))؛ وأخوه (محمد)، المتوفى سنة ٣٧٢هـ^(٣)، و(أحمد بن مُطَرِّف بن عبد الرحمن، المشهور بابن المشاط)، المتوفى سنة ٣٥٢هـ^(٤).

ومن أشهر فقهاء الشافعية في الأندلس في ذلك القرن:

أ- عبد الله بن عبد الرحمن الناصر (ت ٣٣٨، أو ٣٣٩هـ^(٥)).

ب- حسن بن سعد بن إدريس القرطبي (ت ٣٣١هـ^(٦)).

خامساً - اللغة: في هذا القرن حدثت نهضة لغوية في بلاد الأندلس، وظهر عدد من اللغويين والنحاة، أثروا الدراسات اللغوية والنحوية العربية، بعد انتشار اللغة العربية، وتفوقوا على ما عداها من اللغات.

ومن أبرز اللغويين والنحاة إبان هذه الفترة:

١- محمد بن يحيى بن عبد السلام الأزدي الرباحي (ت ٣٥٨هـ^(٧)).

٢- محمد بن عمر بن عبد العزيز، المعروف بـ (ابن القوطي)، والمتوفى سنة ٣٦٧هـ^(٨).

- (١) ذكر الذهبي في (تاريخ الإسلام) ١٤٣/٢٥: أنه توفي في ذي الحجة ٣٣٦هـ، وهو غير صحيح.
- (٢) فقيه مُشَارَر له تأليف (ت ٣٥١هـ). (ترتيب المدارك ٤٤٠/٤-٤٤١، والديباج ٤٤١/١).
- (٣) عالم فقيه، زاهد تقي، جلس يُسمع الناس العلم قبل وفاته بثلاث سنوات، فأخذوا عنه علماً كثيراً. له أقوال صائبة في شروط الفقيه، وضوابط الوصول إلى تلك المكانة، والتلقب بهذا اللقب (من حيث السن، والعلوم اللازمة)، وإلا سُمِّيَ طالباً (الديباج ٢٠٢/٢-٢٠٣).
- (٤) كان من أعيان فقهاء المالكية بالأندلس، وولى الصلاة بقرطبة، (تاريخ الإسلام ٦٩/٢٦).
- (٥) كان الحكم المستنصر مالكيًا، وأخوه عبد العزيز حنفيًا، وكان عبد الله هذا شافعيًا، (المغرب - قسم الأندلس - ١/ ١٨٨). وقال صاحب (البغية) ص ٣٥: كان عبد الله فاضلاً، قتل أبوه؛ بسبب متابعة أكثر الناس له، لأدبه وفضله (ت ٣٣٨هـ). أما ابن خلدون في (تاريخه) ١٨٤/٤، فذكر أن الناصر رشع الحكم لولاية المهدي دون إخوته، وكان عبد الله يُساميه في الرتبة، فحسده، ونكث بالعهد، واتفق مع بعض رجال الدولة الخفونة ضد الناصر. ونمى الخبر إلى الناصر، فاستكشف الأمر، حتى وقف على الجليّة منه، وقبض عليهم جميعاً، وقتلهم سنة ٣٣٩هـ (ذكرها سنة ثلاث وتسعين تحريفاً). وفي النجوم ٣٤٦/٣ (أحداث ٣٣٩هـ): حاف الناصر خروجه عليه، فقتله.
- (٦) كان بكرة التقليد الفقهي، ويميل لآراء الشافعي واجتهاداته، وعُنِن في الشورى. فلما رأى الشورى دائرة على فقه المالكية، ترك مكانه فيها (تاريخ الإسلام ٥٤/٢٥).
- (٧) سمع بقرطبة من قاسم بن أصبغ وغيره، ورحل إلى المشرق، فسمع بمكة ومصر على أبي جعفر النحس، وحمل عنه رواية كتاب سيبويه. كان جيد النظر، دقيق الاستنباط، حاذقاً بالقياس. أذب المغيرة بن الناصر، وحجم المستنصر في مقابلة الدواوين والنظر فيها. (طبقات النحويين واللغويين، للزبيدي ص ٣١-٣١٤، وتاريخ العلماء لابن الفرضي ٧١/٢-٧٢).
- (٨) إشبيلي الأصل، قرطبي المولد والدار. عالم بالنحو واللغة، له مؤلفات حسان، منها: (تصاريफ الأفعال)، و(المقصود والممدود). كان عظيم القدر لدى أبي على القالي، الذي استوطن الأندلس. (تاريخ العلماء ٧٨/٢-٧٩، والبغية ١١٢، ووفيات الأعيان ٣٦٨/٤-٣٧١).

- ٣- أبو بكر محمد بن الحسن الزُبَيْدِيُّ الأَنْدَلُسِيُّ (ت ٣٧٩هـ)^(١).
 - ٤- أحمد بن أبان بن سَيِّد اللُّغَوِي (ت ٣٨٢هـ)^(٢).
 - ٥- حسين بن وليد بن نصر القرطبي، المعروف بـ (ابن العَرِيف)، المتوفى سنة ٣٩٠هـ^(٣).
- سادساً - الأدب:** في ظل الرقي السياسي الذي تمثل في تحول الأندلس إلى خلافة، وفي ظل الحياة الاجتماعية العامرة بالخصب والرخاء، والنهضة الثقافية المزدهرة، وازدهار الأدب غموه وارتقاءه، فظهر عدد من الشعراء والكتاب، الذين أثروا الحياة الأدبية بالأندلس، وصوروا جوانب الحياة، ومدحوا الحكام، ووصفوا معاركهم وغزواتهم. ومن أبرز هؤلاء:
- ١- الشاعر أحمد بن محمد بن عبد ربه (٢٤٦-٣٢٨هـ)^(٤).
 - ٢- الشاعر أبو عمر يوسف بن هارون الكندي، المعروف بـ (الرَّمَادِي)^(٥).
 - ٣- الكاتب البليغ (عبد الملك بن إدريس الجَزِيرِي)^(٦).
 - ٤- الشاعر أحمد بن محمد بن ذَرَّاج القَسْطَلِي (ت ٤٢٠هـ)^(٧).
 - ٥- الكاتب أبو حفص أحمد بن بُرْد^(٨).
-
- (١) إشبيلي، نزيل قرطبة، واحد عصره في النحو واللغة. من مؤلفاته: (مختصر كتاب العين)، و (طبقات النحويين واللغويين)، ولحن العامة، والواضح في العربية. أدب هشام بن الحكم، وتولى قضاء إشبيلية. (تاريخ العلماء لابن الغرضي ٩٢/٢، ووفيات الأعيان ٣٧٢/٤-٣٧٤).
- (٢) كان بلى منصب صاحب الشرطة بقرطبة أيام المستنصر، وفي الوقت نفسه كان عالماً لغوياً، حدث بالكامل للمرد، وبالنوادر لأبي علي الفال، ألف في اللغة كتاب (العالم) في مائة مجلد، وله (العالم والمتعلم) في النحو، وشرح كتاب الكماني. (الجدوة ٦٤١/٢، والصلة ١٤/١، والبغية ٥٣٨، وإنباه الرواه ٣٠/١-٣١).
- (٣) نحوى عالم بالعربية. أخذ عنه ابن القوطية بقرطبة. رحل إلى المشرق، وأقام أعواماً في مصر. عاد إلى الأندلس، فاستأذنه المنصور لبنيه، وقربه من صحته. (تاريخ ابن الغرضي ١٣٤/١-١٣٥).
- (٤) أحد شعراء الأندلس الكبار، وصاحب الناصر، ومدحه بأشعار كثيرة، وتعتى بصفاته، وأرخ بالشعر غزواته من سنة ٣٠٠ إلى ٣٢٢هـ، (العقد الفريد ٢٦٠/٥-٢٨٨، والمقتبس ٤١/٥-٤٢، والبداية والنهاية ١١/٢٠٦، والنجوم ٣٠٦/٣-٣٠٧، والأدب الأندلسي د. هيكل ١٩٩ وما بعدها).
- (٥) يُظن أنه ينسب إلى رَمَادَة (موضع بالمغرب)، ينسب إليه أحد أبياته. وهو شاعر قرطبي سريع القول، مشهور لدى العامة والخاصة. نُسب إليه شعر في ذم المستنصر فحبسه. عمل بالسجن كتاب (الطير) في أجزاء، كله من الشعر (في وصف كل طائر معروف، وذكر خواصه)، ودُيِّل كل قطعة شعر فيه بمدح ولي العهد هشام؛ ليشفع له. ويبدو أنه أطلقه. وكان بعد ذلك من مُدَّاح المنصور. توفي ٤٠٣هـ (الجدوة ٥٨٩/٢-٥٩٣، ووفيات الأعيان ٧/٢٢٥-٢٢٩، والمغرب (قسم الأندلس) ٣٩٢/١، والأدب الأندلسي ٢٨٣-٢٨٨).
- (٦) كان أحد بلغاء الأندلس، وكان كاتب المنصور، ثم سجنه وعفا عنه بعد ذلك. كتب لابنه المظفر بعده، لكنه اقم بالتأمر مع طرفة الفتي، وقتل في السجن ٣٩٨هـ. (المغرب - قسم الأندلس - ٣٢١/١-٣٢٢، والبيان ٣/٢٦).
- (٧) شاعر موهوب، له أشعار كثيرة، لازم المنصور في خرجاته وغزواته، ومدحه وتلقاه؛ ليسلم من الأذى. ومدح وهماً المظفر بعده. توفي ٤٢٠هـ (راجع أخباره وأشعاره في: ديوانه ص ٨-٩، ١٢-١٥، ٣٧٣-٣٧٧، ٣٨٠-٣٨١، والجدوة ١٧٧/١-١٨١، والبغية ١٥٨-١٦١، والصلة ٤٤/١).
- (٨) كاتب مقدم في الدولة العامرية وبعدها. ولاد المظفر ديوان الإنشاء بعد مقتل أبي مروان عبد الملك بن إدريس -

سابعاً وأخيراً - التاريخ: شهد القرن الرابع الهجري طفرة في حركة التأريخ في الأندلس، واستقلت تلك البلاد في ذلك العلم عن مدرسة مصر، وبدأت شخصية المؤرخين الأندلسيين واضحة فيما تركوه لنا من مؤلفات.

ومن هؤلاء المؤرخين: ابن جُلْجُل في (طبقات الأطباء)، وتوفي حوالي سنة ٣٧٧هـ - واليزيدى في كتابه: (طبقات النحويين واللغويين)، وأبدع ابن الفرضي (ت ٤٠٣هـ) في كتابه الموسوم بـ (تاريخ علماء الأندلس). وفي مجال الحضارة والنظم ترجم الحُشْنِي (ت ٣٦١هـ) لبعض كبار قضاة قرطبة في كتابه: (قضاة قرطبة)، وأورد فيه معلومات قيمة عن نظم القضاء، وملامح الحياة الاجتماعية آنذاك. وسرد لنا اللغوي والمؤرخ المشهور أبو بكر بن القوطية (ت ٣٦٧هـ) ما تيسر له من تاريخ الأندلس منذ الفتح حتى نهاية إمارة الأمير عبد الله في كتابه: (تاريخ افتتاح الأندلس).

ملاحظات عامة على الأوضاع الثقافية في مصر والأندلس في القرن الرابع الهجري:

أولاً - من حيث الظروف والعوامل المؤثرة في تلك الأوضاع:

أما عن مصر، ففي ظل الاستقرار السياسي والرواج الاقتصادي، والهدوء الاجتماعي في العصر الإخشيدى، تمت الثقافة وازدهرت في ظل حكم الإخشيد وكافور من بعده، بفضل رعايتهما للعلم والعلماء، وتشجيعهما لهم، فظهرت ثمار ذلك على هيئة كتب ومؤلفات في أكثر من فرع من فروع المعرفة^(١). ويكفي أن نشير إلى أن أعظم مؤرخي مصر في القرن الرابع الهجري، تُنسب أعمالهم ومؤلفاتهم إلى ذلك العصر^(٢). ويحيى العبيديون إلى مصر، وتستجد ظروف لا عهد للناس بها. فالعبيديون أتوا ينشرون فكرهم الشيعي، وحاولوا بدهاء وتدرج نشر مذهبهم الإسماعيلي في ربوع مصر، وبين مختلف طبقات شعبها^(٣)، وتصادعت طريقتهم في

= الخزيري، وهو كاتب رسالة المظفر حين قتل صهره الوزير (عيسى بن سعيد القطاع)، وكاتب ولاية عهد عبد الرحمن بن المنصور. توفي ٤١٨هـ (الحدوة ١/١٨٨)، والذخيرة في ١ ج ١ - ١٠٣-١٠٨، والصلة ١/٤٢، والمغرب (قسم الأندلس) ٢٠٤/١-٢٠٦.

(١) منها: الطب. ففي عهد الإخشيد كان للطبيب النصراني (نسطاس بن حريج) كتب في الطب، منها: (رسالة إلى يزيد بن رومان النصراني الأندلسي في البول). (طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ٥٤٤). وفي عهد كافور وضع الطبيب (البالسي) كتاباً سماه (التكميل في الأدوية المفردة) ألفه لكافور الإخشيدى (السابق ٥٤٥).

(٢) وهم: ابن يونس الصدقي (ت ٣٤٧هـ)، والكندى، وابنه عمر، الذي كتب (فضائل مصر) بناء على أمر كافور له بجمعها (كتاب فضائل مصر ص ١٩)، وابن زولاق (ت ٣٨٧هـ) في (سيرة الإخشيد)، التي كتبها بناء على طلب أبي الحسن علي بن الإخشيد سنة ٣٥٠هـ (وكان كافور وصياً عليه). (المغرب - قسم مصر - ١٤٩).

(٣) تراجع توجيهات الماز لدعاته ولأولياته في: (المجالس والمسايرات) ص ١٣٧، ٣٠٣-٣٠٦، ٣١٢-٣١٣، ٤٢٠. وتراجع الخطوات العملية لحزب الأنصار في: (المخطوط ١/٣٩١-٣٩٨)، وتاريخ الدولة الفاطمية، للدكتور حسن إبراهيم حسن ص ٣٣٨، وبعدها.

فرض مبادئهم وآرائهم على الناس في بعض الفترات، فانتخبوا من القسوة واستخدام الشدة وسيلة لذلك^(١). وقد ساعدتهم على بعض النجاح الظاهري حكامهم، الذين كانوا يتصفون بالذكاء والعلم والثقافة^(٢)، وإذعان شعب مصر لهم؛ خوفاً من بطشهم وجبروتهم^(٣). وعلى كل، فإننا لا ننكر - رغم الاختلاف العقدي - وجود نهضة ثقافية في عصر العبيديين، شجع على إحداثها سعة أفق بعض حكامهم، ورعايتهم للعلم وللعلماء^(٤)، ووجود وزراء على درجة من الوعي والعلم والثقافة^(٥)، إلى جانب الانفراجة في حرية الفكر والبحث، التي أحدثها قرار إنشاء الحاكم دار الحكمة، ومكبتها الملحقة بها المسماة بـ (دار العلم) سنة ٣٩٥هـ^(٦).

وقد انعكست تلك الأوضاع على علماء أهل السنة، فداراهم البعض واستغل هامش الحرية الذي أتاحه الحاكم، إلا أن انقلابه السريع سنة ٣٩٩هـ أودى بحياة بعض علماء أهل السنة، وأدى إلى استتار البعض الآخر^(٧). وبالنسبة للمؤرخين فقد جازاهم ابن زولاق؛ إيماناً منه بمعتقداتهم، وسطر بقلمه سير بعض حكامهم وقادهم البارزين^(٨).

أما الأندلس، فقد شهدت نهضة علمية مزدهرة في ذلك القرن الذهبي. لقد حرص الخليفة الناصر - رغم انشغاله في غزواته بالداخل والخارج - على استقدام العلماء الناهيين من المشرق،

(١) من نماذج ذلك: منع العزيز صلاة التراويح من مصر كلها سنة ٣٧٢هـ (الخط ٣٤١/٢)، وضرب رجل، وطيف به المدينة؛ لوجود موطأ مالك عنده سنة ٣٨١هـ (اتعاظ الحفاط - المجلس ١-٢٧٣، والخط ٣٤١/٢). ومزيد من الأمثلة في: (المصدر السابق ٤٩٢/٢، ٥٤، ٨٠).

(٢) راجع دلائل ذلك في: (المجالس والمساربات ٥٣٣، ومعجم الأدباء ١٦/١٧-١٨، ووفيات الأعيان ٣/٣١٩، والوفا ٢/١٩٤، واتعاظ الحفاط ١/٢٧٨، والخط ٤٠٢/١، ٤٠٨).

(٣) وهذا يفسر تراحم الناس للدخول في الدعوة، وحضور مجالسها في القصر، حتى مات بعضهم من الزحام، مع حضور النساء والغرباء كذلك. (الخط ١/٣٩٠، واتعاظ الحفاط ٢/٥٤).

(٤) مثل: مؤلفات الطب التي وضعها بعض الأطباء للمعز، وما ألف في عهد العزيز (طبقات الأطباء ص ٥٤٥-٥٤٦).

(٥) مثل: ابن كلث (ت ٣٨٠هـ)، وأبي الفضل جعفر بن الفضل بن جعفر بن حنابلة (ت ٣٩١هـ). راجع جهودها لخدمة العلم ورعاية العلماء في: (طبقات ابن أبي أصيبعة ٣٣٢-٣٣٣، ووفيات الأعيان ١/٣٤٧، والسيرة ١٦/٤٨٥).

(٦) راجع مهمتها المنشأة لأجلها في: (النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة) لابن سعيد ٦٠، وصبح الأعشى ٣/٣٦٢، واتعاظ الحفاط ٢/٥٦، والخط ٢/٣٤٢، وتاريخ الدولة الفاطمية، للدكتور حسن إبراهيم ٤٣٥، والتربية الإسلامية، ربيرا (مترجم) ص ٢٦٢-٢٦٣، وموسوعة التاريخ الإسلامي، د. شلي ١٣٦/٥-١٣٧، وما جستر الحياة العلمية بمصر في عهد العبيديين الأول) ص ١١٣.

(٧) أمر الحاكم بقتل (حنابلة بن محمد المروزي اللغوي النحوي)، ومعهم المقرئ (الحسن بن سليمان الأنطاكي النحوي)، بينما استتر المحدث عبد الغني بن سعيد. وكان سبب القتل اجتماعهم في دار العلم، وجلسهم فيها. (وفيات الأعيان ٣/٢٢٣-٢٢٤، واتعاظ الحفاط ٢/٨٠). بينما ذكر ياقوت أن الحاكم قتل المروزي؛ لانتمائه بأنه شوم على النيل، ذلك أنه كان يجري دروسه النحوية في جامع المقياس، فظن أنه سبب انخفاض النيل (معجم الأدباء ٧/٢٠٩-٢١٠).

(٨) مثل: سيرة المعز، وجوهر. وسوف ندرس مؤلفاته تلك فيما بعد، إن شاء الله.

وحسن الاستفادة منهم^(١). وقد أنعم الله على بلاد الأندلس بالحكم المستنصر العالم المثقف، سواء في فترة ولايته للعهد، أم في فترة توليه الخلافة^(٢)، فأولى العلم والعلماء كل عنايته، وسلك في سبيل النهوض بالثقافة في الأندلس طرقاً عديدة، منها: استقدام العلماء المتفوقين من أقاليم الأندلس الأخرى إلى العاصمة قرطبة؛ للاستزادة من علومهم^(٣)، وتوجيه الدعوة وبذل كل المغريات لاستجلاب العلماء من المشرق^(٤)، وتوجيه علماء الأندلس للتأليف في موضوعات معينة، يثرى بها المكتبة الأندلسية^(٥)، بل عرفت الأندلس - بحسن توجيهه - التأليف العلمي المشترك في مجال الفقه المالكي^(٦). وكذلك حرص المستنصر على إقامة علاقات وطيدة بالورّاقين، يجلبون له من المشرق كل كتاب قيم جديد، ويبدل في سبيل ذلك الأموال^(٧)، فتكونت له مكتبة ضخمة من جُزء ذلك كله^(٨).

وفي عهد المنصور بن أبي عامر كان له اهتمامه بالعلم والعلماء، وكان له مجلس أسبوعي، يستقدم فيه العلماء من كل فن وعلم، يتناظرون ويتناقشون في حضوره، إبان وجوده في قرطبة^(٩). وكان للمنصور موقف عدائي من كتب الفلسفة، أمر فيه بجمع كتبها من مكتبة المستنصر بعد وفاته، وأمر بإحراقها في محضر الفقهاء؛ تحيياً للعوام، وتقيحاً لرأى المستنصر عندهم^(١٠). وقد اهتم المنصور بالعالم

(١) مثل: أبي علي القائل البغدادي الأصل، الذي دخل الأندلس سنة ٣٣٠هـ، وظل ١٤، وعاصر المستنصر بعد وفاة أبيه الناصر. توفي القائل سنة ٣٥٦هـ (أخباره في: البغية ص ٢٣١-٢٣٤، والنفع ٧٠/٣-٧٥).

(٢) حول ثقافة المستنصر، وسعة اطلاعه، ومولفاته (يراجع: تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس، لابن الغرضي ١/ ١٢٠، ١٥١، ١٤٠، ٣٨٢، ١٣٣، ١٤٧، ١٩٥، وطبقات الأمم ٥٩، والنفع ٦٠/٣).

(٣) تاريخ العلماء والرواة لابن الغرضي ١/ ١٧٧.

(٤) أحسن المستنصر من قبل إلى أبي علي القائل. ويذكر الذهبي أنه أحسن استقبال الفقيه أبي الطيب محمد بن أحمد ابن إبراهيم البغدادي الشافعي، وإن كان المنصور أخرجه بعد ذلك سنة ٣٧٣هـ؛ لاقامته بالاعتزال (تاريخ الإسلام ٥٤٦/٢٦-٥٤٧).

(٥) تاريخ العلماء والرواة، لابن الغرضي ١/ ٨٩، ١٥٦، والخلاصة ١/ ١٦٩، والبغية ١٥٩، والمغرب (قسم الأندلس) ١/ ١٦، والنفع ١٧٣/٣.

(٦) ترتيب المدارك ٤/٢-٦٣٤-٦٣٥، والصلة ١/ ٢٨. وذكرت روايات أخرى أن هذا المؤلف كان بأمر المنصور (ترتيب المدارك ٢/ ٦٣٥-٦٣٦، والبغية ٥٢٩). والأول - عندي - أرجح؛ لاهتمام المستنصر بالعلم حقاً، بينما كان الغزو شغل المنصور الشاغل.

(٧) ترتيب المدارك ٤/٢-٥٧٣، ومعجم الأدباء ١٣/ ١٠٠، والخلاصة السواء ١/ ٢٠١-٢٠٢. وتكملة الصلة (ط. الحسيني) ١/ ٣٤٧، ووفيات الأعيان ٣/ ٣٠٨.

(٨) خاصة بعد أن ضم إليها مكتبة أخيه عبد الله بعد قتله. (ترتيب المدارك ٤/٢-٦٣٨، والخلاصة السواء ١/ ٢٠١، ٢٠٣، وتكملة الصلة (ط. الحسيني) ١/ ٣٤٧).

(٩) حذوة المقتبس ١/ ١٣١، والمحب ٣٨.

(١٠) طبقات الأمم ٦٦-٦٧، والبيان ٢/ ٢٩٢-٢٩٣، وتاريخ الإسلام ٢٧/ ٢٩١، والنفع ٢٢١/١.

السبغدادى (صاعد بن الحسن)، وأكرم نزه، وأحسن استقباله، وأحدث بالأندلس رواجاً علمياً كبيراً، ومناقشات حامية مع علمائها^(١).

على الرغم من العداء السياسى بين العبيدين في مصر والأمويين بالأندلس إلا أن الصلات الثقافية بين البلدين لم تنقطع لا قبل العبيدين ولا في عصرهم؛ مما يدل على عمق الصلات بين شعوب المشرق والمغرب^(٢). وتفيد النصوص الموجودة في كتب التراجم وغيرها وجود رحلات محدثين^(٣)، ومؤرخين^(٤)، ولغويين^(٥)، وفقهاء^(٦) أندلسيين إلى مصر. ولم أعثر على ما يفيد وجود علماء مصريين بالأندلس؛ مما يدل على أن مصر كانت لا تزال كعبة القُصّاد، وموئل طلاب العلم، بينما كانت تستكمل الأندلس أدوات الاستقلال العلمى، الذى تحقق - بالفعل - في مجال التاريخ، كما سنرى بعد ذلك.

ثانياً - من حيث الظواهر الثقافية في ذلك العصر:

في الوقت الذى كانت مصر فيه قبلة طلاب العلم الأندلسيين في رحلاتهم إلى المشرق، وعند أداء فريضة الحج، استمرت بلاد الأندلس تنظر إلى المشرق على أنه المثل الأعلى الذى يُحْتَذَى في مختلف العلوم. وفي الوقت الذى لم تُقبَل فيه العلوم العقلية والفلسفية في الأندلس، كانت مصر تفتح ذراعيها لمختلف التيارات الفكرية^(٧).

وفي الوقت الذى كانت الثقافة الدينية الفقهية المالكية بالذات هي محور اهتمام الأندلسيين، وكان أتباع المذهب الشافعى، والظاهرى محدودين، ولم يجد المذهب الحنفى رواجاً هناك^(٨)، كانت مصر أرحب أفقاً، فاحتضنت كافة المذاهب الفقهية، بل واجه علماءها المذهب الشيعى الإسماعيلى؛ بدليل عدم اندثار السنة.

(١) أخباره في: الجذرة ١/٣٧٣-٣٧٩، والصلة ١/٢٣٢-٢٣٣، والبغية ٣١٩-٣٢٣، وتكملة الصلة (ط. مدريد) ص ٢٨٤، ووفيات الأعيان ٢/٤٨٨-٤٨٩، والنفع ٣/٧٥-٩٨.

(٢) العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمى، الدومينى (مترجم) ص ٣٣٧-٣٣٨.

(٣) راجع أخبار رحلة (خلف بن قاسم بن سهل - ويقال: سهلون - بن محمد الدبّاغ القرطبي (ت ٣٩٣هـ) إلى مصر في: الجذوة ١/٣٢٩-٣٢٩، وبغية الطلب ٧/٣٣٤٧-٣٣٤٧، وتاريخ الإسلام ٢٨/٢٨٥، والديباج ١/٣٥٥.

وذكرها د. محمد عيسى الخيري في بحث: (دراسة عن بعض علماء الأندلس في مصر) في مجلة (ندوة التاريخ) مجلد ٢/ ١٩٨٢ ص ٢١٢-٢١٣، لكنه ذكر أن اسمه (سهلون بن محمد)، وهو غير صحيح.

(٤) راجع نماذج ذلك في: تكملة الصلة: (ط. الحسين): ١/١٣-١٤، ٢٠٦.

(٥) تاريخ الإسلام ٢٧/١٩٧-١٩٨، وتذكرة الحفاظ ج ٣ من مج ٢ ص ٨٦٩-٨٧٠.

(٦) ترتيب المدارك مج ٢ ج ٣ ص ٣٠٠، والنفع ٢/٦٣٣.

(٧) ومنها: المعتزلة؛ بدليل وجود (سيبويه المصرى المعتزلى) ت ٣٥٨هـ، الذى سندرس سيرته، إن شاء الله.

(٨) تاريخ الفكر الأندلسى، بالنسبة (مترجم) ص ٤٣٩-٤٤١، و (في تاريخ المغرب والأندلس) ص ١٢١-١٢٤،

والتربية الإسلامية في المغرب د. محمد عادل عبد العزيز ص ٩١-٩٢، وظهر الإسلام ٣/٢٩-٣٠، و (ابن حزم

وجهوده في البحث التاريخي والحضارى) ص ٨٥-٨٧، ٨٩.

ثالثاً، وأخيراً - دور المجتمع ونصيبه من الحركة الثقافية:

من المعلوم أن المجتمع يتأثر بالوضع الثقافي بعد أن يسهم في تشكيله وتكوينه والتأثير فيه^(١). فالثقافة تأخذ من المجتمع وتعطيه. فعناصر المجتمع وأفراده يشتركون في صياغة ثقافته ونهضته الفكرية، ثم تنعكس هذه النهضة ثانية على أفراد هذا المجتمع وعقول أبنائه وسلوكياتهم.

والحق أن الحكام الواعين المثقفين والعلماء الناهجين، هم الذين حملوا لواء النهضة العلمية في مصر والأندلس في تلك الفترة، لكن حكام الأندلس كانوا أعظم دوراً وأكبر أثراً، والتفاف العلماء والشعب حولهم كان عظيماً؛ نتيجة الالتحام والاتفاق الفكري والمذهبي بينهم، بينما كانت الفجوة واقعة في مصر، ولم يكن الالتفاف والتوحد قائماً.

ولولا جهود علماء أهل السنة والثقاف بعض الناس حولهم، لا تمارت تلك العلوم تحت تأثير ضغوط العبيدين، وما وجدنا المساجد عامرة بالمصلين، والمتلقين للعلوم^(٢). وحظي الفقهاء والمؤرخون وغيرهم من أهل العلم بمكانة أسمى في الأندلس لدى الخلفاء وعوام الناس^(٣) بدرجة لم ترق إليها مكانة الفقهاء وعلماء السنة في مصر، خاصة العصر العبيدي.

كان انعكاس النهضة الثقافية على الشعب الأندلسي الطموح الجاد العامل ذى العقل المتفتح الواعي^(٤) أكثر وضوحاً وبروزاً عنه في مصر. لقد اهتم خلفاء بني أمية بنشر الفقه المالكي بين الناس حتى في أسواقهم^(٥)، وأدى الفقهاء دورهم كاملاً، حتى إنهم كانوا يقرئونه في حوانيتهم^(٦)، ناهيك عن مجالس العلم في المساجد العامرة هنا وهناك. وتلك ظاهرة لم نلمسها بهذه الدرجة في مصر، وانعكست الثقافة وحب العلم على عوام الناس في الأندلس، فألفينا ظاهرة (المؤدّيين) شائعة في الأندلس في كافة طبقات المجتمع على مستوى الأمراء والعوام في

(١) فمثلاً: أثر حب المصريين للثروة، والخروج إلى الرياض، وحب الطبيعة والنيل، أثر في موضوعات (الأدب)، وهو مُكوّن من مكونات الثقافة، فكثير شعر وصف الطبيعة في مصر. (شعر الطبيعة في الأدب المصري)، لعوض الغباري ص ١١، ٣٢.

(٢) أحسن التقاسيم، للمقدسي ص ١٦٨-١٦٩، ١٧٤.

(٣) ترتيب المدارك ٤٢٤/٤-٤٢٩، والنفع ٣٧٧/١-٣٧٩.

(٤) حول صفات الأندلسيين وعقليتهم وحبهم العلم، والرد على ابن حوقل وما أثاره عن ضعف عقولهم في (صورة الأرض ص ١٠٤-١٠٥)، راجع: إنباه الرواه ٣٦٢/٣-٣٦٣، والنفع ٢٢١-٢٢٠، ٢٢١-٢٢٠، ١٥٢-١٥٠/٣، ١٥٤-١٥٥، (شيوخ العصر)، د. مؤنس ص ٦١، وبحت عنان: (جغرافية الأندلس) ص ٤٧ (مجلة الأبحاث المغربية) ١٩٥٩م.

(٥) راجع دور مفتي السوق وأهميته، ونماذج ذلك في: تاريخ العلماء لابن الغرضي ٣٥٦/١، ٤٩/٢، والقضاء والقضاء بالأندلس د. السيد محمد داود ص ١٧٠.

(٦) كان الفقيه (إسحاق بن إبراهيم الطليطلي) يقرئ الفقه في حانوت أحد الفقهاء بسوق الكتاب بقرطبة (تاريخ الإسلام) ٦٩/٢٦ (وفيات) ٣٥٢هـ).

آن^(١). وانتقل حرص اقتناء الكتب، والشغف بتكوين المكتبات من الحكام إلى العلماء وطُلاب العلم، وطبقات الشعب: أغنيائهم ومتواضعيهم، فشاع العلم في المجتمع ككل^(٢)، وهو ما لم نلمسه في مصر، بل لمسنا ضده من الجهل والغباء، راح ضحيتها العلماء^(٣). ولم يكن العلم حكراً على الرجال، بل شاركت فيه فضليات النساء في الأندلس^(٤)، بينما لمسنا مثلاً نادراً لإسهام المرأة العلمية في العصر الإخشيدى^(٥)، واقتصدناه تماماً في العصر العبيدي، بعدما فرض على المرأة من قيود وأغلال^(٦). وبعد، فهذا نحن قد عرضنا للنواحي السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية في مصر والأندلس في القرن الرابع الهجري، وتبين لنا: أن الاستقرار السياسي يُفضي إلى نمو اقتصادي، وأن رخاء الشعوب أساس لاستقرار الحكم^(٧)، وأن الاستبداد السياسي يؤدي إلى التحلل الاجتماعي والمفاسد والنفاق في المجتمع^(٨)، وأن اللهو والترَف والسُّرف يؤدي إلى مفاسد خلقية واجتماعية خطيرة، وأن عناية الحكام بالعلم، ونشاط وإخلاص العلماء في توصيله إلى الناس يُحبّب العلم إلى الشعب، وأن الثقافة تتأثر بالأوضاع القائمة، وتؤثر في جموع الناس.

ونتساءل أين يقف مؤرخو البلدين من هذه الظروف التي عرضناها، وما مدى تأثيرها فيهم، وفي مؤلفاتهم؟ وما مدى اضطلالهم بمسئولياتهم تجاه مجتمعهم والأجيال من بعدهم؟ ذلك ما نحبب عنه - تفصيلاً - في أبواب الكتاب التالية، والتي تبدأ بـ (كتب السير التاريخية)، أقدم اتجاهات التأليف التاريخي في ذلك القرن، وأقرها تعبيراً عن علاقة الشعب بحكامه، وقادته، وعلمائه.

- (١) المقتبس (ط. الحجي) صـ ٢١٦، وتكملة الصلة (ط. الحسيني) ٢٠٥/١، وشمس العرب تسطع على الغرب، سيجريد هونكه (مترجم) صـ ٣٩٣-٣٩٤.
- (٢) التربية الإسلامية، ريمو (ترجمة: د. الطاهر مكي) صـ ٢١٠-٢١٢، وبحث (مكتبة الأميين الإسلامية في قرطبة) د. زغروت صـ ٣٣٥، وبعدها (مجلة البحوث الإسلامية بالرياض) ١٤٠٦هـ/١٤٠٧هـ.
- (٣) نسب جهل بعض عوام مصر في غرق أبي جعفر الثَّحَّاس اللغوي المشهور، إذ رآه أحد العوام يُفْطَعُ آياتاً من الشعر عروضاً عند شاطئ النيل، فظنه يسحره؛ لتخفيض مياهه، فقتله في النيل. (وفيات الأعيان ١٠٠/١)، والبداية والنهاية ٢٣٦/١١، والمقفى ٧١٥/١.
- (٤) تراجم هؤلاء النسوة الكاتبات النحويات الشواعر في: البغية ٥٤٦-٥٤٧، وتكملة الصلة (ط. مدريد) صـ ٤٠٢-٤٠٤، والتربية الإسلامية، ريمو (مترجم) صـ ٢٠٣-٢٠٥.
- (٥) وهي فاطمة بنت الربان المستعلي، التي كانت تروى في دارها حديثاً للرسول روته عن الربيع المرادي صاحب الشافعي في مصر، شهر شوال ٣٤٢هـ. (الاستذكار ١/٢٣٤).
- (٦) وذلك بمنعها من الخروج في عهد الحاكم.
- (٧) معالم تاريخ المغرب والأندلس: ص ٢٨٤.
- (٨) راجع مظاهر التحلل الاجتماعي، وفساد الناس، وشيوع الحقد والحسد والنفاق في عهد العامين، في: (المعجب صـ ٣٨-٣٩، والأدب الأندلسي د. هبكل صـ ٢٦٨، وبعدها).

القسم الثاني

الدراسة المنهجية للمصادر التاريخية

الباب الأول

مؤرخو السِّير التاريخية

يشمل هذا الباب الفصول الآتية:

- الفصل الأول - المؤرخان المصريان: ابن الداية، والبلوى.
- الفصل الثاني - سيرة أحمد بن طولون: نقد، وتحليل.
- الفصل الثالث - ابن زولاق مؤرخ سيرة الإخشيد، وصاحب (أخبار سبيويه المصرى).
- الفصل الرابع والأخير - من السِّير التاريخية المفقودة.
- ملاحظات عامة (خاتمة): بين مؤرخى السِّير المصريين، والأندلسيين.

مدخل

إذا كان هذا الكتاب يتناول الكتابات التاريخية المحلية^(١) في مصر والأندلس في القرن الرابع الهجري؛ فإن هذه الكتابات اتخذت عدة ألوان، وارتضى أصحابها من المؤرخين مناهج شتى في التأليف التاريخي.

وقد اختص هذا الباب بدراسة الاتجاه الأول من اتجاهات التأريخ في هذا القرن، ألا وهو (كتابة السير التاريخية). وهذا الاتجاه - في نظري - يعد أقدم ألوان التأليف التاريخي في هذا القرن^(٢)، وهو مرتبط بدافع الإعجاب، الذي يملك بعض المؤرخين سير ومناقب بعض الحكام، فيسطرون بأقلامهم مراحل حياتهم، وأهم منجزاتهم. ولا شك أن في ذكر السير والتواريخ فوائد كثيرة، أهمها: أنه إذا ذكرت سيرة حازم، ووصفت عاقبة أمره، علمنا بما فيها، وتعلمنا حسن التدبير، واستعمال الحزم في الأمور. وإن ذكرت سيرة مفرط، ورأينا سوء منقلبه، اعتبرنا بحاله، فتأدب المستلطون، واعتبر المذكرون. وكذلك تطالعنا كتب السير والتواريخ بعجائب الأمور، وتقلبات الزمن، وتصاريف القدر، فيحتاط الإنسان لنفسه ويكون على حذر^(٣).

هذا، وقد رأيت بعد البحث والتحرى - أن مؤرخي مصر قد بهرتهم شخصية (أحمد بن طولون)، فذوّنوا سيرته، وذلك فيما كتبه كل من: ابن الداية، والبُلَوّي، على اختلاف بينهما إيجازاً وتفصيلاً. وقد انتقيت لدراستهما منهجاً غير تقليدي يتوافق مع توحيد الموضوع، الذي

(١) يرجع ظهور هذه النوعية من الكتابات التاريخية إلى ظهور الروح الاستقلالية وتناميها، ومحاولة جعل الصلة بالخلافة مقصورة على الناحية الشكلية والسلطة الروحية فحسب. ومن هنا ظهرت في مصر (الدولة الطولونية)، و(الدولة الإخشيدية)؛ استغلاً لضعف الخلافة، ورغبة في تحقيق أقصى درجات الاستفادة من خيرات مصر وثرواتها، ومن هنا ظهر مؤرخون مصريون اهتموا ببلدهم، وسجلوا تاريخه من مختلف نواحيه: (سير حكامه، وتراجم علمائه، ونظمه وحضارته، وأبرز أحداثه). والشئ نفسه - وأكثر منه - وقع في بلاد الأندلس، التي قامت فيها إمارة تحولت إلى خلافة أموية مستقلة كل الاستقلال عن العباسيين في المشرق. (راجع عوامل ظهور التواريخ المحلية في: علم التاريخ عند المسلمين، لروزنثال (مترجم، ط. مؤسسة الرسالة) ص ٢٠٦، وبعدها، والتاريخ العربي والمؤرخين ج ١ ص ٣٤٨ - ٣٤٩، ٣٥٠ - ٣٥٦، ٣٥٩ - ٣٦٠).

(٢) حول تطور هذا اللون منذ كتابة سيرة الرسول ﷺ، وتنوع موضوعاته، راجع: كتابي (التاريخ العربي والمؤرخين ١/٣٦٥، ٣٦٧، وبحوث في الأدب العباسي، د. شعبان مرسى ص ٨).

(٣) المنتظم، لابن الجوزي (ط. دار الكتب العلمية)، مقدمة المؤلف ١/١١٧، والإعلان بالتوبيخ للسخاوي (ط. مؤسسة الرسالة، نفس مجلد كتاب روزنثال) ص ٤١٢، والمؤنس ص ٤.

كتب فيه كلاهما. فبدأت بالترجمة لهما، وقمت بدراسة منهجهما معاً في إطار مقارن، مبيناً قبل ذلك محتوى سيرتهما، ناقداً إياهما نقداً خارجياً (بذكر مواردهما)، وآخر داخلياً (بوضع بعض الأحداث في ميزان النقد التاريخي).

ولم تكن سيرة (ابن طولون) هي الوحيدة، التي لفتت أنظار مؤرخي مصر في تلك الحقبة، وإنما شغلت المؤرخ ابن زُولاقي - ضمن ما شغله من سير تاريخية - سيرة (الإخشيد)، فكان لزاماً علينا أن نتصدى بالدرس والفحص هذه السيرة على النحو، الذي اختططناه لأنفسنا وأشرنا إليه قبلاً.

وقد واصل المؤرخ اللاحق ابن زولاقي اهتمامه بكتابة السير التاريخية، فمسجل لنا سيرة إحدى الأسر عراقية الأصل، ذات المكانة البارزة في عالم المال والاقتصاد، وإدارة شئون البلاد في مصر عبر فترات طويلة من تاريخها. وقد فقدت - للأسف - هذه السيرة (سيرة المادرائيين)، ونحاول - في ضوء ما بقي منها في ثنايا المصادر - إعطاء ملاحظات منهجية عامة عليها.

لم يقف اهتمام المؤرخ البارع ابن زولاقي المصري عند حد كتابة (سير الحكام)^(١)، بل كتب - أيضاً - سيرة أحد العلماء المبرزين في عصره في مجال النحو والكلام، فخلف لنا عنه كتاب: (أخبار سيويه المصري)، الذي حظي منا بدراسة، تتناسب مع حجمه، وموضوعه، وطبيعة شخصية صاحبه، وما تثيره تصرفاته من مدلولات عميقة، تفيد في تعرف حقيقة بعض ما يدور في ذلك العصر.

وأخيراً، فقد ألقينا بعض الضوء على ما ذكرته بعض المصادر عن أسماء بعض كتب (السير التاريخية) بالأندلس، وحاولنا الكشف عن بعض الأسباب، التي أودت بهذه الكتب، سواء من حيث ظروف الفتنة، التي تعرضت لها بلاد الأندلس آخر القرن الرابع الهجري، أم من حيث طبيعة الشعب الأندلسي المغايرة لطبيعة الشعب المصري.

* * * *

(١) أكتفى في هذا المدخل بإشارات سريعة إلى بعض ما يحويه هذا الفصل، وإلا فإن زولاقي له في مجال السير كتب أخرى عديدة مفقودة، توجد بعض بقاياها في المصادر المتأخرة، مثل: (سيرة المعز لدين الله)، و(سيرة جوهر).

الفصل الأول

المؤرخان المصريان: ابن الداية، والبلوى أولاً - كتب السير التاريخية في مصر

تقديم:

قبل الدراسة التحليلية لكتب السير التاريخية، نحاول أن نترجم ترجمة وافية لأول مؤلفي هذا الاتجاه التاريخي: (أحمد بن يوسف بن الداية)، بحيث تعيننا هذه الترجمة على تفهم شخصيته، ومعالم حياته، وثقافته، وأهم المؤثرات التي جعلت منه مؤرخاً مصرياً قديراً، ندين له بمعرفة سيرة مؤسس الدولة الطولونية.

ولما كان أحمد بن يوسف قد نشأ في ظلال أسرة عربية مثقفة، وجب أن نترجم لهذه الأسرة (خاصة والده يوسف) بالقدر الوافي^(١)، الذي يسلط الأضواء على البيئة الثقافية، التي رضع لبانها الكاتب والمؤرخ ابن الداية.

تعريف عام بأسرته:

أولاً - جدته:

كانت أم (يوسف بن إبراهيم) تعمل داية^(٢) في قصور خلفاء العباسيين. ويبدو أن طبيعة ذلك العمل لم تكن مقصورة على ما يُفهم منها اليوم (قابلة تقوم بتوليد الخوامل)، بل كان يتعدى ذلك إلى القيام بإرضاع هذا النبت الجديد، كنوع من الترف الذي تعيشه نساء القصور في ذلك الزمان. وينضاف إلى ذلك القيام على شأن الصغير ورعايته بديناً ونفسياً وتربوياً، حتى مرحلة سنّية معينة، بعدها يُحضر له الخليفة المؤدين، الذين يعدونه فكراً وثقافة وخلقاً لمهام الخلافة من بعد، خاصة إذا ظهرت عليه مخايل النجاح، وسمات القيادة التي تؤهله لولاية العهد.

(١) ولست مبتدعاً في ذلك، فقد سبقني الدكتور محمود مكي إلى الإطالة في الترجمة لـ (حلف بن حسين) والد المؤرخ الأندلسي ابن حيّان عند الترجمة للمؤرخ نفسه؛ نظراً لتأثيره الكبير فيه، وكونه من أهم مصادره التاريخية. (مقدمة المحقق لكتاب المقتبس ص ٨-١٩).

(٢) وفي معاجم اللغة بدور معنى الداية، والظّهر حول المرأة التي ترضع ولد غيرها. ويضاف إلى الداية معنى القابلة، والحاضنة. (لسان العرب مادة: (ظ.أ.ر.) ح ٤ ص ٢٧٤١-٢٧٤٢، والقاموس المحيظ، باب الرء فصل الظاء ٢ ص ٧٩، والمعجم الوسيط مادة: (د.و.ي.) ح ١ ص ٣١٦، ومادة: (ظ.أ.ر.) ح ٢ ص ٥٩٦).

ونحن لا ندرى شيئاً عن اسم هذه الجدة، فقد اكتفت المصادر بذكر وظيفتها، ولعلها من الجوارى اللاتي برعن في ذلك المجال، وحققن نجاحاً ملحوظاً فيه، حاز إعجاب أهل القصر، فعُهد إليها برعاية الأمير العباسي (إبراهيم بن المهدي)^(١).

والظاهر أنها نجحت في تلك المهمة، فكُلِّفَتْها ماردة^(٢) أم محمد بن الرشيد (الخليفة المعتصم بعد ذلك) بإرضاع ابنها هذا. وكانت هذه الداية قد رُزقت - غالباً - قبيل مولد الأمير محمد ابن الرشيد بابنها يوسف، فأرضعتها معاً، فلُقِّب ابن الداية بـ (رضيع المعتصم)^(٣). ويترجح لدى ولادتهما سنة ١٤٧هـ، ووفاتها ٢٢٤هـ^(٤).

ثانياً - جده:

ليست لدينا معلومات كافية عن جدّ (أحمد بن يوسف)، حتى إننا لا نعرف نسبه كاملاً، وكل ما نعرفه أن اسمه (إبراهيم). ويبدو أنه كان من موالى بني العباس؛ فقد ظل ابنه يوسف (والد أحمد) يقال له: يوسف مولى إبراهيم بن المهدي^(٥). وقد وردت نصوص تفيد تمتع هذا الجد بمكانة طيبة في ظل رجال الحكم بالخلافة العباسية، فقد حظى بثقة رجال ونساء القصر، فزوّجوه دايتهم الكفاء^(٦). وكان يقيم في سامرا بالعراق^(٧)، وهي مدينة أقامها المعتصم لقواده، وكبار رجال جيشه الأتراك، وجنده. فإقامته في عاصمة المعتصم دليل على مكانته وعظيم صلته هؤلاء القادة والأمراء. ويضاف إلى ذلك ما كان يتمتع به من ثراء، حتى إنه كان له طبيب خاص يخدمه، ويقوم على علاجه^(٨). هذا، وقد حلت المصادر من ذكر طبيعة عمله، وثقافته، وتاريخ مولده، ووفاته.

(١) ولد غرة ذي القعدة سنة ١٦٢هـ، وتوفي - على الأرجح - ٩ من رمضان ٢٢٤هـ. (تاريخ بغداد ١٤٣/٦، ووفيات الأعيان ٤١/١).

(٢) هي إحدى جوارى الرشيد، وكان يهواها هوى شديداً؛ إذ كانت أحظى الناس عنده. وتعد من مؤلّفات الكوفة، وكانت أم ولد الرشيد، وأنجبت له أولاداً عديدين، منهم: المعتصم. (تاريخ الطبري ١٢٣/٩، والكامل ٧١/٦).

(٣) المكافأة (ط. أحمد أمين) لابن الداية ص ٢٠٤، ومعجم الأدباء ١٥٩/٥، والواق ٢٨٢/٨، وكنوز الأجداد ص ١٢٥، ومقال كرد علي في مجلة الرسالة، العدد ٢١٨ ص ١٤٥١.

(٤) وهو يتوافق مع تاريخ ميلاد ابن المهدي (١٦٢هـ) الذي أرضعته، ومع رحيل ابنها يوسف من العراق إلى الشام بعد وفاة ابن المهدي، إذ انقطعت أخبارها تماماً.

(٥) تاريخ الحكماء، للقفطي ص ١٣٥.

(٦) رسالة ماجستير سيد محمد قطب: (أحمد بن يوسف المصري، وكتابه: المكافأة) ص ٣.

(٧) كان أبه مزاحم بن خاقان يسكن في الحارة التي بها دار إبراهيم، ثم ابنه يوسف من بعده بـ (سَرَّ مَنْ رَأَى). (المكافأة، ط. أحمد أمين) ص ١٩٢، و(مختصر تاريخ دمشق، لابن منظور) ٦٨/٢٨.

(٨) هو الطبيب (سعيد بن توفيل) الذي كان يخدم إبراهيم، وأخاه قبله، وذلك قبل أن ينتقل لخدمة الأمير أحمد بن طولون. (سيرة أحمد بن طولون) للبلوي ص ٣١٩.

ثالثاً - والده(*) :

هو أبو الحسن يوسف بن إبراهيم البغدادي^(١) الدمشقي^(٢) المصري^(٣)، المعروف بـ (ابن الداية)^(٤).

(١) مولده:

سكنت المصادر عن ذكر تاريخ ميلاد يوسف. وقد حاولت استنتاج ذلك التاريخ بالتقريب من خلال ما قيل عن أخوة يوسف للمعتصم من الرضاع. ولما كان المعتصم ولد - على الراجح - آخر سنة ١٧٩هـ^(٥)، واجتمع مع يوسف على ثدى واحد، فالطبيعي أن يكون يوسف أسبق مولداً من المعتصم بقليل. وأعتقد أنه أكبر منه بحوالى شهرين، وهما كافيان لاسترداد أم يوسف عافيتها وصحتها؛ كى تنهض بالعبء الجديد المتمثل في رعاية شئون الأمير الصغير (محمد بن الرشيد). وعلى هذا، فإنى أرجح ميلاد يوسف آخر شوال سنة ١٧٩هـ.

(٢) نشأة يوسف وتكوينه:

عرفنا - فجيما مضى - أن أمه كانت من ذابات القصور، وكان لها دور بارز خاصة عصر الرشيد، وقامت بإرضاع (إبراهيم بن المهدي)، و(محمد بن الرشيد). ولا شك أن يوسف نشأ مع أمه في أجواء القصور، فكان لذلك أثره في تنشئته وفكره وعلمه وخلقه، فهو ربيب القصور،

(*) ترجم له: معجم الأدباء ١٥٤/٥، ومختصر تاريخ دمشق، لابن منظور ٦٨/٢٨، والوفاء بالوفيات ٢٨٢/٨، وكشف الظنون ٢٥/١، ٣٠، وهدية العارفين، لإسماعيل البغدادي ٥٤٩/٢، ومعجم المؤلفين لكحالة (ط. مؤسسة الرسالة) ج٤ - ص١٣٩ - ١٤٠، وريحانة الأدب، محمد علي مدرس ٥١٤/٧، والأعلام للزركلي ٢١٢/٨، وتاريخ التراث العربي لسركين ٦٠٣/١، وكنوز الأجداد، محمد كرد علي ص١٢٥.

(١) نسبة إلى بغداد التي يترجح مولده بها، ونشأته في قصور خلفائها. (معجم الأدباء ١٥٥/٥، ومقدمة محقق (المكافأة) - ط. ١٩١٤م - لأمين عبد العزيز، صفحة يد).

(٢) نسبة إلى دمشق، باعتبارها البلد الذي هاجر إليه بعد وفاة مولاه (إبراهيم بن المهدي)، ومولاه (أبي دُلْف العجلي)، فقدمها سنة ٢٢٥هـ، كما سنرى بعد ذلك.

(٣) غلبت نسبه إلى مصر عليه، وبها عُرف؛ لأنه لم يظل مقامه بدمشق، إذ سرعان ما رحل إلى مصر، حيث استقر بها فترة طويلة، حتى وفاته، كما سنذكر فيما بعد.

(٤) قال ياقوت: كان يوسف وَلَدَ دَايَةِ ابن المهدي، وأظن أن المعروف بـ (ابن الداية) هو يوسف. (معجم الأدباء ٥/ ١٥٤). والحق أن هذا كلام صحيح، لكن لا بأس أن يطلق على ابنه (أحمد) على سبيل التجوز، مع وضع قرينة في السياق، تبين المقصود منه (الأب، أو الابن).

(٥) احترت هذا التاريخ من بين عدة تواريخ محتملة ما بين ١٧٨، ١٧٩، ١٨٠هـ ذكرتها بعض المصادر (تاريخ الطبري ١١٩/٩، والكامل ٧٠/٦، وتسايرخ الخلفاء ٣٧٧). وساعد على هذا الاختيار عدة أمور: عبارة مشهورة صحيحة تنقّب المعتصم بـ (المثنى)، ومبلغ عمره لما حضرته الوفاة بما يتوافق مع هذه العبارة، ومدة خلافته أيضاً. (راجع: الأحبار الطوال ص٤٠٦، وتاريخ الطبري ٦٦٧/٨، ١١٨/٩ - ١١٩، والتنبيه والإشراف ص٣٠٧، والبداية والنهاية ٣٠٨/١٠، وتاريخ الخلفاء ٣٧٧ - ٣٧٨).

ورضيع الأمراء، وقرين أولاد الخليفة الرشيد، فلم يكن يعيش عيشة العوام من الناس، ولا الخاملين الهابطين من الخدم، وإنما رُبِّي تربية كريمة، ونُشِئ تنشئة عالية من خلال أمه مربية الأمراء، ومُعَدَّة الخلفاء. أضف إلى ذلك مجالسة الأدباء والشعراء، والخدم، والأطباء، والمنجمين، والمترجمين، والأخباريين، الذين كانت تعمر بهم قصور الخلفاء، مما سنذكر طرفاً منه عند تناول ثقافته.

(٣) زوجه، وأولاده:

تزوج يوسف بن إبراهيم بامرأة تنتمي إليها إلى نفس مهنة أمه؛ دلالة اعترازه بعملها. ولا ريب، أن تلك الوظيفة كانت تمثل مستوى اجتماعياً محترماً، ويتعامل أصحابها مع عليّة القوم في القصور. لقد اقترن بابنة المرأة التي رُبَّت مزاحم بن خاقان، وذلك ببغداد^(١) في تاريخ لا نعلمه تحديداً، وإن كنا نرى عدم تأخره عن أواخر القرن الثاني الهجري، بما يتمشى مع سن الزواج المبكر آنذاك. وقد كان هذا الزواج الذي أدى إلى الارتباط بمزاحم بن خاقان سبباً في إنقاذ حياة يوسف ابن إبراهيم في مصر بعد ذلك، كما سنرى فيما بعد.

هذا، وقد أثمر هذا الزواج - فيما يبدو - ثلاثة أبناء: الحسن، ويعقوب، وأحمد^(٢) (مؤرخنا). والراجع أن يوسف اصطحب أسرته معه للإقامة الدائمة في مصر، وكانت بصحبته حماته (والدة زوجته، وجدة أولاده)^(٣).

(٤) مصادر ثقافته، ومكانته:

أ- صلاته بعلماء عصره (أساتذته):

ساعدت حياة (يوسف بن إبراهيم) مع أمه في قصور الخلفاء على الاندماج مع العلماء، والانغماس في مجالسهم. فعن طريق شبكة أم (إبراهيم بن المهدي)^(٤) عرف كثيراً من أخبار الخلفاء

(١) لا تعرف اسم زوجة (يوسف بن إبراهيم)، فقد ستر ابنه أحمد اسم أمه، واكتفى - فيما ينقله عن أبيه - بذكر اسم أمها (جدته لأمه)، فهي (ميمونة مولاة أم محمد بنت الرشيد). (المكافأة، ط. أحمد أمين) ص ١٩٢-١٩٣. وقد حاولت تعرف اسم هذه الزوجة من خلال البحث في أسماء بنات هارون الرشيد، فعرفت أن أم محمد هذه تسمى (حمدونة)، وأن أمها كانت من أمهات الأولاد، لكن لم يذكر شيء عن مولاتها ميمونة (داية مزاحم بن خاقان، وحماة يوسف بن إبراهيم)، ولا ابنتها (زوج يوسف). (تاريخ الطبري ٣٦٠/٨، والكمال ٣٥٦/٥، البداية والنهاية ٢٣٢/١٠). وجدير بالذكر أن الرشيد لما أفضت إليه الخلافة (١٧٠هـ-)، زوج حمدونة من (جعفر بن موسى الهادي)، كما وعد قبلاً. (تاريخ الطبري ٢١٢/٨).

(٢) وردت ليوسف كنيان: أبو يعقوب (معجم الأدباء ١٥٤/٥، ١٥٩)، وأبو الحسن (المصدر السابق ١٥٥/٥)، ومختصر تاريخ دمشق ٦٨/٢٨، وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ص ٤٧٥، وغيرها. ولا ندرى عنهما شيئاً، بينما عُرف واشتهر ابنه أحمد بن يوسف المؤرخ المصري، الذي يبدو أنه أصغر أولاده.

(٣) المكافأة (ط. أحمد أمين) ص ١٩٣.

(٤) تراجع ترجمته، وترجمة والدته في: الأغاني ٩٥/١٠-٩٦، ١٨٤ وما بعدها، وتاريخ بغداد ١٤٣/٦-١٤٨، ووفيات الأعيان ٣٩/١-٤٢، وإسحاق الموصلي الموسيقار النديم، للدكتور الحفني ص ٩٦.

وأحداث التاريخ. وكانت ملازمته (إبراهيم بن المهدي) قد جعلته في خضم الأحداث، ونقل عنه كثيراً من الروايات^(١). وعرف يوسف حاشية الخلفاء واتصل بهم، وروى عنهم، وكان يحضر مجالسهم. ومن هؤلاء: فرخ الخادم (أبو خراسان مولى صالح بن الرشيد)^(٢)، وسليمان الخادم الخراساني مولى الرشيد^(٣)، أحمد بن رشيد الكاتب مولى سلام الأبرش خادم المهدي^(٤) العباس بن علي بن المهدي الأمير^(٥). وله صلات بالأطباء والمتكلمين والفلاسفة في مجلس (يوحنا بن ماسويه)^(٦) وبلنحمن، مثل: (إسماعيل بن أبي سهل بن ثوبخت)^(٧) وبالترجمين، مثل: (حنين بن إسحاق)^(٨).

وهكذا، عاصر يوسف بن إبراهيم عهود الرشيد، والمأمون، والمعتصم الزاهرة، وتلقى على أعلام المفكرين؛ مما كان له أثره الكبير في ثقافته، ومولفاته.

ب- علاقاته الوطيدة برجال عصره:

١- علاقته بالأمير العباسي (إبراهيم بن المهدي):

كان يوسف بن إبراهيم لصيقاً بهذا الأمير، ملازماً له، منذ حداثة سنه، حتى لقّب بـ (مولى إبراهيم بن المهدي)^(٩)، و(خادمه)^(١٠)، و(كاتبه)^(١١). وهذا يعني عظيم تأثيره به، ومعرفة أخباره وأحواله وعلومه، عبر مراحل حياته حتى وفاته. وبذا تكون أم يوسف خدمت الأمير ابن المهدي صغيراً، وخدمه ابنها يوسف كبيراً.

هذا، وقد مر إبراهيم بن المهدي في حياته بأربع مراحل:

أ- المرحلة الأولى (مرحلة ما قبل توليه الخلافة ١٦٢ - ٢٠٢ هـ):

وقد اتسمت هذه المرحلة بظهور مواهب ابن المهدي في عالم الفصاحة والبيان والشعر، إلى جانب موهبة الغناء وحب الموسيقى، فبرع في ذلك كله، وعاش حياة الترف واللمه. ومجالس غنائه وتلحينه تشهد بذلك^(١٢). وولى ابن المهدي بعض المناصب في هذه المرحلة^(١٣)، وشهد

(١) طبقات الأطباء، لابن أبي أصيبعة ص ١٩٤، ٢١٨ - ٢١٩، وغيرها.

(٢) السابق: ١٩٥. (٣) السابق: ١٩١. (٤) معجم الأدباء ١٥٧/٥.

(٥) طبقات ابن أبي أصيبعة: ٢١٦. (٦) السابق: ٢٤٧. (٧) السابق: ٢١٩.

(٨) السابق: ٢٥٧ - ٢٥٩.

(٩) تاريخ الحكماء للنفطي: ٢٩١.

(١٠) معجم الأدباء ١٥٥/٥.

(١١) الواقي بالوفيات ٢٨٢/٨.

(١٢) حول كل هذه المواهب راجع: تاريخ بغداد ١٤٧/٦، والأغان ١٠١/٤ - ١٠٢، ١٧٢/٥، ٢٧٧، ٢٩٦ - ٢٩٨، ١٢/١٧، ١٠١ - ١٠٤، ١٠٧، وغيرها، ومعجم الأدباء ١٢/٦ - ١٧، ١٣٧، وإسحاق

الموصلى للذكور الحفي ص ١٠٤ - ١٠٧، ١١٣.

(١٣) ولى دمشق من ١٨٠ - ١٨٢ هـ، وعزل قليلاً، ثم أعيد في العام نفسه حتى ١٨٦ هـ، وتخلل ذلك إمارته للحج سنة ١٨٤ هـ. (تاريخ خليفة بن خياط ص ٤٥٧، والبداءة والنهاية ٣٠٣/١٠).

نكبة البرامكة^(١)، وكذلك فتنة الأمين والمأمون^(٢). وأعتقد أن يوسف اتصل به في حوالى العقد الأخير من هذه المرحلة؛ مما ساعده على تسجيل حياة سيده، التي كانت مزيجاً من الفن والأدب والفكر، مع مشاركة واضحة في أحداث عصره.

ب- المرحلة الثانية (مرحلة توليه الخلافة ٢٠٢ - ٢٠٣ هـ):

هذه مرحلة مهمة - على قصرها^(٣) في حياة (إبراهيم بن المهدي)؛ نظراً للتجربة الجديدة التي خاضها خلالها، ولما نتج عنها من نتائج، طبعت حياته بطابع معين حتى وفاته. لقد حفلت هذه الفترة بالصراع والحروب، والثورات والفتن^(٤)، ولم يهنا فيها ابن المهدي يوماً واحداً، فقد تكالب عليه الأعراب الطامعون، واجند الثائرون لقلة المال، بينما عاث المفسدون واللصوص في الأرض فساداً^(٥)، فأقلت الزمام من بين يديه، وتفرق الناس عنه، وتركه مؤيدوه من بني هاشم واحداً بعد الآخر^(٦). أيقن ابن المهدي بزوال أمره، فأخذ يتحين الفرصة للنجاح بنفسه من الوقوع في أيدي رجال المأمون، وأفلح في الهرب والاختفاء عن العيون. وأعتقد أن (يوسف بن إبراهيم) عانى مثلما عانى سيده في هذه الفترة الكريهة إلى نفس كليهما؛ نظراً لخلوها من مجالس الأدب والعلم والغناء، وأرجح مصاحبته إياه في الهرب من ساحة الحكم، والفرار من ميدان الصراع.

ج- المرحلة الثالثة (مرحلة الاختفاء ٢٠٣ - ٢١٠ هـ)^(٧):

فيها اختفى ابن المهدي تماماً عن عيون المأمون، الذين كانوا يقبضون عنه في كل مكان. وقد أقلق ذلك المأمون^(٨)؛ إذ يجد عمه وغريمه المنتزى على خلافته بعيداً عن متناول يده، بمنأى عن أن تناله يد العقوبة. وذلك يعنى عدم بسط هيبة الخلافة، ووجود من يؤيد ابن المهدي، ويؤويه بعيداً عن قبضة

(١) كانت سنة ١٨٧ هـ، وكان متعاطفاً معهم، راصداً تغيّر الرشيد غوهم (تاريخ الطبري ٢٩١/٨ - ٢٩٢).

(٢) سنة ١٩٣ - ١٩٨ هـ، وكان مع الأمين، ثم انصرف عنه في النهاية، وراثه بعد قتله. (السابق ٤٨٩/٨، ٤٩٥، ٤٩٨، ٥٢٠ - ٥٢١، ٥٢٤، والأغان ١٢٠/١٠ - ١٢٢).

(٣) تبدأ هذه المرحلة بعد أن بايعه العباسيون بيعة خاصة يوم الثلاثاء ٢٥ من ذى الحجة ٢٠١ هـ، ثم بايعه أهل بغداد بيعة عامة أول المحرم سنة ٢٠٢ هـ (الكامل ٤٤١/٥)، ووفيات الأعيان ٣٩/١). ثم بدأت خلافته الفعلية يوم الجمعة ٥ من محرم ٢٠٢ هـ إلى ليلة الأربعاء ١٧ من ذى الحجة سنة ٢٠٣ هـ، فيكون قضى في منصبه سنة، وأحد عشر شهراً، واثني عشر يوماً. (تاريخ الطبري ٥٧٢/٨ - ٥٧٣، وتاريخ بغداد ١٤٣/٦، ووفيات الأعيان ٤٠/١).

(٤) تاريخ الطبري ٥٦٢/٨، ٥٦٤، والكامل ٤٤٣/٥ - ٤٤٤.

(٥) تاريخ الطبري ٥٥٧/٨، وتاريخ بغداد ١٤٤/٦.

(٦) تاريخ الطبري ٥٧٢/٨.

(٧) ظفر به المأمون لثلاث عشرة ليلة بقيت من ربيع الآخر سنة ٢١٠ هـ، بعد فترة احتفاء، استمرت ست سنين وأربعة أشهر. (تاريخ بغداد ١٤٣/٦، وزاد عشرة أيام خطأ). وراجع خبر اختفائه في (تاريخ الطبري ٥٧١/٨ - ٥٧٢، والكامل ٤٥٠/٥).

(٨) كتاب بغداد، لطيفور ص ١١ - ١٢.

الشُرط وأنظار السلطة، متعاطفاً معه، غير هيّاب ولا وَّجِل. والحق أن ابن المهدي ومؤيديه - ومنهم: يوسف بن إبراهيم - نجحوا في القيام بعمليات التمويه، والتنقل من مكان إلى آخر طوال مدة الاستار الطويلة^(١). وكان يوسف - كما يحكي ابنه أحمد عنه - فيمن استر - مع ابن المهدي - من المأمون^(٢)، وشهد إحدى حيل المنجمين؛ لتضليل المأمون ورجاله، وإيهامهم أن ابن المهدي غادر بغداد، وركب بحر الهند، حتى أشيع ذلك بين الناس^(٣)، وأخيراً، تم الإيقاع بابن المهدي أثناء تنقله في إحدى المرات ليلاً، متنكراً في زي امرأة منتقبة تسير وسط امرأتين منتقبتين أخريين^(٤).

د - المرحلة الرابعة والأخيرة:

(مرحلة ما بعد عفو المأمون عن ابن المهدي ٢١٠ - ٢٢٤):

تعد هذه الفترة من أخصب فترات حياة ابن المهدي. فبعد أن ساعه المأمون وعفا عنه^(٥)، بعد ما تقدم إليه بأرق عبارات ومعاني الاعتذار والاستعطاف^(٦)، أقبل ابن المهدي على مجالس الأدب، والغناء والتلحين، ومختلف نواحي العلوم والثقافات والمعارف. لقد أراد ابن المهدي أن يطمئن المأمون من جهته، وأن يقنعه بابتعاده التام عن السياسة^(٧)، فبالغ في حضور مجالس الشراب والغناء، واكتفى بإشباع رغباته الفنية^(٨). وأعتقد أن هذه الفترة الأخيرة من حياة ابن المهدي هي التي توطدت فيها صلاته بيوسف بن إبراهيم، واستفاد منه فيها يوسف أيما استفادة، فأرخ لحياته، وروى حُلّ مروياته، وعرف أدق خصوصياته، لاسيما بعد أن أضحي الكاتب الخاص لضياعه، والمشرف على شئونها^(٩) بعد أن ردها المأمون عليه، وكانت قد صودرت فترة

(١) السابق: ١٠٧.

(٢) وهذا ينقض استنتاج سيد محمد قطب في ماجستيرته ص ٧، عندما ذكر أن يوسف لم يصحب ابن المهدي في اختفائه؛ بدليل مشاركته في مجالس الأدب والملم سنة ٢٠٩هـ (طبقات ابن أبي أصيبعة ص ٢٢٩). والرد على ذلك أن يوسف لم يذكر أنه شهد ذلك المجلس بنفسه، فهو مما نقله عن بعض الرواة - وإن لم يمددهم - ويحكي فيه بعض دُعابات الطبيب (سهل الكُوسج)، التي وقعت في السنة المذكورة.

(٣) مخطوط (تفسير كتاب الشرة لبطلميوس) لأحمد بن يوسف بن إبراهيم ص ٥٩.

(٤) حول الإيقاع به راجع: (كتاب بغداد لطيفور ص ١٠١، وتاريخ الطبري ٦٠٣/٨، والكمال ٤٧٥/٥ - ٤٧٦، والبداءة والنهاية ٢٧٥/١٠ - ٢٧٦).

(٥) اختص المأمون عمه بالعفو رغم أنه "لا أرحام بين الملوك وبين أحد" (الوزراء والكُتاب، للمختبري ص ١٨٧).

(٦) لعل هذه الكلمات الرقيقة المقررة بالذنب هي التي أثرت في قلب المأمون (راجع: بغداد، لطيفور ص ١٠١ - ١٠٤، ١٠٨، ١١٣، وتاريخ الطبري ٦٠٤/٨، والأغانى ١١٨/١٠، والكمال ٤٧٦/٥ - ٤٧٨، والبداءة والنهاية ٢٧٦/١٠).

(٧) وكان هذا - في الحقيقة - انسجاماً مع طبيعة ابن المهدي، الذي قال عن نفسه: إنه ذو رأى لغير، ضعيف الرأى في أمر نفسه. وعلل ذلك بأنه ينظر في أمر غيره بطباع سليمة مستقيمة، وينظر في أمر نفسه بطباع مائلة إلى الهوى (بغداد، لطيفور ص ١١٠). ومن هنا فشل في فترة خلافته، فهو رجل أدب وفن وغناء، لا رجل إدارة وسياسة.

(٨) راجع مجالس لموه في طعامه وشرايه، وغنائه في عهد المأمون (كتاب بغداد ص ١١١ - ١١٢، والأغانى ٦٩/١٠)، وفي عهد المعتصم (المصدر السابق) ج ١٠ ص ١١١ - ١١٢.

(٩) الواو بالرفيات ٢٨٢/٨، وكنوز الأحداد ص ١٢٥.

اختفائه^(١) وقد تعرض ابن المهدي في عهد المأمون لامتحان خلق القرآن فأجاب^(٢)، وعاصر فترة من حكم المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧هـ)، حتى أُلِّمَّ به مرض شديد، روى لنا تفاصيله (يوسف ابن إبراهيم)، الذي ظل على مصاحبة سيده حتى لحظاته الأخيرة^(٣)، التي ودَّع فيها الدنيا في شهر رمضان من سنة ٢٢٤ هـ^(٤)، بعد حياة حافلة بالأحداث الجسام.

٢- علاقة يوسف بن إبراهيم بـ (أبي ذُلف القاسم بن عيسى العجلي):

ما إن توفي (إبراهيم بن المهدي)، وكفكف يوسف دموعه، وهدهد أحزانه، حتى انطلق يسعى نحو سيد جديد، يعوض به ما فقدته بوفاته ابن المهدي. اتجهت أنظار يوسف إلى (أبي ذلف)، الذي كان لا يقل في سماته عن ابن المهدي، إن لم يُفَقَّه في بعضها. كان الرجل جواداً^(٥)، شجاعاً، قائداً مغروراً^(٦)، محباً للسمر والغناء^(٧)، على قدر كبير من الثقافة الأدبية الراقية^(٨). ولا شك أن مكث يوسف في رحابه - قرابة العام - أفادته عزة ومنعة وجاهاً، وخبرة وعلماً وثقافة^(٩). وسرعان ما ساءت حال أبي ذلف، وتدهورت صحته، وتوفي كما توقع طبيبه^(١٠). وبذلك فقد يوسف نصيراً آخر، ومكانة ووجاهة حظي بها، ومنصباً إدارياً ومالياً كاد أن يليه^(١١)، لكن القدر كان أسرع إلى حرمانه منه.

(٥) يوسف بن إبراهيم في الشام:

لم تعد ظروف العراق مناسبة للإقامة هناك، فالظاهر أن قواد الأتراك في عهد المعتصم كانوا يضيقون الخناق على العرب ومواليهم، فلم يستطع يوسف البقاء في (سر من رأى)، فرحل عن العراق كلية إلى دمشق سنة ٢٢٥ هـ^(١٢)، حيث نزل ضيفاً على الطبيب

(١) بغداد، لطيفور ١٠٤، ١٠٥، والبدية والنهاية ٢٧٦/١٠.

(٢) تاريخ الطبري ٦٤١/٨، ٦٤٤، والكامل ٥/٦.

(٣) طبقات الأضواء، لابن أبي أصيبعة ٢١٦ - ٢١٧.

(٤) تاريخ الضري ١٠٢/٩.

(٥) كتاب بغداد، لطيفور ١٣٢، ووفيات الأعيان ٧٤/٤ - ٧٦.

(٦) تاريخ بغداد ٤١٦/١٢. (٧) الأغاني ١١١/١٠ - ١١٢، ١٢٠.

(٨) كتاب بغداد، لطيفور ١٣٥ - ١٣٦.

(٩) حدد يوسف مدة إقامته عند أبي ذلف (عشرة شهور). (طبقات ابن أبي أصيبعة ٢٣٨).

(١٠) السابق: ٢٣٩.

(١١) عندما ولده أبو ذلف الخراج والضياغ في بعض أقاليم فارس، لكنه مات قبل توجهه إلى هناك (السابق: ٢٣٩).

(١٢) نصر على رحلته إلى دمشق ياقوت في (معجم الأدباء ١٥٥/٥)، واس أبو أصيبعة في (طبقات الأطباء) ص ١٧٨، والزركلقي في (الأعلام) ٢١٢/٨، وكحالة في (معجم المؤلفين) ١٣٩/٤. وذكر علة التوجه إلى دمشق محمد كامل حسين في (الأدب المصري الإسلامي ٧٨)، وسيد محمد السيد في (ماجستير) ص ١٢ - ١٣. وأغفل ياقوت رحلته إلى دمشق في (معجم الأدباء) في موضع آخر ص ١٥٤. ونقل ذلك عنه كرد علي في (كنوز الأحاديث) ص ١٢٥، وإن كان قد أضاف أنه ورد بجبهته إلى دمشق ٢٢٥ هـ، فلهذا تاريخ رحلته من بغداد إلى هناك. وواضح هذا الخلط الذي وقع فيه الباحث، رغم أن رحلته إلى دمشق ثانية، وتاريخها محدد، ومعروف.

الدمشقي (عيسى بن حَكَم)^(١).

لقد لقي يوسف كل رعاية وعناية وكرم ضيافة في منزل صديقه الطبيب (عيسى بن حَكَم)، أثرت فيما كان يجب أن يتناوله على يديه^(٢)، خاصة أن يوسف كان يشكو علة شديدة (في معدته على ما يبدو).

وعند وداعه نصحه نصائح تخالف مقتضى ما كان يقدمه له عند مقامه في بيته^(٣). ويبدو أن يوسف التزم بتلك النصائح، فعَمَّر طويلاً كما سنرى.

وقد يكون أفاد من إقامته القصيرة - فيما يبدو - إفادة علمية طبية مهمة، ربما ساعدته على تأليفه: (أخبار الأطباء) فيما بعد.

(٦) هجرة (يوسف بن إبراهيم) إلى مصر، واستقراره بها:

توجه يوسف إلى مصر بعد منصرفه من دمشق^(٤)، ولعله علم أنها بلد زراعي، للأمرء فيه إقطاعات واسعة، وهو ذو تجربة طويلة في الإشراف على المزارع والضياع وإدارتها. ومن هنا قام يوسف بالعمل نفسه في مصر مقابل مبلغ معين يؤديه للخلافة في وقته. وقد حقق ثراءً عريضاً، انعكس على حياته زياً وملبساً ومظهرًا، ومطعمًا ومسكنًا. وقد أدى ذلك إلى طمع (أحمد بن محمد بن المدبر) صاحب خراج مصر في أموال يوسف، رغم أن ليوسف عنده أباي ساقية، وسوالف تُرعى ويحافظ عليها. لكن ابن المدبر استغل خسائر حاقت بيوسف، وديوناً لحقته؛

(١) له ترجمة في: تاريخ الحكماء لنقفطي ١٧٩- ١٨٠، ٢٤٩- ٢٥٠، وطبقات ابن أبي أصيبعة ١٧٧- ١٧٨. وترجمة أبيه الطبيب الحكم الدمشقي (المصدرين السابقين: تاريخ الحكماء ١٧٨- ١٨٠، وطبقات الأطباء ١٧٦- ١٧٧). وترجمة جده (أبي الحكم) في المصدرين نفسهما: (تاريخ الحكماء ص ٤٠٤، وطبقات الأطباء ١٧٥- ١٧٦).

(٢) كان عيسى خبيراً بالطب، حسن المباشرة (ظهر زمن الرشيد). ومع ذلك كان يتعهد يوسف بأغذية، تبدو غير متناسبة مع علته الشديدة، وكان يسقيه الماء المثلج. ولما أنكر يوسف ذلك عليه، تعلل بأنه أدرى بما يفعل، فهو غذاء يناسب هواء وحو دمشق بما يتخالف جو العراق. (المصدر السابق ص ١٧٨). والعجيب أن الرواية لم تذكر أن يوسف اشتكى علة؛ لمخالفة قواعد الغذاء، حتى ظن الباحث سيد محمد قطب أن عيسى عالج فشقى (ماحسنته ١٣). وربما كانت حالة يوسف النفسية الطبية في ظل صحة ومعية صديقه، ولعل مقادير الغذاء المقدمة إلى يوسف لم تكن بالكَم الذي يؤديه، فأدى ذلك كله إلى راحته البدنية. وعلى كل، فنحن لا نوافق على مقالة عيسى: "إنه لا يحسن بالعقل أن يلزم قوانين الطب مع ضيفه في منزله". (طبقات ابن أبي أصيبعة ص ١٧٨)؛ إذ لا يجوز أن نضر بصحة الضيوف بحجة إكرامهم.

(٣) نصحه أن يلتزم بما التزم به والده الحكم (فعاش مائة وخمس سنين، لم يتعهد فيها وجهه): ألا يذوق القديد، ولا يفسل يديه ورجليه عند الخروج من الحمام إلا بماء بارد ما أمكن (المصدر السابق ص ١٧٨).

(٤) فلا يصح ما ذكره د. شعبان مرسى في: (بحوث في الأدب العباسي) ص ٣٥، عندما قال: يبدو أن يوسف بن إبراهيم قد هرب إلى مصر بعد انتصار المأمون على إبراهيم بن المهدي.

لآفات تعرضت لها مزارعه، فأهلكت محاصيله، ولم يوف خراجها. هنا طالبه ابن المدبّر بما عليه من أموال، وتعرض للحبس، وكاد يُقتل لولا أن مَنَّ الله عليه بوالى مصر أيامها (مُزاحم بن خاقان)^(١)، الذى أسقط ما عليه من أموال؛ لصلات قديمة بينهما، ولم يكتف بذلك بل جعله كاتباً ومشرفاً على ضياعه ومزارعه فى مصر^(٢). ورجعت إلى يوسف نعمته فى مدة يسيرة، بعد أن عصَّه الفقر المُذْغِع، حتى باع فراش بيته، وأوشك على الهلاك على يد ابن المدبّر.

علاقته بالأمر (أحمد بن طولون):

لا بد أن نتوقع وجود صلات بين رجل كيوسف بن إبراهيم فى شهرته، ومكانته الاقتصادية والأدبية والعلمية، وبين أمير كأحمد بن طولون، يتطلع إلى الاستقلال بإمارته والنهوض بها. وتشير النصوص إلى مجالسة ابن طولون يوسف بن إبراهيم، وسماعه منه جانباً من الحكم الفارسية^(٣)، التى تدخل فى نطاق ثقافة يوسف الحكيمية الفلسفية لكن حتى تكتمل الصورة لا بد أن نضع فى الحسبان أن يوسف من موالى العباسيين، وأن ابن طولون كان يحذر أولئك العراقيين، ويضع عينه عليهم دوماً؛ خشية اتصاهاهم بعدوه الألد (الموفق)، وحرصاً على إفشال المؤامرات، التى تُحاك ضده؛ لإقصائه عن حكم مصر. ومن هنا، فقد وردت ثلاث وقائع^(٤) تنيد شك ابن طولون فى إخلاص يوسف له؛ مما يدفعه إلى حبسه فترات، تتراوح بين الطول والقصر، بتهمة تلقى كتب من الموفق، أو إرسال كتب إليه، تكون بمخزلة التجسس على ابن طولون ودولته لصالح العباسيين. ولولا شفاعة الشافعين، ما أفرج ابن طولون عنه من محبسه، وما استنشق يوسف نسيمات الحرية من جديد، خاصة عندما بلغت ابن طولون - فى الحادثة الثالثة - كلمات ينتقده فيها يوسف على ما يبدو. والشئ العجيب الغريب أن ابن طولون أرسل جنده؛ للهجوم على دار يوسف بن إبراهيم فى الساعة التى توفى فيها (آخر سنة ٢٦٥هـ)^(٥)،

(١) ولى (مزاحم بن خاقان) صلاة مصر من قبل الخليفة العباسى (المعتز بالله) فى الثالث من ربيع الأول سنة ٢٥٣هـ، ثم مرض واستخلف ابنه (أحمد)، حتى وافته المنية ليلة الاثنين فى الخامس من المحرم سنة ٢٥٤هـ. (كتاب الولاة للكندى، ط. جست) ص ٢٠٨ - ٢١١.

(٢) المكافأة (ط. أحمد أمين) ص ١٩٣.

(٣) من ذلك ما حدث به يوسف بن إبراهيم أحمد بن طولون عن أنوشروان كسرى فارس بقوله: "الملك المتكمن من نفسه لا يغضب سريماً، ولا يرضى سريماً؛ لأن ذلك من أخلاق النساء، ومن قارهن". وقد جرّ هذا القول على يوسف شراً؛ إذ أطال ابن طولون حبسه، وأخر رضاه وصفحه عنه؛ تحقيقاً لهذه الحكمة. (سيرة أحمد بن طولون، للبلوى) ص ١٦٧.

(٤) راجع تفاصيل هذه الوقائع - على الترتيب - فى: (المصدر السابق ص ٢٢١ - ٢٢٢). و(المكافأة لابن الداية - ط. أحمد أمين - ص ٤٨ - ٥٠، وسيرة أحمد بن طولون للبلوى ص ٢٣٧ - ٢٣٩، ومعجم الأدباء ١٥٥/٥ - ١٥٧). و(سيرة أحمد بن طولون فى كتاب المغرب لابن سعيد، لابن الداية ص ١١٥، وسيرة أحمد بن طولون للبلوى ١٦٥ - ١٦٨).

(٥) هذا هو التاريخ الذى ترجمه لوفاته، فيكون عمره قد تجاوز الثمانين. وقد تخطط الباحثون فى تحديد تاريخ وفاته ما بين سنة ٢٦٠هـ (تعلق روزنثال فى: علم التاريخ عند المسلمين هامش ص ٥٤٨، ومقال كساب (المكافأة)، -

وأخذوا ما في الدار من كتب؛ ظانين أن من بينها كتاباً من بغداد يُدين يوسف (حتى بعد موته)، وحملوا صندوقين كبيرين من الكتب، وقبضوا على أحمد بن يوسف، وأخيه (لعله الحسن)، وقدموا على ابن طولون. وثبتت براءة يوسف بعد موته، بل ظهرت أمارات إحسانه إلى العلويين في مصر، فتم الإفراج عن ولديه، ولحقا بمجازاة والدهما^(١).

(٧) تراثه الفكري والعلمي (مؤلفاته، وتلاميذه):

استطاع يوسف بن إبراهيم أن يكونَ حصيلة علمية كبيرة من خلال مجالسته العلماء ومناقشتهم، وروايته عنهم، وتعدد نواحي اهتمامه، وتشعب جوانب ثقافته. ومن الطبيعي أن يسفر ذلك الجمع الهائل من الروايات عن مؤلفات كثيرة، أبدعتها قريحته، خاصة بعد أن استقرت أموره في مصر، وتيسرت أحواله، فقام بالنظر في مُسوّداته والإضافة إليها، وتَهدّيها وتَقيحها، حتى خرجت في صورة مؤلفات قيمة في موضوعات شتى، يغلب عليها الطابع التاريخي^(٢). وإذا كانت الأيام لم تحفظ لنا شيئاً من مؤلفاته، فإنها ضُتّت علينا - كذلك - بذكر أكثر تلاميذه^(٣)، لكن الشيء اليقيني هو أن كتبه استفادت منها الأجيال، وتلقت عليها مئات التلاميذ، ولازلنا ننظر بإعجاب إلى بقاياها حتى اليوم.

من مؤلفات (يوسف بن إبراهيم):

١- كتاب (أخبار أبي تُوّاس، والمختار من شعره)^(٤).

- للدكتور سليمان العطار، المجلد الخامس عشر، العدد الثالث - مجلة عالم الفكر ١٩٨٤م، ص١٨٤، وبحوث في الأدب العباسي للدكتور شعبان مرسى ص٢٣٥. ورأى البعض أنه توفي في عهد ابن طولون دون تحديد (٢٥٤ - ٢٧٠ هـ). (دراسة المحقق الدكتور عمر المالكي لكتاب (الفلسفة السياسية عند العرب، لابن الداية) ص٢٦. وحلّد الباحث سيد محمد قطب وفاة يوسف في سنة ٢٦٣هـ تقريباً (ماجستير ص٢١). والحق أن هؤلاء جانبهم الصواب، وأقرهم إليه الباحث سيد محمد قطب، لكنه ظن أن صدام ابن طولون مع يوسف بخصوص واقعة كتاب (موسى بن نُفاعة)، وهي الواقعة الأولى، ظنها آخر العهد به قبل وفاته. والصحيح أن واقعة الصدام الثالثة حدثت بعد ذلك، وطال حبس ابن طولون له بسببها، وامتد حتى قرب نهاية سنة ٢٦٤هـ، ثم توجه إلى الحج، وبعده إلى بغداد، ولقي الموفق، وتوجه إلى سامراء، حيث أحضر أهله، الذين كانوا يزورون بلعم. ثم عاد إلى مصر، فأقام بها، حتى أدركه الوفاة في العام الذي أرحجه (٢٦٥هـ). وأصاب كحالة لما حدده كذلك (معجم المؤلفين ١٣٩/٤).

(١) المكافأة لابن الداية (ط. أحمد أمين) ص٨٨-٨٩، ومعجم الأدباء ١٥٨/٥ - ١٥٩.

(٢) يرى سيد محمد السيد قطب في ماجستير ص٢٣-٢٤: أن مؤلفات يوسف ليست تأريخاً بالمعنى الدقيق، بل هي مرحلة أولى لكتابة التاريخ؛ لجمعه فيها بين التاريخ والقصص، فهو - إذن - أديب أكثر منه مؤرخاً. وأعتقد أن هذا الكلام لا يصدق على يوسف بن إبراهيم، على الأقل في بقايا كتابه: (أخبار الأطباء)، الذي سوف نرى من خلال عناصر منهجه فيه أنه مؤرخ حقاً، لا مجرد قصاص أو أديب، وإن كان يمتلك لغة أدبية راقية.

(٣) من البدهي ألا نجد تلاميذ كثيرين ليوسف وهو في مرحلة الطلب، بل نجد أساتذته كثيرين له، يروي عنهم مروياته. وعلى كل، نتيجة طول ملازمته بمجالس العلم كان يحصل على معلومات تفوت بعض أساتذته، فيسألونه عنها، فيرويها لهم، كما هو الحال مع الطبيب بَحْتِشُوع بن جبرائيل (طبقات ابن أبي أصيبعة ١٩١)، وابن المهدي (السابق ٢١٩).

(٤) ورد ذكره في (المهرست، ط. طهران) لابن النعم ص١٨٢، والوفاة بالوفيات ٢٨٢/٨، وماجستير سيد محمد قطب ص٢٢. وورد اسمه معرّفاً في (معجم الأدباء)، فسمي يوسف (الراوى أخبار أبي تُوّاس) ١٥٤/٥.

٢- كتاب (أخبار إبراهيم بن المهدي)^(١).

٣- كتاب (أخبار الأطباء)^(٢).

٤- كتاب (أخبار المنجمين)^(٣).

٥- كتاب (الطبيب)^(٤).

(٨) عناصر منهج (يوسف بن إبراهيم) التاريخي من خلال أكبر بقايا كتبه (أخبار الأطباء):

١- القدرة على العرض الشامل للموضوعات التي يتناولها^(٥).

٢- دقته في اختيار موارده^(٦).

٣- العرض التاريخي الواضح المتميز مع تعريفه بموارده^(٧).

٤- الدقة والتحصيص في انتقاء الروايات التاريخية^(٨).

٥- البراعة في تصوير الأحداث التاريخية المصاحبة لتراجم أطباء عصره^(٩).

(١) ورد ذكره في: المكافأة لابن الداية (ط. أحمد أمين) ص ٢٠٤-٢٠٥، وكشف الظنون ٢٥/١، وهدية العارفين ٢/٥٤٩، ومعجم المؤلفين ١٣٩/٤، والأعلام ٢١٢/٨، وكنوز الأجداد ١٢٥. ونسبه ياقوت إلى (أحمد بن يوسف) خطأ في (معجم الأدباء) ١٦٠/٥، وشارك مصطفى في (التاريخ العربي والمؤرخين ١٨٥/٢). وكثير من مادته عن (الغنين) في (الأغان) ٣٥٣/٢، ٣٦٠/٤، ٣٦٢، ١٧٣/١٠.

(٢) ورد ذكره بعنواني مقارنة في: مروج الذهب مجلد ٢ ص ٤٢٠، وكشف الظنون ٢٥/١، وهدية العارفين ٢/٥٤٩، والأعلام ٢١٢/٨، ومعجم المؤلفين ١٣٩/٤. نسبه د. شاعر مصطفى إلى ابنه أحمد خطأ. (التاريخ العربي والمؤرخون ١٨٥/٢). وتوجد روايات كثيرة من بقاياه في: (تاريخ الحكماء) للقفطي ١٣٥-١٤٠، وطبقات ابن أبي أصيبعة ص ١١٧-١٢١، ١٩٠-١٩١، ١٩٥-١٩٨، ٢١٦-٢١٨، وغيرها كثير.

(٣) كان ليوسف بن إبراهيم اهتمام كبير بالتنجيم، وكان له مرصد بمصر، أمر غلامه أن يرصد بالإسطرلاب دخول ابن طولون مساكن فسطاط مصر، وتنبأ من معرفة طالعه بأنه سيملك مصر هو وولده. (سيرة ابن طولون لابن الداية في كتاب المغرب لابن سعيد) ص ٧٧. وورد أنه كان يدرس التنجيم وهو في سجن ابن طولون (سيرة ابن طولون للبلاوي ١٦). ونسب له حاج خفيفة كتابا فيه (كشف الظنون) ٣٠/١. وكالعادة أخطأ البعض، فنسبه إلى ابنه أحمد (معجم الأدباء ١٦٠/٥، والواق بالوفيات ٢٨٣/٨، وهدية العارفين ٢٠٧/٢، والأعلام ٢٧٢/١، وريحانة الأدب ٥١٤/٧). والكتاب لم نجد شيئا من بقاياه.

(٤) نسبه أحمد إلى والده صراحة في (المكافأة، ط. أحمد أمين) ص ٢٠٤. ونسبه الصفدي إلى أحمد في (الواق بالوفيات) ٢٨٣/٨، ومن قبله وقع في الخطأ نفسه ياقوت في (معجم الأدباء) ١٦٠/٥. ولا نعرف شيئا عن هذا الكتاب المفقود، وأرجح أنه مكمل لكتابه عن الأطباء، وأنه يهتم بموضوعات الأطعمة الصحية، وطرق الطهي الخاصة بها؛ نتيجة خبرته الكبيرة، وبجاسته الطويلة للأطباء، وتجربته من قبل في متابعة طعام أبي دلف المعلى.

(٥) طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ص ٢٣٣-٢٤٢، ٢٤٩-٢٥٢، وغيرها.

(٦) السابق: ٢١٦-٢١٨.

(٧) السابق: ٢٢٢-٢٢٣، ٢٣٣.

(٨) السابق: ٢١٩-٢٢٠، ٢٢٧-٢٢٨.

(٩) السابق: ص ١٩٤-١٩٦، ٢١٦-٢١٧، ٢٢٤-٢٢٥، ٢٣٦-٢٣٧.

- ٦- طريقته في ترتيب عناصر تراجمه للأطباء^(١).
 - ٧- قدرته الفائقة - النابعة من ثقافته التاريخية العريضة - على الربط بين الأحداث التاريخية، وقياس بعضها على بعض^(٢).
 - ٨- استعراضه ثقافته الجغرافية بذكر متغيرات أسماء الأماكن الواردة في الحدث التاريخي^(٣).
 - ٩- حضور شخصيته، وتفاعله مع الحدث (تعليلاً، وتعليقاً)^(٤).
 - ١٠- حرصه على رصد الظواهر الحضارية لعصره^(٥).
- (٩) وأخيراً - سمات يوسف بن إبراهيم الشخصية (من واقع حياته، وبقايا مؤلفاته):
- ١- جوده وإحسانه، ومروءته^(٦).
 - ٢- طبيعته الهادئة المومنة^(٧).
 - ٣- حبه الشديد للعلم (تمثل في ثقافته الموسوعية: أدب، وطب، وحساب، وتنجيم، وفلسفة، وتاريخ)^(٨).
 - ٤- عقلية المستنيرة المتفتحة (تساؤلاته، ومناقشاته، وحواره العلمي الجاد)^(٩).
 - ٥- إخلاصه، وفطنته، وحكمته^(١٠).
 - ٦- صدقه، وأمانته العلمية^(١١).
 - ٧- تصرفاته الحازمة، ودقته البالغة^(١٢).
 - ٨- قبوله النصيحة الخالصة الواعية^(١٣).
 - ٩- حبه للحق والصدق، ودفاعه عن المغمورين من ذوى الحرف والصناعات^(١٤).

(١) السابق: ص ١٩٠، ٢١٦، ٢٩٩ - ٣٣٠ وما بعدها.

(٢) السابق: ٢٣٠ - ٢٣٢، ٢٤٧ وما بعدها.

(٣) طبقات الأطباء لابن أصبغة: ٢٣٥.

(٤) السابق: ٢٣٧ - ٢٣٨، ٢٤٥ - ٢٤٦.

(٥) السابق: ٢٢٠، ٢٤٧، وما بعدها.

(٦) معجم الأدياء ١٥٥/٥، ومختصر تاريخ دمشق ٦٨/٢٨، والوقاي بالوفيات ٢٨٢/٨.

(٧) المكافأة لابن الداية (ط. أحمد أمين) ص ١٩٣، ومختصر تاريخ دمشق ٦٨/٢٨.

(٨) تاريخ الحكماء للنفطى ص ٢١٩، وطبقات ابن أبي أصبغة ص ١٩٢ - ١٩٣، ١٩٥ - ١٩٦، ١٩٩ - ٢٠٠.

(٩) ٢٢٢، ٢٤٠ - ٢٤١.

(١٠) تاريخ الحكماء للنفطى ١٣٥ - ١٤٠، ١٤٥ - ١٤٦، وطبقات الأطباء ص ١١٧، ١٩٠ - ١٩١، ١٩٣ - ١٩٤.

(١١) ٢٤٠ - ٢٤٢.

(١٢) المصدر السابق: ٢١٦، ٢٥٦.

(١٣) السابق: ٢١٩. (١٤) طبقات الأطباء: ٢٣٩.

(١٤) السابق: ٢٤٥ - ٢٤٦، ٢٥٧ - ٢٥٩.

(المؤرخ المصرى أحمد بن يوسف بن إبراهيم المعروف بابن الداية)

(٢٤٥ - ٣٤٠هـ)

أما قبل:

فإننا قبل أن نتعرض لترجمة هذا المؤرخ المثقف الواعى، نشير إلى ندرة المعلومات الواردة عنه في كتب التراجم، وتكرارها عن طريق نقل المصادر بعضها عن بعض، واجترار المراجع هذه الترجمة، مكتفياً أصحابها بتريديد ما تقدم من معلومات.

تعلييل ندرة تراجم (أحمد بن يوسف):

١- على الرغم مما يتمتع به (أحمد بن يوسف) من ثقافات ومعارف متنوعة، كما سنرى فيما بعد، إلا أنه لم يحظ - مثلاً - بالمكانة السامية، والاهتمام الكبير، ولم تُسلط عليه أضواء المترجمين، كما سُلطت على سَمِيهِ (أحمد بن يوسف كاتب المأمون)^(١)، رغم أن الثروة العلمية لمؤرخنا المصرى تفوق بكثير جداً تلك التوقعات والعبارة الجميلة المنتثرة هنا وهناك، منسوبة إلى كاتب المأمون. ولعل مرد ذلك أن الأضواء تسلط - عادة - على كُتّاب العاصمة (بغداد)، حيث الشهرة العارمة، والقرب من بلاط الخلافة. أما مصر التى ينتمى إليها أحمد بن يوسف مؤرخنا، فهى مجرد ولاية تابعة لولايات الخلافة العباسية، فلا يهتم بها كثيراً مؤلفو الطبقات والتراجم.

٢- أن (أحمد بن يوسف المصرى) عاصر الدولة الطولونية، وعمل كاتباً بدواوينها بعد أن أوشك نجمها على الأفول، فهو يعد من رجالها. ومعلوم أن صراعاً مريعاً استمر طوال حكم (أحمد بن طولون)، ثم فترة من عهد ابنه (خُصَمَارَوَيْهِ) مع الموفق (أخى الخليفة المعتمد)، ثم مع ابنه (المعتضد). فالطولونيون يُنظر إليهم على أنهم خارجون على الخلافة، معادون لها؛ ومن ثم يتم تجاهل مؤرخيهم، وعلمائهم، وكتّابهم^(٢).

٣- لم يكن أحمد بن يوسف المصرى من حيث السن أو الخبرة على درجة تمكنه من الاتصال بابن طولون، ولا ابنه خمارويه، أو على الأقل لم ننظر بما يفيد مشاركته في أحداث دولة بنى

(١) هو أبو جعفر أحمد بن يوسف بن القاسم بن صَبِيح الكاتب الكوفي. كان والده كاتباً لبني أمية في ديوان الكوفة، ثم كتب لعبد الله بن علي عم المنصور. قدمه طاهر بن الحسين إلى المأمون؛ لفصاحته وبلاغته (كاتب شاعر). ولى ديوان الرسائل للمأمون، وصار وزيراً له بعد (أحمد بن أبى خالد). أخوه القاسم شاعر أيضاً، وأولادهما جميعاً أهل أدب وبلاغة. توفى أحمد سنة ٢١٣هـ. (كتاب بغداد لطيفور ١٢٨-١٣٢، والفهرست (ط. طهران) لابن النديم ص ١٣٥-١٣٦، ١٤٠، ١٨٨، وتاريخ بغداد ٢١٦/٥-٢١٨، ومعجم الأدباء ١٦١/٥-١٨٣، والوفاء بالوفيات ٢٧٩/٨-٢٨٢، وتهذيب تاريخ دمشق ١٢٤/٢-١٢٧). ويلاحظ أن العالمى فرّق بين ثلاثة علماء، يُسمّون (أحمد بن يوسف)، منهم مؤرخنا (أعيان الشيعة ٢٠٦/٣-٢١٥).

(٢) كنوز الأعداد ص ١٢٨.

طولون (ولو على عهد حمارويه). ومن هنا ضاعت عليه فرصة ذهبية للذبوع والاشتهار في العهد الذهبي لتلك الدولة (عهد ابن طولون). وأعتقد أن مؤلفاته (التاريخية) ظهرت بعد نكبة الطولونيين، وتغية آثارهم؛ مما جعلها في منطقة الظل، وطمس كثيراً من شهرته.

٤- لم يبق من كتب ابن الداية وأشعاره إلا أقل القليل. فبخصوص شعره لم تحتفظ لنا المصادر إلا بأبيات قليلة متناثرة، ترتبط بمناسبات معينة^(١)، فلو كان من الشعراء المادحين الكبار، لطبقت شهرته الآفاق.

٥- وأما مؤلفاته في المنطق والفلسفة، والفلك، والرياضيات، فهي مفقودة في معظمها، ولم يظهر الاهتمام بتراجم هؤلاء إلا متأخراً^(٢). وفي مجال (القصص) بقى كتابه (المكافأة)، وهو يغلب عليه الطابع الأدبي، وله طابع أخلاقي تربوي، واتخذ من التواريخ مادة له. وجانب مما به من أحداث التاريخ، إلى جانب ما كتبه عن (سيرة ابن طولون) يدخل في إطار (التاريخ المحلي)، وهو دون كتب التاريخ العام في الاهتمام بمؤلفه.

٦- وينضاف إلى ما تقدم عدم اشتها (أحمد بن يوسف) محدثاً، ولا مفسراً، ولا فقيهاً، ولا قارئاً، كما هو معتاد في ثقافات وعلوم المؤرخين الآخرين في تلك الفترة، حتى تفتن به كتب تراجم هؤلاء المهتمين بتلك العلوم. فمؤرخنا ابن الداية له ثقافة متميزة، فهو فيلسوف ومنطقي، ورجل علم طبيعي رياضي، يغذى بتلك العلوم موهبته التاريخية وحاسته الأدبية، ويستمد - إلى جانب ذلك كله - روافده التاريخية من مخالطته رجل الشارع العادي، وتعامله مع طبقات المجتمع على اختلاف درجاتها ونوعياتها بحكم عمله في إدارة المزارع، والإشراف على الضياع، كما سنرى بعد، وهو ما لم يفتن إليه مؤلفو التراجم في مؤلفاتهم^(٣).

٧- وأخيراً، فلعل مؤرخنا (ابن الداية) حظى من مؤلفي التواريخ والتراجم المصريين بالاهتمام الذي يستحقه، لكن نظراً لفقد هذه الكتب - كتب ابن يونس^(٤)، والكندى^(٥)،

(١) المكافأة (ط. أحمد أمين) ص ٣٩ (أورد أربعة أبيات من الشعر، قالها مدحاً لمجموعة من الحراس، الذين حَمَوْه من قطاع الطرق).

(٢) كما ورد في الفهرست - ط. طهران لابن النديم ص ٣٢٨، قال: (أحمد بن يوسف المصري مفسر كتاب الشعر لطلسموس). وكذا في (طبقات الأمم) لصاعد الأندلسي ص ٥٧، واكتفى بقوله: (صاحب شرح الشعر لطلسموس).

(٣) فعلمهم نظروا إليه كرجل أعمال، يتابع الأرض، ويستغل محاصيلها، وينشغل بتميرها؛ للوفاء بمخارجها، وعدم التعرض للمصادرة والخبس والمهلك، فلمله غلبت عليه صفة (رجل الأعمال)، لا (العالم المؤلف المؤرخ). ونظراً لعدم اهتمام رجال التراجم بطبقات التجار والمزارعين والمُتَقَلِّين، ممن نُسب إليهم (أحمد بن يوسف بن الداية)، فقد تعرضت ترجمته للإهمال أيضاً.

(٤) هو صاحب (تاريخ المصريين)، ويتناول أعلام مصر، وعلماءها.

(٥) وله كتاب (أعيان الموالى في مصر)، وهو مفقود.

وابن زولاق^(١) - حُرِّمْنَا المعلومات الكافية الوافية، التي تعطينا ترجمة مفصلة واضحة لهذا المؤرخ الكفء المبدع في مجال التأليف التاريخي.

الملاحم العامة لحياة (أحمد بن يوسف المؤرخ):*

يمكن تلخيص حياة ابن الداية في المعادلة المركبة الآتية:

نشأته وتكوينه متأثراً بوالده يوسف + حصيلة علمية موسوعية اكتسبها من مصادر متنوعة + شبكة علاقاته السياسية + شبكة علاقاته الاقتصادية + علاقاته وخبراته الاجتماعية = إنجازاته العلمية والفكرية الذي أبدعه على مَرَّ سِنِي عمره الطويلة المباركة، التي انتهت سنة ٣٤٠ هـ^(٢).

والآن، مع تفاصيل المعادلة الحياتية السابقة:

أولاً - نشأته وتكوينه:

١- هو أبو جعفر أحمد بن يوسف بن إبراهيم الكاتب والمؤرخ المصري المعروف بـ (ابن

(١) احتفظ لنا ياقوت في (معجم الأديباء) جـ ص ١٦٠ بمادة طيبة في ترجمة (أحمد بن يوسف)، نقلاً عن (ابن زولاق)، فقلعه من كتابه المفقود عن (تاريخ مصر).

(*) تُرجِّمُ له في: الفهرست (ط. طهران) لابن الدم ص ٣٢٨، ومعجم الأديباء ١٥٤/٥ - ١٦٠ (رقم ٣٥)، وتاريخ الحكماء للقفطي ص ٧٨، والواري بالوفيات ٢٨٢/٨ - ٢٨٣ (رقم ٣٧٠٤)، ومخطوط (عيون التواريخ) للكني (مصور عن الظاهرية، وفيات ٣٣٠ هـ) ورقة ٦٧، وكشف الظنون ١/٦٦٧، ١٠١٥/٢، ومعجم المطبوعات العربية والمصرية، ليوسف سر كس ٢٨٨/١ - ٢٨٩، وريحانة الأدب لميرزا محمد علي مدرس ٥١٤/٧ - ٥١٥، وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان (ط. دار المعارف) ٧٩/٣ - ٨١ (رقم ٣)، ومعجم المؤلفين (ط. مؤسسة الرسالة) ٣٢٦/١، والأعلام للزركلي ١/٢٧٢، وأعيان الشيعة للعائلي ٢/٦٦٤، ٢٠٦/٣ - ٢٠٧.

(٢) بالنسبة لتاريخ وفاته، فهو يتراوح بين ٣٣٠ - ٣٤٠ هـ. وأعتقد أن أساس ما ورد من آراء الباحثين هذا الصدد، يرجع إلى نص ياقوت في (معجم الأديباء) ١٥٩/٥، فيما ينقله عن أبي جعفر (علله الطبري في كتاب ترجمه المفقود المسمى: ذيل المذيل): "توفى سنة ثيف وثلاثين وثلاثمائة، وأظنها سنة ٣٤٠". فالبعض أخذ العبارة من طرفيها، وجعل تاريخ وفاة أحمد بن ٣٣٠ - ٣٤٠ (د. عمر المالكى محقق الفلسفة السياسية عند العرب لابن الداية في مقدمته ص ٢٦)، والبعض حدد الوفاة بسنة ٣٣٠ هـ، ولم يلاحظ مدلول كلمة (ثيف في النص). (معجم المطبوعات العربية ٢٨٨/١ كأحد احتماليين، وكوز الأجداد ١٢٥، وهامش ص ٥٤٨ بكتاب الإعلان للسخاوي تحقيق: روزنثال). واكتفى البعض بعبارة ياقوت: (ثيف وثلاثين وثلاثمائة) دون تحديد: (الواري بالوفيات ٢٨٢/٨)، وكرد على في مقاله بمجلة الرسالة ع ٢١٨ ص ١٤٥٢، والعائلي في (أعيان الشيعة ٢/٢٠٦). وجعلها البعض سنة ٣٣٤ هـ (ربما لم ينظروا إلى معنى الثيف أنه بين العقدين من واحد إلى ثلاثة، فحعلوه إلى أربعة). (كشف الظنون ١/٦٦٧، ١٠١٥/٢، ومعجم المؤلفين ٣٢٦/١، وريحانة الأدب ٥١٤/٧). وحدد آخرون تاريخ الوفاة بسنة ٣٣٩ هـ (ربما لم ينظروا إلى المعنى الآخر للثيف، وأنه بين العقدين، حتى تصل إلى العقد الآخر، فوقفوا عند ٣٣٩ هـ). وانفرد بذلك (محقق المغرب - قسم مصر)، صفحة ٣٧، ورجحت تاريخ ٣٤٠ هـ؛ لاتفاقه مع معنى من معاني الثيف اللغوية، ولترجيح ياقوت له، وإن عثر عنه بالظن الذي يفيد اليقين. (راجع مادة ن.و.ف في (اللسان) ٥٧٩/٦ - ٥٨٠، ومادة ظ.ن.و. ٤/٢٧٦٢ - ٢٧٦٣). وهو يقين تدنر لا يقين عيان، الذي يقال فيه: علم. ويمكن مراجعة مادة الظن بمعنى: اليقين في القرآن الكريم (آية ٢٢ سورة يونس)، وتفسير ابن كثير لها (٤١٢/٢)، وكذلك الآية ٥٣ بسورة الكهف، وتفسير ابن كثير لها (٩٠/٣)، وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان (ط. دار المعارف) ٧٩/٣، والأعلام للزركلي ١/٢٧٢.

الداية). قدم أبوه يوسف إلى مصر حوالي ٢٢٦هـ، وظل مقيماً بها، مستوطناً إياها حتى وفاته أواخر سنة ٢٦٥هـ. ورزق يوسف بابنه (أحمد) حوالي سنة ٢٤٥هـ^(١). وبناء عليه، فالمؤرخ (أحمد بن يوسف) مصرى المولد والمربي والنشأة. ومن البدهى أن يعايش أحمد الجو العلمي الذي عايشه أبوه، فثرتب نفسه إلى حب العلم والثقافة (وعلى الأخص التاريخ)، وأن يتأثر بوالده تأثراً كبيراً في حضور مجالس العلماء، وتحصيل العلوم المختلفة، والاتصاف بالثقافة الموسوعية العريضة.

٢- تأثر أحمد بمهنة والده في تنمية الأموال وتثمينها، واستغلال المزارع وإدارة الضياع والإشراف عليها، فواصل العمل في المجال نفسه بعد وفاة والده. وقد علمنا أن والده كان حذراً بعيداً عن لعبة السياسة، ومؤامراتها ودسائسها ومخاطرها، ومع ذلك لم يسلم من اضطهاد ابن طولون وشكوكه وحبه. وكان يوسف غير متطلع إلى نفوذ، ولا طامح إلى منصب، بل كان على حد تعبير أحد الباحثين: يعيش على حرف، يحاول أن ينحو بسفينة حياته من الفرق في بحر الفوضى في العصر العباسي الثاني، الذي كثر فيه تغيير الولاة، وتبديل الجباة، وشاع فيه التمرد، كما شاع فيه قطع الطرق^(٢). لقد سار أحمد على النهج نفسه، ونجح في التأني بنفسه عن المخاطر ما أمكن، وإن كان ذلك لم يمنعه من اكتساب منزلة اجتماعية وعلمية طيبة من خلال علاقاته برجالات عصره.

ثانياً - مصادر ثقافته:

تعددت مصادر المعرفة التي نقل عنها (أحمد بن يوسف) ثقافته، وتنوعت بتنوع صلاته. وسوف أكتفي بالإشارة إلى عدد من أساتذته، الذين نقل عنهم علمه بـ (الفلسفة، والتنجيم،

(١) بالنسبة لتاريخ ميلاد (أحمد بن يوسف) لم تشر إليه المصادر، ولم نجد سوى استنتاجات بعض المحدثين، فمثلاً: ذكر روزنثال أن أحمد بن يوسف ولد قبل سنة ٢٦٠هـ (وهي السنة التي حدها لوفاة والده يوسف). (هامش ص ٥٤٨ من كتاب (الإعلان) للسخاوي، والمطبوع مع مجلد (علم التاريخ عند المسلمين). ولا شك أن هذا كلام غير محدد، وبصدق على أية سنة قبل ٢٦٠هـ. ونحن نعتذر روزنثال في عدم بحثه الأمر بدقة، فقد ذكر تلك المعلومة وهو في معرض التعليق على اسم يعقوب (أحمد بن أبي يعقوب) وفي محاولة لفض الاشتباك (التداخل) بين اسمه واسم (أحمد بن يوسف)، الذي يكنى والده بأبي يعقوب أيضاً). وهو تعليق، على كل حال، ألقى الضوء على وجود علاقة بين يعقوب، وأحمد بن يوسف المؤرخ. أما الدكتور سليمان العطار، فذكر في بحثه، ع ١٥، (علم الفكر) مجلد ١٥، ع ٣، ١٩٨٤م (ص ١٨٤): أن ميلاد أحمد بن يوسف سنة ٢٤٠هـ، ووفاته ٣٤٠هـ. واعتقد أن تاريخ ميلاده غير دقيق، ولا اشتهرت ترجمته ضمن المعثرين قرناً كاملاً من الزمان. ويرى سيد محمد قطب في (ماحستره ص ٢٦): أنه ولد بين سنتي: ٢٤٠ - ٢٤٥هـ، ثم رجح الأخيرة. وقد احترقاً أنا كذلك، فعمره عند وفاة والده يكون عشرين عاماً، وهي كافية لاستدعائه، والتحقيق معه أمام ابن طولون لحظة وفاة والده، وكافية - كذلك - للاعتماد على نفسه؛ لمواصلة رسالة والده.

(٢) مقال د. العطار في (مجلة عالم الفكر) ص ١٨٥.

والحساب)، وغير ذلك من العلوم، التي يأتي على رأسها علم التاريخ، على اعتبار أنه أبرز مظاهر ثقافته، وعلى أساس أن التاريخ جزء مهم وجوهري في ثقافة رجل، كان يعمل كاتباً في دواوين الطولونيين^(١)، وما بقى من آثاره التاريخية يمثل خلاصة وعصاره فكره، الذي امتزجت فيه كل هذه العلوم.

يمكن تحديد عدد من أساتيزه، الذين كانوا مصادر معرفته في مختلف العلوم على النحو الآتي:

أ- من أفراد أسرته، وأقاربه: والده (يوسف بن إبراهيم)^(٢)، وعمه (إسحاق بن إبراهيم)^(٣).

ب- مؤرخون: نقل (أحمد بن يوسف) صراحة عن المؤرخ اليعقوبي^(٤) (أحمد بن أبي

(١) حول أهمية التاريخ في ثقافة الكاتب راجع: (صبح الأعشى ٤١١/١ - ٤١٢).

(٢) المكافأة ص ٢٥ - ٢٨، ٢٨، ٩٨، ١٤٥، ١٤٧، ١٩٠.

(٣) المكافأة ص ٢٠ (له صلة بالوزير الواسطي)، وسيرة ابن الداية في (المغرب - قسم مصر) ص ١٠٥ - ١٠٦، ١١٩ - ١٢٠، ١٢٧ - ١٢٩ (وفيها تبين امتداد عمره، إلى ما بعد وفاة ابن طولون ٢٧٠هـ)، وسيرة ابن طولون للبلبي ٣١٩ - ٣٢٠.

(٤) هو أحمد بن أبي يعقوب، إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح الأخباري العباسي. توفي سنة ٢٨٤هـ، وترك لنا عدة مؤلفات، منها: التاريخ، والبلدان، ومشكلة الناس لزمامهم. (معجم الأدباء ١٥٣/٥ - ١٥٤). وحول مقامه في مصر، وتاريخ وفاته؛ من أجل التحقق من صلته بابن الداية المؤرخ المصري نذكر ما يلي:

أ- ذكر المسعودي في مقدمة كتابه: (مروج الذهب ج ١ ص ١٤) ضمن مصادره التي رجع إليها (كتاب التاريخ)، تأليف: أحمد بن يعقوب المصري، وجعله في أخبار العباسيين وغيرهم. وهنا نلاحظ تلقيه اليعقوبي بلقب (المصري)؛ مما يفيد إقامته في مصر فترة كافية، جعلته أهلاً للنسبة إليها. ويلاحظ أن السخاوي نقل عن المسعودي هذا النص في كتابه: (الإعلان)، نشر روزنثال ص ٥٤٧ - ٥٤٨، وضم إلى اليعقوبي - نقلاً عن المسعودي أيضاً - مؤرخاً آخر كتب في الموضوع نفسه. لكن المحقق عرض النص على فقرتين، فجعل العبارة كأنها عبارتان، والمؤرخين كأنهما ثلاثة، فبدأ النص غامضاً. ولم يعلق على ذلك، أو بصوبه المترجم.

ب- في آخر كتاب (البلدان) لليعقوبي، وردت له أبيات شعر في رثاء الطولونيين، بعدما تذكر ما كانوا عليه من أجماد، ومظاهر احتفال من ملابس وأزياء وأعلام وطبول ليلة عيد الفطر، تذكر ذلك كله سنة ٢٩٢هـ (ذكرت معرفة ٣٩٣هـ). وهذا يعني أنه كان في مصر تلك الفترة، ولعله مات بعد سنة ٢٩٢هـ بقليل، وأقام في مصر أواخر سني حياته. ويدعم هذا ما ورد في آخر كتابه: (مشكلة الناس لزمامهم - تحقيق: د. محمد كمال عز الدين) ص ٤٦، من أحداث تتصل بعهد المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩هـ)؛ مما يشير إلى رحيله بعد ذلك إلى مصر، وإقامته بها ولقائه بابن الداية، وينتهي خالص الأشعب في كتابه: (اليعقوبي) ص ١٠ - ١١، إلى خطأ القول بوفاته سنة ٢٨٤هـ، ورجح وفاته بعد سنة ٢٩٢هـ. ويؤكد صحة ذلك القول وصدق نسبة نص كتاب (البلدان) إلى اليعقوبي، أن ألفيت المقرئ - وهو الثب المصدق - ينقل هذا النص في كتابه: (الخطوط) ١/ ٣٢٦ بتاريخ ٢٩٢ هـ، وإن حرق الناصح اسم اليعقوبي من (أحمد) إلى (محمد).

ج- لازلنا في حاجة لمعرفة تاريخ حياة اليعقوبي، وملابسات قدومه إلى مصر، وتاريخ ذلك من خلال مادة جديدة في المصادر؛ لأن المراجع تتناقل عن بعضها أحداثاً تتوارخ ليست صحيحة، أو معلومات لا ندرى مصدرها (راجع: -

يعقوب، عن أبيه) بعض الروايات، وأحياناً كان ينقل عنه، عن أبيه، عن جده واضح. ويبدو أن البيهقي نزل مصر، وأقام بها فترة؛ جالساً خلالها مؤرخنا، ونقل عنه بعض المعلومات التاريخية، أورد منها ما يتناسب مع موضوع كتابه^(١)، والظاهر أن مؤرخنا (ابن الداية) طالع بعض مؤلفات تاريخية لغير المصريين، مثل: الهيثم بن عدي^(٢) (ت ٢٠٧هـ)، والزبير بن بكار^(٣) (ت ٢٥٦هـ)، فنقل عنها؛ إذ إنه لم يعاصر أولهما، ويُستبعد لقاءه بثنائهما.

ج- كبار رجال دولة بني طولون: وهؤلاء منهم: الكتّاب، والقواد، وصاحب الشرطة، ومتولى شئون السجن، وغيرهم. ولا شك أن اتصالاته هؤلاء الرجال كانت بعد وفاة والده، ونضج خبراته وشخصيته، وبروز مكانته. ومن أمثلة أولئك: ربيعة بن أحمد بن طولون^(٤)، والكتّاب والوزير أحمد بن محمد الواسطي^(٥)، والكتّاب هارون بن مئول^(٦)، وأحمد بن أيمن^(٧)، والحسن بن رافع^(٨)، والحسن بن مهاجر^(٩)، وأبو جعفر بن عبد كان^(١٠)، ونسيم الخادم (أقرب الخدم لابن طولون)^(١١)، وأحمد بن دُعَيْم أحد قواد ابن طولون^(١٢)، ويعقوب بن صالح صاحب شرطة أسفل الأرض في مصر^(١٣)، وموسى بن مصلح صاحب السجن^(١٤).

د- علماء وفقهاء: ومن نقل عنهم أحمد بن يوسف: الفقيه الحنفي أحمد بن أبي عمران^(١٥)، والفقيه المحدث والمفسر المصري سعد بن عبد الله بن عبد الحكم^(١٦)، والفقيه الشافعي منصور بن إسماعيل^(١٧).

هـ- أطباء وفلاسفة: لعنه نقل عن الفيلسوف المشهور الفارابي لدى دخوله مصر^(١٨).

- تاريخ الأدب العربي لبروكلمان - ط. اذنية العامة في ٢ - ٦٤٣: جعله في مصر سنة ٢٧٨هـ، (وأحمد بن طولون)، للدكتورة سيدة كاشف ص ١٠ (ذكرت وفاته في مصر ٢٧٨هـ)، وذكره حجازي طراوة (حضارة مصر في العهد الطولوني) ص ٣١١ - ٣١٢: وذكر أن البيهقي ولد في مصر، وعاصر الحكم الطولوني، ومات بها).

(١) المكافأة (ط. أحمد أمين) ص ٧٤، ٩٦، ١٠٣، ١٢٨، ١٨٠، ٢١٥. وسيرة ابن الداية ١٢٢.

(٢) المكافأة ١٢٢. (٣) السابق ١٢٤.

(٤) المكافأة ١٨٢. (٥) السابق، وسيرة ابن الداية ٧٥، ١٢٧.

(٦) المكافأة ٨ - ١١، ٣٤، ١٥٥. (٧) السابق ٩١، ١٦٧، وسيرة ابن الداية ١١١.

(٨) المصدر السابق: ٧٦. (٩) السابق: ١٠٣.

(١٠) السابق: ٩٨، ١٠٥. (١١) المكافأة ١١٤، ١١٧، وسيرة ابن الداية ٧٦، ٩٤، ٩٨ - ٩٩، ١٢٦.

(١٢) المكافأة ١١ - ١٥. (١٣) سيرة ابن الداية ١١٤.

(١٤) المكافأة ١٥ - ١٩، ٨٩. (١٥) المصدر السابق: ١٠٠، ١٧٣.

(١٦) السابق: ١٥٧. (١٧) السابق: ١٨٤.

(١٨) من خلال وفيات الأعيان ١٥٣/٥ - ١٥٧، والوقاي ١٠٦/١ - ١١٣، وطبقات ابن أبي أصيبعة ٦٠٣، ٦٠٨ - ٦٠٩: اتضح أنه ولد حوالي ٢٥٩هـ، وأنه تركي الأصل، وعلى علم بالموسيقى والفلسفة. من مؤلفاته العديدة في الفلسفة: "المدنية الفاضلة"، التي بدأ تأليفها ببغداد، وحنها إلى الشام آخر ٣٣٠هـ، وأنها بدمشق ٣٣١هـ. ثم حررها ونظر في النسخ المحررة. وقدم إلى مصر سنة ٣٣٧هـ، فأشار عليه علماؤها - ومنهم ابن =

وكان على صلة بـ (علّي المتطبب) المعروف بـ (الديدان)، الذى ذكر أحمد بن يوسف أنه حسن المعرفة بالطب، ويكتب الفيلسوف اليونانى أفلاطون^(١). هذا إلى جانب قراءاته فى كتب العجم كابن المقفع، وغيره^(٢).

و- **فَلَكْيُون، وَحُسَاب، وَمِنْجَمُون**: نقل أحمد بن يوسف المؤرخ عن علّي بن سند^(٣)، وبراقة الحاسب^(٤) وأبى كامل شجاع بن أسلم الحاسب^(٥).

ز- وأخيراً، فقد كانت للمؤرخ أحمد بن يوسف صلات ببعض نساء القصر القريبات من الأحداث، فنقل عن بعضهن ما احتاج من معلومات فى مؤلفاته. ومن هؤلاء: نعت مولاة أحمد ابن طولسون، التى كانت أماً لثلاث بنات كُنَّ لابن طولون^(٦). وكذلك نقل عن امرأة كانت تعمل قابلة فى قصر حمارويه، وتعرف بـ (أم آسية)^(٧).

وهكذا، عرضنا لأسماء عدد من أساتذة المؤرخ المصرى (أحمد بن يوسف)، الذين نقل عنهم العلم، وكوّن على أيديهم ثقافته الموسوعية، التى ظهرت فى مؤلفاته التاريخية بعد ذلك، فحقُّ للصمدى أن يجعله من فضلاء مصر ومؤرخيها، الذين جمعوا علوماً كثيرة أخرى فى: الأدب، والطب، والنجامة، والحساب، وغيرها^(٨).

ثالثاً - شبكة علاقاته السياسية:

وأقصد بذلك مدى إيجابيته ومشاركته وتأثره بالأحداث السياسية التى عاصرها، ومدى تعاونه مع القوى الحاكمة والمسيطرة أيامه، من خلال مشاركته فى إدارة شئون البلاد فى منصب ما من المناصب وليّه، ودرجة صلاته ب كبار الساسة والقادة فى مجتمعه، ومقدار استفادته من تلك الصلات.

أحمد بن يوسف كاتب فى ديوان الطولونيين:

ليس بين أيدينا من النصوص ما يفيد وجود صلة سياسية لأحمد بن يوسف مع الأمير

= الدابة فيما يبدو - أن يُقسّمها إلى فصول تدل على معانيها، ففعل ذلك عصر. والغالب أنه جالس ابن الدابة، فكان لقاء التجارب والحكم والثقافات (هو قارب الثمانين، وابن الدابة جاوز التسعين). ولعله ظل فى مصر حتى ٣٣٨هـ، ثم عاد إلى دمشق، حيث توفى ٣٣٩هـ. السابق: ١٧٦.

(١) المكافأة ٧٨.

(٢) السابق: ١٧٦.

(٣) السابق: ١٧٦.

(٤) سيرة ابن الدابة ٨٢.

(٥) المكافأة ١٩٣، ١٩٥، ٢١١، وسيرة ابن الدابة ٩٤.

(٦) المكافأة ١٣٥، وسيرة ابن الدابة ١٠٣، ١٠٥.

(٧) المكافأة ٢٠٥.

(٨) الواقى بالوفيات ٢٨٢/٨.

(أحمد بن طولون)، اللهم إلا القبض عليه لحظة وفاة والده مع أخ له آخر، والتحقيق معهما، ثم إطلاقهما بعد التأكد من براءة والدهما، وخلو ساحتها مما يُدين. وأعتقد أن لقب (الكاتب)^(١)، الذى اشتهر به أحمد بن يوسف له أصل ودلائل تشير إليه، فتلميذه الفرغاني ألصق وأعرف به من غيره، وهو أثبت له ذلك الوصف. وفصاحة أحمد وأسلوبه الراقى فى كتابيه: (المكافأة)، و(سيرة ابن طولون) يفيد أنه كاتب من طراز ممتاز، وذلك فى زمن كان الكتاب يُختارون فيه ويُنتقون من ذوى الفصاحة والدقة والبلاغة والثقافة العريضة، وقد كان أحمد كذلك. والمعلومات الذى يذكرها أحمد فى مؤلفاته الباقية، واهتماماته بالمادة الحضارية فى (المكافأة)، و(سيرة ابن طولون) لا يكفى الحصول عليها صلاحته برحالات دولة بنى طولون، بل لا بد أن يكون صاحبها طالعها فى الدواوين الرسمية، وسجلات الدولة، وهو مالا يتيسر إلا لمن ولى منصب كاتب الإنشاء فى الديوان^(٢).

توقيت عمله فى الديوان الطولوني:

لا نستطيع القطع فى هذه المسألة، لكننا يمكن أن نستنبط توقيتاً تقريبياً. فمن المقطوع به أن أحمد بن يوسف لم تكن له صلة بالديوان فى عهد ابن طولون؛ نظراً للوساوس والشكوك التى كانت تساور ابن طولون تجاه يوسف والده. ويغلب على ظنى أنه لم يعمل - كذلك - فى الديوان زمن حمارويه، وإلا لبغنا عنه بعض المعلومات، فحمارويه ولى فترة معقولة من الزمان (٢٧٠ - ٢٨٢ هـ). ويترجح لدى أنه عمل فى فترة (هارون بن حمارويه ٢٨٣ - ٢٩٢ هـ)^(٣)، فهى الفترة الباقية المتأخرة من حياة الدولة الطولونية، والظروف فيها مهيأة أمام مورخنا لتولى هذا المنصب، فقد خفّت قبضة الدولة، ولم تعد هناك حساسية تجاه موالى العباسيين، بعد أن تحسنت العلاقات معهم، بل صاهر حمارويه الخلافة مصاهرة سياسية. ثم إن أحمد بن يوسف لا

(١) ورد فى (مقدمة المكافأة) لابن الداية ص ١: "وأخيراً أبو محمد عبد الله الفرغانى، قراءة منى عليه، قال: أخبرنا أبو جعفر أحمد بن يوسف الكاتب قراءة منى عليه". فناسخ المخطوطة بنقل عن الفرغاني (أحد تلاميذ ابن الداية) هذا الكتاب بعد أن راجعه عليه قراءة، فأجاز له نسخه وروايته عنه. والفرغانى نفسه نقل الكتاب عن أستاذه بالطريقة نفسها، ولقبه باللقب المذكور. وفى عنوان مخطوط (تفسير كتاب الثمرة لبطليموس)، الذى وضعه ابن الداية ذكر أنه (كاتب آل طولون). وأخيراً، فقد وصفه ابن زولاق - فيما ينقله عنه باقوت - أنه أحد وجوه الكتاب". (معجم الأدباء ١٦٠/٥).

(٢) ماجستير سيد محمد قطب ص ٥٤. وبضيف قائلًا: إنه يعمل لدى أمراء بعض بنى طولون، أو من تلاهم من حكام. وأتساءل: ماذا يُقصد بالعبارة الأخيرة؟ هل المقصود أنه اتصل بحكام فترة ما بين العصرين، أو العصر الإخشيدى؟ إننا لا نجد ما يدل على ذلك، أو يشير إليه. ثم إن كتبه وعمله ارتبط بديوان الطولونيين، حتى عدَّ المؤرخ الرسمى للأسرة الطولونية على نحو ما يعبّر د. الشيال فى (تاريخ مصر الإسلامية ١٢٨/١)، وذلك على اعتبار أنه أول من أرخ لهذه الدولة، وعنه نقل المؤرخون. وارتبطت عاطفته بهم، وأكثر من ذكر محاسن عبيدهم فى سيرته.

(٣) الولاة (ط. جست) ص ٢٤٢ - ٢٤٦.

صلة له بالعراق كآبيه، فهو مصري المولد والنشأ، والمربي.

فإن قيل: ألا تعد كتابته (سيرة حمارويه)، و(سيرة هارون بن حمارويه) دليلاً على اتصاله بديوان (حمارويه)؟ أقول: ليس هذا شرطاً، وقد سبق أن قطعنا بعدم وجود صلة له بآبن طولون، رغم أنه كتب سيرته أيضاً^(١).

وأعتقد أن هنا فارقاً مهماً بين (سيرتي: آبن طولون، وحمارويه) من جهة، و(سيرة هارون بن حمارويه) من جهة أخرى. فالأوليان كتبهما - في الغالب - من واقع مرويّات غلمان الأميرين، وقادقهما، ورجال الدولة، والمقرّين من القصر (رجالاً، ونساء). ولا بأس أن يدعمهما - بعد عمله بالديوان - بمزيد من التفتيح والتهديب، وذكر الوثائق. أما (سيرة هارون بن حمارويه)، فكان أقرب إلى الأحداث وصاحبها، فكتب من واقع تجربة عملية عايشها في الديوان.

وعلى كسل، فقد حرّمنا فقد السيرتين الأخيرتين فرصة معرفة توقيت اتصاله بديوان الطولونيين على نحو قاطع، وإن كان مجرد إقدامه على كتابة (سيرة هارون بن حمارويه)، وعهده عهد ضعف واضطراب، وشخصيته ليست من الأهمية والتأثير، بحيث تستأهل أن تُفرد لها ترجمة مفردة، كل ذلك يجعلنا نرجح أنه كتبها؛ بحاملة للرجل، الذي عيّنه في الديوان.

حدود صلته بالبيت الطولوني:

(١) أعتقد أنها صلة لا تتعدى كونه كاتباً، يقوم بعمل إداري في الديوان. ولست أتفق مع من يخرج هذه العلاقة، عن حدودها المعقولة؛ فيجعله أحد الباحثين مقرباً إليهم^(٢)، ويجعله آخر أحد خواص دولتهم^(٣)، ويبالغ ثالث مبالغة مخالفة للواقع، فيقول: كانت له بهم خُلطة وأُسّة، وأنه لأصالة بيته^(٤)، وتُبلّ مَحْتَدَة تُفْتَح له أبواب القصور، فيُطْلَع على سر القوم وجهرهم،

(١) أما فترة حكم حمارويه، فلا يوجد نص، يدل على صلة أحد بن يوسف بحمارويه. وكل ما وجدته نص فريد في مخطوط (شرح كتاب الثمرة لبطللموس)، لأحمد بن يوسف ص ٣٢، يذكر فيه أن خادم حمارويه قدم إلى أحمد، وأعلمه أن مولاه حمارويه رُزق هارون، وسأله الخادم (بصفة شخصية) أن ينظر في النجوم، ويخبره ما إذا كان هارون سيتقلد أعمال مصر. ولما كان آبن الداية مؤرخنا في زمن الحداثة (فترة الطلب لعلم التنجيم)، لم يستطع معرفة الجواب الصحيح، فسأل أحد المخضرمين في حساب النجوم (صالح بن الوليد التميمي)، فأجابه بعد أن أعطاه مالاً بأنه سيلي الأمور، وحدد مدة توليه بالتقريب. من الواضح أن الصلة كانت بخادم حمارويه لا حمارويه نفسه، وأن ذلك كان بعد وفاة آبن طولون بقليل، وفي بداية عهد حمارويه (سنة ٢٧٠هـ)، إذ كان مؤرخنا آبن ٢٥ سنة. ومعلوم أن هارون (ولي ٢٨٣هـ، وقيل في صفر ٢٩٢هـ)، فيكون توفي عن ٢٢ عاماً، وولي وهو صغير السن (النجوم ١٤٢/٣)، وهذا أرجح عندي مما ورد في (الولاة ص ٢٤٦)، إذ جعل عمره ٢٨ سنة، فيكون ميلاده سنة ٢٦٤هـ (في عهد جده آبن طولون)، وهذا غير صحيح، فالرواية تذكر أن ميلاد هارون كان في عهد آبيه حمارويه.

(٢) تاريخ مصر الإسلامية، للدكتور الشيال ١٢٨/١.

(٣) هو آبن سعيد في (المغرب - قسم مصر) ص ٧٣.

(٤) وهذا غير صحيح، فالمعروف أن أباه من موالى العباسيين، لكن ذلك لا يجعلنا نخط من قدره، بل نجيب بعلمه وثقافته.

وعلى عُجْرهم وُبُحْرهم^(١). إنه حقاً كلام إنشائي جميل، لكنه لا نصيب له من الحقيقة، فلا هو من أصل عظيم، ولا القصور مفتحة أمامه. هو - في كلمة موجزة - مثقف على درجة عالية من الذكاء، وثرى من الأثرياء، خدمته الظروف بعد موت أبيه، ثم موت ابن طولون، ثم تحسُن الصلة بالخلافة، فعمل بالديوان؛ ليفيدوا من خبرته ومواهبه في وقت عمت فيه الاضطرابات، فوظف عمله الجديد في خدمة مؤلفاته التاريخية، فوضع يده على كثير من البيانات في الدفاتر والسجلات والوثائق. وتابع الأحداث عن كثب، واستثمر صلاته السياسية والاجتماعية، فكتب تاريخ تلك الفترة على نحو رائد متطور جدير بالإعجاب، كما سنرى.

أبرز الأحداث السياسية، وموقفه منها:

نحاول من خلال هذه الفكرة - وفي ضوء المادة العلمية الموجودة - أن نبرز الدور الذي لعبه مؤرخنا خلال الأحداث الحسام، وهل كانت له هموم عامة، أو كان اهتمامه منصباً على رعاية مصالحه، وحماية أمواله الخاصة.

أ- **موقفه خلال حملة محمد بن سليمان ودميانة القائد البحري؛ للقضاء على الدولة الطولونية، وإعادة مصر إلى تبعيتها للخلافة العباسية:** لقد تعرضت مزارعه - في البداية - لنهب وسلب جند دميانة، إلا أن القدر أنقذه من أضرار فادحة، كادت تلحق بضياعه، عندما ساندته وعُضَّده أحد أصحاب القائد دميانة، وقد تعرف إلى أحمد، الذي كان قد أحسن إليه فيما مضى. وبذلك ظلت مزارعه في حماية الجند حتى غادر الجيش تلك الناحية^(٢).

وثمة موقف آخر نحا فيه (أحمد بن يوسف) من التعرض للإهانة والتعذيب، واستصفاء أمواله على يد القائد (محمد بن سليمان)؛ نتيجة معروف صنعه بانه عم هذا القائد^(٣)، واشتياق ابن سليمان لرؤيته بعد ما سمع من أشعاره بالعراق، تلك التي يرويها عنه الشاعر العراقي سُوَّار بن أبي شُرَاعَة^(٤).

ب- موقفه أثناء حركة ابن الخليلج وبعدها:

يبدو أن مؤرخنا كان متحمساً لحركة هذا الرجل، باعتبارها محاولة لإعادة نفوذ وحكم الطولونيين من جديد، فقام بالتعاون مع هذا القائد، وظل على إشرافه على الضياع والمزارع مقابل استئفاع السيد الجديد بنصيب من غلاتها. وقد عانى مؤرخنا من الفوضى والاضطراب الذي أصاب البلاد لما أفلت الزمام من يدي ابن الخليلج، حتى اضطر إلى الاستعانة بمن يحميه

(١) مدخل كرد على لسيرة البلوى ص ٨. وفي (المعجم الوسيط) ج ١ ص ٤٠ مادة (ب.ج.ر): أفضيتُ إليه بـ (عُجْرِي، وُبُحْرِي)، أي: أضلعتُه على معالي، وأمرى كله؛ لفتني به.

(٢) المكافاة ص ٤١-٤٣. (٣) السابق ٨٠-٨٢. (٤) السابق ٨٢-٨٤.

ويخرسه من اللصوص وقطاع الطريق، وهو في طريقه إلى الفسطاط بعد خلوها من الجند. فلما قبض على ابن الخليلج وانتهى أمره، اختفى أحمد؛ مخافة الإيقاع به، ونُهبت ضياعه، وذهبت أمواله وأملاكه، فقاسى شديد الخوف والفقر، حتى أنقذه الوزير أبو العباس أحمد بن محمد بن بسنظام^(١)، الذي دخل مصر للإشراف على شئونها^(٢).

رابعاً - الملامح العامة لظروف (أحمد بن يوسف) الاقتصادية، وصلاحه الاجتماعية:

١- شارك أحمد بن يوسف أباه في عمله، وكوّن خبرة اقتصادية ومالية وإدارية لا بأس بها. وبعد وفاة والده تحمل تبعات هذا العمل، وأثرى فيه ثراء كبيراً، وكانت له أراض عديدة في أنحاء مصر، يشرف على زراعتها. ولا شك أنه تعرض لهزات عنيفة، أضرت به أبلغ الضرر وأفدحه خلال الاضطرابات السياسية.

٢- لا شك أن اتساع مجالات نشاطه الاقتصادي جعله على صلات اجتماعية وثيقة بالعاملين بالأسواق، والمزارعين من فلاحين بسطاء. ويعتقد أنه كان له خدم، وأجراء، ووكلاء وكُتّاب، يساعدونه في إنجاح مهامه التي يقوم بها. وذلك الاختلاط والاندماج عرفه طبقات الناس في مجتمعه بكل ما انطووا عليه من خير ومن شر^(٣)، وكان له انعكاساته في مؤلفاته.

٣- بخلاف الأزمات الاقتصادية التي أضرت بمؤرخنا؛ نتيجة انعدام الأمن، واضطراب الأحوال، فقد كان يُطالب - أحياناً - من مسئولى الخراج بأموال تفوق طاقته (ربما لتقديرات جزافية، أو لعدم مراعاة ما قد تتعرض له المحاصيل من آفات). وقد كان أحمد يحاول إظهار حاجته، وسوء ظروفه المالية لمسئولى الخراج؛ حتى يوضع ذلك في الاعتبار^(٤).

الخلاصة:

كان مؤرخنا يلى منصباً في ديوان الطولونيين أواخر دولتهم، ولكن مشاركته في التطورات

(١) راجع أخباره لـ (الوزراء) للصائى: ٤٩-٥٠، ٩٥-٩٦، ٢٧٥.

(٢) ثم ذلك خلال فحص أبي العباس حال الضياع في مصر بعد ابن الخليلج، وحدودها، وأسماء المشرقيين عليها حتى سنة ٢٥٠هـ، فوجد اسم يوسف بن إبراهيم في ضياع كثيرة. فلما علم أنه صاحب ابن المهدي، سأل عن ولده، وعلم أن أحمد مقيم في مصر، فاستأمن له إسحاق بن نصير الكاتب، الذي كان يوهبه في داره، فأمنه أبو العباس، وحصل منه على نسختين من كتابي والده: (الطليخ، وأخبار إبراهيم بن المهدي). (المكافأة ٢٠٢-٢٠٥).

(٣) كنوز الأجداد ١٢٧.

(٤) دخل يوماً على صاحب الخراج (أبي الحسن علي بن المظفر الكرخي) مُسَلِّماً عليه، فسأله عن حاله: كيف حالك يا أبا جعفر؟ فقال أحمد على البديهة مستندراً عطفه:

يكنيك من سوء حالى إن سألت به أتى على طبرى في الكواين

(معجم الأدباء ١٦٠/٥، والواو ٢٨٢/٨، وماجستير سيد محمد قطب ٣٩). أى: في هيئة رثة، وحال رقيقة كمن يلبس ملابس خفيفة في برد الشتاء القارس في (كانون الأول، والثاني: ديسمبر، وينابر)؛ لغزوه الشديد.

السياسية في عصره لم تكن كافية. وكان همُّ أحمد بن يوسف وسط الخطوب المدهمة أن ينجو بأمواله وضياعه. ولم نر له قدرة على الوقوف أمام اعتداءات الجند وسلبهم ونهبهم مزارعه، وكان أعجز من الوقوف أمام طغيان أصحاب الخراج وظلم الدولة زملاءه في المهنة، بل هو محتجب ويترك ضياعه؛ لينجو بحياة نفسه، فينقذه القدر وإحسانه السابق من الهلاك.

الإنجاز العلمي لأحمد بن يوسف المؤرخ المصري:

تلقي مؤرخنا معارفه وعلومه على أيدي الأساتيد والكتب^(١). وأعتقد أن طلبه العلم كان ميلاً وفطرة وطبيعة، ثم اكتساباً من بيئة والده العلمية. وأعتقد - أيضاً - أنه كان بإقباله على العلم يخفف عن نفسه ويلات القلق، وهموم التجارة، والانخراط في الحياة المادية بكل مخاطرها ومحاذيرها، فكان ينتشل نفسه بين الحين والحين، يقرأ ويحاور ويناقش، فيجد في مجالس العلماء لذة وسروراً وسعادة، كلما فهم جديداً، وأتقن علماً جديداً^(٢). ومن المنطقي - بعد ذلك - أن يشتغل بالتصنيف، فيُخَلِّف لنا كتباً وتلاميذ، ينقلون عنه علمه، الذي تستفيد منه الأجيال التالية.

مؤلفاته:

- ١- في مجال التاريخ: سيرة أحمد بن طولون، وسيرة أبي الجيش (خمارويه)، وسيرة هارون بن خمارويه، وأخبار غلمان بني طولون^(٣).
- ٢- في الأدب، والقصص: مجموعة من الأشعار ليست بالقليلة^(٤)، وكتاب (المكافأة)،

(١) فلا غنى عنهما معاً: يؤخذ العلم من الكتب لقوى الفهم، والأساتيد مطلوبون في كل علم يُطلب اكتسابه (طبقات ابن أبي أصيبعة ص ٦٩١).

(٢) ورد أن أرسطو الفيلسوف اليوناني أعاد على تلميذه له مسألة، فقال له: أفهمت؟ قال التلميذ: نعم. قال: لا أرى آثار الفهم عليك. قال: وكيف ذلك؟ قال: لا أراك مسروراً، ولذا ليل على الفهم السرور. (طبقات ابن أبي أصيبعة: ص ١٠٢).

(٣) معجم الأدباء ١٥٩/٥ - ١٦٠ (وعُبر عن سيرة خمارويه بلفظ فيه تحريف: كتاب سيرته إلى أبي الجيش خمارويه)، والوفايات ٢٨٢/٨ - ٢٨٣، ومخطوط عيون التواريخ (ورقة ٦٧). وفسر كرد على (كنوز الأحاديث) ص ١٢٦، غلمان بني طولون بقوله: رجالهم والقائمون بأمرهم. ويلاحظ أن كل هذه الكتب تتصل بالطولونيين، وكلها مفقودة، إلا أن ابن سعيد نقل لنا الكتاب الأول منها في كتابه: (المغرب - قسم مصر) ص ٧٣ - ١٣٣. وفي (بغية الطلب) لابن العديم ج ٣ ص ١١١٤ - ١١١٥ يقول المؤلف: قرأت في سيرة خمارويه في نسخة عتيقة. ولم يُسمِّ مؤلفها. ونقل لنا اضطراب جيش خمارويه الخارج إلى الشام، وخروج الواسطي عليه، وتحريضه الموفق ضده. وأعتقد أن هذا النص الوحيد الفريد من (سيرة خمارويه) لابن الداية.

(٤) فقد سأله صديقه الشاعر العراقي (نزيل مصر) قبل رجوعه إلى بلده أن يكتب أحمد له بعضاً من شعره، فكتب له أحمد مقدار خمسين ورقة منه، فكان يستحسنه ويعجب به، ويعرضه على الأشراف والسادة في بلده، فيُشون عليه (المكافأة ٨٢).

وكتاب (حُسن العُقْبَى)^(١).

٣- في السياسة، والأخلاق، والفلسفة: كتاب (السياسة)^(٢)، أو (العهود اليونانية)^(٣).

٤- في المنطق: كتاب (مختصر المنطق) الذي ألفه للوزير (علَى بن عيسى)^(٤).

٥- في الفلك، والرياضيات: فسّر أحمد بن يوسف المصري المهندس كتاب (الثمرة) لبطلميوس^(٥).

(١) معجم الأدباء ١٦٠/٥. واعتبرهما الصفدي كتاباً واحداً باسم (المكافأة، وحسن العقبى). (الوال بالوفيات ٢٨٣/٨). وهو الصحيح المشهور الموجود مطبوعاً بين أيدينا. بينما اكتفى ابن أبي أصيبعة بتسميته (حسن العقبى)، ونقل عنه (الطبقات ص ٢٨٧). وكذا سَمَّاه حاج خليفه في (كشف الظنون) ١/٦٦٧. والحق أن كتاب (المكافأة) عبارة عن ثلاثة أقسام: ١- المكافأة على الحسن: وفيه يعرض أحداثاً مرت، أو نماذج من التاريخ لأناس أحسنوا، فلقوا جزاءهم خيراً. ٢- المكافأة على القبيح: وهي عكس النماذج السابقة.

٣- حسن العقبى: حكايات تفيد أن العصر والمجد جزاؤه حسن العاقبة. وهو كتاب أدبي في المقام الأول، وإن وردت به بعض أحداث تاريخية ومظاهر حضارية من عصور مختلفة، استخدمت للتدليل على هدفه من الكتاب. (راجع: النشر الفني في القرن الرابع الهجري، للدكتور زكي مبارك ص ٣٧٣- ٣٧٧، وتصوب بعض الأخطاء اللغوية الواردة فيه من خلال مقال عبد القادر المغربي في (مجلة المجمع العلمي بدمشق) مجلد ١٩، ١٩٤٤م، ص ٣٢- ٤٠، ودراسة الكتاب دراسة أدبية تحليلية في مقال د. العطار في عالم الفكر، وماجستير سيد محمد قطب.

(٢) تلك تسمية بروكلمان في (تاريخ الأدب العربي) - ط. دار المعارف - ج ٨٠/٣، والركلي في الأعلام ٢٧٧/١.

(٣) ذكر هذا العنوان سيد محمد قطب في ما حُسِنه ص ٧٦. وحَقَّق الكتاب حديثاً بالجزائر على يد د. عمر المالكي بعنوان: (الفلسفة السياسية عند العرب). ولا صحة لما ذكره هذا المحقق في مقدمته ص ٢٨: أن المؤلف ابن الدابة غادر مصر بعد سقوط الطولونيين إلى بغداد، وأهدى هذا الكتاب إلى الوزير علي بن عيسى بن داود وزير المقتدر العباسي. وهذا الكتاب مهم، ويعبر عن عمق ثقافة ابن الدابة الفلسفية، وحسن نقله آراء فلاسفة اليونان، وحسن تطويعها لمبادئنا، والتعبير عنها بلغة راقية عميقة. وهو على هيئة وصية ملك لابنه، ووزير لابنه، ورجل عاظمي لولده، وهو نظريات سياسية للإصلاح الشامل.

(٤) معجم الأدباء ١٦٠/٥، والوقا ٢٨٣/٨، وهو كتاب مفقود، لعله جمع فيه مطالعاته في كتب أرسطو المنطقية، التي عرفها العرب، وترجموها منذ ابن المقفع الذي ترجمها للمصور (تاريخ الحكماء للقفطي ص ٢٢٠). وهو يعبر عن حب ابن الدابة للقياس واحترامه للعقل، كما هو واضح من إيراده أخبار ذكاء وفراشة ابن طولون (سيرة ابن الدابة ١٠٠- ١٠١). ولعله أهداه إلى ذلك الوزير سنة ٣١٢هـ لما قد أفعال مصر والشام، وحُمل أمر المغرب كله إليه (صلة تاريخ الطبري ١٠٧). وربما أهداه إليه سنة ٣١٨هـ، لما قدم مُعَضَّد أباً بكر الماذناني يرأيه، لما ولى أعمال مصر (السابق ١٣٠).

(٥) الفهرست لأن النديم (ط. طهران) ص ٣٢٨، ومعجم الأدباء ١٦٠/٥، وتاريخ الحكماء ٧٨ (جمعه في أحكام النجوم)، والوقا ٢٨٣/٨ (سماه ترجمة كتاب الثمرة). وظن د. شاكر مصطفى أن كتاب الثمرة لبطلميوس في الفلسفة (تاريخ العربي والمؤرخون ١٨٦/٢). والصواب: أنه في (الفلك وأحكام النجوم). وذكر بروكلمان في (تاريخ الأدب العربي) - ط. دار المعارف - ج ٨١/٣: أن نصير الدين الطوسي شرح كتاب (الثمرة). واعتقد أن أحمد بن يوسف رسالة أخرى في (الفلك والنجوم) مفقودة، لكنه أشار إليها في مخطوطته (شرح كتاب الثمرة) ص ٣٢. ومن مطالعتي للمخطوط المذكور، تبين أنه يذكر عبارة بطليموس في هذا الكتاب تحت عنوان: (كلمة). وتحتها في وسط السطر تُكتب كلمة (التفسير)، وأسفلها شرح المؤلف (ابن الدابة). والكتاب خليط من الفلك والتنجيم، وأحداث التاريخ، التي يدلل بوقوعها على صدق حسابات الفلكيين وتنبؤاتهم. ومن الأحداث المعروضة فيه: أخبار الطولونيين، ومحى الحملات العبيدية على مصر (حملة حياصة، وحملة القائم). وقد عُلِمَ البحث في النجوم ابن الدابة الدقة والتبني قبل إصدار الأحكام، والفصل بين التشابهات والاختلافات. ولا شك أن لذلك أثره في دقة التاريخية، واختيار موارده (راجع المخطوطة ص ٥٨- ٥٩، ٦٦- ٦٧، ١٠٠- ١٠١).

وأمدنا القفطى^(١)، وبروكلمان^(٢) مجموعة كتب، نسبها إلى أحمد بن يوسف في مجال الرياضيات.

تلاميذه:

١- أبو محمد عبد الله بن أحمد الفرغاني^(٣) (ت ٣٦٢هـ): وهو راوى وناقل كتاب (المكافأة) عن مؤلفه (أحمد بن يوسف بن إبراهيم) قراءة عليه^(٤).

٢- الحسن بن إبراهيم بن زولاق الليثي المصري (ت ٣٨٧هـ): وهو تلميذ مؤرخنا ابن الداية، وترجم له على نحو متكامل^(٥). وذكر ابن زولاق في مقدمة (سيرة الإخشيد): أن أبا جعفر أحمد بن يوسف بن إبراهيم الكاتب قد عمل سيرة أحمد بن طولون أمير مصر، وسيرة ابنه حمارويه، وأنشدا في الناس، وأنه قرأها عليه، وحدثت بهما عنه مع غيرها من مصنفاته، وأنه عمل ما فاتته من سيرتهما^(٦). وهذا يعني: أن ابن زولاق تلميذ أثير لدى أستاذه أحمد بن يوسف، يقرأ عليه مؤلفاته، ويذيل عليها بعد ذلك؛ حتى تكتمل كتب أستاذه التاريخية.

قضية تشيعه:

سلم أحد الباحثين^(٧) بتشيع (أحمد بن يوسف المصري)، وإن جملة تشيعاً معتدلاً غير متعصب، واستدل على ذلك بأدلة، منها: صلته باليعقوبي المؤرخ الشيعي^(٨)، وكأنه يرى أن تلك الصلة جعلت التشيع ينتقل إليه. ويرى - كذلك - أن ميول أبيه (يوسف) العلوية^(٩) دليل على تشيع ابنه، كأما انتقل إليه التشيع وراثته. بالإضافة إلى أنه رسم للعلوي في كتابه (المكافأة) صورة طيبة في الإحسان^(١٠).

- (١) تاريخ الحكماء ٧٨.
- (٢) تاريخ الأدب العربي (ط. دار المعارف) ٨١/٣.
- (٣) راجع ترجمته في: سمر أعلام النبلاء ١٦/١٣٢-١٣٣، ومعجم المؤلفين ٢/٢٢٣، ومقدمة جست لكتاب (الولاية) في ترجمة المصنف ص ٤-٥.
- (٤) المكافأة ص ١.
- (٥) معجم الأدباء ١٦٠/٥.
- (٦) المغرب (قسم مصر) ص ١٤٨.
- (٧) ماجستير سيد محمد قطب ص ٦٩-٧٠.
- (٨) ينسب إلى جده الأعلى (واضح) تشيع مستتر، ظهر في تأمره حتى أفلت إدريس بن عبد الله إلى المغرب، وقد كان واضح على برهيد مصر؛ مما عرضة لقتل المهدي له وصلبه سنة ١٦٩هـ. وحدير بالذكر أن واضحاً كان والياً على صلاة مصر وخارجها من ٢٣ من حمادى الأولى سنة ١٦٢هـ، وغزل بعد حوالي ٤ شهور؛ لشدة على الناس. (حول تشيعه ومناصبه في مصر: راجع النجوم ١/٥١-٥٢، ومقدمة محقق تاريخ اليعقوبي ١/٦-٧، وتاريخ الأدب العربي (ط. الهيئة العامة) ق ٢ ص ٦٤٢-٦٤٣.
- (٩) لعله يقصد إحسانه إلى العلويين، الذى أدركه ابن طولون لما هاجم جنده دار يوسف بن إبراهيم لحظة وفاته.
- (١٠) (المكافأة ٨٨-٨٩).
- (١٠) السابق: ١٢٤-١٢٦.

والحق أنه استدل بأدلة يسهل الرد عليها، كما يلي:

١- لا يوجد في صلة ابن الداية باليعقوبى ما يؤكد تأثير الأخير في مؤرخنا، حتى يتبع مذهبه في التشيع.

٢- إحسان يوسف وكرمه عام مع العلويين وغيرهم، فهو رجل يحب للإحسان، متصف بالمروءة مع كل المحتاجين، ولا يعد إحسانه إلى العلويين تشيعاً. وبالنسبة لصورة العلوى التى رسمها فى إحدى روايات كتاب (المكافأة)، فهى منقولة من مصدر موثوق به، وتتفق مع ما عُرف عن العلويين من كريم الأخلاق والصفات.

ونخلص من ذلك - رغم ما تذكره بعض كتب الشيعة^(١) - إلى أن الرجل محب لآل البيت حباً مشروعاً لا إفراط فيه ولا تفريط، وهو بعيد كل البعد فى أفكاره ومؤلفاته عن أفكار الشيعة الضالة، وعقائدهم الباطلة.

سمات شخصيته:

تشكل شخصية الإنسان من واقع نشأته وتربيته، ثم من خلال تراكم خبراته وتجاربه فى الحياة، وما اكتسبه من قيم وأخلاقيات. ويمكن تتبع هذه الملامح والسمات على النحو الآتى:

١- أمانته:

وذلك نلمسه من دفته المتناهية فى رواياته التاريخية، وحرصه على ذكر مصادر معلوماته، وأداء الرواية كما سمعها وتلقاها. ومثال ذلك: ما رواه عن موسى بن طولون (أخى أحمد بن طولسون)، بخصوص رجل، كتب عنه (طيفور) - عين ابن طولون فى الحضرة - أنه لا ينعقد مجلس للكبراء إلا ويقوم رجل من الموالى الحاضرين - ذهب عنه اسمه - بالوقوف فى أحمد بن طولسون^(٢). فهنا لا نشك فى معرفة (طيفور) بهذا الشخص، لكن نسيان اسمه كان من ناقل الرواية (موسى بن طولون)، الذى أدى مؤرخنا عنه روايته كما سمعها.

٢- عقليته المنظمة، وعقلانيته وموضوعيته:

وذلك نلاحظه من خلال المظاهر الآتية:

أ- نظراته الشاملة للأمر، وحسن تقسيمه وتنظيمه:

وقد ظهر ذلك فى كتاب (المكافأة)، إذ جعل له مقدمة، أوضح فيها هدفه الأصيل من

(١) أعيان الشيعة للعالمى ٢٠٧/٣.

(٢) المغرب (نسم مصر) ص ٩٥.

الكتاب^(١)، ثم عرض القسم الأول منه (المكافأة على الحسن)^(٢)، وجعل في نهايته خاتمة ملائمة، هي - في السوت نفسه - مدخل مُمهّد للقسم الثاني من الكتاب (المكافأة على القبيح)^(٣). وفي نهايته وضع لهذا القسم خاتمة ملائمة لموضوعه، وممهدة للقسم الثالث والأخير من الكتاب (حسن العُقبى)^(٤). وبعد انتهاء القسم الثالث كتب تحت عنوان: (خاتمة)^(٥) ما يعد ختاماً للكتاب ككل. فهذا التخطيط وذاك الترابط الموضوعي بين أقسام الكتاب يشير إلى عقلية منهجية منظمة^(٦).

ب- حياده وعدم تعصبه:

فهو ينقل عن مختلف العلوم والثقافات (عربية، وفارسية، ويونانية). ويتلمذ على مختلف الأساتذ من فقهاء، ومؤرخين، ورياضيين، ورجال فلك وحساب، وعلماء طب، إلى آخر هذه النوعيات المتعددة من العلماء، الذين عرضنا لهم (في مصادر ثقافته). ويعد كتابه الفلسفي (العهد اليوناني) نموذجاً لنقله عن ثقافات الأمم الأخرى ما يصلح لنا، وتطويعه ليلائم قيمنا وسلوكنا.

ج- قدرته على الاستدلال المنطقي:

فهو يعرض رأياً ما في قضية من القضايا هددوء، ويبين خطأ هذا الرأي، ثم يعرض فكرته هو، ويقدم دليل صدق رؤيته^(٧). وبذلك يقنع قارئه هددوء وأمانة من خلال عرض وجهات النظر المختلفة، مقدراً كل جهد ورأى وفكر بُذل فيها^(٨).

٢- حكمته وخبرته الكبيرة بالحياة:

فهو يعلم أن الدنيا ملؤها النَّصَب والتَّعَب، فيجب الصبر على بلائها وشقاء الإنسان بها. والدنيا تتطلب العمل الدائب، الذي لا يعرف الكلال ولا الملل، مع احتفاظ المرء بأسراره. "واعلم أن الميل إلى الراحة غفلة عن علو لا يغفل، وأن مَنْ ضعف عن سره لم يقو بشئ من أمره"^(٩).

ومن منطلق فهمه السابق كان أحرص ما يكون على استغلال وقته، وعدم التفریط في شئ

(١) المغرب (قسم مصر) ص١-٣.

(٢) يمتد من ص٥-١٠٤، وخاتمته ١٠٤-١٠٥.

(٣) يمتد من ص١٠٦-١٦٠، وخاتمته ١٦٠-١٦١.

(٤) يمتد هذا القسم من ص١٦٢-٢١٨.

(٥) ص٢١٩-٢٢٠.

(٦) لمزيد من النماذج راجع: الفلسفة السياسية عند العرب لابن الداية ص٦٢، ٩٩-١٠٠.

(٧) الفلسفة السياسية عند العرب لابن الداية (مقدمة المحقق ٤٥-٤٦).

(٨) ماجستير سيد محمد قطب ص٦٧.

(٩) الفلسفة السياسية عند العرب ص١٢٣.

منه، فإذا أضفنا إلى ذلك عمره المديد، الذى قارب المائة، أدركنا سر تحصيله كل هاتيك العلوم والمعارف والثقافات، مع انشغاله بتثمير أمواله، والإشراف على مزارعه، وإدارة ضياعه. وهو يعبر عن إيمانه العميق بقيمة الوقت في قوله: "ومن أحمد الأمور بك أن تقدم الاحتياط في إنفاق ساعات زمانك أكثر من تقديمك الاحتياط في إنفاق مالك؛ لأن الذى يمضى من المال قد يُستخلف، وما يمضى من الزمان لا يرجع"^(١).

وفي سبيل الحفاظ على الوقت وعدم تفلته، يرى ضرورة التحكم في النفس وشهواتها، وحسن امتلاك زمامها؛ حتى تكون أقوى على إدارة شئون غيرها. "واعلم - يا بني - أنه لا يضبط الكثير من الناس من لم يضبط نفسه الواحدة، فارفع نفسك عن كَلْبِ الحرص، وذل الشهوة"^(٢).

ويعلم أحمد بن يوسف أن الأعمال والواجبات أكثر من الأوقات، فلا بد من حسن تنظيم الوقت لأدائها مهما كثرت دون تسويف ولا تأجيل، وبإقدام وحساسة متناهية. ويرى أن يحرص الإنسان على الجمع بين العلم والعمل، فهو يدرك صعوبة العمل وتنفيذ الخطط. وإن تطلب الأمر الاستعانة بمعاونين، فلا يستخدم المرء إلا الأكفء الأمناء. يقول في هذه المعاني كلها: "فلا يشغلنك تفصيله عن جملة، فيضيع منك بأسره. ولا تدفعن عملاً عن وقته، فإن للوقت الذى تدفعه إليه عملاً آخر. وأقل ما يلحقك من ازدحام الأعمال دخول الخلل فيها. واعلم أن تهيب العمل يطيل زمانه"^(٣). ويقول أيضاً: "ولا تتوهم أن كل ما علمته تقدر على عمله، فإن رياضة العمل أصعب من رياضة العلم. ولا تركن في الاستخدام إلا إلى شفاعة الكفاية والأمانة"^(٤).

٣- طبيعته الحذرة القلقة، وأثرها في علاقاته:

تعرض مؤرخنا في حياته كبيراً، وفي حياة والده يوسف صغيراً، لبعض الخن. وعاش مؤرخنا حياة رجال الأعمال المملوءة بالاضطراب والقلق النفسى، والحذر الشديد في زمن شاعت فيه مصادرات الأموال بالحق والباطل. وخالط أحمد بن يوسف - بحكم عمله - طبقات المجتمع على اختلافها، وأدرك طبائع النفوس البشرية، وكثرة ما يعتريها من حسد وطمع وبغض، فتغلغل ستم الحذر والقلق داخله^(٥)، لكنه لا يوصف ببخل ولا شح، لأنه كان يعطى ويحسن

(١) الفلسفة السياسية عند العرب: ص ٧٨.

(٢) و(٣) و(٤) السابق: ص ١٠٦.

(٥) تعرض أحمد بن يوسف لمواقف مفرقة كالوقوف الذى تعرض له، وهو في طريق عودته من العمل في ضياعه إلى القساطر، فإذا بمجموعة من الأعراب تهجم عليه ويغيبوه ومن معه، لكن حراسه تقاهموا معهم، وانشع خطرهم وزال. ونزل أحمد حتى هولااء المجرمين له للراحة، لكنه - وكما يصف نفسه - ظل يلتقط أنفاسه، وتنازع ضربات قلبه، وقد تحول الطعام في فيه إلى مرارة العنقم، فلا يقبل عليه؛ لما لحقه من خوف رهيب. (المكافأة ٢٧ - ٣٩).

إلى المحتاجين، لكنه كان ييسط يده بقدر^(١)، وكان يرد الإحسان والمعروف بأحسن منه^(٢)، كل ذلك وهو حذر متخوف من غدرات الزمان، وتقلبات الأيام. وقد أثرت هذه الطبيعة في تصرفاته وعلاقاته وأفكاره على النحو الآتي:

أ- يُحذّر من إدخال المال الحرام إلى ما يملك الإنسان ولو كان الحرام قليلاً، فذلك يحق بركة الكثير من المال^(٣).

ب- أهمية المال بالنسبة لرجال الأعمال بالذات: فهو عصب حياتهم. ومن هنا قال: "واعلم أن مالك أكبر ما أحرز لك المكانة في أهل طبقتك، فأقمه مقام الشريك الذي تنق بسرعة إجابته، وتحمد حسن صحبته، وترى زيادة جاهك ونقصانه بزيادته ونقصانه"^(٤).

ج- وهو شديد الحرص على الستر، وعدم الصدام بالسلطان، فيرى أن اعتقاد المستغلات (امتلاك المحاصيل)، التي لا ضريبة فيها لسلطان، ولا شركة لإنسان من تمام مروءتك وسترك^(٥).

د- ويرى عدم إظهار الجاه والثراء والغنى؛ كي لا يطمع طامع، أو يحسد حاسد، فيقول: "ولتكن هيئتك دون منزلتك في الجداً ومن قلوب الناس، فإنك تبتاع بذلك حسن النيات، وتردع به حسد الحاسد، وطعن الطاعن"^(٦).

هـ- ومن مظاهر حذره الشديد وآثاره أنه لا يخرج من ماله صدقات لكل من يصادفه، بل يخرج مما زاد على حاجته لمن كان مريضاً مرضاً مزمناً، أو كان شيخاً قانياً، أو من افتقر فقراً مُدقّقاً.

وإخلاف ذلك يُوجد له عملاً، ويوسع له في الأجرة. "ولا تبذل العفو من مالك إلا لمن ضعف عن الاكتساب بزمانة لحقته، أو سن عُلّت به، أو عيلة زاد ناهما على مقدار اكتسابه. وما تحطى ذلك فحرّكه إلى التشاغل، وأوسع عليه في الأجرة بمقدار ما تصله من الصلة"^(٧).

٥- وأخيراً، قيم أخلاقية اكتسبها، وظهرت في مؤلفاته القيمة:

عرضنا - من قبل - لمظاهر ثقافته المتنوعة، وقد انعكست هذه العلوم والمعارف الواسعة، التي أَلَمَّ بها، على سلوكه وأخلاقه، فكان مثلاً طيباً للعالم المسلم، والمؤرخ المتزن. ومن مظاهر أخلاقياته:

أ- قناعته: رغم غنى مؤرخنا وراثته، فإنه لم يزد إلا رصاً وقناعة، عكس كثير من ذوى الجاه والأموال ممن تزيدهم الثروات شراً وطمعاً وتطلعاً إلى المزيد. أما مؤرخنا، فلم يفرق في

(١) المكافأة ٤١. (٢) السابق: ٥٠ - ٥٢.

(٣) الفلسفة السياسية عند العرب ١١٧. (٤) السابق: ١١٦ - ١١٧.

(٥) السابق: ١٢٥.

(٦) السابق: وورد في الأصل: الجدة، وأعتقد أن الصواب ما أثبتّه. الجداً: العطاء.

(٧) الفلسفة السياسية عند العرب: ١٢٥.

ماديات الحياة، بل واءم بينها وبين حياته الاجتماعية، وإشباع رغباته الثقافية. وقد أورد عبارة تلخص القناعة وتدعو إليها، وتحذر من مغبة الإعراض عنها، وتبين أن على الإنسان ألا يتطلع إلى ما فوقه في المكانة المادية؛ لئلا يزدري نعمة الله عليه، وألا يتناسى نعمه؛ حتى لا يكون ساخطاً على ربه ناقماً عليه^(١).

ب- **حبه الرفق والعدل**: حاول مؤرخنا الدفاع بقلمه عن المظلومين، ودعا إلى الرفق في استخراج الخراج، ومراعاة ظروف الناس، فلا يُكَلَّفون مالا يُطيقون؛ لأن ذلك يرهق الناس، ويأتى على العمران، ويعطل مصالح العباد^(٢). وفي الوقت نفسه يقف موقفاً متوازناً، فهناك من المزارعين من يتهربون - وهم يملكون - من دفع الخراج، فيطالب ابن الداية مؤرخنا عدم إبلاغ صاحب الخراج حتى يفشل المطالبون في استخراج الأموال بعد الاستعانة بأهل طبقتهم في ذلك، فإذا فشلت تلك الجهود، اتخذت ضد هؤلاء المماطين الإجراءات الكفيلة بدفع ما عليهم من حقوق^(٣).

ج- صفاء قلبه، وسعة صدره:

فلكسم قاسى أحمد بن يوسف في طفولته مشاعر الخوف والهلوع من جند ابن طولون في المرات العديدة، التي افتقد فيها أباه، عندما غُيِّب في سجون ابن طولون ظملاً وعدواناً، دونما جرعة اقترفتها يده. وتعرض أحمد نفسه للقبض عليه لحظة وفاة والده، كما ذكرنا قبلاً. رغم كل ذلك إذا به يختار المستحسن من أخبار ابن طولون هذا، فيكتبه ويخلده على صفحات التاريخ. إنها نفس صافية لا تعرف روح الحقد والتشفى والانتقام، وفي الوقت نفسه أشار بهذا العنوان إشارة أمينة لا تغوت المؤرخ إلى وجود ما يشين من صفاته، فرمى لطيب قلبه، وخدمته هارون بن حمارويه في الديوان من جهة أخرى، ولرغبته في تقديم جانب مضي للناس، يقتلون به في ظلمات ما بين العصرين (وهو ما نرجح ظهور الكتاب خلاله)، لم يذكر شيئاً من ذلك. وعلى كل، فقد عرض عصر ابن طولون بما فيه من ازدهار، وأورد بعض روايات، يفهم منها السبب أن المصريين دفعوا الثمن خوفاً قاتلاً، وقضاء ليالٍ طويلات باردات في محابس منسية مظلمة تحت الأرض^(٤).

د- تواضعه، وحسن معاملته الناس، وحرصه على مودتهم واسترضائهم:

رغم منزلته الرفيعة مادياً واجتماعياً كان لا يستكف أن يخالط البسطاء، ويساكن العوام، ويحسن إلى فقرائهم ومعوذهم^(٥). وكان يدعو إلى تسجيل المرء مكارم وإحسان إخوانه إليه،

(١) الفلسفة السياسية عند العرب: ص ١٢٦. (٢) السابق: ص ٩٠ - ٩١. (٣) السابق: ص ١١٨ - ١١٩.

(٤) ماحستر سيد محمد قطب ص ٣١. (٥) المكافأة ص ٤١.

كما يثبت ديون معامليه؛ كى يكافئهم عليها، ويهب للفقير منهم ما يُقرضه إياه^(١). وكان يدعو إلى الصبر الشديد على إصلاح مَنْ هو دونه أكثر من الحرص على استرضاء من هو فوقه^(٢). وكان يدعو إلى عدم المعاملة مع الصديق، فالصدقة لا تسلم عندئذ؛ لأنك لو بعث له شيئاً تطلعت إلى الربح، وتطلع هو إلى مزيد من الجردة في السلعة، والصدقة لا تتحمل هذين^(٣). وهكذا، عرضنا ترجمة وافية للمؤرخ المصرى (أحمد بن يوسف بن الداية)، لعلها تعيننا على تحليل مؤلفه عن (سيرة ابن طولون).

* * *

(البُلُوَى المؤرخ المصرى)

تقديم:

بعد أن تناولنا - بالتفصيل - التعريف بالمؤرخ المصرى (أحمد بن يوسف بن الداية)، وبأسرته (خاصة والده ذا التأثير الكبير فيه)، وألقينا الأضواء على ما عُرف من مؤلفاته، عاقدين الصلات بين هذه المؤلفات ومؤلفه التاريخى عن (سيرة أحمد بن طولون)، آن لنا أن نتوجه إلى صِنُوهِ وقِرْنِهِ، الذى لا يُذكر إلا ويُقرن به، ألا وهو مؤرخ العصر الطولونى (البُلُوَى).

ما قبل الترجمة:

يُلَفَّ المؤرخ المصرى البُلُوَى غموضٌ كبير، وتكتنف شخصيته علامات استفهام كثيرة. أقرَّ بذلك الباحثون، ولم ينجحوا في إمطة اللثام عن تلك الشخصية البارزة بين مؤرخى مصر في القرن الرابع الهجرى؛ إذ اكتفوا بتناقل النادر من المعلومات، مما أوردته بعض المصادر^(٤). هذه المعلومات لا تشفى غِلَّةَ الباحث، خاصة أن الرجل له سِفْرٌ جليل في تاريخ مؤسس الدولة الطولونية، خطأ به على طريق علم التاريخ خطوات عظيمة سواء في المادة العلمية المعروضة، أم في المنهج العلمى المعالجة به؛ مما كان يتطلب بذل مزيد من الجهد؛ لكشف معالم هذه الشخصية المهمة، التى تقف دون كشفها حجب كثيفة مظلمة. وهأنذا أحاول القيام بذلك.

(١) و(٢)، (٣) الفلسفة السياسية ١١٩.

(٤) راجع ترجمة البُلُوَى لدى كل من: محمد كرد على في (مدخله لسيرة البُلُوَى) ص ٣، ود. الشيال في (تاريخ مصر الإسلامية) ١/ ١٢٩، ود. فؤاد سزكين في (تاريخ التراث العربى) - ط. الهيئة العامة - ج ١ ص ٥٧٨.

ترجمة البلوى: أولاً- نسبه:

هو أبو محمد، عبد الله بن محمد بن عُمر بن محفوظ المدينيّ البَلَوِيّ^(١). ويلاحظ على هذا النسب ما يلي:

أ- أنه يفيد أن لهذا المؤرخ أباً، يدعى محمداً، وبه يكنى. ولم أعثَر على أية معلومات تلقى بعض الضوء - ولو خافتاً - على شخصية هذا الابن. كما أننا لا ندرى شيئاً عن والد (البلوى): مهنته، وثقافته، ودوره في تنشئة ابنه. وهذا يجعل مهمتنا في التعريف بأسرة البلوى مستحيلة.

ب- يفيد نسب المديني أنه حجازي الأصل، ويفيد نسب (البلوى) أن أصله يرجع إلى قبيلة (بَلِيّ) الحجازية، التي ينتهي نسبها إلى قحطان^(٢). وقد تفرقت (بلي) في أرض مصر، واعتبر أهلها من أهل مصر^(٣). وقد جزم بذلك ابن النديم، فقال عنه: "من أهل مصر"^(٤). وقد رجح ذلك أحد الباحثين^(٥)، كما أن موضوع كتابه - عن ابن طولون - يؤكد لنا مصريته، فيمكن أن نضيف له لقباً آخر (المصري).

ثانياً - حول مولده، ووفاته:

لا نعرف شيئاً عن نشأة وتكوين المؤرخ المصري البلوى، بل لا ندرى شيئاً عن مناصبه، أو دوره الذي لعبه في المجتمع المصري إن كان له دور. ووصل بنا الأمر إلى حد جهلنا بتاريخ ميلاده (ولو على سبيل التقريب)؛ لأن المصادر سكنت عن ذلك سكوتاً كاملاً، ولم تذكر مجرد إشارات، يمكن أن نستنتج منها شيئاً قريباً من الصواب. كل ما نعرفه أن البلوى من مؤرخي مصر، الذين عاشوا في القرن الرابع الهجري، ونُسبوا إليه^(٦)، مع اعتقادنا أنه عاش فترة من حياته في القرن الثالث الهجري.

(١) ورد هذا السبب الكامل في: مدخل سيرة البلوى، لكرد على ص٣٠، ومعهم المؤلفين ٢٨٨/٢، وتفتح المقال للسامقاني ٢٠٧/٢. واكتفى ابن النديم في (الفهرست ط. طهران) ص٢٤٣ باسم (عبد الله بن محمد البلوى).

(٢) يذكر أهل الأسان أن قبيلة بلي فرع من قضاة، وها بطون كثيرة، وبنيها نسبها إلى قحطان. وكانت مساكنها على حدود الشام بين أراضي جبهة وحذاء، وقيل ذلك كانوا جنوبي جزيرة العرب، وانتشروا بعد الفتح بالشام. ومهم لغاء، وفصحاء، وتابعون. وأحسوا كثرتهم في خلاف نشأ بالشام، فادى أحدهم: يا آل قضاة. وكادت تحدث فتنة. لذلك أمر عمر بن الخطاب عامله بالشام أن يسير ثلث قضاة إلى مصر. وشهدوا فتح مصر، واختطوا وتفرقوا. فالبلوى مصري الموطن والسفر. (راجع: فوج مصر، ط. توري لأن عبد الحكيم: ص١١٦، والأنساب ح١ ص٣٩٥-٣٩٦، والبيان والإعراب للمعري ٢٩-٣٠، والفتاوى العربية في مصر، للذكور البري ص٢٢٧، ٢٣٠).

(٣) الفهرست للطوسي ١٣٣، وتفتح المقال ٢٠٧/٢.

(٤) الفهرست (ط. طهران) لأن النديم ص٢٤٣.

(٥) محمد كرد عني: كنوز الأعداد ١٦٢، ومدخله إلى سيرة البلوى ص٤٤.

(٦) مقالة (سيرة أحمد بن طولون للبلوى). لعبد الخيميد العادي (مجلة كلية الآداب - جامعة فؤاد الأول) محمد ١٩٤٣/١، ص١.

لم يرد تاريخ وفاة البلوى على سبيل التحديد^(١)، وإن ذكرت بعض المراجع أنه كان حياً في الثلث الثاني من القرن الرابع الهجري^(٢). وهذا القول يفيد أنه لم يمضِ قبل حوالي سنة ٣٣٣ هـ، وإنما مات بعدها. وإذا كان البلوى معاصراً لابن الداية، ومتأخراً عنه في تأليف كتابه عن (سيرة أحمد بن طولون)، وإذا كان ابن الداية توفي سنة ٣٤٠ هـ؛ فإننا نرجح وفاة البلوى بعده (حوالي منتصف القرن الرابع الهجري).

ثالثاً - حول معارفه وثقافته:

لا أظن أن علوم البلوى ومعارفه خرجت عن المؤلف المعتاد في تلك القرون الإسلامية الأولى، التي كان يعنى فيها الآباء والأمهات بتنشئة أولادهم على تلاوة وحفظ القرآن الكريم، ودراسة حديث رسول الله ﷺ، وقراءة وحفظ ما تيسر من أبواب اللغة، ودواوين الأشعار^(٣).

وكذلك دراسة ما يتهيأ من التفسير والفقه. هذه علوم أساسية أعتقد أن البلوى حصلها وأجادها. وقد وصفه ابن النديم أوصافاً، تؤكد ذلك، فقال: إنه واعظ، وفقه عالم^(٤). ومعنى ذلك أن البلوى كان يعمل في الوعظ والإرشاد، ولعل له حكماً ومواعظ في خطب شفوية، أو في رسائل مكتوبة، ضمنتها تجربته وخبرته بالحياة. وربما برع الرجل في الفقه ودقائقه، فكان ممن يفتون الناس في مصر، ويعلمونهم أمور دينهم ودنياهم.

رابعاً - مؤلفاته:

ذكر ابن النديم أن لعبد الله بن محمد البلوى من الكتب: (الأبواب، والمعرفة، والدين وفرائضه)^(٥). ويغلب على ظني - من عناوينها - أنها كتب في الحديث والفقه. والمؤكد أن ابن النديم لم يذكر له إلا ما تيسر له رؤيته وطالعه بالفعل، وهو ما يعنى وجود مؤلفات أخرى له لم يحظ ابن النديم بالوصول إليها، ومنها: (سيرة أحمد بن طولون)^(٦) المطبوعة المنشورة كأثر تاريخي فريد وحيد باق إلى اليوم من تراث الرجل، ومنجزاته العلمية.

(١) وبالتالي لم يبعد د. علي إبراهيم حسن في (استخدام المصادر وطرق البحث) ص ١٣٦ لما قال: لم تُعرف سنة وفاته (أى: بالتحديد).

(٢) كنوز الأجداد ١٦٢، ومعجم المؤلفين ٢/٢٨٨، وتاريخ التراث العربي (ط. الهيئة) ١/٥٧٨.

(٣) ولعل الناظر في أسلوب البلوى وتعبيراته في كتابه الأرواح المتقى (سيرة أحمد بن طولون) يدرك تماماً أنه أخذ من العربية بحظ وافر، وله القدح الممل في البلاغة، وصاحبه رؤى من معين الآداب، ومثلها عملاً ظاهراً. (كنوز الأجداد ١٦٤، ومدخل إلى سيرة البلوى ص ١٠).

(٤) الفهرست (ط. طهران) ص ٢٤٣.

(٥) الفهرست (ط. طهران) ص ٢٤٣. وعنه نقل الطوسي في (الفهرست) ١٣٣، ونقل عن الأخير مؤلفات البلوى المقتاني في (تنقيح المقال) ٢/٢٠٧. أما د. الشبال، فنقل نص ابن النديم، وزاد من عنده: ألف كتباً كثيرة كلها مفقودة. (تاريخ مصر الإسلامية ١/١٢٩).

(٦) ذكره كحالة في (معجم المؤلفين) ٢/٢٨٨، وسر كين في (تاريخ التراث العربي) - ط. الهيئة العامة - ١/٥٧٨.

ومما يلفت النظر - حقاً - ألا يطالع ابن النديم (ت ٣٧٧هـ) - وهو معاصر للبلى - سوى الكتب المذكورة السابقة وهي مفقودة كلها الآن، بينما يذكر المسعودى (ت ٣٤٦هـ) - في مقدمة كتابه (مروج الذهب) - عبد الله بن محمد بن محفوظ البلى الأنصارى، ويشير إلى أنه صاحب أبي زيد عمارة بن زيد المديني، ويجعله من المؤلفين في التاريخ قبله، ومن طالع كتبهم وأفاد منهم. وعَدَّ المسعودى البلى واحداً ممن اجتهد بغاية إمكانه، وأظهر مكنون فطنته^(١). وأحب أن أنبه إلى أن المسعودى لم يحدد - بالضبط - اسم المؤلف التاريخي الذي طالعه للمؤرخ البلى، وهل هو مؤلف واحد أو أكثر من مؤلف، كما أنه لم يفرد بممدوح ولا ذم^(٢)، وإنما أصدر حكماً عاماً على مصادر كتابه بأن بعض مؤلفيها أصاب، والبعض الآخر قد أخطأ.

والحق أن عدم اشتهار مؤلف البلى التاريخي، وعدم اشتهاره هو شخصياً - مما أدى إلى ندرة معلوماتنا عنه - ربما يرجع إلى ضعف اهتمام ابن النديم وغيره من مؤرخي العلوم بمصر، على اعتبار أنها مجرد ولاية تابعة للخلافة العباسية، سواء كانت تبعيتها حقيقية أم اسمية. ومن ثم، فالاهتمام بها لا يرقى - مثلاً - إلى الاهتمام ببغداد ورجالاتها ومؤلفاتهم. ولعل فترة ما بين العصرين الطولوني والإحشدي، التي ترجع ظهور كتاب البلى فيها، وما اتسمت به من صراعات ونزاعات وحروب، أثرت في القدرة على الاحتفاظ بمؤلفات البلى. وربما انتقلت نسخ (سيرة ابن طولون) للبلى إلى الشام قديماً، حتى عثر على إحداها مع بداية هذا القرن على يد المحقق كرد علي. وبالإضافة إلى ما تقدم، فإنه لم يكن لكتاب يُذيع وينشر محاسن ابن طولون لينتشر ويشتهر، ويعرف به المؤرخون وأصحاب كتب التراجم، بينما الخلافة كانت تعد دولة بني طولون شوكة في جنبها، وغصّة في حلقها، استراحت باقتلاعها، وأجهزت على حُشاشاتها، فاستحالت أتراباً بعد عين، وجسداً بلا روح.

ولا يعنى انتقال مخطوط (سيرة أحمد بن طولون) للبلى إلى الشام قديماً أنه غدا مؤرخاً دمشقياً بحال من الأحوال^(٣)، فهو مؤرخ مصرى، تعرضت شخصيته للانطماس، وكتابه

(١) مروج الذهب ١١/١ - ١٢.

(٢) بخلاف بعض المؤرخين، الذين أثارت مؤلفاتهم إعجاب المسعودى فأثنى عليها؛ لإفادته الكبيرة منها في كتابه، مثل: عُبيد الله بن خُرَدَّاذِيه، والبلاذري الذي قال عن كتابه في الفتح: ولا نعلم في فروع البلدان أحسن منه (السابق ١٢/١).

(٣) ذكر د. أحمد شلبي في (موسوعة التاريخ الإسلامي) ٥/٥٦ في بداية حديثه عن انتشار اللغة العربية في سوريا (الشام) بعد الفتح الإسلامي، ووجود مؤلفات لها في فترة مبكرة ما نصه: "وكتب عبد الله بن محمد البلى - من مؤرخي دمشق - سيرة أحمد بن طولون في الثلث الثاني من القرن الرابع". ولي تعليق على هذا النص: ليس صحيحاً أن البلى مؤرخ دمشقي، بل هو مصرى. التاريخ المذكور على أنه تاريخ ظهور مؤلف البلى، إنما هو التاريخ الذي يدور حوله احتمال وفاة البلى. نتيجة لما تقدم لم يعد كتاب هذا المؤرخ يصلح مثلاً للاستشهاد به على ظهور كتب بالعربية مبكراً بالشام، بعد أن ذكرنا أن البلى مصرى.

للازواء، ومكانسته مؤرخاً للهضم الشديد، حتى شاء الله أن يظهر سفره الجليل على يد عالم شامي، رد الحق إلى نصابه، وأظهر ما للرجل من مكانة تاريخية تليق به. ثم قُدِّرَ لنا أن نكمل رد الجميل، فنحلل سفره، ونبرزه مؤرخاً من طراز فريد.

حول نسبة كتاب (رحلة الشافعي) إلى البلوى:

١- ذكر ابن كثير أن عبد الله بن محمد البلوى كذاب. هكذا اتهمه اقماماً صريحاً مباشراً لا مرة فيه، وذلك في عبارة هذا نصها: "ومن زعم من الرواة أن الشافعي اجتمع بأبي يوسف - كما يقوله عبد الله بن محمد البلوى الكذاب في الرحلة التي ساقها الشافعي - فقد أخطأ في ذلك، إنما ورد الشافعي ببغداد في أول قَدَمَةٍ، قدمها إليها في سنة أربع وثمانين. وإنما اجتمع الشافعي بـ (محمد ابن الحسن الشيباني)، فأحسن إليه، وأقبل عليه، ولم يكن بينهما شأن، كما يذكره بعض مَنْ لا خبرة له في هذا الشأن" ^(١). وهذا يعني أن هذا الملقب بالبلوى له مؤلف عن رحلة الشافعي إلى بغداد، والتقاءه بكبار علمائها. وابن كثير يَصْمُهُ بالكذب عامة، وفي رحلة الشافعي خاصة. ويدلل على كذبه في هذا الكتاب بأنه زعم التقاء الشافعي بأبي يوسف، رغم أن الأخير توفي سنة ١٨٢هـ، وأول قدمة للشافعي إلى بغداد كانت بعد وفاة أبي يوسف بعامين. كما نفى ابن كثير ما يتردد من التماسد والتباغض بين الشافعي ومحمد بن الحسن.

٢- نسب ابن حجر هذه الرحلة - أيضاً - إلى البلوى، وذكر أنه طَوَّلَهَا ونَمَّقَهَا، وذكر أن غالب ما أورده فيها مختلف ^(٢). والسؤال - الآن - هو: هل هذا الكتاب المشار إليه سلفاً، ومؤلفه المذكور آنفاً هو نفس مؤلف (سيرة أحمد بن طولون)؟ والجواب: لا؛ لأن هذا البلوى المذكور في رحلة الشافعي، وردت له روايات عديدة في كتاب (مناقب الشافعي) ^(٣)، وثبت منها أنه كان ممن عاصر الشافعي وجالسه، وسواء صحت هذه المحالسة أم لم تصح، فمن الواضح أنه شخصية أخرى غير شخصية المؤرخ البلوى؛ لأنه لا يُعْقَلُ لرجل زعم أنه جالس الشافعي (ت ٢٠٤هـ. بمصر) أن يعيش حتى قرابة منتصف القرن الرابع الهجري!

خامساً - قضية تضييف البلوى، واتهامه بالتشيع:

أ- نقل كل من: الذهبي ^(٤)، وابن حجر ^(٥) عن الدارقطني ^(٦) قوله: كان البلوى يضع

(١) البداية والنهاية ١٠/١٨٨.

(٢) لسان الميزان لابن حجر ٣/٣٣٨.

(٣) البيهقي: ج ١ ص ١٣٠-١٣٦، ١٣٧-١٤١، ١٤٢-١٤٦، ١٧٦-١٧٧، ٢٠٢، ٣٣١.

(٤) ميزان الاعتدال، للذهبي ٢/٤٩١.

(٥) لسان الميزان ٣/٣٣٨.

(٦) لم أحد النص فيما طُبع من كتاب (العلل) للدارقطني (٤ أجزاء)، فلعله في المفقود منه.

الحديث. وعضد هذا الرأي الذهبي وابن حجر في المصدرين السابقين، فذكرا عبارة واحدة هي أن عبد الله بن محمد البلوى روى عنه أبو عوانة^(١) في (صحيحه) في (الاستسقاء) خبراً موضوعاً^(٢).

ب- كان البلوى المذكور ملازماً خاله عمارة بن زيد^(٣)، راوياً عنه أحاديثه ورواياته، وهو منتصف بالضعف في الحديث^(٤).

ج- يرى كرد على أن البلوى المؤرخ كان شيعياً إسماعيلياً، وقد اتجه لكتابة سيرة أمير سني (ابن طولون)؛ لأن الأخير كان يعطف على الشيعة الإسماعيلية، ويكتم عطفه عليهم تقية، ويحاول الاستفادة منهم والانتفاع بهم، وأنهم كانوا منتشرين سرّاً في مصر؛ تمهيداً لإنشاء دولة العبيدين بها^(٥).

خلاصة الرأي عندي:

- ١- البلوى الذي ضعفته مصادر السنة والشيعة ليس هو البلوى المؤرخ المصري. وقد حدث خلط بين (عبد الله بن محمد البلوى) الوضّاع الكذاب صاحب (عمارة بن زيد) في رواية الحديث، وبين مؤرخنا البلوى المصري، فما ذكره المسعودي عن مؤرخنا الذي اعتمد على مؤلفه التاريخي صحيح، لكنه أخطأ لما ربط بينه وبين عمارة بن زيد، الذي كان أستاذاً لعبد الله بن محمد البلوى الكذاب.
- ٢- بساء على ما تقدم لم يعد هناك محل للقول بأن البلوى، الذي لم يتورع عن الكذب على رسول الله ﷺ، لا تنتظر منه أن يصدق في التاريخ لابن طولون^(٦)؛ لأننا أثبتنا أن مؤرخنا ليس هو ذلك الكذاب.

(١) هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم بن يزيد النيسابوري الإسفراييني الحافظ، صاحب المسند الصحيح المخرّج على كتاب الإمام مسلم بن الحجاج. وهو أحد الحفاظ الجوالين، والمحدثين المكثرين. طاف الشام ومصر، والبصرة والكوفة، والحجاز، وغيرها. توفى سنة ٣١٦هـ. (وفيات الأعيان ٦/ ٣٩٣-٣٩٤ (رقم ٨٢٦)، والكنى والألقاب للقمي ١/ ١٢٨).

(٢) لم أجد في الجزأين المطبوعين من مستخرجه باب (الاستسقاء). وبالرجوع إلى ج ٢ من مخطوطة: (مختصر أبي عوانة الإسفراييني) في كتاب (الاستسقاء) تحت عنوان: (زيادات الاستسقاء مما لم يُخرّجه مسلم في كتابه): ثنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله الأنصاري المدني، بسنده إلى عائشة إلى رسول الله ﷺ أن القَطْرَ مُنِعَ مِنَ السَّمَاءِ، وموقف المنافقين المشكك في صحة رسالة الرسول، ثم دعاء الرسول حتى أقهر المطر، وشرب الناس وارتووا. هذا الاسم المذكور في السند هو أقرب الأسماء الموجودة إلى اسم مؤلفنا. ولم أجد اسماً يشبهه في أي حديث آخر بهذا الباب. ومن ثم، لم أهتم إلى الحديث الذي أقم بوضعه، ولعله ساقط من النسخ.

(٣) مناقب الشافعي، للبيهقي ١/ ١٣٠، وميزان الاعتدال ٢/ ٤٩١ (وسمّاه عمارة بن يزيد)، ولسان الميزان ٣/ ٣٣٨ (سمّاه عمارة بن زيد). ولعل الأخير أرجح.

(٤) تنقيح المقال، للمامقان ج ٢ ص ٢٠٧.

(٥) مدخل سيرة أحمد بن طولون للبلوى، لكرد على ص ٦.

(٦) مقال (سيرة أحمد بن طولون: عودة إليه، وتصحيح فيه)، لعبد القادر المغربي، مجلة المجمع العلمي بدمشق، مجلد ١٨ (١٩٤٣م، ص ٢٨).

٣- لا دليل يثبت تشيع البلوى المؤرخ، وما سبق من أقواله مرسل؛ لتعليل تأريخ مؤرخ شيعي لأمر سني غير صحيح ومخالف لوقائع التاريخ، فابن طولون لم يكن للشيعية أى نشاط دعوى في عصره، ولم يكن لهم مجاملاً، بل واجه ثورتهم بقوة وحسم^(١).

٤- أن الملاحظات التي لاحظها كرد على (سيرة ابن طولون) للبلوى، وعدّها أدلة تشيع^(٢)، لا تعد - في نظرنا - قدحاً في سنته. وفي النهاية، نحن أمام مؤرخ سني يميل بعواطفه نحو آل البيت، ويأسى لما جرى لهم. ومعظم مؤرخينا الكبار طاليون بهذا المعنى المقيري وغيره^(٣). أما التشيع الذي يميل فيه المرء مع هواه، ويترك السنته لأجله، فلم يعرفه مؤرخنا، الذي أحب آل البيت كالمسلمين عامة، وأهل مصر خاصة^(٤).

سادساً وأخيراً - سمات البلوى الشخصية:

١- السمات الخلقية:

أ- الصدق والأمانة:

نلاحظ ذلك في مقدمة كتابه^(٥)، فلم ينسب معالم منهجه في المعالجة إلى نفسه، رغم أن له في ذلك نصيباً كبيراً، وهو المنفذ لما تم تخطيطه من أهداف، ومادة كتابه هي حصيلة اطلاع ممتاز على ما سبقه من مؤلفات في موضوع كتابه. لقد نسب الفضل لذويه، فأشار إلى كتاب ابن الداية الذي له فضل السبق في هذا المجال، وبين أنه سيحقق في كتابه ما لم يحققه سلفه، وفقاً لتعليمات وتوجيهات سيده - المجهول الذي لا نعرفه تحديداً - الذي أشار عليه بهذا الكتاب، وشرح له طريقته، وحدّ له حدوده، ومعاله الرئيسة.

ب- التواضع الجَمّ:

بعد أن ذكر منهجه، وحدد عناصره بدقة يُحسد عليها، اعترف البلوى في تواضع شديد أن ابن آدم - ويصدق عليه ذلك ولا شك - لا يخلو من تقصير ونقص، وأنه لم يَسَلِّمْ من ذلك الفقهاء، والأصوليون، والمحدثون، وهم الواضعون لشرائط الدين، والمبلغون سنن المرسلين^(٦).

(١) سيرة ابن طولون، للنوى ص ٦٢. وبعدها.

(٢) لاحظ مدخل سيرة ابن طولون للنوى، لكرد على ص ٥٥. وسيرة ابن طولون ص ٦٢ (صلوات الله عليهم أجمعين، وترضى عن آل البيت أجمعين)، واكتفى بالترحم على عمر (ص ١٤٦).

(٣) د. حسين مؤنس في (مقدمة تحقيق الحجة السنيّة ١/٤٨).

(٤) راجع حث القرآن على مودة آل البيت: ﴿قُلْ: لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا الْمُدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾. سورة الشورى انكية: من الآية ٢٣.

(٥) سيرة البلوى: ٣١-٣٢. (٦) سيرة أحمد بن طولون، للبلوى ٣٢.

ويؤخذ على البلوى أنه بالغ في التواضع حتى ذلَّ، وذلك لما قال عقب ذلك: " وكيف ما إن قصر عنه مقصّر لم يُوزّر، وإن بالغ فيه مجتهد لم يُؤخّر"^(١). ومعنى ذلك أنه يرى التاريخ أقل شأنًا من الفقه، والعقيدة، والأصول، والحديث. ومن ثم، فالبلوى يعد نفسه أقل من رجالات هذه العلوم، فعلمه بالتاريخ إن قصر المقصر فيه لا وزر عليه، وإن بالغ في الاجتهاد فيه، فليس له أجر. وأعتقد أن هذا مفهوم مرفوض تمامًا لما يلي:

أ- أن العلوم الإسلامية تتساوى في الأهمية، وكلها يكمل الآخر، دون تفاضل بينها. والتاريخ بالذات له من الأهمية والحيوية ما يجعله متصلًا بكافة العلوم الإسلامية والعربية الأخرى^(٢).

ب- أن التخصيص في التاريخ يؤخذ عليه المرء، وأن الاجتهاد مأجور عليه^(٣)، شأنه شأن كافة سلوكيات الإنسان.

وأخيرًا، فقد كان جديرًا به أن يكتفى ببيان أن عمل الإنسان مهما كمل، فلا بد أن يلحقه تقصير، فالتقصير من سمات البشر، وحسبه أنه بذل كل ما يملك^(٤).

ج- حسه الوطني الصادق تجاه بلده مصر:

لقد حرص البلوى على بيان أهمية ولاية مصر بالنسبة للخلافة العباسية، وأوضح أن الخلافة تدقق في اختيار من يلي مصر، فيُختبى^(٥) بها من صَحَّت فيه الصفات، والكفاءات المطلوبة، والثقة والمثالة العظيمة لدى الخلافة، فيكون بجوار بلاط الخلافة، ويستحلف عليها ثقة يحكمها باسمه نيابة عنه، وإليه تُحمل أموالها، ويُذعى له على منابرها^(٦). فحبه لبلده مصر لم يخرج عن الموضوعية، التي تتجلى في أنها إحدى ولايات الخلافة، وإن كانت أهم تلك الولايات قاطبة.

د- إيمانه العميق بالقضاء والقدر:

كان لروح الإيمان دور أساسي في معالجة تطورات حياة (أحمد بن طولون) وكان يُنفذ

(١) المصدر السابق: ٣٢.

(٢) تراجع أهمية علم التاريخ من خلال عوامل تدويه المذكورة في كتاب: (الحياة الثقافية في العالم العربي في القرنين: الأول، والثاني الأخيرين) ج ١ ص ٣١٢-٣١٤.

(٣) قال الله (تعالى): ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾. (سورة البقرة: من الآية ٢٨٦). وقال أيضاً: ﴿وَأَنْ لِّسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى. وَأَنْ سَفِيهُ سَوْفَ يُرَى. ثُمَّ يُخْرَاهُ الْجِزَاءُ الْآوْفَى﴾. (سورة النجم ٣٩-٤١). وقال أيضاً: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾. (سورة الزلزلة: الآيتان ٧-٨).

(٤) والبلوى نفسه يدرك أن الإنسان مهما أبدع وامتلك المواهب، فإنه يلحقه نقص في مجال ما. وقد طُبِّق ذلك عندما تناول العباس بن أحمد بن طولون، فعند أن ذكر أدبه وشعره سرعان ما استدرك قائلاً: "إلا أن الكمال لله عز وجل" (سيرة البلوى ٢٤٦).

(٥) وهكذا، ينتهي البلوى اللفظة المعبرة، فكان مصر هدية تُهدى للخلافة إلى من تكفه لولائها.

(٦) سيرة البلوى ٣٣.

من خلاله إلى عمق الأحداث والوقائع، يَسْبُر أغوارها، ويدرك بحكمة نافذة، وشفافية كبيرة ما وراء الأعماق. ويمكن الاستشهاد بموقفين يعبران عن ذلك:

الأول - يتعلق بموت أعداء أحمد بن طولون واحداً بعد الآخر^(١)، حتى خلا له الجو، وأحكم سيطرته على مصر والشام. لكن سرعان ما أدارت الأيام له ظهرها، وإذا بالقدر يجني له ضربات قاصمة ظهره، محطمة آماله، محبطة خُطَطَه التي كان يتغياها^(٢). يرى البلوى أن ذلك كله حدث؛ لتتم مشيئة الله ﷻ في ابن طولون بانقضاء عمره، وزوال ملكه. وهكذا، يجري حكم الله على سائر خلقه عند انقضاء آجالهم، يكدرهم بالحن، وينقص عليهم عيشهم، وإذا أراد الله أمراً أتى بعضه يتلو بعضاً؛ ليؤدب بذلك المؤمنين وينبّه به المعتبرين، ويخفف به عن قلوب المتقلبين (المضيق عليهم)^(٣).

الثاني - استخدم البلوى الروح الإيماني نفسه في تحليل سوء تصرفات ابن طولون، وتحبته في نهاية حياته، وتناوله ما يضره في صحته؛ مما عجل بوفاته. فبعد أن كان في الماضي (لما كانت له بقية من عمر) مثلاً للحكمة والفراصة، والحُسن الصادق، انقلب ذلك كله دفعة واحدة، فصار عدو نفسه، يطعمها سراً من طبيبه السمك الذي يؤذيها، والأطعمة المتخمة المؤذية في حال الصحة، فكيف مع العلة؟! ثم يجادع نفسه ويسخر منها، ويكتم طبيبه وغيره حاله، حتى كأن في معدته - بسوء فعله - عدواً قاتلاً. ثم إذا به يُفَضِّل المدعو هاشماً الجاهل على عابرة أطبائه (مثل: سعيد بن توفيل، وغيره)، إلا أنه إذا أراد الله ﷻ أمراً، سلب كل ذي لبّ لُبّه؛ حتى تتم مشيئته^(٤). هكذا، بيان رائع، وحسن قراءة للأحداث، وإيمان عميق ينظر المؤرخ البلوى إلى حقائق الأمور ويفسرها.

٢- السمات العقلية:

أ- ذكاؤه وفطنته: من خلال القراءة التأملية الواعية لأثره الوحيد الباقي: (سيرة أحمد بن طولون)، وهاكم مثلاً حياً على ذلك: سرد البلوى على مسامعنا، وسَطَّر بقلمه البالغ، وصوّر أمام عيوننا مراحل مرض الأمير ابن طولون، وبين أنه لما أسرف على نفسه في شرب لبن الجواميس بالشام، أصيب بإسهال وقئ شديدين، استدعى على أثرهما طبيبه الخاص (سعيد بن توفيل)، ففوجئ بعدم تواجده إلى قريب منه في هذه العلة الشديدة، وعلم أنه خرج إلى بعض الديارات

(١) لما عدا عليهم الموت، وهم الوزير عُبيد الله بن خافان، وماجور التركي، وموسى بن بغا. (سيرة البلوى ٩١).

(٢) كان ابن طولون يهدف بعد توحيد مصر والشام تحت رايته، إلى جهاد الروم، لكنه فوجئ بخروج ابنه العباس عليه، فقام بواد كل من فكر وأعدّ له. ثم تلقى صدمة أخرى بخروج غلامه لولو بالأموال والجيش والسلاح عليه، وانضمامه إلى عدوه الألد الخصم (الموفق)، وكان لولو عمدة ابن طولون، وعليه كان معوّله.

(٣) سيرة البلوى ٢٧٢.

(٤) سيرة البلوى ٣٢٧.

هناك. فماذا كانت النتيجة؟ إن البلوى يرصدها جزئية جزئية؛ لفهمه ووعيه بأنثراها في نهاية ابن طولون المحتومة، فذكر أن ألم الأمير من جهة، وطبعه التركي ومزاجه الحاد من جهة ثانية، وحرصه الشديد على استعادة صحته وعافيته ثالثاً، كل ذلك جعل الكمد والغيظ يملأ قلبه، فزاده الغيظ وضيق الصدر ألماً ومرضاً (إسهالاً، وقيئاً). ويضاف إلى ذلك أنه أغلظ القول لسعيد طبيبه لما عاد، ثم منعتة عزة نفسه وكبرياؤه أن يشكو له ما حلَّ به، فازدادت العلة قليلاً قليلاً، واستحكمت منه^(١). وهكذا، أدرك البلوى بذكائه النادر ما للحالة النفسية من أثر بالغ في الحالة الجسدية للإنسان؛ مما أدى إلى تفاقم حال الأمير.

ب- ثقافته العربية الأصيلة، وإلمامه بمعارف العصر:

١- لغته، وتدفق معانيه وغزارتها:

الناظر في (سيرة ابن طولون) للبلوى يلمس تأقُّه في ألفاظه ومفرداته، وجمال تعبيراته، وتدفق معانيه في عبارات مطوّلة أحياناً، يشحذها ذهنه، وتدفع بها قريحته، فتغضض على غير المتأمل المتأن. وترى في لغته جملاً مسجوعة لا تكلف فيها^(٢). ومن الأمثلة على ذلك:

قوله عما أدخله ابن المدبر من ضرائب جديدة على أهل مصر، اتبعها أصحاب الخراج المتشددون من بعده: "ابتدع بمصر بدءاً صارت سنناً إلى اليوم". وقوله في تعبير دقيق بارع، يصور ما حلَّ بابن شيخ من هزيمة نفسية بعد هزيمته الحربية أمام الخلافة العباسية، ومقتل ولده في المعركة: "ودخل ماجور دمشق عزيزاً مظفراً. فلما اتصل الخبر بابن شيخ، وقُتل ولده وخليفته، وصناديد عسكره اتخذ، وفَتَّ ذلك في عَصْده، وانكسرت نفسه، وضافت به الشامات". والنتيجة: "فرحل عنها على طريق الساحل، يريد أرمينية"^(٣).

ويلاحظ - أخيراً - أن القاموس اللغوي للبلوى مشترك مع ابن الداية في بعض الألفاظ، والمصطلحات^(٤)، وقد ينفرد ببعض المفردات والتراكيب^(٥)، مما يحتاج إلى دراسة اللغويين المختصين في هذا المجال.

(١) مقدمة البلوى لسيرة ابن طولون ص ٣١. (٢) السابق: ص ٤٣. (٣) السابق: ٥٢.

(٤) استخدم البلوى بعض المصطلحات التي سبق إليها ابن الداية، مثل: الحضرة (لتعبير عن عاصمة الخلافة العباسية ص ٤٥)، والمطّيق (سجن ابن طولون تحت الأرض ص ٥٠)، ومصطلح الجواز (لتعبير عن ترخيص الانتقال من مكان إلى آخر في مصر، أو إلى خارجها أيام ابن طولون ص ٤٩)، والأولياء (كبار رجال البلاط العباسي) ص ٣٩-٤٠.

(٥) ومن مفردات البلوى الجديدة: (الأذمة) تعبيراً عن الأذى (ص ٤٧) وشيخ بدل (أشاع)، ولقطة "الأحلام" في قوله: من شياطين الكتاب والعمال (الأحلام) أي: الأشداء. (ص ٤٣). وأزوجه بدل (زوجه) ص ٤٥-٤٦. وله تركيب بدا ركيكاً، ربما أسقط الناسخ منه ما أدى إلى اتصافه بذلك، وذلك قوله: (وزاد جميع الأعمال الخارجة كانت عن مصر) ص ٤٦.

٢- ثقافته الدينية والأدبية:

من الواضح تأثر المؤرخ البلوى بأسلوب القرآن في عرضه التاريخي في (سيرة أحمد بن طولون)، فكان يضمّن بعض الآيات خلال بعض تعبيراته وأساليبه، مثل قوله عن موقف ابن طولون من وشاية ابن المدبّر به لدى الخلافة: "وغمي الخير إلى أحمد بن طولون، فأسرّه في نفسه ولم يُسبده"^(١). وكذلك قوله عن قرب نهاية ابن طولون: "حتى إذا بلغ الكتاب أجله، انقلبت الغين"^(٢)، وتابعت المحرّ"^(٣). وبالإضافة إلى ما تقدم، فقد استشهد ببعض آية قرآنية في مقدمة عن طريق انسجام سمواته مع ~~نظام~~ كتابه، استبدل بها على كمال صنع الله وخلقه ووحدانيته أرضه، وعدم فسادهما، حيث قال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾^(٤). وبالنسبة لثقافته الأدبية، فهي شائعة في أرجاء كتابه، من خلال الاستشهادات الشعرية المطولة، التي كان يحسن اختيارها، وإدراجها في المكان المناسب لها، بما يزيد الحدث التاريخي وضوحاً وعمقاً. وهي تدل على كثرة محفوظاته من الشعر العربي، وحسن تفهمه معانيه ومدلولاته^(٥).

٣- ثقافته التاريخية:

يتضح من خلال قراءة كتاب (سيرة أحمد بن طولون) للبلوى أن الرجل لم يكن على علم بتاريخ مصر المحلي في فترة العصر الطولوني فحسب، وإنما ظهر لنا جلياً أن الرجل كان على علم بالتاريخ وأحداثه في فترات تاريخية متعددة خارج نطاق بلده مصر. وقد كان البلوى ينتهز الفرصة، ويستطرد لأدنى ملابسة، لإظهار هذه المعلومات التاريخية.

ومن مظاهر ذلك: ما نقله عن عمر بن الخطاب وموقف عبد الله بن الزبير منه صغيراً، وشجاعته أمام أمير المؤمنين^(٦). وكذلك ما أورده عن ضعف سلطة الخليفة المستعين العباسي، وتحكم قادة الأتراك (وصيف، وبغا) فيه؛ لأنه كان يؤثرهما ويقدمهما، ويقول برأيهما، وما قيل من شعر؛ تعبيراً عن ذلك الموقف^(٧).

(١) سيرة البلوى ص ٤٥. وهو بذلك يشير إلى قوله (تعالى) حكاية عن يوسف، وقد استمع إلى اتهام إخوانه له بالسرقه قبلاً؛ ظناً وإهتاناً وهم لا يعرفونه، فكظم غيظه، ولم يراجع إليهم قولاً. يقول الله تعالى: "قَالُوا: إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِن قَبْلُ فَأَسْرَحْنَا يُوسُفَ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُنْذِرْنَا لَهْمُ قَالَ: أَنْتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ". (يوسف: ٧٧).

(٢) الغين: شاهد كل شيء وحاصره (اللسان: مادة: ع. ي. ن). ج ٤ ص ٣٢٠.

(٣) سيرة البلوى ٢٧٩. لعله من قوله (تعالى): "لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ". (آخر آية ٣٨ من سورة الرعد).

(٤) سيرة البلوى ٣١. ونظام الآية: ﴿فَقَسْبِحْ بِحَنِّ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٢).

(٥) راجع سيرة البلوى، وما ورد بها من شعر ص ٤٠، ٩٤-٩٥.

(٦) المصدر السابق: ١٤٦-١٤٧.

(٧) سيرة البلوى: ٩٣.

٤- ثقافته الفلسفية:

لم تظهر هذه الثقافة بصورة كبيرة كتلك التي كان يتمتع بها المؤرخ المصري (أحمد بن يوسف)، ربما لتعدد مؤلفات ابن الداية، التي بين أيدينا. أما البلوى، فليس له - فيما نعرف - إلا (سيرة أحمد بن طولون). وقد وردت إشارات يسيرة في ثلاثة مواضع، تشير إلى اطلاعه على أقوال الحكماء:

أ- نقله ما رواه يوسف بن إبراهيم عن أنوشروان من عدم إقدام الملك الائق بنفسه على الرضا والغضب السريع، فذلك من أخلاق النساء^(١).

ب- نقله قول الحكماء: "ترك العادات ذنب محسوب"^(٢).

ج- ما علق به بعض العلماء حين سمع شدة تحذير ابن طولون طبيبه سعيد بن توفيل أن يفرط في خدمته إياه، فقال: "ما سمعتُ حثاً لمتطبيب على مبالغة في نصيح أشد من هذا"^(٣).

خلاصة مقارنة بين ترهقي: (ابن الداية، والبلوى)

أ- معرفتنا بأسرة ابن الداية (خاصة والده)، وتنوع وغزارة مصادر ثقافته وعلاقاته؛ مما انعكس في تنوع وكثرة مؤلفاته. أما البلوى، فنجهل أسرته، ولا نعرف - بالتفصيل - ثقافته، ولم يبق من مؤلفاته إلا سيرة ابن طولون، عرضها مفصلة، تفوق فيها على ابن الداية معاصره، وتمكن من إزالة جفاف المادة العلمية التاريخية عن طريق بلاغته الأسلوبية، وثقافته الشعرية والدينية.

ب- تنوع وغزارة أساتيد ابن الداية، ووجود تلاميذ له، عرفنا منهم اثنين، لهما شأن كبير في مجال التاريخ في مصر الإسلامية بعد ذلك. أما البلوى، فسنعرف أساتيده في مجال التاريخ فقط عند تحليل موارد كتابه الأواحد الباقي. وفي ذات الوقت لا نعرف أحداً من تلاميذه.

ج- تشابه ساهما الشخصية، وإن اتضحت أكثر على مستوى ابن الداية؛ لتنوع وغزارة مؤلفاته، فأمكن استنباط الكثير منها. وتعرض كليهما للأنعام بالثبني، وإن طال أنعام البلوى به أكثر، إضافة إلى أنعامه بالكذب والوضع على رسول الله ﷺ، مما دُلِّلنا على عدم صحته، والتصافه برجل آخر يشبهه اسماً.

(١) المصدر السابق: ١٦٧.

(٢) السابق ٢٧١. وذلك تعليقا على علة (الحسن بن مهاجر الكاتب) على ابن طولون أواخر حياته، إذ حثَّ له جمع الأموال، ومنعه عادته الجميلة في الإحسان إلى الناس، فتغيرت القلوب على ابن طولون، وانغرفت عنه النفوس.

(٣) السابق: ٣٢٩.

مدخل نحو (دراسة سيرة أحمد بن طولون)

منهج في الدراسة:

لما كان موضوع كتابي ابن الداية، والبلوى واحداً، ومواردهما تكاد تكون متطابقة، ومحتوياتهما متقاربة، اللهم إلا ما يتصل بإيجاز ابن الداية، وتفصيل البلوى في عدد من الروايات، ومنهجهما مشتركاً؛ رأيت أن دراسة كل كتاب على حدة نوع من التكرار غير المفيد، فاهتديت إلى دراستهما معاً تحت العناصر والأفكار التي تشملهما معاً، محدداً نماذج مختارة بعناية من كل، محيلاً على بقية النماذج في الحاشية، مبرزاً أوجه الالتقاء والافتراق بينهما - إن وجدت - في كل جزئية من جزئيات تلك الدراسة التحليلية المنهجية المقارنة.

قبل أن أدخل في خضم تلك الدراسة المنهجية، هناك مجموعة من القضايا، التي يجب أن تكون واضحة، فهي ذات صلة جد وثيقة بموضوع الدراسة، وهي على النحو الآتي:

١- توقيت تأليف الكتابين:

الحق أن هذه القضية لم يرد بخصوصها نص واحد صريح في أي من المصادر التي طالعناها. ومن هنا سوف نعتمد على الترجيح الغالب، والاستنتاج غير المباشر من بعض الأحداث الواردة. وقد سبقني لبحث هذا الموضوع بعض الباحثين، فمنهم من يرى أن ابن الداية وضع كتابه وابن طولون حي^(١) (أي: في تاريخ أقصاه سنة ٢٧٠هـ). ومنهم من يرى أنه ألف سنة ٣٣٩هـ^(٢). ويرى ثالث أن كتب ابن الداية في بني طولون كُتبت قبل انقراضهم دولتهم (٢٩٢هـ)؛ لأنه توفي بعد ذلك بما يزيد على أربعة عقود^(٣).

ويمكن الرد على الرأي الأول بأنه لا دليل عليه، وبمنظرة فاحصة لأحداث سيرة ابن الداية نجد فيها أخباراً، وقعت بعد وفاة ابن طولون^(٤)؛ مما يدل على أنها كُتبت بعد وفاته.

أما الرأي الثاني، فقد اختلط على صاحبه الأمر ما بين تاريخ وفاة المؤلف من وجهة نظره -

(١) د. شعبان مرسى في (بحوث في الأدب العباسي) ص ١٠.

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامي، للدكتور شلي ٥٥/٥.

(٣) كوز الأجداد ١٢٨-١٢٩.

(٤) مثل: خبر وفاة ابن طولون، وحنارته (سيرة ابن الداية ١٣١). وما حدث به ابن الداية عن تركه ابن طولون، وأولاده الذين تركهم بعد موته (السابق ١٣٢-١٣٣). وحدثه بهذا (علي بن مهاجر) أيام إمارة ابنه أبي الخيش حمارويه. وكذلك ورد ما خبر عن قتل الحسن بن مهاجر الكاتب في عهد حمارويه (السابق ١٠٧). وكذلك روايات عديدة ذكر ابن الداية في صدرها أن محدثه رواها له بعد وفاة ابن طولون. (السابق ١٢٦، ١٣٢). وأخيراً، أحداث رفض العباس مبايعة أخيه حمارويه بعد وفاة ابن طولون، والأمر بحبس حتى الموت (سيرة ابن الداية ١٣١).

وهو المذكور في عبارته - وبين تاريخ تأليف الكتاب وهو موضع البحث والدرس. وأما الرأي الثالث، فهو أقرب الآراء المذكورة إلى الصواب، وإن لم يحدد التوقيت الذي نراه صحيحاً.

والذي أعتقد أنه ابن الداية - بحسب المؤرخ الموهوب - كان يراقب الأحداث في عهد ابن طولون، ولعله كان يسجل مسودات كتابه عنه. ولا أظن أن مادة كتابه اكتملت وثائقها إلا في عهد (هارون بن حمارويه) لما التحق بالعمل في الديوان. وأتوقع أن الاضطرابات الشائعة في ذلك العصر لم تكن تسمح لابن الداية بإخراج الكتاب في صورته النهائية. وأضيف إلى ما تقدم أن الفترة التي أعقبت سقوط الطولونيين - أيضاً - لم تكن مناسبة إطلاقاً لإصدار كتابه، وذلك في ظل عداء العباسيين الوحشي، وتخريبهم وتدميرهم لكل ما يمت للطولونيين بصلة؛ حتى يمحوا كل أثر لهم من عقول وقلوب الناس. وأرجح - بناء على ما تقدم كله - أن يكون الكتاب قد خرج إلى النور بعد نظر وفحص وتدقيق، وبعد استقرار الأحوال في عهد الوالي تكين (حوالي سنة ٣١١هـ) في ولايته الثالثة، التي استمرت حتى سنة ٣٢١هـ. وأكد أجزم بأن هذه الكتب عن ابن طولون وبنيه من بعده، والتي نجت وغيرها من كتب ابن الداية - مما لم يُعثر عليه إلى الآن - لم تُؤلف قبل نكبة الطولونيين، ولم تظهر إلى الوجود، وإلا لدمرت تماماً، ولم نعتز لها على أثر بعد الخراب الشامل، الذي حلّ بمصر في (القطائع)، ثم الفسطاط على يد (محمد بن سليمان). وبالتالي لا صحة لما يقوله كرد علي^(١) بأن ضياع كتب ابن الداية له صلة بسقوط دولة بني طولون، وأنها وضعت قبل انقراض دولتهم. وأعتقد أن كتبه ظهرت وانتشرت بدءاً من التاريخ المذكور سلفاً، بعد أن لم يعد هناك خوف على العباسيين منها. وقد ظل كتاب سيرة ابن الداية موجوداً حتى طالعه ابن سعيد في مصر في القرن (السابع الهجري)، ونقله لنا في كتابه (المقرب) حتى ضاع الأصل، وبقي لنا في كتاب ابن سعيد، الذي حفظه من العدم. وفي اعتقادي أن (سيرة حمارويه) لابن الداية بقيت، حتى ذُيِّل عليها ابن زولاقي. هذا وقد طالعها ابن العديم (في القرن السابع الهجري) عندما نقل لنا عن نسخة عتيقة منها نصاً في (بغية الطلب)، كما سرود بعد ذلك عند تناولنا للسيرة المفقودة.

أما بخصوص مؤرخنا البلوي، فهو رغم تفوقه على ابن الداية في منهجه، ورغم أن لكتابه مقدمة واضحة، بين فيها ظروف تأليفه كتابه، إلا أنه لم يذكر فيها زمن وضع هذا الكتاب، ولم يحدد لنا الشخصية التي كلفته بتأليفه^(٢). لكن الشيء المؤكد - رغم معاصرت ابن الداية - أنه

(١) كنوز الأجداد: ص ١٢٨-١٢٩.

(٢) ولو فُتِّر توضيح هذه الشخصية - ولا بد أنها شخصية سياسية مهمة مثقفة - لاقترنا أكثر من توقيت تأليف الكتاب، أو بداية التكليف به على الأقل. وسوف أورد محاولة لتحديد بعد قليل.

وضع مؤلفه بعد صدور مؤلف ابن الداية؛ بدليل أنه طالعه، وذكر وجوه التقصير والنقص فيه، وحاول تحجّنها في كتابه الجديد. ويذكر كرد على^(١) أنه لم تعرف - بالتحديد - سنة تأليف البلوى كتابه، لكن هناك أحداثاً وردت في سيرته، تعطى مؤشرات تقريبية عن توقيت تأليف الكتاب، ويرى أنه ألفه بعد سنة ٣١٢هـ، التي وافى فيها مصر الوزير على بن عيسى بن الجراح، وقد ذُكر في كتاب البلوى. كما ورد ذكر الخليفة المقتدر (قتل سنة ٣٢٠هـ)^(٢). واستنتج الباحث من رواية البلوى عن أناس رووا عن ابن الداية^(٣) أن البلوى أُلّف كتابه في الثلث من القرن الرابع الهجري في أرجح الظن بعد وفاة ابن الداية، وبعد أكثر من ستين سنة مضت على وفاة ابن طولون^(٤).

خلاصة الراى عندي:

١- أن النص الذي ورد فيه ذكر الوزير على بن عيسى في كتاب البلوى لم يحدد تاريخ تواجده في مصر، لكن سبق أن ذكرت أنه قدم إلى مصر مرتين (سنة ٣١٢هـ، وسنة ٣١٨هـ)، وأرجح أن كتاب البلوى أُلّف بعد سنة ٣١٨هـ (أواخر العقد الثاني من القرن الرابع الهجري)، ولعله أهدى إلى ذلك الوزير، ولعل له فضل توجيه البلوى إلى تأليفه، فأهداه إليه بعد أن أهدى إليه ابن الداية من قبل كتابه في (المنطق) في زيارته الأولى لمصر. ومن ثم، فالتاريخ الذي حدده كرد على متأخر عن التاريخ الذي حددته ورجحته، وتاريخه هذا أقرب إلى ميقات وفاة البلوى من أن يكون تاريخ تأليف كتابه.

٢- وبعد مناقشة تلك القضية أخلص إلى أن كلا الكتابين وُضعا في القرن الرابع الهجري، ولذا جاز أن يُدرّسا ضمن الكتابات التاريخية في هذا القرن. وما دام ابن الداية سبق البلوى في التأليف، فلا بد أن يكون الأخير قد تأثر به، ونقل عنه، خاصة أنه طالع كتابه، وحاول إصلاح ما فيه من خلل وقصور. فما حقيقة العلاقة بين الكتابين ؟ ذلك موضوع النقطة التالية.

(١) مدخله لسيرة البلوى ص ٧.

(٢) معلوم أن المقتدر قتل في شوال ٣٢٠هـ (ولاية مصر - ط. حسين نصار ص ٢٩٨). لكن النص الذي ورد فيه ذكر المقتدر في سيرة البلوى لا يستفاد منه ذلك؛ لأنه يعبر عن بدايات عهد المقتدر، فهو متصل بأحداث صدام تكين وحيثه مع الغاثم العبيدي في حملته الثانية على مصر (٣٠٧-٣٠٩هـ). (راجع ما ذكره البلوى عنها في سيرته ص ١٠٢-١٠٣).

(٣) من دراستنا لتلاميذ ابن الداية، وجدنا أهم اثنان: الفرغان، وابن زولاقي. ولم نجد ذكراً لأى منهما في سيرة البلوى، ومن ثم لم ينقل البلوى عنهما شيئاً. ولعل تصحيح عبارة كرد على هو (عن أناس روى عنهم ابن الداية)، وهذا كثير متحقق، كما سرى في دراسة موارد الكتابين. وهذا حائز؛ لأن كليهما متعاصران.

(٤) من الغريب أن يهتم البلوى بسيرة ابن طولون بعد كل هذه الفترة من تاريخ وفاته (٢٧٠هـ)، وبعد انهيار دولته (٢٩٢هـ). فلعل ما كُلف به، وورغته في سد الخلل الحاصل؛ نتيجة اختصار ابن الداية سيرته، دفعه إلى إعادة كتابة سيرته. ويلاحظ أنه لم تعرف له كتب عن عصر الإخشيد - مثلاً - رغم أنه عاصره، فعملها فُقدت.

٢- العلاقة بين سيرتي: (ابن الداية، والبلوى):

الرأى الأول:

أ- يرى كرد على أن البلوى أورد في كتابه تسعين رواية، منها: خمسون نقلها عن ابن الداية من كتابه: (سيرة أحمد بن طولون)، و(المكافأة). أما الأربعون الأخرى، فجاء بها من عنده على ما يظهر^(١). ويقول في موضع آخر: لكننا لا ندري: هل هذه الروايات الأخيرة نُقلت - كذلك - في المطبوع^(٢) من كتاب ابن الداية، أو تُلقتُها من أماكن أخرى؟ وإن كانت يرجح من نسقها، وعبارتها الطليّة، أمّا من بضاعة ابن الداية^(٣).

ب- يُعذر البلوى على سلخه أخبار ابن الداية، بمعناه ومبناها (مع زيادات عليها جعلتها ممتعة في القراءة؛ نتيجة مهارة البلوى في تأليفها)^(٤). ولا يعذر البلوى في نقله عن ابن الداية دون تصريح، وهو العالم الفقيه الواعظ. ولو نسب ما أخذ لابن الداية، لزاد كتابه توثيقاً، ولصار له وقع في نفوس قارئيه، إذ ينسب الفضل لذويه، ويعزوه لقاتليه. ويرى أن الطليعة^(٥) جازت البلوى، فسطا المقرئ على كتاب البلوى، وسلخ من كلامه صفحات طويلة في (الخطوط).

خلاصة رأى كرد على:

أن لابن الداية فضل السبق، وللبلوى الزيادة والإضافة. ويعتقد أن كتاب ابن الداية لو ظفر الباحثون بالأصل السليم^(٦) منه، لكان أمتع؛ لأنه كتبه عن عيان ومشاهدة، ونقل عن ثقات وعارفين. أما البلوى، فيمتاز بخلوه من المؤثرات السياسية في الجملة، فكتب وهو لا يُخشى عليه مصانعة من يعاصره، كما أنه تاريخ مطول يجعلنا أدنى إلى الإحاطة بحال ابن طولون، ودولته في عصره^(٧).

(١) درس هذا الموضوع كرد على في: كنوز الأحجاء ١٦٣، ومدخله لسيرة البلوى ص ٨، ١٠-١٢.

(٢) وهذا مرتبط بفهمه أن ما بين أيدينا من سيرة ابن الداية إن هو إلا مختصرها، وسنناقش ذلك فيما بعد.

(٣) مدخل إلى سيرة البلوى ١٠-١١.

(٤) راجع - مثلاً - تفاصيل حيل والألعاب (طيفور نائب ابن طولون بالحضرة)؛ لأجل منع القواد أن يستحيوا للموفق في القبول بولاية مصر بدل ابن طولون (سيرة البلوى ٦٠-٦٢)، وقارنها بابن الداية (ص ٩٥). وكذلك قارن تفاصيل قبض ابن طولون على شيخ يعمل حاسوباً للموفق، ثم إطلاقه (سيرة البلوى ١٢٢-١٢٤)، بما ورد في (سيرة ابن الداية ص ١٠٠)، وغير ذلك كثير.

(٥) هذا تعبير لا يجوز عقدياً، فكان الكاتب من الدهريين أو الطبيعيين، الذين ينسبون الأفعال إلى الطبيعة لا إلى خالق الطبيعة، وقد أورد تعبيره هذا مرتين، رغم أن الطبيعة لا تُحازى، ولا تقتص. وهو ينشئ - أيضاً - مع رأيه أن ما نُشر من سيرة ابن الداية مختصر عن الأصل.

(٦) وهو ينشئ - أيضاً - مع رأيه أن ما نُشر من سيرة ابن الداية مختصر عن الأصل.

(٧) مدخل إلى سيرة البلوى ص ٨.

الرأى الثانى:

يسرى العبادى^(١) أن لا عجب كل العجب فى سطو المقرئى (فى القرن التاسع الهجرى) على مؤلف البلوى (فى القرن الرابع الهجرى)، إنما العجب حقاً أن سطو البلوى على مؤلف معاصر له (ابن الداية)، ولعلهما التقيا، وعرف كلاهما الآخر. وله رأى جديد فى تعليل التشابه بين مادة كتابهما، هو أن كليهما استمد من المصدر نفسه، الذى استمد منه الآخر (ديوان الإنشاء المصرى)، وله على ذلك عدة أدلة، يسوقها من كتاب البلوى نفسه^(٢).

خلاصة الرأى عندى:

لا أقبل الاتهام الذى وُجّه إلى البلوى بالسطو على كتاب ابن الداية المعاصر له، والنقل عنه دون أن ينسب النصوص والروايات له. فالبلوى يذكر موارد رواياته، وما كان يضره أن يشير إلى ابن الداية لو أنه نقل عنه مباشرة، وما كان ذلك ليعيبه فى شئ. وأقول: لعله استفاد من تخطيط ابن الداية كتابه وأفكاره، ولكنه عاد - فى الغالب - إلى المصادر الأصلية، التى رجع إليها ابن الداية، واستعان بالديوان، فأخذ من وثائقه ما لم يأخذ ابن الداية. فأتى كتابه على نهج جديد، ومنوال بديع، وأورد به تفاصيل كثيرة^(٣)، وعالج بمنهج رائع، دّل على عظمة البلوى مؤرخاً بصورة لم تظهر فى سيرة ابن الداية، التى عمد صاحبها إلى عرضها مختصرة، مكتفياً بذكر ما يُستحسن من أخبار ابن طولون. وإذا كان الأسلوب متشاهماً فى عدد من الروايات، فلا يعنى ذلك أن البلوى يؤلف من كلام ابن الداية، ويصوغ بدقة ما يحدّث به قارئه، ويومه أنه أسلوبه الخاص به؛ لأن ثقافة العصر واحدة، وعبرة البلوى إذا قيست بابن الداية لا تقل عنها فصاحة وجزالة^(٤). وإذا كان البلوى نقل فى سيرته بعض روايات فى كتاب (المكافأة)؛ فلأنها روايات

(١) يراجع رأى عبد الحميد العبادى فى (مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة) مجلد ١/ ١٩٤٣م، ص ٤-٦.

(٢) من ذلك: ما ورد فى (سيرة البلوى ص ١١١-١١٢): أن ابن طولون جعل للرسائل ديواناً، تختم فيه الكتب بعد تحرير الكتاب لها، وعرضها عليه. والغالب أن ديوان الإنشاء كانت تحتفظ فيه - خلافاً للرسائل الرسمية - محاضر يجالس ابن طولون بعد عرضها عليه، فكان له كتاب يسجلون كل صغيرة وكبيرة فى مجالسه. وربما كانت تُحفظ فى (ديوان الإنشاء) رقاع التقارير، التى تُرفع للأمير من غلمانته وأصحاب أخباره (المصدر السابق ٢٢٤، ٢٢٨-٢٢٩). وأحيراً، هناك دليل عقلى: تشابه اللفظ والمعنى والأسلوب فى نصوص مراسلات رسمية بين ابن طولون والموفق، والعباس بن أحمد بن طولون فى كل من: (سيرة ابن الداية، والبلوى) معاً؛ مما يدل على وحدة مصدرها.

(٣) الحق أنه وردت فى (سيرة البلوى) روايات كثيرة لا وجود لها أصلاً فى (سيرة ابن الداية)؛ مما بنى نقله وسطوه على كتاب ابن الداية ككل. (راجع هذه النماذج فى سيرة البلوى ص ٦٢-٧٠، ١١٢-١١٧، ١٣٠-١٣٣، ١٤٧-١٤٨، ١٥٣-١٥٤، ١٥٦-١٥٩، وغيرها. وفى المقابل توجد بعض روايات قليلة فى (سيرة ابن الداية) لا وجود لها عند البلوى (راجع: ص ١٠٣، ١٠٧، ١٢٥، ١٣٣).

(٤) كنوز الأحاديث ١٦٣.

تاريخية، نقلها من موردها الأصلي^(١). وهكذا، لا نزع لابن الداية ما ليس فيه، ولا نبالغ في اتهام البلوى بما ليس فيه، وإنما نعطي كل ذي حق حقه بالدليل والبرهان.

٣- أصل الكتابين، وما يتعلق بطبعهما ونشرهما:

عند دراسة (سيرة ابن الداية) يثور سؤال مفاده: هل هذه السيرة التي كتبها ابن الداية وصلت إلينا كاملة، أو أنها ملخصة عن الأصل المفقود؟ والحق أن الرأي السائد بين الباحثين^(٢) هو أن الأصل فُقد، وأن ابن سعيد المغربي عرض لها ملخصة ضمن كتابه: (المُغْرِب في حُلَى المُغْرِب)؛ ومن هنا وردت موجزة بالقياس إلى (سيرة البلوى) المفصلة.

ولي رأى يناقض ذلك الرأي، مفاده أن (سيرة ابن الداية) المشار إليها سابقاً، عرضها ابن سعيد بكل دقة وأمانة، وعرضها كاملة كما وقعت له، ذاكراً أساسيد الروايات على النحو الذي وجدها عليه.

وأدلة ذلك ما يلي:

أ- ذكر ابن سعيد أنه يفرد لبني طولون، الذين توارثوا سلطنة مصر كتاباً، كما أفرد لبني عبَّاد ملوك إشبيلية كتاباً، فهم ممن تحلَّى بهم زمانهم، ودلَّ عليهم عنوانهم^(٣). فالرجل معجب بهم، فلا أقل من أن ينقل أول كتاب مُعَبَّر عن عصرهم الذهبي (ابن طولون) كاملاً، وقد سُمَّاه (كتاب الدرّ المكنون في حلى دولة بني طولون)، وضَمَّنَه سيرة ابن طولون، ثم من بعده حتى زوال أمرهم.

ب- أنه ذكر أن كتاب ابن الداية عن (ابن طولون) عنوانه: (المستحسن من أخبار أحمد بن طولون)، وذكر نسب مؤلفه كاملاً، وأوضح أنه يقتصر على هذا الكتاب في إيراد حياة ابن طولون، وأنه بعد الفراغ من ذلك الكتاب يأتي بما يقتطفه من غيره ما يتعلق بأخبار خلفاء أحمد ابن طولون من بعده^(٤). وهذا يعني أن ابن سعيد أورد كتاب ابن الداية كاملاً، ويزد على من يزعم أن الكتاب ناقص؛ لأنه مختصر، بأن الاختصار والاقتصار على محاسن أخبار ابن طولون

(١) قارن ما ورد في (المكافأة) لابن الداية ص ١١-١٥، بما يقابله في: سيرة البلوى (ص ٢٣٠-٢٣٤). وكذلك ما ورد في (المكافأة) ص ١٥-١٩، بالبلوى ص ٢٣٤-٢٣٧. وكذلك ما جاء في (المكافأة) ص ٤٨-٥٠، بما يقابله في البلوى ص ٢٣٧-٢٣٩، وغير ذلك.

(٢) كرد علي: مدخل إلى سيرة البلوى ص ٨، ١١، وعبد الحميد العبادي: مقاله في (مجلة كلية الآداب) ص ٢. ود. شعبان مرسى: بحث في الأدب العباسي ص ٣٦، ومحقق كتاب (المغرب - قسم مصر) لابن سعيد (المقدمة م ٤٣)، ود. سيدة كاشف: أحمد بن طولون ص ٩.

(٣) المغرب (قسم مصر) ص ٧١.

(٤) المصدر السابق: (قسم مصر) ص ٧٣.

كان هدفاً لابن الداية في حد ذاته، كما هو واضح من عنوان الكتاب، الذي تفرّد بالإتيان به ابن سعيد، فأنار لنا هذا الدليل^(١).

ج- أن سيرة ابن الداية تسير في أحداثها بطريقة منطقية بدرجة لا بأس بها، مع تطورات حياة ابن طولون من النشأة حتى الوفاة، وإن احتل الترتيب واضطرب وغمض أحياناً، بدافع الاختصار الذي أدى إلى شيء من الاختلال، كما سنرى بعد، مما تحببه البلوى فعليه يُشكر، ومن الله يُؤخّر.

د- بعد إيراد ابن سعيد سيرة ابن الداية - وهو الثقة الثبت الدقيق الأمين - قال: "كامل كتاب سيرة ابن الداية في سيرة أحمد بن طولون"^(٢). وحسبك بهذا القول الفصل دليلاً على اكتمال سيرة ابن الداية.

وهذا، وقد نشر فولرز Vollers الألماني كتاب ابن الداية مستقلاً سالخاً إياه من (المغرب)، في برلين سنة ١٨٩٤م^(٣) في (الجزء الأول من القسم الخاص بمصر) بتحقيق الدكتور زكي محمد حسن، وآخرين في طبعة جديدة جيدة، نعتمد عليها في دراستنا للكتاب.

أما البلوى، فيذكر محقق سيرته^(٤) أنها وجدت مخطوطة في (دار الكتب الظاهرية بدمشق)، وإن عنوانها في أولى صفحاتها كان على النحو الآتي: (كتاب سيرة آل طولون)، لكن الكتاب جاء (سيرة أحمد بن طولون) فقط. وكُتب في آخره خط يخالف خط ناسخه: (تمت سيرة أحمد ابن طولون). ويرى المحقق أن الغالب ضياع كراريس من آخره، أو أن المؤلف لم يف. بما وعد به في مقدمته^(٥)، ولم يذكر من أخبار أولاده إلا ما جاء عرضاً، ولأمر تتعلق بأبيهم لا بهم^(٦). هذا، وقد استفسر محققه عن مدى وجود نسخ أخرى مخطوطة تكمل النقص في آخره، فأفاده صديقه كرنكو Krenkow بأنه لا تُعرف له نسخ خطية أخرى، ولا شيء من أخباره سوى ما في الكتب المعروفة^(٧).

(١) وهذا العنوان هو ما راحه سيد محمد قطب في ماحسينه ص ٩٩؛ لاتفاق مع طبعة فكر ابن الداية، ورؤيته نشر فضائل الأعلام؛ للاقتداء بهم بعد ذلك.

(٢) سيرة ابن الداية (في كتاب المغرب) ص ١٣٣.

(٣) كان ناشرها مديراً لدار الكتب المصرية آنذاك. وفي بعض السيرة التي نشرها تحريفات كثيرة، أشار إليها محققو (المغرب - قسم مصر): راجع - مثلاً - هامش ١ ص ٧٤، وهامش ٢ ص ٧٦، وهامش ٣ ص ٧٩، وهامش ١٠ ص ٨٠، وهامش ٤ ص ٨٣.

(٤) مدخل كرد على لسيرة البلوى ص ١٣.

(٥) راجع البلوى في مقدمة (سيرة ابن طولون) ص ٣٢.

(٦) مثل: ذكر العباس عند شرح خروجه على والده، وعصيانه إياه (سيرة الطوى ص ٢٤٤)، وما بعدها، ووصية ابن طولون لاسه حمارويه قبل وفاته (السابق ص ٣٣٩).

(٧) مدخل إلى سيرة ابن طولون للبلوى: ص ١٥-١٦.

الخلاصة

أن سيرة ابن الداية كاملة، وسيرة البلوى كاملة (فيما يخص ابن طولون)، وناقصة (فيما وراء ذلك)، وأن كليهما لقيتا عناية، فتم نشرهما بتحقيق علمي جيد، وإن وردت الأولى متضمنة في كتاب آخر، بينما نُشرت الأخرى مفردة قائمة بذاتها. ومن هنا جازت دراسة منهجها، مع المقارنة بينهما، وهو موضوع الصفحات القادمة.

الفصل الثاني

سيرة أحمد بن طولون: نقد، وتحليل

(دراسة سيرة أحمد بن طولون) لابن الداية، والبلوى:*

أولاً - المحتوى والمضمون:**

- ١- أصل والد أحمد بن طولون، ومولد أحمد سنة ٢٢٠هـ، ووفاته سنة ٢٤٠هـ، وعناية الصلحاء من رفقاء والده به.
- ٢- سأم أحمد أخلاق الأتراك المتردية، وتفضيله المرافقة بثغر طرسوس؛ للجهاد في سبيل الله ضد الروم. ثم عودته إلى سامراء، وظروف ذلك، وأسبابه، وصلته بتوطيد أواصره بالخليفة المستعين.
- ٣- وكل الأتراك إلى أحمد أمر المستعين لَمَّا نَفَوْهُ إلى (واسط) بعد عزله وتولية المعتز. وقد عامله أحمد معاملة طيبة، ورفض أن يقتله رغم كل الإغراءات، فزادت مكانته في القلوب؛ مما هَيَّأَ له الفرصة لحكم مصر نيابة عن بابكك التركي.
- ٤- دخول أحمد مصر سنة ٢٥٤هـ بصحبة الواسطي، ويعقوب بن إسحاق الكاتب، وصدامه مع صاحب الخراج (ابن المدبر)، وصاحب البريد (شَقِيرُ الخادم). وقد نجح ابن طولون عن طريق عيونه بعاصمة الخلافة في إحباط دسائس (ابن المدبر)، وشقير ضده، وتمكن من التخلص منهما. وبعدها بسط سلطانه على مصر كلها.
- ٥- أخبار عدد من الثائرين بمصر في عهد ابن طولون، وتمكن جيوشه المتتابعة من القضاء على تلك الثورات.

- ٦- اصطدام ابن طولون بالموقف أخى الخليفة (المعتمد)؛ لمطالبة الأخير له بالأموال اللازمة لتمويل حربه أمام (الزنج)، ورَدَّ ابن طولون الحاسم عليه. هنا تنبه الموقف لخطر وجود والٍ قوى

* اعتمدت في دراسة (سيرة ابن الداية) على نشرها المتضمنة في كتاب (المغرب - قسم مصر) لابن سعيد المغربي ص ٧٣-١٣٣، واستخدمت في دراسة (سيرة أحمد بن طولون) للبلوى طبعة بتحقيق: محمد كرد علي (نشر: مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة).

** أحرص على ذكر محتوى عام للسيرتين معاً من بداية حياة ابن طولون حتى نهايتها، مع تغليب محتوى سيرة البلوى؛ لأنها أشمل وأكمل، مع تجنب ذكر التفاصيل، أو الأفكار المتقدمة أصلاً في سيرة ابن الداية. وعند وجود أحداث مذكورة بتواريخها، حاولت سردها وفق ترتيبها الصحيح بغض النظر عن اختلال ترتيبها في أى من السيرتين.

كابن طولون في مصر، فحاول عزله عنها، لكن القدر خدّم ابن طولون بموت أشد منافسيه عداً (موسى بن بغا، وعبيد الله بن خاقان الوزير) سنة ٢٦٤هـ.

٧- أبعد الموفق أحمد بن طولون عن الثغور الشامية، لكن الخلافة اضطرت أمام اضطراب الأمور هناك، إلى الاستعانة بابن طولون؛ لتدبير أمور الثغور وضبط شئونها. وانتَهز أحمد الفرصة فضم الثغور إلى مصر، ثم سيطر على الشام بعد موت ماجور التركي عامل الشام سنة ٢٦٤هـ، ومقتل سيما الطويل عامل أنطاكية في حروبه أمام ابن طولون في المحرم سنة ٢٦٥هـ.

٨- انتقل الحديث بعد ذلك إلى رصد صفات أحمد بن طولون مع ضرب الأمثلة والنماذج الكثيرة عليها الدالة على حزمه، ودهائه، وفطنته، وفراسته، وصحة قياسه وظنه، تلك السمات التي ساعدته كثيراً على اكتشاف جواسيس الموفق، والقبض عليهم وإحباط مؤامراته ضد ابن طولون في مصر. وكذلك تُعرّضُ لإنصافه، وحسن تأنيهِ، وبطلان كثير مما يشع به أعداؤه عليه، مع التماس العذر له فيما أوقع من عقوبات على بعض الناس، وضرب الأمثلة العديدة على تلك العقوبات.

٩- الاهتمام بإبراز حب ابن طولون للخير، وصدقاته الكثيرة، ومشروعاته الطيبة كبناء الجامع، وإنشاء البيمارستان، وإحسانه إلى أهل طَرَسُوس الموابطين، وبناء حصن يافا، وصدقاته لأهل الحرمين، وأهل السّتر والحاجة في مصر، وأداء ما على المحبوسين من أموال حُبِسوا لأجلها، واهتمامه بشئون حَفَظَة كتاب الله، واهتمامه الكبير بالعملة ونقائها (الدينار الأحمدي)، وإشرافه بنفسه على إطعام الفقراء والمساكين، واهتمامه بشئون الجيش والأسطول، وتوجيهاته إلى رجال الشرطة بمراعاة رعيته، والشدة على أهل الفسق، والفحور، والجرائم.

١٠- خروج العباس بن أحمد بن طولون على أبيه، ومعه بعض القواد الذين أغروه بذلك؛ منتهزين فرصة انشغال ابن طولون بالشام. وتصرفات العباس المتهورة، وتبديده الأموال والرجال، وفشل أحمد في إعادته إلى الطاعة هُدوء، فأرسل إليه الجيوش لمجابهته، وأُعيد أسيراً إلى والده سنة ٢٦٧هـ، وقيام ابن طولون بمعاقبة الخونة بالقتل والحبس. أما العباس، فعاقبه والده بالضرب والحبس؛ جزاء فعلته النكراء.

١١- خروج لؤلؤ غلام ابن طولون بالأموال والعتاد إلى الشام، وانضمامه بعد ذلك إلى الموفق، وفشل ابن طولون في إعادة غلامه، فخرج متظاهراً بمساندة المعتمد ضد أخيه الموفق، وهو - في الحقيقة - يريد الإيقاع بغلامه، الذي تنكر لجميل سيده عليه.

١٢- لما فشل ابن طولون في استقدام المعتمد إلى مصر، وفشل في تحقيق أهدافه، اصطدم بالموفق مباشرة، وأعلن خلعه من ولاية العهد، ولعنه على المنابر بالشام ومصر. وفي المقابل رد عليه الموفق بلعنه، وخلعه من ولايته (مصر، والشام).

١٣- وأخيراً، واجه ابن طولون - أواخر أيامه - سلسلة من الفشل والإخفاق المتوالى في فتح الشام، وعجز عن دخول طرسوس أمام القائد يا زمان الخادم، ثم أصيب بعلته الشديدة، التي أتت عليه بعد أن تقدم بوصاياه إلى ابنه: العباس، وحمارويه، وقواده، وغلمانه. وبذلك انتهت فترة حكمه لبلاد مصر، والشام بعد ستة عشر عاماً (توفي ٢٧٠هـ)، قضاها في مصر، مخلفاً وراءه مظاهر عظيمة من الثراء والرخاء.

ثانياً - وضع محتوى السيرتين في ميزان النقد التاريخي:

بعد عرض الخطوط العريضة لسيرة ابن طولون، التي كتبها كل من: ابن الداية، والبلوى، ننقل إلى دراستهما دراسة نقدية تاريخية. والنقد - في نظري - نوعان: خارجي (له علاقة بالموارد التي نقل عنها المؤرخان مادتهما). وداخلي (يتمثل في وضع بعض الأحداث التاريخية في ميزان الصواب والخطأ التاريخي).

١- النقد الخارجي:

تنوعت موارد ابن الداية في (سيرة ابن طولون) على النحو الآتي:

أ- موارد صريحة محددة:

يذكر فيها ابن الداية اسم مورده، الذي نقل عنه الرواية بطريقة محددة واضحة. وقد بلغت اثنين وثلاثين (٣٢) مورداً، نقل عنها ابن الداية - في مجموعها - سبعة وستين (٦٧) رواية، موزعة كما يلي:

١- نسيم الخادم^(١): (١٣ رواية).

٢- شعيب بن صالح^(٢): (٧ روايات).

٣- إسحاق بن إبراهيم (عم المؤلف)^(٣): أربع روايات.

٤- أبو العباس الطرسوسي^(٤)، وأبو جعفر بن عبد كان الكاتب^(٥)، وأحمد بن خاقان^(٦)،

(١) مرويته في سيرة ابن الداية داخل كتاب (المغرب - قسم مصر) لابن سعيد ص ٧٦، ٩٤، ٩٨-٩٩، ١٠٣-١٠٤، ١٢٣، ١٢٦-١٢٧، ١٢٩-١٣١.

(٢) مرويته في سيرة ابن الداية داخل كتاب (المغرب - قسم مصر) لابن سعيد ص ٨٥، ٩٢-٩٣، ٩٥، ١٠١-١٠٣، ١٠٦-١٠٧.

(٣) السابق: ١٠٥-١٠٦، ١٢٠، ١٢٧، ١٢٩ (وسوف أوضح الرأي في تلك الرواية الأخيرة فيما بعد).

(٤) السابق: ٩٩-١٠٠، ١١٧-١١٨.

(٥) السابق: ٩٨، ١٠٠-١٠١، ١٠٥.

(٦) السابق: ٧٥، ٨٣، ١٠٧-١٠٨.

وأحمد بن محمد الواسطي الكاتب^(١)، ونعت أم ولد أحمد بن طولون^(٢). (لكل ثلاث روايات).
 ٥- أبو جعفر المروزي^(٣)، وسعد الفرغاني^(٤)، وعلى بن مهاجر^(٥)، وأحمد بن عبد العزيز الحريزي^(٦): (ولكل روايتان).

٦- إبراهيم بن كامل المصري^(٧)، والحسن بن مهاجر^(٨) وطاهر الكبير الخادم^(٩)، وإبراهيم بن قراطغان^(١٠)، وأبو كامل شجاع بن أسلم الحاسب^(١١)، وموسى بن طولون^(١٢)، وتركان^(١٣)، وأحمد بن القاسم^(١٤)، وهارون بن ملول^(١٥)، والحسن بن رافع الكاتب^(١٦)، ومحمد ابن موسى^(١٧)، ومحمد بن عبيد الله الخراساني الدهان^(١٨)، وأبو جعفر محمد بن موسى بن طولون^(١٩)، وأحمد بن أيمن^(٢٠)، الفارسي^(٢١)، وبراقة الحاسب^(٢٢)، يعقوب بن صالح صاحب العجقي^(٢٣)، وأحمد ابن أبي يعقوب^(٢٤)، وأحمد بن دعيم^(٢٥)، وأحمد بن أبي أوفى^(٢٦) (لكل رواية واحدة).

ب- موارد غير صريحة (غير محددة بوضوح):

وهذه بلغ عددها ثلاثة موارد^(٢٧)، بالإضافة إلى مورد رابع، ورد في رواية جمعت بين مورد صريح وآخر غير صريح^(٢٨).

- (١) السابق: ص ٧٥-٧٦، ١٢٥-١٢٨.
- (٢) السابق: ٩٣-٩٤، ١٠٣ (كتب بها بحرفة هكذا: نعمت بدلاً من: نعت)، ١٠٥.
- (٣) مرويته في (المصدر السابق) ص ٩٦-٩٧، ٩٨-٩٩.
- (٤) السابق: ٩٧، ١٠٧ (وورد باسم سعيد تحريفاً).
- (٥) السابق: ١٣٢-١٣٣.
- (٦) السابق: ص ١٣٣ (وما روايتان عنه).
- (٧) السابق: ١٠٢-١٠٣.
- (٨) السابق: ١٠٣-١٠٤.
- (٩) السابق: ٩٧-٩٨.
- (١٠) مرويته في سيرة ابن الدابة داخل كتاب (المغرب - قسم مصر) ص ١٠٥.
- (١١) السابق: ٩٤-٩٥ (ورد اسم كامل محرفاً إلى: كامن).
- (١٢) السابق: ٩٥-٩٦.
- (١٣) السابق: ١٠١.
- (١٤) السابق: ١٠٨-١٠٩.
- (١٥) السابق: ١٠٩-١١٠.
- (١٦) السابق: ٧٦-٧٧.
- (١٧) السابق: ١١٠-١١١.
- (١٨) السابق: ١١١.
- (١٩) السابق: ٨١-٨٢.
- (٢٠) السابق: ١١٢-١١٣.
- (٢١) السابق: ٨٢.
- (٢٢) السابق: ١٢٤-١٢٥.
- (٢٣) السابق: ١٢٤-١٢٥.
- (٢٤) السابق: ١٣٢.
- (٢٥) السابق: ١٣٢.
- (٢٦) السابق: ١٣٢.
- (٢٧) هي: خادِم بَرَجَواري خليفة ابن طولون (سيرة ابن الدابة ص ٩٥)، وقيل لى (السابق ص ١٠٧)، وجماعة من رهبان دَبر القَصِير (السابق ١٣٠-١٣١).
- (٢٨) نص إسنادها بقول: "وحدثني إبراهيم بن كامل المصري، وجماعة من المصريين" السابق ص ١٠٢-١٠٣.

ج- وثائق رسمية مستقاة من الديوان (حيث السجلات الرسمية للدولة): وهذه عددها تسع وثائق^(١).

ملاحظة:

أورد ابن الداية حوالى أربع وثلاثين رواية دون أن يذكر الموارد، التي استقى منها هذه الروايات^(٢).

أما البلوى، فقد تنوعت موارده على النحو الآتى:

أ- موارد صريحة محددة:

وقد بلغ عددها في كتاب البلوى تسعة وثلاثين (٣٩) مورداً، نقل عنها سبعة وثمانين رواية موزعة كما يلي:

١- نسيم الخادم^(٣): نقل عنه إحدى وعشرين (٢١) رواية.

٢- شعيب بن صالح^(٤)، وأحمد بن محمد الواسطي الكاتب^(٥): ونقل عن كل منهما ست (٦) روايات.

٣- أبو جعفر بن عبد كان^(٦): وروى عنه أربع (٤) روايات.

٤- إبراهيم بن قراطغان^(٧)، وعبد الله بن الفتح^(٨)، ونعت أم ولد ابن طولون^(٩): ونقل عن كل ثلاث (٣) روايات.

٥- أحمد بن أيمن^(١٠)، وتركبان بن عبد الله بن الإمام^(١١)، وسعد القرغاني^(١٢)،

(١) السابق ٧٥، ٨٧، ٨٩-٩١، ٩٥، ٩٨، ١٢٦-١٢٧، ١٣١-١٣٣.

(٢) السابق ٧٣-٧٤، ٧٦-٨١، ٨٣-٨٤، ٨٦-٨٨، ٩١، ١٠٨، ١١٥-١٢٦، ١٢٨-١٣١. (وفى ص ١٣٠: ثم قال أحمد بن طولون لسعيد بن نوفل. والصواب: ابن توفيل).

(٣) مرويته في (سيرة أحمد بن طولون) للبلوى ص ١١١، ١٦٨-١٧٣، ١٩٣-١٩٦، ٢٠١-٢٠٦، ٢١٠-٢١١، ٢٢٢-٢٢٤، ٢٣٤-٢٣٩، ٢٤٢-٢٤٣، ٢٨٠-٢٨١، ٣١٤-٣١٩، ٣٢٩-٣٣٣، ٣٣٧-٣٣٨، ٣٤١-٣٤٢.

(٤) مرويته في (سيرة أحمد بن طولون) للبلوى ص ١٢٩-١٣٠، ١٣٣-١٤٢، ١٤٥-١٤٦، ٣٣٣-٣٣٤.

(٥) السابق: ٤١-٤٢، ٤٨، ١١٤-١١٥، ٢٢٦-٢٣٠، ٢٧١-٢٧٢، ٢٨١-٢٨٦.

(٦) السابق: ١٠٩-١١٠، ١١٢، ١٤٨، ٣٣٨.

(٧) السابق: ١٨١-١٨٣، ١٩٨-١٩٩، ٢٠٦-٢٠٨.

(٨) السابق: ٣٠٢-٣٠٦، ٣٥٥-٣٥٨. (٩) السابق: ١١٠-١١١، ٢١٢، ٣٤٣.

(١٠) السابق: ص ١١٥-١١٧، ٢١٧-٢١٨. (١١) السابق: ١٢٦-١٢٨.

(١٢) السابق: ١٨٩-١٩٢، ٢٢٤-٢٢٥.

وأبو كامل شجاع بن أسلم الحاسب^(١)، وأبو جعفر المروزي^(٢)، وأبو العباس الطرسوسي^(٣)، وموسى بن طونيق^(٤) ويحيى بن بركة الحاسب^(٥)، وأحمد بن دُعَيْم^(٦): (لكل روايتان).

٦- أبو العباس أحمد بن محمد الكوفي^(٧)، وصالح بن علي^(٨)، والعجيفي^(٩)، وأسامة بن حباب^(١٠)، والفارسي^(١١)، ومحمد بن عبد الله الخراساني النعماني^(١٢)، وطاهر الكبير الخادم^(١٣)، وأحمد بن القاسم^(١٤)، ويعقوب غلام العجيفي^(١٥)، وحماد بن علي الأزدي^(١٦)، والحسن بن القاسم الأنباري^(١٧)، وسوار الخادم^(١٨)، وهارون بن ملول^(١٩)، وإسحاق بن إبراهيم^(٢٠)، وجريج ابن الطباخ المتطبب^(٢١)، ومحمد بن الحسن اليماني^(٢٢)، والحسن بن علي العبّادي^(٢٣)، ومحبوب بن رجاء^(٢٤)، وكامل بن سعيد متطبب سعيد الصغير^(٢٥)، وأحمد بن عبد العزيز الحريري^(٢٦)، وعلي ابن يحيى بن أبي منصور^(٢٧)، ومروان بن الحكم الأردني^(٢٨): (ولكل رواية واحدة).

ملاحظة:

ويلحق بهذا النوع من الموارد - وإن لم يكن واحداً منها - مورد (المشاهدة)،

(١) السابق: ٢٠٨-٢١٠ (ورد بلفظ الخاحب تقريباً).

(٢) السابق: ١٨٩-١٨٤.

(٣) السابق: ٩٨-١٠١، ١٢٢-١٢٤.

(٤) السابق: ١٢٤-١٢٦ (وسوف نوضح ما في ص ١٢٤ عند تناول شخصية البلوي في كتابه).

(٥) السابق: ١٦٤-١٦٨.

(٦) السابق: ٢٣٠-٢٣٤، ٣٥٦.

(١٦) السابق: ١٣٠-١٣٣.

(٧) سيرة أحمد بن طولون للبلوي ص ٣٣-٣٤.

(١٧) السابق: ١٨٥-١٨٦.

(٨) السابق: ١٤٥-١٤٦.

(١٨) السابق: ١٩٩-٢٠٠.

(٩) السابق: ٢١٨-٢٢٠.

(١٩) السابق: ٢١٤-٢١٦.

(١٠) السابق: ٢٧٣-٢٧٦.

(٢٠) السابق: ٣١٩-٣٢٠.

(١١) السابق: ١١٨-١٢٢.

(٢١) السابق: ٣٢٥-٣٢٧.

(١٢) السابق: ١٥٤-١٥٦.

(٢٢) السابق: ٣٥٢-٣٥٣.

(١٣) السابق: ١٩٤.

(٢٣) السابق: ٣٥٣.

(١٤) السابق: ٢١٢-٢١٤.

(٢٤) السابق: ٣٥٣-٣٥٤.

(١٥) السابق: ٢٢٠-٢٢١.

(٢٥) سيرة أحمد بن طولون للبلوي ص ٣٥٤-٣٥٥.

(٢٦) السابق: ٣٥٦ (وقد ورد باللفظ بالتراء في سيرة ابن الدابة ص ١٣٣. ولا أدري أيهما أصوب، وإن كنا قد

اعتدنا على وجود أخطاء مطبعية في (سيرة ابن الدابة داخل كتاب المغرب)، فلعل الصواب ما أنه البلوي

(الحريري)، خاصة أن هذا الرجل البغدادي كان على خزائن ابن طولون، ولعلها كانت خزائن مملوكه، كما

يرجح لقيه، ومضمون روايته).

(٢٧) البلوي في سيرته ص ٣٥٨-٣٦٣.

(٢٨) السابق: ٣٠٦-٣٠٧.

أى: ما شاهده المؤلف بنفسه. وقد ورد ذلك في موضع واحد صراحة^(١).

ب- موارد غير صريحة (لم يذكرها البلوى محددة):

وعدها ثلاثة موارد^(٢).

ج- وثائق رسمية مستقاة من دواوين الدولة، وسجلاتها الرسمية:

عدها سبع عشرة (١٧) وثيقة^(٣).

ملاحظة:

ذكر البلوى حوالى ثلاث وسبعين (٧٣) رواية^(٤)، دون أن يذكر الموارد، التي استقى منها

هذه الروايات.

ملاحظات عامة على الإحصاءات العامة السابقة:

١- يتفق كل من: ابن الداية، والبلوى في أنواع الموارد، التي استقى منها مادتهما التاريخية (موارد صريحة، وغير صريحة، ووثائق). بل يشترك كلاهما في إيراد قطاع عريض من الروايات مجهولة المورد.

٢- على الرغم من أن كتاب ابن الداية يمثل خمس حجم كتاب البلوى تقريباً، إلا أن عدد الموارد الصريحة في كليهما متقارب. ولعل مرد ذلك يرجع إلى حرص ابن الداية الشديد على ذكر موارد رواياته المتتابعة القصيرة غالباً، إلى جانب التشابه العام بين موضوعات الكتائين، وإيراد البلوى كثيراً من التفاصيل، التي خلا منها كتاب ابن الداية، دون ذكر المورد.

٣- يأتي كل من: (نسيم الخادم)، و(شعيب بن صالح) على رأس قائمة الموارد الصريحة لدى كليهما. وتعد (نعت أم ولد ابن طولون) المرأة الوحيدة، التي نقل كلا المؤرخين عنها في كتابهما، بل يتفقان في عدد الروايات المنقولة عنها (ثلاث روايات).

(١) السابق: ٣٠٩ (وفيها شاهد المؤلف لولؤا يدخل مصر في حال وضعية بعد طرد الموفق له بفترة، فقد دخلها آخر أيام هارون بن حمارويه).

(٢) هي: فحدثني شيخ من شيوخنا (السابق ٤٢)، وجماعة من رهبان دير القصر (السابق ١١٨)، وحدثنا شيخ من صالحى أهل العافر (السابق ٣٤٣).

(٣) السابق ٤٠، ٤٦، ٥٦-٥٧، ٦٠، ٨٢-٨٥، ٢٥٠-٢٥٣، ٢٥٦-٢٦٦، ٢٧٧-٢٧٩، ٢٨١، ٢٩٠-٢٩٥، ٣١٢-٣١١.

(٤) سيرة أحمد بن طولون للبلوى ٣٢-٤١، ٤٣-٤٧، ٤٨-٨٢، ٨٥-٩٨، ١٠١-١٠٦، ١١٢-١١٤، ١٢٤-١٢٥، ١٤٠-١٤٢، ١٤٦-١٥٤، ١٥٦-١٦٤، ١٧٣-١٨١، ١٨٣-١٨٤، ١٩٧-١٩٩، ٢٢٢-٢٢١، ٢٤٠-٢٤٢، ٢٤٤-٢٧٣، ٢٧٦-٢٧٩، ٢٨٦-٣٠٢، ٣٠٦-٣٠٨، ٣١٠-٣١٤، ٣١٧-٣١٩، ٣٢٨-٣٦٤-٣٦٣، ٣٥٧، ٣٥٢-٣٣٩، ٣٣٧-٣٣٦، ٣٣٤، ٣٣١.

٤- هناك موارد اتفق كل منهما على النقل عنها، وموارد انفرد ابن الداية بالنقل عنها، وموارد أخرى تفرد البلوى بالنقل عنها، كما انفرد البلوى في رواية واحدة بالتصريح بأنه اعتمد على المشاهدة في نقلها.

٥- الوثائق التي اعتمد عليها البلوى أكثر عدداً، وأغزر تفصيلاً من ابن الداية، الذي كان هدفه الإيجاز.

٦- تفرد ابن الداية بإيراد موردين من نوعين مختلفين لرواية واحدة مشتركة؛ أحدهما مورد صريح، والآخر مجهول (غير صريح)، وبه زاد عدد الموارد غير الصريحة لدى ابن الداية عنه عند البلوى.

منهج ابن الداية، والبلوى في ذكر الموارد الصريحة: أولاً - ابن الداية:

١- أول ما يلفت نظر الباحث أن موارد ابن الداية وثيقة الصلة بالحدث التاريخي الذي تنقله^(١)، فهي إما أن تكون مشاركة في الحدث المروي^(٢)، أو تكون الرواية متحدثة عن هذا المورد مُعرِّفة به، فهي بمنزلة ترجمة له^(٣)، وإما أن تكون شاهدة الحدث حاضرة إياه^(٤). وإذا لم يندرج المورد تحت أى من هذه الأقسام الثلاثة المذكورة آنفاً، فإنه تكون له علاقة غير مباشرة بالحدث، وذلك من خلال معرفتها بطبيعة عمله ومقامه من ابن طولون، مما يقوى ثقتنا بصحة

(١) يتحرى ابن الداية مصادر معلوماته، ويوائم بين المورد وموضوع الخبر المروي. فإذا نقل ما ينصل بأخبار ابن طولون الخاصة، اعتمد على نسيم الخادم مولاة، الذي يصاحبه في حله وترحاله، ويستأنه ابن طولون على خزان جواهره (سيرة ابن الداية ص ٧٦). وإذا أراد التحدث عن جوارى ابن طولون، وعلاقته بنسائه، استقى ذلك من أم ولده (نعت)، فهي أقرب نسائه إليه، وأدرى بأحواله معهن. وإن أراد معرفة شئون السياسة العليا لابن طولون، روى عن صديق عمه والوالد من قبل (وهو الوزير أحمد بن محمد الواسطي). وإذا انتهى الحديث عن أوضاع الأمن والشرطة في عهد ابن طولون، حدثنا عن الشجيفي صاحب الشرطة مثلاً، وهكذا.

(٢) كما في روايته عن الواسطي خبر المستعين عند نفيه إلى واسط، وقد كان الواسطي نفسه مصاحباً للمستعين في منفاه، وشهد لحظاته الأخيرة (المصدر السابق ٧٥). وكذلك روايته عن (نعت) عدم اكتراث ابن طولون بالجوارى، وانشغاله بشئون دولته من خلال موقف شهادته بنفسها (السابق ٩٣-٩٤).

(٣) كما هو الحال مع (أبي كامل شجاع بن أسلم)، الذي روى عنه ابن الداية رواية، يعد مضمونها ترجمة له، إذ يحدثنا عن استدعاء ابن طولون له، وإطلاقه من الحبس، وتوليته مسئولية منصب دار صناعة السفن، وتوجيهاته إليه بشأن العناية بالأسطول (سيرة ابن الداية ٩٤-٩٥).

(٤) بمعنى أن المورد لم يشارك بالحدث، لكنه حضر الموقف. ومثال ذلك: (الحسن بن رافع الكاتب)، الذي شهد دخول ابن طولون مصر، وسمع نبوة مدة حكم دولته، وعاش حتى تحققت النبوة، فصلفها. (السابق ٧٦-٧٧).

ما يروى من وقائع^(١). وأحياناً يسأل مؤرخنا ابن الداية مورده، ويستفسر منه؛ ليتأكد من صحة ما نقل إليه من أخبار ووقائع^(٢).

٢- يلاحظ أن مؤرخنا ابن الداية نقل موارده مباشرة دون واسطة، واستخدم في التعبير عن ذلك ألفاظاً دقيقة، هي: (حدثني^(٣))، فحدثني^(٤))، وحدثني^(٥))، وقال^(٦))، وقال لي^(٧))، وقال عني^(٨))، فسمعت... يُحدث^(٩))، وحدثني^(١٠))، وقال^(١١))، وسمعت^(١٢))، وقلت^(١٣)). ولكل لفظة منها معنى

(١) وينطبق ذلك على (نسب الخادم)، وروايته أحداث ثورة العمري. ورغم عدم مشاركته في ذلك، إلا أننا ندرک معرفته بكل ما يجري بحكم ملازمته ابن طولون. (السابق ٩٤). وكذلك ابن عبد كان الكاتب وروايته عن فِراسة ابن طولون (السابق ١٠٠-١٠١).

(٢) مثل: سؤاله أبا العباس الطرسوسي عن كيفية حفظه كلام الصوف الذي نصح ابن طولون، فأخبره أنه تدبره عن طريق كاتب السر المصاحب لابن طولون، الذي كتب كل ما قيل. (السابق ١١٧-١١٨).

(٣) وردت هذه الصيغة في (السابق ص ١١٧)، ولعلها خلت من (الواو)؛ لأنها أول رواية ذكرها ابن الداية عن أحداث طرسوس.

(٤) ذكرت هذه الصيغة حوالي ٤ مرات (السابق ص ٧٦، ١٢٦، ١٢٩). وقد لحقتها الفاء؛ لورود المصطلح (الصيغة) في صدر روايات يُقَبَّ فيها ابن الداية على حدث سابق، ويتم بها معنى مضى.

(٥) وهي صيغة شائعة الاستخدام في العديد من روايات ابن الداية، وغالباً ما تستخدم عند إيراد الروايات المتتابعة (سيرة ابن الداية: ص ٩٨-٩٩، ١٠٣-١٠٤). ووردت الواو في غير موضعها (السابق ص ٩٥).

(٦) وردت هذه الصيغة في (المصدر السابق ٩٥، ٩٨). ولعل المقصود بها أنه طالع هاتين الروايتين في مصدر مكتوب في ديوان الرسائل مثلاً. وأخفت الواو؛ لأنها وردتا في معرض تعداد صفات ابن طولون.

(٧) وهي تدل - فيما أرى - على أنها رواية مكتوبة مثبتة في الديوان، وقد وردت في سياق تتابع حكايات عن ابن طولون، خص المؤرّد ابن الداية بها، فرواه له (السابق ١٠٢).

(٨) يقصد (إسحاق بن إبراهيم). وواضح اعتزازه به، وإشارته إلى قربه من الأحداث، وصلته بطبيب ابن طولون الخاص، ومعرفته بمزاج ابن طولون، وطبعه الخاد (السابق ١٢٥).

(٩) وردت في المصدر نفسه ص ٧٥ (فسمعتُ أحمد بن محمد الواسطي يحدث ويقول: في وصف مصاحبة المستعين بواسط). وهي عبارة تدل على سماع ابن الداية المباشر من الواسطي، وهو يحدث غيره. وفي ص ١٢٥-١٢٦: (فسمعت أحمد بن محمد الواسطي يحدث أحمد بن إبراهيم الأطروش). وتفيد ما أفادته العبارة السابقة، مع زيادة هي حضور ابن الداية مجلساً، ضم الواسطي وابن الأطروش، كان الحديث موجهاً للأخير، وسمعه ابن الداية بحكم حضوره.

(١٠) وهي تفيد صلاته الوثيقة بـ (نعت أم ولد ابن طولون)، ونقله عنها أمور نساء ابن طولون وجواربه، وموقفه منهن (السابق ص ٩٣، ١٠٣، ١٠٥).

(١١) تفيد لفظة (قال) مطالعة ابن الداية تلك الأخبار في الديوان. ولم يأت بالواو؛ لأنها لم تذكر في معرض تعداد أمر، أو الإتيان بنماذج متتالية تدلّ على صفات ابن طولون. (السابق ٧٥، ٩٤).

(١٢) وهي لفظة جديدة تفيد سماعه مع غيره هذه الرواية في مجلس أحمد بن أيمن (السابق ١١١).

(١٣) وردت في (سيرة ابن الداية) ص ١٣٣، وهي تفيد أن ابن الداية كان يبحث عن إجابة سؤال يهمه في المقارنة بين طبيعة تفقات ابن طولون، وابنه حمارويه، فأجابه عنه (علي بن مهاجر) العليم بنفقاها. وكذلك ما ورد ص ٨١ في سؤاله محمد بن موسى ابن طولون عن سر خلاف والده مع عمه أحمد بن طولون.

يقصده ويستخدمه بدقة متناهية^(١)، وذلك - ولا شك - نابع من ثقافته اللغوية والأدبية والمنطقية، التي تعرضنا لها من قبل؛ ليصل - في النهاية - إلى توثيق مروياته، وإقناعنا بصحتها.

٣- يكتفى ابن الداية بذكر المورد، الذي نقل عنه مادته، ولا يأتي بسلسلة الإسناد المطولة الكاملة، التي كان يحرص على استكمالها مؤرخو القرون الأولى. وخرج على قاعدته تلك مرتين تقريباً^(٢).

٤- وبالنسبة لمكان ذكر المورد، فهو يبدأ به الرواية التاريخية في الغالب الأعم^(٣)، ونادراً ما يخالف ذلك، فيصدر الرواية وموردها معاً بلفظة: (قال أحمد بن يوسف)^(٤)، أو (قال)^(٥).

٥- حرص مؤرخنا ابن الداية على مزيد من التوثيق لموارده بطريقة مبتدعة مبتكرة - لم يسبقه إليها سوى والده فيما نعرف - فكان يترجم أحياناً غير قليلة، ويعرف بمورده الذي نقل عنه؛ ليرينا مدى صلته بالحدث، وقربه منه، واشتراكه فيه وأهميته، فذلك أخرى بالقبول. وهذا التعريف - على وجازته غالباً - يمثل جملة اعتراضية قصيرة^(٦)، وأحياناً طويلة طويلاً، يستدعي النظر فيما قبلها وبعدها؛ للربط بين المورد ومادته المنقولة عنه^(٧).

(١) ومن مظاهر دقة البالغة في هذا الصدد أنه كان إذا طالت الرواية، استخدم لفظة (قال)، وبعدها اسم المورد المذكور في بداية الرواية؛ لئلا يظن أن رواية هذا المورد لا تزال متصلة لم تنته بعد (راجع المصدر السابق: ص ١٢٥-١٢٨ في رواية الواسطي، ورواية سعد الفرغان ص ٩٦-٩٧، ورواية محمد بن موسى ص ١١٠-١١١). وكذلك يستخدم (قال لي)؛ للربط بين أجزاء الرواية المطولة (رواية أحمد بن أبي يعقوب ص ١٢٢).

(٢) أولاهما - حدثني تركان عن أبيه (السابق ١٠١). وهذه دقة من ابن الداية وأمانة، فالذي روى له الرواية هو ابن من شهد الواقعة، لا من شهدا فعلاً. ثانيتهما - قوله: وحدثني إسحاق بن إبراهيم، وأحمد بن محمد الواسطي (في رواية استشارة ابن طولون من حوله بخصوص إقدامه على إحضار الخليفة المعتمد إلى مصر). (السابق ص ١٢٧). وأعتقد أن هناك خطأ من الناسخ، لم ينتبه إليه المحقق في هذه الرواية، وهو أن صواب الإسناد كالتالي: وحدثني إسحاق بن إبراهيم، عن أحمد بن محمد الواسطي (فيصح بذلك الاستشهاد بهذا السند في هذه الحالة). والدليل على صحة هذا التصويب ما ورد بعد ذلك في الرواية من أن ابن طولون قال له (ولم يقل: قال لهما). ولما طالت الرواية واقتربت من آخرها ص ١٢٨، قال للربط بين أجزائها: فقال أحمد بن محمد الواسطي، دون أن يذكر (إسحاق بن إبراهيم). فهو هنا ذكر المورد الأساسي الذي نقل الرواية عن ابن طولون. ومعلوم وجود صلة بين عم ابن الداية، والوزير الواسطي، فلا يستغرب روايته عنه.

(٣) وهو ينطبق على معظم الأمثلة المذكورة سلفاً.

(٤) قال أحمد بن يوسف: حدثني أبو العباس الطرسوسي (فيما يتصل بنصائح زاهد طرسوس لابن طولون). (سيرة ابن الداية ص ١١٧).

(٥) قال (يعني: نفسه): وحدثني أحمد بن خاقان. (السابق ٨٣). وكذلك قال (يعني نفسه): وحدثني بركة الخاسب. (السابق ص ٨٢).

(٦) كما في قوله: وحدثني نعت أم ولد أحمد بن طولون (المصدر السابق ص ٩٣)، وحدثني ابن قراطغان، وكان موثقاً عنده (السابق ١٠٥)، وحدثني أحمد بن خاقان، وكان صديقاً لأحمد بن طولون (السابق ٨٣)، فحدثني نسيم، وكان أحص الناس به (أي: بأحمد بن طولون). (السابق ٧٦).

(٧) مثل: وحدثني أحمد بن أبي يعقوب، وكان يتولى خراج بركة من قبل أحمد بن طولون في الوقت الذي خرج فيه العباس، فأقره عليه، قال: (السابق ١٢٢).

وحسناً فعل ابن الداية تأثراً بمنهج والده من قبل. والحق أن هذا الأسلوب الجديد مهم بالنسبة لنا؛ لأن الموارد التي نقلوا عنها - في الغالب - لم نتم كتب التراجم بالتعريف بها. ولو لم يبق هو ووالده من قبل هذا الجهد، لعمّ وطَمَّ جهلنا بتلك الموارد. لكن ابن الداية مؤرخنا فاته التعريف ببعض موارده المهمة (مثل: شعيب بن صالح^(١)، وابن عبد كان^(٢)، وغيرهما^(٣)). ولعل السر في ذلك يرجع إلى أن بعض الأحداث التي يرويها هؤلاء تشرح مناصبهم، وأهمية مواقعهم، وكذلك ألقابهم الملحقه بأسمائهم توضح مدى قربهم من الحدث المروي. لكن في الوقت نفسه هناك بعض روايات لا تظهر صلة المورد بأحداثها؛ مما يجعلنا في حيرة من مدى صدق هذه الروايات^(٤). وينضاف إلى ذلك وجود تداخل وتقارب في بعض أسماء موارده، ولو عرّفنا بها، لفصل لنا بين ذلك كله^(٥).

وأعتقد أن النهج الصحيح يقتضى عند تكرار وتعدد مرويات المورد الواحد، أن يكفى بالترجمة له والتعريف به أول مرة يُذكر فيها المورد وكفى، لكن مؤرخنا ابن الداية، وإن التزم ذلك النهج أحياناً^(٦)، فإنه قد خالفه أحياناً أخرى^(٧). وأخيراً، فإن مؤرخنا كان يجمع - إلى جانب ذكر المورد الصريح، والتعريف به - ذكر التوقيت الذي رويت فيه الرواية؛ مما يعطى القارئ بعداً جديداً لها عند نقدها^(٨).

(١) ويبدو أنه من كبار مساعدي ابن طولون، وقد نقل عنه ابن الداية عدة روايات، وكان أولى بالتعريف من غيره.

(٢) ولعله اعتمد على أنه كاتب مشهور، فلم يُعرف به.

(٣) مثل: أبو جعفر المروزي، وسعد الفرغان، وهارون بن ملول (وبلاحظ أن هارون نقل ابن الداية عنه رواية تعد ترجمة له، لكنها في (المكافأة ص ٣٤-٣٦)).

(٤) كما هو الحال في مرويات عن شعيب بن صالح ص ١٠٣، ١٠٦، وسعد الفرغان ص ١٠٧، وإبراهيم بن كامل المصري ص ١٠٢.

(٥) مثل: التشابه القائم في أسماء بعض الموارد (موسى بن طولون، وأبو جعفر محمد بن موسى بن طولون، ومحمد بن موسى). وهنا كان لابد من الاجتهاد للفرق بينهم بعد أن افتقدنا الترجمة لأى منهم. ومن خلال قرائن أحداث الروايات التي رووها، تبين لنا أن الأول هو أخو الأمير أحمد بن طولون (بديل روايته ص ٩٥)، التي تبين صلته بأخيه ودويانه. والثاني هو ابن الأول، وهو الذي سأل ابن الداية عن خلاف والده مع ابن طولون عمه من قبل. أما الثالث، فيروى أحداثاً وقعت بعد احتدام الخلاف بين الموفق وابن طولون، ويقص علينا قصة صديق ابن طولون القديم، الذي أتى إلى مصر جاسوساً للموفق عليه. ولا نستطيع القول بأنه هو ابن أخى ابن طولون؛ لأنه كان في تلك الأثناء منفياً مع والده موسى في طرسوس بعيداً عن مصر والعراق. وعلى ذلك فهذا المورد المذكور شخص مجهول لا نعرف عنه شيئاً.

(٦) كما في ص ٧٦ عندما ترجم لنسيم الخادم، ثم لم يُعرف به في مرويات أخرى عنه ص ٩٨، ٩٩، ١٠٣-١٠٤، وغيرها. وكذا عُرِفَ بـ (نعت) ص ٩٣، ثم لم يُعرف بها ص ١٠٣، ١٠٥.

(٧) لم يترجم لأبي العباس الطرسوسي في مرويات عنه ص ٩٩-١٠٠، ثم عاد وترجم له ص ١١٧.

(٨) مثل: فحدثني نسيم بعد وفاة أحمد بن طولون (ص ٧٦)، وحدثني علي بن مهاجر في أيام أبي الجيش (ص ١٣٢)، وقلت لأبي جعفر محمد بن موسى بن طولون، وقد رحل إلى مصر بعد مقتل أبي الجيش (ص ٨١).

ثانياً - البلوى:

سبق أن أوضحنا أن البلوى اشترك مع ابن الداية في النقل عن بعض الموارد، ونفينا أن يكون قد نقل كتاب ابن الداية دون الإشارة إليه^(١). والأقرب إلى الصواب أن البلوى نقل عن مصادر ابن الداية نفسها التي عاصرها البلوى، وأكمل كتابه بالاطلاع على ما في الديوان من وثائق وسجلات، خاصة أننا علمنا أن ابن طولون كان يأمر كتّابه بتسجيل كل صغيرة وكبيرة في مجالسه، وتُحفظ هذه المحاضر بالديوان. ولعل في التفاصيل الكثيرة التي تفرد بها كتاب البلوى ما يؤكد أمانته.

وهاك منهجه:

١- دقة البلوى في التعبير عن مصادر رواياته باستخدام ألفاظ معبرة دقيقة، تفرق بين ما نقله عن مورده بطريقة مباشرة، وما نقل عنه بطريقة غير مباشرة. ومن هذه الألفاظ: (حَدَّثْتُ^(٢))، وقال^(٣))، وروى^(٤))، وحدثت^(٥))، وسألت^(٦))، وتحدّثت^(٧)). ولم يقف البلوى عند

(١) هذا النفي منصب على إقامه باستلال كتاب ابن الداية كله، ونسبه إلى نفسه، مع بعض تعديلات في الألفاظ يجدها البلوى، وبذلك تمكن من حناع القراء. لكن هنا لا يمنع أن نقلت منه رواية هنا أو هناك، يأخذها عن ابن الداية، ثم ينسبها لغيره على سبيل الخطأ. وحين مثال عن ذلك ما ورد في سيرة البلوى ص ٩٩-١٠٠ (وهي تُروى عن أبي العباس الطرسوسي، وتعلق بصانح الزاهد الطرسوسي لابن طولون). لقد ثبت لي أن البلوى أخذها من كتاب ابن الداية، ثم لم يصرح بنسبتها إليه، لكنه حتى لا يتهم بالكذب نسبها إلى العباس الطرسوسي بلفظة (حدّث) بدل (حدثنا). وهنا يدل على فرط ثقة البلوى بوثاقة موارد ابن الداية. وقد أُرِز لنا إقام البلوى في هذه الرواية أنه أورد سؤالاً وجهه ابن الداية إلى مورده بالمعلوم، فقام البلوى بتحويله إلى المجهول (فقيل لأبي العباس)، متجاهلاً بذلك موجّه السؤال، وصاحب الرواية الأصلي ابن الداية. وما يؤكد ذلك أن ابن الداية عطف كلام الطرسوسي الذي أحاب به عن سؤال ابن الداية، ذكر ما يلي: وقال (وهو الطرسوسي فيما أرحح): إن ابن طولون إذا أراد إنفاذ أحد أصحابه في رسالة، أمر كاتب السر بتحريرها وحفظها، فإذا حضر الرسول ليوذعه، سأله ابن طولون: ماذا ستقول لمن وجهتُك إليه؟ فإذا أداها، وإلا حبسه واستبدل به (سيرة ابن الداية ١١٨). فإذا قارنا ذلك بما في البلوى ص ١٠١، عقيب جواب أبي العباس الطرسوسي على سؤال السائل المجهول لدى البلوى، الذي هو في الحقيقة ابن الداية، ألقينا البلوى يقول: قال مؤلف هذا الكتاب، ثم ينقل كلام الطرسوسي السابق بألفاظ مقاربة، ومضمون واحد. فهنا تظاهر البلوى بأن الكلام كلامه، لكنه - في الحقيقة - كلام الطرسوسي نقلاً عن ابن الداية، وانتقل ابن الداية بعد هذه الرواية إلى موضوع آخر (ظروف خروج العباس على أبيه)، فإذا بالبلوى ينتقل إلى نفس المضمون والصيوات، مصتراً إياها بلفظة: قال (التي قد يشير بها إلى نفسه)، وإن كنت أعتمد أنه منقول - أيضاً - عن ابن الداية.

(٢) مثل: حدث إسحاق بن إبراهيم (سيرة البلوى ٣١٩)، وحدث أبو جعفر المرزوي (السابق ١٨٤، ١٨٦). وعند ضرب الأمثلة على صفات ابن طولون يقول: ومن ذلك (أي: أبواب الخير لابن طولون) ما حدث به سعد الفرغان (السابق ١٨٩). ومن ذلك (أي: من دهانه وعقله وحزمه) ما حدث به أحمد بن يُعْن (السابق ١١٥).

(٣) قال نسيم الحادام (السابق ص ٣١٤)، قال أبو جعفر محمد بن عبد كان (السابق ص ٣٣٨).

(٤) وأما فراسته وصحة إزكانه (تضمينه) فما رواه أبو العباس المعروف بالطرسوسي صاحب خبره قال (السابق ص ١٢٢).

(٥) ومن ذلك (دهانه وعقله) ما حدثت به نعت أم ولده (السابق ١٠٠).

(٦) وسألتُ أنا العباس أحمد بن محمد الكوفي (عن أصل ابن طولون، وحقيقة والده). (السابق ٣٣).

(٧) قال: ومن الدليل على أنه خُفّف عنه كما ذكر، ما تحدث به كامل بن سعيد (ورؤيا عن حسن مستقر ابن طولون بعد وفاته). (السابق ٣٥٤).

عند هذا الحد من الدقة والأمانة، بل كان في روايات تُقَرَّد بذكرها، يستخدم - أحياناً - لفظة: (حدث)^(١) بدل (حدثنا)^(٢). وذلك يدل على أنه لم يسمع تلك الروايات، وإنما وصلت إليه عن طريق كتاب، أو ديوان.

٢- يتفق البلوى مع ابن الداية في عدم الإتيان بسلسلة الإسناد كاملة، وكان يكتفى بذكر المورد الرئيسي فقط، اللهم إلا في روايتين اثنتين، ذكر فيهما أستاذ راوى الرواية^(٣).

٣- يترجم البلوى - أحياناً - لمورده كما يفعل ابن الداية؛ لبيان وثاقته، وصلته العميقة بموضوع الرواية.

٤- يتفق البلوى مع ابن الداية في التعريف المختصر الوجيز ببعض موارد، ويتميز على سلفه بأمرين:

- أ- زاد ترجمة بعض الموارد وضوحاً عما هو عليه عند ابن الداية^(٤).
- ب- نقل عن موارد جديدة، عرّف ببعضها تعريفاً طيباً^(٥)، يدل على معرفته الجيدة بموارده التي نقل عنها مادته.

ويؤخذ على البلوى ما سبق أخذه على سلفه ابن الداية، من عدم العناية بترجمته بعض الموارد المهمة^(٦)، بل ترك الترجمة لمورد مهم ترجم له ابن الداية^(٧). وإلى جانب ذلك لم ينتهج النهج السليم في التعريف بالمورد، الذي تعددت مروياته، على نحو ما وقع فيه ابن الداية أيضاً^(٨).

٥- يتشابه البلوى مع ابن الداية في التعبير عن نفسه في بداية بعض الروايات، وقبل أن يذكر مورد الرواية، وإن كان ذلك بصيغة خاصة بالبلوى هي: (قال مؤلف هذا الكتاب)^(٩).

(١) مثل: وحدث عبد الله بن الفتح (السابق ٣٥٥)، وحدث يحيى بن براقه الحاسب (السابق ١٦٤).

(٢) من الروايات التي قال فيها: حدثنا، روايتان قال فيهما: حدثنا عبد الله بن الفتح (السابق ٣٠٢، ٣٥٧).

(٣) مثل: وحدث تركان بن الإمام، عن أبيه (السابق ١٢٨)، وحدثنا عبد الله بن الفتح، عن ابن الداية (السابق ٣٠٢).

(٤) مثل: وحدث أحمد بن محمد الكاتب، وكان من عقلاء الناس وفهمائهم، وكان فيه دين وحر كثير (سيرة البلوى ٢٢٦)، وحدث أبو العباس الطرسوسي المثنوي - كان - لغسل أحمد بن طولون عند موته، وكان رجلاً خيراً فاضلاً زاهداً، يتقوت من المباح. (السابق ٩٨).

(٥) مثل: وسألت أبا العباس أحمد بن محمد الكوفي، وكان خبيراً بأمر الأتراك، عارفاً بأحوالهم (عن أصل ابن طولون). (السابق ٣٣-٣٤).

(٦) مثل: أحمد بن أيمن، وابن عبد كان، وشعيب بن صالح.

(٧) وهو نسيم الخادم رغم كثرة مروياته لدى البلوى.

(٨) مثل: الواسطي، الذي أورد له البلوى عدة روايات دون تعريف به (سيرة ابن طولون). (ص ٤٣، ٤٨، ١١٤)، ثم ترجم له في رواية (السابق ٢٢٦).

(٩) سيرة أحمد بن طولون للبلوى ص ١٦٨، ٣٥٣.

٦- وأخيراً، فإن البلوى يستخدم بعض الألفاظ داخل الروايات المطوّلة؛ للدلالة على اتصالها، وعدم انتهائها بعد^(١).

منهج ابن الداية، والبلوى في عرض الوثائق:

حرص ابن الداية على إيراد عدد من الوثائق (الكتب، والرسائل الرسمية)، التي طالعتها بالديوان خلال عمله كاتباً لدى بني طولون. ولا شك أن هذه الوثائق دوراً مهماً في دعم الحقائق والأحداث التاريخية.

ويمكن تحديد أهم معالم منهجه في إيراد هذه الوثائق على النحو الآتي:

١- العرض الموجز البليغ:

وذلك يتناسب مع بلاغة ابن الداية من جهة، والاختصار الذي هو هدف أصيل لكتابه من جهة أخرى. فأحياناً كان يورد الوثيقة بنصها كما في ردّ ابن طولون على من طالبوه بقتل الخليفة المستعين: "والله، لا أرى الله، وأنا قد قتلْتُ خليفة بايعتهُ أبداً"^(٢). فهي توضح المبدأ الأخلاقي الذي يلتزم به ابن طولون في نظره إلى الخليفة.

وأحياناً كان يورد ما يتفق في وجازته وسريته، وغرضه العاجل مع طبعة كتاب ابن الداية المختصرة، ومثال ذلك: الكتاب السري الذي أرسله الخليفة المعتمد إلى أحمد بن طولون، يحذره فيه من تحرير مبعوث الموفق، فإن معه كتاباً يُحرّض فيها قاداته عليه. تقول الوثيقة المعيرة عن متانة صلة المعتمد بابن طولون: "إن الذي حرّك إخراج نخريز إليك أبو أحمد، وقد أنفذ نخريزاً عيناً عليك، ومعه كتب إلى سائر قوادك بالتضريب عليك"^(٣).

وقد يورد ابن الداية الوثيقة بمعناها صراحة دون نصها مع الحفاظ على مضمونها، وهي - أيضاً- وثيقة سرية خطيرة، يضرب فيها ابن طولون على الوتر العاطفي، وفيها يبين للمعتمد شديد قلقه عليه، ويدعوه للرحيل إليه في مصر، ويعدّه بها تمام العز والتمكين^(٤).

٢- العرض التفصيلي المطول:

على غير المعتاد أفرد ابن الداية مساحة كبيرة من كتابه المختصر؛ ليورد نصاً كاملاً بمخالفته

(١) مثل قوله: فحدث نسيم الخادم قال... ثم لما طالت الرواية، ربط أجزاء الرواية بقوله: قال نسيم. (السابق ص ٣٣٧-٣٣٨). وكذلك راجع رواية أخرى للواسطي (ص ٢٨١).

(٢) سيرة ابن الداية: ٧٥. (٣) السابق: ٨٧.

(٤) السابق ١٢٦-١٢٧. ووضع المحقق النص بين علامتي تنصيص، رغم أن ابن الداية صرح بأن الوثيقة يسوقها بمعناها لا بنصها وحروفها.

لكتاب ابن طولون، رداً على كتاب الموفق إليه، الذي عتفه فيه وهذده^(١)؛ لقله ما أرسل إليه من خراج مصر عما كان يتوقع وينتظر. والحق أن ابن الداية حرص على إيراد هذه الوثيقة كاملة - على طولها - لإعجابه بما أورد ابن طولون فيها من مقومات سياسته، وشجاعته في مواجهة الحاكم الحقيقي للخلافة العباسية (الموفق)، وردوده القوية المنذرة^(٢). فالوثيقة كلها إبراز لمحاسن ابن طولون، وهو ما يتوافق مع عنوان كتاب ابن الداية، وغرضه الأصل.

٣- حسن الانتقاء والتدقيق في عرض عناصر الوثيقة:

وخير مثال على ذلك تلك الوثيقة الاقتصادية التي أوردتها ابن الداية، وهاك نصها: " وأراق قرهوية كاتب ابن مهاجر ثبت ما حمله إلى الحضرة للمعتمد، وفرق في جماعة من حاشيته لأربع سنين: أولها سنة ٢٦٢هـ: وما تقدمت به سَفَاتُجُهُ ولم يظهر تفريقه، فكان مبلغه ألفى ألف دينار، ومائتى ألف دينار^(٣). وواضح هنا عناصر منهجه في تلك الوثيقة الموجزة بالغة الأهمية: الدقة في بيان كيفية اطلاعه عليها (الرواية والمشاهدة والمعاينة في سجل من سجلات ديوان الخراج لدى ابن طولون) على يد مصدر مهم هو كاتب الحسن بن مهاجر. وهذه الوثيقة مؤرخة بسنوات محددة: ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٥هـ. وموضوعها محدد: مقدار ما أرسله ابن طولون إلى سامرا للخليفة المعتمد، ومقدار ما وزعه كهدايا (رشاوى) في عدد من أفراد حاشية الخليفة المهمين. ويلاحظ أن ابن الداية اكتفى بإيراد ما أرسل - فقط - للمعتمد، وأخفى ما فرق في حاشيته (دفاعاً عنه وسترأ عليه، وإخفاء لعمل لا يعد من محاسن ابن طولون، بل هو إنفاق لأموال الدولة؛ كى يظل على عرش مصر). وذكر لنا ابن الداية وسيلة إرسال هذا المال (وَضَعُهُ فِي سَفَاتِجٍ). وحدد السنوات التي أرسل فيها، وذكر مجموع الأموال التي أرسلت خلالها (بما يعادل ٥٥٠ ألف دينار سنوياً). وتبقى بعد ذلك تساؤلات عديدة كان الباحثون يتمنون أن لو أجابت عنها الوثيقة، وغيرها من الوثائق الأخرى^(٤).

أما البلوى، فيكاد يتفق منهجه في عرض الوثائق مع ابن الداية في السمات العامة، إلا أنه

(١) لاحظ أن ابن الداية لم يورد كتاب الموفق؛ لأن فيه انتقاصاً من شأن ابن طولون - فيما أرحح - وهو ما لا يتشبه مع هدف ابن الداية من كتابه، وهو إظهار محاسن ابن طولون.

(٢) السابق: ٨٩-٩١.

(٣) سيرة ابن الداية ١٣٣.

(٤) من هذه التساؤلات: متى رأى ابن الداية - بالتحديد - هذه الوثيقة؟ ومن هو قرهوية هذا؟ هل كان من الكتاب الماعدين للكتاب الكبير الحسن بن مهاجر؟ ومن هي الحاشية التي كان يفرق فيها ابن طولون أمواله؟ وما مجموع ما أرسله ابن طولون من أموال إلى دار الخلافة خلال سني حكمه (٢٥٤-٢٧٠هـ)؟ هذه أمور مهمة نتمنى أن لو أجابت عنها تلك الوثيقة. نرجح أن تلك المعلومات كانت متاحة لابن الداية، لكنه أخفى ما بسى إلى ابن طولون، ويتناقص مع محاسنه.

تفوق عليه في كثرة إيراد ما لم يورد ابن الداية من وثائق مطولة. فهناك الوثائق المختصرة، مثل: كتاب أماجور عامل الشام يحذر المعتمد من تنامي قوة ابن طولون، وخطورة ذلك عليه أكثر من خطورة ابن شيخ بفسطين^(١)، ثم أورد البلوى وثيقة موجزة أخرى، فيها كتب المعتمد إلى ابن طولون أن يتوجه إلى الحضرة؛ ليدبر دار الخلافة، ويستخلف على مصر^(٢). (وهو يعني عزله عن ولاية مصر بهدوء). ثم أورد وثيقة موجزة أخرى وردت على لسان الوزير الحسن بن محمد لما أرسل ابن طولون هداياه إليه وإلى رجال البلاط والحاشية، حيث وعد بأن ألا يُعزل ابن طولون عن مصر، ولا يُقبل فيه سعى ساع^(٣).

ويمتاز البلوى بالتحديد والوضوح فيما أورد من وثائق، كما هو الحال في كتاب (قبيحة أم المعتز) إلى ابن طولون: "إذا قرأت كتابي، فحسني برأس المستعين، وقد قلدتك واسط". فرد عليها قائلاً: "والله، لا يراني الله ~~يُحْيِي~~ أَقْتَل خَلِيفَة، له في رقبتي بيعة، وأيمان مغلفة أبداً"^(٤). وأعتقد أن هذه الرواية أوضح وأصح من رواية ابن الداية السابقة، فأم المعتز هي الشخصية الأولى المحركة للأحداث، ويهمها بالدرجة الأولى الاطمئنان على ولدها.

وينفرد البنوى بإيراد معظم كتاب ابن طولون المكتوب، الذي حمله زياد المعدن في وفد ابن طولون للعباس ابنه؛ لإقناعه بالعودة بالجيش في هدوء^(٥). أما ابن الداية، فلم يشر إلى شيء من محتوى كتاب ابن طولون هذا^(٦).

واهتم البلوى بإيراد العديد من الوثائق المطولة، مما لم يحظ باهتمام ابن الداية، فأورد أجزاء مطولة من كتاب العباس إلى أبيه (أحمد بن طولون)^(٧)، وكذلك رد الأب على ابنه^(٨). وكذلك الكتاب المفصل الذي خلع فيه ابن طولون الموفق من ولاية العهد، وشهادات القضاة بخطوط أيديهم؛ تصديقاً على ذلك^(٩)، ورد الموفق عليه^(١٠).

وأخيراً، فهناك وثيقة أوردتها البنوى متفرداً بها، تعد نموذجاً طيباً لعناصر منهجية جديدة في

(١) سيرة أحمد بن طولون للبنوى ص ٥٦.

(٢) السابق: ٥٦-٥٧.

(٣) السابق: ٥٧.

(٤) السابق: ٤٠.

(٥) سيرة أحمد بن طولون للبنوى ص ٢٥١.

(٦) سيرة ابن الداية ص ١٢٠.

(٧) سيرة البلوى ٢٥٦-٢٦٠.

(٨) السابق: ٢٦٠-٢٦٤.

(٩) السابق: ٢٩٥-٢٩٨.

(١٠) السابق: ٢٩٩.

عرض الوثائق التاريخية. يتمثل ذلك في كتاب (طبارجي) أحد قادة ابن طولون، الذين أرسلهم لمحاربة ابنه العباس. فلما تحقق النصر، كتب هذا القائد إلى ابن طولون كتاب الفتح على حد تعبير البلوى. وقد أورد البسملة^(١) في بدايتها؛ تتركاً بها إزاء إعلان النصر المنشود، وزوال القُمة والكُرب الذي نشأ عن خروج العباس على أبيه. ثم حرص البلوى على ذكر تاريخ كتابة هذا الكتاب، بل تحديد الساعة التي يُكتب فيها بالضغط، بما يتناسب مع دقة المعارك، وضرورة إحاطة القائد (ابن طولون) بكل التفاصيل، أولاً بأول، مبيناً نتائج المعركة "قائلاً: كتابي هذا وقت غروب الشمس من يوم الاثنين لسبع بقين من جمادى الآخرة، وقد وضعت الحروب أوزارها، وأظفر الله - جلَّ اسمه - عبد الأمير"^(٢). ثم هو في نهاية الكتاب يعدُّ بكتاب آخر، يصف فيه تفاصيل نتائج المعركة، فيقول: "وفي غد، نكتب إلى الأمير - أيده الله - بشرح القصة. وبإدْرُتُ بكتابي هذه الحملة؛ ليتعجل الله ﷻ إليه السرور بما مَنَّ الله (جلَّ اسمه)، ويحمده على ما أوَّلَى من إنعامه"^(٣).

خلاصة:

نجح المؤرخ ابن الداية - وهو شاهد عيان على أحداث عصره، وكذلك البلوى - في اختيار موارد معلوماً، ووظف كل منهما ذلك لتحقيق أغراض كتابه، الذي وُضِعَ - في الأساس - لتحقيقها (ابن الداية في الاختصار، والبلوى في استكمال المعلومات، وحسن تنظيمهما)^(٤). وتنوعت مناهجهما وتشابهت في استخدام الموارد الصريحة، وغير الصريحة^(٥)، والوثائق.

(١) بخلاف الكتائب المفيظين الحائزين بين العباس وأبيه، فقد خَلَوْا من البسملة في البداية، بما يتناسب مع ما فيها من فسوة وشدة، وتهديد ووعيد.

(٢) السابق: ٢٦٦.

(٣) سيرة البلوى ٢٦٥.

(٤) وهذه من مواصفات المؤلف المؤرخ الجيد كما يراها د. فيديريكو. د. مانويل في: (التعليق على النصوص التاريخية: المنهج، وجمع النصوص - منهج في البحث التاريخي). ترجمه عن الإسبانية: د. عبد الله جمال الدين، ونُشر في مجلة (حوليات دار العلوم)، العدد ١٤/١٩٩٠-١٩٩١م، ص ٢٧٢، ٢٨٠-٢٨١.

(٥) يدرك ابن الداية والبلوى أن الرواية التاريخية غير المشهورة إذا لم تُصَدَّر بموردها الذي نُقلت عنه، فذلك يضعف الثقة بها، خاصة إذا كان موضوعها لا يُقْبَل عقلاً ومنطقاً. ومن هنا ندرت جداً هذه الروايات لديهما. فابن الداية لديه رواية واحدة (ص ١٠٧)، وفيها سأل ابن الداية عن مصدر المائة ألف دينار، التي أوصى بها ابن طولون للحسن ابن ماهر الكاتب، فقيل له: هي التي صُودرت من ابن مفضل الكاتب. وهذا معقول جداً؛ لأن حرص ابن طولون على الأموال، وضبطه إياها لا يُنكر. وبخصوص البلوى، فقد أورد روايتين من هذه النوعية: الأولى (ص ٤٢)، وهي عن التنبؤ بمدة حكم الطولونيين. (وهي تبدو أسطورية). والثانية (ص ٣٤٣-٣٤٤): وتصور - في مبالغة - شدة الحزن على ابن طولون عند تشييع جنازته.

وتشابه كلاهما في إبراد أحداث مُعَرَّاة من ذكر مواردها تماماً^(١). وعلى كل، فقد وثق كلاهما أحداث كتابه، عن طريق حسن التدقيق، والانتقاء لمصادر معلوماته من رجال دولة أحمد ابن طولون، ومن لهم معرفة بخبايا الأمور.

٢- النقد الداخلي:

وهذا هو النوع الثاني والأخير من النقد، الذي نتناول به كتابي: ابن الداية، والبلوى عن (سيرة أحمد بن طولون). ونركز - هنا - على نقد المادة التاريخية، بمعنى أننا نضع بعض الأحداث التاريخية الواردة في ميزان الصواب والخطأ التاريخي بمقارنتها بالمنطق العقلي، والتاريخي (من خلال النظر فيما أوردته المصادر والمراجع الأخرى). وهاك بعض هذه القضايا:

١- روايات تدخل في باب (الأساطير والخرافات):*

من حسن الطالع أن هذه الروايات قليلة سواء في كتاب (ابن الداية)، أم في كتاب (البلوى)؛ مما يدل على اتباعهما المنطق العقلي التاريخي في اختيار ما يكتبان. إلا أنه - وربما من باب غلبة الفكر السائد في ذلك العصر - أورد كلاهما بعض الأحداث، التي ينظر إليها الفكر التاريخي المعاصر نظرة الشك والريبة. من ذلك^(٢): الرواية التي يرويها مجهول^(٣) - وهذا أحد وجوه رفضها - أنه كان جالساً مع الجالسين في انتظار دخول ابن طولون مصر أميراً، وكان معه رجل مكفوف يُعرف بـ (أبي قبيل صاحب الملاحم)^(٤). فلما سأل أحد الحاضرين أبا قبيل عما يجده في كتبهم بخصوص أحمد بن طولون الأمير الجديد، ردّ عليه واصفاً إياه، ذاكرة أنه سيتقلد مصر وبنوه من بعده قريباً من أربعين سنة. فما إن أتم حديثه، حتى دخل ابن طولون وقد انطبقت عليه الصفات التي تنبأ بها أبو قبيل تماماً. وبالفعل ظلت دولة الطولونيين ثمانية وثلاثين عاماً^(٥).

(١) وهي تتصل بالأحداث المشهورة المعروفة، التي لا تحتاج إلى ذكر مصادرها (مثل: تاريخ دخول ابن طولون مصر، وصدام ابن شبح مع الخلافة، وتقسيم دولة الخلافة بين المفوض، والموفق). وهي في كلا الكتابين، وإن كثرت في كتاب البلوى؛ لنتابع تفصيلاته وطولها.

(*) وهي من الأمور العبدية عن الصحة، وتستعجنها العقول، ولا معنى لها، ولا فائدة فيها. (المنتظم لابن الجوزي - ط. دار الكتب العلمية) ج ١ ص ١١٦.

(٢) سيرة ابن الداية ص ٧٦-٧٧، وسيرة البلوى ص ٤٢.

(٣) هذا بالسيرة لرواية البلوى. أما ابن الداية، فحدد مصدرها بقوله: "فحدثني الحسن بن رافع الكاتب" ص ٧٦.

(٤) هكذا في سيرة البلوى ص ٤٢. وهي بعيدة عن الصواب؛ لأن أبا قبيل هذا المعروف بالملاحم (ت ١٢٨هـ). أما ابن الداية، فكان أدق لما نسبها إلى شاب يُنسب إلى أبي قبيل، فلعله من أحفاده.

(٥) رواية ابن الداية هنا أكثر تفصيلاً وأدق من رواية البلوى، ففيها أن هذا الشاب أحاب بأن دولتهم تستمر أربعين سنة (ص ٧٦). ثم ذكر أن والده (يوسف بن إبراهيم) أمر غلاماً له في الإسطراب أن يرصد طالع أحمد بن طولون عند دخوله مساكن فسطاط مصر، وكان تأويل يزيد بن عبد الله الموجود آنذاك الطالع ابن طولون - لما =

ولى على هذه الرواية تعليق:

أ- ما كان ينبغي لكلا المؤرخين، وقد استوى علم التاريخ على سؤفه في القرن الرابع الهجري، أن يأتيا بهذه الرواية، خاصة أن ابن الداية لم يُعرفنا بترجمة مورده فيها، والبلوى استبعد ذكره كأنه مجهول له.

ب- أن جَوَّ الهالة والأسطورة يُخَيِّم على أحداث الرواية من بدايتها إلى نهايتها، وهي تنحو متحسّية التنبؤ بالغيب^(١)، وهو مظهر من مظاهر انحراف المنحمن والمشتغلين بالفلك في ذلك العصر؛ إذ يتجهون إلى إخبار الناس بما سيقع في المستقبل، فإذا صادف تدبير القدر صدّقهم الناس فيما تخمّنوا. وكذب المنحمن ولو صدّقوا. وعلى كل، فتبدو هذه الرواية متنافرة غير منسجمة مع عقلية ومنهج هذين المؤرخين، وإن عبّرت عن تأثير التاريخ بحكايات المنحمن وأساطيرهم.

٢- روايات تدخل في إطار المبالغة:

وأعتقد أن مرّد هذه الروايات^(٢) يرجع إلى نعمة الإعجاب والانبهار، التي تصاحب العديد من أخبار أحمد بن طولون في كلا الكتاتيب (خاصة كتاب ابن الداية). ومن نماذج ذلك: ما ذكره كل من: ابن الداية^(٣)، والبلوى^(٤) عن شجاعة أحمد بن طولون وبطولته النادرة، بحيث استطاع أن يتقدم صفوف خمسمائة من الرجال، الذين يحرسون قافلة للخليفة المستعين عائدة من بلاد الروم، وبها تحف وهدايا ثمينة مشتراة للخليفة. وتقدم أحمد يقاتل جماعة كبيرة من البدو قطاع الطريق، بعد أن خاف جميع من معه على أنفسهم، وعزموا على دخول الحصن؛ نجاة بأنفسهم، لكن أحمد رفض ذلك، فكان أول من لحق بالأعراب، ووضع فيهم السيف، ورمى بنفسه عليهم، وكان لا يخطئ من الرمي شيئاً، حتى اطمان الآخرون فشاركوه القتال، وترك

- علم به - مقارباً لقول الشاب المكفوف. هذا، وقد نقل رواية ابن الداية تلك، دون أن يُصرح بذلك القِطْعُ في (تاريخ الحكماء ٣٣٣-٣٣٤).

(١) والله - تعالى - يختص بعلم الغيب إذ يقول: ﴿قُلْ: لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي لَفْعاً وَلَا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْمَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. (الأعراف: ١٨٨).

(٢) لم أنشأ الإتيان بأكثر من نموذج دال على المبالغة؛ خشية الإطالة. ومن أراد المزيد من التفاصيل، فليراجع: المبالغة في بيان صدق خُش ابن طولون، وذكاء عقله، وإطلاع الله له في منامه على رجل حاسوس، يُنفذ إلى مجلسه للسلام عليه اليوم السابق، فلما أصبح، وجدته أمامه بعينه كما رآه في منامه، فأمر بالقبض عليه. (سيرة ابن الداية ص ١٠٠، وسيرة البلوى ص ١٢٥-١٢٦). ولغة نموذج آخر عبارة عن روايات عديدة متتابعة مجموعة من الرؤى والنامات، رآها أكثر من شخص، كلها دفاع عما ارتكبه من قتل في حق بعض الناس، وبيان أن صدقاته ومظاهر إحسانه أنقذته من النار، إلى آخر هذه الأمور التي لا يُعول عليها مطلقاً في إدراك حاملة ابن طولون، ومُسْتَقَرَّة في عالم الآخرة. (راجع التفاصيل في المصدر السابق ص ٣٥٢-٣٥٦، وسيرة ابن الداية ص ١٣٢).

(٣) في سيرته ص ٧٤-٧٥.

(٤) سيرة أحمد بن طولون ص ٣٧-٣٩.

الأعراب كل ما غبوه، ولاذوا بالفرار على خيولهم. ولم تكف الرواية بكل هذه المبالغات^(١)، بل بالغت - كذلك - في بيان أثر تلك المعركة في علاقة ابن طولون بالخليفة المستعين، حتى قالت رواية البلوى: "وعظم أحمد بن طولون في عينه وقلبه، وصار له كالعبد"^(٢).

٣- قضايا للمناقشة:

هناك بعض جزئيات وردت في سيرتي: (ابن الداية)، و(البلوى)، أو في إحداها، نقف أمامها بشئ من التأمل، مثل:

أ- موضوع نسب (أحمد بن طولون):

لم يتعرض ابن الداية^(٣) لهذا الموضوع، ولم يُثر قضية الطعن في نسب ابن طولون، واكتفى ببيان أصل والده (طولون) التركي، وكيفية اتصاله بالخليفة المأمون، وبين أن أحمد وُلد سنة ٢٢٠هـ من جارية، كانت لأبيه طولون، اسمها (قاسم)، وأنه بعد وفاة الوالد سنة ٢٤٠هـ، عاش في كنف ورعاية رُفقاء أبيه، فأحسنوا تنشئته وتربيته^(٤). ولعل ابن الداية لم يتعرض لهذا الموضوع؛ لعدم صحته من جهة، وتوخياً لمنهج الاختصار، الذي حرص على اتباعه في مؤلفه.

أما البلوى - وفقاً لعرضه المفصل - فقد توجّه بالسؤال - عن الأمر - إلى أحد الخراء العالمين بشئون الأتراك، العارفين بأحوالهم قائلاً له: "إن الناس في أمره (أى: أمر نسب ابن طولون) فربقان: أحدهما يقول: إنه أحمد بن طولون، وإن يُلخَّص^(٥) كان زوج أمه قاسم، والآخر يقول: إنه أحمد بن طولون، وإن يُلخَّص بن قاسم جارية طولون"^(٦). والعبارة السابقة غامضة

(١) سيقا إلى التشكيك في صحة هذه المبالغات المذكورة سيدة كاشف في كتاب: (أحمد بن طولون) ص ٢٢.

(٢) سيرة البلوى: ص ٣٨.

(٣) وذلك في سيرته التي احتفظ لنا بها ابن سعيد في (اغرب - قسم مصر) ص ٧٣-١٣٣. لكن ابن تغرى بردى في (الحوار الزاهرة) ج ٣ ص ٤-٥ أورد نصاً ذكر أن قائله (أحمد بن يوسف) فيه يقول: قُلت لأى العباس بن خاقان، ثم أورد الرأيين المتصلين بحقيقة والد أحمد بن طولون. وذكر كرد على محقق (سيرة أحمد بن طولون) ليلوى في (هامش ٢) ص ٣٣: أن لأن الداية رواية، تشبهها رواية البلوى، وسؤال البلوى لمكوف نفس سؤال ابن الداية لأن خاقان، والجواب مثله، والعبارة تكاد تكون واحدة. وهذا يعنى أن ابن الداية تعرض للموضوع نفسه قبل البلوى. والحق أن لا أطمئن إلى نقل ابن تغرى بردى؛ لأن سيرة ابن الداية كاملة - فيما أعتقد - بين أيدينا، ولا يوجد لها هذا النص، كما أن الجواب الوارد في (الحوار)، ويشير إليه كرد على - فيما أظن وإن لم يذكر مصدر كلامه - مبنو، وليس في اكتمال ولا وضوح رواية البلوى. ولذلك أعتقد احتياط الأمر على ابن تغرى بردى في نسبة النص إلى قائله.

(٤) سيرة ابن الداية ص ٧٣-٧٤.

(٥) وردت في النص مصروفة، وأعتقد عدم صحتها؛ لأنها لفظة أعجمية مزيدة على ثلاثة أحرف.

(٦) سيرة البلوى ص ٣٣-٣٤.

وغير مفهومة، وأعتقد أن فيها خلطاً بين بعض الكلمات في السطور المتعاقبة؛ نتيجة خطأ في النظر وقع فيه ناسخ المخطوطة، ولم يتبينه محقق الكتاب وناشره. وقد استعنت على فك هذا الغموض بما سيرد في رواية البلوى السابقة نفسها من حوار مكمل لها، وبما ورد في كتاب (النجوم الزاهرة) لابن تغرى بردى^(١). ولعل تصحيح العبارة يتركز على شقها الأخير، فيكون كما يلي: (والآخر يقول: إنه أحمد بن يليخ، وليس ابن قاسم جارية طولون).

ويمكن توضيح القضية، والرأى فيها فيما يلي:

أولاً - يذهب فريق من الناس إلى أن طولون التركي هو والد أحمد، وإليه يُنسب، وأن أم أحمد هي (قاسم) جارية طولون. ويرى فريق آخر: أن أحمد هو ابن (يلبخ) التركي صديق طولون، وأنه لما مات والده (يلبخ) تَبَّاه (طولون)، فإليه يُنسب، وبه يُعرف على سبيل التجوز.

ثانياً - يذكر الصفدى^(٢) رأى المشككين في نسب أحمد بن طولون مصدراً إياه بلفظة دالة على التشكيك في صحة ما يذهبون إليه، فيقول: يُقال: طولون تَبَّاه، ولم يكن ابنه. ويقال: اسم أم أحمد هاشم^(٣).

ثالثاً - يذكر المقرئى^(٤)، وابن تغرى بردى^(٥) (فيما ينقله عن الحميدى): أن طولون تَبَّاه أحمد؛ لَمَّا رأى فيه من مخايل النجابة. ويدللان على هذا الرأى برواية ينفردان بإيرادها، مفادها أن أحمد كان يدخل على سيده الأمير (طولون) وهو صغير، ويسأله أن يكتب بعهاء للفقراء المُعَوَّزين. وفي إحدى المرات أمره بإحضار الدواة. فلما توجه لإحضارها، فوجئ بوجود إحدى حظايا طولون وقد خلاها خادم، فخرج أحمد ولم يتكلم. لكن الجارية خشيت إبلاغ سيدها، فسبقت إلى اتمام أحمد عنده بأنه راودها عن نفسها، فصدَّقها طولون، وأرسل بأحمد إلى أحد خدمه بكتاب يأمره فيه بقتل حامله في الحال. ولما هَمَّ أحمد بالتوجه لتنفيذ المهمة، قابلته الجارية، وأخذت منه الكتاب، ودفعت به إلى الخادم الذى كان معها، وكانت تريد بذلك أن يزداد حنق طولون على أحمد. وبعد قليل وصلت رأس الخادم، الذى أوصل الكتاب؛ مما أدهش طولون، وحير الجارية. وبسؤال طولون أحمد، وتهديده بقتله، شرح ما رأى من أمر الخادم والجارية،

(١) ح ٣ ص ٤٠٥.

(٢) الواف بالوفيات ج ٦ ص ٤٣١.

(٣) النجوم الزاهرة ٣/٣، وبدائع الزهور ١/١٦١.

(٤) المغنى ١/٤١٧-٤١٨.

(٥) النجوم الزاهرة ٤/٣.

وأحضرت الجارية فأقرّت بذنبها، فقتلها طولون، وحطّى أحمد بمكانة طيبة عنده. ويضيف المقرئ^(١) بأنه ولّاه الأمر من بعده.

رابعاً - عرض البلوى في سيرته تفنيد محدثه (أحمد بن محمد الكوفي) ذلك الاهتمام بأدلة دامغة^(٢) هي:

أ- أن يلبخ هذا تركي أسير مع طولون، وكان مغنياً يغنى بالتركية، خفيف الروح. ولما مات طولون، رأى يلبخ أن من الوفاء أن يرعى ابنه أحمد من بعده، فقام على شتونه أحسن قيام، ولعله تزوج أمه، فصار زوجاً لأمه، وأوصله - لحداثة سنه - إلى الأماكن، التي كان لا يستطيع الوصول إليها، فإذا رأى الناس أحمد معه، سألوه: هل هذا ابنك؟ فيقول: نعم هو ابني، وابن سيدي (رحمه الله).

ب- أنه لا يجوز أن يكون ابناً - (يلبخ)؛ لأن طولون أسبق وفاة من يلبخ؛ إذ مات قبله بعشر سنين^(٣). ولم يثبت أن - (يلبخ) أولاداً ذكوراً، وإنما ترك طفلة وحيدة صغيرة، كان أحمد يرعاها هي وأما حتى وفاهما.

ج- لو كان أحمد ابناً - (يلبخ) ما زوّجه (يارجوخ) ابنته^(٤)؛ لأن يلبخ كان مغنياً، وهو دون المتزلة، بينما كان طولون معروفاً بالستر والصيانة.

د- ومما يدل على أنه ابن طولون فعلاً، أن الموفق لما اشتد خلافه مع أحمد وقام بلعه، أسنده إلى (طولون)، ولم يسنده إلى (يلبخ).

خامساً وأخيراً - من خلال استعراض ما مضى من روايات يترجح لدى - كما

(١) المقي ٤١٨/١.

(٢) سيرة أحمد بن طولون، للبلوى ص ٣٤. وعلى هذا فالمرحوم البلوى ليس هو الذي نُصِب من نفسه مدافعاً عن أحمد بن طولون، داحضاً كل ما افترى به عليه، مفسراً ما ذاع من شك في نسه تفسيراً مقبولاً، خلص منه إلى إثبات انتسابه إلى طولون، كما يرى د. حسن أحمد محمود في كتابه: (حضارة مصر الإسلامية في العصر الطولوني) ص ٢٣. إنما الصحيح الدقيق أن مورده (أحمد بن محمد الكوفي) هو الذي قام بذلك كله، والبلوى مجرد ناقل لهذا التفسير والتعليق. وكما كنا نتمنى أن يكون هو صاحب هذه التعليقات الطيبة، إذاً لذكرناها في منهجه، ولاعتبرناها دليلاً على حضور شخصيته.

(٣) من المعلوم أن طولون حُلب من بلاد الترك عنى بد نوح بن أسد عامل يُختار إلى المأمون، فيما كان عليه من مال ورفيق، وغير ذلك من أشياء تؤدّي كل عام. وتم إحضار طولون سنة ٢٠٠هـ، ووُلِدَ ابنه أحمد سنة ٢٢٠هـ، وتوفى سنة ٢٤٠هـ (سيرة ابن الدابة ص ٧٣-٧٤). وعلى هذا، فيكون (يلبخ)، توفى سنة ٢٥٠هـ.

(٤) لما عظم قدر أحمد بين الأتراك؛ لدننه وورعه، خطب إلى يارجوخ ابنته فزوّجه، وكانت أم ابنه العباس، وابنته فاطمة. (سيرة البلوى ٣٥).

تَرَجَّعَ لدى بعض الباحثين من قبل^(١) - صحة ما ورد في سيرة البلوى؛ لأنه أقدم مصدر تاريخي - من وجهة نظري - تعرض لهذا الأمر، فهو أقرب إلى الصواب من غيره، ولأنه اعتمد في عرض القضية على مصدر موثوق به، عليم بخبايا الأتراك وأحوالهم، كما أنه دعم رأيه بأدلة صحيحة واقعية من الوجهة التاريخية والمنطقية، خاصة إذا صح ما ورد عن زواج (قاسم) من (يلبخ) بعد وفاة زوجها (طولون)، فلعله - بعد هذا الارتباط - غدا أشد ملازمة له ورعاية لشأنه، وعامله كأنه ابنه بعد أن أضحي زوج أمه. وقد ردَّ أحمد له الجميل بالإحسان إلى زوجته الأخرى وابنتها حتى وفاتها، كما ذكرتُ من قبل. وأخيراً، فإن أحمد بن طولون لو كان مدخول النسب، لاهتبل هذه الفرصة شائفه في السداخل والخارج (الشاعر محمد بن داود، والموفق)، ولأوسعوه تشجيعاً وتجريماً، ولأضعف ذلك من مركزه، ومقامه بين الناس في زمن، كان الناس يهتمون فيه بالأحساب والأنساب اهتماماً بالغاً.

أما القائلان بالرأى الآخر المرحوح، فهما متأخران (يرجعان إلى القرن التاسع الهجري)، ولم يذكر أحدهما مصدره (المقريزي)، واعتمد الآخر على (الحميدي)^(٢)، وهو - وإن كان من رجال القرن الخامس الهجري - إلا أنه لا يعد مصدراً معتبراً من مصادر التاريخ المصري؛ لأنه مؤرخ أندلسي بالدرجة الأولى، ومصدره الذي نقل عنه الرواية مجهول (قال بعض المصريين)^(٣). ثم إن الرواية التي سقت عنه غير مقبولة، فهي - وإن كانت لا تدل على أن أحمد ابنه الصليبي - إلا أنها - أيضاً - لا تدل على أنه متبني له، بل هو أقرب إلى خادم يعمل عند أمير، لا يشعر تجاهه بأذن مشاعر الفيرة، عندما يجد حظيته مع غير سيدها فلا يُبلغ عنهما. وأحداث الرواية مفتعلة وغير منطقية، فلو أراد الأمير قتل أحمد، لقتله في الحال دون حاجة إلى إرساله بكتاب إلى خدام يأمره بقتل حامله. وأخيراً، فإن أسأله: أيُّ أمر كان يتولاها (طولون)، أية إمارة كان يتأمرها حتى يليها (أحمد) من بعده؟! إن أقصى ما يمكن أن يصل إليه (طولون) أن يصير من

(١) حضارة مصر الإسلامية د. حسن أحمد محمود ص ٢٢-٢٣، ودكتوراه (حضارة مصر في العهد الطولوني): لطاوة ص ٨-٩.

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فوح بن عبد الله الأزدي الحميدي الحافظ المشهور، قرطبي الأصل. روى عن ابن حزم الظاهري، واختص به، وعن ابن عبد البر صاحب كتاب (الاستيعاب). رحل إلى المشرق سنة ٤٤٨هـ، وهو ابن ٢٨ سنة، فحج. سمع بإفريقية، ومكة، والأندلس، ومصر، والشام، والعراق، واستوطن بغداد. كان موسوفاً بالنباهة والمعرفة، والدين والورع. له كتاب (الجمع بين صحيحى البخارى، ومسلم)، و(جلوة المقتبس)، وهو عن تاريخ علماء الأندلس. توفي ببغداد سنة ٤٨٨هـ. (وفيات الأعيان ٤/٢٨٢-٢٨٣).

(٣) النجوم الزاهرة ٤/٣.

كبار الجند^(١)، وإن حياة ابنه بعده لا تدل على أنه ورث عن أبيه منصباً ذا شأن، اللهم إلا أن يكون أخذ عنه النشأة المتدنية الطبية، التي واصل غرسها داخله أصدقاء أبيه المقربون (لا يبلغ وحده)، ثم توجه إلى الغزو والجهاد، فشاع ذكره، واشتهرت شجاعته وأخلاقه، فُعرف في أوساط الكبراء، حتى هيأ له القدر أن يلي ما تولاها.

ب- عيسى بن شيخ وعلاقته بالخلافة، وبابن طولون:

١- ورد في (سيرة ابن الداية): أن (عيسى بن شيخ) كان متقلداً لفلسطين والأردن، ومتغلباً على دمشق (أى: دون تقليد الخلافة له)، وأنه انتهز فرصة اضطراب الأتراك في العاصمة، فأراد التغلب على مصر. وأرسل ابنُ المدير صاحب خراج مصر مبلغ (٧٥٠ ألف دينار) إلى الخلافة، فاستولى عليها عيسى^(٢).

أما البلوى، فذكر أن (أحمد بن عيسى بن شيخ الشيباني) كان يتقلد (فلسطين، والأردن). فلما مات، توثب ابن شيخ عليهما، فقال: هي من عملي. وذكر استيلاء ابن شيخ على أموال مصر المرسلة من ابن المدير إلى الخلافة، وتفرقها في جنده. وبلغه اضطراب الأمور في عاصمة الخلافة، فجمع الجموع وطمع في السيطرة على بلاد الشام كلها، وخرجت شائعات - روج لها الناس - بعزمه على الاستيلاء على مصر أيضاً^(٣).

وواضح أن البلوى لم يكن موفقاً في ذكر اسم الشخصية موضع النزاع، وروايته يكتنفها في بدايتها الغموض، وإن كانت بها تفصيلات غير واردة في رواية ابن الداية.

٢- قال ابن الداية في (سيرته): كتب السلطان (لعله الخليفة المهدي) إلى ابن طولون أن يتأهب لملاقاة عيسى بن شيخ، وذلك بتجهيز جيش من أكفاء الجند، وأمر صاحب الخراج أن يمدّه بما يحتاج إليه من نفقات. وانتهاز ابن طولون الفرصة، وكون جيشاً كثيفاً به كثير من السودان وغيرهم. هذا، وقد أنفذ الخليفة إلى (عيسى بن شيخ) بوفد يتفاوض معه، فيه واحد من

(١) يذكر ابن تغري بردي عن طولون: أنه رَقاه المأمون حتى صار من جملة الأمراء (السابق ٣/٣). واعتقد أن لقب الإمارة هذا لقب شرف، منحه إياه لنباهته في عالم الجندية. ويعود ابن تغري بردي ص ٦ إلى القول بأن طولون لما مات، فَوُضَّ الخليفة المتوكل (٢٣٢-٢٤٧هـ) إلى أحمد ما كان لأبيه. ونحن لا ندري ماذا كان لأبيه، حتى يتولاها أحمد. ثم إننا لم نجد ذكراً لطولون، ولا لابنه أحمد في عهد المتوكل على كثرة أحياءه؛ مما يجعلنا نشك في صحة هذا الكلام، خاصة أن قائله أردف قائلاً: ثم تنقلت الأحوال بابن طولون حتى ولى إمرة الثغور ودمشق، ثم ديار مصر. والصواب: ولى مصر، ثم الثغور الشامية، ثم سيطر على الشام.

(٢) السابق: ص ٨٠.

(٣) سيرة أحمد بن طولون ص ٥٠.

كبار خدمه وفتيانهم، يطالبونه بأموال مصر، وبما عليه من أموال عما يتقلده من أعمال. وأرسل معهم عهده بتوليته أرمنية^(١).

فماذا كان رد فعل عيسى ؟ أما عن الأموال المصرية، فزعم أن نفقات الرجال استهلكتها. وأما عن الأموال المتأخرة عليه، فلا شك أنه ماطل ولم يؤد درهماً مما عليه. ولما بويج المعتمد، لم يدع له عيسى على المنابر، ولم يأخذ له بيعة من أصحابه، ولم يرتد السواد شعار العباسيين. ومع ذلك دفع إليه الحسين الخادم بولاية أرمنية. ثم أرسل المعتمد (أماجور التركي) إلى دمشق والياً عليها على رأس جيش، فأرسل عيسى ابنه منصوراً، وخليفته (أبا الصهباء)؛ لمنع (أماجور) من دخول دمشق. هُزم جيش عيسى، وقتل ابنه وخليفته وكبار جنده، فاضطر عيسى للخروج إلى نواحي أرمنية على طريق الساحل، وتسلم أماجور أعمال الشام سنة ٢٥٧ هـ^(٢).

أما البلوى، فروايتها في هذا الشأن - كالمعتاد - أكثر تفصيلاً ووضوحاً. والمهم أنما أكثر بياناً لهدف ابن طولون من الإسراع بالاستجابة لمطلب الخلافة، ونجح في الإفصاح عن سياسة ابن طولون في صراع الخلافة مع (ابن شيخ). ذكر البلوى أن المهتدي بالله أرسل إلى ابن شيخ وفداً، اشترط عليه أن يُسلم له عهد الخليفة إليه بولاية إرمنية بشرط أن يرد الأموال التي في رقبته كلها، وأن ينصرف عن الشام، فإن لم يفعل كتبوا إلى الخليفة بذلك؛ ليتدبر الأمر.

لم يستجب ابن شيخ لمطالب الخلافة، فاستخدم معه حسين الخادم الحيلة بأن دفع إليه عهد توليته إرمنية، حتى أقام الدعوة للمعتمد، وأخذ له البيعة. وانصرف الوفد مخبراً المعتمد بما حدث، فأمر المعتمد ابن طولون بالتأهب للقاء ابن شيخ، فانتهر أحمد الفرصة، واستكثر من الجند، وجدد آلات الحرب، ثم تملكاً عن الخروج؛ لأنه لا يريد الصدام مباشرة، فأرسل إليه وفداً، يدعوه إلى طاعة الخليفة ورد الأموال، لكنه رد رداً قبيحاً. ثم رأت الخلافة الاستعاضة عن ابن طولون بـ (ماجور) التركي، الذي هزم جيش ابن شيخ، على النحو الذي ورد في رواية ابن الداية السابقة^(٣).

بعد أن عرضنا تصور كل من ابن الداية، والبلوى لطبيعة العلاقة بين (عيسى بن شيخ)، والخلافة العباسية في (عهدي: المهتدي، والمعتمد)، وموقف ابن طولون من الصراع الدائر، نلم

(١) بُكسر أوله ويُفتح، وهو اسم لصنّع عظيم واسع في جهة الشمال، والنسبة إليه أرمنيّ على غير قياس. وكذلك (أرميني). وهي من بلاد الروم، ويضرب بمسحتها، وطيب هوائها، وكثرة ماؤها وشجرها مثل. (الأنساب ١/١١٧، ومعجم البلدان ١/١٩١ وما بعدها).

(٢) السابق: ص ٨٠-٨١.

(٣) سيرة أحمد بن طولون ٥٠-٥٢.

إلمامة سريعة بصورة الموقف كما عرضته المصادر الأخرى؛ كى تنبين القضية بوضوح أكثر، وتنف على وجوه الاتفاق، والاختلاف، والإضافات.

١- الشخصية المحورية التى تدور حولها الأحداث هى شخصية (عيسى ابن الشيخ^(١)) بن السليل (ابن ضبيس): من بنى جساس بن مرة بن ذهل بن شيان بن ثعلبة، أبو موسى الشيباني الذهلي^(٢).

٢- تختلف المصادر حول تاريخ وظروف تولية عيسى (فلسطين، والأردن): فيذكر ابن منظور أن بغا الكبير ولّى عيسى بن شيخ فلسطين والأردن سنة ٢٥٢ هـ^(٣)، بينما يذكر المسعودى أن المعتز ولّاه فلسطين سنة ٢٥٣ هـ^(٤). ويرى الطبرى أن عيسى بن الشيخ عُقد له على الرملة أول ذى الحجة سنة ٢٥٢ هـ، فأنفذ عيسى خليفته (أبا المغراء) إليها، فقبل: إنه أعطى (بغا) أربعين ألف دينار على ذلك، أو ضمّنها له^(٥).

وأتصور أن التوفيق بين هذه التواريخ سهل ميسور، فمكانة (بغا) من الخليفة العباسي تسمح له بتولية عيسى (فلسطين، والأردن)، ثم إن إقدام عيسى على ترسيخ علاقته مع (بغا) هيأ له ولاية (الرملة) مقابل تعهده بمبلغ كبير من المال سنوياً. ويبدو أن زيارة عيسى لسامرا قادمًا من مصر بصحبة بعض ولد أبي طالب، الذين أقاموا بمصر مدة؛ هرباً من قحط حلّ بالحجاز، ولقاءه بالمعتز، جدّد له عقده على (فلسطين)، وذلك سنة ٢٥٣ هـ^(٦).

ويلو أن (عيسى بن الشيخ) أظهر الخلاف مع الخلافة العباسية في عهد المهتدى (٢٥٥ هـ)،

(١) ومن ها، فقد أخطأ المؤرخ البلوى لما سّمّاه (أحمد بن عيسى بن شيخ الشيباني). (سيرة أحمد بن طولون ص ٥٠)؛ إذ إن (أحمد) هذا لا علاقة له بهذه الأحداث، فهو الابن الذى ولّى حكم إرمينية وديار بكر بعد وفاة أبيه ٢٦٩ هـ، وضم إليهما قلعة ماردٍين قلعة حصينة على قمة جبل الجزيرة مشرفة على دثيسر، ودار، ونصيبين. (معجم البلدان ٤٦/٥)، سنة ٢٧٩ هـ (تاريخ الإسلام ٣٩٩/٢٠، والبداءة والنهاية ٧٠/١١). وظل أحمد هذا في موقعه حتى توفى في ذى الحجة ٢٨٥ هـ (تاريخ الطبرى ٦٨/١٠، ومروج الذهب مجلد ٢ ص ٦٠٤، والبداءة والنهاية ٨٣/١١). وبعد ذلك ولّى ابنه (محمد) ما كان يليه أبوه على سبيل التغلب؛ مما دفع المعتضد إلى محاصرته، حتى اضطر إلى التسليم، فأثمه الخليفة، وخلع عليه سنة ٢٨٦ هـ (تاريخ الطبرى ٧٠/١٠، ومروج الذهب ٦٠٤/٢ - ٦٠٧ (وسمّى الشيخ عبد الرزاق)، والكامل ٣٩٥/٦، وتاريخ الإسلام ٢٤/٢١، والنجوم ١٣٣/٣). وقد نقل المقرئى - دون أن يذكر - عن البلوى في كتاب (الخطوط) ٣١٥/١ دون تحقيق، فجعل أحمد بن عيسى بن شيخ الشيباني متقلد جندى فلسطين والأردن. فلما مات، وثب ابنه على الأعمال، واستبد بها. . إلخ. واعتمدت د. سيدة كاشف على نص البلوى غير الدقيق، فنقلت عنه أيضاً ما قاله دون تحقيق (أحمد بن طولون: ص ٦٤ - ٦٥).

(٢) (مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر)، لابن منظور ٧٣/٢٠.

(٣) السابق: ٧٤/٢٠.

(٤) مروج الذهب: مجلد ٢ ص ٥٥٢.

(٥) تاريخ الطبرى ٣٧٢/٩.

(٦) مروج الذهب: مجلد ٢ ص ٥٥٢.

بالاستيلاء على دمشق^(١)، ومنع الأموال، وغير ذلك من الإجراءات التي امتدت إلى بدايات عهد (المعتمد) سنة ٢٥٦هـ، وما أعقبها من تطورات ومفاوضات^(٢)، أفضت إلى تكليف ابن طولون بمحاربة ابن الشيخ، ثم تراجعت الخلافة عن ذلك وأمرته بالتوقف^(٢)، وكلفت أماجور التركي بتلك

(١) لم يكن ابن خلدون دقيقاً، عندما ذكر أن المعتمد ولي عيسى دمشق، لكنه منع الخراج (تاريخه ٤٢٣/٣)؛ لأن عيسى تغلب عليها قبل المعتمد، وعلاقته بالمعتمد كانت سيئة، ولم يبايع له حتى أوهم أن المعتمد يمنحه إرمينية إلى جانب الشام.

(٢) أهم ما في هذه المفاوضات أن حسيناً الخادم خدع عيسى بن شيخ، حتى ظن أن الخلافة بدت من الضعف، حتى إنها تمنحه إرمينية إلى جانب الشام؛ لقاء مبايعته للمعتمد، وخطبته له، وارتدائه السواد. (مخطوط مرآة الزمان، لسيط ابن الجوزي (مصورة عن نسخة أحمد الثالث) جـ ١٠ ورقة ٤٩ - ٥٠.

(٣) الراجح أن الخليفة المعتمد على الله (٢٥٦ - ٢٧٩هـ) هو الذي أمر ابن طولون بذلك، وبالتالي هو الذي أمره بالرجوع عنه (سواء كان ذلك التراجع بقرار من المعتمد نفسه، أم بإيعاز وتخريض من أعداء ابن طولون بالداخل: ابن اللبّار صاحب الخراج، وشقير عامل البريد). وهذا الرأي الذي رجّحناه على خلاف ما انتهى إليه عدد من الباحثين: فقد رأى د. حسين نصار محقق (ولاة مصر) للكندی أن الذي أمر ابن طولون بالخروج هو الخليفة (المهتدي). (راجع: ولاة مصر ص ٢٤١ بالبن، وما يتصل بها في هامش ٤ وما يتعلق بها في جدول التصويبات آخر الكتاب ص ٣١٢). وتلقّف ذلك عنه حسن عبد الحميد جبر في رسالته للدكتوراه (هامش ٣ ص ١٤١). أما في دكتوراه (الحياة السياسية، ومظاهر الحضارة في عهد المعتمد)، محمد حسب الله، فقد ذكر ص ١٥٠: أن ابن الدابة والكندی رأيا أن المهتدي هو الأمر بالخروج، والمعتمد أمير بالرجوع. أما البلوي، وابن خلدون، والمقرئزي، فرأوا أن المعتمد هو الأمر في الحالين. ورجح الرأي الأول، معتمداً على أن ابن طولون خرج في جمادى الآخرة ٢٥٦هـ، والمعتمد تولى في رجب من العام نفسه. ونقل عنه الرأي نفسه صاحب دكتوراه (حضارة مصر في العصر الطولوني) ص ٢٥. وبالعودة إلى هذه المصادر للتزقيق، وجدت أن ابن الدابة (ص ٨٠) لم يحدد شخصية الأمر بالخروج، واكتفى بقوله: (وكتب السلطان إلى أحمد بن طولون). أما البلوي، فقال: (وكتب إلى أحمد بن طولون بأمره) ص ٥١، ولم يصرح، لكن السياق قبله يشير إلى أنه (المعتمد)، الذي أخذت له البيعة من ابن الشيخ. أما الكندی، ففي (الولاة، ط. جست) ص ٢١٤، لم يصرح قائلاً: "وكتب إلى أحمد بن طولون بالخروج". أما ابن خلدون، والمقرئزي فقد صرحا أن المعتمد هو الأمر بالخروج (تاريخه ٣٨٧/٤، والمخطوط ٣١٥/١). ونخرج من ذلك بحقيقتين: الأولى - أنه لا خلاف حول شخصية من أمر ابن طولون بالرجوع (المعتمد). الثانية - أنه لا يوجد مصدر واحد من المصادر السابقة صرح - بطريقة مباشرة، أو غير مباشرة - أن الأمر بالخروج هو الخليفة (المهتدي). بقي - بعد ذلك - أن نُقَدِّد الدليل، الذي اعتمد عليه البعض في القول بأن المهتدي هو الأمر بالخروج، والقاتل: إن ابن طولون خرج للفاة (عيسى بن شيخ) في جمادى الآخرة سنة ٢٥٦هـ، وأن المعتمد بويع في رجب من العام نفسه. والحق أن مصدر هذه التواريخ هو الكندی في (كتاب الولاة ص ٢١٥ - ط. جست). وبالتحقق من صحة تلك التواريخ، وبالنظر إلى ملاسبات هذا الخروج ظهر لي عدم دقتها؛ لما يلي:

أ- لم تشر المصادر المعتمدة في (سيرة ابن طولون) لابن الدابة، والبلوي إلى شيء من هذه التواريخ، وهي أدق وأكثر تفصيلاً - من وجهة نظري - وأقرب إلى الأحداث من كتاب الكندی الذي لم يعالج تاريخ الطولونيين على النحو المرضي.

ب- أن قرار المعتمد بخروج ابن طولون لم يحدث إلا بعد أن أصر عيسى بن شيخ على رفض مطالب الخليفة المهتدي، وقد وصلت أنباء وفاته إلى الوفد المفاوض، وكذلك وصل نبأ بيعة المعتمد إليهم، وجامعهم أوامر الخليفة الجديد بالمطالبة ببيعة ابن الشيخ له، فاحتل عليه حتى بايع، ثم عاد الوفد إلى المعتمد، فعرّفوه حقيقة تطلعات =

المهمة، التي انتهت بتحول عيسى إلى إرمينية بعد الهزيمة. ويدو أن صلاته الطبية بالوزير (عبيد الله بن يحيى بن خاقان)^(١) ساعدته على تثبيت أقدامه في إرمينية، ويدو - أيضاً - أنه ضُمتْ إليه ديار بكر^(٢)، وآمِدَ^(٣). وظل في منصبه، حتى وفاته - على الأرجح - سنة ٢٦٩ هـ^(٤).

تقوم دولة ابن طولون، والحكم عليه:

انتقالاً من القضايا الجزئية السابقة إلى النظرة الكلية الشاملة، نحاول أن نطل إطلالة مركزة على (شخصية أحمد بن طولون) ودولته من زوايا عديدة باعتبار موضوع كتابي: ابن الداية، والبلوى. فنقوم - في البداية - بإرساء أساس الحكم عليه، ثم بيان إيجابياته، وأخيراً سلبياته، وخلاصة الرأي فيه.

١- ابن شيخ، وأنه ما بايع إلا وهو يفهم أن ذلك مقابل بقاءه في الشام، واستخلافه على أرمينية. هنا كان لابد مما ليس منه بُد، فكعب المعتمد إلى ابن طولون بالخروج إليه. (البلوى ص ٥٠-٥١). هذا هو منطق الأحداث يفرض علينا نفسه. ج- بالنظر إلى التواريخ المذكورة في كتاب الكندي المشار إليه (ص ٢١٤-٢١٥) نجد أنه قال: أظهر أحمد الخروج إلى ابن شيخ في صفر سنة ٢٥٦ هـ. وخرج إليه بعد رفض إجابة مطالبه يوم الخميس ٦ من جمادى الآخرة ٢٥٦ هـ، ودخل القسطنطينية راجعاً بعد قرار منعه لأيام خلت من شعبان من العام نفسه. وتوفي المهتدي في شعبان سنة ٢٥٦ هـ وبويع المعتمد. والحق أمّا تواريخ غير دقيقة؛ لأن الطبري - وهو آخر بتاريخ الخلفاء - ذكر أن المهتدي خُلع يوم ١٤ من رجب ٢٥٦ هـ، وقتل يوم الخميس ١٨ من رجب (تاريخ الطبري ٤٥٧/٩). وبويع المعتمد بيعة خاصة يوم الثلاثاء، أو الأربعاء ١٦ أو ١٧ من رجب (السابق ٤٦٢/٩). وبويع البيعة العامة في دار العامة يوم الاثنين ٢٢ رجب سنة ٢٥٦ هـ (السابق ٤٦٨/٩). وبناء على ذلك، فأننا أرى أن الأوامر صدرت إلى ابن طولون بعد فترة مناسبة من استقرار الأمر للمعتمد، ورجوع وفد التفاوض إليه يقفه على حلية الأمر. ففعل ذلك كان أواخر شعبان، ثم جرت مفاوضات بين وفد ابن طولون وابن شيخ، ولعلها استمرت شهراً آخر، ثم بدأ يتحرك ابن طولون في شهر شوال مثلاً، فأناه الأمر بالرجوع. وتم تكليف القائد التركي ماجور بتنفيذ المهمة، فأعد جيشه وسار به، وحاصر ابن شيخ في دمشق (تاريخ اليعقوبي ٤٧٤/٢)، ودارت المعارك بين الفريقين، حتى هُزم ابن شيخ ورحل تاركاً الشام كلها لماجور، الذي تقلدها في بداية سنة ٢٥٧ هـ فيما أُرجح وهو ما يلتقي مع رواية البلوى (ص ٢٥٢).

- (١) مختصر تاريخ دمشق ج ١٦ ص ١٣. ويلاحظ أن الطبري أخطأ لما جعل وفاة هذا الوزير سنة ٢٥٢ هـ. (تاريخه ٣٥٤/٩). فالصواب أنه كان وزيراً للتوكل، ثم استوزره المعتمد لأول ولايته سنة ٢٥٦ هـ، وتوفي - على الأرجح - سنة ٢٦٣ هـ (مختصر تاريخ دمشق ١١/١٦-١٤، وتاريخ ابن خلدون ٤٢٣/٣).
- (٢) هي بلاد كبيرة واسعة، تنسب إلى بكر بن وائل، وحَدَّها من دجلة إلى بلاد الجبل المطل على نصيبين (معجم البلدان ٥٦١/٢-٥٦٢).
- (٣) هي جزء من ديار بكر السابقة، وهي أعظم مدنها، وأجلها قدراً، وأشهرها ذكراً. وهي بلد حصين في وسطه عبور وآبار. (السابق ٧٦/١).
- (٤) الكامل، لابن الأثير ج ٦-٣٣٠، ومخطوطة (مرآة الزمان) لسبط ابن الجوزي (ج ١٠ ورقة ٥٠). وهو أرجح من تاريخ ٢٦٨ هـ، الذي ذكره ابن خلدون في (تاريخه ٤٢٩/٣).

أولاً - أساس الحكم التاريخي:

يُقصد بالحكم التاريخي ما يطلقه المؤرخ من نقد وحكم على حاكم من الحكام، أو قائد من القواد، أو موقف من المواقف، أو عصر من العصور. وهذا الحكم يجب أن ينأى به المؤرخ الحق عن التعصب والهوى، وأن يؤسسه بعد حسن تصور الأمر الذي يصدر حكمه عليه، وبعد دقة في النقل، وتحرُّ في الوقائع، وتثبت وأناة وطول تحقيق ومحيص، وأن يؤدي ذلك الحكم بلغة مهذبة، ولسان عَفّ. ويحتكم المؤرخ المسلم إلى ميزان الشرع الحكيم ويزن به أعمال كل من يدرس سيرته، فيُمدِّح الشخص إذا أحسن وعدل وخدم أُمته، ويذمُّ إذا كان غير ذلك، دون جنوح إلى تبرير الأخطاء، وإحسان الظن في غير موضعه؛ حفاظاً على المنهج الإسلامي^(١).

ثانياً - من إيجابيات دولة ابن طولون:

١- الاستقرار الداخلي:

وهذه سمة بارزة من سمات عهد أحمد بن طولون، لها عدة مظاهر، منها:

أ- حفظ الأمن والنظام:

وذلك واضح من خلال اهتمامه بتعيين قائد من قواده الثقات على الشرطة السُّفْلَانِيَّة (الفسطاط)، وقد أوصاه أن يرفق بالرعية، وينشر العدل بينهم، ويقضى حوائجهم، ويتفقد مصالحهم، ويظهر إكرامهم وصيانتهم. ففي هذه المنطقة يسكن عوام الناس وصالحوهم، وابن طولون يرجو دعاءهم، ففهم القراء، والمتهجدون، والذاكرون. وكان يأمر صاحب الشرطة الفُوقَانِيَّة (العسكر) أن يشدد على رعيته ويرهبهم، ويغلظ عليهم؛ لكثرة ما يرتكبون من مظاهر اللهو والعريضة والفسوق (من غناء، وسُكْر، ونحوهما)^(٢).

ب- قمع ثورات الثائرين، والقضاء على المفسدين:

وذلك واضح من خلال قضاؤه على حركة (ابن الصوفي)، الذي وردت الأدباء سنة

(١) منهج كتابة التاريخ الإسلامي، لمحمد بن صايل العليان هاشم ص ٢٣١-٢٣٢، ص ٢٤٨ وما بعدها.

(٢) سيرة أحمد بن طولون للبلى ص ٢٠٥-٢٠٦. وقال أحمد عبد السلام ناصف في كتابه: (الشرطة في مصر الإسلامية) ص ١٥٦-١٥٧: الشرطة في الفسطاط أعظم وأجل من الشرطة في العسكر، رغم إطلاق اسم الشرطة السفلى على (شرطة الفسطاط)؛ لأن الفسطاط القسم الرئيسي الأصيل. فتقسيم الشرطة إلى (سفلى)، و(عليا) لا يرجع إلا إلى الموقع الجغرافي، ولا علاقة له بالتقسيم الطبقي؛ لأن مدينة العسكر أعلى من الفسطاط جغرافياً.

٢٥٦هـ — بدخوله (إسنا) بالصعيد، وقيامه بنهبها والإفساد في نواحيها^(١). وكذلك أرسل الجيوش المتتالية، التي نجحت في القضاء على رجل نائر بالصعيد من بقايا أصحاب ابن الصوفي، يكتسى (أباروخ) كان قد قطع الطريق، وأخاف السبيل^(٢). وتعرض ابن طولون لانتقاص سيادة دولته، عندما نار أهل بركة، ووثبوا بأمرهم (محمد بن فروخ الفرغاني)، وأخرجوه منها، فأرسل إليهم الجيوش تترى، وعلى رأسها غلامه لؤلؤ، حتى أعادوا الهدوء هناك، واستعاد ابن طولون سيطرته عليها، وعادت جيوشه مظفرة، تسوق الأسرى، وتطوف بهم في شوارع مصر؛ مما كان له أكبر الأثر في تغلغل هبة ابن طولون في صدور الناس كباراً وصغاراً^(٣).

ج- القضاء على نفوذ ابن المدبر^(٤) صاحب الخراج، وشقيق صاحب البريد:

عانى المصريون من ظلم ابن المدبر وتعسفه^(٥)، ونجّره في تحصيل الخراج، وفي فرض ضرائب جديدة اقترنت به، أثقلت كاهل الناس^(٦). وقد كان من الممكن إذا استمر هذا الرجل في منصبه أن تتفجر ثورات الناس؛ حقاً عليه. فرأى ابن طولون بشاقب فكره أن إزاحته عن ذلك المنصب تحقق له وللناس فوائد جمة، منها: أنه يهدئ نفوس الناس ونائرتهم، ويتقرب إليهم ويكتسب جبههم وودهم (خاصة أنه خفف عنهم الضرائب، ورفق بمحالمهم)^(٧). ومن جهة أخرى يتخلص من

(١) سيرة البلوى ص ٦٢-٦٣.

(٢) المصدر السابق: ص ٦٧-٦٨.

(٣) السابق: ٧٠-٧٢، وماجستير (برقة وطرابلس من الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر) ص ٩٥-٩٦.

(٤) هو أحمد بن محمد بن عبيد الله، أبو الحسن بن المدبر الكاتب. أصله من سامراء. تولى المساحة بدمشق وغيرها أيام التوكل سنة ٢٤١هـ. ولاد التوكل خراج دمشق والأردن. كان أدبياً كاتباً شاعراً. وهو أسن من أخيه إبراهيم. كان بلى خراج مصر، حتى دخل إليها أحمد بن طولون والياً، فاختلف معه، حتى اضطره إلى ترك مصر، ثم احتال عليه لتحريضه الخلافة ضده، فأحضره إلى مصر ثانية، وسجنه وعذبه سنة ٢٦٥هـ، وظل في محبسه حتى مات في حياة ابن طولون (في صفر سنة ٢٧٠هـ). (تاريخ دمشق لابن عساكر ٣٣٧/٧-٣٤٠، ووفيات الأعيان ٥٥/٧-٥٦، وسير أعلام النبلاء ١٢٦/١٣، وفوات الوفيات للنكبي ١٣٢/١-١٣٤).

(٥) المكافاة ١٣٩-١٤٠، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٦٧/٢ (سجن ابن المدبر الفقيه الشافعي أحمد بن يحيى بن الوزير النحيسي فيما انكسر عليه من بعض الخراج، حتى مات في سجنه سنة ٢٥٠ أو ٢٥١هـ).

(٦) حول ما استحدثه ابن المدبر من ضرائب في مصر لم تكن معروفة قبله، استحدثها منذ توليه الخراج بعد سنة ٢٥٠هـ (روى - بخلاف الخراج الذي يؤدى سنوياً - ضرائب هلالية تؤدى شهرياً على المراعى والمصايد والنظرون) راجع: سيرة البلوى ص ٤٣، ونماية الأرب ٢٦٢/٨-٢٦٤، والمخطوط ١٠٣/١-١٠٤، ١٠٧، ١٠٩، والفضائل الباهرة ص ١٢٦، ود. سيدة كاشف في كتاب (أحمد بن طولون) ص ٤٧-٤٩، وذكره حسن جبر ص ٩٩-١٠٠.

(٧) ذكر المقرئى أنه لما أضاف للمتمد لأحمد الخراج والثغور الشامية إلى جانب ولاية مصر، تزود عن أدنلس المعاون والمرافق (الاسم الذى أطلقه ابن المدبر على ضرائبه الإضافية)، وكتب بإسقاطها في جميع أعماله، وكانت تبلغ مصر خاصة مائة ألف دينار سنوياً. (المقرئى: المخطوط ١٠٣/١-١٠٤). وقد رجح حسن جبر في رسالته للدكتوراه (ص ١٥٢ هامش ٢) أن يكون ذلك تم سنة ٢٦٢هـ.

منافس خطير يقاسمه حكم مصر، بل يتفوق عليه، وله نفوذ كبير. ولذلك حرص ابن طولون على تجريده من مظاهر هيئته وسلطانه^(١)، حتى اضطره إلى ترك مصر^(٢). ولما علم ابن طولون بتدابيره ومكائباته هو وشقيق إلى الخلافة يخرضاها عليه، ويحذراها سعيه إلى الاستقلال عنها^(٣)؛ احتال على ابن المدر، إلى أن حبسه في مصر حتى الموت^(٤)، وعرض شقيقاً للعقاب البدني والنفسي الرهيب، حتى تم الإجهاد عليه^(٥). وبذلك أراح نفسه من شرهما وخطرها قبل أن يريح الناس منها (ضرائب، وتجنس). وهكذا، التقت رغبة المصريين ومصلحتهم مع رغبة ابن طولون ومصلحته الشخصية في الاستئثار بحكم مصر، وتولى حراجها، والانفراد بامتلاك مقاليد الأمور بها.

٢- صفاته الطيبة وأثرها في مصر:

لاشك أن نشأة أحمد بن طولون الدينية، وإقامته في مناطق الثغور (خاصة طرسوس)، مرابطاً في بداية حياته العسكرية^(٦)، كل ذلك جعله يتمتع بمجموعة من الخلال الطيبة والصفات الحميدة، التي كان لها أثرها في نفوس المصريين تجاهه. ومن هذه السمات: شجاعته وشهامته^(٧)، وحفظه القرآن، ورعايته حَقَقَة كتاب الله^(٨)، ورحمته ورفقه برعيته^(٩)، وعدالته^(١٠)، وزهده^(١١)، وتقشفه

(١) سيرة ابن الداية ص ٧٨، وسيرة البلوي ص ٤٥.

(٢) سيرة ابن الداية ص ٨٤، وسيرة البلوي ص ٥٩ - ٦٠.

(٣) المصدر السابق: ص ٥٨، والخطوط ١/٣١٦.

(٤) سيرة البلوي ص ١٧٥ - ١٧٨.

(٥) المصدر السابق: ص ٥٨ - ٥٩.

(٦) سيرة ابن الداية ص ٧٤، وسيرة البلوي ص ٣٦.

(٧) من أبرز أمثلة ذلك: صيانه الخليفة المستعين، وحسن قيامه بشأنه لما نفاه (المعز) - بعد خلعه - إلى (واسط)، ثم رفضه أن يفد الأوامر بقتله مقابل أن يؤلى على واسط. (حول موقف ابن طولون الشجاع، وما آل إليه مصر المستعين من القتل على يد (سعيد الخاحب)، وثناء الناس على ابن طولون؛ لعدم نكته ببيعة المستعين، وعدم اشتراكه في إراقة دمه (وإن لم يستطع أن يجمع قتله)، يراجع: (تاريخ الطبري ٩/٣٦٢ - ٣٦٣، وسيرة ابن الداية ٧٥ - ٧٦، وسيرة البلوي ٤١، وتاريخ ابن الوردي ١/٣١٧، وتاريخ ابن خلدون ٣/٣٦٤، وأحمد بن طولون، للدكتور سيدة كاشف ص ٢٣، وحضارة مصر الإسلامية في العصر الطولوني، للدكتور حس محمود ص ٢٩ - ٣١). وعلى كل حال، فقد كان ابن طولون سبباً لما سئم المستعين للقتل بيده وهو يعلم، ثم عاد بعد مقتله للصلاة عليه، ومواراته التراب. ولعله رأى أنه مهما حاول تجنبه الموت، فلن يستطيع الوقوف أمام قوة الأثر والخليفة الجديد (المعز) وأمه، فأثر الاكتفاء بعدم تنويع يده بقتله.

(٨) سيرة البلوي ١٨٦ - ١٨٩. (٩) السابق ١٩٩ - ٢٠١.

(١٠) من أمثلة عدله: معاقبته أحد قواده لاعتدائه على راهب قطي (السابق ٢٠٦ - ٢٠٨). وكان يحرص على الخلوس للمظالم يومين في الأسبوع (الخطوط ٢/٢٠٧).

(١١) كانت تُهْدَى إليه احوارى الجميلات، فيقوم بإهدائهن إلى غلمانها؛ زاهداً في التمتع والملاذ، فلذته بخراصة دولة، وشغله بمصالح ومتطلبات جند (سيرة ابن الداية ٩٣ - ٩٤).

واقصاده في النفقات^(١)، وكثرة إحسانه وصدقاته^(٢)، وجديته ويقظته وسهره على مصالح الرعية^(٣)، ورعايته وتوقيره العلماء^(٤).

٣- استقلاله بمصر ورعاية مصالحها ضد أطماع الموفق:

لا يعني ذلك أننا نشجع انسلاخ وانفصال ولايات الخلافة الإسلامية عنها، ونعده من إيجابيات (أحمد بن طولون) وحسناته، إنما نقصد مفهوم الاستقلال كما عرفه ابن طولون، وهو أن يحكم ولايته حكماً شبه مستقل، يرعى مصالحها، ويوفر حياة طيبة لأهلها، ويقوم بمشروعات تهدف إلى خير مواطنيه، ثم هو - في الوقت نفسه - يعترف ببيعة الخلافة، وسلطة الخليفة الروحية، ويؤدى ما عليه من خراج سنوياً لعاصمة الخلافة بما لا يضر مصالح شعبه واحتياجاته (من مأكّل، ومشرب، وملبس، وجيش قوى يدافع عنه)^(٥). وقد حقّق ابن طولون هذا المفهوم الصحيح، لكن أعداءه - حسداً من عند أنفسهم - سخطوا عليه، ودبروا له المكائد في عاصمة الخلافة، وحرّضوا عليه الخليفة (المعتمد)، حتى كتب إليه مرة بالاستخلاف على مصر، والقُدوم إلى عاصمة الخلافة؛ لتدبير شئونها^(٦). وقد كان (الموفق) أخو الخليفة (المعتمد) ألدّ أعداء ابن طولون، ولطالما وقف في طريق قوة ابن طولون ودولته النامية، وسلك في سبيل ذلك طرقاً ووسائل متعددة، منها: مكاتبته أن يرسل إليه خراج مصر أضعافاً مضاعفة^(٧)، وإصداره أوامره - وقد كان يعد الخليفة الحقيقي؛ لانشغال أخيه باللهو والمتع^(٨) - إلى موسى بن بقا بتسيير الجيوش نحو مصر، وعزل ابن طولون عنها^(٩)، وتدبير المؤامرات عن طريق مكاتبته مع جواسيسه إلى قادة جند ابن طولون يستميلهم نحوه، ويغريهم بولاية مصر بدلاً من ابن طولون، واحتضانه لأولاً غلام ابن طولون الخارج عليه^(١٠)، وإفشاله محاولة ابن طولون نقل الخلافة العباسية إلى مصر عن طريق إحضار (المعتمد)

(١) المصدر السابق: ١٣٣.

(٢) سيرة البلوى ص ٩٨، ١٩٨-١٩٩، وغيرها.

(٣) السابق: ١٩٩-٢٠٠.

(٤) مثل: الربيع بن سليمان المرادى صاحب الشافعي (الخطط ٢/٢٦٥-٢٦٦، وماجستير الربيع المرادى وأثره في الفقه الشافعي، لعبد العزيز شرف الدين ص ٥٧)، وبكار بن قتيبة القاضي الحنفي (سير أعلام النبلاء ١٢/٦٠٠-٦٠١).

(٥) حول طبيعة الاستقلال السياسي لدى ابن طولون راجع: (مصر في عصر الطولونيين والإخشيديين)، للذكور حسن محمود، ود. سيدة كاشف ص ٣٤، وذكوره (حضارة مصر في العهد الطولوني) لحجازي طراوة ص ١٧، وماجستير (الطولونيين في مصر ومفهوم الاستقلال السياسي)، لأحمد السيد شحاته ص ٣٤، وبعدها.

(٦) سيرة ابن الداية: ٨٣، وسيرة البلوى ص ٥٦-٥٧.

(٧) سيرة ابن الداية: ص ٨٩، وسيرة البلوى ٨١-٨٢.

(٨) التنبيه والإشراف: ص ٣١٨-٣١٩.

(٩) سيرة ابن الداية: ٨٨، وسيرة البلوى ٨٥-٨٦.

(١٠) سيرة ابن الداية ١٢٦، وسيرة البلوى ٢٧٦.

إليها^(١)، وإجباره أخاه (المعتمد) على لعن ابن طولون واعتباره خارجاً على الخلافة^(٢). وعلى كل، فقد استطاع ابن طولون الحفاظ على دولته أمام هذه المحاولات المستميتة للنيل منه، فلم يرسل ما أراد الموفق من أموال^(٣)، وخدمه القدر ب وفاة موسى بن بغا وغيره ممن طمعوا في ولاية مصر، ونجح في الإيقاع بكافة الجواسيس الذين عملوا لحساب الموفق^(٤)، ونجح في التظاهر بمناصرة المعتمد أمام طغيان أخيه وحجره عليه، وقهره إياه، وقام بلعن الموفق على المنابر، وقطع اسمه من الخطبة، وجند من العلماء والقضاة والشعراء من دافعوا عن سياسته، وأيدوا فعلته^(٥). ولم يستطع الموفق النيل من دولته حتى وفاته.

٤- مشروعاته الحضارية في مصر:

وهذه هي الثمرة الحقيقية التي جناها شعب مصر، ومثلت في بعض نواحيها الأثر الباقي لدولة ابن طولون حتى بعد انهيارها وتحويلها إلى أثر بعد عين. لقد كان الموفق حريصاً على استنزاف ثروات مصر؛ لتمتلي خزائن الخلافة، ولا يهمه بعد ذلك أن يجوع أو يظلم أو يعزى شعب مصر. لكن ابن طولون جعل خير مصر لأهلها. وقد نجح الرجل بدهائه وخبرته ومهارته في القيام بعدد من الإنجازات، التي ظلت مرتبطة باسمه على مر الزمان. لقد انتهاز فرصة أمر المعتمد له بالاستعداد لمجاهمة (عيسى بن الشيخ) في بلاد الشام، وأوامره إلى ابن المدبر بإطلاق النفقات له، حتى كَوَّن جيشاً ضخماً، وجدد آلات حربه، حتى بلغ مائة ألف جندي، معهم أفضل الأسلحة في ذلك العصر^(٦). واهتم بالأسطول فعهد به إلى خبراء صناعة الأساطيل، ووفر لهم كافة الإمكانيات اللازمة لإنشاء أسطول مصري يدافع به عن سواحل مصر، ويغزو به الروم عن طريق بلاد الشام^(٧). واهتم ابن طولون بتحسين جزيرة الروضة^(٨) سنة ٢٦٣هـ؛ تحسباً لأي هجوم يُجَاه به من قبل النيل. واهتم بإقامة المشروعات العمرانية الزاهرة، كإنشاء مدينة القطائع^(٩)، وجعلها

(١) المصدر السابق ص ٢٨٩ - ٢٩٤.

(٢) السابق: ص ٢٩٨ - ٢٩٩.

(٣) سيرة ابن الداية، ٨٠، ٨٣، وسيرة البلوي ٥١.

(٤) استطاع ابن طولون بذكائه وفطنته، وشدة حذره وتوجسه، أن يوقع بكثير من جواسيس الموفق رغم تكبرهم (راجع سيرة البلوي ص ١٢٢ - ١٢٨).

(٥) السابق: ٢٩٤ - ٣٠١.

(٦) الخطط ٣١٣/١، وتاريخ مصر الإسلامية، للدكتور الشيال ٦٠/١، وبعدها.

(٧) سيرة ابن الداية ٩٤ - ٩٥، وسيرة البلوي ٨٧، ٢٠٨.

(٨) سيرة ابن الداية ٨٨، وسيرة البلوي ٨٦ - ٨٧، والخطط ٣١٩/١، وتاريخ مصر الإسلامية، للدكتور الشيال ١/١.

٧٧.

(٩) الخطط ٣١٣/١، وتاريخ مصر الإسلامية، للدكتور الشيال ٦٠/١، وبعدها.

عاصمة لدولته، وإنشاء البيمارستان^(١)؛ لعلاج المرضى، وإنشاء مسجده الذى لا يزال شاهداً على تقدم العمارة وفن البناء فى زمانه^(٢).

ثالثاً - سلبات ابن طولون:

أ- طبيعته الانفعالية الحادة، وظلمه وبطشه واستبداده:

لعل أصل ابن طولون التركى كان له دخل فى مزاجه الحاد وطبيعته المتهورة. لكن التدنيس والصلاحيات الذى وصف به كان من المفروض أن يهذب طبيعته. وبعد أن صار حاكماً لمصر من المفترض أن يكون حليماً رحب الصدر، لا يعرف قلبه ضغناً ولا حسداً. لكن الواقع يشهد بتسارعه فى إصدار العقاب الشديد بأنفة الأسباب^(٣). وكان جزء ابن عمار على تمحيصه النصيح لابن طولون أن رَدَّه إلى السجن ثانية؛ لأنه لا يجوز لمن فى مثل عقلية - رغم حالته المزرية فى السجن - أن يبقى طليقاً حراً^(٤)، فهو خطر على ابن طولون، فبنينى - فى رأيه - أن يند كل ذى موهبة ومكانة؛ حتى لا يتنافس أحد ! ومن المشهور المتواتر وجود مُطَبِّق (سجن تحت الأرض) يقاسى ويلاته المحبوسون، الذين مات منهم فى حبس ابن طولون حوالى ١٨ ألفاً^(٥). ولا شك أنهم ماتوا من التعذيب، والحر القاتل صيفاً، والبرد القارس شتاء، ولا شك أن منهم المظلومين، والمصادرين^(٦).

- (١) كلمة فارسية مُترجمة بمعنى (المستشفى). (المعجم الوسيط ج ١ - ص ٨٢). أما (المارستان)، فبمعنى المستشفى، أو المَصْحَة. (الرجع السابق ٨٩٨/٢). وكان ابن طولون مهتماً بتوفير الأدوية والعقاقير الرئيسة فى مستشفاه، الذى أنشأه سنة ٢٥٩هـ، وأنفق عليه ٦٠ ألف دينار (سيرة البلوى - ص ١٨٠، وصبح الأعشى ٣/٣٤٣، والخطط ٢/ ٢٦٥). ويمكن مراجعة المزيد من إجراءات استقبال المرضى، ونوعيات المعالجات فى المارستان، ووسائل العلاج، ودرجة الاهتمام بالمرضى خاصة المهانين منهم، وتفقد ابن طولون أحوالهم بنفسه فى: (الخطط ٢/ ٤٠٥ - ٤٠٦).
- (٢) براجع ما يتصل ببناء جامع ابن طولون وفنه المعماري، وتفقاته (٢٠ ألف دينار)، وما فى آخره من أدوية وعقاقير، وطبيب يعالج ما قد يطرأ على المصلين فى الصلاة، وأحداث بنائه (الذى امتد من ٢٦٣ - ٢٦٥هـ) فى (سيرة البلوى ٣٥٠، ورحلة ابن جبير - ص ٢٦٦، والخطط ٢/ ٢٦٥ - ٢٦٦).
- (٣) وذلك عندما هم بإيقاع حسمانة جلدة بالسياط عنى خطيب الجمعة؛ لأنه نسى الدعاء له آخر الخطبة، لولا أن تداركته رحمة من ربه، فعاد إلى المنبر، واعتذر عن النسيان، وبالف فى الدعاء، فأبدلت له العقوبة دناتير، وهنأه الناس على السلامة. (سيرة البلوى - ص ١٥٩).
- (٤) سيرة ابن الداية ١٢٧ - ١٢٨، وسيرة البلوى - ص ٢٨١ - ٢٨٦.
- (٥) مخطوطة تاريخ القضاء: ورقة ٦٤، والرقا بالوفيات ٤٣١/٦. ويمكن مراجعة حال السجون، والتعذيب المفضى إلى الموت البطئ فى عهد ابن طولون وغيره بأساليب لا إنسانية؛ تأثراً بالنشأة العسكرية للأتراك، ومهدف إرهاب شعب مصر فى (رسالة دكتوراه المجتمع المصرى فى العصر الطولونى)، لمحمود رزق محمود - ص ٣٩٤ - ٤٠٠.
- (٦) كان ابن طولون - أحياناً قليلة - ينظر فى أمر التجار المسجونين، فيكتشف براعهم، فيأمرهم بإطلاقهم. (المكافأة - ص ٨٩ - ٩١).

لقد حكم ابن طولون دولته حكماً بوليسياً بغيضاً قائماً على التحسّس في كل شيء^(١)، وإحصاء أنفاس النّاس^(٢)، وإلقاء الرّوع في قلوبهم، حتّى كان النّاس يخيفون به الصّبيان على حدّ تعبير البلوى^(٣). ولا أَسْتَعِد أن يكون ذلك الجفاء والقسوة والغلظة وسوء الظن، حتّى تجاه كبار غلمانهم وقواده وربما أولاده، كان له دخل في خروج ابنه (العبّاس) عليه، تؤيده جماعة من كبار كتّاب وقواد ابن طولون^(٤). ولا أَسْتَعِد أن يكون خروج لؤلؤ غلامه بالأموال والجيش، وانضمامه إلى (الموفق)^(٥) علامة على ما كان يعتور هؤلاء المقرّبين من فزع رهيب، أن ينالهم منه أذى شديد، فكانوا يهربون عند أول بارقة أمل تلوح لهم.

وإذا كنا ذكرنا من قبل رعايته للعلماء واحترامه إياهم، فإنّه - في الوقت نفسه - كان لا يتحمّل نقداً من أحد، ولو كان من بعض الصّوفية^(٦)، وكان يستمع إلى وشايات البعض العلماء ولا يتورع عن حبسهم^(٧)، ولا يرضى منهم إلا المدارة والتأييد^(٨)، فإذا جابه أحدهم

(١) يمكن مراجعة نماذج كثيرة من تحسّسه حتّى على أقرب معاونيه، وأخلص غلمانهم في (سيرة البلوى ص ١١٥-١١٨، ١١٩-١٢٢، ٢١٠).

(٢) وظل ذلك قائماً حتّى وهو في مرض وفاته، يقوم بتنفيذ سياسته كُتّابه ومعاونوه (السابق ص ٣٣٤-٣٣٦).

(٣) السابق: ٧٢.

(٤) يمكن مطالعة تفاصيل خروج العبّاس، ودور القادة والكتّاب المحرضين له على هذا الخروج، وسر التماذّي في العصيان إلى آخر الشّروط في: (المصدر السابق ص ٢٤٤ وما بعدها، وماجستير (برقة وطرابلس من الفتح العربي حتّى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر)، لصالح مصطفى مفتاح ص ٩٧-١٠١.

(٥) حول الأسباب السياسيّة والاقتصاديّة لخروج لؤلؤ على سيده، الذي عامله باستبداد، وظروف وأحداث ذلك الخروج، راجع: (سيرة ابن الدّاية ١٢٦، وسيرة البلسوى ٢٧٦، وأحمد بن طولون للدكتورّة سيده كاشف ص ١٠٣ وبعدها، وذكوراه (حضارة مصر في العصر الطولوني) لطراوة ص ٣٧-٣٨.

(٦) بل يُحوّل صراحته في الحقّ والنقد إلى اتهامات تنقلب عليه، ويجمع من النّاس من يشهد عليه، وتكون العقابيّة جلده بالسياط، والطواف به، وحبسه في المطبق. (سيرة ابن الدّاية ص ١٠٩-١١٠، وسيرة البلوى ص ٢١٤-٢١٦).

وحبس ابن بنان الصّوفي؛ لأنّه أنكر عليه بعض الأشياء (المقفى ٤٩٦/٢-٥٠٠، وحسن المحاضرة ٥١٢/١-٥١٣).

(٧) وحدث ذلك مع الفقيه الشافعي كُنْز الخادم لما وشى به المالكيون، فحبسه في مكان قدر مدة سبع سنين، ولم يُطلق سراحه إلا بعد وفاة ابن طولون، فأقام الرجل سبع سنين أخرى بالإسكندرية، وأعاد صلواته خلال فترة حبسه، ثم رحل إلى بغداد. (مختصر تاريخ دمشق ٢٢٣/٢-٢٢٤، وطبقات الشافعية للسيكي ٣٤٥/٢-٣٤٦، وطبقات الإسنى ٣٤٤/٢).

(٨) مثل: الفقيه رئيس المالكيّة في مصر ((محمد بن إبراهيم بن زباد الإسكندري)) المعروف بـ (ابن المواز)، الذي ولد سنة ١٨٠هـ، وتوفّي ٢٦٩هـ. وخرج مع ابن طولون إلى دمشق، لما قدمها؛ لخلع الموفق (سمر النبلاء ٦/١٣، والمقفى ٨٧/٥). ويبدو أن ذلك كان قبل وفاته بيسير. وقد ذكر البلوى (سيرته ص ٢٩٤): أن جميع الفقهاء وقضاة أعمال ابن طولون، لما استغناهم في خلع الموفق، أفتوه إلا بكار بن قتيبة. وهذا يعني أن ابن المواز ممن وافق (على سبيل المدارة فيما أُرْجِح)، فهو كان قد قارب التسعين، ولا بقوى على حبس ابن طولون إياه. والظاهر أنّه ندم على الموافقة، فاعتزل النّاس ببعض حصون الشام أواخر عمره، حتّى مات بدمشق (رحمه الله). (سمر أعلام النبلاء ٦/١٣). ومن ثم، فلا يصح ما ورد في بعض الروايات من أنّه كان في مصر، وأن ابن طولون أرسل -

موقف معارض، قلب له ظهر المحن، وأمر بتقييد حريته (كما فعل مع القاضي بكّار)^(١).

هذه الشخصية المستبدة المتعجرفة كان يكفيها في بعض المواقف أن يستسلم لها عدوها، وأن يقر لها بخطئه، ويمرغ الوجه ويعففره في التراب، عاضاً أصابع الندم على ما بدر منه من عداوة سافرة؛ حتى يصفح عنه ابن طولون، ويعفو عنه، ويُقيل عثرته^(٢). المهم أنه لا يُطبق أن يقف أمامه أحد، أو يخاشنه. أما من استسلم له ولآيته، وأظهر الذلة والمسكنة والخضوع له، قبله ورضى عنه.

ب- طرقه المتوترة للحفاظ على منصبه:

الأصل في صاحب المنصب أن يكون جده واجتهاده وإخلاصه العامل الأساسي لاحتفاظه بمنصبه. وفي زمن ابن طولون، وفي عهد الخليفة المعتمد الضعيف اللاهي كانت هناك مراكز قوى عديدة، تتدخل لدى الخليفة لحمله على تولية فلان، أو عزل آخر. ومن هنا كان لا بد لابن طولون أن يكون على صلة حسنة قوية بهذه القوى الفاعلة المؤثرة في قرار الخليفة. ولما كانت التقارير تُرفع من داخل مصر (ابن المدبر، وشقيير الخادم)، ومن خارجها (ماجور التركي)^(٣)، تحذر الخلافة من نية ابن طولون للاستقلال بمصر؛ فإن ابن طولون - وهو أشد الناس حرصاً على منصبه - كان يتخذ من الأساليب الشرعية وغير الشرعية ما من سبيله صد القادة عن قبول ولاية مصر بدلاً منه^(٤)، بالإضافة إلى تقديم الرشاوى الطائلة إلى بلاط الخليفة^(٥)، إلى جانب ما يُرسَل سراً للمعتمد؛ لأجل تثبيتته في حكم مصر. وأعتقد أن ابن طولون لو حَسَنَ علاقته

- إلى ابنه حمارويه أن يبعث إليه بعدد من فقهاء مصر إلى دمشق، ومنهم: بكّار، وابن المواز، وأنه من بين أحد عشر فقيهاً أرسلوا إليه، لم يجه ثلاثة منهم (بكّار، وابن المواز، وفهد بن موسى). (المقفي ٨٨/٥). فالرأى الأول أدق وأصح، ونُقل عن ثقات، خاصة إذا علمنا أن الأخير - وإن كان يُنسب لآخر تلامذته - إلا أنه - في الغالب - لم يصبحه أواخر حياته؛ لأنه لا يعرف - كما روى عنه، على سبيل القطع - مكان، وزمان وفاة أستاذه (فمرة يقول بوفاته سنة ٢٦٩هـ بدمشق كما رجحنا، ومرة يقول: قيل: توفي بالإسكندرية ٢٧١هـ). وبذلك نضع روايته، وروايات الآخرين القائلين بوفاته ٢٨١هـ (العمر، للذهبي ٤٠٤/١، وذلك قبل أن ينقح ذلك الرأى، وبصوته في آخر كتبه: سير أعلام النبلاء)، و(مرآة الجنان ١٩٤/٢).

(١) انقلب على بكّار بن قتيبة الفقيه القاضي الحنفى؛ لرفضه مجارفته في لعن الموفق، وخلّعه من ولاية العهد. (تاريخ دمشق ٢٤٢/١ - ٢٤٣، وسير أعلام النبلاء ٦٠٢/١٢ - ٦٠٣).

(٢) كما هو الحال الذي كان يتبنى ابن طولون حدوثه من جانب (سيما الطويل) خلال مجارفته ابن طولون بالشام (سيرة البلوى ص ٩٤ - ٩٥)، ومع ابنه العباس (المصدر السابق) ص ٢٧٠ - ٢٧١.

(٣) سيرة ابن الداية ص ٨٣، وسيرة البلوى ص ٥٦.

(٤) المصدر السابق: ص ٦٠ - ٦٢.

(٥) نعتي بذلك ما دفعه من رشاوى إلى (يارجوخ)، و (الحسن بن مَخلَد)، ليتوسطا له عند الخليفة ببقائه والياً على مصر (السابق ٥٧).

بالموفق، ونجح في إقناعه بولائه الصادق للخلافة، وقدم له معونات قيّمة في حربه مع الزنج، لأيدته الموفق، ولضمن له منصبه، ولم يحتج لسلوك السبل غير المشروعة.

ج- مجالس لهوه ومنادمته:

وهذا جانب من جوانب الضعف البشري، الذي يتتاب بعض الحكام، ومنهم: (أحمد بن طولون). وقد وردت أكثر من رواية تاريخية^(١)، تفيد حضور ابن طولون بعض مجالس الغناء والشراب (شراب النبيذ) مع ما يقع في هذه الجلسات من تَبَسُّط واستخفاف وسُكْر وعريضة، واندفاع إلى الرقص والتصفيق؛ نتيجة شدة الطرب، وتمايل وانتشاء مع إيقاع الألحان.

وفي تقديري أن هذه سلبية من سلبيات ابن طولون تؤخذ عليه، وتتناقض مع الجندية والوقار والالتزام والانضباط، الذي يجب أن يتسم به الحاكم، فضلاً عن أن يكون حرباً على كل مظاهر المجون والخلاعة في دولته.

د- فشله في ميدان جهاد الروم:

لا شك أن أحمد بن طولون لم تكن أطعماعه تقف عند حد السيطرة الكاملة على شئون الحكم في مصر، وإنما كان يتطلع إلى مد نفوذه إلى بلاد الشام أيضاً؛ بحجة جهاد الروم المعتدين على سواحل الشام، وحماية الثغور الإسلامية هناك من غاراتهم^(٢). وقد تمّياً لأحمد بن طولون الخروج بجيوشه إلى الشام أكثر من مرة^(٣)، لكننا لم نقف على ما يفيد جهاده البيزنطيين. وكل ما ورد أنه وافق على عقد هدنة مع ملك الروم، وأصدر توجيهاته إلى عامله على الثغور باستغلال فترة الهدنة في ترميم الحصون، وتحصين الثغور؛ تحسباً لأي هجوم مفاجئ؛ فالروم لم تعقد الهدنة إلا مضطرين (كوجود خلافات داخلية عندهم مثلاً)، فينبغي الاستفادة من تلك الهدنة الموقّعة بما فيه مصلحة المسلمين^(٤). ووردت أخبار - كذلك - تفيد

(١) سيرة ابن الداية ص ١١٢، ١٢٣، وسيرة البلوي ٢١٧-٢١٨.

(٢) خاصة أن له خبرة في شئون المراقبة بالشام (في طرسوس تحديداً) في بدايات حياته العسكرية.

(٣) خروج ابن طولون إلى الشام بعد موت ماجور سنة ٢٦٤هـ، وبالتحديد خرج في شهر شوال، واستخلف ابنه العباس ومعه الواسطي على مصر، وأخضع بلاد الشام واحدة بعد الأخرى (وقتل سيما الطويل المتغلب على أنطاكية)، وانتهى إلى طرسوس، وفكر في عزو الروم، لكن خبر خروج ابنه العباس اضطره إلى العودة سريعاً إلى مصر. (سيرة البلوي ٩١-١٠١). والمرة الثانية التي خرج فيها إلى الشام كانت ٢٦٩هـ للقاء المعتد، وتبعها فشله في استقدامه إلى مصر، وأحداث لمن الموفق بالشام، ثم الصدام مع يازمان الخادم المتغلب على طرسوس، وقتل أحمد في مواجهته، ومرضه، ثم عودته إلى مصر (السابق ٢٨٩-٣١٢).

(٤) سيرة ابن الداية ٩٨، وسيرة البلوي ١٠٩.

اتفاقه مع الروم على تبادل الأسرى^(١). ومعلوم أن ابن طولون فشل سنة ٢٦٩هـ في آخر رحلاته إلى الشام، في القضاء على نفوذ يازمان الخادم، بل فشل في دخول ثغر طرسوس، ولم يحسن تقدير الموقف، فهبط عليه وعلى جنده صقيع الشتاء القارس؛ مما أتى على كثير من جنده ودوابه، واضطر للرحيل إلى مصر عليلاً علة الموت^(٢). وهكذا، فشل الرجل فشلاً ذريعاً في تثبيت أقدامه في بلاد الشام، فضلاً عن الوحدة معها ضد الروم.

هـ- عدم تخطيط ابن طولون لمستقبل دولته:

من خلال متابعة سيرة هذا الأمير، ألفيناه معتداً بنفسه، مستبداً في تصرفاته وسياسته، لا يمرؤ أحد من أعوانه (ولا الواسطي وزيره)^(٣) على الظهور بجانبه، ولا يُبقى هو على ذى كفاءة يلعب دوراً إلى جانبه. ومن هنا كان المعتمد الأساسى عليه في كل صغيرة وكبيرة في البلاد. وكان من المنتظر - على الأقل - أن يحسن إعداد ولده الأكبر العباس؛ ليتولى المسؤولية من بعده، ويبدو أن ابن طولون بذل بعض الجهد في هذا السبيل^(٤)، لكنه لم يكن كافياً من جهة، وكان يشوبه التأنيب والتهديد والقسوة من جهة أخرى، فكان من أمر العباس ما كان؛ مما خَفَضَ أسهمه عند والده، وصرف نظره عن توليته الأمر من بعده، واتجه إلى أخيه الأصغر الذى لم تكن النية منعقدة - أساساً - على توليته. صحيح أن ابن طولون اختصه بالنصح والتوجيه أواخر عهده بالدنيا^(٥)، لكن ذلك ما كان ليكسبه الخبرة اللازمة لحكم بلد مهم كمصر، واسترداد السيطرة على بلاد الشام. ولذلك حملت سياسة ابن طولون في طياتها عوامل أغيارها، فكان سفه حمارويه، وضعف حكام بنى طولون من بعده، فانهارت الدولة سريعاً سنة ٢٩٢هـ.

خلاصة الراى عندى:

١- أن الأمير أحمد بن طولون له حسناته كما أن عليه سيئاته، ولستُ ممن يهاجمونه على

(١) وهذا يعنى وجود حملات بحرية إسلامية من عمال الثغور التابعين لأحمد بن طولون ضد الروم. ومن ذلك: ما وقع سنة ٢٦٤هـ من هجوم أمير الثغور عبد الله بن رشيد بن كاوس على الروم وانتصاره، لكنه وقع في كمين فأُسر. وفى سنة ٢٦٥هـ رَدَّه ملك الروم مع بعض الأسرى، وهدية لابن طولون. (تاريخ الطبرى ج٩ ص٥٣٣-٥٣٤، ومخطوطة مرآة الزمان - مصورة عن نسخة أحمد الثالث) ج١٠ ورقة ٣٥، وتاريخ الإسلام ١٣/٢٠-١٤، وتاريخ ابن خلدون ٤٢٢/٣).

(٢) سيرة البلوى ٣١٠-٣١٦.

(٣) كان الواسطي -على قربه من ابن طولون - شديد الخوف، والحذر منه (السابق ٢٨٥).

(٤) مثل: التوجيه العملى الذى حاول فيه تأديب ابنه العباس، وتخليصه من عاداته السيئة (التسرع والطيش، وطلب الأموال من الناس؛ لقضاء حوائجهم). (سيرة ابن الداية ص١٠٨-١٠٩، وسيرة البلوى ٢١٢-٢١٤).

(٥) المصدر السابق: ٣٣٩-٣٤٠.

طول الخط، فينسبون إليه كل نقیصة، ويسلبونه كل ميزة^(١)، وكذلك لستُ مع أولئك الذين يرونه دون مستوى القيادة^(٢)، بل أرى أنه يتمتع بصفات الحاكم الكفء، لكنه انحرف بكفاءاته ومواهبه، فأساء استخدامها؛ مما كان له أسوأ الأثر في دولته من بعده، وفي شعبه.

٢- أن أحوال مصر الاقتصادية والأمنية في عهد ابن طولون أفضل بكثير من عصور التبعية للخلافة العباسية. ولذلك فإن لا أعول كثيراً على آراء الذين يتعنون عليه معاملته الموفق معاملة النذللند، وتصرفه في مصر تصرف المستقل، الذي لا يتبع خلافة تستطيع عزله^(٣)؛ لأن الخلافة التي يدافعون عن متوليها (المعتمد) كانت في أضعف حالاتها. وماذا ينتظر من خليفة لاه، لا يفیق من متعه وملذاته؟ وماذا ينتظر من أخيه المشغول معظم وقته بحرب الزنج (٢٥٥ - ٢٧٠هـ) ١٩

٣- في نظري سيئات ابن طولون ترجح حسناته. ويكفي ما ألحقه بالناس من هلع وخوف وجبن، وما حاق بالآلاف من سجن، وتشريد، وقتل^(٤). إن الناس لم يحبوه، وإنما خافوه. ولا يصح أن تُخدع بمظاهر كاذبة^(٥)، أو نسئ تفسيرها^(٦).

٤- هناك تناقض واضح بين عدد من صفات ابن طولون وسلوكياته (يجلس للمظالم ويرتكب المظالم في آن، ويبدو في صورة مارد جبار، ومرة أخرى يلبس إهاب الإنسان الوادع

(١) دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية، للدكتور عبد الحليم عويس ص ٧٢.

(٢) السابق: ص ٧١.

(٣) دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية، للدكتور عبد الحليم عويس: ص ٧٣.

(٤) راجع أحد نماذج القتل والنسف الشبعة التي ارتكبتها ابن طولون، وأحبر وزيره الواسطي على التحسس على أصحابه، فكان سبياً في حنفهم. (البلى: سيرة ابن طولون ص ٢٢٦ - ٢٣٠). وقد بتعل البعض قائلاً: هذه هي السياسة! والحق أن قتل برئ واحد ظلماً يهدم تاريخ أى حاكم، ويلطخ تاريخ أية أمة رأى أفرادها الظلم وسكتوا عنه، مهما خلف ذلك الحاكم من آثار التمدن والحضارة المادية. وقد ردّ ابن الجوزى ردّاً رائعاً على - من يحملون جرائمهم على شناعة السياسة قائلاً: "ومن أعظم خطأ السلاطين والأمراء نظرهم في سياسات متقدميهم، وعملهم بمقتضاها من غير نظر فيما ورد به الشرع. ومن خطيئهم تسمية أفعالهم الخارجة عن الشرع سياسة؛ بأن الشرع هو السياسة لا عمل السلطان برأيه وهواه. ووجه خطيئهم في ذلك أن مضمون قولهم يقتضى أن الشرع لم يرد بما يكفى في السياسة، فاحتجنا إلى تيسر من رأينا. فهم يقتلون من لا يجوز قتله، ويفعلون ما لا يحل فعله، ويسمون ذلك سياسة" (المنتظم ١١٧/١).

(٥) كحروج الرعية على مختلف طبقاتها ونحلتها (مسلمين، نصارى، ويهود) بضربون إلى الله، ويعملون كتبهم المقدسة، ويضعون إلى الله بالدعاء لابن طولون بالشفاء، وذلك في مرض وفاته (سيرة البلى ص ٣٣٠ - ٣٣١)، وكذلك مواكب جنازته الحارة المثالة (السابق ص ٣٤٤ - ٣٤٥).

(٦) أما عن الدعاء له، فهو بأمر مباشر منه إلى قادته، فنقلوا الأمر بدورهم إلى الرعية، فهل لها إلا أن تسمع وتطيع. ثم إن عامة الشعب المصرى ساذج، وسرعاناً ما ينسى الإساءة. وأما مواكب الجنازة، فهي تشبه الجنازات الرسمية والعسكرية اليوم، والحديث فيها كان عن غلمان ابن طولون ورجاله وقادته ونسائهم. وذكر فيها العامة على استحياء، ولعلمهم خرجوا أداء لواجب العزاء، وما في القلب بعلمه الله.

اللطيف^(١)، شأنه في ذلك شأن كثير من الحكام المستبدين. ويمكن تفسير هذا التضارب الموجود الذي لا يُتَكَرَّر، ويحتاج إلى تفسير، من وجهين اثنين كلاهما يكمل الآخر:

الأول - أن تقواه التي اشتهر بها ظاهراً، لا يُعبّر عنها سلوكه ولا تاريخ حياته؛ مما يحملنا على القول بعدم صدقه فيها. وإنما احتفى بها ظاهراً؛ ليجلب تعاطف شعبه الساذج معه، ولحماية عرشه^(٢).

الثاني - أنه من أولئك الحكام الذين يتصفون بالعاطفة الدينية، ويهتمون بشئون العبادة، ما دامت خارج شئون الحكم والسلطان. أما في سبيل الحفاظ على مناصبهم، فإنهم لا يتورعون عن الجرائم وارتكابها. فابن طولون يجمع بين الإحرام والتقوى، وبين الشر الخالص والخير الخالص، دون تعارض، ودون أن يُحسَّ هو بما يرتكب من جرائم^(٣).

(منهج ابن الداية والبلوى في سيرة أحمد بن طولون)

أولاً - من حيث قدرة كليهما على بيان منهجه في كتابه:

لا ريب أن أي مؤلف معتبر يضع لنفسه هدفاً يسعى إلى تحقيقه من وراء كتابه، وقد يذكر بعضهم غرضه من التأليف صراحة في مقدمة الكتاب قبل الولوج إلى موضوعاته، وآخرون لا يصرحون بذلك، تاركين إياه لذكاء القارئ. وقد سلك ابن الداية الطريقة الأخيرة في مؤلفه عن (ابن طولون)، فلم يذكر مقدمة لكتابه^(٤)، تاركاً إيانا نحن - الباحثين - نستنبط أهداف ومقاصد كتابه^(٥) من خلال طريقته التي عرض بها مادته التاريخية.

(١) مقال: (سيرة أحمد بن طولون للبلوى)، لعبد الحميد العبادي - مجلة (كلية الآداب - جامعة فؤاد الأول) - المجلد الأول/١٩٤٣م ص ٨.

(٢) د. سيدة كاشف: أحمد بن طولون ص ٢٥٩، وبعدها.

(٣) د. حسين مونس: معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٥١.

(٤) لعل ابن الداية وضع مقدمة موجزة، تتفق مع طبعه كتابه المختصرة لكن ابن سعيد صاحب (كتاب المغرب)، الذي احتفظ لنا بسيرة ابن الداية كاملة من حيث المتن، ارتأى أن يكتفى بمقدمته هو عن دولة بني طولون دون أن يعرض مقدمة ابن الداية، إن وجدت.

(٥) أعتقد أن أغراض كتابي ابن الداية والبلوى متقاربة (وقد ظهرا في القرن الرابع الهجري)، فلمنهما أرادا رسم صورة نموذج طيب لحاكم قدير، حظيت مصر في أيامه بالاستقرار والرخاء؛ كي يسعى الناس إلى من يعيد لمصر استقرارها، الذي فقدته خلال فترة ما بين العصرين (الطولوني، والإخشيدي). وبالإضافة إلى ذلك فلمنهما في تنبهما حياة هذا القائد من البداية حتى النهاية - بإيجازاتها وسلياقها - يقدمان للناس العبرة والعظة، فلمله يوجد من بين أبناء مصر من يظطلع بقيادة وطنه، مستفيداً مما مر به ابن طولون من تجارب، فيفيد من حسناته، ويتجنب زلاته.

أما البلوى، فقد وضع لنفسه مقدمة يبين فيها ما يلي^(١):

أ- أنه كتب كتابه هذا؛ تلبية لرغبة رجل عظيم عزيز لديه^(٢)، طالع سيرة ابن الداية، فلم تقع منه الموقع الذي كان يتمنى، ولم تحقق المعنى الذي إليه قصد، فهي سيرة موجزة، وهو يريد كتاباً أكبر منه شرحاً، وأكمل وصفاً، ثم إن ابن الداية لم يأت بجميع أخبار (أحمد بن طولون)، ولا أخبار ابنه (حمارويه)، رغم ما كان من جميل أفعاله، وحسن آثاره. ولم يأت بأخبار سائر إخوته بعد. فهو - إذاً - يريد كتاباً عن سيرة (آل طولون)، لا (ابن طولون) وحده.

ب- أن هذا العظيم أخذ على ابن الداية في سيرته أنه لم يراع ترتيب الأحداث وتسلسلها ومنطقيتها على النحو الصحيح، ففي كتابه خلط في الأخبار، فهو يشرح قصة، ثم يرجع إلى ما قبلها قبل إكمالها، وكذلك يأتي برواية تدل على ذكاء عقل ابن طولون وفطنته، ولطيف حسه، ثم يأتي بضدها. وبذلك خالف طريقة العلماء في تدوين الأخبار والتأريخ للأحداث.

ج- بناء على ما وجّه من نقد إلى كتاب ابن الداية، بذل البلوى جهده لتلاقي سلبات سلفه، فذكر أنه لم يدع من أخبار جماعتهم (أى: آل طولون) شيئاً يدخل في التاريخ، ويتأدّب به، ويستحسن ذكره إلا ذكره، وأنه جعل ذلك مرتباً على أبواب، وجعل محتويات ومضمون كل باب متفقاً مع العنوان الذي ذكره له، وعنون له به، فلم يخلط بالباب ما ليس داخلًا تحته.

وهكذا، كان ابن الداية أستاذاً ورائداً لكتابة السير التاريخية، وأنه وقعت منه هنات، وأن البلوى أتى لاحقاً له، فحاول سد الثغرات، وعلاج السلبات. فهل وفّى البلوى بما وعد به من قواعد منهجه؟ ذلك ما يتضح في الصفحات التالية.

ثانياً - من حيث الإيجاز والتفصيل، وما يترتب عليهما من غموض، أو وضوح في العرض التاريخي:

هذه القضية المنهجية نعرض لها؛ لأنها تقفنا على أمرين:

- أ- التحقق من مدى صدق منهج البلوى، الذي صاغه في مقدمته، وهل نجح - فعلاً - في الإتيان بما تفاوضي عنه ابن الداية، وفصل ما أجمله؟
- ب- الوقوف على العلل الكامنة وراء طريقة هذا أو ذاك، وربطها بموضوع الرواية من جهة ومنهج كل منهما من جهة أخرى.

(١) سيرة البلوى ص ٣١-٣٢.

(٢) سبق أن رجحت أن تلك الشخصية المهمة هي شخصية (الوزير على بن عيسى بن الجراح).

بعد البحث والتحقيق في روايات كليهما تبين لى أنها من حيث الإيجاز والتفصيل، والإتيان والإهمال كما يلي:

١- روايات ذكرها كلاهما، لكن ابن الداية أجملها فغمضت، والبلوى فصلها فوضحت:

مثال ذلك: الرواية الذى ذكر فيها ابن الداية أن ابن طولون خرج متزهاً يوماً، فرمى بقوسه حماماً فصرعه، فإذا به يجد في أصل جناحه رقعة فيها ما نصه: "قد استراح مولاي. خذوا حذرکم، واستروا، وكل مالکم معکم، فقد عصى الأمير لؤلؤ، وقيل الخلع". فأمر ابن طولون في تلك الساعة بإحضار خادماً لشقرون جارية لؤلؤ، كان يتحرك، فقال: "من كان منكم عليلاً في عسكر لؤلؤ؟ ولمن تسرح حمام؟ قال: ليس في دارنا طائر يسرح به. فوكل بعبيد الله بن سليمان^(١)".

هذه الرواية تفيد خروج لؤلؤ على مولاه، وهربه بالأموال، وما وجد في جناح الطائر هو رسالة تفيد وجود مريض ما عوفى. ولا نفهم سر القبض على عبيد الله هذا. وهكذا أدى الاختصار الشديد إلى الغموض.

أما البلوى، فقد عرض لمضمون القصة ذاته، لكنه أورد من الإضافات ما جلى به الغموض، فتذكر روايته أن ابن طولون لَمَّا وقف على نص الرسالة، الذى يحدد المولى المستريح (مولاي محمداً)، ولعله (محمد بن سليمان كاتب لؤلؤ، وعرضه على عصيان ابن طولون)، وكذا يفيد الغدر بابن طولون في قول: "وارفعوا كل شئ، فقد عصى الأمير لؤلؤ؛ أمر ابن طولون من وقته بإحضار خادماً، كان على مَخْلَفَى لؤلؤ (أى: ممتلكاته التى تركها في مصر)، وسأله ابن طولون: من منكم له حمام هدى؟ وهذا التساؤل أوضح من تساؤل رواية ابن الداية: ومن لكم عليل في عسكر لؤلؤ؟ وهو أدق وأوضح من رواية ابن الداية (فهو يبعد التهمة عن المسئول هنا). وكان الجواب: ليس في دارنا - يا مولاي - حمام هدى، ولكن لعبيد الله بن سليمان أخى كاتبنا محمد طيور تسرح، وقد كان مغموماً بعلّة أخيه (محمد بن سليمان). فأمر مولاي (ابن طولون) بالقبض على عبيد الله بن سليمان من ساعته^(٢)".

هكذا، اتضح لمن هذا الحمام؟ ومن ذا أرسل الرسالة؟ ومن محمد العليل؟ ولم كان القبض على عبيد الله هذا؟

(١) سيرة ابن الداية ١٢٦.

(٢) سيرة البلوى ٢٨٠.

٢- ما أجمله البلوى، وفصله ووضحه ابن الداية:

وهذا على غير ما اعتاد البلوى. ومثاله^(١): أنه في الوقت الذي فصل فيه البلوى في أوصاف الغلمان، الذين يتقوى بهم ابن المدبر، ويكتسب عن طريقهم الهبة، أكثر مما أورده ابن الداية بهذا الشأن، إذا بنا نجد البلوى يكفى في ذكر هدية ابن المدبر لابن طولون لما دخل مصر، برصد قيمتها (١٠ آلاف دينار) دون تفصيل أوصافها وأنواعها كما فعل ابن الداية^(٢). والحق أن البلوى فصل حيث يجب التفصيل، فمناط اهتمام ابن طولون هو هؤلاء الغلمان؛ ولذلك فصل البلوى في ذكر أوصافهم، فهم الذين طلبهم ابن طولون بعد ذلك، فاعتر بهم، وسلب ابن المدبر هيبته. أما ما أهداه إليه ابن المدبر فليس محل اهتمامه وقام برده، فلا يستأهل التفصيل والذكر مع رجل يستهدى أشياء معينة، فقطن إلى ذلك ابن المدبر، وأحس بخطره عليه ابتداء من هذا الموقف.

٣- روايات تفرد بذكرها البلوى:

توجد نماذج عديدة دالة على اهتمام البلوى بإيراد روايات مفصلة جديدة ذات أبعاد مهمة، مثل: الرواية التي تذكر مدى قرب الواسطي من ابن طولون، حتى إنه كان إذا عاتبه ضربه بيده، مما يعد تشريفاً للواسطي؛ إذ يعامله ابن طولون كبعض ولده^(٣). وفي الوقت نفسه يورد روايات عن النظام الجاسوسي، الذي ابتدعه ابن طولون في مصر؛ ليضمن لنفسه الأمان، حتى جعل أقرب غلمان الواسطي جاسوساً على الواسطي نفسه لصالح سيده ابن طولون؛ مما جعل الواسطي يزداد هلعاً وحذراً لما اكتشف ذلك^(٤). وكذلك الروايات الدالة على ابتداعه نظام التجسس على المسجونين في حبسهم، ورصد ما يقولون عليه عن طريق عيون داخل السجن^(٥).

٤- روايات تفرد بها ابن الداية:

معلوم أن ابن الداية تَوَخَّى الإيجاز في كتابه، لكن ميوله الأدبية شَدَّتْه لذكر رواية عن العجوز أم عقيل، التي أتت تنظلم إلى ابن طولون، فأعجب بفصاحتها وظرفها^(٦). ففعل البلوى رأى أن إيراد غير هذه الرواية أولى، فكتابه مملوء بأخبار دالة على عدل ابن طولون وسماع المظلومين. وأورد ابن الداية رواية أخرى لم يذكرها البلوى، فيها يعاقب ابن طولون أبا أيوب صاحب

(١) وهناك مثال آخر عن هذه الحالة، يتعلق بحال الواسطي، والمستعين، وابن طولون لما قدم سعيد الخاجب لقتل المستعين، وما فصله ابن الداية من نتائج رفض ابن طولون قتل المستعين. (سيرة ابن الداية ٧٥، والنوى ٤١-٤٢).

(٢) سيرة ابن الداية ٧٧، ٧٨، وسيرة النوى ٤٣-٤٤.

(٣) المصدر السابق: ١١٣-١١٤. (٤) المصدر السابق: ١١٤-١١٥.

(٥) المصدر السابق: ١١٥-١١٧. (٦) سيرة ابن الداية: ١٠٣.

الخارج؛ لاستجابته لابنه العباس لما شق عصا الطاعة، وأخذ أموالاً من التجار لحساب العباس^(١).
والحق أن هذه الرواية تلقى ضوءاً جديداً على تداعيات خروج العباس على أبيه، والعقوبات
التي أنزلها ابن طولون بالمشاركين - ولو بالسلبية - في حادث خروج ابنه العباس عليه.
وهكذا، يمكن القول بأن الغالب تفصيل البلوى في رواياته، وإيجاز ابن الداية. وكلاهما له غرض
وفلسفة، تحكم طريقته في العرض التاريخي حسب موضوع الرواية، ومنهجه العام الذي يتوخاه.

ثالثاً - من حيث القدرة على توظيف اللغة والأدب تاريخياً:

تمتع كل من: (ابن الداية، والبلوى) بمقدرة لغوية وأدبية عالية، استطاعا حسن توظيفها في
العرض التاريخي للأحداث. فابن الداية كان يستخدم لفظة (السلطان)^(٢)، ويعبر بها عن الخليفة
العباسي؛ إشارة إلى ضعف الخلفاء في عصره، وازدياد نفوذ الأتراك (خاصة عهدي المستعين، والمعتز).

وكان يستخدم لفظة (الحَضْرَة)^(٣) تعبيراً عن عاصمة الخلافة (سواء بغداد، أم سراً من
رأى). وهو يشير بذلك إلى أهميتها في تواجد رجال البلاط بها من أترك وغيرهم حول الخليفة
العباسي، وتأثير قراراتها في مصر، ومكانة ابن طولون فيها. ولفظة (تَعَالَم)^(٤) التي أفادت أن
الأتراك أعلم كل منهم الآخر، وتبادلوا الحديث عن مَكْرُمات ومآثر ابن طولون، وشهامته،
ورفضه قتل الخليفة المستعين بنفسه. فهي تعني أنه صار مَحَطَّ الأنظار، ومثار الإعجاب
والإكبار، حتى صار يُؤْتَمَن على (الأسرار، والأموال، والفروج)^(٥).

أما البلوى، فقد كان بارعاً في استعراض ثقافته الشعرية المرتبطة بالحدث التاريخي الذي
يشرحه. وفي كتابه أمثلة كثيرة على ذلك، منها:

أ- أن ابن طولون لما تَوَجَّه إلى الشام بعد وفاة ماجور التركي، لقي بها (أحمد بن
وصيف) بدمشق، حيث كان المهتدي نفاه إليها، وقد انضم إلى ابن طولون هو وجماعة قواد
ماجور. وقد عَرَفَ به البلوى، فذكر أنه (وصيف الكبير التركي)^(٦). الذي يقول فيه الشاعر،

(١) المصدر السابق: ١٢٥.

(٢) السابق: ٧٧، ٨٠.

(٣) سيرة ابن الداية: ٧٨، ٨٣. (٤) السابق: ٧٤.

(٥) السابق. ويلاحظ في هذا التعبير دقة في الأداء اللغوي، فالمرء يَحْمِطُ السر القولي، ثم يترقى عند الناس فيأتمونه على
أموالهم، وأخيراً يصل إلى قمة الثقة - (حفظه وصيانه الأعراض). وهذا يدل على أن ابن طولون بلغ الغاية والمتولة
السامية عند الأتراك.

(٦) الصواب: أن يقول: هو ابن وصيف الكبير التركي.

وفي بُعَا أبي موسى^(١):

خليفة في قفص بين وصيف وبُعَا
يقول ما قال له كما تقول البُعَا

ثم قال البلوى: " والخليفة الذي قيل هذا فيه هو المستعين بالله؛ لأنه كان يؤثرهما جداً، ويقدمهما، ويفضلهما، ويقول برأيهما "^(٢).

أ- واستشهد بشعر كثير؛ كى يُعمق حقيقة نفسية تاريخية، عرفها عن أحمد بن طولون من واقع تجارب ومجريات حياة هذا الأمير. لقد رفض سيما الطويل الاستسلام لابن طولون والاعتذار إليه، حتى عرّض نفسه للقتل. قال البلوى معلقاً: وأحمد من طبعه أنْ مَنْ لَآيَنَه واستسلم إليه، رأى منه كل ما يحبه، وبلغ منه كل ما يريد. ومن خاشئته أو قارومه، لم يُطقه، وكافاه بما يستحقه، كما قال الشاعر:

وكالسيف - إنْ لَآيَنَتْهُ - لَآنَ مَثَّه وحذاه - إنْ خَاشَتْهُ - خَشِنَان^(٣)

رابعاً - من حيث القدرة على ترتيب الأحداث وتسلسلها المنطقي، وتنظيم المادة العلمية:

هذا العنصر المنهجي المركب على درجة كبيرة من الأهمية؛ لأنه ذو صلة جد وثيقة بفهم النص التاريخي. إننا نبحث عند التأريخ لحادثة ما عن عناصرها، ونجمع خيوطها منسقة مرتبة، وننظر في تطورها التاريخي؛ حتى نصل إلى فهم منطقي لها. وبالنظر إلى سيرتي ابن الداية والبلوى، فإن بحث هذه القضية المنهجية ينقسم إلى شقين:

الأول - مدى قدرة كليهما على عرض (سيرة أحمد بن طولون) بطريقة منظمة، تسلم كل فكرة فيها إلى الفكرة التي تليها، وترتبط بها برباط منطقي دقيق، حتى نهاية الكتاب. ويراعى في ذلك التسلسل الجانب الزمني، وأعني به اهتمام كل منهما بتوقيت الأحداث التاريخية، التي

(١) ومن الخطأ أن يعد (بُعَا)، الذي ورد في بيتي الشعر المذكورين، هو الكبير أبا موسى؛ لأن الذي صحب (وصيفاً)، وكانت له معه السيطرة على المستعين (٢٤٨-٢٥١هـ) هو (بُعَا الصغير الشراي). ودليل على صحة ذلك أن (بُعَا الكبير) توفي بعد مبايعة المستعين بوقت قصير، لا يسمح بما وُصف من سيطرة كبيرة على المستعين (بويج المستعين في السادس من ربيع الآخر سنة ٢٤٨هـ، وتوفي بعا الكبير - بعد مرض قصير - في منتصف جمادى الآخرة من العام نفسه). (تاريخ الطبري ٢٥٦/٩، ٢٥٨، وتاريخ الإسلام ١٨/١٨٦). وبناء على ما تقدم، يكون وصيف وبعَا الشراي الصغير هما المقصودان في هذا الشعر. (قتل أولهما سنة ٢٥٣هـ، وثانيهما سنة ٢٥٤هـ). (تاريخ الطبري ٣٧٤/٩، ٣٨٠، وتاريخ الإسلام ٩٣/٩٤-٩٤).

(٢) سيرة البلوى ص ٩٣.

(٣) السابق: ص ٩٤-٩٥.

يعرضها، فذلك أمر غاية في الأهمية لإدراك الترابط الموضوعي والمنطقي بين جزئيات الكتاب.

والحق أن لدى ملاحظات على هذا الجانب، أركزها فيما يلي:

١- أن الترابط والتسلسل الموضوعي في كلا الكتائين متحقق في مواضع كثيرة منذ بداية أحمد بن طولون والحديث عن أصل والده، ومولد أحمد، و وفاة والده طولون، ورعاية أصدقاء والده له، وانخراطه في سلك الجندية، ومربطته في طرسوس، وما قيل عن شجاعته في الدفاع عن قافلة بها مقتنيات للخليفة (المستعين). وكان ذلك سبباً في ارتفاع مكانته لدى الخلافة، واشتهاره بين الأتراك وعلو منزلته، مما سهّل له - عند بايكباك - أمر نيابته عنه في ولاية مصر. ويستمر الكتابان في الحديث عن دخوله مصر وتاريخ ذلك، وما جوبه به من حسد وحقد ابن المدير وشقي، وصراعه معها، حتى تخلص من شرهما. وتمضى الأحداث لتوضح أن موت بايكباك وتولى يارحوخ مصر كان خيراً على ابن طولون، الذي ازداد نفوذه في مصر نيابة عن ذلك الرجل، الذي ما إن توفي حتى دانت مصر كلها له. ويواصل المؤرخان متابعة بقية أحداث فترة حكم ابن طولون في مصر وأعماله، وعلاقته بالخلافة وبالموفق، وبلاد الشام، وصفاته من خلال ذلك كله، وما قام به العباس بن أحمد بن طولون، ولؤلؤ من خروج عليه وعصيانه. وهكذا، نشعر بالتناسق العام بين جزئيات السيرة حتى وفاة ابن طولون.

٢- لا يعني ما تقدم عدم وجود اختلال - أحياناً - في تسلسل الأحداث، فإننا نجد بعض المواضع القلقة، التي يضطرب فيها السياق التاريخي، منها:

أ- ما وقع فيه البلوى من اضطراب عندما وصل بالأحداث إلى سنة ٢٥٨هـ، التي جعلها تاريخاً لخروج ابن المدير من مصر - بوساطة أخيه إبراهيم - إلى الشام؛ ليلي خراج فلسطين والأردن ودمشق لما ضاق به المقام في مصر مع ابن طولون^(١). ثم إذا بنا بعد ذلك بقليل نفاجأ به، نجدنا حديثاً مطولاً عن ثورات وحركات تحاول الانتقاص من استقرار مصر، وتشيع النهب والسلب والتخريب في صعيد مصر، بدءاً من سنتي ٢٥٥هـ، ٢٥٦هـ^(٢). وكان الأجدر والأولى به أن يقدم هذه الأحداث أولاً، ثم يذكر خبر خروج ابن المدير من مصر. أما ابن الداية، فلم يتناول هذه الحركات أصلاً. وقد يُردّ على ذلك بأن البلوى أراد تجميع تطورات علاقة ابن المدير بابن طولون في إطار واحد، فواصل الكلام عليه حتى نهاية مرحلة من مراحل الصراع بينهما (٢٥٨هـ). والحق أن الصراع مع ابن المدير استمر ولم يتوقف حتى نجح ابن طولون - كما عرفنا من قبل - في إحضاره إلى مصر وجسه بها حتى وفاته (قبل وفاة ابن طولون بقليل).

(١) سيرة البلوى: ص ٦٠.

(٢) المصدر السابق: ص ٦٢ - ٧٠.

وكان الأصح أن يأتي بتاريخ هذه الحركات في مكانها وميقاتها الصحيح، وبين من خلالها كيف واجه ابن طولون دسانس ابن المدير بالعاصمة، وحركات الخارجين بالصعيد معاً، مما كان سيعطى بعداً جديداً لسياسته.

ب- وقع ابن الداية في شئ من الاضطراب في سوق الأحداث التاريخية، وذلك عندما أورد - أولاً - أوامر الموفق إلى (موسى بن بغا) بالتحرك بجيوشه إلى مصر؛ لإخراج ابن طولون منها، وأصدر تقليداً إلى ماجور بولاية مصر بدلاً منه^(١). ثم بعد ذلك ذكر كتاب ابن طولون المطول إلى الموفق رداً على كتاب سابق أرسله الموفق إليه^(٢). والحق أن البلوى تدارك هذا الأمر، فعكس الترتيب، وهو الأمر المنطقي المقبول^(٣). فالذي حدث - أولاً - هو رد ابن طولون الشديد للهجة على الموفق، وتهديده إياه بجيوشه الجائرة، لما استقل الموفق ما أرسل إليه من خراج مصر^(٤)، فكانت النتيجة أن غضب الموفق غضباً شديداً، وأحس بخطورة ابن طولون على الخلافة، وإمكان استغلاله بمصر؛ مما حركه سريعاً لمطالبة موسى بن بغا بطرد ابن طولون من مصر بالقوة، وتولية ماجور بدلاً منه^(٥).

ج- وقع ابن الداية في خلط آخر، عندما ذكر قصة مطولة بإطلاق ابن طولون يوسف بن إبراهيم من محبسه سنة ٢٦٤هـ، تبعها بأخبار خروج ابن طولون إلى الشام أواخر العام المذكور^(٦). وبعد ذلك ذكر موضوع خروج العباس على أبيه، وحدد تاريخ إعادته إلى مصر أسيراً بسنة ٢٦٧ هـ^(٧). إلى هنا والتسلسل في الأحداث قائم متحقق، لكنه بعد ذلك مباشرة يورد خيراً لا مناسبة لذكره في هذا الموضوع، إذ يذكر إرسال أبي الفتوح محمد بن الفتح بن خاقان أخته خديجة زوجة لابن طولون، الذي كان عقد عليها بوساطة المعتمد سنة ٢٦٠هـ، وأن أحمد كافاً أخاها بعد هذا العقد، فولاه ديار مضر. ويواصل ابن الداية روايته غير المتسقة مع الأحداث السابقة عليها، فيشرح لنا مكاتبات محمد بن الفتح إلى ابن طولون يخبره فيها بالخاح الوزير الحسن ابن مَخلَد المُنْفَى بالرفقة عليه برغبته في القدوم إلى مصر؛ ليقبض على حجار ابن طولون، ثم يورد تبسط الحسن - بعد مجيئه إلى مصر - مع ابن طولون، وعدم توقيره إياه، وخروجه عن اللياقة في مجلس

(١) سيرة ابن الداية: ص ٨٨.

(٢) السابق: ص ٨٩ - ٩١.

(٣) سيرة البلوى: ص ٨٥ - ٨٧، ودكتوراه حسن جبر ص ١٤٦.

(٤) سيرة البلوى: ٨١.

(٥) السابق: ٨٥.

(٦) سيرة ابن الداية: ١١٥.

(٧) سيرة ابن الداية: ص ١٢٢.

شراب حضره ابن طولون؛ مما أغضب عليه، فأمر بحبسه، حتى خرج إلى الشام فمات هناك^(١). ولما كان معلوماً أن هذا الوزير توفي حوالى سنة ٢٦٩هـ، فذلك يعنى أن ابن الداية ارتد بالحديث من سنة ٢٦٧هـ إلى حدث وقع سنة ٢٦٠هـ، أعقبه بآخر انتهى سنة ٢٦٩هـ؛ مما يدل على اضطراب شديد في روايته التاريخية، وعدم اتساقها مع ما قبلها.

ولم يكن البلوى أحسن حالاً من ابن الداية في معالجة وعرض هذه الجزئيات؛ إذ إنه عرض لأحداث خروج ابن طولون إلى الشام واضطراره للعودة؛ لعلمه بخروج ابنه العباس عليه^(٢). ثم عرض لصفة من صفات (ابن طولون)، وهى (دهاؤه وجودة رأيه وحزمه)، وأخذ يسوق من الشواهد التاريخية ما يبرهن به على تحققها فيه، حتى انتهى منها^(٣)، وانتقل إلى صفة أخرى، وهكذا^(٤) حتى وصل إلى ما يسميه بـ(عجيب أخبار ابن طولون)، أورد خلالها خبر إطلاق سراح (يوسف بن إبراهيم)^(٥) من محبسه، وأتى بقصة غريبة لا تُصدّق^(٦). وأخيراً، عرض لخبر زواج ابن طولون من أخت (محمد بن الفتح)، وما حدث بينه وبين

(١) السابق: ١٢٣. وحديث بالذكر أن (الحسن بن مخلّد) ولى ديوان الضياع للمتوكل سنة ٢٤٣هـ (تاريخ الطبرى ٢٠٩/٩). وكانت له مشاركة ونفوذ في الأحداث ببغداد (السابق: ٢١٤/٩ - ٢١٧، ٢٥٩، ٣٢٤ - ٣٤٢، وغيرها). ثم ولاة المعتمد الوزارة للمرة الأولى في ذى القعدة سنة ٢٦٣هـ، فولياها أياماً، ثم هرب لما قدم موسى ابن بُغا سامراً، فولّى موسى (سليمان بن وهب) مكانه (السابق ٥٣٢/٩). ومعنى هذا أن ابن الداية، والبلوى لم يكونا دقيقين لما ذكرنا أن ابن طولون كاتب (بارجوخ) المتوفى يوم الجمعة ٨ رمضان ٢٥٨هـ (تاريخ الطبرى ٥٠١/٩، وسيرة البلوى ١٥٣)، وكذلك الوزير الحسن بن مخلّد، وأعطاهما أموالاً كثيرة؛ لكي يستخدما نفوذهما في عاصمة الخلافة؛ لتثبيت ابن طولون في حكم مصر. (سيرة ابن الداية ٨٤، والبلوى ٥٧ - ٥٨)؛ لأن ابن مخلّد - آنذاك - لم يكن وزيراً بعد، وما ولى الوزارة إلا بعد وفاة بارجوخ. ولعله أيامها كان صاحب نفوذ في بلاط العباسيين (ماجستير: الطولونيون في مصر ومفهوم الاستقلال السياسى)، لأحمد السيد شحاتة ص ٦٧ (هامش ٥). وفى سنة ٢٦٤هـ، وبالتحديد يوم ٢٧ من ذى القعدة، استوزر المعتمد الحسن ثانية بعد غضبه على (سليمان بن وهب). (تاريخ الطبرى ٥٤٠/٩)، لكن سرعان ما هرب من الموقف، الذى قبض أمواله، وأموال عماله (السابق ٩/٥٤١). وبذكر النهى أن الحسن ولى الوزارة ثالثة سنة ٢٦٥هـ، ثم سُخط عليه في شعبان منها من قبل المعتمد، فانسحب إلى مصر حيث ابن طولون. ثم وُشي به عنده، وأُتهم بأنه عين للموفق عليه، فسُجن وعُذّب حتى هلك ٢٦٩هـ. (تاريخ الإسلام ٨١/٢٠). والصواب - عندي - ما ورد عن ابن الداية، والبلوى: أنه كان منفيًا بالشام، فكتب محمد بن الفتح بن خافان صهر ابن طولون بشأن رغبته في الهجر إلى مصر، فاستقبله ابن طولون - فيما أرى - بدايات ٢٦٦هـ، حتى غضب عليه، وحسبه؛ لتجاوزه حدود الأدب معه. ثم أخرجه معه إلى الشام ٢٦٩هـ، فمات في الطريق. (سيرة ابن الداية ١٢٣، و سيرة البلوى ١٧٣ - ١٧٥).

(٢) المصدر السابق: ٩١ - ١٠١.

(٣) هى صفة (دهاء ابن طولون، وجودة رأيه، وحزمه). (السابق: ص ١٠١ - ١٢٢).

(٤) ثم عرض لفراسة ابن طولون (السابق: ١٢٢ - ١٤٠)، ثم حُسّن تأثّر، وبطلان كثير مما يُشّنع به عليه (السابق ١٤٠ - ١٥٣).

(٥) السابق: ١٦٤ - ١٦٨.

(٦) سيرة البلوى: ١٦٨ - ١٧٣.

(الحسن بن مخلد)^(١).

وهكذا، لا نرى انسجاماً بين المرويات المتتابعة وإن كان عذر البلوى يتمثل في تعرضه لصفات ابن طولون بالموضوع، وتدليله على كل صفة بعدد من الأحداث والوقائع غير المتعاقبة من الناحية الزمنية؛ لاهتمامه بالموضوع على حساب الترتيب الزمني، لكنه لا يُغفر له عدم انطباق العنوان على بعض أمثله الواردة تحته أحياناً^(٢)، وفصله بين صفة وأخرى من صفات ابن طولون بروايات لا علاقة لها بما قبلها^(٣)، ولا رابط بينها وبين ما بعدها^(٤).

٣- من أهم واجبات المؤرخ الأساسية ذكر توقيت الأحداث بدقة، وقد عُني ابن الداية بذكر تواريخ عدد من الأحداث المهمة، مثل: تاريخ ميلاد ابن طولون (٢٢٠هـ)^(٥)، وتاريخ وفاة والده (٢٤٠هـ)^(٦)، وتوقيت ميلاد أبي الجيش ابنه^(٧). وحدد بدقة - باليوم، والشهر، والعام - تاريخ دخول (أحمد بن طولون) مصر والياً عليها نائباً عن بايكباك^(٨)، وتوقيت سيطرة ماجور التركي على الشام بعد فرار عيسى بن الشيخ منه^(٩)، وتاريخ إيقاع ابن طولون بأخيه موسى ونفيه إلى الثغر^(١٠)، وتاريخ ولاية أحمد بن محمد بن أخت الوزير على خراج مصر^(١١)، ووفاة ماجور عامل الشام^(١٢)، وتاريخ قتل سيما الطويل ودخول ابن طولون طرسوس^(١٣)، وسنّ ابن طولون لما دخل إلى مصر، وعمره^(١٤).

- (١) السابق: ١٧٣-١٧٥. ويلاحظ أن البلوى ذكر - هنا - وصول (حديجة بنت الفتح بن خاقان) أخت (محمد بن الفتح بن خاقان) إلى مصر؛ ليبني بها ابن طولون، وذلك بتاريخ آخر سنة ٢٦٥هـ بعد أن كان المعتمد عقد بين ابن طولون وحديجة هذه نكاحاً، لم يحدد البلوى تاريخه. أما ابن الداية، فاكفى بتحديد تاريخ العقد فقط (٢٦٠هـ). (سيرة ابن الداية ١٢٣). وبذا يكمل كل منهما الآخر في هذه المعلومة.
- (٢) كما حدث في استطراده بروايات متعاقبة عن موقفه من الكتابة والكتاب في مصر بعد إيقاعه بالكاتب (ابن مفضل)، بما لا يتفق مع صفة ابن طولون المبرهن عليها (إنصافه، وحسن تأثبه). (سيرة البلوى ١٤٢-١٤٨).
- (٣) وذلك عندما أتى برواية، تتعلق بموت (بارجوخ)، وتحدث عن أولاده من بعده، وموقف ابن طولون منهم، وإحسانه إليهم؛ وفاء لوالدهم. (سيرة البلوى ١٥٣-١٥٤). وهى لا علاقة لها بحسن تأثي ابن طولون، ونُظِّلان كثير مما يُنسب به عليه.
- (٤) وكذلك لا رابط بينها وبين حكاية الخراسان، الذى لقي جزاء خيائه جازاً؛ لأنه اعتدى على عرضه (السابق ١٥٤-١٥٦).
- (٥) سيرة ابن الداية: ٧٤.
- (٦) المصدر السابق: ٧٤.
- (٧) ولد منتصف المحرم سنة ٢٥٠هـ من حارثه (مّياس). (السابق: ٧٥).
- (٨) السابق: ص ٧٦: (يوم الأربعاء لسبع ليال بقين من رمضان سنة ٢٥٤هـ).
- (٩) المصدر السابق: ٨١ (سنة ٢٥٧هـ).
- (١٠) السابق: ٢٥٨هـ.
- (١١) السابق: ٨٤ (٢٥٨هـ).
- (١٢) السابق: ١١٥ (٢٦٤هـ).
- (١٣) السابق: ١١٧ (المحرم سنة ٢٦٥هـ).
- (١٤) السابق: ١٣١. (كان سنّه ٣٤ سنة، ويوماً واحداً، وعاش ٥٠ سنة).

وَعَنَى الْبُلُوِي بِذِكْرِ بَعْضِ التَّوَارِيخِ الْمُهْمَةِ أَيْضاً، مِثْلُ: تَارِيخِ وَفَاةِ مُوسَى بْنِ بَغَا^(١)، وَتَارِيخِ مَسِيرِ ابْنِ طُولُونِ نَحْوَ الشَّامِ بَعْدَ وَفَاةِ ابْنِ بَغَا^(٢)، وَحَدَّدَ بِدَقَّةٍ تَارِيخَ وَفَاةِ أَحْمَدَ بْنِ طُولُونِ^(٣).

ملاحظة:

لَا يَعْنِي مَا تَقْدَمُ مِنْ أَمْثَلَةٍ دَلَّلْنَا بِهَا عَلَى اهْتِمَامِ ابْنِ الدَّيَاةِ وَالْبُلُوِي بِتَوْقِيتِ الْأَحْدَاثِ التَّارِيخِيَّةِ، أَهْمَا سَدًّا كَافَةً لِلثَغَرَاتِ فِي هَذَا الشَّأْنِ. إِنْ هُنَاكَ أَحْدَاثٌ عَلَى دَرَجَةٍ مِنَ الْأَهْمِيَّةِ فِي حَيَاةِ ابْنِ طُولُونِ لَمْ يَذْكُرْهَا تَوَارِيخُ وَقُوعِهَا، مِثْلُ: تَارِيخِ حَرَكَةِ أَبِي رَوْحٍ^(٤)، وَثَوْرَةِ أَهْلِ بَرْقَةِ بِعَامِلِهِمْ^(٥) (لَدَى الْبُلُوِي). وَلَمْ يَهْتَمَّ كِلَاهُمَا بِذِكْرِ تَارِيخِ وَفَاةِ الْوَزِيرِ الْحَسَنِ بْنِ مَخْلَدٍ^(٦)، وَكَذَلِكَ لَمْ يُذَكِّرْ تَارِيخَ (تَقْلِيدِ الْمُعْتَمَدِ ابْنِ طُولُونِ الشَّامَ كُلَّهُ مِضَافاً إِلَى الثَّغُورِ الشَّامِيَّةِ)^(٧)، وَتَارِيخَ عَوْدَةِ ابْنِ طُولُونِ إِلَى مِصْرَ بَعْدَ عِلْمِهِ بِخُرُوجِ ابْنِهِ الْعَبَّاسِ عَلَيْهِ^(٨)، وَكَذَلِكَ تَارِيخَ الْقَضَاءِ عَلَى كُلِّ مَنْ شَقِيَ الْحَادِمَ^(٩)، وَابْنَ الْمَدِيرِ^(١٠)، وَتَوْقِيتِ وَرُودِ الْكُتُبِ بِتَقْلِيدِ مُحَمَّدِ بْنِ هِلَالٍ خِرَاجِ مِصْرَ بَعْدَ عِزْلِ ابْنِ الْمَدِيرِ^(١١)، وَتَارِيخِ عَوْدِ ابْنِ الْمَدِيرِ لِمَنْصِبِهِ ثَانِيَةً^(١٢)، وَتَارِيخِ خُرُوجِ لَوْلُو غَلَامِ ابْنِ طُولُونِ عَلَيْهِ^(١٣)، وَكَذَلِكَ تَوَارِيخَ مَنْشَأَتِ ابْنِ طُولُونِ، مِثْلُ: تَحْصِينَ جَزِيرَةِ الرُّوسَةِ^(١٤)، وَتَارِيخِ، بِنَاءِ جَامِعِهِ^(١٥)، وَإِنْشَاءِ يِمَارِسَاتِهِ^(١٦)، وَغَيْرِهَا مِنَ الْمَشْرُوعَاتِ الْمُفِيدَةِ.

(١) سيرة البلوي: ٨٧ (صفر سنة ٢٦٤هـ).

(٢) السابق: ٩١ (شوال ٢٦٤هـ).

(٣) السابق: ٣٤٣ (بعد ذهاب طائفة من ليلة الأحد، لعشر ليال خلون من ذى القعدة سنة ٢٧٠هـ).

(٤) سيرة البلوي: ٦٧.

(٥) السابق: ٧٠.

(٦) راجع: تحقيقى وترجيحي بشأنه من قبل فى هذا الفصل.

(٧) سيرة البلوي: ٩٢.

(٨) سيرة ابن الداية: ١١٨، و سيرة البلوي: ١٠١، ٢٤٤.

(٩) لم يحدد ابن الداية تاريخ ذلك صراحة، وإن أشار إليه إشارة خفيفة، لما ذكر أن ذلك كان فى الجمعة التى وصل فيها إلى مصر نياً حادث المعتز (وفاته). (سيرة ابن الداية ٧٩). فلهذا كان سنة ٢٥٥هـ. أما البلوي، فلم يشر مطلقاً فى روايته إلى تاريخ ذلك (سيرته ص ٥٨ - ٥٩).

(١٠) ظل فى محبس ابن طولون، حتى عَمِيَ ومات (دون ذكر وفاته). (سيرة ابن الداية ١٢٥، و سيرة البلوي ١٧٨).

(١١) و(١٢) سيرة ابن الداية ٧٩: و سيرة البلوي ٥٩.

(١٣) سيرة ابن الداية: ١٢٦. وذكر البلوي (ص ٢٨٧): أن ابن طولون خرج للحاق بلولو. فلما بلغ الرملة، صحَّ عنده دخول لولو العراق (آخر سنة ٢٦٨هـ)، ولم يحدد بالضبط متى أعلن العصيان. بينما ذكر الطبرى أنه أظهر

الخلاف سنة ٢٦٨هـ (تاريخه ٦١١/٩).

(١٤) سيرة ابن الداية: ٨٨، وسيرة البلوي ٨٦ - ٨٧.

(١٥) المصدر السابق: ص ٥٦.

(١٦) المصدر السابق: ص ١٨٠ - ١٨٣.

وربما يُعْتَذَرُ عنهما بأنهما ركزا اهتمامهما بذكر موافقت الأحداث الرئيسية، وما دونها في الأهمية يشار إليها إشارات غير مباشرة، يُترك للقارئ تحديدها تقريباً. فكلاهما لا يكتب تاريخاً حولياً يسردان لنا فيه ما وقع - بالضبط - كل عام من أحداث، وإنما يحاولان إبراز الجوانب المهمة في حياة الشخصية التي يكتبان سيرتها، وقد تفوقهم في ثنايا ذلك بعض التواريخ.

الشق الثاني - تنظيم المادة العلمية، وحسن توزيعها:

وهذه جزئية مكملية للكلام السابق، ونبحثها على مستوى **البلى فقط**، فهو صاحب المادة التاريخية الغزيرة المتنوعة المتشعبة، التي تحتاج إلى حسن تنظيم وتوزيع، بحيث يعرف صاحبها متى يفصل، ومتى يوجز إلى حين يأتي مكان التفصيل. أما ابن الداية فكتابه المختصر، ومادته الموجزة لم تلحظه كثيراً إلى ما لجأ إليه البلى.

ويمكن تناول هذه الجزئية فيما يلي:

أ- تناول البلى حياة ابن طولون في قسط كبير من كتابه على هيئة استعراض لصفاته واحدة تلو الأخرى، فكان يأتي بالسمة كعنوان جانبي، ثم يسوق عليها ما تيسر له من الأدلة والشواهد التاريخية من حياة ابن طولون مما يصلح أن يندرج تحتها ويدعمها^(١).

ب- كان يكفي في بعض المواضع بذكر قدر من المادة العلمية يناسب ذلك الموضع، ثم يُعَدُّ بذكر البقية في مكان يأتي بعدُ أشد مناسبة له. ومن أمثلة ذلك: حديثه عن حركة البناء والعمران التي شاهدها ابن طولون، فتناول: بناء العين والجامع، وكلاهما بناهما رجل نصراني حاذق بالهندسة. ثم أمسك عن تفصيل ما يتعلق بدور هذا المهندس، وقال: "ونحن نأتى بخبره، إن شاء الله"^(٢). وبالفعل وقى البلى بوعده عندما كان يحدثنا عن رغبة ابن طولون العارمة في أعمال البر والخير، فتناول بناء العين والمسجد الطولوني، وذكر - تفصيلاً - ما قام به المهندس النصراني في هذا الشأن، وموقف ابن طولون منه^(٣). وتوجد عدة نماذج تؤكد لنا براعته في امتلاك زمام مادته العلمية، وحسن توزيعها (فيما يتصل بالعباس بن أحمد بن طولون^(٤)،

(١) كان يذكر صفات ابن طولون واحدة واحدة، ويمثل لكل منها مما تيسر له من الوقائع التاريخية (سيرة البلى: ص ١٠١ وما بعدها، ١٢٢ وما بعدها، ١٤٠ وما بعدها). وكان يحسن الربط إذا استطرد - داخل الصفة الواحدة - لموضوعات وروايات ليست من صلب موضوعها. وبعد الانتهاء من الاستطراد يعود إلى موضوعه، ويقول مثلاً: "قال: وعدنا إلى أخباره المشهورة في دهانه، وعقله، وحزمه" (السابق ١٠٦). وكذلك قوله ص ١٤٨: (وعدنا إلى أخباره الموحدة له العذر فيما يأتيه من العقوبة).

(٢) السابق: ٥٦.

(٣) السابق: ١٨١ - ١٨٣.

(٤) السابق: ١٠٦، ٢٤٤، وما بعدها.

وبموقف الموفق من نبأ وفاة ابن طولون^(١). إلا أن البلوى خانة التوفيق مرة، فوقى بما وعد بالحديث عنه، لكن الرواية المكملّة أتت متناقضة مع الأولى وغير مفهومة^(٢).

ج- وأحياناً، كان البلوى يذكر حادثة مترتبة على شئ سبق أن أشار إليه من قبل، فيذكر القارئ بأنه قدّم ذكر ذلك الشئ من قبل^(٣)، أو أنه ذكره في أول أخباره^(٤)؛ كي يستعيد القارئ معلوماته السابقة، ويربط بينها وبين ما يقرأ، فتكون الفكرة واضحة حاضرة لا غموض ولا انغلاق فيها.

خامساً - الاستطراد:

فيه يلتبس المؤرخ أدنى ملابسة، وأقرب فرصة؛ ليضيف جديداً من عنده (ثقافته، وإطلاعه)، أو يأتي برواية تالية تكون بمنزلة التعليق، أو الإضافة والتكملة للرواية السابقة. ويكون الاستطراد مقبولاً إذا أضاف جديداً، يعمق به الحدث التاريخي وكان ذا حجم معقول. ويكون معيباً عندما يكون خروجاً عن الموضوع الأصلي، ومعرقلاً لاتصال الحدث، ومعوقاً لفهمه، ولا يضيف جديداً. والآن نلتبس هذا العنصر المنهجي الجديد عند مؤرخينا.

١- عند ابن الداية:

لا يميل ابن الداية إلى أسلوب الاستطراد في العرض التاريخي؛ لأن هذا لا يتوافق مع الاختصار الذي توخّاه في كتابه، لكني - بعد النظر والتتبع - تبينت ثلاثة مواضع فقط يمكن أن نعتبرها من قبيل الاستطراد، منها موضعان مقبولان:

أ- لما أرسل ابن طولون الواسطيّ كتابه إلى دار الخلافة؛ ليتصدى لمحاولة ماجور عزله عن ولاية مصر؛ عيّن كاتباً آخر مصرية هو (جعفر بن عبد الغفار). وكان من الممكن انتهاء الحدث عند ذلك، لكن ابن الداية أورد رواية مطولة، فيها حوار بين الأمير وأحمد بن خاقان، تدور حول سر اختياريه كاتباً مصرية، رغم تفوق الكتاب العراقيين. ومن

(١) السابق: ١٤٠، ٣٥٨، وما بعدها.

(٢) وهي تتعلق في موضوعها بشكوى كيدية، تقدم بها (ثابت بن سليمان) إلى نسيم الخادم يذكر فيها أن أباه (سليمان) - وكان يكتب لشقيق الخادم، ثم خدم ابن طولون - استودعه شقيق ٤٠٠ ألف دينار، وأنه أتى لإبلاغ الأمير؛ خشية امتداد يد أبيه إليها. فأمره ابن طولون بكمّان هذا الأمر، وعدم إبلاغ أبيه بشئ من ذلك. ثم انتظر سنة حتى تولى الأب، وبعدها طالبه ابن طولون بأموال أبيه التي ذكرها من قبل، فلم يحز جواباً، فضرب ٥٠٠ سوط حتى مات، وصودرت أملاكه، وما خلقه له أبوه؛ جزاء سعائه بأبيه كذباً واقتراء. (سيرة البني ص ١٧٩، ٢٤٢-٢٤٣).

(٣) مثال ذلك قوله: فلما أهدى إلى أحمد بن طولون الهدية - التي قدّمنا ذكرها - ردها، ولم يقبلها. وبعدها بأيام كتب ابن طولون لابن المدبر يذكره بالهدية التي ردها، ويطلبه بغلمانه. (السابق: ٤٣، ٤٤-٤٥).

(٤) ذكر ص ١٠٦: أنه وجّه بالواسطي إلى العراق - كما ذكرنا في أول أخباره (ص ٥٧)، واستكتب ابن طولون جعفر ابن عبد الغفار. فهو يشير إلى إرسال الواسطي إلى بغداد؛ لتقديم الرشاشي؛ كي يتم تثبيت ابن طولون في مصر.

خلال الحوار ظهرت نجابة وفطنة الأمير في سر اختيار الكاتب المصري^(١). فالاستطراد - هنا - حسن؛ لأنه استخدم لتطوير الحدث التاريخي، وإبراز ملمح مهم من ملامح شخصية (ابن طولون) موضوع الكتاب الأساسي.

ب- أورد ابن الداية رواية عن المائة ألف دينار، التي أخذت من مجموع متاع وأموال ابن مُفَضَّل الكاتب، والتي وصَّى بها ابن طولون للحسن بن مهاجر، ثم طَوَّر ذلك برواية تالية تتجاوز فيها عصر ابن طولون، الذي يسجل ابن الداية (المستحسن من سيرته) إلى عصر ابنه (خمارويه)؛ لكي يستوفي ترجمته للحسن بن مهاجر حتى لهايتها، وفيها ذكر أن ابن مهاجر قُتل على يد خمارويه، ووجدوا له ثمانين ألف دينار، هي ما تبقى من وصية ابن طولون، وكان قد فَرَّق عشرين ألفاً في أهله، وكان يسعى على رزقه^(٢).

أما الموضوع الثالث والأخير، فهو استطراد لا داعي له، ويتناول ما دار في مجلس الكاتب (محمد بن عبد كان) عن الكاتبين: محبوب بن رجاء، والحسن بن مهاجر^(٣)، ومقارنة بينهما لا حاجة إليها بعد أن وصل في ترجمته إلى منتهاها في رواية سابقة.

٢- عند البلوى:

على العكس مما سبق تكثرت الاستطرادات المطولة (أحياناً)؛ نتيجة التفاصيل التي يزرعها كتابه من جهة، ورغبته في عرض جانب من ثقافته الأدبية والتاريخية المتنوعة، وتميزه بالقدرة على قياس الأحداث التاريخية بعضها على بعض، رابطاً بين المواقف التاريخية المتشابهة.

وأجتزئ من مواضعه العديدة بالأمثلة الآتية:

أ- بعد أن ساق رفض ابن طولون القيام بقتل المستعين على نحو ما كتبت به إليه (قبيحة) أم المعتز، استطرذ قائلاً بأن أحمد بن طولون أحسن وأجمل في ذلك، ووقف موقف الرجل التابعي، الذي رفض الاستجابة للحجاج، لما أمره بقتل رجل، أثمهم بما أراد قتلته بسببه، واستشهد بشعر قاله ذلك التابعي، وشرح لفظة مشكلة فيه^(٤).

(٣) السابق: ١٠٨.

(٢) سيرة ابن الداية: ١٠٧.

(١) سيرة ابن الداية: ص ٨٣.

(٤) سيرة البلوى: ص ٤٠. قال في هذا الشعر:

ولستُ بقاتلٍ رجلاً يصلي	على سلطان آخرَ من قريش
له سلطانُه وعلىَّ إلهي	معاذَ الله من جهلٍ وطميش
إذا طاوَعنه وعصيتُ ربي	فما فضلي هناك على قميش

وشرح لفظة (قميش)، فقال: اسم رجل خليع ماجن مارد.

وأرى أن القياس هنا مع الفارق، فالأمر هنا قبيحة والأثرak وراءها، وهناك الحجاج بسطوته. والمأمور هنا ابن طولون، وهناك تابعي صالح. والمنتهم هنا خليفة المسلمين دون ذنب جهن، والمنتهم هناك رجل مسلم عادى أقمه الحجاج بتهمة توجب قتله. والذي يهيم البلوى - في النهاية - هو امتناع كلا الرجلين عن جريمة قتل، يريان المحكوم عليه فيها لا يجوز قتله.

ب- في سياق رواية عن سهر ابن طولون واهتمامه بتجريب المنحنيقات^(١) بنفسه، وإشفاقه على الناس أن يصيبهم أذى، ورد ذكر خليج أمير المؤمنين، فانتهر البلوى الفرصة؛ ليعرض لنا معلوماته التاريخية، واستطرد مُعرِّفاً إيانا هذا الخليج قائلاً: إنما سُمي بأمر المؤمنين؛ لأن عمر بن الخطاب ؓ قام بخفر خليج، يصل من النيل إلى القلزم، وتُحمل فيه الميرة (الطعام) إلى الحرمين، وسمي بذلك؛ لأن عمر أول من سمى به - (أمير المؤمنين). ثم واصل وصفه تجربة المنحنيقات، التي يشرف عليها ابن طولون بنفسه^(٢).

من نماذج استطراداته المعيبة:

أ- تقديمه المطول المفصل الذي قدّم به للصدام بين ابن طولون والموفق؛ نتيجة مطالبة الأخير بأضعاف أضعاف خراج مصر. فلما لم يجبه ابن طولون، كلّف موسى بن بغا مهاجمة ابن طولون في مصر. قام البلوى بالتقدم لهذا الحدث باستعراض تفاصيل إسناد محاربة الزنج إلى الموفق في عهد المعتمد، ثم قيام الخليفة بتقسيم مملكته بين ابنه الموقّض، وأخيه الموفق، كما فعل الرشيد مع ابنه (الأمين، والمأمون). واستطرد لبيان فضل المأمون على الأمين، وبيان شروط تقسيم المملكة الذي وضعه المعتمد^(٣). وقد كان يكفيه تعريف مقتضب بمكانة الموفق قبل أن يعرض لخلافه مع ابن طولون.

ب- بعد أن ساق لجوء لؤلؤ إلى الموفق عاصياً مولاه، ويّين أن محمد بن سليمان كاتب لؤلؤ كان شديد الفرع من ابن طولون؛ لأنه كان يودّب الكاتب كثيراً على ذنب صاحب، بعد ذلك قال البلوى: إنما أراد ابن طولون أن يجعل في أمر محمد بن سليمان، كما صنع في أمر صنم كان في عين شمس (أى: أراد القضاء على ابن سليمان، كما حطّم صنم عين شمس، وأزاله من الوجود)، ثم استطرد يحكي قصة ذلك الصنم، وإزالة ابن طولون تلك الأسطورة سنة ٢٥٨هـ. ثم عاد يكمل كلامه عن لؤلؤ ومحمد بن سليمان، وسر تحريض الأخير لؤلؤاً

(١) مفردتها: مُحَنِّق (بكسر الميم، وفتحها). وهي لفظة دحيئة أعجمية معربة. يقصد بها: آلة من آلات الحصار القديمة، كانت تُرْمى بها حجارة ثقيلة على الأسوار، فتهدمها. وهي لفظة مؤنثة. الفعل منها: مُحَنِّق القوم أى: رموا بأحجار المحييق. وأصلها بالفارسية: مَن جى نيك، أى: ما أخوذ. (نسان العرب، مادة: محنق، جـ: ٦ ص ٤١٤٢)، والمعجم الوسيط ٢/٨٨٩).

(٢) سيرة البلوى: ٢٠٠ - ٢٠١.

(٣) سيرة البلوى: ٢٧ - ٧٩.

على عصيان مولاه^(١). وأعتقد أن هذا استطراد متكلف لا داعي له، والقياس بينهما مع الفارق، فالصنم خرافة معروفة لا تحتاج إلى تدليل، لكن محمد بن سليمان حقيقة معروفة، ووسوسته إلى لؤلؤ، وإيقاعه بين ابن طولون ولؤلؤ مشهورة؛ لأجل مصلحته.

سادساً - الاستقصاء:

ونعني به مدى قدرة مؤرخينا على العرض المتكامل لسيرة أحمد بن طولون من مختلف جوانبها وزواياها، بالإضافة إلى التعمق في نفسيات الشخصيات والأحداث المهمة ذات العلاقة بابن طولون من خلال ما يُسرد من روايات عنها. أما بالنسبة للعرض المتكامل، فأعتقد أن ما ذكرته في محتويات السيرتين يمكن أن يسد هذا الجانب. وبهمي - الآن - التعرض لعدد من النماذج، يمكن من خلال روايتها أن ندرسها من الداخل، وأن نسر أغوارها، التي هي قصد المؤرخ من إيرادها.

١- لؤم أحمد بن طولون، وشدة خُبثه في التخلص من (شَقِير الخادم) صاحب البريد^(٢):

أ- في البداية أمر بإحضاره راجلاً من داره إلى قصر ابن طولون.

ب- أمر أن يُحرك حركة عنيفة، ويُكَدَّ في عَدُوّه من داره بمصر إلى الميدان بالقطائع (ويعرف ابن طولون أنها مسافة بعيدة، وأن شَقِيرًا مُبَدَّن مَرْقَه يمكن أن يقتله التعب)، فوصل وقد كاد التعب والإرهاق الشديد يقتله.

ج- لما أوقف بين يدي ابن طولون أمر أن تُحضر السياط والعُقابان^(٣)، فأُحضِرَا، وأمر بشده في العقابين. (وهذا تمهيد لإنزال العقوبة به، وإهانة مذهلة لم يكن يتخيلها، حتى وهو قريب من الموت).

د- ثم أتى دور الحرب النفسية: غفلوا عنه وهو مُقَيَّد، ينتظر العقاب أو الموت بين لحظة وأخرى (بموت عدة مرات خلال ساعة، وظل يستغيث فيها من شدة القيد، وشدة القلق، والخوف والفرع). وأخيراً، انهارت قوته، وسقط.

هـ- ويبدو أن أحمد بن طولون أحضر مَنْ فحَصه، فتبين فيه الموت. هنا أكمل ابن طولون دوره، فأمر بفك قيوده دون ضربه، ثم من قَرَط خُبثه أمر أن يُرَدَّ إلى بيته راكباً؛ كي لا يقال: مات من شدة الضرب، أو إرهاب المشي. فلما ذهبوا به إلى داره، مات من ليلته.

(١) السابق: ٢٨٨-٢٨٩.

(٢) سورة ابن الداية ٧٩، و سورة البلوى ٥٨-٥٩.

(٣) مفردها: عُقاب. هما الخشيتان اللتان تُمدَّ قدما الرجل بينهما بطريقة مولة تصيب الجِلْد؛ تمهيداً لضربه، وحلده بالسياط. (لسان العرب، مادة (ع.ق.ب) ج٤ - ص ٣٠٢٩).

و- وأخيراً، لما بلغ ابن طولون موته، أنفذ الشهود والعدول، حتى شاهدوا شقيراً عريان، وتأكدوا أنه مات من غير ضرب ولا سبب، غير فناء أجله^(١).

٢- طبيعة نفسية كل من: ابن المدبر، وابن طولون في علاقتهما معاً:

نحج ابن طولون في سحب غلمان ابن المدبر، فأفقدته هيئته ومكانته، ثم تمكن من عزله، وولّى مكانه محمد بن هلال. وقد ضَيَّقَ عليه ابن طولون الخناق، حتى خاف على نفسه، فتقرب من أحمد وتلطف معه، فقد كان فيه (دهاء عظيم، ورياء كبير). لقد وجد أنه لا مفر له من ذلك رغم عدائه وكرهه الشديد له، حتى إنه لما طلب إلى أخيه إبراهيم التوسط له للخروج إلى الشام، اضطر أن يَهَبَ لابن طولون ضياعاً له في مصر، وأن يزوج ابنته من همارويه بن أحمد بن طولون^(٢)؛ حتى يخرج من مصر، ويأمن على نفسه في الشام. والحق أن ابن طولون فعل ما فعل؛ ليخلو له دَسْتُ الحكم في مصر دون منافس، وابن مدبر كاتب الخلافة ضد ابن طولون، ليس حرصاً عليها، وإنما محاولة منه؛ للتخلص من حاكم قوى كابن طولون. فكلاهما يعمل لنفسه فقط.

سابعاً - مدى حضور شخصيتهما وتفاعلهما مع الأحداث:

هذه قضية منهجية كبيرة الأهمية؛ لأنها تكشف عن أمور عدة: مدى تفاعل المؤرخ مع الأحداث التاريخية التي يسجلها، وهي مَحَكَّ أساسي دال على عقليته وثقافته، ووجهة نظره في الحياة والأشخاص، وهي تكشف من بين ثنايا السطور مدى إدراكه ومعرفته بالهدف من كتابة التاريخ، وتبين من خلال تعليقاته للأحداث، وتعليقاته على نتائجها مدى حياده وتنزّحه عن الهوى، أو تحيزه وتعصبه لشخصيات معينة. ومن هنا، فإنه يمكن دراستها في النقاط الآتية:

أولاً - التعليق:

لم يكتفِ ابن الداية والبلوى بسرد الأحداث التاريخية، ونقلها عن مواردها، وإنما كانا يحاولان تعليق بعض الأحداث.

(١) ولا شك أنه متأثر في ذلك بطريقة الأتراك في عاصمة الخلافة، إذ كانوا يقضون على خصومهم من الخلفاء أو الوزراء والفراد حتى يهلكوهم، بحيث لا يُرى أثر ظاهر لعملية الاغتيال تلك، ثم يحضرون الشهود والقاضي؛ ليقرّوا أن الوفاة طبيعية. وهذا يشبه ما يقع في العصر الحديث من وسائل تعذيب بشعة للخصوم والسجون، بحيث لا تترك أثراً يذكر على جسد الضحية، رغم أنها تسبب له شديد الأيلام، وقد تأتى عنى نفسه. فإذا وَقَعَ الكشف الطبي، لا تُرى آثار شبيهة بجناية، فيُعتَدّ بالدليل المرنى أن الضحية مات حتف أنفه! والشئ الغريب المفروض - مهما كانت حناية شقير - أن يُبنى البلوى على طريقة ابن طولون في الإجهاز عليه قائلاً: "فكان علم أحمد بن طولون بأن ما عمله يبلغ به ما يجب من أمره من غير مكروه، ولا ضرب وغيره حسناً". (سيرة البلوى: ٥٩).

١- ابن الداية:

تراوحت تعليقاته وتنوعت وتعددت صورها: فهناك التعليل السريع الخاطف، مثل: تعليله معاقبة ابن طولون للحسن بن شعرة (مضحك المتوكل)، الذي كان أحد مسامرى ابن المدير في مصر، بالجلد خمسمائة سوط حتى الموت، بأنه لم يكن لسقوط المُرْكَن^(١) من أعلى داره على كِفْل^(٢) دابة ابن طولون في موكبهِ، وإنما كان لما في قلب ابن طولون عليه^(٣). ويعني: غيظ وغضب وكراهية ابن طولون له؛ لأنه بلغه عنه سخريته واستهزاؤه بابن طولون في بعض المجالس الخاصة لابن المدير، وقد حذره ابن طولون، فلم يستجب لتحذيره، و لم يكف عن فعلته تلك^(٤).

وكذلك علّل عدم قدرة ابن المدير أن يكافئ ابن هلال على سوء بلائه عنده، رغم إرادته ذلك، بأنه لم يمكنه مع انحراف ابن طولون عنه^(٥). أى: لم يستطع ابن المدير رد إساءة محمد بن هلال، الذي كان ابن طولون ولأه الخراج بعد عزل ابن المدير عنه، وذلك بعد أن أعاد المعتمدُ ابنَ المدير إلى منصبه ثانية؛ لحماية ابن طولون له؛ إذ كان يكره ابن المدير.

وهناك تعليقات متوسطة في طولها. من نماذجها:

ما ذكره ابن الداية من أسباب نجاح أحمد بن طولون في دخول أنطاكية، وإلحاق الهزيمة بـ (سيما الطويل)، الذي تحصن بها رغم حصاتها، وأنها لم تُفتح - قط - عتوة. هذه الأسباب هي:

أ- كراهية الأهالي له؛ لإساءته إلى الرعية، ومصادرة أموالهم.

ب- حصار ابن طولون الطويل مع ضربها بالنفط والمنجنيق أجهد أهلها؛ مما دفع الناس إلى إرشاد ابن طولون إلى المكان، الذي يمكنه عن طريقه الدخول من سور المدينة.

ج- انتهاز جند ابن طولون الثغرة المشار إليها، فأسرعوا بدخول المدينة، ومهاجمة حصنها، ونصب رايات ابن طولون فوق الحصن؛ مما أضعف الروح المعنوية لجند سيما، إضافة إلى هجوم الناس عليه من ورائه فانهزم، وسيطر ابن طولون على المدينة، وقُتل سيما الطويل بعد ذلك^(٦).

(١) عنى وزن (مِسر). والجمع: مَرَاكِن. وهو إزاء غسل الثياب وغوها (اللسان، مادة: رك.ن) حـ ١٧٢٢/٣، والمعجم الوسيط ٣٨٤/١.

(٢) هو كساء الدابة. (مادة: ك.ف.ل) في (لسان العرب) حـ ٣٩٠٦.

(٣) سيرة ابن الداية: ٧٨.

(٤) المصدر السابق ٧٨.

(٥) السابق: ٧٩.

(٦) سيرة ابن البنى: ١١٦ - ١١٧.

وأخيراً، نعرض نموذجاً لتعليل مطول أورده ابن الداية، يتعلق بخروج العباس بن أحمد بن طولون على أبيه^(١). قال ابن الداية: وكان السبب في خلاف العباس على أبيه:

أ- بعض قواد أبيه، الذين كانوا يرهبون ابن طولون ولا يحترمونه، وينتظرون الفرصة للخلاص منه؛ لاستبداده وبطشه، فزينوا للعباس عصيان والده، وحَسَّنُوا له التغلب على مصر، والفتك بالواسطي، الذي كان ابن طولون تركه معه؛ ليكون مشيراً عليه بما يصلح، أثناء خروج ابن طولون إلى الشام.

ب- اشتعال الخلاف بين الواسطي والعباس: فقد حرَّض قادة السوء العباس على الواسطي، وأغروه بالإساءة إليه، ومنعه من القيام بمهامه في الدولة في غياب ابن طولون. وينضاف إلى ما تقدم تدخل هؤلاء القادة المقرين إلى العباس فيما لا يعينهم، وتقريب العباس بطانته ممن كانوا على علم بالنحو، والشعر، وما جرى مجراه (مثل: جعفر بن حدار^(٢)). وأحمد ابن المؤمل)، وهم لا علم لهم بالسياسة والحرب ولا بتدبير الأمور. فلما منعه الواسطي من جعلهم في غير مكائهم، وقع الصدام بينهما. وعندئذ كتب الواسطي كتاباً إلى ابن طولون يعلمه جلية الأمر، ورد عليه ابن طولون حانقاً على ولده، أمراً الواسطي بمداراته حتى يرجع إلى مصر. وكان الكاتب محبوب بن رجاء معادياً للواسطي، فكان يرسل إلى العباس الكتب المتبادلة بين الواسطي وأبيه.

هنا ازدادت حدة وغضب وإهانات العباس للواسطي، فاعتزل في بيته، فهاجم العباس منزله، واستولى على أجوبة كتب أبيه، فخشى غيظه وحنقه الشديد، فخرج ومن معه، وأخذ الواسطي أسيراً إلى برقة.

ويواصل ابن الداية تعليلاته لجوانب هذا الحدث التاريخي الجلل، فيذكر أن العباس رفض الاستجابة لوفد أبيه، ولم يقبل العودة لأمرين:

أ- أن أصحابه - خاصة جعفر بن حدار^(٣) - حَذَرُوهُ غدر أبيه، وأكدوا له أنه لن يرحمه، ولن يرحمهم إذا وقفوا بين يديه.

(١) السابق: ١١٨ - ١٢٠.

(٢) هو الكاتب الشاعر المصري أبو القاسم، جعفر بن محمد بن أحمد بن حدار. كثير الشعر، حسن البلاغة، له ديوان شعر، ومكاتبات كثيرة حسنة. كان ممن خرج مع العباس على أبيه، وحرَّضه على التمادى في العصيان. فُبِضَ عليه واقتيد إلى مصر أسيراً، فضُرب ٣٠٠ سوط، ثم قطع العباس يديه ورجليه من خلاف بأمر أبيه. توفي في ذي القعدة ٢٦٨هـ. (سيرة ابن الداية ١١٨ - ١٢٠ (واسم جده: حدار)، وسيرة البلوي ٢٦٩، (حدار)، والولادة - ط. جست - ص ٢٢١ (حدار)، ومعجم الأدباء ١٨٢/٧ - ١٨٦ (حدار)، والمغرب (قسم مصر) - ٢٥١ (حدار)، والمقفي ٥٩/٣ - ٦٠ (حدار).

(٣) ورد باسم (أحمد بن حدار) في (سيرة ابن الداية) ص ١٢٠، وهو غير صحيح.

ب- أن العباس سأل القاضي بَكَار بن قتيبة - وكان ضمن وفد أبيه إليه -: بالله، هل يأمن عليه ؟ فقال بكار بكل صدق: حلف لي أبوك ألا يسوءك. فأما أن يفنى لك بما حلف أو لا يفنى، فذلك ما ليس في علمي، إنما علمه الله. وهكذا، كان الشك يحيط بموقف ابن طولون تجاه ابنه نفسه، فما بالنا بالذين حرصوه عليه! وكانت النتيجة زيادة وجل وقشعريرة العباس، ومما دبه في غيّه.

٢- البلوى:

تتضح شخصية البلوى في تعليقاته أكثر من ابن الداية. وقد سلك مناهج شتى في إيراد تعليقاته كما يلي:

أ- تعليل خاطف سريع:

قال في سبب معاداة الموفق لابن طولون، وإرساله الكتب إلى قواده يغريهم به، ويستميل قلوبهم إليه: "لما كان في نفسه عليه من قوة موالاته للمعتمد، وصحة طاعته له"^(١).

قال في سبب امتناع أكثر من واحد من أتباع ابن طولون من تولي الثغور بالشام: أبي موسى ابن طولون ولاية الثغور لأخيه (وكان مقيماً بطرسوس)؛ لأنه كان في نفسه غضب وغيظ على ابن طولون، وكانت بينهما جفوة موحشة؛ لرفض ابن طولون توليته الإسكندرية كما كان يرجو، ولضربه إياه لما بسط لسانه فيه؛ مما جعله يخرج إلى طرسوس مغضباً^(٢). وامتنع إبراهيم بن عبد الوهاب عن ذلك المنصب تصاوفاً^(٣) (أى: ورعاً، وصيانة لنفسه عن تولي المناصب).

ب- التعليل القدرى:

كان البلوى - أحياناً - يخلط العلل المادية المنطقية بالتعليل القدرى، كما فعل في تعليله امتناع (سيما الطويل) من الاستجابة لنداءات ابن طولون المتكررة له بالدعاء للخليفة ثم لابن طولون؛ حتى يرفع عنه الحصار، ويرحل في مقابل ذلك عنه. علل ذلك باطمئنان سيما إلى حصانة أنطاكية، وعدم الثقة بكلام وعود ابن طولون. هذا هو الجانب المنطقي المادى من التعليل. ثم التفت البلوى إلى علة قدرية، قد لا يلتفت البعض إليها رغم بدايتها، فقال: " فامتنع سيما من ذلك، ولَجَّ فيه؛ لأسباب المنيّة"^(٤). أى: لأن منيته تتناوب، فقد اقتربت ساعته، وحن أجله في ذلك الحصار، فكان لا بد أن يرفض كل عروض ابن طولون؛ ليتم فيه قضاء الله.

(١) سيرة البلوى ٨١.

(٢) السابق: ٩١.

(٣) معلوم أنه أنفذ - بعد ذلك - طحشى بن بلبرده، ووصاه بحسن العشرة لأهل الثغور، وجميل السيرة فيهم، واحتمال هفواقم، فحسنت سيرته بطرسوس حتى مات هناك، فحزن عليه سكان سائر الثغور. (المصدر السابق: ٩١).

(٤) سيرة البلوى: ٩٤.

وأحياناً لا يذكر البلوى إلا التعليل القدرى للحدث، يسوقه على ألسن الناس، ويقوم هو بالتصديق عليه، مدفوعاً إليه بشدة إعجابه بشخصية ابن طولون. مثاله: ما قام به ابن طولون من إرسال الجيوش؛ لضبط أطراف بلاد الشام قبل منصرفه من الثغور إلى مصر بعد بسط النفوذ عليها. من هذه الجيوش جيش أرسله بقيادة (أحمد بن جيفويه) إلى (حرّان)، فطرد منها (محمد ابن أتامش)، وهزمه شر هزيمة، ثم اصطدم بأخيه (موسى)، وكان فارساً مهيباً، خافه ابن جيفويه. ولم ينقذ الموقف إلا حيلة، احتالها أعرابي على موسى، واستدرجه إلى كمين له، حتى وقع في الأسر. هنا يقول البلوى: فتعجب الناس من ذلك، وتحيروا، وقالوا: ليس هذا بتدبير الأعرابي، ولا بشجاعة ابن جيفويه، ولكنه بإقبال ابن طولون (حظه السعيد)، تيسر أخذ موسى هذا. فيصدق البلوى على ذلك ويؤيده؛ بأن إقبال ابن طولون أدى إلى ذلك النصر اليسير لجيوشه؛ إذ لم يُقدّر لواحد من غلمان موسى أن يسلك الطريق الذى سلكه في تلك الليلة المظلمة، وكل ذلك "ليتم القضاء المُقدّر لأحمد بن طولون"^(١).

ج- تعليقات دقيقة جديدة:

١- دُلّ البلوى على عمق نظراته في الحوادث التاريخية، من خلال دقة تعليقاته وبراعتها. ومثال ذلك^(٢): الرواية التي تذكر تجسس ابن طولون على رجل من الأتراك يعيش في مصر، وليست لديه معلومات عنه. فلما تمت مراقبته عن طريق عيون ابن طولون وهو في قعر داره، رفع أصحاب الأخبار إلى الأمير تقريراً بما رأوه منه. فالرجل كان يشرب التَّبِيدَ حتى يَسْكُرَ، ويَهْذَى، ويقول في هذيانه - وهو يُمسك بسيفه - عن ابن طولون: لأقتلن هذا العاصي المتحكّم فينا، ويلعنه، فتجئ جاريته فتنهاه عن ذلك القول، وتأخذ منه السيف وتظل تسقيه حتى ينام. فلما وقف الرجل بين يدي الأمير ووبّخه على ما كان منه في داره، دُهِش الرجل، ورفع رأسه إلى السماء متعجباً من فعل الله لابن طولون (ملكهم رقايم وأرزاقهم والدنيا كلها فلم ييال الناس، حتى صار صاحب خبر عليهم، فرفع إلى ابن طولون ما تخرجه حماقة النبيذ إذا شربه الناس. كل هذا يتقرب من قلبه ١). فأغرق ابن طولون في الضحك على وقاره، ولم يعاقبه. ثم أرسل إليه ٥٠٠ دينار، وأخرجه إلى (طرسوس)، وكتب بأرزاقه هناك، وأرسل إلى الجارية مبلغاً مماثلاً. ثم يأتى - هنا - دور البلوى لتعليل تصرف ابن طولون، فيقول: أخرج الرجل؛ لأنه لا يتحمل وجوده معه في بلد واحد بعدما صدر منه. وعلل عدم معاقبته؛ لجميل فعل جاريته (إسكانها إياه، ورفقها وتلطّفها معه؛ ليصلح من خطابه، ويقلع عن اللعن)، ورميه بظرفه إلى

(١) المصدر السابق: ١٠٣-١٠٦.

(٢) السابق: ١٢٠-١٢٢.

السماء (أى: توجّهه إلى الله بالشكوى لما واجهه الأمير بما قال في داره).

٢- أتى البلوى بتفسيرات جديدة لم يذكرها غيره، تتعلق بخروج العباس على أبيه، منها: أنه فسّر خروجه هذا بجمعة ونقص عقله؛ مما دفعه إلى العصيان والتمرد^(١). وعلل تقلب أبيه له على سائر إخوته في النيابة عنه بمصر لما خرج إلى الشام، رغم علمه عنه الحق، بأن هذا نتيجة كبر سن العباس على بقية أخوته، ولأنه كان أحظاهم عنده، وللهوى فيه من هوى الأبوة^(٢) (أى: لا تعليل له). وكذلك علّل تحرّز بكّار عن تأكيد وفاء ابن طولون لابنه العباس إن عاد إليه طائعاً، بأنه فعل ذلك؛ لدينه وورعه وزهده^(٣). وكذلك ذكر أسباباً جديدة لخروج العباس إلى إفريقية٤: ثقتّه بأن ما معه من أموال وعتاد يوصله إليها، وتحسين أصحابه ذلك له، وإطعامهم إياه في السيطرة على إفريقية؛ عن طريق هوين وتصغير شأن إبراهيم بن أحمد بن الأغلب (٢٦١-٢٨٩هـ) صاحب إفريقية. وهم - في الحقيقة - يعدونه عن أبيه. كما أن العباس بدا له أن قبائل البربر تؤيده وتناصره، إذ إنه كاتب وجوه البربر، فأسّرت إليه جماعة منهم أعظاهم بعض المال. ورغم تخلف أكابر القبائل - لترات بينهم وبين قوم يخشونهم إذا خرجوا إليه - فقد كان مطمئناً إلى كفاية من قدم إليه؛ لكي يتقدّم إلى إفريقية.

وكذلك علّل الكتابة الشديدة والغم الظاهر الذي علا وجه ابن طولون، لمّا أشيع خبر مقتل ابنه بعد هزيمته البشعة في إفريقية على يد قوات (إبراهيم بن أحمد بن الأغلب)، وقبيلة نفوسة الإباضية٥ (بقيادة إلياس بن منصور الزناتى رئيسهم)، بأن ذلك لو كان وقع، لوضع ابن طولون بين شرّين:

أ- فقد ابنه، وذهاب جميع ما كان معه من مال طائل.

ب- ضرورة أخذه النار. وهو إن تغافل ضاعت هيئته، وإن نهض للانتقام، احتاج إلى أموال عظيمة، لم تكن في حسابه، ولم يُدبّر أمرها^(٦).

٣- وأخيراً، انفرد البلوى - فيما أرى - بتعليل ظاهرة شاعت في تلك العصور (ظاهرة

(١) سيرة البلوى: ٢٤٤.

(٢) قال البلوى في ذلك: "ومن الناس من يعنى عن حفظ نفسه وعيب ولده؛ فوادى فيه، وإن كان أبوه حازماً لا يُنعن عليه، لكنه كما قال الشاعر: ويسى في الإحسان ظناً لا كمن هو بابه وشعره مفنون

(سيرة البلوى: ص ٢٤٤).

(٣) السابق: ٢٥٣.

(٤) السابق: ٢٥٢.

(٥) من فرق الخوارج العشرين. إمامهم عبد الله بن إباض بإجماع. اعترفت الإباضية فرقاً، بجمعها القول بأن كفار هذه الأمة - يعرفون بذلك مخالفتهم من هذه الأمة - نراء من الشرك والإيمان، فليسوا مؤمنين ولا مشركين، لكنهم كفار. وأحازوا شهادتهم، وحرّموا دماءهم سرّاً، واستحلّوها علانية. (الفرق بين الفرق للعداى ص ١٢٠).

(٦) سيرة البلوى: ص ٢٥٥-٢٥٦.

قطع رءوس القتلى وحملها إلى من يهمله الأمر). فقد أمر ابن طولون بالأسرى إلى الحبس (أى: الذين أسرتهم جيوشه ممن كانوا مع ابنه العباس)، وبالرءوس (أى: رءوس القتلى) أن تُنصَّب على القسي^(١)؛ ليراهم من لم يرها، ويُشاهدوها ويُشاهد منها كل معروف، فيتعرف عليهم أهلهم ممن خفى عليهم أمرهم^(٢).

ثانياً - التعليق:

وهذا من عناصر المنهج المهمة، التي تبين موافقة المؤرخ للحدث أو رفضه إياه، سواء كان ذلك بطريقة مباشرة منه، أم ضمنية، أم ساقه بطريقة غير مباشرة على لسان غيره. كما أنه يطلق على شرح المؤرخ للحدث، وبيان خلفياته ومضامينه، أو الربط بينه وبين غيره. وكلما كثرت التعليقات الصحيحة الصادقة الجديدة، كان ذلك دليلاً على الإبداع والابتكار. ويرتبط بهذا عنصر الحياد وعرض الحقائق مجردة، أو الانحياز والتأثر بالهوى.

١- ابن الداية:

اعتمد على انتقاء روايات استحسناها من موارده. وهذا إقرار منه برضاه وموافقة على ما ورد فيها. وتأخذ التعليقات لديه صوراً شتى:

أ- تعليق ورد على لسان غيره:

ومثاله: ما ساقه على لسان مجهول تعليقاً على شدة تخدير ابن طولون طبيبهِ سعيد بن توفيل من الإهمال بشأنه، قال: " فقال بعض الغلمان: ما سمعتُ حثاً لمتطب على مبالغة في سعى أحسن من هذا "^(٣). وأحياناً يرد التعليق على لسان راوى الحدث (أبى جعفر بن عبد كان)؛ إعجاباً بصياغة أفكار ابن طولون إلى عامله على الثغور بشأن تكليفات موجهة إليه خلال فترة هدنته مع الروم. قال ابن عبد كان: " فلم يحضرنى في الكتاب أحسن من معاني ألفاظه، فلم أتجاوزها "^(٤).

ب- تعليق يسير خاطف لابن الداية:

علّق ابن الداية على استخفاف ابن طولون بالمعتقدات الخاطئة الخاصة بصنم عين شمس، الذي كانت الأساطير تزعم أنه ما اقترب منه وال إلا غُزل. فقال الأمير للقائم على شئون الصنم بعد أن أمر باجتنائه: من صرف منا صاحبه ؟ قال: أنت أيها الأمير. فعلق ابن الداية قائلاً: " وعاش أحمد

(١) جمع (قوس). وتُجمع على جمع كثيرة، منها: أفولس، وقُسي. وهى آلة على هيئة هلال تُرمى بها السهام. وهى لفظة معروفة عجمية وعربية، تذكر وتُوثق. ويقال: رموا أعدائهم عن قوس واحدة. أى: كانوا متفقين. (اللسان، مادة: ق. و. س.) جـ ٣٧٧٣، والمعجم الوسيط ٧٩٦/٢.

(٥) السابق: ٩٨.

(٤) سيرة ابن الداية ٩٤.

(٢) سيرة البلوى ٣٦٨.

ابن طولون بعدها اثنتي عشرة سنة أميراً^(١). أى: إلى سنة ٢٧٠هـ، حين توفي أميراً (ولم يُعزل).

وفي رواية أخرى: بعد أن ساق ابن الداية نص ما وجد في رقعة مكتوب فيها تاريخ دخول ابن طولون مصر، وعمره يوم دخلها، علّق قائلاً: "قال أحمد بن يوسف: فَصَحَّ عندي أنه عاش خمسين سنة"^(٢). وهو تعليق صحيح؛ فقد ولد سنة ٢٢٠هـ.

ابن الداية بين الحياد والتحيز:

بادئ بدء نقرر أن ابن الداية حكم على نفسه بالتحيز لأحمد بن طولون بدليلين قررها كما يلي:

الأول - ما يؤمن به من فكر نظرى سجله في (العهود اليونانية)، إذ يقول في المقدمة ما نصه^(٣): "واعلم أن أفضل المدح ما ساق إلى المدح فضيلة، ولم يُلْحَقْ بغيره رذيلة. لكنى أرى أن الأولى بمن صَحَّتْ فطرته، وكُرِّمَ طبعه الإمساك عن معائب الأعلام في كل حَوَزة، ونشر فضائلهم؛ ليقبَلَتْ بها مَنْ أتى بعدهم، واغتفار ما عَثَرَ به من زللهم؛ لصِغَرِهِ في جنب ما تأدَّى إلينا من فضلهم، وأقداناه منهم". وهذه العبارة حَمَالَة بكثير من وجوه النقد، منها:

أ- أنه لم يكن موقفاً، عندما جعل المدح داخلاً في سياق الحديث عن السياسة والسياسيين، وشئون الحكم، وإدارة الدول، وتاريخ المؤرخين لكل ذلك. فالمدح ليس من شيم المؤرخين النصفين (حتى إذا كانت الشخصية المترجم لها ذات مآثر عظيمة؛ فأدأوها لواجبها منوط بها، وإمهاها يُعَاب عليها). إنما المدح من شأن الشعراء المتزلفين المتملقين؛ لقاء حفنة دراهم أو دنائير^(٤). وإن كنا نوافقه على إعطاء كل ذى حق حقه، وألا نخلط بين الأمور في الحكم على الأشخاص والأحداث، فلا نال من شخص بباطل؛ ليكسب الآخر مديحاً أو ثناء، أو نقرر له - بالأحرى - مآثره دون وجه حق.

ب- يرى ابن الداية أن الأولى والأفضل عند تناول الأعلام المبرزين في كل اتجاه، أن ننشر فضائلهم، ونركز على إبراز محاسنهم. والهدف الاقتداء بهم ممن يأتي بعدهم، وعلى هذا تَعَصَّى الطَّرْفُ عن ذكر مآخذهم وسلباتهم؛ لأنّها قليلة إذا قيسَت بما أدّوه لنا من خدمات جليلة. ثم يحكم ابن الداية على من يقوم بذلك بأنه (صحيح الفطرة، كريم الطبع). ونحن نرى أن الصواب خلاف ما يقول؛ لأن مقتضى كلامه يدخلنا في إطار التحيز البغيض، فنخفى عيوباً، سوف

(١) السابق: ١٠٣.

(٢) سيرة ابن الداية: ١٣١.

(٣) الفلسفة السياسية عند العرب: ٤٥-٤٦.

(٤) دَعَلَ من مبالغت روايات الأدب والأخبار، التي تزعم أن شاعراً ما نال مقابل بيت من شعر - مثلاً - عشرة آلاف درهم. إما - في رأيي - أخبار موطيل.

تكشف إن عاجلاً أو آجلاً، ونزيف الحقائق، أو على الأقل نعرض صورة مبتورة خيّرة صرفاً، وهو ما يناقض طبيعة البشر، التي يعرفها الناس جيداً. فالشخصيات والأحداث تُعرض - بعد التحقق من صدقها - دون رتوش، ولا تُجمل كاذب.

الثاني - سيطرت الأفكار النظرية الخاطئة السابقة على ذهن ابن الداية، فانطلق من الفكر النظري إلى الواقع التطبيقي، حين طَبَّقَ ذلك في كتابه (سيرة ابن طولون)، عندما انتقى ما استحسّن من أخباره، وسَمَّاهُ (المستحسن من أخبار أحمد بن طولون). وهذا يعني أنه يدرأ ما يُستقبح ويُستهجن منها، فهو - إذن - يعرض للجانب الحسن فقط، وهو ما يتعارض مع التأريخ الملتزم بالحياد المنصف.

وإذا انتقلنا إلى كتاب ابن الداية في السيرة، وجدنا نماذج عديدة، تدل على تحيزه لابن طولون، منها: ما ورد عن ابن طولون أنه كان رقيباً على نفسه في أكثر ما يجري على يديه من الأشياء، يتصدق في أثرها، ويتضرع إلى ربه في تمحيص ما ثبت عليه فيها، ويتأوّل فيما يأتيه بما تُريه الحجة في أكثر سطواته^(١). وهذا يعني أن إساءات ابن طولون إلى الناس كثيرة، وأنه يتصدق نحو تلك الإساءات والمظالم، ويُؤوّل تصرفاته، ويبحث فيها عن حجج وبراهين، تطمئنه إلى سلامة منطقها. كان الواجب على ابن الداية أن يعلق ولا يسكت^(٢)؛ فالإساءة تتطلب رفع الظلم عن أساء إليه، وصفح المظلوم عنه. والتصرف الصحيح لا يحتاج إلى تأويل، ولو كان - حقاً - رقيباً على نفسه يتقى الله، ما كانت سطواته تلك.

ومن دلائل تحيزه:

إغفاله ذكر كتاب الموفق، الذي أرسله إلى ابن طولون بخصوص الخراج، واكتفى بذكر عامة ما فيه من تهديد وتعنيف ابن طولون، ومطالبته بالخراج الحقيقي لمصر^(٣). وكان يمكن الإتيان بنص كتاب الموفق وبيان حججه تفصيلاً، فلعله كان صادقاً في طلب العون لمحاربة الزنج، لكنه أخطأ الطريقة والأسلوب. ويغلب على الظن أن كتاب الموفق كان محفوظاً بالدديوان، فكان الحياء يقتضي أن يأتي بنص الكتابين معاً، بدل أن يكتفى بنص كتاب ابن طولون فقط ٤. ولا يُتعلل - هنا - بالاختصار؛ لأننا سنسأل: لم كان الاختصار في حق الموفق فقط دون ابن طولون؟!

(١) سيرة ابن الداية: ص ٨٥.

(٢) ورد في سيرة البلوي ص ٧٤ الموقف التحيز السابق نفسه، ولم يعلن هو الآخر.

(٤) السابق: ٨٩ - ٩١.

(٣) السابق: ٨٩.

وأخيراً، فقد خالف ابن الداية طبيعته العقلانية المعروفة عنه، لما ذكر رواية تتنبأ بأوصاف ابن طولون ومدة دولته^(١)، وكذلك ما أورده مما لا يُعَوَّل عليه، مما رآه أحدهم في منامه، عندما شاهد ابن طولون بعد وفاته، وهو في حال حسنة؛ لإنصافه المظلوم^(٢). فكانه يريد أن يشعرنا بحسن خاتمة الرجل، ويحكم له بالخيرية المطلقة، وأن مثواه الجنة. وهذا مما لا يعلمه بشر، ولا يُستدل بالمنامات عليه؛ فقد تكون من قبيل الخيالات والشطحات، أو وانعكاسات لأمنيات مُلحّة.

٢- البلوى:

اهتم بالتعليق على الأحداث التاريخية اهتماماً كبيراً، وتوسع في ذلك بحكم ميله إلى التفصيل في ذكر المعلومات. وقد اتخذت تعليقاته صوراً متعددة، منها:

أ- تعليق سريع:

ذكره البلوى خلال حديثه عن أهل نغر طرسوس، الذين ضاقوا بجيش ابن طولون في الطرقات، فعلق على طبيعتهم قائلاً: " وفيهم غلظة أهل النغر "^(٣)، ثم حَيَّرُوا ابن طولون بين المقام بينهم في عدّة سيرة، أو الرحيل بجيوشه الحرارة. وكذلك علق البلوى على إيقاع أحد القبط براهب قبطي؛ لشئ كان يحقده عليه، فأراد التشفى منه، فوشى به عند أحد قواد ابن طولون، فقال: " والقبط لا يحسنون أكثر من سعاية بعضهم ببعض "^(٤).

ب- تعليق مختصر دقيق وجيز:

مثل قوله: " فكان تسرع الغطريف تسرعاً باسل (شجاع)، لزمه فرض وطمع في الظفر وعَجَل. ولو تثبت وكان في أجله تأخير لم يقتل "^(٥). أى: وصف هذا القائد الطولوني، الذي أرسله الأمير على رأس جيش لردع ثورة أهل برقة، فتسرّع في قتالهم دون حيلة أو أهبة لازمة، فعرض نفسه للقتل. فشجاعته وإقدامه لما لم يجتمع لها فيها الحذر الواجب، والأجل الممتد، أفضى به ذلك إلى القتل.

ج- تعليقات قدرية مطولة، وأحياناً يمزج بينها وبين التعليقات المنطقية: ومن أمثلة ذلك:

أثبت البلوى تغلغله في صميم الحدث التاريخي، ونفاذه إلى حقيقة البد الإلهية، التي تقف

(١) سيرة ابن الداية: ص ٧٦-٧٧.

(٢) السابق: ١٣٢.

(٣) سيرة البلوى ٩٧.

(٤) السابق: ٢٠٦.

(٥) السابق: ٧٠-٧١.

وراء الأحداث وتحركها؛ لتصل إلى قدرها المحتوم. لقد علق على محاولات ابن طولون المستميتة لرد غلامه لؤلؤ عن غيِّه قائلاً: "وظن أحمد بن طولون أن المخادعة تمكنه من لؤلؤ، والملاطفة تنبيهه، ولم يعلم أن سبب زوال ملكه يكون على يدى محمد بن سليمان؛ لما حققه عليه من أفعاله به، وحققه منه"^(١). وكأنه يريد القول بأن ابن طولون لو كان يعلم مستقبل الأحداث، ما عتّى نفسه في محاولاته، فكاتب لؤلؤ (محمد بن سليمان)، الذى طالما نال منه وانتقم؛ بسبب سيده، هو الذى سيكتب نهاية دولة بنى طولون بيده.

وقد جمع البلوى بين الجانبين (القدرى، والمنطقى) في تعليقه على إيقاع ابن طولون بطيبة (سعيد بن توفيل)، فقال: "قال مؤلف هذا الكتاب: وكان أحمد بن طولون يُحذّر سعيداً قديماً من قتله له، وكان قد وقع له؛ لتتم المشيئة في سعيد أيضاً، أنه قد أغفل علاجه في بدء العلة، حتى ترايدت عليه وعظم أمرها. لم يكن الأمر كما ظنه أحمد بن طولون به، ولا كان الخطأ إلا منه على نفسه، والذنب له دون غيره"^(٢). هنا جمع بين مشيئة الله فيهما معاً، وبين خطأ الطبيب أولاً، وعدم اتباع ابن طولون نصيحة الطبيب (لما أكل السمك دون علمه)، فكان ما كان (قتل ابن طولون سعيداً، ثم مات ابن طولون من مرضه).

البلوى بين الحياء والتحيز:

أعتقد أن البلوى أقل تحيزاً من ابن الداية، إذ لم يتبعه في منهجه الذى احتطه لنفسه من الاكتفاء بذكر محاسن ابن طولون. ومن هنا ألفينا البلوى منصفاً محايداً في عدد غير قليل من الروايات، رغم أنه كان شديد اللهجة، قاسى العبارات، لكنه كان مُحَقِّقاً في تعليقه النقدي اللاذع. ومن أمثلة ذلك: هجومه الشديد على العباس ومن معه عندما خرجوا على ابن طولون دون وجه حق، فوصم هؤلاء بضعف السياسة والتدبير، وشَدَدَ التَّكْبَر على العباس خاصة، فاقمهم بعمى القلب، وعمى قلب من أشار عليه، واستنكر على العباس خروجه قائلاً: أليس البلد في يده، وأمره نافذ فيه، وفيما يريد من مال وغيره، متمكن منه، مبذول له ١٩! لكن نعوذ بالله من الخذلان^(٣). وكذلك وصف لؤلؤاً بأحط الأوصاف لما انقلب عليه الموفق، فوصفه بالأصل الدق، والفعل الردي^(٤).

لا يمنع ما تقدم وجود بعض أمثلة بدا فيها تحيز البلوى لابن طولون ومبالغاته بشأنه؛ لفرط إعجابه به. ومن ذلك قوله: إن خروج موسى بن بغا بأمر الموفق ضد ابن طولون أهم الأحرار

(١) سيرة البلوى: ٢٧٧.

(٢) السابق: ٣٢٩.

(٣) سيرة البلوى: ص ٢٤٦-٢٤٧.

(٤) السابق: ٣٠٨-٣٠٩.

وأقلقه، لا لأنه يقصر عن موسى، لكن لتحمله هتك الدولة، وأن يأتي ما يكون سبيله فيه سبيل من قاوم السلطان، وكسر جيشه^(١)، فهو يقصد - في تحيز واضح لابن طولون - أن الأمير لا يريد إحراج جيوش الخلافة، أو إلحاق الهزيمة بها. لقد كان موسى - كما قال البلوى - عِوَل الدولة، وأشد أهلها بأساً وإقداماً^(٢). فجيوشه - إذن - ليست لقمة سائغة لابن طولون، وهو إن كان لم يتقدم لملاقاته، فذلك يرجع؛ لعدم صرف الخلافة الأموال اللازمة لجيوشه^(٣). وعلى كل، فمصر بها ثغرات وعورات يمكن لابن بُغا النفاذ منها. وإذا كان ابن طولون حَصَن جزيرة الروضة، فاعتقد أن ذلك لم يكن خوفاً على الرعية، وإنما كان لحفظ حُرْمه الكثيرات وذخائره، فاتخذ أمام الحصن القائم بين الفسطاط والجزيرة السفن والأساطيل^(٤). ثم إنى أعتقد أنه لم يخش على جيوش الخلافة، وإنما الحقيقة أنه كان حريصاً على التظاهر بأنه في خدمة الخليفة وناصر له، فكيف يحارب جيوشه؟! إنه سيفقد الحجة التي يتكى عليها في معاداة الموفق، وسيفقد شرعيته. ومن هنا كان ابن طولون في موقف حرج.

ومن عجب أن البلوى دافع عن بطش ابن طولون، فبعد أن عَدَد نماذج عقوبات أنزلها ابن طولون بأناس، تناولوا بالاستنهم عليه، فعاقبهم بالحبس والضرب حتى الموت^(٥)، علّق البلوى قائلاً: "كل هذه الأحوال التي عدناها، فالعذر فيها كلها يَبِين لأحمد بن طولون، والذنب لمن بسط لسانه في مثله، ويتعدى إلى غير ما هو أهله"^(٦).

ويبلغ البلوى درجة الذروة في التحيز لابن طولون، عندما يعتمد على مرويات غير موثوق بها، تقطع له بأنه في النعيم المقيم. فإذا تساءلت عن قتلهم ابن طولون، انبرى البلوى قائلاً: إن من قتلهم ابن طولون كانوا يستحقون ما حكم به عليهم؛ لأنهم أساءوا فيما بينهم وبين خالقهم، وفي حق أناس مستضعفين آخرين، قتلوهم ظلماً وعدواناً^(٧). والحق أن البلوى - هنا - يقرر ويؤصّل مبادئ خطيرة، ليست من الإسلام في شيء؛ إذ يرى ابن طولون من جنائات قتل بشعة، ارتكبتها بحجة أن قتلاه كانوا يستحقون ذلك؛ لأخطائهم في حق الله، وظلمهم العباد، بانياً ذلك على منامات، يمكن أن تكون أوهاماً.

(١) سيرة البلوى: ٨٦. (٢) السابق: ٨٥. (٣) تاريخ ابن خلدون: ٤٢٦/٣.

(٤) سيرة البلوى: ٨٦-٨٧. (٥) المصدر السابق: ١٧٨. (٦) السابق: ١٧٩.

(٧) سيرة البلوى: ٣٥٤-٣٥٥. والحق أن للبلوى رواية احتز فيها - نوعاً ما - بهذا الشأن، إذ قال: صحّت رواية محبوب ابن رجاء: أنه رأى في منامه ابن طولون، الذي قال له: "خُفْتُ على أن أكثر من أسأتُ إليه، كان مستحق ذلك من ربّه، فجعلني عقوبة له، بعثنا الله ﷻ عليه مني". (السابق: ٣٥٥). وواضح أن عباراتها احتز بها هي: (خُفْتُ، وأكثر)، لكنها - رغم ذلك - لا يُعزّل عليها في نظري.

ثامناً، وأخيراً - حقيقة التاريخ وفهم أغراضه:

هذه القضية المهمة نختم حديثنا المفصل عن (منهج ابن الداية، والبلوى) في كتابة (سيرة ابن طولون). لقد وردت عدة روايات بما غاذج عديدة، تدعو إلى العظة والاعتبار كهدف أصيل من أهداف التاريخ^(١). ذكر ابن الداية أن نسيماً الخادم (أخص رجال ابن طولون به) قال: إن مولاه عرض عليه - يوماً - جوهرًا وأعلىًا نفيسة، كانت في خزانة له، فحمد الله وأثنى عليه، وتذكر أن الله عوّضه خيرًا، فقد عرّضت عليه ولاية واسط مقابل قتل المستعين. فلما ترك ذلك لله تعالى، عوّضه الله ولاية مصر والشام^(٢).

أما البلوى، فقد عرض صورة لؤلؤ غلام ابن طولون، وقد عاد إلى مصر ذليلاً فقيرًا، احقره الناس، ولم يحسنوا إليه؛ جزاء غدره وخيائته، وثمره لعقله السخيف، وفعله القبيح^(٣). وكذلك العبارة التي قالها القاضي بكار بن قتيبة لرسول ابن طولون، عندما أرسل إليه يساومه في خلع الناكث (الموفق)، وذلك قبل وفاة ابن طولون بشهر، قال فيها: "خَفَّ الله في أمري، فإني شيخ فان، وأنت عليل مُدْتَفِّ (شديد المرض)، ولعل التقاءنا بين يدي الله تعالى قريب"^(٤). وكذلك آخر كلمات نطق بها ابن طولون قبل موته بلحظات:

"يا رب، ارحم من جهل مقدار نفسه، فأبطّره حلمك عنه"^(٥).

(١) وذلك بخلاف ما يراه الدكتور حسين مؤنس (رحمه الله) في كتابه: (الحضارة) ص ١٣١ - ١٣٢: إذ يرفض أن تكون دراسة التاريخ بهدف العبرة والعظة؛ لأن الناس لا تنعظ بالتحارب الماضية، وكذا الأمم وحكامها، ولا لاحتفت من العالم الحروب والصراعات والأطماع. كما أنه يرى أن الانعاط بأحداث الماضي - لأحد الحسن وترك القبيح - لا يبتأى في الحاضر؛ لأن الانتفاع بتحارب الماضي لا يصح إلا إذا تشاعت الحالات تمامًا، وهو أمر غير متحقق أبدًا، بالإضافة إلى أن مقياس الحسن والقبح يتغير من عصر إلى عصر. ويخلص (ص ١٣٦ - ١٣٨) إلى أن: التاريخ يُدرس منه ما يُستفاد به في الحاضر لذاته، باعتباره تجارب ناعمة، تعيننا على حل مشكلاتنا، وترداده به أفكارنا حصوية، ونصل إلى الأفضل في حياتنا. والمؤرخ يسجل الأحداث ويدرسها، ويخرج نتائج منها، يعرضها في كتبه دون أن تأخذ شكل الوعظ (فما أنفقه على القلوب!)، وبدع الخفايا تنكلم، فهو ضمير أمتة، وعقلها الباطن، الذي يصحح مسارها، وهو فاعل في مكتبته بولف، أو بين تلامذته يُحاضر، والحق أن آراء الدكتور مؤنس آراء مستبصرة متفتحة، لكنها تختمل النقاش. ونحن لا نخلف معه حول فائدة التاريخ ودور المؤرخ وأهميته. لكننا نحفظ تجاه رفضه أن يكون التاريخ للعة والعبرة، بل نضيف هذا الجانب إلى ما ذكر، وليس معنى أن كثيرا من الناس لا ينظرون أن تنفي هذا الغرض الأسمى الذي يدركه ويستفيد منه الأئمة. قال الله (تعالى): ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُذًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (يوسف: الآية ١١١). وكذلك لا أوافق على تغير مقياس (الحسن، والقبح، عبر الأمانة والعصورة؛ لأن المبادئ والقيم السامية التي تحكم الجميع ثابتة في كل زمان ومكان.

(٢) سيرة ابن الداية ٧٦. (٣) سيرة البلوى ٣٠٩.

(٤) المصدر السابق: ٣٣٢. (٥) سيرة البلوى ٣٤٣.

وأخيراً، فإن كلاً من: ابن الداية، والبلوى قد فهم التاريخ فهماً شاملاً، وذلك من خلال علاج سيرة ابن طولون علاجاً مستقصياً من مختلف الزوايا والجوانب، خاصة كتاب البلوى المفصل، الذي عرض بتوسع لذلك. فلم يكن التاريخ مجرد سرد للأحداث السياسية التي مر بها ابن طولون، وإنما امتدت واتسعت عقلية هذين المؤرخين لتناول الجوانب العمرانية^(١)، والاقتصادية^(٢)، والاجتماعية^(٣)، والإدارية^(٤)،

(١) اهتم ابن الداية بإبراز النواحي العمرانية في (سيرة ابن طولون)، فوصف دار الإمارة وأبنيها، والميدان، ومدينة القطائع (ص٨٣)، والمسجد، والعين، والمارستان (ص٨٦)، وتنوع الشوارع اتساعاً وضيقاً ٩٢-٩٣، ووصف سجوناً خاصة لبعض الزلاء الكبار كابن المدر (عبارة عن حجرة واسعة، بها مائدة طعام، وخادمان) ص١٢٤. واهتم البلوى بذلك الجانب، فتناول تخطيط الشوارع، وتقسيمها إلى رئيسية تمر فيها مواكب الأمور، وشوارع فرعية داخلية، ومدى الاهتمام بنظافة الأولى، لتلائم عليه القوم (ص٤٢). وامتاز البلوى بإعطاء القارئ صورة حية ماثلة للعين لدار الإمارة بكافة تفاصيلها (ص٥٢-٥٤). ووصف مدينة القطائع، وروعة تخطيطها العمراني، وتوفير كافة مستلزماتها للاكتفاء الذاتي (ص٥٢-٥٤). وأطال في الحديث عن قصر ابن طولون، وأبوابه الكثيرة، وغرض كل باب منها، والطائفة المحصنة للدخول من كل باب، وتناول هندسة وتنظيم، وتوقيت استخدام هذه الأبواب (ص٥٤-٥٦).

(٢) اهتم ابن الداية بإبراز بعض النواحي الاقتصادية، فذكر مقدار ما يُحمل من الخرافة من أموال وأشياء غنية (ص٨٤، ٨٧)، وتحدث عن إصلاحات ابن طولون الاقتصادية، وإسقاطه ضرائب ابن المدر (ص٨٥)، واهتمامه بتقديم العطاء لأئمة المساجد (ص٩٦)، واهتمامه بصناعة الأسطول (ص٩٥)، ومكافأته للعاملين بدار سك النقود (الدينار الأحمدي) (ص٩٩)، ونفقات مطبخ ابن طولون (ص١١٢)، وعرض لجانب من مصادرات ابن طولون لبعض الكتاب (ص١٠٦-١٠٧). وعرض البلوى لبعض مظاهر الاقتصاد، منها: وجود نظام المقايضة في البيع والشراء (ص٦٥)، وما يرسل للخلافة سنوياً (ص٨٠)، والاهتمام بإنشاء السفن الحربية لدعم صناعة الأسطول (ص٨٧)، وعرض لبعض المصادرات (ص١٣١)، ونفقات مطبخ ابن طولون (ص١٤١)، وارتفاع أسعار القمح وثورة الناس ومعاقبة ابن طولون للقمّاحين والذقّاقين (ص١٤٩).

(٣) أبرز ابن الداية عدداً من الظواهر الاجتماعية، منها: حرص الشعب المصري على التطلع إلى مواكب ابن طولون، ومراسم تلك المواكب (ص٧٦، ٧٨، ٩٧)، وذكر أصناف أطعمة ابن طولون على مواعيد الحفلة (ص١٠٠)، ومراسم جنازة العامة (ص١٠٢)، وطبقة المستورين في عهد ابن طولون (ص١٠٥)، ويوم السلام على الأمير (ص١١٣)، وصورة من حياة بعض المساجين في السجون (ص١١٤). أما البلوى، فقد تعرض لبعض هذه الظواهر في كتابه. ومن نماذج ذلك: تكافل المجتمع الإسلامي (ص٣٤)، ومواكب الأمراء وعلية القوم (ص٤٢)، وأوصاف طبقة الخند المصاحين لابن المدر، وأزيائهم، وسلاحهم، ومكان جلوسهم (ص٤٤)، ومواكب الجيوش بعد انتصارها (ص٧٢)، وطبقة الصنّاع وما عليها من ديون مستحقة أسقطت (ص٨٨)، ووصف بعض البيوت من الداخل في نظافتها وفرشها (ص١١٩-١٢٠)، وأنواع أطعمة ابن طولون (ص١٢٦)، وما يشيع في بيوت العامة من شرب النبيذ، واقتناء الحمام، والدحاج على أسطح المنازل (ص١٥٧)، ومراسم جنازة ابن طولون (ص٣٤٥-٣٤٦).

(٤) من نماذج الترتيبات الإدارية والتنظيمية التي أورد جانباً منها ابن الداية: وجود جوازات للمرور من مكان لآخر في مصر أو إلى خارجها (ص٨٢)، واختيار الكتاب الأكفاء بشروط معينة (ص١٠٦)، ووجود عدد من المناصب، مثل: (عامل معونة الناحية ص٩٨، وعميد الناحية ص٩٩، وعامل السجون ص١١٠، ورئيس السعاة (المحيرين) ص١١٢. وبالنسبة للبلوى، فقد أبرز الاهتمام بالعاصمة كمركز نقل حضاري واجتماعي (ص٤٢)، وجواز السفر للمرور (ص١٣٨، ١٥٤)، ووجود إجراءات لشراء البيوت من تسجيل ووكالة =

والفكرية^(١) في عهد الأمير (أحمد بن طولون). وباختصار عالج المؤرخان - خاصة البلوى - الجانب الحضاري إلى جانب التاريخي السياسي، فأنت كتابتهما متكاملة شاملة، ذات أثر بعيد في المؤرخين من بعدهم.

خلاصة في أهمية ابن الداية والبلوى في عالم التاريخ والمؤرخين:

- أ- يعد هذان المؤرخان المصدر الأساسي، الذي اعتمد عليه من أتى بعدهما من المؤرخين في كتابة تاريخ (أحمد بن طولون)^(٢).
- ب- مثل هذان المؤرخان ثقافة القرن الرابع الهجري كأحسن ما يكون التمثيل، ويمتاز ابن الداية بالموسوعية الثقافية إلى جانب الإمام بعلوم جديدة، كانت بمثابة روافد غدت التاريخ، وعمقت أسلوب عرضه، ومنهج تقديمه كالفلسفة، والمنطق، والفلك.
- ج- خطأ هذان المؤرخان بعلم التاريخ خطوات كبيرة إلى الأمام عن طريق ريادتهما في كتابة (السيرة التاريخية)، ومنهجهما التاريخي المتكامل المحكم، الذي دلل على فهم التاريخ فهماً شاملاً، وتناول أحداثه بطريقة علمية رائدة، وقدرة على التفاعل مع الأحداث واندماج فيها، وحسن فهم لها، وذلك من خلال الحضور مع الأحداث تعليلاً، وشرحاً، وتعليقاً.

- (ص ١٦٠)، ووجود ديوان للرسائل ص ١١٢، ولتنصيح ص ١١٣، إلى جانب مناصب، مثل: صاحب الخراج، والأمين عليه، وصاحب ديوان الأملاك ص ٧٣، وكتاب السر (ص ١٠٠، ١١١)، وصاحب الخبر (ص ١١٨، ١٢٤)، والقائم بضبط انجرمين الهارين (ص ١٣٠)، وصاحب الشرطة (ص ١٥٥).

(١) من مظاهر ذلك عند ابن الداية: إقامة الأئمة في مساجدهم ص ٩٦، ومفسر الرؤى الغسال ص ١٠٣، ووجود علماء نحو وأدباء (خرجوا مع العباس) ص ١١٨، وأشعار ابن المدير في استعطاف ابن طولون (ص ١٢٣-١٢٤). وفي كتاب البلوى: تعلم البعض اللغة القبطية (ص ١٣١)، وقدرة بعض الكتاب على الارتجال في الخطبة (ص ١٤٧)، ودراسة علوم الفلك (ص ١٦٥)، وشعر/ يوسف بن إبراهيم في استعطاف ابن طولون (ص ١٦٥-١٦٦).

(٢) وردت نقول عديدة عن (سيرة ابن الداية) في: تاريخ دمشق ٣/٧، ٣٤٠، وبقية الطلب ٣/١١٢-١١٣، ووفيات الأعيان ١/١٧٣، والمغرب لابن سعيد (قسم مصر) ص ١٣٤-١٤٣، ومختصر تاريخ دمشق ٨/٨٨-٨٩، ٢٠/٣١. أما البلوى، فقد نقل عنه المغربي نصوحاً عديدة دون أن يصرح باسمه، واكتفى بتلقيبه بـ (جامع السيرة الطولية)، وذلك في (الخطوط) ج ١ ص ١٧١، ٢٣٠، ج ٢ ص ١٢٣-١٢٤، ١٧٨-١٨١، ٢٦٥-٢٦٦، ٢٦٧، ٤٠٥، ٤٥٧-٤٥٨).

الفصل الثالث

ابن زولاق مؤرخ سيرة الإخشيد،

وصاحب أخبار سيبويه المصري

(سيرة الإخشيد) لابن زولاق

تقديم:

نتناول - ابتداء من الآن، وحتى نهاية هذا الفصل - جانباً كبيراً من الإنتاج التاريخي للمؤرخ المصري المبرز (ابن زولاق). ونعرض هذا النتاج حسب الترتيب الزمني له، فنبدأ بكتابه الذي أرّخ فيه لعهد الإخشيد من خلال كتابة سيرته. وسوف تمر دراسة هذه السيرة عبر مراحل متعاقبة:

أولاً - ترجمة مركزة للمؤرخ ابن زولاق.

ثانياً - عرض سريع لمحتويات (سيرة الإخشيد).

ثالثاً - موارده في هذه السيرة (النقد الخارجي).

رابعاً - النقد الداخلي لبعض القضايا التاريخية التي تثيرها.

خامساً - منهجه التاريخي في عرض هذه السيرة.

أولاً - ترجمة ابن زولاق (٣٠٦ - ٣٨٧هـ/ ٩١٩ - ٩٩٧م)*

١ - مولده وأسرته:

هو الإمام العلامة المحدث الفقيه المؤرخ أبو محمد الحسن بن إبراهيم بن الحسين بن

(*) وردت له ترجمة في: الأنساب (مادة الزولاني): ١٧٩/٣، والمنظّم لابن الجوزي (ط. دار الكتب العلمية) حـ ١٤ صـ ٢١٠ - ٢١١ (هامش ٤)، ومعجم الأدباء ٢٢٥/٧ - ٢٣٠، والباب في تلهيب الأنساب لابن الأثير حـ ٢ صـ ٨١، ووفيات الأعيان ٩١/٢ - ٩٢، وسير أعلام النبلاء ٤٦٢/١٦ - ٤٦٣، وتاريخ الإسلام ١٥٤/٢١، ١٨/٢٧ (وفيات سنة ٣٨٦هـ)، و ١٣٦/٢٧ (وفيات سنة ٣٨٧هـ)، وتاريخ ابن الوردي ٤٣٧/١، ومخطوط عيون التواريخ للكني (مصور عن الظاهرية): ورقة ٢٤٦، والبداءة والنهاية ٣٤٣/١١، والمقفى للمفريزي ٢٨٤/٣ - ٢٨٦، ولسان الميزان (ط. مؤسسة الأعلمي) لابن حجر ١٩١/٢، ومخطوط (عقد الجمان) للعتي ١٢٥/١٠، والفضائل الباهرة لابن ظهيرة ١٣١، وحسن المحاضرة ٥٥٣/١ - ٥٥٤، وبدائع الزهور لابن إياس ١٩٨/١ -

الحسن بن^(١) علي بن خالد^(٢) بن راشد بن عبد الله^(٣) بن سليمان^(٤) ابن زُولاقي^(٥) اللبني^(٦)، مولا هم المصري^(٧).

ولد مؤرخنا (ابن زولاقي) في شهر شعبان من سنة ٣٠٦ هـ، بعد وفاة الفقيه منصور بن إسماعيل بثلاثة أشهر (في جمادى الأولى)^(٨). ولسنا نعرف عن والده شيئاً، والقليل الذي تناقلته المصادر إنما يتعلق بجده (الحسين بن الحسن بن علي)^(٩)، وبوالد جده (الحسن بن علي بن خالد)، الذي كان يكنى بـ (أبي علي)، ويُلقب بـ (المصري الشيعي). وهذا يعني أن أسرة ابن زولاقي متواجدة على أرض مصر منذ قديم، حتى تُسبب والد جده إليها، وأما كانت متعاطفة مع آل البيت، فَعُرِفَ بالتشيع المعتدل غير المذموم كعامة أهل مصر منذ قديم^(١٠). وقد اشتهر هذا الرجل بالعلم، فكان من مشاهير العلماء وأعيانهم في مصر؛ إذ

- والكنى والألقاب للفتي ٢٩٨/١، وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان (ط. افخية العامة) ٨٦/٢-٨٧، ومعجم المؤلفين ٥٣١/١-٥٣٢، وظهر الإسلام لأحمد أمين ١٦٦/١، وتاريخ التراث العربي ٥٨٢/١، ومحمد عبد الله عنان في مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية ٤٠-٤١، ومؤرخي مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصري ص ٣٤، وبعدها، ود. علي إبراهيم حسن في: استخدام المصادر وطرق البحث ص ١٤٠-١٤٢، ود. شاكر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون ٣٧٦/١-٣٦٩، ١٨٧/٢. Guest ; Introduction Of wulah and el . qudah , P. 45- 46. Byrout , 1908

- (١) ورد هذا الجزء من النسب محرفاً في (لسان الميزان ١٩١/٢). هكذا: إبراهيم بن الحسن بن الحسين.
- (٢) ورد بدلاً منه اسم (حنبل) في: (معجم الأدياء ٢٢٥/٧، ولسان الميزان ١٩١/٢). والصواب ما ذكرته في المتن.
- (٣) والدليل ترجمة الدهي هذا الجد (الحسن بن علي بن خالد بن زولاقي) في (تاريخ الإسلام) ١٥٤/٢١.
- (٤) ورد مكانه اسم (عبد الله) في (البدابة والنهاية) ٣٤٣/١١ تحريفاً.
- (٥) وردت في (المقفى) ٢٨٥/٣ (سليم)، وهو تحريف؛ بدليل ما ورد في (تاريخ ابن الوردي) ٤٣٧/١: أنه من ولد سليمان بن زولاقي.
- (٦) هكذا بضم الواو، كما ذكر ابن حلكان في (وفيات الأعيان ٩٢/٢)، وحللاً للنصح الوارد في (مخطوط عيون التواريخ، ورقة ٢٤٦)، حيث وردت بالراء. ويغلب على ظني أن اسم زولاقي مأخوذ من الفعل (زَلَقَ)، أي: تَزَيَّنَ وتَشَمَّ، حتى يكون للونه لمعان ولبشرته بريق، أو صبغ نفسه بالأدهان ونحوها. (اللسان: مادة (ز.ل.ق) ٣/ ١٨٥٤). وهو يناسب مكانة الأسرة ووجاهتها، كما سري.
- (٧) نسبة إلى لبث بن كنانة، وهي قبيلة كبيرة، يُنسب إليها بالولاء. (وفيات الأعيان ٩٢/٢).
- (٨) ورد هذا النسب الصحيح الكامل لدى ابن حلكان (انصهر السابق ٩١/٢).
- (٩) ذكر ذلك تحديداً في (وفيات الأعيان) ص ٩٢. واكتفى بذكر سنة الميلاد: الدهي في (سمر أعلام السلاة ٤٦٣/١٦، والمقفى ٢٨٥/٣، وتاريخ التراث العربي ٥٨٢/١، ومعجم المؤلفين ٥٣١/١). وحدث تحريف في (لسان الميزان) لأن حجر ١٩١/٢ فجعل تاريخ ميلاد ابن زولاقي سنة ٣٣٦ هـ.
- (١٠) تلمذ علي أبيه (الحسن بن علي)، وروى عنه. ولد على أرض مصر، ونشأ بها. حَدَّثَ عنه: ابن رشيح المُحَدَّث. (مخطوط تاريخ علماء أهل مصر) لابن الطحان، ورقة ٢٣٣.
- (١١) "قال يزيد بن أبي حبيب فقيه مصر: كان أهل مصر يكتنون بمسائلهم (أي: في الفقه) إلى جعفر بن محمد الصادق ~~عليه السلام~~، ولا يعدلون عن فتياء". وقد احتفل أهل مصر جداً بمقدم السيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد مع زوجها (إسحاق بن جعفر) إلى مصر، ومنعه أهلها من دفنه بإيها بالمدينة لما توفيت، فدفن في مصر، واتخذ المصريون قبرها مشهداً، وهو باقٍ معروف حتى زمن ابن زولاقي. (مخطوط مختصر تاريخ مصر، لابن زولاقي) ورقة ١٥-١٦.

كان من عيون المحدثين المسندين^(١)، وكان من الفقهاء ورواة الأخبار^(٢).

وقد روى عن أبي صالح (عبد الله بن صالح المصري كاتب الليث بن سعد المتوفى ٢٢٣هـ)، ويعني بن سليمان الجعفي^(٣). وروى عنه المحدث المشهور (سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني المتوفى ٣٦٠هـ). وتوفى والد جده هذا في شوال سنة ٢٨٣هـ^(٤). وعلى ذلك، فيغلب على الظن أن يكون ابن زولاق نشأ في أسرة محبة لعلوم الدين، لديها شئ من الاهتمام بالحديث، والفقه، والتاريخ.

٢- تكوينه الثقافي:

عاش مؤرخنا ابن زولاق عمراً مديداً، بلغ إحدى وثمانين سنة؛ إذ كانت وفاته يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من شهر ذي القعدة سنة ٣٨٧هـ في مصر، أيام الحاكم بأمر الله، ونظر الحسن بن عمارة الوزير^(٥). وفي اعتقادي أن هذا العمر الطويل المبارك قد شهد جهوداً كبيرة من ابن زولاق؛ لأجل تحصيل العلم المتاح في عصره، خاصة أنه نشأ في تربة علمية خصبة، وعاصر أحداثاً سياسية متلاحقة متباعدة، تدفع طالب العلم إلى الانكباب على التحصيل والدرس، والاستزادة من الزاد الثقافي، الذي يقدمه علماء ذلك العصر. فابن زولاق عاش قرابة عقدين من عمره في فترة ما بين العصرين الطولوني والإخشيدي. مما سادها من اضطرابات وصراعات وعدم استقرار؛ مما كان يدفع طلاب العلم إلى تجنب هذا الواقع الكئيب، والاتجاه بكليتهم للاعتراف من ينابيع العلم، لعلهم - بعد ذلك - يسهمون في تغيير هذا الواقع المؤلم.

- (١) المخطوط السابق: ورقة ١٢. (٢) السابق: ورقة ١٢. (٣) هو أبو سعيد الكوفي المقرئ. سكن مصر. روى عن: عمه، وعبد الله بن إدريس، وابن وهب، وغيرهم. روى عنه: البخاري، وروى عنه الترمذي بواسطة، وغيرها. وتوفى ابن حبان، وتوفى بمصر سنة ٢٣٧ أو ٢٣٨هـ. (تقديب التهذيب ١١/١٩٩، وتقريب التهذيب ٢/٣٤٩، وقال عنه: صدوق بخطي). ويلاحظ أن الذهبي لقبه بـ (الجعفي) تحريفاً في (تاريخ الإسلام ٢١/١٥٤). (٤) الأنساب ٣/١٧٩ (مادة الزولاق)، واللباب في تقديب الأنساب لابن الأثير ٢/٨١، وتاريخ الإسلام للذهبي ٢١/١٥٤.

- (٥) المقفي، للمقريزي ٣/٣٨٥. ويلاحظ اختلاف المصادر في تحديد تاريخ وفاة ابن زولاق، مرشح باقوت تاريخ ٢٨٦هـ (معجم الأدباء ٧/٢٢٦)، وذكر الكشي في (مخطوط عيون التواريخ، نسخة البطاركية)، ورقة ٢٤٦: أنه توفى يوم الأربعاء ٢٥ من ذي القعدة ٣٨٦هـ. أما غالبية المصادر، فعلى تاريخ ٣٨٧هـ، مثل: سير أعلام النبلاء ١٦/٤٦٣، وتاريخ ابن الوردي ١/٤٣٧، والبداء والنهاية ١١/٣٤٣، ومخطوط (عقد الجمان) للفيثي ١٠/١٢٥. وتراجع الذهبي، فذكره مرة في وفات سنة ٣٨٦هـ في (تاريخ الإسلام) ٢٧/١١٨، وعاد فذكره ثانية في وفات سنة ٣٨٧هـ (المصدر السابق: ج ٢٧ ص ١٣٦)، وهو الراجح فيما نرى؛ لوثاقة القائلين به، خاصة المقريزي في (المقفي)، وعبارته المحددة الواضحة فيه. ولكنه فاته ذكره في (اتعاط الحفا). وأخطأ ابن طهيفر، وابن إلياس في ذكر تاريخ وفاة ابن زولاق، فجمعاه عام ٣٨٩هـ أيام الحاكم. (الفضائل الباهرة ١/١٣١، وبدائع الزهور ١/١٩٨).

وبعد ذلك عاصر الدولة الإخشيدية، وكانت فترة حكمها التي امتدت حوالى خمسة وثلاثين عاماً، تمثل ازدهاراً واستقراراً في مصر، على الأقل في فترة حكم الإخشيد. وفي ظل تشجيع الإخشيد وكافور - من بعده - للعلم وللعلماء كانت النهضة العلمية في ذلك العصر في مختلف المجالات، ويأتى على رأسها علم (التاريخ) بفضل جهود علمائه، الذين يأتى في أوائلهم مؤرخنا ابن زولاق. ثم تستقبل مصر تحولاً جديداً من الحكم السنّي إلى الشيعي، ومن التبعية للخلافة العباسية في المشرق إلى تبعية جديدة للعبّاسيين القادمين من المغرب، فينغمس ابن زولاق في الاهتمام بذلك التغيير الكبير الحادث في بلده مصر، ويعايش الحكام الجدد ويخالطهم عن كثب، ويسجل لنا أحداث عصرهم عن قرب، بدءاً من القائد جوهر، ومروراً بالمعز، وانتهاء بالعزیز.

ويمكن رصد أهم الملامح العامة لمكونات ابن زولاق الثقافية في النقاط الموجزة الآتية:

أ- طلب ابن زولاق الحديث والفقه على أعلامهما في مصر، من أمثال: الفقيه الحنفى أبي جعفر الطحاوى^(١) (ت ٣٢١هـ)، وأبي بكر بن الخداد الفقيه الشافعى^(٢) (ت ٣٤٥هـ). ولم يفت ابن زولاق التلقى على العلماء الوافدين إلى مصر، فكان يتبادل معهم رواية الحديث، يسمع منهم، ويروى لهم ما عنده. وقد حدث هذا مع المحدث (عبد الله بن وهبان البغدادى)، الذى قدم إلى مصر، وأقام بها حتى وفاته سنة ٣٢٨هـ^(٣). ويبدو أن ابن زولاق كانت له رحلات لطلب الحديث خارج مصر، فقد ورد أنه رحل إلى العراق، وسمع هناك المحدث (سعيد بن عبد الله بن سهيل البغدادى) سنة ٣٢٢هـ^(٤). وورد - أيضاً - أنه زار الشام حوالى سنة ٣٣٠هـ^(٥)، إن

(١) وفيات الأعيان ٩٢/٢، وسير أعلام النبلاء ٤٦٣/١٦، وتاريخ الإسلام ١١٨/٢٧. وترجمته كالآتي: أحمد بن محمد بن سلامة الأردى المصرى الحنفى. ولد ٢٣٩هـ، وسمع بونس بن عبد الأعلى، وبجر بن نصر الخولان، وبكار بن قتيبة، وغيرهم. حدث عنه الطبرانى، وأبو بكر بن المقرئ، وغيرهما. له مؤلفات عديدة، منها: أحكام القرآن، ومعان الآثار، واختلاف العلماء. توفى سنة ٣٢١هـ. (سير أعلام النبلاء ٢٧/١٥ - ٣١، وطبقات المفسرين للدوادى ٧٣/١ - ٧٥).

(٢) لسان الميزان ١٩١/٢. وترجمته كما يلى: هو الإمام محمد بن أحمد بن محمد بن جعفر المصرى. ولد سنة ٢٦٤هـ (يوم مات المرقى). أخذ الفقه عن منصور بن إسماعيل الضرير، وحالسا أبا إسحاق الروزى لما ورد مصر. له كتاب (الباهر في الفقه). وولى قضاء مصر عام ٣٢٤هـ، وله كتاب (أدب القضاء)، و(جامع الفقه). وتوفى سنة ٣٤٥هـ. (تهذيب الأسماء واللغات للنووى ج ١ من القسم الأول ص ١٩٢ - ١٩٣، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٧٩/٣ - ٨٣).

(٣) تاريخ بغداد: ١٨٢/١٠، ومعجم الأدباء ٢٢٧/٧.

(٤) تاريخ بغداد ١٠٦/٩ - ١٠٧.

(٥) سير أعلام النبلاء ٤٦٣/١٦. وذكر أنه ارتحل فيها إلى دمشق، وأن ابن عساكر فاته أن يذكره في (تاريخ دمشق)، وقال: لم تبلغني سيرته كما في النفس (أى: كما أحب). وقال في (تاريخ الإسلام) ١١٨/٢٧: قدم إلى دمشق بعد سنة ٣٣٠هـ. وكلامه في السيرة أثبت وأرجح وأكثر تحديداً، وهو آخر ما ألف.

كنا لا نعرف شيئاً عن سبب زيارته تلك، لكن يبدو أنها كانت لطلب العلم أيضاً. وأعتقد أن ابن زولاق جمع قدرًا طيباً من علم الحديث، جعلت إمام المحدثين ابن حجر يثنى عليه، ويصفه بأنه صدوق لا شك فيه^(١).

ب- بالنسبة لعلم الفقه، أعتقد أن ابن زولاق كان على درجة طيبة من رحابة الفكر، واتساع الأفق، فلم يحصر نفسه داخل مذهب فقهي معين. والدليل على ذلك تنقله في الأخذ على فقهاء من مذاهب شتى (أحناف، وشافعية). ويبدو لي أنه طالع شيئاً من الفقه الظاهري؛ بدليل الاهتمام الذي أولاه بابن إمام أهل الظاهر الفقيه الشاعر محمد بن داود المتوفى سنة ٢٩٧ هـ^(٢). وعلى كل، فالظاهر أن ابن زولاق رسخت أقدامه في الفقه بعمامة (وفي الفقه الشافعي خاصة)، حتى تُنسب إليه^(٣)، وإن لم أجد له في ذلك آثاراً باقية.

ج- طلب ابن زولاق علم النحو، وتلقّى الآداب والأشعار، وكان زميلاً لواحد من كبار علماء النحو والكلام في عصره (سيبويه المصري)، الذي كانت تربطه به صلات، وله معه مواقف عديدة^(٤). وأعتقد أن لغة ابن زولاق الدقيقة^(٥)، وعباراته الفصيحة الموجزة المركزة^(٦)، وما يرويه من محفوظات أشعاره^(٧)، وما سجله من نثر (سيبويه المصري) وحكمه البليغة^(٨)، هي شواهد صادقة، ودلائل مضيئة على تمكنه في مجالي: اللغة، والأدب.

(١) لسان الميزان ١٩١/٢. وقد رَدَّ بذلك عما رماه به رجل يدعى (ابن أعين الغزال) من الكذب، وأوضح ابن حجر أن هذا الرجل لا يعرفه (فهو مجهول لدى ابن حجر). ويمكن مراجعة ترجمة هذا الرجل باسم (ابن عین غزال) المتوفى بعد سنة ٣٣٠ هـ في: (الأنساب ٤٩٤/٢)، والمقفي ٧٣٩/٣ - ٧٤٠، وتبصير المنتبه ١٠٤٣/٣.

(٢) راجع (تاريخ بغداد) ٢٥٩/٥، حيث يروي لنا ابن زولاق تنافس وتناظر محمد بن داود مع القاضي أبي العباس بن سُرَّيج. أما ما رواه في ص ٢٦٠، فينصل بجانب من هزل هذا الرجل في عبارات ثرية بليغة، تنصل بما عُرف عنه من ميل إلى صديقه (محمد بن جامع الصيدلاني).

(٣) المقفي ٢٨٥/٣. وأورد له الصغدّي في (الوقا بالوفيات) ١٧٦/٢ عبارة ذكر فيها كتب ومولفات الإمام الشافعي. وذلك يدل على عظيم اهتمامه، وميله إلى ذلك المذهب.

(٤) راجع بعضها في (أخبار سيبويه المصري) ص ٥٠ - ٥١.

(٥) سيرة الإخشيد (ضمن كتاب المغرب لابن سعيد): ص ١٩٥ (حيث استخدم لفظه: (تكاف) في معرض توفيق الإخشيد وسيف الدولة عن الحرب بينهما، فهي تدل على رغبة متبادلة في الكف عن غمارة كل منهما الآخر، وجنوحهما إلى السلم والصلح). وكذلك تضمنه بعض عبارات القرآن في كلامه، وهي ذات دلالة على المعنى الذي يريد، مثل: تعبده عن تسفل ابن رائق تحت جنح الظلام من دمشق إلى الرملة، وقتله وصلبه أحد رجال الإخشيد، فقال: (أسرى ليلاً) ص ١٧٨، وهي مأخوذة من قوله: (تعالى) "سَبَّحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا" (الأنبياء: من الآية الأولى). يمكن مراجعة مزيد من الأمثلة (ص ١٥٣، ١٥٥، ١٨٠، ١٩٣).

(٦) أخبار سيبويه المصري: ٢٣.

(٧) راجع أشعاراً كثيرة، وردت في (المصدر السابق): ص ٤٧، ٥١، ٥٤ - ٥٧.

(٨) السابق: ٢٢.

د- وأخيراً، علم التاريخ: يبدو أن اهتمام جد أبيه برواية الأخبار قد تبعه اهتمام متوارث في أسرته على مستوى جده، ثم أبيه في حب التاريخ وروايته. وأكاد أقطع بأن محور اهتمامهم كان منصباً على (تاريخ العلويين في مصر)، وتلقاه عنهم ابن زولاق، فنقل لنا جانباً طيباً منه في مخطوطته: (مختصر تاريخ مصر)^(١). وقد أشرب ابن زولاق حب التاريخ، ورواية أحداثه، وكان حريصاً على جمعها وكتبتها، وكثيراً ما كان يُشدد: مازلت تكتب في التاريخ مجتهداً حتى رأيتك في التاريخ مكتوباً^(٢).

والحق أن ابن زولاق تلقى علم التاريخ على أعلامه في مصر، وقصر اهتمامه على أحداث بلاده. ويأتى على رأس أساتذته من المؤرخين: المؤرخ المصرى الرائد في مجال السيرة التاريخية (أحمد بن يوسف المصرى المعروف بابن الداية ت ٣٤٠هـ). وقد انتهج ابن زولاق نهج أستاذه، فكتب لنا عدداً من السيرة التاريخية المهمة^(٣)، وطوّر فيها، ووسّع مجالها^(٤)، على ما سنرى بعد قليل. أما أستاذه الآخر في مجال التاريخ، فهو المؤرخ العظيم الكندى (ت ٣٥٠هـ). وقد تأثر به ابن زولاق، ونحنا منحاه في اختيار الموضوعات التي يطرقها ويؤلف فيها، فكتب مثل أستاذه في مجال (المخطوط)، (والقضاء)^(٥). وزاد عليه ما كتبه في (الفصائل)^(٦)، وتاريخه الكبير المرتب على السنين. وهكذا، يمكن القول بأن ابن زولاق كان امتداداً لمن عاصره وسبقه من المؤرخين المصريين^(٧)، وأنه كان حلقة مكتملة لهم في بناء صرح المدرسة التاريخية المصرية في القرن الرابع الهجرى، وأنه لولا جهوده المضيئة المتواصلة المقتصرة على مجال التاريخ المصرى، لوجدت ثغرات عديدة في أحداث عصره، لا تجد من يسد خللها.

- (١) وذلك تحت عنوان: ذكر عيون أشراف مصر، ومن دخلها من آل أبي طالب (ورقة ١٣-١٦). وراجع - كذلك - ما ذكره في (الكواكب السائرة) لابن الزيات ص ٣٠.
- (٢) معجم الأدباء: ٢٢٦/٧. وقد تميل شخصاً آخر شديد النهم في الإقبال على كتابة التاريخ، فحاطبه هذا الخطاب، الذى نَمَّ عن شديد شغفه هذا العلم، حتى إنه توقع أن تظل نفسه تُؤاqqة إليه، ممسكة بالقلم نظراً لأحداثه حتى آخر حياتها، حينما تُفاجأ بانتقالها عن هذا الوجود، وأصبحت محلاً لكتابة غيرها عنها في كتب التاريخ.
- (٣) تلمذ ابن زولاق على ابن الداية، وقرأ كتبه التاريخية عليه، وحذث بها، ثم عمل ما فاته من (سيرة أحمد بن طولون)، و(سيرة ابن حمارويه). (المغرب - قسم مصر - ص ١٤٨، والإعلان للسخاوى نشر: روزنثال) ص ٥٥١، وتاريخ مصر الإسلامية للشياى ج ١ ص ١٣١). هذا إلى جانب (سيرة الإخشيد، وجوهر، والمعز، والعزى، وغيرها)، مما ستناوله بعد ذلك.
- (٤) فكتب سيرة أحد علماء مصر في النحر والكلام (سيبويه مصر)، وهو ما لم يلتفت إليه أستاذه ابن الداية.
- (٥) لسان الميزان ١٩١/٢، ومقال الأستاذ عنان عن (ابن زولاق) في (ملحق جريدة السياسة اليومية) عدد ٧/٨/١٩٣٢، ص ٤، ومقدمة محققى كتاب المغرب لابن سعيد (قسم مصر، ص ٤٤م، وتاريخ مصر الإسلامية للدكتور الشياى ١٣١/١).
- (٦) ذكر السبويه في (حسن المحاضرة) ٥٥٣/١: أن الكندى صَنَّف كتاب (فصائل مصر). والصواب أنه لانه عمر ابن الكندى.
- (٧) أعقبت أن ابن زولاق تأثر في كتابته عن (خطوط مصر) - مثلاً - برائد هذا الفن التاريخى في مصر (المؤرخ ابن عبد الحكم ت ٢٥٧هـ).

٣- علاقاته الشخصية، وأثرها في إنتاجه التاريخي:

أعتقد أن مؤلفات ابن زولاق، التي دمجتها قريحته، كانت ثمرة يانعة لمجموعة من العوامل، تدخلت في نسج تشكيلها، وإخراجها إلى حيز الوجود. وقد تناولنا بعضها فيما مضى (تأثير أسرته، ومكونات ثقافته داخل، وخارج مصر). وأعتقد - مرة أخرى - أن كتب هذا العالم، وقد اقتصر على مجال (تاريخ مصر)، قد استفادت من كافة روافده الثقافية الأخرى (حديث، وفقه، ولغة، وأدب)؛ لتصب - في النهاية - في مجال اختصاصه الأثير لديه (التاريخ). والدليل على ذلك أن كافة كتبه المعروفة لدينا - سواء كان منها مطبوعاً، أم مفقوداً لا نعرف سوى بعض بقاياها، أو مجرد عناوينه - تدخل في صميم (تاريخ مصر).

يمتاز ابن زولاق على كثير من مؤرخي القرون الماضية في مصر بميزة فريدة هي أنه (يكتب تاريخاً عاصره بنفسه)، وذلك في العصر الإخشيدى، فالعبيدي. والحق أن هذه النوعية من التأريخ تتطلب أمرين مهمين: الاطلاع على خبايا الأمور، والاختلاط برجال الحكم؛ لمعرفة ما يدور وراء الكواليس. والأمر الآخر: شجاعة نادرة، وبعد عن الهوى، ونزاهة بعيدة المدى. وأدع الأمر الثاني - مؤقتاً - لحين تناول سمات شخصية ابن زولاق، وبيان منهجه في كتابه: (سيرة الإخشيد)، وغيره من الكتب الأخرى. وأركز - الآن - على الأمر الأول علاقاته بحكام عصره). وهذه أجزؤها فيما يلي:

أ- صلاته برجال العصر الإخشيدى:

من رجال هذا العصر العالم النحوى المتكلم (سيبويه المصرى) المولود سنة ٢٨٤هـ، والمتوفى سنة ٣٥٨هـ^(١). وقد كان يعقل هذا الرجل شئ من الوسوسة والاختلاط. وكان ابن زولاق قد بدأت صلته به في مجلس الفقيه أبى بكر بن الحداد، عشية جمعة بعد صلاة العصر في المسجد الجامع سنة ٣٢١هـ^(٢)، ثم توطدت الصلات بينهما بعد ذلك، حتى بلغت معرفة ابن زولاق به، وتتبعه أحباره وقربه منه، أن كتب سيرته، وأفرد لها كتاباً، سندرسه قريباً، إن شاء الله. وقد كان هذا الرجل مشهوراً للعامّة والخاصة، وكان يُظن به الجنون، فسهل عليه الاختلاط بكافة طبقات المجتمع من السباعة في سوق الوراقين^(٣)، إلى الفقهاء والعلماء في مجالسهم^(٤)، إلى الأشراف العلويين في

(١) أخبار سيبويه المصرى: ١٧.

(٢) المصدر السابق: ص ٢٢.

(٣) المصدر السابق: ص ٤٣.

(٤) السابق: ١٩، ٢٢.

سيوتهم^(١)، إلى ذوى المناصب في طريقهم ومواكبهم من أمراء^(٢) ووزراء^(٣)، وأصحاب خراج^(٤)، وصاحب ديوان الأحباس^(٥)، حتى بلغ به الأمر أن جالس (أونوجور بن الإخشيد) وسامره، ومعه الوزير الحسين بن محمد الماذرائي، وواكلهما وناديهما^(٦). وبدهى أن ذلك الرجل كان يعرف كثيراً من الأسرار والأخبار، وكان لا يتورع - ووسوسته تحميه في كثير من الأحيان - عن توجيه النقد اللاذع المرير بألفاظ خشنة مستهجنة قاسية؛ لما يراه من اختلال^(٧)، أو انحراف^(٨)، أو إسراف^(٩)، أو غش وتدليس^(١٠). ولا شك أن مصاحبة ابن زولاق بإياد جعلته يقف على كثير من الأمور، ويدرك العديد من الحقائق، التي ساعدته على كتابة مؤلفاته.

لم تذكر لنا المصادر شيئاً من علاقة (ابن زولاق) بالإخشيد، لكن هناك نصاً يفيد وجود علاقة وطيدة بين مؤرخنا وكافور الإخشيدى، إذ أوفده في أيام تديره دولة (أونوجور بن الإخشيد) برسالة منه إلى سيف الدولة (على بن عبد الله بن حمدان)، وذلك في السابع من ذى القعدة سنة ٣٤٧هـ^(١١). وهذا يعني أن مؤرخنا كان على صلة ببلاط كافور، باعتباره أحد العلماء المبرزين في عصره، ولعله كان يتمتع بمهارات دبلوماسية رفيعة لا تعرف عنها شيئاً، أهّلته لحمل رسالة كافور إلى سيف الدولة، ولعلها كانت محاولة لتهدئة الأحوال بينهما^(١٢). وعلى كل، فلبى أرى أن ابن زولاق المؤرخ لم يكن بعيداً عن أحداث عصر الإخشيد، وإنما كان يتابعها بحس المؤرخ اليقظ، وعندما طلب إليه أبو الحسن (على ابن الإخشيد) أن يكتب سيرة أبيه (الإخشيد) سنة ٣٥٠هـ، كتبها له مستعيناً على ذلك بما شاهده بنفسه من أحداث، أو

(١) السابق: ٣١ - ٣٢.

(٢) السابق: ٣٢.

(٣) لاحظ إرسال الوزير أبي بكر بن مقاتل احتياحاته إليه سرّاً (السابق: ٤١ - ٤٢).

(٤) مثل: موقفه من أبي بكر الخازن (المصادر السابق: ٤٥).

(٥) هو الحسين بن أيوب الصيرفي (السابق: ص ٥٠ - ٥١).

(٦) أخبار سيبويه المصري: ١٨، ٣٦.

(٧) مثل: احتجاجه الشديد، ونكته المفزعة بمباينة أحمد بن على بن الإخشيد وهو طفل، بعد وفاة كافور، وهو ابن إحدى عشرة سنة. (السابق: ٥٢ - ٥٣).

(٨) احتج على وصاية كافور، وصغر القصر على بن الإخشيد، وتدخل أم هذا الصبي؛ كي يتولى الحكم. وقد صاح بكافور: مدّح القط خزي في السعير، لا أعنت الله منك فلامه ففر. والنفت إلى الناس قائلاً: جعلنا على حصي (كافور)، وصبي (على بن الإخشيد)، وامرأة (أمه). (السابق: ٣٢).

(٩) كحشد المواكب وازدحام الطرقات بالناس؛ لأجل مرور موكب الإخشيد (السابق: ٢٨).

(١٠) كشكبيكه في صحة إسلام الوزير اليهودي الأصل (يعقوب بن كلس في عهد كافور)، وكان ذلك سنة ٣٥٦هـ (السابق: ٤٤).

(١١) المقفى ٢٨٥/٣.

(١٢) فقد كانت للحمدينين أضماهم في بلاد الشام، وكانوا قد انتهزوا فرصة وفاة الإخشيد، واعتدوا على ممتلكاته بالشام من قبل.

ناقلاً إياها عن كل موثوق به ما أمكنه ذلك، حتى أتمها ولاقت استحسان الأمير، وأجرى عليه هو ووالدته مكافأة سنوية؛ جزاء إتمامه هذا العمل^(١).

ب- علاقته بالعبيدين:

ينفرد كل من: ابن الجوزي^(٢)، ثم المقرئ^(٣) بنجر، مفاده أن مؤرخنا ابن زولاق كان فيمن خرج إلى المعز؛ للقائه لما قدم إلى مصر، وأنه خطب بين يديه خطبة أصغى إلى جميعها، وما سار حتى فرغ منها. ويتضح من نص هذه الخطبة أن ابن زولاق أصيل في تشيعه؛ مما يدل على أنه كان على صلة بما يقوله دعاة العبيدين المنتشرون في أرجاء مصر (في عهد كافور خاصة)، وأنه كان على علم وقناعة بمبادئهم، وربما كان من العاملين على تهيئة الأمور في مصر لقدمهم. ولعل تأكيدهم من أنهم هم السادة والحكام الجدد كان أكبر دافع لإظهار تشيعه لهم، وإظهار المديح في حقهم. لقد سلم على المعز بامرة المؤمنين، وعذّه الإمام المنتظر، ومهدى الأمة وعالمها، وخليفة رب العالمين، وصاحب السر والإعلان. وأخذ يمدح بيته جاعلاً إياه من آل بيت النبوة. وأخيراً، مدح علمه في كتبه التي وردت إلى مصر، وأقر ابن زولاق أنه كان ممن نشرها في أمصار المسلمين، واعتبرها شرفاً شرفهم الله به على جميع العالمين.

وإذا صحت نسبة هذه الخطبة إلى ابن زولاق، فإننا لا نستبعد أن يكون ابن زولاق قد ولى - أيام المعز مثلاً - النظر في ديوان المظالم^(٤)، وإن كنا لا نعرف تاريخ ذلك بالتحديد، ونعجب لعدم ذكر المقرئ نفسه هذه الخطبة، وخبر هذا المنصب في كتابه: (اتعاظ الحنفا)، وهو الذي يعد من أكثر المصادر تفصيلاً في تاريخ العبيدين، على ميل المقرئ نفسه إلى تصحيح نسبهم. وعلى كل، فلعل المقرئ تدارك في كتاب (المقفي) ما فاتته في (الاتعاظ). ومعلوم أنه ليس هو الوحيد الذي أورد هذه الخطبة، وإنما سبقه إليها ابن الجوزي. وساء على ذلك، فأننا أميل إلى أن تشيع ابن زولاق كان حقيقة، خاصة أن ابن حجر يؤيد ذلك - وهو الذي لا بد قد طالع مؤلفاته التي ضاعت - ويذكر أنه ظاهر من تصانيفه التي صنفها قديماً^(٥). وسوف نلاحظ - من خلال بقايا سيرة المعز لابن زولاق - أنه قريب من الأحداث؛ مما يشير إلى ارتفاع مكانته عندهم، وإلا لتعرض للتنكيل والقتل.

(١) سيرة الإخشيد: ص ١٤٩.

(٢) المنتظم (ط. دار الكتب العلمية): ج ١٤ - ص ٢١٠ - ٢١١ (هامش ٤): وأشار إلى أنها موجودة على هامش السخة الخطية المرموز لها بالخروف (ل)، أي: نسخة برلين على ما ذكر الخفقي في مقدمته ٤٧/١، وهي على خلاف النسخة الأم عنده (نسخة أحمد الثالث).

(٣) المقفي ٢٨٥/٣ - ٢٨٦. (٤) المقفي ٢٨٦/٣. ولسان الميزان ١٩١/٢.

(٥) لسان الميزان ١٩١/٢. ولعله يقصد ما كتبه في (سيرة المعز، وحوهر).

ويؤيد هذا الرأي السابق ما أورده ياقوت في كتابه: (سيرة العزيز) لابن زولاق، وفيه يتضح أنه لا يزال يتمتع بمكانة سامية في ظل دولة بني عُبيد في عهد (العزيز)؛ إذ كان يحضر مجلس الوزير (يعقوب بن كلس)، الذي فيه أرسل العزيز إليه بالخلع، وقرئ فيه سجل تشريفه بعد أن ولي الوزارة (٣٦٥هـ). وقد دار في هذا المجلس حوار ونقاش بين ابن زولاق والوزير، ظهر منه أن الوزير كان في نفسه شيء تجاه ابن زولاق، وأنه لم يقبل كلامه المجامل له، وردّه عليه، وأساء تأويله، وعدّه ذمّاً له، في الوقت الذي قاله فيه ابن زولاق على سبيل المدح والثناء؛ مما دفع ابن زولاق إلى الانصراف^(١).

والآن، وبعد إبرازنا العوامل التي يَسَّرَت لابن زولاق تأليف مصنفاته التاريخية - خاصة التي عاصر أحداثها، حتى لُقِّبَ بالمورخ المشهور^(٢)، والتاريخي^(٣)، وصاحب التواريخ والتصانيف -^(٤) نعرض - على عجلة - أسماء هذه المؤلفات التاريخية^(٥)، مرتبة حسب ظهورها على وجه التقريب:

- ١- الذيل على سيرة أحمد بن طولون^(٦).
- ٢- الذيل على سيرة أبي الجيش حمارويه^(٧). (وهما مفقودان).
- ٣- سيرة الإخشيد: وهي مفقودة في الأصل، إلا أن ابن سعيد جمع لنا ما تيسر له منها في كتابه: (المُغْرِب في حُلَى المغرب - القسم الخاص بمصر)^(٨).
- ٤- كتاب سيرة المادرائين^(٩) (وهو مفقود).
- ٥- كتاب سيرة كافور (مفقود)^(١٠).
- ٦- إتمام أخبار أمراء مصر للكندى^(١١): وهو كتاب مفقود ذُيِّلَ به، وأكمل كتاب

(١) معجم الأدباء ٢٢٧/٧ - ٢٢٨.

(٢) لسان الميزان ١٩١/٢.

(٣) المقفى ٢٨٥/٣.

(٤) تاريخ الإسلام ١١٨/٢٧.

(٥) ذكر جست في مقدمته بالإنجليزية ص ٤٥-٤٦ لكتاب (الولاية والقضاء) للكندى الكتب الآتية لابن زولاق: (القضاء، والأمراء، وسيرة الإخشيد، وسر المادرائين، وسيرة المعز، وسيرة القائد جوهر، وسيرة العزيز). وهي المذكورة في: المقفى ج ٣ ص ٢٨٦.

(٦) سيرة الإخشيد في كتاب (المغرب - قسم مصر) ص ١٤٨.

(٧) المصدر السابق: سيرة الإخشيد في كتاب (المغرب - قسم مصر) ص ١٤٨.

(٨) ص ١٤٨-١٩٧.

(٩) مخطوط (عيون التواريخ) للكنتي (مصور عن الظاهرية): ورقة ٢٤٦، والمقفى ٢٨٦/٣.

(١٠) مخطوط (عيون التواريخ) للكنتي (مصور عن الظاهرية): ورقة ٢٤٦.

(١١) سيرة الإخشيد (في كتاب المغرب - قسم مصر) ص ١٤٩.

(الولاة، أو أمراء مصر) المذكور من وفاة الإخشيد (سنة ٣٣٤هـ) حتى دخول (جوهر) مصر بحبوش العبيدين سنة ٣٥٨هـ، وما تلا ذلك من أحداث دخول المعز مصر. وهذا يعني أنه استكمل به تأريخه للدولة الإخشيدية، وفترة حكم جوهر حتى مجيئ سيده.

٧- أخبار سيبويه المصرى^(١) (وهو مطبوع).

٨- مجموعة كتب عن: (خطط مصر)^(٢)، و(التاريخ الكبير على السنين)^(٣)،

و(فضائل مصر وأخبارها وخواصها)، و(مختصر تاريخ مصر)^(٤). الأولان منهما مفقودان، والأخيران مخطوطان.

٩- سيرة جوهر^(٥).

١٠- سيرة المعز^(٦). (كلها مفقودة).

١١- سيرة العزيز^(٧).

١٢- أخبار قضاة مصر^(٨): وفيه أكمل كتاب (القضاة) للكندى، فيعد بمقالة ذيل عليه، إذ يبدأ من حيث انتهى (من فترة ولاية القاضي بكار بن قتيبة سنة ٢٤٦هـ، ويختم الكتاب بذكر القاضي العبيدي (محمد بن النعمان) متكلاً على أحواله إلى شهر رجب سنة ٣٨٦هـ). (وهو مفقود).

ويلاحظ على أسماء مؤلفاته السابقة ما يلي:

أ- أننى حاولت استقصاء كافة أسماء مؤلفاته، من خلال ما ورد في المصادر والمراجع المختلفة.

ب- أن كل ما يُعرف من هذه المؤلفات يدخل في إطار (تاريخ مصر)، فلعله اختص بذلك.

(١) سوف أدرسه بعد قليل بإذن الله. والغريب أن المصادر لم تذكره، على كثرة ما ذكرت من كتبه الأخرى المفقودة الكثيرة.

(٢) ذكره الذهبي في (تاريخ الإسلام ١٣٦/٢٧)، وابن الوردي في (تاريخه) ج١ ص٤٣٧، وابن ظهيرة في (الفضائل الباهرة) ص١٣١، ومخطوط عقد الجمان ١٠/١٢٥ (وقال عنه: استقصى فيه).

(٣) ذكره الكنى في (مخطوط عيون التواريخ) ورقة ٢٤٦، وكحالة في (معجم المؤلفين) ٥٣١/١.

(٤) ذكر في مقدمته أنه اختصره من (تاريخه الكبير على السنين)، ولم يذكر إسناد الخبر على سبيل الاختصار والتيسير (ورقة ٣).

(٥) ورد ذكرها في: مخطوط عيون التواريخ للكنى: ورقة ٢٤٦، والمقفى ٢٨٦/٣، ومعجم المؤلفين ٥٣١/١.

(٦) مخطوط عيون التواريخ للكنى: ورقة ٢٤٦، والمقفى ٢٨٦/٣.

(٧) ورد ذكرها في مخطوط عيون التواريخ: ورقة ٢٤٦، والمقفى ٢٨٦/٣.

(٨) وفیات الأعيان ٩١/٢-٩٢، والبداية والنهاية ٣٤٣/١١.

ج- أن كل مؤلفاته - للأسف الشديد - تكاد تكون مفقودة، اللهم إلا كتاب (أخبار سيويه المصري)، وبعده (سيرة الإخشيد)، وهذان مطبوعان. أما (فضائل مصر)، و(تختصر تاريخ مصر) فمخطوطان.

د- أنه تخصص في كتابة كتب سير الحكام، بالإضافة إلى سيرة أحد العلماء.

هـ- أنه كان يحاول سد ثغرات تركها مؤرخون سابقون في علاج بعض فترات تاريخ مصر، فعالج ما فات ابن الداية في تاريخ الدولة الطولونية (عهدي ابن طولون، وحمارويه فقط)؛ لأن الدولة أخذت في الانهيار بعد حمارويه. وعالج تاريخ الدولة الإخشيدية كاملاً؛ لوجود كافر من بعد موت الإخشيد. واهتم بالتأريخ لصدر الدولة العبيدية من حكام وقضاة، حتى قبل وفاته بقليل^(١).

وأخيراً، فإنه يمكن تركيز السمات العامة المستخلصة من حياته ومؤلفاته في النقاط الآتية:

أ- إلمامه بثقافات عصره المشهورة (خاصة التاريخ).

ب- تواضعه وحيأؤه، ومسألته^(٢).

ج- مداراته، وتشيعه^(٣).

ثانياً - محتوى سيرة الإخشيد^(*):

١- بدأ المؤرخ المصري ابن زولاق كتابه ببيان جهود سابقيه في كتابة سيرة ابن طولون، وابنه حمارويه، وذكر لنا ملاحظاته على من سبقه في كتابة (سيرة الإخشيد).

٢- انتقل - بعد ذلك - إلى ترجمة (جد الإخشيد، ووالده)، وبيان أصل الأخير ومناصبه التي وليها، وظروف وفاته في السجن لدى الوزير (العباس بن الحسن) سنة ٢٩٤هـ، ثم انتقام ولديه: محمد، وعبيد الله له من هذا الوزير.

(١) جعلها الأستاذ عان نحو عام ونصف (مقاله عن ابن زولاق في ملحق جريدة السياسة اليومية) عدد ٩/١٧/ ١٩٣٢م، ص ٩. وهو الصواب.

(٢) راجع أخبار سيويه المصري: ص ١٧، ٥٠.

(٣) مداراته كراهية الوزير ابن كلس له (معجم الأدباء ٧/ ٢٢٨)، وتشيعه بالانتساب إلى مذهب العبيديين، وتصحيح نسبهم (كثير الدور ج ٦ ص ٤).

(*) اعتمدت في دراسة هذه السيرة ومحتوياتها على القدر، الذي احتفظ لنا به منها ابن سعيد المغربي في كتابه: (المغرب في حلى المغرب - القسم الخاص بمصر) ص ١٤٨ - ١٩٧. وحديث بالذكر أن هناك ضعة قديمة للمستشرق (تلكوتس) مملوءة بالأغلاط، ونشر فيها من المغرب الجزء الخاص بالدولة الإخشيدية، وذلك سنة ١٨٩٩م (مقدمة محققى المغرب لابن سعيد - قسم مصر - ص ٥١).

- ٣- حال ولدنيه، وتقلب (محمد بن طفج) في خدمة تكين، ومناصبه بالشام.
- ٤- ترقب (محمد بن طفج) أحوال مصر وهو بالشام، حتى توفي تكين واليها سنة ٣٢١هـ، فأخذ يتحين الفرصة للانقضاض على حكم مصر، وتفاصيل دخوله مصر بالقوة، حتى فرض سيطرته عليها، ثم آمن المصريين من هب جنده.
- ٥- ذكر ابن زولاق بعض أعمال ابن طفج في مصر، مثل: نقله دار الصناعة من جزيرة الروضة إلى دار بنت الفتح بن خاقان؛ حرصاً على تأمين السفن والمراكب، وقام بتحويل موضع الصناعة الأول إلى بستان سمّاه (المختار)، وجعله متراً يفاخر به أهل العراق.
- ٦- بيان علاقة ابن طفج مع كل من: محمد بن علي المادرائي، ومحمد بن تكين، والوزير الفضل بن جعفر لما قدم إلى مصر.
- ٧- مصادرة ابن طفج المادرائي، حيث قبض ضياعه بالشام، وأكثر ضياعه في مصر، وقام بمصادرة أولاده، وحاشيته أيضاً.
- ٨- مظاهر ترسم ابن طفج خطوات ابن طولون، إذ قلده في مواكبه واحتفالاته، ومراسم استعراض جيوشه.
- ٩- اهتم ابن زولاق بعرض نماذج كثيرة لمصادرات ابن طفج كبار أثرياء مصر في عهده، مثل: كاتبه محمد بن كلا، وعفان بن سليمان البرّاز أجلّ تاجر في مصر أيامه (استولى على جانب من تركته لما مات).
- ١٠- عرض ابن زولاق النص المطوّل لكتاب (إبراهيم بن عبد الله النجيمي) سنة ٣٢٥ هـ، الذي يردّ فيه - على لسان ابن طفج - على كتاب أرمانوس (ملك الروم)، وفيه يشرح مكانة دولته وعظم اتساعها، ويبيّن سياسته الداخلية والخارجية، وآفاق التعامل والتعاون مع الروم في مجال التبادل التجاري، مع الاتفاق على تبادل الأسرى.
- ١١- زيادة مكانة ابن طفج لدى الخليفة العباسي (الراضي)، ومنحه إياه لقب (الإخشيد) سنة ٣٢٧هـ، بعد أن كان طلبه إليه ابن طفج سنة ٣٢٦هـ.
- ١٢- عرض ابن زولاق تفاصيل الصراع والصدام مع ابن رائق، وما نتج عنه من صلح بين الطرفين، وأحداث مقتل ابن رائق. ثم صدام الإخشيد مع سيف الدولة، وما أسفر عنه من تصالح الطرفين.
- ١٣- ذكر ابن زولاق بعض إصلاحات الإخشيد الاجتماعية في مصر، مثل: هدم المواخير، ودور المقامرین، ومعاقبة المشاركين فيها.

- ١٤- أكثر من عرض نماذج دالة على شراسته الشديدة للمال، وكثرة مصادراته؛ طمعاً في أموال الآخرين، وقيامه باحتكار العنبر للتجارة فيه.
- ١٥- لقاءه بالخليفة المتقي بالركة، وفشله - كما فشل ابن طولون مع المعتمد من قبل - في استقدام الخليفة إلى مصر، ونقل الخلافة إليها.
- ١٦- ظروف وفاة الإخشيد بدمشق سنة ٣٣٤هـ، ومقدار ما خلف من تركة (أموال وعبيد، ودواب ومراكب، وبغال، وجواهر، وغيرها).

ثالثاً - النقد الخارجي لسيرة الإخشيد (موارده):

حدد المؤرخ ابن زولاق منهجه في اختيار (موارده)، التي يستمد منها مادته التاريخية في (سيرة الإخشيد) في كلمات قاطعة واضحة محددة، يقول فيها بالنص: " ولم أضمن هذه السيرة إلا ما شاهدته، أو أخبرني به من أتق به حسبما أمكنني ^(١) ". وهذا يعني - باختصار - أنه دقق وانتقى موارده، وحرص أن يسجل ما رآه بنفسه باعتباره معاصراً لأحداثها، وما لم يشهده بنفسه نقله من الموثوق بهم قدر الإمكان.

وبعد قراءة وتأمل هذه السيرة، وجدت أننا يمكن أن نحلل مواردها إلى الأقسام الآتية:

١- القسم الأول - موارد صريحة محددة نقل عنها سماعاً:

وهذه عددها ثلاثة وعشرون (٢٣) مورداً، توزع كالآتي:

أ- أربعة موارد:

روى عن كل منها روايتين، وهى: (الحسين بن أحمد بن أريخا) ^(٢)، وأبو الفضل جعفر بن الفضل الوزير ^(٣)، ومحمد بن الحسن ^(٤)، ومحمد بن الحسين ^(٥).

ب- بقية الموارد:

روى عن كل منها رواية واحدة فقط (عددها ١٩ مورداً)، وهى: (أحمد بن عبيد الله ^(٦)،

(١) سيرة الإخشيد (داخل كتاب المغرب - قسم مصر لابن سعيد)، لابن زولاق: ص ١٤٩.

(٢) المصدر السابق: ص ١٥٨، ١٦٠.

(٣) سيرة الإخشيد (داخل كتاب المغرب - قسم مصر لابن سعيد)، لابن زولاق: ص ١٧٣ - ١٧٤.

(٤) السابق: ص ١٨٩ - ١٩٠.

(٥) السابق: ١٦٢، ١٧٩.

(٦) السابق: ١٥٠.

وفارس بن نصر العراقي^(١)، وحزمة بن محمد الحافظ^(٢)، وعلي بن يعقوب^(٣)، والفضل بن محمد^(٤)، وعلي بن محمد الصّوري الفقيه^(٥)، ومحسن^(٦)، ويحيى بن مكي بن رجاء المعدل^(٧)، ومحمد بن الحسين المكفوف المفسّر^(٨)، وسليمان بن الحسن بن طاهر^(٩)، وعبد الوهاب بن سعيد الكاتب^(١٠)، ومزاحم بن رائق^(١١)، ومسلم بن عبيد الله الحسيني^(١٢)، وأبو الفرج البالسي الطيب^(١٣)، والأصبهاني صاحب محمد بن رائق^(١٤)، وأحمد بن عبد الله الفرغاني^(١٥)، ومنصور ابن أحمد الصيّري^(١٦)، ومحمد بن المنهال^(١٧)، ومحمد بن عبد الله^(١٨).

٢- القسم الثاني - موارد صريحة محددة، لكنها مصدّرة بلفظة (قال):

وهما روايتان اثنتان مُصدرتان بـ:

أ- وقال طُعج^(١٩).

ب- وقال أبو بكر محمد بن علي المادرائي^(٢٠).

٣- القسم الثالث - موارد صريحة غير محددة:

وهذه بلغ عددها عشرة موارد كالآتي:

(وحدثني بعض عدول مصر^(٢١)، وحدثني بعض أصحابه^(٢٢) (أى: أصحاب الإخشيد)،

(١) السابق: ١٥٤. (٢) السابق: ١٦٥.

(٣) السابق: ١٧٧. (٤) السابق: ١٦٧.

(٥) السابق: ١٨١. يُنسب إلى مدينة (صُور)، وهي بلدة كبيرة من بلاد الساحل بالشام، وتغر من تغور المسلمين المشرقة على بحر الشام (الأبيض)، وهي داخلة فيه، والماء يحيط بها من ثلاث جهات، وهي شديدة المنعة والتحصين. (الأنساب ١٤/٣، ومعجم البلدان ٤٩٢/٣).

(٦) و (٧) سيرة الإخشيد: ١٨١.

(٨) السابق: ١٨٧.

(٩) السابق: ١٨٩. ورد بلفظ الحسين محرفاً.

(١٠) سيرة الإخشيد: ١٨٣.

(١١) و(١٢) السابق: ١٨٥.

(١٣) السابق: ١٨٧. ويُنسب إلى (بالس): مدينة مشهورة بين الرقة وحلب على بعد عشرين فرسخاً من حلب. (الأنساب ٢٦٨/١، ومعجم البلدان ٣٩٠/١).

(١٤) سيرة الإخشيد: ص ١٨٩.

(١٥) السابق: ١٩٢.

(١٦) السابق: ١٩٦. نسبة إلى (الصيّري): غر من أمار البصرة عليه عدة قرى، أو نسبة إلى (الصيّرة): بلدة من ديار الجبل وخوزستان (الأنساب ٥٧٦/٣، ومعجم البلدان ٤٩٨/٣ - ٤٩٩).

(١٧) و(١٨) سيرة الإخشيد: ١٩٦.

(١٩) السابق: ١٥١. (٢٠) السابق: ١٨٧.

(٢١) سيرة الإخشيد: ص ١٥٠. (٢٢) السابق: ١٥٥.

فحدثني بعض الكتّاب^(١)، سمعت بعض الشيوخ المصريين من أهل التنجيم^(٢)، فحدثني بعض الوجوه بمصر^(٣)، قال: وحدثني بعض الإخشيدية^(٤)، وحدثني بعض الشيوخ^(٥)، وحدثني بعض أهل مصر^(٦)، وحدثني بعض غلمانهم^(٧) (غلمان الإخشيد)، وكنتُ أسمع الناس يقولون^(٨).

٤- القسم الرابع - موارد مجهولة:

ورد ذلك في ثلاثة مواضع هي:

(وحكى أن^(٩)، وقيل^(١٠)، ومما تُحدّث عنه أنه قال^(١١)).

٥- القسم الخامس - روايات لا مورد لها:

وقد وردت في سبعة مواضع؛ بعضها مصدر بلفظة (قال)^(١٢)، وموضع مُصدّر بصيغة: ومن حكايات الإخشيد في أول أمره قال^(١٣)، وبعضها لم يُسبق بأية صيغة^(١٤).

٦- القسم السادس والآخر - الوثائق:

وقد أورد ابن زولاق في (سيرة الإخشيد) تسع وثائق كما يلي:

(وثيقة مكاتبات تكين ومحمد بن طغج المتبادلة)^(١٥)، ومرسوم تولية الراضى الخليفة العباسي أبا بكر المادرائي تدبير شئون مصر^(١٦)، ووثيقة مطوّلة عبارة عن كتاب الإخشيد (ردّه)، الذي أرسله إلى رومانوس إمبراطور الروم^(١٧)، وكتاب الإخشيد إلى الراضى، يسأله منحه لقب الإخشيد^(١٨)، ووثيقة صلح الإخشيد مع ابن رائق^(١٩)، ورسالة القائم العبيدي إلى الإخشيد^(٢٠)، ووثيقة رد القائم على عرض الإخشيد المصاهرة بينهما^(٢١)، ووثيقة صلح جديدة بين الإخشيد وابن رائق^(٢٢)، وكتاب سيف الدولة إلى أهل دمشق بعد هزيمة جيش الإخشيد أمامه^(٢٣).

(١) السابق: ١٥٦. ورد في رواية أخرى بلفظة: (وحدثني) ص ١٨٨.

(٢) السابق: ١٥٩. (٣) السابق: ١٧٦.

(٤) السابق: ١٨٢، ١٨٨. (٥) و(٦) السابق: ١٨٩.

(٧) السابق: ١٨٦. (٨) السابق: ١٨٧.

(٩) السابق: ١٦٣. (١٠) السابق: ١٦٤. (١١) السابق: ١٨٤.

(١٢) سيرة الإخشيد: ١٥٠، ١٥٢-١٥٣، ١٨٥.

(١٣) السابق: ١٨٠. (١٤) السابق: ١٨٥، ١٩٠.

(١٥) السابق: ١٥٥. (١٦) السابق: ١٥٧.

(١٧) السابق: ١٦٧-١٧٢. (١٨) السابق: ١٧٣.

(١٩) السابق: ١٧٤. (٢٠) السابق: ١٧٥-١٧٦.

(٢١) السابق: ١٧٧. (٢٢) سيرة الإخشيد: ١٧٩. (٢٣) السابق: ١٩٣.

ملاحظات عامة على موارد ابن زولاق في (سيرة الإخشيد):

أ- قصّر ابن زولاق في التعريف بموارده، فلم يترجم لأى منها كما كان يفعل ابن الداية أستاذه. ومن ثم، فإننا نعانى جهلاً بهذه الموارد، اللهم إلا ما يلحق بقليل منها من ألقاب، تعطى بصيصاً خافتاً من الضوء، يكشف لنا شيئاً ما عن طبيعة هذه الموارد، كما في قوله: علي بن محمد الصورى الفقيه، ومحمد بن الحسين المفسّر، وعبد الوهاب بن سعيد الكاتب، وأبو الفرج البالى الطيب، وهكذا. وقد أدى نقصه هذا إلى بعض المشكلات^(١)، وإن كنا حاولنا التغلب عليها^(٢).

ب- لم يستخدم ابن زولاق الإسناد الكامل لروايته التاريخية، واكتفى بذكر المورد الذى نقل عنه في معظم الأحيان. وفي بعضها كان يأتي بالمصدر الأصلي الذى نقل مورده عنه. وهذا المصدر

(١) من تلك المشكلات: التداخل الحادث - نتيجة التصحيف - بين بعض الموارد، مثل: محمد بن الحسين، ومحمد بن الحسن. وقد نشأ ذلك من تصحيف حق أحد الموارد الأخرى، وهو (سليمان بن الحسن بن طاهر). إذ ورد هكذا: (سليمان بن الحسين بن طاهر)، ولما كنا على يقين من اسم العلوى، الذى توسط في الصلح بين الإخشيد، وكل من: ابن رائق وسيف الدولة، استطعنا الخزم بتصويب الاسم. ثم ذكر ابن زولاق في روايتين أخريين اسم المورد (محمد بن الحسن) هكذا، فوقعا في حيرة شديدة: هل هو محمد بن الحسين الذى روى عنه روايات أخرى، ولكن حدث تصحيف؟ أو هو شخص آخر بهذا الاسم؟ أو هو محمد بن الحسن بن طاهر أخو سليمان المتقدم لكن ابن زولاق لم يذكر اسم الجدة فأشكل علينا الأمر؟! وبقلب الأمر على وجوهه رجحنا الاحتمال الأخير، خاصة أن موضوع الرواية ينصل بان رائق، وهذه الأسرة لعمريها دور في الإصلاح بين الإخشيد وبينه، وقد وردت في الرواية كنية هذا الأب (أبو محمد)، فيحتمل أن له ابناً آخر يدعى (محمد) هو صاحب هذه الرواية.

(٢) بحثنا عن تراجم عدد من الموارد؛ كي نحل مشكلة أخرى هي معرفة مدى الصلة بين المورد المقتول عنه وموضوع الرواية التي يرويها، ووقفت في تعرف عدد منها، لكي لا أستطيع الترجمة لها فذلك مما يطول جداً، وسأكتفى بمجرد الإشارة إلى بعضها، مثل: الحسين بن أحمد بن أرثخا (له علاقة بسبويه المصرى، ومعاصر له ولابن زولاق، راجع: أخبار سبويه المصرى ص ٤٠). ومحمد بن الحسين المفسر ليس هو الذى (تو ٣٥١هـ)، وله ترجمة في (وفيات الأعيان ٢٩٨/٤)، لأن المقصود بالمفسر هنا هو الذى يفسر الرؤى (روايته في سيرة الإخشيد ص ١٨٧)، ومحمد بن الحسين (وردت عنه روايات ألحق به فيها لقب الخوارزمي، وله صلة بسبويه المصرى أخبار سبويه المصرى ص ٤٤، ٤٦، ٤٨). وربما اعتمد ابن زولاق، على ما يبدو من نصوص بعض الروايات، على موارد ذات صلة وثيقة بالأحداث التي ترويها. ومن ثم لم نجد داعياً لتعريف هذه الموارد. فمثلاً: (الحسين بن أحمد بن أرثخا) نقل عنه ابن زولاق رواية، قال فيها: قال لى ألى: ثم شرح صلة الإخشيد الوثيقة بالوزير الفضل بن جعفر، وأن الإخشيد لما أراد وضع الترتيبات النهائية لدخول جيوشه مصر بالقوة؛ ليتولى حكمها، أرسل والد هذا المورد (أحمد بن أرثخا)؛ ليحضر الوزير إليه بدمشق لتدبير الأمور، وأمره أن يكون ذلك في سرية تامة. وفعلاً توجه ابن أرثخا إلى الوزير، ودخلا دمشق متنكرين في زى التجار. ثم وصف ابن أرثخا تفاصيل إكرام الإخشيد للوزير من طعام وشراب، ثم خلوقما معا ليبحث الأمر، ثم انصرف الوزير بعد ذلك (سيرة الإخشيد ١٥٨). ووضح هنا أن والد هذا المورد كان من خواص غلمان الإخشيد، وموضع ثقته، بحيث اتعنه على ذلك السر، وكلفه هذه المهمة الدقيقة. وتبقى - بعد هذا - مشكلة عدم معرفتنا ببعض الموارد، مثل: محسن (الذى لا نعرف مجرد اسم أبيه)، ومحمد بن عبد الله، وأحمد بن عبيد الله، وغيرهم.

الأصلي قد يكون والد المورد^(١)، وقد يكون شخصاً آخر على صلة وثيقة بالحدث^(٢). وفي مرة وحيدة ترجم ابن زولاق لهذا المصدر الأصلي، قائلاً: "وكان أحد القواد"^(٣).

ج- من الملاحظ أن عدداً من موارد ابن زولاق، ينتمون إلى أقاليم أخرى فبعضهم لُقّب بالعراقي، وآخر لُقّب بالصيمري، وثالث لُقّب بالبلسي، على نحو ما ذكرنا في استعراض القسم الأول من أقسام موارده. ومن الممكن أن يختلط بعض موارد ابن زولاق مع علماء أقاليم أخرى يشبهونهم في الاسم (مثل: محمد بن الحسين المكفوف المفسر، ومحمد بن الحسن المفسر البغدادي)؛ ولذا كان يجب أن يعرفنا ابن زولاق بموارده، ولو بترجمة قصيرة - كما كان أستاذه ابن الداية يفعل - حتى ندرك صلة المورد بالرواية^(٤)، كما قلت من قبل.

د- نشهد لابن زولاق عموماً بالدقة في استخدام ألفاظ الرواية التاريخية، فهو - أحياناً - يُصدر الرواية بلفظة: (قال)، ويعني نفسه^(٥). ويستخدم لفظة (حدثني)، (وحدثني)، (فحدثني) في بعض المواضع بدقة كبيرة. فاللفظة الأولى يأتي بها في بداية رواية جديدة في موضوعها، وليست مكتملة لما قبلها^(٦)، ويستخدم الثانية في الرواية التي تؤكد ما قبلها ولا ترتبط بها ارتباطاً عضوياً وثيقاً^(٧). بينما تأتي الثالثة - غالباً - عندما يقدم ابن زولاق لروايته بكلام، يلحق هذه اللفظة كرابط يربطها بين موضوع الرواية التالي، والكلام الذي تقدمه^(٨). واستخدم لفظة: (وحدثنا) مرة واحدة بدقة تامة؛ لأنها استخدمت للتعبير عن تلقي ابن زولاق كتاب سيرة ابن طولون لأستاذه ابن الداية، وسماعه عليه، وقد كان يحدثه به ويحدث به غيره في مجلس علمه. يقول النص: "وَحَدَّثَنَا أَبُو جَعْفَرٍ أَحْمَدُ بْنُ يُوسُفَ فِي كِتَابِهِ فِي سِيرَةِ ابْنِ طُولُونٍ بِمَا خَلَّفَهُ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَذْكَرَ فِي سِيرَةِ الْإِخْشِيدِ مَا خَلَّفَهُ"^(٩). وهذا يعني أن علم التاريخ في القرن الرابع الهجري استوى على سوقه - بعد استقلاله عن الحديث - وغدا له علماءه المتوفرون عليه، وبمحاسنه

(١) مثل: وحدثني الحسين بن أحمد بن أرغنا قال: قال لي أبي (سيرة الإخشيد: ص ١٦٠).

(٢) وحدثني محسن قال: سمعت كافورا يقول (السابق ١٨١)، وحدثني محمد بن الحسين المكفوف المفسر قال: قال لي الإخشيد (السابق ١٨٧).

(٣) السابق: ١٦٧.

(٤) وذلك من الأهمية بمكان؛ للتحقق من مدى صدق الوقائع والأحداث.

(٥) السابق: ١٥٠، ١٨٥.

(٦) قال: حدثني أحمد بن عبيد الله قال: ووصف ضخامة خزانة طبع التي تحمل الطيب في أسفاره. (السابق ١٥٠).

(٧) بعد الرواية السابقة قال: وحدثني بعض عدول مصر قال: رؤيته قاضي مصر الحسين ابن أبي زرعة يكثر الطيب، فرد عليه القاضي بأن طبع أمير دمشق كان يعرفه أهل دمشق بكثرة استعماله له (سيرة الإخشيد ١٥٠).

(٨) في أول سنة ٣٢٦هـ أرسل الراضي إلى مصر يستدعي الفضل بن جعفر للوزارة، فامتنع أن يلبس الخنك المرسل إليه. فحدثني ابنه أبو الفضل قال: ركب الإخشيد بنفسه إليه، وألبسه إياها بيده (المصدر السابق ١٧٣).

(٩) السابق: ١٩٦.

الخاصة به، ومريده الذين يحضرون تلك المجالس، يسمعون من المؤرخين، ويروون عنهم كتبهم.

هـ - هناك تناسب بين بعض الموارد وموضوع الروايات المنقولة منها؛ مما يفيد دقة ابن زولاق في اختيار هذه الموارد. فعندما يرى الأمير في منامه رؤيا، يطلب الإخشيد إلى (محمد بن الحسن المكفوف مفسر الرؤى) أن يؤولها له. ولما كانت تتصل بما يتنبأ به لكافور من مكانة في دولة الإخشيد بعده، اعتمد ابن زولاق على هذا المورد المفسر في نقل هذه الرواية، فهو أقدر من يحكى تفاصيلها؛ لأنه أحد أطرافها^(١). ولما أراد التحدث عن تولى الفضل بن جعفر الوزارة للراضى، وجد أن خير من يحدثه عن ذلك ابنه جعفر بن الفضل^(٢). واختار أن ينقل عن طبيب الإخشيد أبى الفرج البالى ما يتصل بتقرب كافور من سيده بتقريب أحب الطعام إليه، وتقديمه إياه بيده إليه. فالطبيب يشرف على كل لون يُقدَّم إلى الإخشيد، وينظر في مائدة الطعام، وأدري بما يُقدَّم وما يُمنَح، وشاهد كافوراً يقوم بما قام به^(٣).

و - بالنسبة لموارد ابن زولاق غير المحددة أو المجهولة، فإنها - رغم حرصه على إيراد ألفاظ السرواية بها - أقل في درجة الوثوق بها من الموارد الصريحة المحددة. وعلى كل، فعرض مضمون الرواية على المنطق العقلى والحس التاريخى كفيلاً بقبولها أو رفضها.

ز - وهناك روايات لم يذكر لها مورداً؛ نظراً لارتباطها - في الغالب - بأمور عاصرها ابن زولاق، ولمسها بنفسه، وشاهدها بعينه^(٤)، فلا حاجة للسؤال عنها.

ح - وأخيراً، تأتى وثائق كتابه، وهى متنوعة بين الطول والقصر، وتصاحب الإخشيد عبر مراحل حياته، منذ خدمته في مصر أيام الأمير تكين، ومروراً بتمكّنه من حكم مصر وارتفاع مكانته وتلقبه بالإخشيد، ومبينة جوانب علاقته بالروم والبيدنيين، وابن رائق وسيف الدولة. فهى - إذن - على جانب كبير من الأهمية، ولا بد أن ابن زولاق قد نقلها عن رواة ثقات قريبي عهد من الأحداث^(٥)، أو عن طريق وثائق الدولة وسجلات ديوان الإنشاء^(٦).

(١) السابق: ١٨٧.

(٢) سيرة الإخشيد: ١٧٣.

(٣) السابق: ١٨٧.

(٤) مثل: تفاصيل دخول الإخشيد مصر بالقوة (السابق: ص ١٥٨ - ١٥٩)، ومراسم الإخشيد في مواكبه الليلية بالشموع المضأة على البغال (السابق: ١٨٥)، ومواظبته على صلاة الجمعة بالجامع العتيق (السابق)، ووصف شكل الإخشيد (السابق: ١٩٠).

(٥) سيرة الإخشيد: ١٥٥.

(٦) مثل: كتاب الراضى إلى الماذرائى بتوليته تدمير شئون مصر (السابق ١٥٧)، ووثيقة رد الإخشيد المطول على رسالة رومانوس الرومى (السابق ١٦٧ - ١٧٣)، وغير ذلك.

رابعاً - النقد الدخلي:

أحاول - في هذه الجزئية - معالجة عدد من القضايا التاريخية، التي تثيرها أحداث (سيرة الإخشيد) لابن زولاق، واضعاً في اعتباري أمرين مهمين:

الأول - ألا يحدث تكرار هنا مع ما سبق أن ذكرته في الدراسة التمهيدية، عن الأوضاع السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية في العصر الإخشيدى^(١). وهذا يقتضى معالجة قضايا جديدة بتفصيل أكثر من خلال ما يذكره ابن زولاق مقارنة بغيره من المصادر، مع الاسترشاد برأى وفكر الباحثين المعاصرين.

الثاني - وضع تصور شامل، وتقويم متكامل لفترة حكم الإخشيد وحدها، باعتبارها موضوع سيرة ابن زولاق. ويتأتى ذلك من خلال النقد والتمحيص لصفات هذه الشخصية، وبيان مرتكزات سياساتها الداخلية وبيان الرأى فيها، إلى جانب إعمال العقل في تفسير علاقاته الخارجية؛ لنصل - في النهاية - إلى الحكم له، أو عليه.

١- حول التكييف القانوني لحكم الإخشيد بلاد مصر والشام:

وهذه قضية أساسية لمعرفة الطريقة، التي وصل بها هذا الرجل إلى حكم هذين الإقليمين الكبيرين حكماً شبه مستقل في ظل السيادة الروحية للخلافة العباسية، والدور الذي لعبه الوزير (الفضل بن جعفر) - على وجه الخصوص - حتى وصل محمد بن طغج إلى ما وصل إليه، وطبيعة صلات هذا الرجل بالإخشيد قبل توليه حكم مصر وبعدها حتى وفاته.

أ- رأى ابن زولاق في هذا الموضوع:

١- يبين ابن زولاق أن مكانة (محمد بن طغج) ارتفعت في بغداد، عندما تصدى هو وأخوه (على)، وبعض الجند لبعض قطاع الطريق، الذين حاولوا الاعتداء على موكب الحاج من الشام والعراق (وكانت فيهم جارية شغب أم المقتدر)، وذلك أثناء ولاية (ابن طغج) على عمّان وغيرها من قبل تكين سنة ٣٠٦هـ. وعُرف ابن طغج - بعد ذلك - لدى مؤنس الخادم عندما أقبل الأخير من العراق بجيوشه إلى مصر؛ لمواجهة جيش العبيديين من قبل القائم، فخدم ابن طغج مؤنساً، وقام على شتونه، وكان على رأس المدافعين عن مصر ضد هجمة العبيديين، فشكره مؤنس. بعد تقلد (محمد بن جعفر القرطبي) خراج مصر، غضب عليه محمد بن على الماذرائي وصرفه، فأكرمه ابن طغج وستره عنده. فلما سار القرطبي إلى العراق، رد لابن طغج

الجميل، وسعى له في ولاية الرملة، ثم عُوِّض عنها بدمشق، فخرج ابن طنج إلى هناك، حيث ولى دمشق، وقوى نفوذه وجنده^(١).

٢- ظل ابن طنج على دمشق، ووُلِدَ له بها ابنه القاسم (أونوجور) يوم عرفة سنة ٣١٩هـ^(٢). وظل ابن طنج بدمشق يرقب أحوال مصر، حتى توفي وبها تكيين (١٦ من ربيع الأول سنة ٣٢١هـ)، الذى كان قد استخلف ولده (محمدًا) في مرض موته، وباع للخليفة الجديد (الظاهر) بعد وفاة (المقتدر). حدث خلاف بين محمد بن تكيين، والمادرائي خرج على أثره محمد من مصر، ثم جاءه تقليد القاهرة له ولاية مصر، فمنعه المادرائي منها. انتهز ابن طنج هذا الصراع، وأرسل من دمشق كاتبه (على بن محمد بن كلا) إلى القاهرة يلتمس ولاية مصر، فرفض الخليفة؛ لأنه ولى محمد بن تكيين من قبل. وظل الأمر كذلك حتى خُلع الظاهر، وسُملت عيناه، فأرسل الإخشيد كاتبه سرًّا إلى بعض كتّاب القاهرة، وقَدَّم له رشوة، مقدارها ١٠ آلاف درهم، على أن يزور له كتاباً بأمر الظاهر بتقليد ابن طنج مصر. وتم المراد، وأُنْفِذ الكتاب إلى محمد بن طنج، فأرسله بدوره إلى مصر. في ذلك الوقت نجح ابن تكيين في إنزال الهزيمة بالمادرائي، وأظهر كتاب القاهرة بتوليته^(٣).

٣- لما وصل كتاب تولية ابن طنج المزور، تلقفه المادرائي؛ نكاية في ابن تكيين، ودعى لابن طنج على منابر مصر، وهو لا يزال بدمشق، اثنين وثلاثين يوماً. ثم ورد تقليد القاهرة (أحمد بن كيغلف) مصر وأعمالها (٩ من شوال سنة ٣٢١هـ)، فكان تقليد ابن طنج لم يكن. وسُرَّ المادرائي بذلك، وعادت له نعمته، وخرج ابن تكيين إلى بُلْبُلَيْس. لما ولى الخليفة الراضى، أرسل الوزير الفضل بن جعفر للإشراف على مصر والشام، وكان قد اشترط أن يكون له مطلق الأمر في التولية والعزل. ولَّى الراضى (محمد بن تكيين) حكم مصر، فاصطدم بابن كيغلف وهُزِمَ، ونُفى إلى إهميم. تصاهر ابن طنج مع الفضل بن جعفر الوزير (زَوْج الأول ابنته من ابن الآخر)، وتوطدت العلاقة بينهما، فكتب الوزير للإخشيد بولاية مصر؛ استناداً إلى حقه الذى اشترط من قبل. ولما سار رسول ابن تكيين إلى دمشق، أخذ منه ابن طنج كتاب تقليد (ابن تكيين)، ومحا اسم (تكيين)، وكتب مكانه (طنج)، فصار ذا عهدين بولاية مصر (عهد الوزير الفضل، وعهد الراضى المزور). ثم فشل ابن طنج في دخول مصر مسلماً؛ لوقوف المادرائي في طريقه. وفي الوقت نفسه أقر الراضى (ابن كيغلف) على مصر؛ لأنه كتب يشكره، وكان ابن كيغلف أخذ

(١) سورة الإخشيد: ١٥٣. وتم ذلك بضم قوات كثيرة بدمشق إلى قواته، وحصول إخوته عنده، فاستعزَّ بهم (عبيد الله، والحسن، والحسين، وعلى).

(٢) السابق: ١٥٥.

(٣) سورة الإخشيد: ١٥٦.

قواته، ومنع دخول بعض من ولاهم الوزير الفضل خراج مصر وغيره من المناصب. وصارت للمادرائي اليد الطولى في مصر، لما كتب إليه الراضى يفوض إليه شئونها (يقلد من شاء، ويصرف من شاء)^(١).

٤- أرسل المادرائي إلى ابن طفج كتاب الراضى إليه بعد أن قرأه على الناس، فتأكد ابن طفج أنه لا بد من دخول مصر بالقوة، وسارع بالإرسال إلى الوزير الفضل، فجاءه سرّاً متتكرراً في زى التجار، واتفقاً معاً على ترتيبات دخول مصر^(٢). ثم جرت أحداث الصدام المسلح حتى استسلم ابن كيغلف لما رأى كتاب تقليد الراضى إياه، وتمكن ابن طفج من دخول مصر يوم الأربعاء لسبع بقين من رمضان سنة ٣٢٣هـ^(٣).

٥- ثم دخل الوزير (الفضل بن جعفر) إلى مصر بعد حكم الإخشيد لها، فاستقبله الإخشيد، وخلع عليه عند باب المدينة وزُينت لهما المدينة. وكشف الوزير مكان استتار المادرائي، ثم أحضره وسأله أموالاً تُعين على نفقات الحج، فزعم قلة ما لديه من الأموال^(٤).

٦- أراد الفضل بن جعفر أن يجد رجلاً، يناظر محمد بن على المادرائي فيما عليه من أموال، فلم يجد إلا (الحسين بن الرقى)، الذى أودى وعُذّب بسبب المادرائي من قبل، وكان قدم من دمشق، ودخل مصر مع الفضل بن جعفر. ولم تتم المناظرة لحيلة، قام بها المادرائي أغرى فيها الإخشيد بأموال طائلة، فأنقذه من ذلك الموقف العصيب المهين، واشترط الإخشيد - بمقتضى ذلك - على الوزير أن يكون مكرماً للمادرائي، ولا يأخذ منه إلا ما يوجد عليه من أموال، فضمن الوزير ذلك، ثم قام بقبض ضياعه بالشام، وأكثر ضياعه بمصر^(٥).

٧- جمع الإخشيد في مصر بين ولايتين: (الحرب والصلاة)، و(الخراج وتبدير الأموال) كابن طولسون. وكان مقر الأولى في دار الإخشيد، والثانية في دار الفضل بن جعفر. ولما انتهى الوزير من تبدير السبلد، وتقرير الأموال، وكشف الضياع في مصر، خاصة ضياع المادرائيين، خرج إلى الشام ومعه المادرائي موكلاً به. وعاد الإخشيد بعد توديع رسمى وشعبي للوزير، وولى أمور مصر كلها^(٦).

٨- في شهر شعبان من سنة ٣٢٤هـ، كتب الإخشيد إلى الخليفة الراضى يُقلعه بما تم في مصر على يديه ويدي الوزير الفضل، وما وفراه من أموال، وما تم بشأن المادرائي، فقدم رسول

(١) سيرة الإخشيد: ١٥٧.

(٢) وكانت رسل المادرائي بكتاب الراضى إليه قابلت جيوش الإخشيد بالفرمان قادمة إلى مصر، فأرسلهم إلى الوزير الفضل بن جعفر بالرملة، فقيدهم الوزير (السابق ١٥٨).

(٣) السابق: ١٥٧-١٥٩.

(٤) السابق: ١٦١.

(٥) السابق: ١٦٣.

(٦) سيرة الإخشيد: ١٦٢.

الراضى إليه بالخلع والطوق والسوارزين، واستقبل استقبالاً حافلاً. وخرج الإخشيد يوم الأربعاء وعليه خلع الراضى، وصليا في الجامع العتيق، وعادا إلى دار الإخشيد. وعاد الفضل بن جعفر الوزير من الشام إلى مصر، فتلقاء الإخشيد وجميع الناس^(١).

٩- في سنة ٣٢٦هـ، وبعد ما خلعه الراضى على ابن طغج من خلع وغيرها، كتب ابن طغج إليه يسأله منحه لقب الإخشيد، فوافق الراضى. وفي أول سنة ٣٢٦هـ، أرسل الراضى إلى مصر، يستدعى الفضل للوزارة (أى: في بغداد)، فامتنع من لبس الخلع، لكن الإخشيد أقنعه بقبول ذلك، وألبسه إياها بنفسه، وشيَّعه أهل مصر، فخرج إلى الشام، ثم إلى العراق. وخلف ابنه أبا الفضل (جعفرًا) بمصر. فلما بلغ الرقة، لقينته خلع أخرى للوزارة، فلبسها ودخل بغداد، ودبر الأمور، لكنه وجدها مضطربة، فاستأذن الخليفة الراضى في السير إلى الشام ومصر؛ لحمل الأمور، وكشف الأعمال، مستخلفاً مكانه (عبد الله بن على المغربي). وسار إلى الشام، فتوفى بالرملة ٨ من جمادى الأولى سنة ٣٢٧هـ. فحزن الإخشيد لفقده، وأرسل إلى الرملة في طلب المادرائى، الذى كان موكلاً به بالرملة في دار الفضل ثلاث سنين، ولثمانية أشهر. فلما وصل المادرائى، أنزله الإخشيد معه في داره^(٢).

ب- والآن، مع مناقشة هذه الأحداث، والتعليق عليها:

أ- أول ما نلاحظه على هذه الأحداث أنها توضح تعلق ابن طغج بحكم مصر، فيجمع بذلك بين الشام المتواجد فيها ومصر، كما كان سلفه ابن طولون من قبل. وفي سبيل ذلك أوضح ابن زولاق أن الإخشيد زور عقد ولايته على مصر مرتين (عن طريق الرشوة مرة، وعن طريق التزييف أخرى). ومن ثم تكون ولايته غير قانونية ولا شرعية؛ لأنها لم تصدر - أساساً - عن مملك التولية والعزل (الخليفة العباسى). وقد كان من الممكن أن نصدق كلام ابن زولاق بهذا الشأن، فحال الخلافة بلغ درجة كبيرة من الضعف، وأصبحت قراراتها في التولية والعزل متضاربة، وأصبح - كما رأينا من نصوص ابن زولاق - كتاب التقليد فاقد الأهلية والاحترام، والقوة هي أساس فرض النفوذ. كان من الممكن قبول ذلك لولا تضاربه مع الحقائق التاريخية المقررة، التى تقطع بأن الخليفة القاهر بالله ظل في الحكم، حتى خلع يوم السبت ٣ من جمادى الأولى سنة ٣٢٢هـ، وسُملت عيناه^(٣). ومعنى هذا أنه كان لا يزال في الحكم عندما ولى

(١) السابق: ١٦٥-١٦٦.

(٢) سيرة الإخشيد: ١٧٣. وهذا دليل حب الإخشيد وإكرامه إياه، ولم لا والإخشيد هو الذى صانه من قبل من الإهانة المخفة، التى كان سيتعرض لها على يد الوزير الفضل ٩.

(٣) كانت مدة حكمه خليفة سنة، و٦ أشهر، و٧ أو ٨ أيام. ويوبع بعده ابن أخيه (الراضى ابن المقنتر). (النجوم/٣)

الإخشيد مصر للمرة الأولى، فقد ورد الكتاب بولايته يوم الأحد ٧ من رمضان سنة ٣٢١هـ، وظل هكذا - وهو في دمشق لم يدخل مصر - مدة ٣٢ يوماً، حتى قدم رسول ابن كيخلف بولايته الثانية على مصر في التاسع من شوال من العام نفسه^(١) (وفي عهد القاهرة أيضاً). ومن ثم، فسرّوا ابن زولاق التي تجعل تزوير الكاتب تقليد الإخشيد مصر بعد خلع القاهرة، غير صحيحة^(٢). ويكون القاهرة قد عاد عن تمسكه بولاية محمد بن تكين لسبب لا نعرفه، لعله ضعف ابن تكين عن مقاومة المادرائي الراضى لولايته.

أما بالنسبة لما زعمته رواية ابن زولاق عن محو الإخشيد اسم تكين من كتاب تقليد (محمد ابن تكين)، وكتابه اسم أبيه (طغج) مكانه، ونسبته بذلك كتاب الراضى إلى نفسه بولاية مصر، فأعتقد أن الرواية متكلفة، وواضح منها أنها ملفقة وغير مقنعة، فلا مناسبة لتوجه رسول الخليفة بكتاب إلى ابن تكين، فيذهب به إلى ابن طغج بدمشق، ويسلمه إياه، فيقوم بذلك التزوير بنفسه! وأعتقد أنه لا داعي لما ذهب إليه الدكتور سيدة كاشف^(٣)، ومن تبعها من الباحثين^(٤)، من تعليل عدم قبول كلام ابن زولاق في هذا الموضوع بأنه يرجع إلى التعديلات التي أدخلها ابن زولاق على كتابه بعد سقوط الدولة الإخشيدية، ومقدم العبيدين إلى مصر؛ تقريباً إليهم، وطلباً لرعايتهم، عن طريق الخط من شأن الإخشيد ودولته، والزعم بأن ولايته غير شرعية^(٥).

ب- يعد دخول الإخشيد مصر بجيوشه نوعاً من فرض الأمر الواقع بقوة السلاح؛ إذ إننا نعتقد أنه لم يدخلها بكتاب من الراضى سلفاً، وإنما كان معتمده على تقليد الوزير الفضل إياه^(٦)، بحكم ما بينهما من مصاهرة، ومصالح مشتركة (ابن طغج يريد حكم مصر إلى جانب

(١) كان ابن زولاق دقيقاً في تحديد هذا التاريخ (سيرة الإخشيد ص ١٥٧). أما الكندي في كتاب (الولاة - ط. جست - ص ٢٨٢)، فجعله اليوم السابع من شوال بدل التاسع، وهو تحريف واضح. أما د. حسين نصار في طبعته لكتاب (ولاة مصر) للكندي، فكتبه إلى ذلك وصحح التحريف، وعلق في هامش ١ ص ٣٠٠ بأن هذا الرقم هو الذي يتناسب مع القول بأنه قضى في ولايته الأولى ٣٢ يوماً فقط. وورد في (المخطوط) دون تحريف ٣٢٨/١. ولا صحة لما ورد في (النجوم) ٢٧٠/٣ من قوله: ولّى الإخشيد مصر للمرة الأولى من أواخر شعبان إلى أواخر رمضان.

(٢) مصر في عصر الإخشيديين: ص ٦٩.

(٣) مصر في عصر الإخشيديين: ٧١.

(٤) حسن جبر في رسالته للدكتوراه ص ٢٢٨، وفرج الأحول في رسالته للماجستير: (حضارة مصر في عهد الدولة الإخشيدية) ص ٣٥-٣٦.

(٥) سوف أوضح وجهة نظري في التعديلات، التي أشار إلى إحداثها في سيرته ابن زولاق، والمقصود منها عند تناول (منهجه التاريخي) بعد قليل.

(٦) فإذا كنا لم نقبل أن يزور الإخشيد كتاب الراضى كما وصمه ابن زولاق، فنحن - في الوقت ذاته - نرى أن الإخشيد لم يكن لديه أصلاً كتاب تقليد من الراضى. وما ذكره ابن زولاق من أن ابن كيخلف سلم لما رأى كتاب تقليد الراضى للإخشيد أمر مشكوك في صحته، والصواب أنه سلم؛ لأنه لا قبل له بجيوش الإخشيد، ولم يكن يريد حربه منذ البداية، لكن المادرائي دفعه إلى القتال دفعاً (الولاة، للكندي ٢٨٦).

الشام، والوزير يريد فرض سيطرته على ماليتها معاً، وعزل المادرائي وسلبه جميع نفوذه، ومصادرة ممتلكاته وما لديه من أموال لصالح الخلافة؛ كى يحظى برضاها). والدليل على صحة ما ذهبْتُ إليه أن الكندى ذكر أن الراضى ولى الإخشيد على صلاة مصر وخارجها للمرة الثانية في الرابع والعشرين من رمضان سنة ٣٢٣هـ^(١). فالخلافة لم تقرر في منصب كان فيه من قبل، وإنما ولَّته بعد أن انجملت الأمور، وتكشف لها أنه أقوى المتصارعين على ولاية مصر. ويلاحظ أن ابن زولاق أغفل ذكر هذا التاريخ المهم، وإن كان قد أشار بعد ذلك إلى جمع ابن زولاق بين الصلاة والخارج، وأوضح مكان إدارة كل، وأبرز دور الوزير الفضل، وهو الإشراف العام على الشئون المالية في كل من: مصر، والشام. وبذلك تأكدت ولاية الإخشيد الشرعية، واتضح دور الوزير الفضل إلى جانبه، وانفرد بهما معاً بعد خروج الوزير إلى الشام (وإن كان هذا لا يمنع من قيامه بدور المراقبة والمحاسبة).

ج- بالنسبة لعلاقة الإخشيد بالوزير الفضل، فقد أوضح لنا ابن زولاق دور الوزير الفَعَال في تولية الإخشيد مصر، لكنى لا أوافق على ما ورد في بعض المراجع من أن الفضل قدم سنة ٣٢٤هـ إلى مصر بالخلع إلى الإخشيد من قبل الراضى تولية له على مصر^(٢). فابن زولاق يذكر أنه قدم إلى مصر بعد الإخشيد لها، وما كان للإخشيد أن يملكها إلا بعد تقليد الخليفة له كما مر قبلاً.

(١) الولاة، للكندى ٢٨٦.

(٢) مصر في عصر الإخشيديين، للدكتورة سيدة كاشف: ص ١٠٤. وبالرجوع إلى مصادرها المذكورة في هامش ٦ ص ١٠٤ تبين ما يلي: ورد في (الولاة للكندى ص ٢٨٧) ما نصه: "ثم قدم أبو الفتح الفضل بن جعفر بن محمد بن فرات مُكشَّفاً (أى: لكشف الأموال، والضَّياع)، وقدم بالخلع، فخلعتُ على محمد بن طنج". وى (المخطوط) ٣٢٩/١: ذكر أن الوزير الفضل قدم بالخلع لمحمد بن طنج. أما ابن زولاق، فنصه يختلف عما مضى، إذ يفيد أن الوزير لما قدم إلى مصر، استقبله ابن طنج، وخلع عليه عند باب المدينة خلعاً سلطانية (أى: الإخشيد هو الذى خلع على الوزير ما يليق بمكانته، وما يناسب قدره؛ عرفاناً بحمله عليه في ولاية مصر). ثم إن الخلع ليست من مراسم ولاية الولايات غالباً، وإنما تُخلع على الوزراء. أما الوالى، فيكتفي كتاب التقليد من الخلافة. وإذا صح - بعد ذلك - خلع الراضى، ثم التقى على الإخشيد؛ لسمو مكانته، فذلك أمر وقع بعد الحادثة التى تناقشها. هذا هو الفهم الذى أروجه من خلال أصح النصوص بهذا الشأن (نص ابن زولاق). أما الكندى والمقريزى، فقد عكسا رواية ابن زولاق، وهما غير مقبولتين؛ لأن تقليد الإخشيد وصل من الراضى قبل مجئ الوزير الفضل. ثم إن أياً من النصوص السابقة لم يحدد تاريخ قدوم الوزير إلى مصر. وقد حددته د. سيدة كاشف على سبيل الاستنتاج معتمدة على ما ورد في بعض المصادر من أن الإخشيد ولى سنة ٣٢٤هـ أعمال مصر مع ما كان معه من الشام. (تجارب الأمم ٣٣٢/١، وتكملة تاريخ الطبرى ٢٩٨، والكامل ١٢٦/٧، وتاريخ الإسلام ٣٤/٢٤). وأعتقد أن هذا النص يفهم على أنه تأكيد من الخلافة على جمع الإخشيد بين ولايتي مصر والشام، فتقليده مصر، كان سنة ٣٢٣هـ. ويبدو أن التقى لله (ورد خطأ بلفظ المقفى لأمر الله) لما ولى وسَّع نفوذ الإخشيد، فحدد له ضم الشام إلى مصر، وكذلك الحجاز، وغيرها. (وفيات الأعيان ٥٨/٥). وترى د. سيدة كاشف أن سلطة الإخشيد على الحجاز واليمن كانت شكلية (مصر في عصر الإخشيديين ص ٣٧٤).

هذا، وقد ظلت العلاقة حميمة، والاستقبالات الشعبية والرسمية قائمة على قدم وساق مع الاحتفالات والزيارات في البلد كله عند دخول الوزير الفضل^(١). ومع ذلك كله، فإن ألمح رغبة دقية داخل نفس الإخشيد أن تزول سلطة إشراف الوزير على الأوضاع المالية في مصر والشام؛ ولذلك فكأنما انتهز فرصة توليه وزارة الخليفة الراضي، حتى أقنعه وألح عليه بقبول المنصب، وألبس خلع الوزارة يديه. وفعلًا كأنما تنفس الإخشيد الصعداء بخروجه، ثم موته قريباً إلى ذلك (سنة ٣٢٧هـ)، وموت ابن رائق بعده (٣٣٠هـ)، ففرغ قلبه بموتهما على حد تعبير ابن زولاق الدقيق^(٢)، وبدأ يسلك مسلك ابن طولون، وابنه حمارويه في اختصاص نفسه بموكب معين وملبس معين دون سواه، واشترط في عسكره شرطاً معيناً^(٣).

٢- سياسة الإخشيد الداخلية، والخارجية:

تنبع سياسة الإخشيد على الصعيدين: الداخلي، والخارجي من واقع صفاته النفسية، وحالته الجسدية المركزة داخله؛ إذ إن تصرفاته هي انعكاس واضح لتلك الصفات جيداً ورديتها. ومن هنا سأعرض - باختصار - لعدد من صفاته تلك؛ حتى يصح الربط بينها وبين سياساته الداخلية والخارجية، وعلى ضوء ذلك يمكن تفسيرها.

من صفات الإخشيد الطيبة:

- أ- تمتعه بحُلة الصفح والعفو الجميل: فقد كان الإخشيد أكرم (محمد بن تكين)، وكان يؤاكلة، وولاه طبرية. فلما ورد ابن رائق إلى الشام، صار ابن تكين معه ضد الإخشيد، وعندما هزم ابن رائق في موقعة العريش، استأمن ابن تكين، فلم يؤاخذه الإخشيد، وظل مكرماً إياه^(٤).
- ب- حرصه على أداء الشعائر، وحضور ختم القرآن^(٥)، وعَشَيان مجالس العلماء والفقهاء ومكافأهم^(٦)، وكرهيته تنازعهم واختلافهم^(٧).

(١) تعددت مرات دخول وخروج هذا الوزير. وسوف أرصد مدى اهتمام ابن زولاق بتوثيق ذلك مقارنة بالمصادر الأخرى، ومدى دقة في الترتيب والتسلسل المنطقي في عرض الأحداث، وذلك في (منهج ابن زولاق في سيرة الإخشيد)، بإذن الله.

(٢) سيرة الإخشيد: ص ١٨٠.

(٣) المصدر السابق: ١٨٠. وقد اشترط في عسكره ألا يكون هم شيخ، وأمر الشيوخ بصيغ لحاهم، وزاد في الرواتب للوفاء بذلك.

(٤) السابق: ١٨٤.

(٥) السابق: ١٨٥.

(٦) كافا أحد فقهاء الشافعية بدمشق بتوليته (مظام السواحل)، لما أحابه عن معنى عبارات بذكرها الفقيه الزني الشافعي. (سيرة الإخشيد: ١٨١).

(٧) هم بمعاقة الفقيه ابن الحداد الشافعي، وعدد من فقهاء المالكية لما كثر لفظهم في مجلسه، فقد كان يصون بمجالسه التي يحضرها عما يُستفتح (المصدر السابق: ١٨٢).

ج- يبدو أن الإخشيد كان منذ بداية حياته مطالعاً للقرآن، تالياً له، واتضح ذلك في رده على كتاب تكين إليه^(١).

من صفاته السلبية:

مع ما تقدم من صفات حسنة للإخشيد، إلا أنه كان يعاني صفات نفسية ذميمة، اعتقد أن لها دخلاً في النوبات العصبية (كالصرع مثلاً)، التي كانت تتناوب بين الحين والآخر^(٢)، منها: اتصافه بالشره الشديد في تناول الطعام^(٣)، ونهمه الذي لا حدود له في امتلاك الأموال، وكان هذا يدفعه إلى السطو على مال الغير^(٤)، والتطلع إلى ما يمتلكه الغير وسلبه إياه^(٥)، إلى جانب البخل الشديد، الذي قد يصل إلى حد الإمساك عن تناول الطعام بعض الأيام؛ لانشغال قلبه بإخراج بعض الأموال^(٦). وكذلك البخل بالإدلاء بالرأى النافع المفيد، واحتفاظه به لنفسه^(٧).

وقد انعكست هذه الصفات وغيرها على سياسته الداخلية فترة حكمه. ومن أبرز معالم هذه السياسة ما يلي:

أ- انعدام حرمة الأموال:

لم تكن لممتلكات الناس الخاصة (أموال، وضياع، وغيرها) أية حرمة لدى ابن طنج، وكان

- (١) قال تكين في رسالته لابن طنج، لما هرب من مصر إلى الشام في عهده ما حكاه القرآن على لسان فرعون يخاطب به موسى: «أَلَمْ نُؤْتِكْ فِتْنًا وَلِيَدًا، وَلَيْسَتْ فِتْنًا مِنْ عُمْرِكَ سَيْنٍ، وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ فِتْنَتَكَ الَّتِي قَعَلْتَ». (الشعراء: من الأيتين ١٨-١٩). فكان من رد ابن طنج عليه: «فَقَرَزْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خَفَيتُكُمْ». (الشعراء: من الآية ٢١). (سيرة الإخشيد: ١٥٥). وذكر ابن زولاقي في موضع آخر أن الإخشيد كان عباً لقراءة القرآن، ويبكي عند سماعه (السابق: ١٨٨).
- (٢) اعتقد أن شدة تعلقه بالمال، وعظيم انشغال قلبه به، ونهمه الذي لا حد له لامتلاكه، كان يضغط على أعصابه بقوة، فيسبب في حالات الصرع، التي تتناوب بين فترة وأخرى. وقد أورد ابن زولاقي بعض مناسبات معاودة هذه الحالة المرضية للإخشيد، فأتضح منها أنها تأتيه عندما يتعرض لضغط نفسي، وعصبي شديد. ومن مواضع ذلك: أنها تأتيه عند تأهبه للمسير لقتال ابن رائق، فعولج أياماً (السابق: ١٧٤). وكذلك عندما جاءه رد نائبه في بلاط الخليفة الراضى، وقد أخبره بأن الراضى لم يعلق على كتاب الإخشيد إليه، شاكياً طمع ابن رائق في ولاية مصر، وأن (تجكم) أرسل ابن رائق مُقلداً ولاية مصر، وأن الخلافة ستكون مع من تكون له الغلبة بالسيف منهما. (السابق: ١٧٦).

(٣) سيرة الإخشيد: ١٥١، ١٨١.

(٤) السابق: ١٨١-١٨٢.

(٥) حتى ولو كان ذلك ثياباً وملابس غالية الثمن، يزعها عن صاحبها، ويرتديها هو. (السابق: ١٨٥).

(٦) حدث ذلك عندما طالبه ابن رائق بمزيد من الأموال، التي يقدمها للخلافة سنوياً، ولم يعد إلى طعامه حتى خفف عنه المحيطون به، وخوفوا عليه ذلك، وطالبوه أن يبتزها أموالاً اكثلك التي قدمها الرسول للمؤلفة قلوبهم. (السابق: ١٨٢-١٨٣).

(٧) لقد احتج لنفسه بموضوع مكان نقل دار صناعة السفن من مكاهما الأصلي بالجزيرة على النيل؛ كى لا تكون عرضة لإحراق المراكب بها، رغم أن ذلك المكان خطر له عندما أثر الموضوع في مجلس طعام تكين وهو حاضر إياه، وقال - في نفسه - يومها: أدع ذلك الرأى لنفسى إذا ملكت مصر. وبالفعل نقله في ولايته إلى دار بنت الفتح من خاقان؛ حتى لا يفصل بينه وبينها ماء، وحول دار الصناعة القديمة إلى بسنان. (السابق: ١٦٠).

يستطلع للحصول على الأموال بكافة الطرق والأساليب، وقد عُرف ذلك عنه منذ كان حاكماً لدمشق^(١)، وبدأ به عهده في حكم مصر لما سمح لجنده عقب دخول مصر بالسلب والنهب مدة يومين كاملين، ثم أعلن أن مَنْ نهب قُتل^(٢). وكذلك تعرض محمد بن علي الماذرائي لمصادرة ضياعه وممتلكاته بمصر والشام^(٣). والواقع أن الإخشيد ما كان يأتيه الخبر بامتلاك أى من كتابه أو قواده شيئاً من المال، إلا يبادر إلى مصادرتها^(٤). وقد حدث ذلك مع كاتبه (عمران بن فارس)، إذ استدعاه من الشام ونكبه و أمواله وصارها^(٥)، وكذلك كاتبه (محمد بن كلا)^(٦)، وكان لا يتورع عن الاستيلاء على تركات المتوفين من القادة أو التجار الأثرياء^(٧)، ناهباً بذلك حقوق وأموال الورثة (وفيهم اليتامى، والأرامل).

ومن عجب أن يدرك الإخشيد أن أموال المصادرة مشنومة، لكنه يعتذر بأنه ما أنفقها إلا في سفر إلى عدو^(٨). ويذكر ابن زولاق أن الإخشيد كان رقيق الوجه فيه حياء، فلا يعذب أحداً عند مصادرتها، ولا يتعرض للحرم^(٩)، ولا يرى المصادرات إلا بعد فترة، ثم يصطفيه ويؤانسه^(١٠). ويبدو أن الناس عرفت تلك السياسة الذميمة، فلم تستحب لنداء الإخشيد إليهم أن يتبعوا في المسجد؛ لأجل فداء الأسرى؛ مما اضطره إلى إرسال المراكب والأموال اللازمة من طريق أخرى^(١١).

ويمكن القول بأن هذه السياسة ظالمة، خاصة أننا لم نرها مسبوقة بتحقيقات (أو مناورات) تتم مع أولئك المصادرين؛ للتأكد من مصادر ثرواتهم، ومدى أحقيتهم في امتلاك هذه الأموال. ولا نقبل دفاعه عن نفسه بأنه كان ينفقها في أسفاره؛ لصدد أعدائه. كما لا نقبل دفاع البعض عنه من أنه كان يستهلك الجانب الأكبر منها في إقامة المشروعات والمنشآت، والمشاركة في نفقات فداء الأسرى، بخلاف ما يبعث به إلى الخلافة من أموال^(١٢)؛ لأن ذلك كله لا يبرر الجرم الفظيع الذى ارتكبه في أكل أموال الناس بالباطل. وتلك الأمور التي يتحدثون عنها لها مواردها

(١) فقد أتهم الإخشيد - رغم كراهيته سفك الدماء - بدمر السم يُشترى الخادم، الذى وقع في أسره بعد قتال سهما، ثم احتوى على نعمته، وضم قواته وحنده إليه. (سيرة الإخشيد: ١٥٣، د. سيده كاشف: مصر في عصر الإخشيد: ص ٦٥).

(٢) سيرة الإخشيد: ١٥٩.

(٣) السابق: ١٦٢. (٤) السابق: ١٨٧. (٥) السابق: ١٥٤. (٦) السابق: ١٦٤.

(٧) فقد صادر في شهر شعبان سنة ٣٢٤هـ مبلغ مائة ألف دينار من تركة أخل تاجر في مصر بعد وفاته، وهو غفان بن سليمان البراز (السابق: ١٦٥).

(٨) السابق: ١٨٨.

(٩) السابق.

(١٠) سيرة الإخشيد: ١٨٨.

(١١) السابق: ١٦٦.

من خزينة الدولة، ثم إن ما وجد من أموال في ممتلكاته وخزائنه^(١) - مهما كان مبالغاً فيه - يدل على كثره هذه الأموال لنفسه؛ نتيجة غنمه، وأطماعه المادية التي لا حدود لها^(٢).

ب- انتهاجه سياسة اللين والمدافعة، وقبوله الرأى السليم:

وخير مثال ضربه ابن زولاق على ذلك حادث اعدام جزء من كنيسة أبي شنودة سنة ٣٢٦ هـ. وقد حاول النصارى بذل الأموال للإخشيدي؛ ليسمح لهم بعمارته، لكن يبدو أنه خشى ثورة الناس عليه، فأحال على قُتيا الفقهاء، فالبعض أجاب والبعض رفض. وحدث ما توقعه الإخشيد، إذ ثارت العامة إلى دار من أفتى بتعميرها، وحاولوا إشعال النار فيها، وقتله؛ مما دفعه إلى الاستتار نادماً على فتواه. وارتكب الناس أحداث شغب عظيمة، وأغلَقوا الدروب، وأحاطوا بالكنيسة. وقد أرسل إليهم الإخشيد وجوه غلمانته، مثل: كافور، وشادن في عسكر كبير، وأمهرهم ألا يلتحموا بالناس، لكن الرعية هي التي زحفت إليهم، ورموهم بالحجارة، فأمرهم الإخشيد بالرجوع. ثم عالج الموقف بكياسة وتؤدة، إذ أوفد الفقيه ابن الحداد (وكان ممن أفتى بعدم جواز تعمير الكنيسة) إلى تلك الكنيسة، فإن كانت آيلة للسقوط هدمها، وإلا فلا. واصطحب ابن الحداد معه المهندس (على بن عبد الله البواش)، ورفق بالناس وطمأنهم، حتى دخل ومعه المهندس إليها. فلما فحصها، وجد أنها يمكن بقاؤها خمس عشرة سنة، ثم يَهْوَى منها جزء، وبعدها بخمس وعشرين سنة تسقط بكاملها. فلما سمع الإخشيد ذلك الرأى، قبله وعمل به، فتركها ولم يعمرها^(٣). وبذلك تجنب ثورة الناس العارمة، ولم يَعتَدِ - في الوقت نفسه - على مقدسات النصارى.

ج- محاولة إقامة العدل، وحسن معاملة الرعية (خاصة العلويين):

يبدو أن مظالم الإخشيد المالية لم تكن تتجاوز القادة والكتّاب، والتجار الأثرياء. أما عامة الناس، فقد كان الإخشيد حريصاً على إجابة مطالبهم. فقد ورد أنه كان يجلس بنفسه للناس للقضاء في المظالم كل أربعاء^(٤). وكان يكرم الصالحين ويُنفِّذ ما يرون، فقد دخل عليه أحدهم، ويدعى (محمد بن أحمد الديّورى) منكرراً لأمر، فأزالها الإخشيد^(٥).

(١) سيرة الإخشيد: ١٩٦-١٩٧.

(٢) حتى لقد بلغ جشعه حدّاً، أوصله إلى الاحتكار، إذ كان يحب العنبر، فكان أكثر ما يُهدَى إليه. فإذا جاءت الأعياد، أخرجت كمياته الضخمة من خزائنه، وُتباع إلى التجار، فيشتريه الذين يهدونه إليه، فيحصل له الثمن الوفير، ثم يعود إليه العنبر ثانية. وهكذا، أقام سنين كثيرة، حتى اجتمع عنده قناطير. (السابق: ص ١٨٦-١٨٧).

(٣) سيرة الإخشيد: ١٨٣-١٨٤.

(٤) المصدر السابق: ص ١٩٠-١٩١.

(٥) سيرة الإخشيد: ص ١٩١.

وبالنسبة للشام، فقد كان يسير في شوارع الرملة، حتى صاحبت به امرأة من فوق سطح: أيها الأمير، قفْ على بوقوفك بين يدي الله. فنظر إليها، ونزل عن دابته، وأحضرت المرأة، فشكت إليه غياب صبيها عنها، فأمر بإحضاره، وتصدق عليها بمائة دينار، عسى الله أن يرحم ذل موقف بين يديه^(١). وقد أورد ابن زولاق رواية، تفيد حسن معاملة العلويين، واحترامه إياهم، وتساهله معهم، ومنحه الأمان لأحد كتّابه المستترين عنه في دار أحد العلويين؛ إكراماً له^(٢).

بالنسبة لعلاقات الإخشيد الخارجية، فإنني أكفي - فقط - بمحاولة تفسير سياسته تجاه ابن رائق^(٣)، ثم سيف الدولة الحمداني^(٤) بالشام. يتضح من أخبار صدامه مع هذين الرجلين، ومع غيرهما من الطامعين في دولته^(٥)، أنه رجل مسالم، يميل إلى الصفع والمسالمة، ولا يلجأ إلى القتال إلا حين لا تنفع الوسائل السلمية. وقد لجأ إلى المصاهرة والمصالحة مع ابن رائق؛ لعلمه أنه رجل الخليفة، والصدام مع جيوشه وإلحاق الهزيمة بها يوقعه في الحرج الشديد. ولذلك تحمل عدواة واعتداء ابن رائق حتى خَلَصَه القدر منه سنة (٣٣٠هـ). أما سيف الدولة، فرغم انتصار الإخشيد عليه إلا أنه لم يكن معه حاسماً. وقد فسّر الإخشيد نفسه ذلك بأن سيف الدولة رجل صعب المراس، عسكر حذائهم - رغم هزيمته - بوجه صفيق، وقلة حياء. وقد اختار الإخشيد مسألته، ولم يسمع لغلماناه المتحمسين لمواصلة القتال؛ لأنه رأى أن الأمر لن يخرج عن شيئين: إما أن ينتصر سيف الدولة، فنكون هزيمتهم عاراً وفضيحة. وإما أن ينتصر الإخشيد، ويقع سيف الدولة في الأسر، فيجهز له كل وسائل الراحة، ويكلفه - بعد ذلك - ردّه لأهله؛ لأنهم لا يتركونه. بعد ذلك لا يَسْلَم من أذى وامتنان غلماناه عليه، يطالبونه بالأموال، ويسألونه الأعمال والولايات^(٦).

والخلاصة :

أن الإخشيد نجح في إقامة دولة قوية، ضمت مصر والشام، محاولاً ترسّم خطى ابن طولون في سيرته ودولته^(٧)، وحقق لمصر الاستقرار والازدهار، لكنه أساء في أسلوب المصادرات. ونجح في إقامة علاقات متوازنة بالخارج، سالم وصالح فيها قُوَى عصره، وجنّب شعبه مخاطر الحروب وويلاتها.

(١) المصدر السابق: ص ١٩١.

(٢) راجع تفاصيل قصة هذا الكاتب (سهل بن محمد البغدادي) مع العلوي (أبي إبراهيم الرُستيّ العلوي)، التي انتهت بتأمين الإخشيد للكاتب، ومنحه خاتمه للعلوي وتكرمه. (السابق: ١٨٨).

(٣) تفاصيل الصدام في: زبدة الحلب ٩٩/١ - ١٠٢.

(٤) السابق: ١١٤/١ - ١١٥.

(٥) نجح الإخشيد في استقطاب كافة الطامعين إلى ولاية مصر (ذكرهم ابن زولاق في سورة الإخشيد ص ١٨٢).

(٦) سورة الإخشيد: ١٩٥، وأضاف بعض المحدثين أنه يريد الإبقاء على الحمدانيين، كحصن في مواجهة الروم (مصر في العصور الوسطى) ص ٢٤٤.

(٧) سورة الإخشيد: ١٦٣، ١٨٠ - ١٨١.

خامساً ، وأخيراً - منهج المؤرخ ابن زولاق في (سيرة الإخشيد)

ما قبل معالجة المنهج :

لدى ملاحظتنا على تلك السيرة متصلتان بمنهج الرجل ، أعرضهما كما يلي :

أ- مقدمة ابن زولاق لكتابه هذا^(١):

وفيها اتضحت منهجيته وروحه العلمي ، ونظراته الناقدة الواعية . لقد أوضح فيها - باختصار - ظروف تأليفه هذا الكتاب ، ومن سبقه في مجاله التأليف ، ورأيه فيما سبق في موضوعه هذا . ذكر ابن زولاق فيها تلمذه على أستاذه ابن الداية ، وما ألف من كتب على غمط تأليفه . وذكر أن (محمد بن موسى بن المأمون الهاشمي) عمل كتاباً في سيرة الإخشيد ، يتقرب به إليه . وقد وضع هذا المؤلف قبيل وفاة الإخشيد (قريباً من سنة ٣٣٤هـ) . وكعادة العلماء المنهجيين اطلع ابن زولاق على ما كتب في موضوعه من قبل . فلما نظر في كتاب ابن المأمون هذا ، لم يجد على منهج كتب السير التاريخية ، ووجد فيه سلبات ، منها : أنه كتاب مدح أقرب إلى الذم . ولخص ابن زولاق ما فيه في جزئيتين اثنتين : تحدث عن نفقات الإخشيد واقتصاده فيها ، فنشر بخله بين الناس . وانتزع من القرآن آيات في الحلم والصفح ، وقال : هذه صفاته . فقهت الناس ما وراء ذلك من وصفه بالجبن والهلع . وعاب ابن زولاق عليه أنه لم يستوف ولم يستقص مختلف جوانب حياة الإخشيد (من ذكر نشأته ، وحروبه ، وولاياته . . . إلخ) .

ثم ذكر ابن زولاق أنه كان مع مؤلف هذا الكتاب بمصر سنة ٣٣٤هـ ، وكان الإخشيد بالشام في سفره الذي مات فيه ، وقد سأل أحد طلاب العلم كتاب ابن المأمون ، فرد مؤلفه : إنني سألت الإخشيد عند خروجه إلى الشام دَفَعُ الكتاب إلى الناس الذين يطلبونه لينسخوه ، لكنه رفض . وعلّق ابن زولاق قائلاً : وهذا يعني أن الإخشيد قرأ الكتاب ، وفهم أنه إلى الهناء أقرب (وهو نفس فهم ابن زولاق) . ثم مدح عقل الإخشيد بأنه كان فظناً جيد الرأي .

وأخيراً ، ذكر ظرف وسبب تأليفه كتابه هذا ، وهو أن عليّ بن الإخشيد طلب إليه عمل سيرة أبيه ، فكان هذا الكتاب ، الذي استحسنته عليّ ، وكافاً هو ووالدته ابن زولاق بمبلغ جار سنوياً . ثم أوضح تدقيقه في انتقاء موارده . وذكر أن له كتاباً آخر دُيِّلَ به على كتاب (الوَلَاة) للكندى ، وبه أتم كتابة تاريخ الدولة الإخشيدية . ثم بين أنه زاد في هذه السيرة أشياء بعد (عليّ بن الإخشيد) .

ب- حول حجم ما بقى من سيرة الإخشيد :

ليس الجزء المذكور في كتاب (المغرب) لابن سعيد معبراً عن الكتاب بكامله ، وإنما هو جزء لا بأس به منه ، احتفظ لنا به ابن سعيد ، وهو يؤرخ للدولة الإخشيدية ؛ لأنه نقل عنه وعن غيره من الكتب^(١). وثمة دليل آخر على ذلك ، وهو أنه بدأ عرضه لمّا احتفظ به من كتاب ابن زولاق بقوله : " ومن كتاب ابن زولاق"^(٢) ، وهذا يفيد البعضية لا الكلية.

عناصر المنهج :

أولاً - من حيث توقيت الأحداث :

وفي هذه الجزئية نرصد مدى قدرة المؤرخ ابن زولاق على ذكر توقيت الأحداث التاريخية ، بالإضافة إلى درجة دقته في ذكرها . ويمكن أن نقسم تلك الروايات من حيث التوقيت إلى ما يلي :

١ - روايات اهتم فيها ابن زولاق بذكر مواقيت أحداثها المهمة ، مثل :

تاريخ ميلاد الإخشيد^(٣) ، وتاريخ وفاة طفج^(٤) ، وتاريخ بدء سخط تكين عليه^(٥) ، وتاريخ ميلاد ابنه أونوجور^(٦) ، وتاريخ وفاة الوالي تكين^(٧) ، وتاريخ نهاية ولاية الإخشيد الأولى على مصر^(٨) ، وتوقيت دخول مصر بعد انتصار جيوشه^(٩) ، وتحديد موعد نقل دار الصناعة^(١٠). ويلاحظ أن هذه التواريخ ذكرها ابن زولاق - في الغالب - باليوم والشهر والسنة في دقة بالغة ، وكل حدث ذكر توقيته له أهميته القصوى في أحداث سيرة الإخشيد ، وبحريات حياته . وهناك روايتان ذكر ابن زولاق تاريخهما ، ويغلب على الظن أنه تفرد بذكر ذلك التوقيت ، وهما روايتان تستعلق الأولى منهما بتاريخ طلب الإخشيد إلى الخليفة الراضى منحه لقب الإخشيد^(١١) . والثانية تتصل بتاريخ وصول رسول الخليفة بهذا اللقب^(١٢).

(١) و (٢) سيرة الإخشيد: ص ١٤٨.

(٣) في النصف من رجب سنة ٢٦٨هـ. (سيرة الإخشيد: ١٥٠).

(٤) تولى في الحسب سنة ٢٩٤هـ (المصدر السابق: ١٥١).

(٥) سنة ٣١٦هـ (السابق: ١٥٣).

(٦) في يوم عرفة سنة ٣١٩هـ (السابق: ١٥٥).

(٧) ١٦ من ربيع الأول ٣٢١هـ (السابق: ١٥٦). وهو مهم لابن طفج ، فقد كان يتربّد ذلك للانقضاء على حكم مصر.

(٨) من شوال ٣٢١هـ (السابق: ١٥٧).

(٩) يوم الأربعاء لسبع بقين من رمضان سنة ٣٢٣هـ. وهذا أرجح من تاريخ آخر سابق في رواية سابقة (لتسع بقين من رمضان). (السابق: ص ١٥٩).

(١٠) في شعبان سنة ٣٢٥هـ. (السابق: ١٦٦).

(١١) سنة ٣٢٦هـ (السابق: ١٧٣).

(١٢) في شهر رمضان سنة ٣٢٧هـ (السابق: ١٧٤).

٢- روايات أغفل فيها ابن زولاق توقيت الأحداث رغم أهميتها:

لم يذكر تاريخ كتابة الإخشيد رسالته المطولة إلى رومانوس الرومي رداً على كتاب أرسله إليه^(١)، ولم يحدد في إحدى المرات متى ثارت بالإخشيد السوداء^(٢) (نوبات الصرع)، فتاريخها مهم؛ لأنه مرتبط بكتابة عدد من القادة إلى الخلافة، يسألونها توليتهم مصر مكانه. وقام الإخشيد بحركة إصلاح ديني اجتماعي، ولم نعرف متى كان ذلك تحديداً؛ لأنه قال: "وأمر الإخشيد - في وقت من الأوقات - بهدم المواخير ودور المقامرين، والقبض عليهم"^(٣). ورغم أهمية صراع الإخشيد مع ابن رائق، لم يذكر لنا بالتحديد متى قُتل ابن رائق^(٤)، رغم تأثير ذلك الإيجابي في دولة الإخشيد. وأخيراً، تعددت مرات دخول وخروج الوزير (الفضل بن جعفر) إلى مصر والشام^(٥)، ولم يُعَنَّ ابن زولاق بتواريخ ذلك، رغم صلته الوثيقة بسيرة الإخشيد.

(١) سيرة الإخشيد: ١٦٧-١٧٣. وإن كنتُ استنتجت من رواية أول ص١٧٣: أن الكتاب المرسل من الإخشيد مؤرخ بتاريخ سنة ٣٢٥هـ (يقول في بداية هذه الرواية: وفي هذه السنة - وهي سنة ٣٢٥هـ - جهز الإخشيد المراكب الحربية للمسم إلى الثغور؛ للقاء بين المسلمين ونصارى الروم).

(٢) السابق: ١٦٤.

(٣) السابق: ١٨٠.

(٤) ثم ورد الخبر على الإخشيد بقتل ابن رائق (السابق: ١٧٩). ولم يذكر في أية سنة كان ذلك. وقبل هذه الرواية ذكر أحداثاً ترجع إلى سنة ٣٢٩هـ (بيعة المتقي بالخلافة، وإقراره بالإخشيد في مكانه). ومعلوم أن ابن رائق قُتل سنة ٣٣٠هـ.

(٥) سأحاول جاهداً استنتاج تلك التواريخ من خلال عقد المقارنات، والجمع بين النصوص التاريخية في المصادر والمراجع، التي تعرضت لهذا الموضوع. في البداية: نحن نعرف تاريخ دخول الإخشيد مصر (٢٣ من رمضان سنة ٣٢٣هـ)، ونريد أن نعرف متى دخل الوزير الفضل بن جعفر مصر (بعد امتلاك الإخشيد لها)؟ والجواب يسم استنتاجه؛ لأنه وردت رواية - في (سيرة الإخشيد) ص١٦١ - تذكر أن الفضل لما دخل إلى مصر، وعرف مكان المادرائي وأحضره، طالبه بأموال ونفقات موسم الحج. وهذا يعني أنه دخل مصر قريباً من موسم الحج. ولما كانت رحلة الحج تستغرق - آنذاك - وقتاً طويلاً، فإننا نقدر أن الفضل دخل مصر (حوالي الأسبوع الأول من شوال سنة ٣٢٣هـ). ويُقَوَّى ذلك ما ورد في (الولاء للكندي) ص٢٨٦-٢٨٧: أن الوزير أتى بعد خروج صاحب أسطول الإخشيد (صاعد)، لمطاردة الجند المغاربة بالفيوم بقيادة حبشي. ثم أقام الوزير في مصر يشرف على شئونها المالية، ويكشف ضيعاتها (خاصة ضياع المادرائي) فترة عدة شهور، ثم خرج بالمدرائي موثقاً به إلى الشام. والسؤال الآن: متى خرج به من مصر إلى الشام؟ ذكرت د. سيدة كاشف في (مصر في عصر الإخشيديين ص٧٩): أنه أقام في مصر إلى جمادى الأولى سنة ٣٢٤هـ، ثم خرج إلى الشام. ويرى د. زيود: أنه خرج إلى الشام في جمادى الأولى سنة ٣٢٤هـ. وظل ينتقل بين مصر والشام حتى مات الفضل بالرمة في ربيع الأول سنة ٣٢٧هـ (العلاقات بين الشام ومصر في المهديين الطولون والإخشيديين) ص٢٨٤.

والحق أن د. سيدة كاشف أقرب إلى الصواب، والدكتور زيود جانبه الصواب. والراجح - عندي - أن الوزير الفضل ظل في مصر، حتى خُسمت معارك جيش الإخشيد ضد الجند المغاربة لصالح الإخشيد، وعاد الجيش بالأسرى فزل الجزيرة بهم في جمادى الأولى ٣٢٤هـ، ثم طيف بالأسرى أول يوم من جمادى الآخرة. وعقب ذلك خرج الفضل من مصر لليلة خلت من جمادى الآخرة إلى الشام (الولاء للكندي ص٢٨٨). ثم هناك تفاصيل أخرى بعد ذلك، فلنا أن تنصور مدة سفر الفضل بالمدرائي حتى وصل إلى الرملة بالشام، ولعله وصل -

ثانياً - من حيث ترتيب الأحداث وتسلسلها:

بدأ ابن زولاق كتابه - بعد المقدمة - بعنوان رئيسي (ذكر الإخشيد)^(١)، وهو يتناسب مع ما سيذكره بعد ذلك من حياة الإخشيد منذ بداياتها الأولى، حيث ذكر اسمه ونسبه بالكامل، وتفسير لفظه (طغج)، وذكر جده ووالده وهكذا^(٢)، وذلك في محاولة منه لعلاج النقص والقصور، الذي عابه على سيرة ابن المأمون الهاشمي من قبل. والمتتبع لسيرة الإخشيد يلحظ أن هناك مواطن راعى فيها ابن زولاق (الترتيب والتسلسل المنطقي والزمني للأحداث)، مثل: الصفات الأولى التي ذكر فيها أوليات محمد بن طغج، وأخبار جده، ثم والده، وتقلب ابن طغج في الوظائف، حتى غدا حاكماً لدمشق. ثم تطورات الموقف بعد وفاة والى مصر تكين، ومعارك ابن طغج التي خاضها حتى دخل مصر منتصراً، محققاً هدفه في الجمع بين مصر والشام^(٣).

وجدير بالذكر أن هناك بعض الأجزاء من سيرة الإخشيد، ينهج فيها ابن زولاق نهجاً أقرب إلى التاريخ الحولي، لكن مع تطوير فيه، بحيث لا يقطع الحدث الممتد، أو بالأحرى لم تكن هناك حوادث مطوّلة، يمكن أن تمتد أكثر من عام. فكان ابن زولاق يقول: وفي سنة ٣٢٥هـ حدث كذا وكذا، ويتلوها بالسنة التالية وهكذا، حتى سنة ٣٣٠هـ^(٤) (التي سبق أن حددناها موعداً

= منتصف الشهر مثلاً، فحسب الماذرائي في داره، وظل هكذا حتى وفاة الفضل في ٨ من جمادى الأولى سنة ٣٢٧هـ (وهذا هو التاريخ الصحيح لوفاة)، الذي ذكره ابن زولاق في (سيرة الإخشيد) ص ١٧٣، والصولي في (أخبار الراضى) ص ١٣٣، وغيرها. وقد أخطأ الكندي لما جعل وفاته في ٨ من ربيع الأول ٣٢٧هـ، إذ كيف يجعله في مصر في ٨ من ربيع الأول، ثم يجعل التاريخ نفسه هو تاريخ وفاته بالرملة ١٢ (الولاية - ط. جست - ص ٢٨٨). وبحساب المدة بين خروج الفضل من مصر، وحسب الماذرائي في داره بالرملة بالشام، وتاريخ إطلاق سراحه بعد وفاة الفضل يكون قضى في الحبس ثلاث سنوات إلا قليلاً (فتكون المدة التي ذكرها ابن زولاق: ٣ سنوات، و٨ شهور غير دقيقة). لم يذكر الكندي دخول الفضل مصر بعد ذلك إلا يوم الخميس ٢٥ من محرم ٣٢٧هـ، ثم خرج منها الخميس ٨ من ربيع الأول ٣٢٧هـ (الولاية ٢٨٨). وهذا كلام غير صحيح، فقد كان الوزير الفضل - بحكم إشرافه على مصر والشام مالياً - قد دخل مصر قبل شهر شعبان سنة ٣٢٤هـ؛ بدليل أن خلع الراضى جاءت للإخشيد وهو في مصر (في شعبان ٣٢٤هـ) لما بلغه ما قام به الإخشيد والفضل في مصر (سيرة الإخشيد ١٦٥ - ١٦٦). ودخل مصر - أيضاً - أول سنة ٣٢٦هـ، لما استُدعى للوزارة (السابق ١٧٣). وبذا يكون الفضل قضى في الوزارة حوالي سنة، وخمسة شهور (وهو أدق مما قاله مسكويه في (تجارب الأمم) ٤٠٩/١: أن مدته سنة، و٨ شهور، و٢٥ يوماً). ولما رأى الفضل دسائس دار الخلافة، أغرى ابن رائق بأموال مصر والشام، وخرج ليجمعها له. (يذكر ابن زولاق ١٧٣، والكامل ٣٦٧/٧): أنه سار إلى الشام، حيث مات. أما الكندي، فيذكر بجيئه إلى مصر، ومقامه بها من ٢٥ من محرم إلى ٨ من ربيع الأول ٣٢٧هـ (الولاية ٢٨٨)، ثم خرج إلى الرملة حيث وافته المنية - كما قلنا - ٨ من جمادى الأولى ٣٢٧هـ.

(١) سيرة الإخشيد: ص ١٤٩.

(٢) المصدر السابق: ص ١٤٩، وما بعدها.

(٣) سيرة الإخشيد: ١٤٩ - ١٥٩.

(٤) السابق: ١٩٠ - ١٩٧.

لمقتل ابن رائق، وظاهر سياق الرواية لدى ابن زولاق يقول هذا أيضاً). وكذلك يسير ابن زولاق على الخط ذاته بدءاً من أحداث سنة ٣٣١هـ، حتى وفاة الإخشيد سنة ٣٣٤هـ. صحيح أن الأحداث لم تُسَرِّ سنة وراء سنة على التوالي كالنمط السابق، إلا أن الأحداث متسلسلة ومنطقية. وبعد وفاة الإخشيد تحدث عن تركته، وما خلفه من أموال وجواهر وممتلكات ضخمة بُدِّعَ عن الحصر^(١). وأظن سيرة الإخشيد قد انتهت عند هذا الحد.

وهناك نماذج أخرى ينهار فيها ذلك الترتيب تماماً. واعتقد أن عقلية منهجية منظمة، مثل: عقلية المؤرخ ابن زولاق لا يمكن أن تقع في ذلك الاضطراب، ولعل عدم سوق ابن سعيد لها كاملة - كما كتبها صاحبها - أدى إلى ذلك الخلط. فمثلاً: نجد روايات تتعلق ببعض المظاهر الحضارية في عهد الإخشيد بعد حديثه عن إنهاء الوزير الفضل بن جعفر مهمته في كشف ضياع المادرائي، وخروجه به إلى الشام موكلاً به^(٢). هنا لا يوجد أى ترابط بين الموضوعين. وفي موضع آخر: يسوق أحداثاً وقعت سنة ٣٢٥هـ، ثم يتلوها بأخرى وقعت سنة ٣٢٤هـ، ثم يعود فيذكر أحداثاً تتصل بسنة ٣٢٥هـ مرة أخرى^(٣). ويبلغ انهيار السياق التاريخي أشده عندما يتناول بعض حكايات عن الإخشيد تعود إلى فترات تاريخية مختلفة، ولا يوجد أدنى رابط بينها^(٤). وهكذا تحتاج هذه السيرة - بوضعها الحالي - إلى صبر وأناة في قراءة الأحداث وتبويبها^(٥).

ثالثاً - من حيث الموضوعية والمنطقية في اختيار الأحداث:

ونقص هذا الملصق المنهجي أن تلقى الضوء على موقف المؤرخ ابن زولاق من إيراد الروايات ذات الطابع الخرافي، أو الأسطوري، أو المبالغ فيها. ويضاف إلى ذلك موقفه من صاحب السيرة (الإخشيد)، هل المؤرخ ابن زولاق متحيز إليه، أو متحامل عليه، أو أنه يقف على الحياد، فيؤرخ لحياته بأمانة ونزاهة وموضوعية، وتجرد عن الميل والهوى؟ الحق أن الدكتور سيدة كاشف - كما ذكرت من قبل - تعتقد أن نسخة سيرة الإخشيد الموجودة في كتاب (المغرب) لابن سعيد ليست هي النسخة الأصلية، وتستدل على ذلك بعبارة ذكرها ابن زولاق

(١) السابق: ١٦٣.

(٢) السابق: ١٦٦-١٧٣.

(٣) سيرة الإخشيد: ١٦٦-١٧٣.

(٤) مثل: حديثه عن حكاية له في دمشق مع تكين، ثم حديثه عن موقف الإخشيد من المواخير ودور القمار في عهده، ثم بعض مظاهر تشبهه بابن طولون، وهكذا. إنما روايات لا رابط بينها على المستوى الزمني والموضوعي (السابق: ١٩٠-١٩٨).

(٥) لا أوافق على التعميم المطلق، الذي وصفت به د. سيدة كاشف (سيرة الإخشيد كما نقلها ابن زولاق) بأنها مجموعة جزاءات غير مرتبة لا موضوعياً ولا تاريخياً (تصدير مصر في عصر الإخشيديين) ص ٥٠. فذلك لا ينطبق على السيرة كلها.

نفسه، أنه أضاف إلى كتابه أشياء بعد (علي بن الإخشيد). ووصلت من ذلك إلى نتيجة مفادها أن ابن زولاق أضاف إلى سيرته - بعد سقوط الإخشيديين - إضافات فيها بحاملة ومداينة وتقرّب للعبيدين حكام مصر الجدد (مثل: طعنه بالتزوير في كتاب تقليد الإخشيد ولاية مصر، وكذلك كلامه على ما حلّ بحجته بعد وفاته، وبعض إشارات في كتابه لا يُنتظر أن يتضمنها كتاب عن الإخشيد، يُقدّم إلى ابنه، ويحوز رضاه)^(١). ويضيف باحث ثان - إلى ما تقدم - دليلاً آخر على تحيز ابن زولاق ضد الإخشيد، وهو أنه لم يذكر شيئاً عن أولاده بعد وفاته، قاصداً بذلك الخط من شأنهم، فكأنه يريد أن يقول: لولا وجود كافور، ما قامت لدولتهم قائمة بعد وفاة عميدها ومؤسسها^(٢).

وإذا جاز لي أن أعلق على الكلام السابق، فإنني أحدد تعليقي فيما يلي:

أ- لا خلاف بيني وبين الباحثين الآخرين حول عدم أصالة النسخة، التي بين أيدينا من سيرة الإخشيد، فهي - في رأيي - ليست المقدّمة إلى (علي بن الإخشيد)، وليست التي طالعها ابن سعيد، وإنما هي مقتبسات مطوّلة اقتبسها في كتابه (المغرب)، تصل إلى حد النقل شبه الحرفي لجانب كبير من هذه السيرة، التي أرى أنه احتفظ لنا فيها بمقدمتها، وهمايتها، وكان أميناً في الحفاظ على ذكر مواردها. وأستبعد أن يكون ما فيها من خلل في الترتيب راجعاً إلى الأصل ولا إلى الناقل (ابن سعيد)، وإنما هو من فعل النسخ من جهة، وعودى الزمن الذي تعرضت له مخطوطات كتاب المغرب من جهة أخرى؛ لأن كلاً من ابن زولاق، وابن سعيد مؤرخان كبيران منهجيان لا يقع منهما ذلك.

ب- ولا خلاف بيننا - أيضاً - في أن ابن زولاق - وهو الذي أعلمنا بذلك - أضاف إلى كتابه أشياء بعد وفاة علي بن الإخشيد (ت ٣٥٥هـ). لكنني أفسر هذه الإضافات ودافعها تفسيراً مختلفاً، فهي - عندي - تشمل الإضافات، التي لا أعتقد أن حصافة ابن زولاق تجعله يترلق، ويصطدم بأسرة الإخشيد فيذكرها (وهو ما قاله الباحثون قبلي)، لكنني أضيف - إلى ذلك - التفحيحات والتصويبات، التي لا يُفعل ابن زولاق - وهو المؤرخ الكبير - عن إدخالها في كتابه عند إعادة النظر فيه. وتلك طبيعة المؤرخ المدقق، الذي ينتقد نفسه بلا هوادة، ولا يفتأ يعدّل ويصوّب؛ حتى يقرب من الكمال. وإن كنت - بطبيعة الحال - لا أستطيع تحديد تلك التصويبات، لكن دقته التي تبدّت لنا، تشير إلى إعادته النظر مرات. إلى هنا وبين رأينا خطّي متقاربة، كما يقولون.

ج- لا أوافق على اتهام ابن زولاق بالتحيز ضد الإخشيد، وميله مع الهوى لصالح

(١) مصر في عهد الإخشيديين ص ٥٠.

(٢) ماجستير فرج الأحول: (حضارة مصر في عهد الدولة الإخشيدية) ص ٥٨.

العبيدين، الذين رعوه حق الرعاية، فيكون الرجل بذلك قد فقد أهم شروط المورخ وهي (العدالة، والمصادقية، والحيادية). فهو - لأجل عطاء على بن الإخشيد وأمه، كما أقر هو نفسه - يطمس ما يشين الإخشيد، ولأجل منصب وعطاء العبيدين يُلصق بالإخشيد كل ما يحط من قدره؟! أعتقد أن ذلك بعيد عن الحقيقة؛ لأن الأمر لو كان كما يقولون ما صرّح في مقدمته بهذه الاعترافات، ولأضعف ذلك كثيراً من قوة الاقناعات، ولأحاطها إلى مجرد استنتاجات. ثم إنه عندما اقتصر على سيرة الإخشيد دون بنيه، فلأن هذا هو موضوع كتابه، ومنهجيته وعقليته تأييان عليه أن يتجاوزها، فليس الأمر انتقاصاً من قدر دولته. ثم إذا أردنا الحقيقة، فدولته - فعلاً - هَوَتْ إلى الحضيض بعده، ولولا كافور لم تقم لها قائمة. ثم إن الرجل تناول دولة الإخشيدين من بعد وفاة الإخشيد حتى دخول المعز مصر في كتاب آخر، كما ذكرت من قبل، لا لأن خلفاء الإخشيد يستأهلون الكتابة عنهم، وإنما استكمالاً للحلقات التاريخية وبيان تغيرات حركته.

د- إنني أفسر إضافاته تفسيراً جديداً، يجعلنا ننظر إلى شجاعة وأمانة هذا المورخ نظرة إكبار؛ لأنه سرعان ما عاد إلى الحق، لما ثبأت له الفرصة من قريب. لقد اضطر أن يصنع ما صنع اضطراراً، وما إن توفى (على بن الإخشيد)، حتى وجد الفرصة سانحة؛ كى يعيد الحق إلى نصابه. فهو لم ينتظر - إذن - حتى دخل العبيديون مصر، وأسقطوا بقايا الإخشيدية المنتفعين، ثم أقبل بالزُّلْفَى إليهم، وإنما في عصر كافور قام بإحداث التغيير المطلوب؛ لأنه شعر بزوال الحرج، فغير وهو آمن مطمئن. ومن هنا تسقط الحجة القائلة بمداهنته العبيديين في ذلك الأمر. فالرجل غير قبل مجيئهم مصر، ثم ماذا يستفيد العبيديون من الخط من شأن الإخشيد؟ إن الناس في مصر ممنوا زوال هذه الدولة بعدما عانوا في أواخرها من القحط والجوع والكوارث، وتطلعوا إلى الحكم الجديد، وأمان جوهر لهم بصدر يملؤها الأمل. ثم إن ابن زولاق انغمس عند دخول جوهر في متابعة أخبار العبيديين عن كتب من خلال صلاته بهم، وشغل بالتأريخ لفترة حكم جوهر، فالمعز، فالعزير حتى وافته مَيتته، فهو لا وقت عنده يضيعه في كتاب عن دولة زالت من الوجود.

هـ- إن مطالعتي لسيرة الإخشيد دلّت على حيادية ابن زولاق إلى حد كبير، فهو قد أعطى الرجل ماله وما عليه، فوصفه في مقدمة كتابه بجودة الرأي والفطنة، وذكر صفاته الحسنة إلى جانب مساوئه، بل أتى بالروايات التي دافع من خلالها الإخشيد عن نفسه، فبرّر لجوءه إلى مصادرة الأموال، وعَلّل عدم حسمه معاركه مع سيف الدولة رغم انتصاره عليه؛ مما جعله عرضة لاقنائه بالجبن والخَوَر والتردد. أعطاه ابن زولاق الفرصة كاملة ليعرض وجهة نظره

المقبولة، ولو كان متحيزاً ضده، لطمس ذكر ذلك كله. بل ابن زولاق أتى برواية رأى البعض^(١) أن فيها مبالغة في وصف قوة وشجاعة الإخشيد، وإن كنت أرى أنها قابلة للتصديق، وليست في حجم تهويل رواية ابن الداية عن شجاعة ابن طولون في الدفاع عن قافلة المستعين. وفي المقابل عرض الرجل لروايات اطمأن إلى صدقها، ووثق برواها، كالفعل السينة التي ارتكبها محمد بن طغج وأبوه بقتل أحد وجوه العلويين بالشام^(٢)، والروايات الخاصة بتركة الإخشيد بعد وفاته^(٣)، (رغم المبالغة فيها إلا أن لها أصلاً ونصباً كبيراً من الحقيقة؛ نظراً لكثرة مصادراته). أما الروايات التي تصف ظروف دفن الإخشيد، وتغير جثته لما شغلوا عنها بالفتنة الحادثة بالشام، وشيوع النهب والسلب هناك، وبختمهم عن كافور يغيرون به رائحته التنتة فلم يجدوا إلا مغشوشاً، فتأذى منه حاملوه إلى مثواه ببيت المقدس^(٤)، أعتقد أنها روايات مشكوك في صحتها، خاصة أن ابن زولاق كان في مصر لما مات الإخشيد بالشام، ولا نعرف شيئاً عن المورد الذي نقلها إليه، وهي تثير الاشتزاز، وتناقض المنطق والعقل، فلو كان حدث لجثته ما حدث لدفن مكانه حيث توفي. وفي سيرته روايات قليلة ذات طابع خرافي^(٥). ونلاحظ - أخيراً - تشيع ابن زولاق في بعض عباراته^(٦)، لكنها لا تؤثر في مسيرة الأحداث، ولا في حياته الذي تمتع به، فأمانته العلمية شيء، ومعتقداته الشيعي شيء آخر، وتلك سمة المؤرخ الحق.

رابعاً - مدى حضور شخصيته:

ونقصد بذلك قياس قدرة ابن زولاق على تحليل الأحداث، والتعليق عليها، ومدى دقته في العرض التاريخي المبكر، وإدراكه غرض التأريخ وفائدته.

تأثر ابن زولاق بثقافته الأدبية والفقهية، ولذلك أتى أسلوبه في العرض التاريخي للأحداث موجزاً مركزاً دقيقاً في أحيان كثيرة^(٧)، معبراً عن بعض المفاهيم التي نرجح أنه

(١) عندما تصدى بقواته لقطع طريق حاولوا النيل من ركب الحاج (سيرة الإخشيد ١٥٣)، ومصر في عصر الإخشيديين ص ٦٢ هامش (٢).

(٢) سيرة الإخشيد: ١٥١.

(٣) السابق: ١٩٦ - ١٩٧.

(٤) السابق: ١٩٦.

(٥) رواية الطائر الذي دار فوق رأس ابن طغج ثلاث دورات وهو بالشام، فتبني إمرة مصر، فتحققت له (السابق ١٥٦)، وما قاله المحبون من موافقة طالعه طالع ابن طولون عند دخول مصر مع الانساق في التوقيت (السابق ١٥٩).

(٦) مثل قوله عن علي: (صلوات الله عليه). (سيرة الإخشيد: ١٥١)، وعن القائم: (عليه السلام). (السابق ١٥٢).

(٧) من أمثلة ذلك: إشارته المركزة إلى ظفر طغج بصاحب القرامطة سنة ٢٩٠هـ (المصدر السابق: ص ١٥٠)، وتعبيره المركز المكثف عن صفح محمد بن تكين عن الماذرائي بعد كل إساءاته إليه (السابق ١٦١ - ١٦٢). ودقته في تحديد مكان مولد ابن طغج (ولد ببغداد بشارع باب الكوفة). (السابق ١٥٠).

يقصدها^(١). وما يُحتسب له - أيضاً - في هذا الإطار قدرته الطيبة على التجميع والتنظيم للمعلومات التي يضمها إطار واحد، وموضوع مشترك^(٢). وأخيراً، فإننا نأخذ عليه بعض التكرار^(٣)، الذي قد يكون من فعل تُسأخ المخطوطة، ولا دخل له به. وبالنسبة لقدرته على ابتكار منهج جديد، أو ما شابه ذلك، فذلك ما لا نجد له مظاهر وشواهد تدلل عليه، بل إنني أجده مقلداً أستاذه المؤرخ ابن الداية، ومكماً رسالته في كتابة (سير الحكام التاريخية). ويبدو أنه كما كان الإخشيد متأثراً بابن طولون، معجباً به، يحذو حذوه ويحاول تقليده، فإن ابن زولاق مؤرخ (سيرة الإخشيد) كان يقلد أستاذه ابن الداية مؤرخ (سيرة ابن طولون) في أفكاره وموضوعاته^(٤).

هذا، وقد تأثرت قدرة ابن زولاق على التعليل بأسلوبه الموجز المركز في العرض التاريخي؛ ولذلك لم نجد لديه التعليقات المطولة المسهبة، التي رأينا بعض نماذجها من قبل لدى البلوى. لقد اتسمت تعليقاته بالدقة والوجازة^(٥)، وأعتقد أن بعضها - على الأقل - كان يحتاج إلى مزيد وضوح وتفصيل^(٦).

لم تكن تعليقات ابن زولاق على بعض الأحداث التاريخية بأحسن حالاً من تعليقاته، فتعليقاته محدودة موجزة لا تكاد تُبين، وهي تتصل بعقد مقارنة^(٧)، أو تُتبع حدث عاصره، حتى

(١) تبعه عن الخليفة العباسي بالسلطان (السابق ١٥٩، ١٦٣). وقد سبقه إلى ذلك الداية والبلوى، ولعل ذلك دليل عدم رضا عن هؤلاء الخلفاء، وقد يكون لتشييعه دخل فيه. وكذلك استخدم لفظة (يقال)، عندما ذكر أن عسكر مصر الذي رابط لنزع ابن طغش من دعوها بقواته، بلغ ثلاثين ألفاً، وقد سَدَّ من الجبل إلى البحر (السابق: ١٥٨). وهي دالة على تشكيكه في صحة ضخامة هذا الحشد.

(٢) مثل: تجميعه محاولات سبعة من الأمراء المسير إلى الإخشيد لأخذ أعماله، وتمكنه من استقطابهم وردهم عن هدفهم. (السابق ١٨٢)، وكذلك ما ذكره عن عدد مرات سفره الخمس إلى أعدائه لقتالهم (السابق ١٨٨).

(٣) وهو تكرار في المعنى العام لرواية تفيد حرصه على صلاة الجمعة، وحضور ختم القرآن في رمضان والدعاء (السابق: ١٦٠، ١٨١، ١٨٥).

(٤) تأثر ابن زولاق - عموماً - بأستاذه ابن الداية في كتابة سير الحكام. وأعتقد أنه تأثر به في بعض الأفكار والموضوعات، التي حرص على تناولها في كتابه؛ لأن ابن الداية تناول نظائرها في كتابه (مثل: بيان عدد من المراسم التي اهتم بها الإخشيد؛ تأثراً بابن طولون (سيرة الإخشيد: ص ١٦٣، ١٦٦، ١٨١). ونجدت ابن زولاق عن الرواية التي تذكر الكثر، الذي عثر عليه الإخشيد في دار (خديجة بنت الفتح بن خاقان). عندما احتارها مكاناً لصناعة السفن (السابق: ١٦٠)، كما نتحدث - من قبل - ابن الداية عن كثر الصحراء، الذي عثر عليه ابن طولون، وبينه من جامعه، والعين، والمارستان، وأنفق منه في كثير من وجوه البر. (سيرة ابن طولون ٨٦). وقد صرح ابن زولاق بأنه يذكر ما خلفه الإخشيد في تركته، كما ذكر ابن الداية ما خلفه ابن طولون (السابق: ص ١٩٦).

(٥) راجع نماذجها في (سيرة الإخشيد): ص ١٥٧، ١٥٩، ١٦١، ١٦٧.

(٦) مثل: تعليله خلاف ابن طغش وتكين وإلى مصر، وهرب الأول إلى الشام (سيرة الإخشيد: ص ١٥٣).

(٧) حيث ذكر اتجاه الإخشيد - بعد تخلصه من الوزير الفضل، وقتل ابن رائق - إلى سلوك طريقة أحمد بن طولون، وابنه أبي الجيش في بعض الأمور (السابق ١٨٠).

يكمله ويبلغ به منتهاه^(١) وأحياناً، يعلق تعليقاً قاطعاً، لكنه تنقصه الدقة^(٢).

وفي نهاية هذه الجزئية أنهو إلى اهتمام ابن زولاق بجانب العبرة والعظة في أحداث التاريخ، وذلك من خلال ما أورده من رواية تدل على أن مَنْ تَوَرَّعَ عن ارتكاب الحرام، وأَرْضَى الله في سخط عباده، أبدله الله من الخوف أماناً وطمأنينة ونجاة^(٣) وثمة رواياته المتعاقبة في وصف نهاية الإخشيد، وما حَلَّ بجنته بعد موته^(٤) حتى يتعظ المتعظون، ويتيقنوا نهاية كل حي مهما عظم شأنه، وسما مقامه في هذه الدنيا، وأن الإنسان مهما جمع من الأموال من حُلَّها وحرامها، فإنه - يوماً لا بد - مفارقها، ومُخَلَّفها وراء ظهره، يستمتع بها ورثته، ويتطلع إليها المتطلعون^(٥) ويَحَسَب وحده عليها: من أين اكتسبها؟ وفيهم أنفقها؟

خامساً، وأخيراً - من حيث النظرة الشاملة في علاج التاريخ الحضارى:

لم تقتصر نظـرة المؤرخ المصرى ابن زولاق لتاريخ الإخشيد على أنه مجرد سرد للأحداث السياسية التي وقعت في حياته حتى مماته، وإنما عـرض في ثنايا رواياته للعديد من المظاهر الحضارية الإدارية^(٦)، والاقتصادية^(٧)

(١) مثل: تتبعه ما حَلَّ بالكيسة، التي سقط منها جزء زمن الإخشيد، ورفض الأخير ترميمها وذلك سنة ٣٢٦هـ، وما قاله المهندس الماعين لها من أنها تستقط جميعها عند تمام أربعين سنة، علق قائلاً: "وكان أمرها كما قال ابن البواب المهندس، فَعُمِّرَتْ سنة ٣٦٦هـ قبل تمام أربعين سنة، ولو تُرْكَتْ سَقَطَتْ (السابق: ١٨٤).

(٢) كقول: "وليس يُعرف للإخشيد وقعة قاتل فيها غير هذه" (السابق: ١٧٨)، وذلك عقب معركة دارت بين ابن رائق والإخشيد، فافترس فيها الإخشيد أولاً، ثم دارت الدائرة على ابن رائق بعدها. وتعليقه هذا فيه تعميم وغير دقيق؛ لأن ابن زولاق نفسه ذكر - بعد ذلك - معركة، حارب فيها الإخشيد، وهزم فيها سيف الدولة. (السابق: ١٨٨).

(٣) حدث ذلك مع طمع والد الإخشيد، لما رفض تنفيذ أوامر حمارويه بقتل (راغب) وإبى طرسوس (فيما يظهر)، واشتركا معا في غزو الروم. ثم وصل حمارويه فحاذ إلى دمشق؛ ليقع بـ (طمع)، ولكنه قتل في تلك الليلة، وأراح الله (طمع) منه. (السابق: ص ١٥٠).

(٤) سيرة الإخشيد: ١٩٦.

(٥) راجع مقادير ما خَلَّفه الإخشيد في تركته. وقد جلس ابنه (أونوجور) مكانه، واستوزر المادرائي، الذي طلب من أم ولد الإخشيد المال للرجال، فقالت: ما عندي. فقال: ما فعلت سبعة أرادب أخذها مني دفعة واحدة، ما أنفق منها ديناراً واحداً؟! (السابق: ١٩٦-١٩٧).

(٦) وردت عدة وظائف في سيرة الإخشيد، منها: وظيفة كافور في بادئ أمره (صاحب وضوء الإخشيد). (السابق: ص ١٥٥). ووظيفة والى الإسكندرية التي وليها ابن طمع لتكن والى مصر (السابق: ١٥٢)، وبعده وليها (أحمد بن صالح). (السابق: ١٥٣). وهناك محمد بن جعفر القرطبي، الذي ولاه مؤنس الخسبة، ثم الحراج بمصر (السابق ص ١٥٤).

(٧) تزرع سيرة الإخشيد بالعديد من الملامح الاقتصادية، منها: ما يتصل بصناعة مراكب الأسطول (السابق: ١٦٠)، ووضع الإخشيد رواتب ثابتة للفقراء والمعوزين تصرفها لهم الدولة (السابق: ١٩٠)، وأسعار بعض أدوات المائدة (السابق: ١٥٤)، وأسعار بعض الفواكه (السابق: ١٥١)، والتبادل التجاري مع دولة الروم (السابق: ١٧٢)، وتجارة العبر (السابق ص ١٨٦-١٨٧)، ومقدار خراج مصر والشام في سنوات حكم الإخشيد (السابق: ١٨٧). إلى جانب بعض النشاط العمراني، مثل: إنشاء بستان للإخشيد ومقدار تكلفته (السابق: ١٦٠).

والاجتماعية^(١) والفكرية^(٢) بحيث يمكن - في النهاية - أن نحكم على نظرة ابن زولاق للتاريخ بأنها نظرة شاملة متكاملة متطورة، تسجل وضوح الفكرة ورعاية النظرة لدى مؤرخي القرن الرابع الهجري في مدرسة مصر التاريخية.

خلاصة مقارنة:

بعد انتهائنا من دراسة منهج ابن زولاق في (سيرة الإخشيد) نركز هذه الملاحظات العامة المقارنة بين (سيرة ابن طولون) لابن الداية والبلوى، و(سيرة الإخشيد) لابن زولاق فيما يلي:

١ - الشخصية التي كتب عنها ابن الداية والبلوى، وهي شخصية ابن طولون، أعظم وأشهر من الشخصية التي كتب عنها ابن زولاق (شخصية الإخشيد). فالأولى استقلالها أبعد أثراً، وحضارتها التي خلفتها أعظم، وآثار التي كانت تدل عليها أكبر^(٣). وواجهت شخصية ابن طولون عقبات كبيرة حتى تمت له السيطرة، بينما لم يواجه الإخشيد بعقبات كبيرة. ومن هنا تفوقت (سيرة ابن طولون) على (سيرة الإخشيد)؛ لأن الإخشيد كان يقلد ابن طولون في مراسم دولته^(٤)، وكذا قلد ابن زولاق ابن الداية في معالم وأفكار كتابه.

٢ - سيرة الإعجاب والانبهار والتحيز لابن طولون واضحة وعالية في كتابي: ابن الداية،

- (١) حفلت سيرة ابن زولاق بكثير من النواحي الاجتماعية، كالطّيب (نوع من العطور). (سيرة الإخشيد: ١٥٠)، وأنواع الأطعمة والفواكه (السابق ١٥١، ١٥٨)، ورحلات الصيد ومجالس المائدة لابن بسطام في مصر، وخدمة الإخشيد له (السابق ١٥٢)، ووسائل الاتصال بين الناس (رسائل حمام الزاحل). (السابق ١٥٥، ١٨٨)، وشارات تقليد الولاة (السابق ١٥٥)، ومواكب الإخشيد المختلفة، ومراسم الإضاءة الليلية لها بالشموع (ص ١٥٩، ١٨٥)، ومواكب رمضان ومظاهر الاحتفال فيه وختم القرآن، واحتفالات الجند ليلة عيد الفطر (السابق: ١٦٠، ١٦٣ - ١٦٤)، وألوان الاحتفالات والزينات والخيل في مواكب الإخشيد والوزير الفضل، وإطلاق الحمام المضخ بالمسك وماء الورد في وجهيهما (السابق ١٦١)، ومظاهر اللهو فوق أسطح المنازل (السابق ١٦٦)، وبعض مظاهر الأغراف في المجتمع (مواخير، ودور للقمار) ص ١٨٠ - ١٨١.
- (٢) أوضح دور الفقهاء في إصدار الفتاوى، ومكانة ابن الخداد الفقيه الشافعي لدى الإخشيد، وعامة الناس (السابق ١٨٣)، ومناقشات الفقهاء الشافعية والمالكية، وشدة اختلافهم حتى أغلق الإخشيد المسجد فترة، ثم أعاد فتحه (السابق ١٧٣، ١٨٢).

(٣) يرى د. حسن مؤنس، ود. عويس: أن الدولة الإخشيدية لا أثر لها ولا مكان لها في التاريخ (الحضارة ص ١٢٩، ودراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية ص ٨٣ - ٨٥). وهذا ظلم كبير لها.

(٤) ولم يقف حب الإخشيد للظوليين عند هذا الحد، بل كان يجالس ويواكل جماعة منهم، مثل: عذنان بن أحمد ابن طولون، وابن أخيه (قيس بن العباس بن طولون)، وغيرهما. (سيرة الإخشيد: ص ١٦٣). ويبدو أن مجالسة أبي ممدّ (عدنان بن أحمد بن طولون) كانت في بدايات عهد الإخشيد (ولى سنة ٣٢٣هـ)؛ لأن عدنان هذا وفد على بغداد، وروى بها الحديث (حدثها عن الربيع المرادي، وبكر بن سهل الدماطي). ونقل عنه عبيد الله بن الخلال. ويبدو أنه قدم دمشق - أيضاً - وحدثها، وكان ثقة صالحاً. (تاريخ بغداد ٣٩١/١٢، ومختصر تاريخ دمشق ٢٨٩/١٦، والنجوم ٣٠٠/٣).

والبلوى. أما ابن زولاق فنبرته معتدلة، وعباراته محايدة، ولا أثر فيها للمبالغة والتحويل، اللذين نراهما بوضوح لدى سابقيه.

٣- كان أئسر ابن الداية والبلوى بعيداً فيمن أُرّخ بعدهما للدولة ابن طولون، فاعتمدا عليهما اعتماداً أساسياً، خاصة كتاب البلوى المفصل. أما ابن زولاق، فالنقول عن (سيرة الإخشيد) محدودة نوعاً ما^(١)، ولعل من تناولوا تاريخ الإخشيد لم يذكروا المصدر الذى نقلوا عنه (وهو ابن زولاق)، بالإضافة إلى الاهتمام بالطولونيين أكثر من الإخشيديين.

(من سير العلماء: أخبار سيبويه المصرى) لابن زولاق

تقديم:

بعد إتمام حديثنا المطوّل عن (سير الحكام التاريخية) المطبوعة والمفقودة، التى كتبها مؤرخو المدرسة المصرية التاريخية فى القرن الرابع الهجرى، أن لنا أن نتناول اتجاهاً جديداً آخر فى كتابة السير فى المدرسة نفسها والقرن نفسه، ألا وهو كتابة (سير العلماء). ولا نجد نموذجاً لهذا اللون من الكتابة التاريخية إلا فى كتاب المؤرخ المصرى الفذ الموهوب، ذى المواهب والملكات التاريخية المتعددة، وصاحب الإنتاج التاريخى الغزير، إنه (ابن زولاق)، وذلك فيما كتبه عن سيرة زميل دراسته، وصديقه المعاصر له (عالم النحو والكلام الملقّب بسيبويه المصرى). وسوف نتناول - بإيجاز - هذا الكتاب، من حيث: (موضوعه، ومحتواه، وموارده، ومنهج مؤلفه فيه، ونظرة عامة على أهميته وما أثاره من قضايا).

أولاً - محتواه العام*:

١- بيان مكانة (سبويه المصرى)، الذى جمع ابن زولاق ألفاظه وحكمه، وتناول أخباره. وقد عرّف باسمه وكنيته ولقبه (هو أبو بكر محمد بن موسى بن عبد العزيز الكندى الصيرفى)، وميلاده (٢٨٤هـ-)، ووفاته عن ٧٤ سنة (ت ٣٥٨هـ-).

٢- معرفة سبويه بالقرآن، ومعانيه، وقراءاته، وأحكامه. وكذلك علمه بالحديث وغريبه، ومعانيه ورواته، وتلقيه العلم على النسائى، والطحاوى. ثَقَّفَه على قول الشافعى، وبجالسته ابن الحداد الفقيه، وحبه الحداد والكلام والاعتزال، وتلقيه على وجه المتكلمين. بمصر آنذاك (أبى على محمد بن موسى القاضى الواسطى).

(١) نقل عنها ابن العديم فى (نغية الطلب) ج ٥ ص ٢٤٠٩، والمقريزى فى (الخطط) ج ٢ ص ٢٥، ١٨١، ١٩٧.

* اعتمدت على الطبعة المعروفة لهذا الكتاب، التى قام على نشرها الأستاذان: محمد إبراهيم سعد، وحسين الذهب، ونُشرت سنة ١٩٣٣م، وقدم لها الأستاذ (محمد عبد الله عنان). ونص الكتاب (ص ١٦-٥٨).

٣- سر تخليطه الذى وقع له، وتناوله بالحديث القضاء والقدر، ومظاهر جنونه وخروجه عن وعيه.

٤- شدة انتقاده الوزراء والقواد والأمراء فى العصر الإخشيدى، مثل: صالح ابن نافع (أحد قواد الإخشيد)، ونقده مواكب الإخشيد، وقمحه بالقول على (محمد بن عبد الله الخازن). وعدم رضائه عن تولية كافور الخصى الحكم،

ومهاجمته ولاية الصبي (أحمد بن علي بن الإخشيد) بعد وفاة كافور. وشيوع سخطه ونقده وإنكاره على أمور عديدة، فأنكر وشكك في صحة إسلام يعقوب ابن كلس في عهد كافور، وانتقد بيت شعر مشهوراً للمتنبي، وكرهيته - عموماً - للظلم والظالمين، ولغنه إياهم. وقد عرّضه قمحه المستمر على عليّة القوم لإدخاله المارستان للعلاج، ثم إدخاله الحبس.

٥- وأخيراً، فقد كانت لسيبويه المصرى علاقات بالأشراف العلويين، مثل: أبي جعفر مسلم، وأخيه أبي محمد عبد الله، وإحسانهما إليه. وبجالتة أونوجور، والحسين بن أحمد الماذرائي من قبل، وتلاقى الناس لسانه اللاذع عن طريق دفع المال إليه، حتى أجرى عليه أبو بكر محمد بن علي بن مقاتل الوزير راتباً شهرياً (قدره خمسة دنانير).

وفى النهاية، ذكر ابن زولاق أنه لو جُمعت ألفاظ سيبويه، وأسجاعه، وأشعاره، لكانت أكثر مما ورد في هذا الكتاب. ولكن فيما ذكره عنه كفاية.

ثانياً - موارد كتاب (أخبار سيبويه المصرى) لابن زولاق:

تنوعت موارد ابن زولاق في هذا الكتاب على النحو الآتى:

١- موارد صريحة محددة:

بلغ عددها اثنين وعشرين (٢٢) مورداً موزعة على النحو الآتى:

أ- سيبويه المصرى: ونقل عنه ابن زولاق (١٥ رواية)^(١).

ب- محمد بن الحسين الخوارزمي (٥ روايات)^(٢).

ج- أبسو الحسن السامري الصوفي^(٣). وأبو الحسن محمد بن عبد القاهر^(٤)، وعبد الله بن محمد^(٥) (لكل روايتان).

(١) أخبار سيبويه المصرى، لابن زولاق: ص ١٩ - ٢١، ٢٨، ٣٧ - ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤٣، ٤٨، ٥٤ - ٥٨.

(٢) المصدر السابق: ٣٩، ٤٤، ٤٦ - ٤٨.

(٣) أخبار سيبويه المصرى: ص ٢٦ - ٢٧.

(٤) السابق: ٣٨ - ٣٩.

(٥) السابق: ٤٠، ٤٦.

د- سبعة عشر مورداً، لكل مورد منها رواية واحدة، وهذه الموارد هي:

(أحمد بن مسروان القاضي^(١))، وأحمد بن محبوب الفقيه^(٢)، ومحمد بن عبد الله ابن عبد الحكم^(٣)، ومحمد بن عبد الله بن أحمد^(٤)، والحسن بن موسى الخياط^(٥)، وعبد الله بن وليد القاضي^(٦)، وأبو عيسى عبد العزيز بن أحمد الداعي^(٧)، ويحيى بن الحسن^(٨)، ومحمد بن عبد الله الخزازي^(٩)، وأبو عليّ الحسين بن محمد الماذرائي^(١٠)، وأبو محمد الهاشمي^(١١)، وأبو طاهر القاضي^(١٢)، وأبو محمد عبد الله أخو مسلم^(١٣)، وعليّ بن أحمد^(١٤)، وإبراهيم بن عليّ المكي^(١٥)، وعبد الرحمن بن يوسف^(١٦)، وأبو جعفر مسلم^(١٧).

٢- موارد صريحة غير محددة:

وهذه عددها ١٣ مورداً هي:

(حدثني مَنْ حضره يوم الجمعة^(١٨))، فحدثني بعض أصدقائي^(١٩)، وحدثني مَنْ حضره عند أبي بكر بن الخلداد^(٢٠)، فحدثني بعض غلمان أبي عليّ الحسين بن محمد^(٢١)، وحدثني بعض أهل عقبة بن فليح^(٢٢)، حدثني بعض أسباب أبي بكر محمد بن عليّ بن مقاتل وزير الإخشيد^(٢٣)، وحدثني مَنْ أثنى به^(٢٤)، وحدثني بعض مَنْ أثنى به^(٢٥)، وسمعتُ مَنْ يخبر عن سيبويه^(٢٦)، وأنشدني بعض إخواني لسيبويه^(٢٧) وحدثني مَنْ رأى سيبويه^(٢٨)، وحدثني مَنْ سمعه^(٢٩)، وحدثني بعض جلساء أبي جعفر مسلم الحسيني^(٣٠).

(١) و(٢) و(٣) و(٤) أخبار سيبويه المصري: ١٦.

(٥) السابق: ١٩. (٦) السابق: ٢١. (٧) أخبار سيبويه: ٢٣-٢٤.

(٨) السابق: ٢٨. (٩) السابق: ٣٣. (١٠) السابق: ٣٤-٣٥.

(١١) السابق: ٣٣. (١٢) السابق: ٤٠-٤١.

(١٣) وردت (أبو مسلم)، والصواب ما ذكرت (السابق): ٤١.

(١٤) أخبار سيبويه المصري: ص ٤٥.

(١٥) المصدر السابق: ص ٤٩-٥٠.

(١٦) السابق: ٥٢. (١٧) السابق: ٥٨. (١٨) السابق: ١٨-١٩.

(١٩) السابق: ٣٠-٣١. (٢٠) السابق: ٣٣. (٢١) السابق: ٣٤.

(٢٢) السابق: ٣٥. (٢٣) السابق: ٣٥-٣٦. (٢٤) السابق: ٣٦.

(٢٥) السابق: ٣٦-٣٧. (٢٦) السابق: ٣٧. (٢٧) السابق: ٤٩.

(٢٨) السابق: ٥١. (٢٩) السابق: ٥٢-٥١. (٣٠) السابق: ٥٥-٥٦.

٣- موارد مجهولة:

وقد وردت حوالى ست روايات ذات موارد مجهولة كما يلى:

(وَحَدَّثْتُ عَنْ سَيُوبَةَ^(١))، حُكِيَ لَنَا^(٢)، حَدَّثَنَا عَنْ عَلِيٍّ بْنِ الْجَعْفَرِ^(٣)، وَحَدَّثْتُ أَنْ سَيُوبَةَ^(٤)، وَحُكِيَ لِي عَنْ سَيُوبَةَ^(٥).

٤- روايات لا مورد لها:

وهي متعددة؛ نظراً لزوال المؤلف (لابن زولاق) لسبيويه المصرى، ومعاصرتة إياه ومصاحبتة له، فكان يلمس أحواله في كثير من الأحيان بنفسه، ويرى كثيراً من تصرفاته وسلوكه بعينه، فهي روايات تعتمد على المشاهدة والمعاينة؛ لذا لا مورد له فيها إلا نفسه^(٦).

ملاحظات منهجية عامة على طريقته في إيراد موارد:

أ- حرص ابن زولاق في كتابه هذا - رغم صغر حجمه - على توثيق رواياته عن طريق ذكر موارد التي نقل عنها مادته التاريخية والأدبية. والملاحظ أن نسبة عدد موارد الصريحة إلى موارد المجهولة لصالح موارد الصريحة، وذلك مؤشر إيجابي على وثاقة غير قليل من أحداث كتابه. وإذا كانت هناك روايات كثيرة لم يذكر لها مورداً، فذلك راجع - كما ذكرت من قبل - إلى أنها أحداث ووقائع لمسها وشاهدها وتابعها بنفسه. وجدير بالذكر أن أكبر عدد روايات نُقلت من مورد صريح محدد في كتابه، إنما هي الروايات التي رواها عن الشخصية نفسها، التي يدور حولها الكتاب، وذلك مؤشر إيجابي آخر، يزيدنا اطمئناناً إلى مادة الكتاب التاريخية.

ب- حرص ابن زولاق في مقدمة كتابه العامة على ذكر أسانيد بعض الروايات كاملة، لكنه - بعد ذلك - كان يكتفي من الإسناد بذكر مصدره المباشر فقط. ولم يقم بالتعريف بموارده، أو بالترجمة الخفيفة لها إلا نادراً^(٧)، وإن كان بعضها معروفاً^(٨) مشهوراً، اللهم إلا قليلاً^(٩).

(١) السابق: ص ٢٨ - ٢٩.

(٢) المصدر السابق: ص ٣٦.

(٣) السابق: ٤٨.

(٤) السابق: ٥٢.

(٥) السابق: ٥٧.

(٦) وكان يعبر عنها بالرؤية (رأيت كذا)، والمقابلة (قابلتُ كذا). (أخبار سبيويه: ٢٢ - ٢٦، ٢٩ - ٣٢، ٣٧، ٤٢، ٥٢).

(٧) ذكر عن الحسن بن موسى الحياط أنه إمام الجامع (أخبار سبيويه المصرى ١٩). أو وصف المورد بـ (القاضى) كما في ص ١٦، ٢١، أو بالفقيه (ص ١٦).

(٨) من موارد المشهورة: الفقيه المالكي (محمد بن عبد الله بن عبد الحكم) ص ١٦، وأبو طاهر القاضى (ص ٤٠).

(٩) ممن لا نعرف من موارد: عبد الله بن محمد (ص ٤٦)، وإبراهيم بن على المكي (ص ٤٩)، وعبد الرحمن بن يوسف (ص ٥٢).

ج- استخدم ابن زولاق الألفاظ المعبرة عن كيفية تلقي معلوماته على موارد بطريفة دقيقة، مثل: حدثنا، وحدثني، وسمعتُ، وأنشدني (بالنسبة للشعر). ولما يستخدم لفظة (قال)^(١) الدالة على عدم معاصرته مورد، فهو نقل من طريق كتاب من كتبه مثلاً، أو نقل عن طريق آخر، لكنه لم يُشر إليه. ولا شك أن دقة ابن زولاق وأمانته في النقل تتبدى واضحة في ألفاظه الدقيقة، التي عُبِّر بها عن موارد المجهولة، رغم أنها تقفنا أمام الرواية بالتأمل، والتفكير، والروية^(٢).

د- يُقدِّم ابن زولاق - أحياناً - بتقديم مناسب قبل أن يذكر مورد ومحتوى روايته^(٣)، فيشعرنا بما يقوم به الباحثون المعاصرون من التمهيد لفكرهم، التي يريدون اقتباسها من المراجع، ثم يعرضون بعد ذلك اقتباسهم بدقة. وأحياناً كان يبلغه الخبر من مصادر مجهولة غير معروفة، فيتجه بالسؤال إلى واحد من أبرز من حضر وشارك في أحداث هذا الخبر^(٤)، وذلك للاستيثاق من مضمونه، وفحواه قبل روايته.

ثالثاً - أهم الملامح المنهجية في كتاب (أخبار سيبويه المصري) لابن زولاق:

١- من حيث الترتيب العام:

قدم ابن زولاق لكتابه بمقدمة عامة مهَّد بها لموضوع كتابه، ثم أورد على هذه المقدمة نموذجين^(٥). وبعد ذلك أتى بمقدمة خاصة، بيَّن فيها مكانة ومنزلة الشخصية، التي سيقترح لها، ويخصها بالحديث في الكتاب كله، وأوضح أنها لم تحظ بالاهتمام الكافي الذي تستحقه. ثم ذكر ظروف تأليفه هذا الكتاب، وإن لم يحدد الشخصية، أو نوعية الأفراد الذين سألوه أن يجمع من كلام (سيبويه المصري) ما يقدر عليه، مما حفظه عنه، وما بلغه عنه، فكان هذا الكتاب^(٦).

٢- مدى الترابط بين جزئيات الكتاب:

بدأه ابن زولاق ببيان اسم ونسب سيبويه هذا كاملاً، ومولده زماناً ومكاناً، ووفاته تحديداً (ذاكراً عمره الذي عاش). وعَرَّف بوالده. ثم ذكر صلته به، ومعاصرته إياه، ومعرفته بأحداث

(١) أخبار سيبويه: ١٦، ٥٨.

(٢) أي: التركيز على تعقل مضمونها؛ لأنها مجهولة المورد.

(٣) أخبار سيبويه المصري: ١٩، ٢١، ٣٤، وغيرها.

(٤) مثل: تأكده مما سمعه عن مظاهر عث وقعت في مجلس أونوهور، فسأل سويه - باعتبار أنه أحد الحضور فيها - عنها (المصادر السابق ٣٦).

(٥) أخبار سيبويه: ١٦.

(٦) أخبار سيبويه المصري: ١٧.

حياته. ويذكر - بعد ذلك - صفات سيبويه بمجمله، وعلومه، وأساتيده، وأبرز صلته بالحسين بن محمد الماذرائي وزير مصر، وتلمذ سيبويه على المتكلمين^(١).

تعرض ابن زولاق لنماذج متفرقة عديدة من حياة هذه الشخصية، التي يُسَطَّر لنا سيرتها، فإذا بنا مُفاجأً بانعدام التسلسل والترابط بين هذه المواقف التي يعرضها^(٢)، وكأنه فقد منهجيته المعروفة عنه، وإذا بنا أمام نصوص تاريخية مهمة في ذاتها، لكن عقدها قد انفرطت حَبَآته، وأصبحت بلا منهج^(٣)، اللهم إلا بعض الترابط الجزئي الداخلي القليل^(٤).

٣- من حيث التوقيت:

لم يكن ابن زولاق حريصاً على الالتزام بذكر توقيت وقوع الأحداث، ربما لأنه لم يُعَنِّ بعرضها مرتبة، ولأنها حوادث متفرقة وقعت عبر الأيام والشهور والسنين المتوالية، وليست ذات صلة بأحداث سياسية مشهورة، كما أُنِي أعتقد أن المؤلف يكتب من ذاكرته، ومن واقع صلته به (سيبويه المصري)، ومن خلال ما يسمع من موارد، فالكل يتذكر بعض المواقف والأحداث، لكنه لا يضبط متى بالتحديد وقعت، ولذلك نجد ابن زولاق كثيراً ما يستخدم تعبير: (حدث يوماً)، و(وقع يوماً)^(٥). أما إذا ارتبطت بعض المواقف بأحداث مهمة، فهو يذكر تواريخها^(٦)، ناهيك عن أهم تواريخ حياة سيبويه (من مولد، ووفاة)، مما لم يُقَنِّه - بالطبع - تصدير سيرته به^(٧).

٤- القدرة على تحديد أماكن وقوع الأحداث:

فابن زولاق مصري، ومجاور - غالباً - في سكناه لسيبويه؛ ولذلك فهو يصف الأماكن وصف العالم بها، ولذلك تعددت مرات ذكره لأماكن تتعلق بسيبويه المصري، والأحداث التي وقعت له في حياته، مثل: المكان الذي كان يسكنه، وظروف سقوطه في البئر المقابل للدار، والمكان الذي بلغ فيه أصحابه نبأ سقوط سيبويه في البئر، فهُرَعُوا إلى إغاثنه، وإنقاذه من موت محقق وشيك^(٨)، وما وقع للبئر - بعد ذلك - من ردم، وتحديد مكانها بالضبط^(٩). وكذلك وصف مكان آخر سكنته أسرة سيبويه عند رحل نصراني^(١٠).

(١) السابق: ١٧-١٨.

(٢) السابق: راجع ص ٢٣، وما بعدها (خاصة ص ٥٠، وبعدها).

(٣) وهو ما عَبر عنه البعض بأنه نص تاريخي غير منظم، ولا مرتب من ناحية هيكله الداخلي (التعليق على النصوص التاريخية، ترجمة د. عبد الله جمال الدين عن الإسبانية) في حوليات دار العلوم العدد ١٤٦ - ١٩٩٠م، ص ٢٧٥.

(٤) أخبار سيبويه المصري: ص ٣٠.

(٥) أخبار سيبويه المصري: ٢٤، ٣٥، ٣٧، ٤١، ٥٢، ٥٨.

(٦) المصدر السابق: ٢٢، ٢٧، ٣٠، ٣٧.

(٧) السابق: ١٧. (٨) السابق: ٢١-٢٢. (٩) السابق: ٢٢. (١٠) السابق: ٢٣.

٥- شخصية ابن زولاق من خلال (سيرة سيبويه المصرى):

أعتقد أنها شخصية حاضرة من خلال معاصرها حياة سيبويه، ومشاركتها في بعض أحداثها. وقد علّل ابن زولاق بعض الأمور الواردة بسيرته، مثل: سبب تلقيبه بـ (سيبويه)^(١)، وعرضه ما قيل عن سبب اختلاطه، وإيراده ما يدل على ترجيحه وجهاً معيّنًا في ذلك الإطار^(٢)، وكذلك سبب عدم التعرض له رغم ما يتلفظ به من كلام المعتزلة^(٣).

وكانت شخصية ابن زولاق تتضح من خلال ما يقدم من شرح لبعض العبارات المسترة التي يستفوه بها سيبويه^(٤)، ومن خلال تعليقات واستنتاجات يذكرها في بعض المواضع^(٥). ويغلب على ظني أن ابن زولاق كان متحيزاً لسيبويه في شرحه طبيعة اختلاطه، إذ إن هناك أمثلة على عدم تورعه من النطق بما يُفحش ويُستقبح من العبارات، وهو الشيء الذي نفاه عنه ابن زولاق دون وجه حق^(٦).

٦- بعض المظاهر الحضارية في الكتاب، ودلائل أهميته:

تعرض ابن زولاق في ثنايا حديثه عن سيرة (سيبويه المصرى) للعديد من المظاهر الحضارية التي تجعل من الكتاب مصدراً مهماً للتأريخ للحياة الاقتصادية^(٧)، والاجتماعية^(٨)، والثقافية^(٩) في ذلك العصر الإخشيدى. وسواء كان ذلك يتم عن وعي من المؤرخ، أم كان يأتي عفويًا، فالخصلة النهائية أنه كان يعطينا فكرة شاملة عن الموضوع الذي يؤرخ له. والشيء ذاته يقال عن كتاب (أخبار سيبويه المصرى)، فبالرغم من أنه مختصر جداً، ويُعدّ في المقام الأول من كتب السير التي تُعرّف بسيرة عالم من العلماء، عدّوه من عقلاء المجانين، إلا أن الروايات الواردة به عاجلت جوانب حضارية شتى، جعلت الكتاب على درجة كبيرة من الأهمية لمن أراد التأريخ للعصر الإخشيدى^(١٠)، كما أعتقد أن من ترجموا لهذا العالم كانوا عالة على كتاب ابن زولاق هذا، سواء ذكروا ذلك صراحة، أم لم يذكروا^(١١).

(١) أخبار سيبويه المصرى: ١٨. (٢) السابق: ٢١-٢٢. (٣) السابق: ٢٣-٢٤.

(٤) السابق: ٣٢. (٥) السابق: ٤١.

(٦) زعم ابن زولاق أن اختلاط سيبويه من النوع الذي لا يُنفوه خلاله بالفيح من القول (السابق: ٢٥). وهذا منافٍ لعبارات أوردها ابن زولاق على لسانه فيها إفحاش وقبح (السابق: ٤٢، ٥٣).

(٧) يمكن مراجعة نماذجها في: السابق: ص ٢١ (النواحي المعمارية، والآبار المحفورة في الشوارع، ووجود طاقات في المنازل)، ص ٥٢ (سوق البزّازين)، ص ٢٣، ٢٧-٢٩ (أجرة سكني البيوت شهرياً، وأنواع الفرش والحصر)، ص ٢٧، ٣٨، ٤١-٤٢ (الرواتب الشهريّة التي تُمنح لبعض الأفراد).

(٨) مثل: الأظعمة (أخبار سيبويه المصرى ص ٣٤)، وموكب الإخشيد لصلاة الجمعة (ص ٢٨)، وطبقة الرّعاغ والصبيان، وموقفها من سيبويه بعد حبه (ص ٣٠-٣١)، وتعاطف أناس آخرين معه (ص ٢٦).

(٩) مثل: أسواق الورّاقين، وازدحامها يوم الجمعة (ص ١٨) ومجالس العلم بالمسجد، ومذاكرات الحديث ومناقشاته (ص ٢٧، ٤٣)، وأشعار بنشدها سيبويه (ص ٥١)، وعبارات فصيحة بلغة له (ص ٣٢)، ومناقشته المتنبي الشاعر المشهور، وتخطئته في بيت مشهور له (ص ٤٥).

(١٠) د. سيد كاشف: مصر في عصر الإخشيديين ص ٦. (١١) معجم الأدباء ١٦٨/٧، ٣١٣-٣٢٣.

الفصل الرابع والأخير من السير التاريخية المفقودة

السير التاريخية المفقودة:

بعد أن فرغنا من دراسة (سير الحكام التاريخية) المطبوعة لمؤرخي مصر في القرن الرابع الهجري، نتقل - الآن - ثَقَلَةً جديدة من نوعها، لعلها تكون فريدة في بابها، ألا وهي تجميع ما تبقى من السير المفقودة في هذا المجال. وقد قمنا في سبيل ذلك بعملية مسح شاملة لما تيسر لنا من مخطوطات ومصادر، ثم أعدنا ترتيب هذه البقايا المتناثرة؛ لنلقى عليها - بعد ذلك - نظرة متاملة، تتناسب مع حجم وأهمية ما تم تجميعه؛ كي نخرج - في النهاية - بملاحظات منهجية عامة عليها.

أولاً - المؤرخ المصري (أحمد بن يوسف بن الداية):

درسنا له - من قبل - سيرة (أحمد بن طولون) مطبوعة. وقد عَثَرْتُ على ^(١) نص تاريخي وحيد، أرجح أنه له من بقايا كتابه المفقود: (سيرة حمارويه). وهاكم هذا النص ^(٢):

" قَرَأْتُ فِي سِيرَةِ حَمَارُويِهِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ طُولُونٍ فِي نَسْخَةِ عَتِيقَةٍ، وَلَمْ يُسَمِّ مَوْلَاهُ ^(٣): أَن حَمَارُويِهِ لَمَّا خَافَ أَن يَضْطَرِبَ الشَّامَ، أُنْفَذَ إِلَيْهِ جَيْشًا، أَمَرَ عَلَيْهِ سَعْدًا ^(٤) الْأَيْسَرَ، وَأَمَدَّهُ بِأَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ الْوَاسِطِيِّ (كَاتِبِ أَبِيهِ)؛ لِيُدْبِرَ الْجَيْشَ، وَيَتَوَلَّى النِّفَقَاتِ فِيهِ. وَكَانَ الْوَاسِطِيُّ يَطْمَعُ أَن يَدْبِرَ أَمْرَ حَمَارُويِهِ، وَأَنَّهُ يَرُدُّ تَدْبِيرَ الْأَمْرِ إِلَيْهِ، وَقَالَ: هَذَا صَبِي حَدَّثْتُ، أَدْبَرَهُ كَمَا أَرَى. فَلَمَّا أَخْرَجَهُ إِلَى هَذَا الْوَجْهِ، وَاسْتَكْتَبَ مَحْبُوبُ بْنُ رَجَاءَ بَعْدَهُ، فَسَدَّتْ نِيَّتُهُ، وَقَالَ: مَحْبُوبُ أَحَدُ كُتَّابِي يَنْصَرِفُ بَيْنَ أَمْرِي وَنَهْيِي ^(٥). أَلَا الْأَمْرُ إِلَى أَن صَبِرْتُ بَعْضَ خَلْفَائِهِ إِيَّاهُ؟ فَتَغَيَّرَ عَلَى سَعْدٍ وَافْتَرَقَا.

(١) أُمِّي: اطَّلَعْتُ. مِنْ بَابِ عَثَرَ يَعْثُرُ عَثْرًا. وَاعْتَثَرَهُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ: أَطْلَعَهُ. وَمِنْ قَوْلِهِ (تَعَالَى) فِي سُورَةِ الْكَهْفِ: (مِنْ آيَةِ ٢١): (وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَنْهُمْ لِيَقْتُلُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا). لَكِنْ عَثَرَ يَعْثُرُ عَثْرًا، وَعَثَارًا: زَلَّ وَكَبَا. (تَحْفَازُ الصَّحَاحِ ٤١٢، وَالْمَعْجَمُ الْوَسِيطُ ج ٢ ص ٦٠٥، مَادَّة: ع. ث. ر.).

(٢) بَغْيَةُ الطَّلَبِ، لِابْنِ الْعَدَمِ ج ٣ ص ١١١٣ - ١١١٥.

(٣) رَجَحْتُ أَن يَكُونَ لِابْنِ الدَايَةِ لِقَدَمِ النُّسخَةِ مِنْ جِهَةٍ، وَلِصَلَةِ ابْنِ الْعَدَمِ مُؤَلِّفِ كِتَابِ (الْبَغْيَةِ)، الَّذِي وَرَدَ فِيهِ هَذَا النَّصُّ بِكُتْبِ ابْنِ زَوْلَاقٍ، وَنَقْلِهِ بَغْطَةَ (سِيرَةِ الْإِخْشِيدِ)، فَلَوْ كَانَ هَذَا النَّصُّ مِنْ كِتَابِ ابْنِ زَوْلَاقٍ عَنْ (حَمَارُويِهِ)، وَالَّذِي ذُكِّلَ بِهِ عَلَى كِتَابِ ابْنِ الدَايَةِ، لَنَسَبَ إِلَيْهِ.

(٤) وَرَدَتْ فِي النَّصِّ بِغَيْرِ النَّصْبِ (سَعْدٌ)، وَهُوَ خَطَأٌ نَحْوِي.

(٥) وَرَدَتْ فِي النَّصِّ (وَبِهَيْ)، وَهُوَ تَحْرِيفٌ مِنَ النَّسَاجِ. هُوَ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ الْمُؤَقِّقِ، الَّذِي وُلِيَ الْخِلَافَةَ بَعْدَ ذَلِكَ (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ)، وَلَقَّبَ بِـ (الْمُعْتَصِدِ بِاللَّهِ). (الْكَامِلُ ٦/ ٣٣٨).

وتغير الواسطي، وكتب إلى ابن الموفق^(١) كتاباً، يخثه على المسير إلى مصر، وقال: أنا أسست أمر أبي الجيش، والله لأهدمن ما كنت بنيت، وضمن الكتاب هذه الأبيات: (من البسيط)

يأيها الملك المهروب جانبُهُ شمرٌ ذيول السرى^(٢) فالتصر قد قرَّباً
كم ذا القعود ولم يقعد قعودكم عن القتال لقد أصبحتم عجباً
ليس المريد لما أصبحت تطلبه ولا المشمر عن ساق وإن لقَّباً^(٣)
لا تقعدن عن التفريط منعكفاً واجدِدْ، فقد قال قوم: إنه رهبا
فأنت في غفلة يقظان ذو سبة مطالب الوثر^(٤) ذو جد إذا طلبا
أحاد مروان^(٥) في بيت أصاب به عين الصواب فما أخطأ ولا كذبا
إذ قال لما رأى الدنيا تُميد هم بعد الهدوء وعاد الجبل مضطربا
إن أرى فتنة تغلى مراحلها والملوك بعد أبي ليلى^(٥) لمن غلبا

فلما قرأ ابن الموفق كتاب الواسطي، قال لابن كنداج^(٧)، وابن أبي السَّاج^(٨): ما

(١) هو أبو العباس أحمد بن الموفق، الذي ولى الخلافة بعد ذلك (٢٧٩-٢٨٩هـ)، ولقب بـ (المتعض بالله).

(٢) سَرَى الليل، يَسْرَى سَرِيّاً، سَرِيّاً، أى: مضى وذهب. (المعجم الوسيط: س. ر. ي، ج ١ - ص ٤٤٤).

والمعنى: أقبل الصبح، واقترب فجر النصر.

(٣) لَقَّبَ فلان يَلْقَبُ لقباً ولُغِباً: تعب، وأعيأ. (المرجع السابق: مادة ل. غ. ب) ج ٢ - ص ٨٦٣.

(٤) أى: بالتأثر. (المرجع السابق، مادة: (و. ت. ر) ج ٢ - ص ١٠١).

(٥) هو معاوية الثانى (معاوية بن يزيد بن معاوية). وذكر الطبرى أنه الذى قال فيه الشاعر: إن أرى فتنة قد حان أولها والملوك بعد أبي ليلى لمن غلبا (تاريخ الطبرى ٥٠٠/٥) (أحداث سنة ٦٤هـ).

(٦) يقصد: مروان بن الحكم.

(٧) هو إسحاق بن كنداج الخزرى اليهودى الأصل. كان من ساند الموفق في إحباط سعى أخيه الخليفة المعتمد المسير مع أحمد بن طولون إلى مصر، ووعده الموفق - جزاء ذلك - إقطاعات واسعة، ومالاً جزيلاً، وزيادة رباسته وعمله (وذلك في جمادى الأولى سنة ٢٦٩هـ). (سيرة البلوى ٢٩٠ - ٢٩١). وكانت له معركة - وهو على الموصل - ضد ابن دعباش عامل ابن طولون على (الرقعة وأعمالها، وعلى الثغور والعواصم) سنة ٢٧٠هـ (تاريخ الطبرى ٦٦٧/٩). وكان ممن شارك ابن الموفق في معركة الطواحين ضد حمارويه (بغية الطلب ١٤٩٩/٣).

(٨) أبوه هو أبو السَّاج، الذى تُنسب إليه الأحناد الساجية ببغداد. وقد توفى هذا الأب في ربيع الآخر سنة ٢٦٦هـ - (جندبساور) من أعمال خوزستان. (وفيات الأعيان ٢٥٠/٢ - ٢٥١). أما ابنه محمد، فيكنى بـ (أبي عبيد الله). وحن ابن الموفق في معركة (الطواحين)، ودعا لحمارويه بعد ذلك سنة ٢٧٣هـ، وفيها هزم ابن أبي السَّاج إسحاق ابن كنداج بالرقعة (تاريخ الطبرى ١٠/١٢١، وبغية الطلب ١٤٩٩/٣). هذا، وقد توفى محمد بن أبي السَّاج بأذربيجان في ربيع الأول سنة ٢٨٨هـ، وتفرق غلماناه بعده. (مروج الذهب ٦٢٨/٢، ووفيات الأعيان ٢٥٠/٢).

فعودكم؟! وضرب طبله وسار، وساروا معه حتى كبسهم في شَيْزَر^(١)، وقتل منهم مقتلة عظيمة. وكان الواسطي^(٢) بالرملة يقطع الطريق فيما بين ابن أبا، وسعد الأعسر^(٣) وهما بدمشق، فسار أحمد بن الموفق إلى دمشق، وكبشها على غِرَّة، فاهزمها إلى الكسوة، وقُتل من بقي من أصحابهما. ثم إنهم اجتمعوا، وقصدوا الواسطي^(٤) فهزموه، وأخذ على طريق الساحل، حتى لحق أحمد بن الموفق. ودخل المصريون الرملة، فنهبوا دار الواسطي وخزائنه. ثم ذكر وصول أحمد بن الموفق، وأنه لما أبصر عسكر أبي الجيش هاله وأكبره، وصغر جيشه في عينه، فشجعه الواسطي، وضمن له النصر عليه، وقال له: لا يفرك هذا؛ فأكثرهم عامَّةً: بَقَال، وحائث، وفاعل. فَنَقَى بالنصر ولا تَجَزَع. إلى أن التقى العسكران، وكانت النصر على أحمد بن الموفق. فركبا دوابَّ الهزائم، ومَرَّ كل واحد منهما على حدة. فأما ابن الموفق، فلم يَرُدَّ وجهه عن دمشق شيء، فلم يفتح له أهلها بأها، ومنعوه من الدخول، فَمَرَّ على طَيْبَةِ^(٥) إلى طَرْسُوس. وأما الواسطي^(٦)، فأضرب به الهرب إلى أنطاكية، فأقام بها مُدَيِّدَةً، ومات كمدًا."

ملاحظات عامة على النص المفقود السابق:

١- نجح ابن الداية في انتقاء عناصر الحادثة الملائمة لغرضه الأساسي منها، وركز عليها. فرغم أن هذه الرواية تتناول موقعة الطواحين بين (أبي العباس بن الموفق)، و(جيش حماروييه)، وكانت لها أسباب ومقدمات، وفي وصفها تفصيلات هزجة حمارويه في البداية وفسارها، ثم تغير الظروف بعد ذلك؛ مما أدى إلى انتصار حمارويه^(٧)، فإن ابن الداية لم يُعَنَّ من ذلك كله إلا بوصف دور الواسطي في إشعال المعركة في البداية، وفي إتمامها لما كاد أبو

(١) قلعة بالشام، بينها وبين حماد يوم. يجري وسطها نهر الأردن، الذي توجد عليه قلعة وسط المدينة، ويبدأ أوله من جبل لبنان. وهي قلعة قديمة، تعد داخلية في كورة حصص. (معجم البلدان ٤٣٤/٣).

(٢) هو أحمد بن محمد - ويقال: محمد بن أحمد - الواسطي الكاتب (أبو عبد الله). كان صاحب ابن طولون منذ قس، وصحبه مع المستعين في واسط. كان حلو الحديث ظريفاً، حسن المجالسة، شاعراً كاتباً. صاحب ابن طولون منذ ولايته على مصر حتى وفاته، وكان بمنزلة وزير له، وكان له دور كبير في إقام بيعة حمارويه، وقتل أخيه العباس (سيرة ابن الداية ص ٧٥-٧٦، ١٣١، وبغية الطلب ١١١١/٣-١١١٣، ومختصر تاريخ دمشق ٢٩٣/٣).

(٣) راجع ترجمة (أحمد، أو محمد بن أبا) أحد قواد ابن طولون، وحمارويه بعده في (مختصر تاريخ دمشق ٦/٣-٧). أما سعد الأيسر أو الأعسر، فكان من القواد البارزين، وله دور كبير في معركة الطواحين، وخرج عن الطاعة بعد ذلك، فقتله حمارويه ٢٧٣هـ، (الولاة ٢٣٦، والنجوم ٦٤/٣).

(٤) وردت في النص (ابن الواسطي)، والصواب ما ذكرت.

(٥) الطَّيْبَةُ: البجعة أو الناحية البعيدة. (المعجم الوسيط، مادة: ط. ي. ح) - ج ٢ - ص ٥٩٣.

(٦) وردت في النص (ابن الواسطي)، والصواب ما ذكرت.

(٧) تفاصيلها في: تاريخ الطبري - ٢٧١هـ - ج ١٠ - ص ٨، والولاة ص ٢٣٥، والكمال ٦/٣٤٢، والنجوم ٦٣/٣-٦٤.

العباس يتراجع. واكتفى من نتائجها بمحصّلاتها العامة، وكان تركيزه الأساسي على ما انتهى إليه أمر الواسطي محور هذه الأحداث، ومحركها من البداية حتى النهاية.

٢- تمتاز رواية ابن الداية بميزتين مهمتين: الأولى - القدرة على الغوص وراء أسباب موقف الواسطي من حمارويه، وإبراز دور العوامل النفسية في تحريك الأشخاص نحو سلوكيات معينة^(١). الثانية - الاهتمام بذكر أبيات الشعر التي كتب بها الواسطي إلى ابن الموفق، وهي وسيلة قوية ووثيقة مؤكدة، تعكس طبيعة الواسطي وثقافته الأدبية والتاريخية ككاتب ووزير لابن طولون من قبل، وتؤكد قيامه بعملية التحريض المذكورة^(٢).

٣- تعكس هذه الرواية التاريخية نظرة الحكام إلى عوامّ الناس من بقّالين، وحائكين، وصنّاع في ذلك الزمان، وهي نظرة دونية، يعتقدون بمقتضاها أن هؤلاء لا يُحسنون بحاربون. ولعل مرد ذلك يتمثل في أن الجيوش كانت من الجند المحترفين، ولا يشارك فيها أهل البلاد من المصريين.

٤- يُحسب لابن الداية في هذا النص قدرته على تطويع بلاغته العالية، وأسلوبه البليغ في إزاحة جفاف المادة التاريخية، وفي حسن تصوير الأحداث التاريخية بدقة، لكن فاته في هذا النص شيء مهم يتصل بالواسطي، وهو ذكر تاريخ وفاته^(٣).

ثانياً - المؤرخ المصري ابن زولاق:

وينسب إلى هذا المؤرخ الفدّ ذي الإنتاج التاريخي الغزير، الكتب المفقودة الآتية:

١- (سيرة أحمد بن طولون): وجدت من بقاياها النصوص التاريخية التالية:

أ- وقفت على سيرة للإخشيدي^(٤) قديمة، عليها خط الفرغاني، فيها:

أن أحمد هو ابن ألنج من الأتراك، كان طولون صديق أبيه، ومن طبقته. فلما مات ألنج ربّاه طولون وكفله. فلما بلغ من الحداثة، مشى مع الحشوية وغزا، وتنقلت به الأحوال، إلى أن صار معدوداً في الثقات. وولى مصر، واستقر بها. قال صدر الدين بن عبد الظاهر: ولم أر ذلك لغيره من المؤرخين^(٥).

(١) يبدو أن الواسطي كان يتقافى في خدمة ابن طولون؛ خوفاً ورهباً، ثم طمعاً بعد ذلك؛ بدليل تصرفه نحو حمارويه. وقد وصفه ابن طولون بأنه قوى الحيلة فاسد الدين، وكان يتوقع منه ما حدث. (سيرة البلوي ٣٣٧-٣٣٨).

(٢) أكد وقوعها طراهه في دكتوراه (حضارة مصر في العصر الطولوني) ص ٤٤-٤٦، ونقلها حسن عبد الحميد في دكتوراه (ص ١٦٤). والأول أرجح.

(٣) استكمل هذا النص ابن العديم من تاريخ المسيحي، فذكر وفاته في شعبان ٢٧٢هـ. (بغية الطلب ١١١٦/٣).

(٤) من الواضح أن هناك خطأ في العبارة؛ لأن النص التالي يتعلق بابن طولون لا بالإخشيدي، فالصواب: (وقفت على سيرة لابن طولون). وأما خط الفرغاني، فلعلها نُسخت بخط ذلك المؤرخ تلميذ ابن الداية، ومعاصر وزميل ابن زولاق، وأرجح أنه الفرغاني الأب (عبد الله بن أحمد التتوي ٣٦٢هـ).

(٥) تاريخ ابن خلدون ٣٨٦/٤.

ب- قال ابن زولاق مؤرخ مصر:

"قبض على العباس بنواحي الإسكندرية، وأدخل إلى القسطنطينية على قتب على بقل مُقَيِّداً في سنة سبع وستين ومائتين. ونصّب لكتابه، ومن خرج بهم إلى ما خرج إليه ذكّة عظيمة رفيعة السَّمَك في يوم الأربعاء، لا أعرف موقعه من الشهر. جلس أحمد بن طولون في علوّ يوازئها، وشرع من ذلك العلوّ إليها طريقاً. وكان العباس قائماً بين يدي أبيه في خَفَافٍ مُلَحَمٍ وِعِمَامَةٍ وَخُفٍّ، وبيده سيف مشهور، فضرب ابن جدار ثلاثمائة سوط وتقدم إليه العباس، فقطع يديه ورجليه من خلاف، وألقى من الذكّة إلى الأرض. وفعل مثل ذلك بالمتوف، وبأبي مَعَشَر. واقتصر بغيرهم على ضرب السُّوط. فلم تمض أيام حتى ماتوا"^(١).

ج- البالسيّ الضريّر:

شاعر من أهل البلس، ذكر له ابن زولاق في (سيرة أحمد بن طولون) أبياتاً، قالها في أحمد ابن طولون، حين حصر الموفق المعتمد على الله وحجسه، يُخاطب أحمد بن طولون، ويمدحه حين قام بنصرة المعتمد^(٢):

يا سَمِيَّ النبي لا نَسِيَّ اللَّـ	هُ لك الذبّ عن حريم النبيّ
دولة الدين والخلافة عَزَّتْ	بك لا بالطريد عنها التَفِيّ
المزال اسمه على الرغم من كـ	ل مقام امرئ كريم سَنِيّ
رام مالا ينال فلقد خا	ب وخاب اعتداده بالخَصِيّ

د- قرأت في سيرة (أحمد بن طولون) من تأليف ابن زولاق المصري، قال في آخرها:

"ورآه عبد الله بن القاسم، وكان من أصحاب سيما الطويل، قال: رأيتُ فيما يرى النائم كأن سيما الطويل متعلق بأحمد بن طولون على باب مسجد، وهو يصيح بأعلى صوته: يا رسول الله، أَعْبَدِي^(٣) على أحمد بن طولون، فإنه قتلني واصطفى ما ملكتُ، وأسرع في أهلي

(١) معجم الأدباء: ١٨٣/٧ - ١٨٤.

(٢) بغية الطلب جـ: ١٠ ص/٤٧٥١. ذكر البلوي في (سيرة ابن طولون) صـ ٣٠١ اسم هذا الشاعر، وأبياتاً من شعر له طويل في مخاطبة الأمير ابن طولون. لكنه لقيه بـ (البالسي)، ولا أدري أيهما أصوب، وإن كان البلوي أقدم، وبحقّه رجل أدب ولغة، فمادته أضيف وأصوب. (ورد لدى البلوي كلمة البغي) آخر الشطر الثاني من البيت الثاني. وتلاه بتوضيح له قائلاً: يعني أبا أحمد الموفق لما نفاه المهدي، فزده المعتمد. وأول لفظة في البيت الثالث: (أَبْرَأَ). وفي البيت الرابع: (ما لن يناله فلقد خاف وخاب اعتصامه). ثم علق البلوي شارحاً: يعني اعتصامه بإيمان الخادم. ثم أتى بيت خامس لم يذكره ابن زولاق هو: ولبعداً له وسحقاً لإسحاق اليهودي دُنه الحزريّ.

(٣) بمعنى: مكّني منه، أو اقص لي منه. عَدَدٌ يَمْدَنُ عَدَنًا وَعُدُونًا بالمكان، أي: أقام به. (لسان العرب، مادة (ع.د.ن) جـ ٤ صـ ٢٨٤٣ - ٢٨٤٤)، والمعجم الوسيط ٢/٦١٠. وقد ورد بلفظ (أَعْبَدِي) في (سيرة البلوي) صـ ٣٥٥.

وولدى. فصاح به صائح: كذبت يا سيما، ما قتلك أحمد، بل قتلك عجيج شمل التاجر^(١)، الذى ظننت أن عنده مالاً، فضربته حتى أشرف على الهلكة، ثم دختت عليه حتى مات فى التدخين. أنت وأحمد خاططان إلا أن أخفكما وزراً أحسنكما سيرة، وأكثركما معروفاً أقربكما من المغفرة^(٢)."

ملاحظات عامة على بقايا (سيرة ابن طولون) لابن زولاق:

أ- انفرد ابن زولاق دون غيره من المؤرخين بنسبة أحمد بن طولون إلى ذلك الرجل التركى المسمى (النج). وقد سبق أن ذكر البلوى الرد على مَنْ نسبته إلى (يَلْبَخ). ويصدق ذلك الرد هنا أيضاً، ولعل الاسم واحد ووقع فيه تحريف، وكان ينبغي على ابن زولاق التحقق من صدق الرواية، إضافة إلى ضرورة ذكر مصدرها.

ب- اهتم ابن زولاق بإيراد أدق التفاصيل عن حال العباس، لما أدخل إلى الفسطاط (تقييده، والتضييق عليه فى مركبه^(٣))، ووصف ملبسه وحاله بين يدي أبيه^(٤). ويلاحظ الوصف الدقيق الذى أوقع فيه العقاب بالمتأمرين^(٥)، والعرض البين لما حلّ بأبرزهم وأشدّهم جرماً، وأكثرهم تحريضاً للعباس، مع جعل تمام العقاب على يد العباس نفسه؛ نكايه لهم، وتسفيهاً له فى أعين الناظرين، فلا يفكر أحد فى التآمر مع هذا الأحق القاسى ثانية. والملاحظ أن ابن زولاق اهتم بذكر توقيت السنة التى أدخل فيها العباس أسيراً، وكان أميناً عندما لم يتذكر موقع اليوم الذى حوكم فيه الجناة من الشهر، رغم أنه كان دقيقاً، فذكر اسم اليوم، الذى حدث فيه هذا.

(١) ورد فى البلوى (المصدر السابق) ص ٣٥٦: "قتلك عجيج شمل التاجر". والعجيج: رفع الصوت بالدعاء. من قولهم: عَجَّ يَعْجُ عَجاً وَعَجِجَاجاً. (اللسان، مادة: ع.ج.ج، ج ٤ ص ٨١٣، والمعجم الوسيط ٢/٦٠٥ - ٦٠٦). ويكون فى اسم هذا التاجر روايتان: (شمل، وسهل). ولعل الأخير أرجح.

(٢) بغية الطلب ٢/٨٣٤ - ٨٣٥.

(٣) ذكر أنه دخل على قُب على بعل. والقُب: الرُحْل الصغير على قدر سَنَام البعير (وهو - هنا - البقل). الجمع: أقباب. (اللسان، مادة: ق.ب.ب) ج ٥ ص ٣٥٢٤، والمعجم الوسيط ٢/٧٤٠.

(٤) كان قائماً فى زى متواضع، وهينة ذليلة. الخَفْخَفَةُ المُلْحَم: ثوب جديد يحدث صوتاً عند تحركه وهو (الخَفْخَفَةُ)، وهو جنس من الثياب يختلف نوع سُدَاه ونوع لُحْمَتِهِ كالصوف والقطن، أو الحرير والقطن. (اللسان، مادة: خ.ف.ف) ج ٢ ص ١٢١٣، ومادة: ل.ح.م، ج ٤ ص ١٢/٥٤. وفى المعجم الوسيط (ل.ح.م) ج ٢ ص ٨٥٢. ويلاحظ أنه عُبِّر عن الثوب الذى يرتديه العباس تعبيراً دقيقاً، فهو نظيف لكنه لا يليق بأبناء الأمراء، ثم إن العباس وقف مرتجفاً، فُحِّدَتِ الثوب صوتاً؛ خشية قتل أبيه له.

(٥) وصف البناء العالى الذى شاده ابن طولون؛ لإيقاع العقوبة بالمتأمرين، فبراهم الجميع، وجعل لنفسه مكاناً موازياً؛ ليشفى غليل نفسه. ثم إنه بالغ فى ارتفاعه؛ ليلقى المتأمرون حتفهم عند الإلقاء بهم من هذا الشاهق. والدُّكَّة: بناء بُسَطِح أعلاه للجلوس عليه. أما لفظة الدُّكَّة المحدثه، فهى مقعد مستطيل من خشب - غالباً - يجلس عليه. والجمع: دكاك. (المعجم الوسيط، مادة: د.ك.ك) ٣/١٠٢. وجعلها رقيقة السُّلْك، أى: عالية السُّف. أما السُّلْك، فهو غِلظ الشئ وتَحَاتته (وهى لفظة محدثة). والجمع: سُمُوك. (السابق ١/٤٦٧).

وجدير بالذكر أن ابن زولاق لم يكن دقيقاً - من وجهة نظري - في تحديد المكان، الذي أمسك فيه بالعباس؛ إذ جعله (نواحي الإسكندرية). وفي اعتقادي أنه كان في (نواحي بركة)، وإلا ما طلب الواسطي إلى ابن طولون أن يعود من الإسكندرية إلى الفسطاط، لَمَّا أراد الخروج إليه بنفسه. لقد قال ابن الداية بالنص عن الواسطي، لما هرب من حبس العباس: " فلقي أحمد بن طولون، وقد خرج إلى الإسكندرية، وعزم على الرحيل إلى بركة، فصعّر أمره عنده " (١). ولم تذكر الرواية مصدر معلومات ابن زولاق، فلعل ابن العديم تغاضى عن ذكره. وعلى كل، فواضح أن ابن زولاق - بالفعل - يأتي بمعلومات لم تُرد في سيرة ابن الداية، فهو يذلل على سيرته، ويأتي بما فاتته منها، لكن هذا - في نظري - لا يمنع من الاقتباس منه في بعض الأحداث، مع وضع إضافات من لدنه. وبالعودة إلى هذه الرواية في سيرة ابن الداية (٢)، لم أجد بها جديداً، اللهم إلا في ذكر ابن زولاق يوم معاينة الخنثة، وبقية الرواية تكاد تكون منقولة بنصها من ابن الداية.

ج- وكما أعطينا الرواية السابقة بعض لمحات عن نوعية الأزياء، وشكل العقاب الصارم في ذلك العصر، تضيف رواية (سيما الطويل) وصفاً للتعذيب الجسدي، الذي يُمارَس ضد الضحية، حتى يلقي ثمايته اختناقاً. ويلاحظ وجود مصدر لهذه الرواية (عبد الله بن القاسم)، بينما كان راويها في (سيرة البلوي) عبد الله بن الفتح (٣)، ومضمون الروايتين واحد. أما مدلولهما، فيشير بكثير من الموضوعية إلى عدم القطع بالمغفرة لابن طولون، ويشير إلى بعض مما ارتكب كلاهما من أخطاء، وإن كان يحكم لابن طولون من طَرَفٍ خَفِيَ بأنه أقرب إلى مغفرة الله، على اعتبار كثرة صدقاته وإحسانه. وعلى كل، فهذه الرواية التي اختارها ابن زولاق متحفظة، بعيدة عن التحيز، وهي أقرب إلى الحيادية من روايات أخرى، عالجتاها من قبل في سيرة البلوي، وإن كان الجميع لا يُعَوَّل عليه في مصير ابن طولون.

٢- سيرة حمارويه، لابن زولاق:

من بقاياها التي وضعتُ يدي عليها بعد فحص كثير من المصادر ما يلي:

أ- قال ابن زولاق (٤): " وكان أبو جعفر محمد بن عبد الله بن عبد كان على

(١) سيرة ابن الداية: ص ١٢٢. وقد أخطأ الطبري، لما ذكر أن العباس بن أحمد بن طولون زحف لحرب أبيه سنة ٢٦٨هـ، فخرج أبوه أحمد إلى الإسكندرية، فظفر به، وردّه إلى مصر، فرجع معه إليها. (تاريخ الطبري ٩/ ٦٠٢). فلا المكان صحيح، ولا الحادثة وقعت، ولا التاريخ دقيق.

(٢) سيرة ابن الداية: ص ١٢٢.

(٣) ص ٣٥٥. والظاهر أن الاسم الوارد في (سيرة البلوي) أدق؛ إذ إن له فيها بعض روايات هذا الاسم، وفي موضوعات تتصل بما بعد وفاة ابن طولون (مواقف المعتمد من نبأ وفاة ابن طولون ص ٣٥٧-٣٥٨). فلعل النسخ حرقوه في كتاب (ابن زولاق)، أو في (بغية الطلب).

(٤) معجم الأدباء ٨٥/٦-٨٧.

المكتاتبات والرسائل، منذ أيام أحمد بن طولون، ومكتباته وأجوبته موجودة، إلى أن قدم عليه أبو يعقوب إسحاق بن نُصَيْرِ البغدادى من العراق، والتمس التصرف، فقال له ابن عبد كان: فيماذا تتصرف؟ فقال: في المكتاتبات والأجوبة والترسل. وكان بين يدي أبي جعفر كتب قد وردت، فقال له: خذ هذه وأجب عنها، فأخذها ومضى إلى ناحية من الدار، فأجاب عنها، ثم وضع خُفَّهُ تحت رأسه ونام. وقام أبو جعفر إلى الحجرة التي له، فاجتاز به والكتب بين يديه، فأخذها وقرأها. فلما تأملها، جعل يُرَوِّجُ إسحاق بن نصير حتى انتبه، فقال له: عمن أخذت الكُتَبَ؟! وأجرى عليه أربعين ديناراً في كل شهر. فلم يَزَلْ مع أبي جعفر إلى أن توفي أبو جعفر، وانفرد بالأمر على بن أحمد الماذرائي، فقال لإسحاق: الرِّمَ مَرَّتْكَ، فانصرف. فوردت كتب، فأجاب عنها على بن أحمد، ودخل على أبي الجيش حمارويه بن أحمد بن طولون، فعرضها عليه، فقال له: ما هذه الألفاظ التي كانت تخرج مني وعني؟ فمضى على بن أحمد، وعاد إليه، فما أراد أبو الجيش الجواب ولا استجاده. فخرج على بن أحمد، قال: هاتوا إسحاق بن نصير، فجئ به، فقال: أجب عن هذه، فأجاب، ودخل (على بن أحمد) على (أبي الجيش)، فقرأ الأجوبة، فقال: نعم، هذا السدى أعرف "أينس الخير"؟ فقال له: كاتب كان مع أبي جعفر، فاعتزل، وأحضرتة الساعة، فقال: هاته. فأحضره، فقال: كم رزقك؟ فقال: أربعون ديناراً. فقال لعل بن أحمد: "اجعلها أربعمئة في السنة، اجعلها له أربعمئة في الشهر. وقال لإسحاق بن نصير: لا تُفارق حضرتي. فبلغ إسحاق حتى صار رزقه ألف دينار في كل شهر. فكان يجود بذلك، ويُفَضِّلُ به على الناس، ولقد أرسل إلى بغداد إلى ثلاثة أنفس: إلى أبي العباس المُبَرِّد، وإلى أبي العباس ثعلب، وإلى وراق كان يجلس عنده، دفعة واحدة ثلاثة آلاف دينار، لكل واحد منهم ألف دينار. وجرى ذلك على يدى أحمد بن الوليد التاجر خال القاضي بمصر". قال ابن زولاق: مات سنة سبع وتسعين ومائتين^(١)

ب- "وذكر أبو محمد الحسن بن إبراهيم بن زولاق فيما قرأته في سيرة أبي الجيش حمارويه بن أحمد بن طولون قال^(٢):

وفي هذه السنة، في صفر منها - يعني سنة ثمان وسبعين ومائتين - مات أبو أحمد الموفق، وعُقد العهد لابنه أبي العباس. وكان للموفق غلام خدام من جلة غلمانه يعرف بـ (راغب)^(٣).

(١) معجم الأدباء ٨٥/٦، والمقفى ٥٩/٢.

(٢) بنية الطلب ٣٠٥٣/٨ - ٣٠٥٥.

(٣) له ترجمة في (المصدر السابق) ٣٠٥٣/٨، ٣٠٥٥ - ٣٠٥٦.

فلما مات مولاه أحرزته موته، فأحب أن يسكن طرسوس، فاستأذن في ذلك، فأذن له، فخرج قاصداً يريد الثغر. وكان حمارويه - يومئذ - بدمشق. فلما بلغ راغب إلى حلب، وهمَّ بالدخول إلى طرسوس، قيل له: طرسوس من عمل أبي الجيش، وهو بالقرب منك، فلو صرَّتَ إليه زائراً وقضيتَ حقه، وعرفته ما عزمتَ عليه من المقام بالثغر ما ضركَ ذلك، وكان أَجَلَ لِمَحَلِّكَ، وأقوى لك على ما تريده. فبعثَ بِثَقْلِهِ، وجميع ما كان معه مع غلام له يُعرف بـ (مكنون)، وأمره أن يتقدمه إلى طرسوس، ورحل هو مُخَفِّفاً إلى دمشق، فلقى أبا الجيش، فأحسن أبو الجيش تلقيه، وسرَّ بنظره، ووصله، وأحسن إليه، وكان يكثر عنده ويحادثه. وكانت لراغب عارضة وبسيان، وحسن عبارة، وكان قد رأى الخلفاء، وعرف كثيراً من أخبارهم، فكان يصل بجلسه بشئ من أخبارهم وسيرهم، فأنس به حمارويه، وكان يستريح إلى حديثه ومذكراته. فلما رأى راغب ما يخصه به حمارويه من التكرمة والأنس به، والاستدعاء إذا تأخر، استحيا أن يذكر له الخروج إلى طرسوس.

فلما طال مقامه بدمشق، ظن مكنون غلامه أن أبا الجيش قد قبض عليه، ومنعه من الخروج إلى الثغر، فأذاع ما ظنه عند المطوعة وشكاه إليهم، وأكثر هؤلاء المطوعة من أهل الجبل وخراسان، معهم غلط الأعمحية، وسوء آدب الصوفية، فأحفظهم هذا القول وظنوه حقاً، فقالوا: تَعَمَّدُ إلى رجل قد خرج إلى سبيل الله؛ محتسباً نفسه لله ﷻ، وفي مقام مثله في الثغر قوة للمسلمين، وكُتِبَتْ لأعدائهم من الكافرين، فتقبض عليه وتمنعه من ذلك؛ جرأة على الله؟ فلتفروا، وتجمعوا، ومشى بعضهم إلى بعض، وأقبلوا إلى واليهم، وهو ابن عم حمارويه، فشغبوا عليه، فأدخلهم إليه؛ لِيُسَكَّنَ منهم، ويُدَّعَمَ بما يحبون، فقبضوا عليه، وقالوا: لا تزال في اعتقالاتنا، أو يطلق صاحبك صاحبنا، فإن قتله قتلناك به. وتسرَّع سِفْلُهُم إلى داره، فنهبت^(١)، وهتكت حرمة، ولحقه كل ما يكره.

وجاءت الكتب إلى أبي الجيش بذلك، فأحضر راغباً، وأقرأه الكتب، وقال له: والله، ما منعناك، ولا حظنا عليك الخروج. ولقد سررنا بقربك، وما أوليتَ وأوليناك إلا حميلاً، وقد جئنا علينا سوء ظن غلامك ما لم نَحْجِهْ، فإذا شئتَ فارحَلْ مُصَاحِباً، وقل لأهل طرسوس: يا جهلة، ما يومنا فيكم بواحد؟ تتسرعون إلى ما نكره مرة بعد أخرى ونُغْضِي عنكم، ويَحْلُمُ الله ﷻ، ولولا المحافظة على ثغر المسلمين وعز الإسلام، لا خشية منكم ولا من كثرتمكم، وإلى الله الشكوى، ولسولا الخوف من غضبه ﷻ؛ لجازيناكم على أفعالكم. فودَّعه راغب، ورحل إلى طرسوس. فلما صح - عند أهل طرسوس - خبر راغب، أطلقوا عن محمد بن موسى بن

(١) وردت معرفة هكذا (فنهبت) في: (بغية الطلب ٨/٣٥٥٤).

طولسون^(١). فلما أُطلق، قال: أصلح الله بلدكم. ورحل عنهم، فسكن بيت المقدس. وكان له دين، وفيه خير كثير.

ملاحظات عامة على ما تبقى من (سيرة حمارويه) لابن زولاق:

أ- اهتم ابن زولاق في نصه الذي تناول (إسحاق بن نصير النصراني الكاتب) بإظهار ملامح من النواحي الإدارية والاقتصادية بمصر، فقد عرفنا من خلال روايته أهم وظائف الديوان في عهد حمارويه (المكاتبات، والأجوبة، والترسل)، وعرفنا أن للديوان رئيساً هو ابن عبد كان، له حجرة خاصة به في دار الديوان. فلما مات انفرد بالأمر علي بن أحمد المادرائي. وبدت لنا أهمية العراق كرافد رئيسي لمقدم الكتاب إلى مصر (إسحاق بن نصير قدم من بغداد).

ب- وظيفة الكتابة تُدرّ على صاحبها دخلاً كبيراً، وصاحبها له وجاهته، وتُهيأ له السبل المريحة لأداء عمله بدقة وإتقان (لمسنا ذلك من خلال المروحة التي استخدمها ابن عبد كان؛ لإيقاظ ابن نصير، ولمسناه من تحول ابن نصير من فقره وحاجته الشديدة إلى يسر حاله بعد أن عُيّن في الديوان مقابل أربعين ديناراً شهرياً، تحولت بعد انتظام أمر المكاتبات على يديه إلى أربعمائة دينار شهرياً، ثم تدرّج وترقى حاله حتى وصل إلى ألف دينار شهرياً، فعدت له دار كبيرة^(٢) بعد أن كان ينام على حُفّة في الديوان، يوم أن قدم يسأل عن وظيفة له في ديوان الإنشاء في عهد حمارويه).

ج- فات ابن زولاق تحديد التوقيت، الذي توفي فيه ابن عبد كان، وانفرد بالأمر بعده (علسى بن أحمد المادرائي)، الذي فشل في القيام بمهمة ابن عبد كان في المراسلات والمكاتبات. ويبدو أن ذلك كان في بدايات عهد حمارويه، لكنه لم يُفْتَه إظهار قيمة إنسانية طيبة، تمثلت في توسعة ابن نصير على المحتاجين بعد أن زاد دخله، إلى جانب وفائه العظيم لمن له حق عليه (إرساله ثلاثة آلاف دينار للمرد، وتغلب، ورجل وراق كان يستعير منه تُسَخ الكتب لينسخها، وكان يُنظره في الأجرة إلى حين ميسرة^(٣)).

(١) والده هو موسى بن طولون، أخو الأمير أحمد بن طولون، وكان مع أخيه في مصر. وقد طلب إليه أن يوليه نجر الإسكندرية، لكن أحمد كان بنوى توليته نجر طرسوس، فغضب موسى من أخيه، وعاتبه بكلام شديد أمام الناس، فعاقبه أحمد. بعدها خرج موسى حائفاً إلى طرسوس، وأقام هناك، ورفض تولي شغرها، لَمَّا كَلَّف ابن طولون بضبط الثغور الشامية. (سيرة البلوى ص ٤٦-٤٩، ٩١).

(٢) بقيت هذه الدار إلى أن دخل محمد بن طغخ مصر والياً عليها سنة ٣٢٣هـ، إذ ورد أن محمد بن علي المادرائي كان مستتراً من ابن طغخ في الدار، التي كانت لإسحاق بن نصر الكاتب، وظلّ لها حتى كشف الوزير الفضل مكانه، وأمر بالقبض عليه (سيرة الإحشيد ص ١٦١).

(٣) راجع ما يُحدّث به ابن الدابة عن (أحمد بن وليد) في كتابه (المكافأة) ص ٢٩-٣١.

د- بخصوص النص المتصل بـ (راغب) مولى الموفق، فقد اهتم ابن زولاق بتحديد توقيت وفاة الموفق بالشهر والسنة، وهو في الوقت ذاته كان بداية توجه (راغب) مولاه للرباط في ثغر طرسوس.

هـ- رغم افتتاح الحدود بين أقاليم الدولة الإسلامية، إلا أن التنقل - خاصة تنقل راغب بغلمانته وجنده، وأثقاله للإقامة الدائمة في طرسوس - كان يحتاج إلى نوع من جواز المرور، خاصة أنه دخل منطقة خاضعة لخماريوه، فاحتاج إلى استئذان للسماح له بذلك.

و- أظهر ذلك النص التاريخي الطبيعة العامة لسكان الثغور (المناطق الساحلية) بأنهم جفاة قساة. ولعل ذلك يرجع إلى حياة الشُّطَف والقلق التي يعيشونها. كما أشارت إلى طبقة الفوغاء من عوام سكان طرسوس، وما يتصفون به من فوضى واندفاع وطيش وقهور، وأبانت عن خطر سريان الشائعات الكاذبة على الأمن والاستقرار.

ز- أوضحت الرواية أن سياسة خماريوه مع سكان الثغور لا تختلف عن سياسة أبيه من قبل (العفو والتسامح والصفح)؛ نظراً لدورهم الخطير في صد هجمات الروم، لكنها لم تتابع تطورات علاقة خماريوه براغب^(١). ويبدو أن اقتباس ابن العديم من سيرة خماريوه لابن زولاق، وقف عند هذا الحد.

٣- سيرة المادرائين^(٢)، لابن زولاق:

من بقايا كتابه عن هذه الأسرة، ذات النفوذ المالي والإداري في مصر منذ عهد خماريوه إلى

(١) يبدو أن خماريوه خشى ازدياد نفوذ (راغب) في طرسوس، فكلف (طننج) والد الإخشيد بقتله، لكنه لم ينفذ الأمر، وشارك راغباً في جهاد الروم، حتى تعرض لغضب خماريوه، الذي أتى إلى دمشق، لكنه قُتل ليلة مجيئه سنة ٢٨٢هـ (المكافأة: ص ١٥٠).

(٢) واحده: المادرائي. ذكر المقرئ في (المقفي) جـ ص ١٣٨ - نقلاً عن ابن زولاق - أنهم يُنسبون إلى (مادرايا)، بفتح الميم، وبعدها ألف، ثم دال مهمله وراء مهمله مفتوحتين، بعدها ألف، ثم ياء آخر الحروف، وألف: قرية بالبصرة. وورد في (الأنساب)، للسمعاني بالذال، نسبة إلى (مادرايا)، وقال: وأظنها من أعمال البصرة (جـ ص ١٦٠). أما ياقوت في (معجم البلدان) جـ ص ٤٠، فذكر أنها بالذال، نسبة إلى (مادرايا)، وإليها يُنسب المادرائيون كتاب الطولونية في مصر. ويذكر أن (مادرايا) قرية فوق واسط، حرب أكثرها في عصره. وتابعته عليه د. سيدة كاشف في (مصر في عصر الإخشيديين) ص ٣٧ وما بعدها. وذكرت أن أسرة المادرائين فارسية الأصل، ولعل وجود اسم رُسْتَم في نسبها جعلها ميل إلى ذلك. وقد وردت بالذال في (كتاب الولاة، ط. جست - ص ٢٤٤، وكذلك في (ولاة مصر - ط. نصار، ص ٦٨). وفي (الخطط)، للمقريزي ٨٢/١، ٢/ ١٥٥: استخدم لقب المادرائي، ثم استخدم (المادرائ) جـ ص ٣٣٢. وفي (ذيل تاريخ بغداد لابن النجار ٣/ ٩٣، والكواكب السيرة ص ٧٣): ورد لقب (المادرائي). وأعتقد أن الصواب ما أورده ابن زولاق، فهو صاحب سيرتهم، ولا بد أنه تحقق من نسبهم، كما أن ما ورد عنه قاطع؛ لضبطه البند، التي يُنسبون إليها بالحروف، مما ينفي وقوع أي لبس، أو تصحيف، وتحريف.

حوالى سنة ٣٤٥هـ (وفاة أبى بكر محمد بن على المادرائى) ما يلى:

أ- حكى ابن زولاق قال:

"خرج المادرائى يودع قوماً خرجوا للغزاة، فبينما هو مارٌّ فى بعض الطرقات، إذ رأى شيخاً قد أقبل وهو يركب، وفى عنقه خريطة^(١)، وهو مقلد بسيف، وفى يده عُكَّازُهُ، فدعاه (على بن أحمد)، وقال له: إلى أين يا شيخ ؟ قال: إلى بلاد الروم، أقاتل أعداء الله، فإن لحقنى أجلى على الطريق، كان أجرى على الله (تعالى). فقال له: هل لك فى شئ تركبه ؟ ثم استدعى بغلام، وقال له: أحضر الساعة^(٢) غلاماً، وبغلة، وعمامة، وسيفاً. فأحضر ذلك. فقال للشيخ: خذ هذا، ولك فى كل سنة مثله. فبكى الشيخ، فقال: اللهم، لا تحرمه الشهادة. فلما كان من الغد، قُتل فى ذلك الموضع، فمات شهيداً. وكان ذلك ببركة دعاء الشيخ، فإنه كان أعظم ما فى قلبه الشهادة. وكانت وفاته سنة ٢٨٣هـ، ودفن بالمقبرة المذكورة، ودفن ولده إلى جانبه. وكانت وفاة ولده أبى بكر سنة ٣٤٥هـ، ومناقبه غير محصورة^(٣).

ب- وقال ابن زولاق فى كتاب (سيرة المادرائيين):

ولما قدم الأستاذ (مؤنس الخادم) من بغداد إلى مصر، استدعى أبى على (الحسين بن أحمد المادرائى) - المعروف بـ (أبى زُبَور)^(٤) - الدقاق، وهو الذى نسميه - اليوم - الطحَّان، وقال: إن الأستاذ مؤنساً قد وافى، ولى بمَشْتُول^(٥) قدر ستين ألف إردب قمحاً، فإذا وافى، فقم له بالوظيفة. فكان يقوم له بما يحتاج إليه من دقيق حَوَارَى^(٦) مدة شهر. فلما كمل الشهر، قال كاتب مؤنس للدقاق: كم لك حتى ندفعه إليك ؟ فأعلمه الخبر، فقال: ما أحسب الأستاذ يرضى أن يكون فى ضيافة أبى على. وأعلم مؤنساً بذلك، فقال: أنا أكلُ خبز حسين؟! لا يرح الرجلُ، حتى يقبض ماله. فمضى الدقاق، وأعلم أبازينور، فقام من فوره إلى مؤنس، فأكبَّ على رجليه، فاحتشم منه، وقال: والله، لا أحبيك إلا هذا الشهر الذى مضى، ولا تُعاوِذ. ثم رجع، فقال

- (١) وعاء من جلد أو غنم، يُشدُّ على ما فيه. وفى الاصطلاح الحديث: ما يُرسم عليه سطح الكرة الأرضية، أو جزء منه. والمجم: خرائط. (المعجم الوسيط، مادة: خ. ر. ط.) ٢٣٦/١.
- (٢) فى المصدر: السرعة. وما أثبتَّه أرجح.
- (٣) الكواكب السيارة: ص ٧٣-٧٤.
- (٤) وردت كنيته فى (معجم البلدان ٤٠/٥) هكذا: أبى زنبور، وهى مُصحَّفة. تولى سنة ٣١٧هـ.
- (٥) هما قرينتان: مشتل الطواحين (السوق)، ومشتول القاضى. كلتاها من كورة الشرقية. والأولى هى المقصودة هنا، وهى حسة العمارة بما عدة طواحين لطحن الدقيق الحَوَارَى، وتجهيزه إلى مصر والحجاز (معجم البلدان ١٥٤/٥)، والقاموس الجغرافى ٢ ج ١ ص ١٠٤.
- (٦) الدقيق الأبيض، وهو لباب الدقيق. (اللسان، مادة: ح. و. ر. ج) ١٠٤٤/٢، والمعجم الوسيط ٢١٣/١.

للدقاق: قم له بالوظيفة في المستقبل، واعمل ما يريد. قال: فحنته وقد فرغ القمح، ومعى الحساب، وأربعمائة دينار. قال: آتس هذا؟ فقلت: بقية ذلك القمح. فقال: اعفني منه. وتركه^(١). فتأمل ما اشتمل عليه هذا الخير من سعة حال كاتب من كتاب مصر، كيف كان له في قرية واحدة هذا القدر من صنف القمح؟ وكيف صار مما يفضل عنه، حتى يجعله ضيافة؟ وكيف لم يعباً بأربعمائة دينار، حتى وهبها لدقاق قمح؟ وما ذاك إلا من كثرة المعاش، وقس عليه باقي الأحوال^(٢).

ج- ذكر المادرائي^(٣):

"هو أبو بكر محمد بن علي بن محمد بن رستم بن أحمد وقيل: محمد بن علي بن أحمد بن عيسى بن رستم، وقيل: محمد بن علي بن أحمد بن إبراهيم بن الحسين بن عيسى بن رستم المادرائي. أحد عظماء الدنيا ولد به (تصيين) لثلاث عشرة خلت من شهر ربيع الأول سنة ثمان وخمسين ومائتين. وقدم إلى مصر في سنة اثنتين وسبعين ومائتين، وخلف أباه (علي بن أحمد المادرائي) أيام نظره في أمور أبي الجيش (خمارويه بن أحمد بن طولون)، وسنه - يومئذ - خمس عشرة سنة. وكان معتدل الكتابة، ضعيف الحظ من النحو واللغة. ومع ذلك، فكان يكتب إلى الخليفة فمن دونه على البديهة من غير نسخة، فيخرج الكتاب سليماً من الخلل. ولما قتل أبوه في سنة ثمانين ومائتين، استوزره (هارون بن خمارويه)، فذبر أمر مصر إلى أن قدم (محمد بن سليمان الكاتب) من بغداد إلى مصر، وأزال دولة بني طولون، وحمل رجالهم إلى العراق، فكان أبو بكر ممن حمله، فأقام ببغداد إلى أن قدم صحة العساكر لقتال حياصة^(٤)، فذبر أمر البلد، وأمر ونهى، وحادث بمصر عن أحمد بن عبد الجبار العطاردي^(٥)، وغيره بسماعه منهم في بغداد. وكان قليل الطلب للعلم، تغلب عليه محبة الملك، وطلب السيادة. ومع ذلك، كان يلزم تلاوة القرآن الكريم، ويكثر من الصلاة، ويواظب على الحج. وملك بمصر من الضبائع الكبار ما لم يملكه أحد قبله، وبلغ ارتفاعه^(٦) في كل سنة أربعمائة ألف دينار سوى الخراج. ووهب وأعطى، وولى وصرف، وأفضل ومنع، ورفع ووضع، وحج سبعا وعشرين حجة، وأنفق في كل حجة منها مائة وخمسين ألف دينار.

(١) يعني: أي شن (الخطط ٣٣١/١ - ٣٣٢).

(٢) هذا تعليق المقرئ.

(٣) عنوان للمقرئ بعد تصحيح النسبة.

(٤) وردت بالحاء تصحيحاً.

(٥) هو أبو عمر الكوفي. ضعيف في الحديث، لكن سماعه للسيرة صحيح. توفي سنة ٢٧٢هـ، أو ٢٧٧هـ (سمر

أعلام النبلاء ٤٥٢/١٥، وقذهب التهذيب ٤٤/١ - ٤٥، والتقريب ١٩/١).

(٦) ورد في النص: ارتفاعه، وهو تحريف. والمقصود: ما يرتفق به ويُنتفع به (المعجم الوسيط، مادة:

رف.ق): ٣٧٥/١.

وكان تكين أمير مصر يُشيعه إذا خرج للحج، ويتلقاه إذا قدم. وكان يحمل إلى الحجاز جميع ما يحتاج إليه، ويفرق بالحرمين الذهب والفضة، والثياب والحلوى، والطب والحبوب، ولا يفارق أهل الحجاز إلا وقد أغناهم. وقيل مرة - وهو بالمدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام: ما بات في هذه الليلة أحد بمكة والمدينة وأعمالهما إلا وهو شعبان من طعام أبي بكر الماذرائي.

ولما قدم الأمير (محمد بن طفج الإخشيد) إلى مصر، استتر منه؛ فإنه كان منعه من دخول مصر، وجمع العساكر لقتاله، فاجتمع له زيادة على ثلاثين ألف مقاتل، وحارب بهم بعد موت تكين أمير مصر. ومرت به خطوب؛ لكثرة فتن مصر إذ ذاك، وأحرقت دوره ودور أهله وبجاوريه، وأخذت أمواله. واستتر، فقبض على خليفته وعماله، فكتب إلى بغداد، يسأل إمارة مصر، وكتب محمد بن تكين بالقدس يسأل ذلك. فعاد الجواب بإمارة ابن تكين، وأن يكون الماذرائي يدبر أمر مصر، ويولى من شاء. فظهر عند ذلك من الاستتار، وأمر ونهى، ودبر أمر البلد، وصار الجيش بأسره يغدو إلى بابه. فأنفق في جماعة، واصطنع قوماً، وقتل عدّة من أصحاب ابن تكين، وكان محمد بن تكين بالقدس، وأمر مصر كله للماذرائي بمفرده، ومعه (أحمد بن كيغْلغ)، وقد قدم من بغداد بولاية ابن تكين على مصر، وولاية أبي بكر الماذرائي تدبير الأمور، فاستمال أبو بكر (أحمد بن كيغْلغ)، حتى صار معه على ابن تكين، وحاربه، وكان من أمره ما كان إلى أن قدمت عساكر الإخشيد، فقام أبو بكر لمحاربتهم، ومنع الإخشيد من مصر، فكان الإخشيد غالباً له، ودخل البلد، فاستتر منه أبو بكر إلى أن دُلَّ عليه، فأخذه وسلمه إلى الفضل بن جعفر بن الفرات.

فلما صار إلى ابن الفرات، قال له: أيش هذا الاستيحاش والتستر، وأنت تعلم أن الحج قد أظْلُ ويحتاج لإقامة الحج؟ فقال له أبو بكر: إن كان إلى فخمسة عشر ألف دينار. فقال ابن الفرات: أيش خمسة عشر ألف دينار؟ قال: ما عندي غير هذا. فقال ابن الفرات: بهذا ضربت وجه السلطان بالسيف، ومنعت أمير البلد من الدخول. ثم صاح: يا شادن، خذْ إليك. فأقيم، وأدخل إلى بيت، وكان - يومئذ - صائماً، فامتنع من تناول الطعام والشراب، ولزم تلاوة القرآن والصلاة طول يومه وليلته، وأصبح فامتنع ابن الفرات من الأكل؛ إجلالاً له. فلما كان وقت الفطر من الليلة الثانية، امتنع أبو بكر من الفطر، كما امتنع في الليلة الأولى، فامتنع ابن الفرات أيضاً من الأكل، وقال: لا أكل أبداً، أو يأكل أبو بكر. فلما بلغ ذلك أبا بكر، أكل. فأخذ ابن الفرات في مصادره، وقبض على ضياعه التي بالشام ومصر، وتَّبَعَ أسبابه^(١)، ثم خرج

(١) كل شئ يُتوصل به إلى غيره، ويقصد: عماله، ومساعديه. (اللسان، مادة: نس. ب. ب.) ح- ١٩١١/٣، والمعجم الوسيط (٤٢٧/١).

به معه إلى الشام، وعاد به إلى مصر، ثم خرج به ثانياً إلى الشام، فمات الفضل بن الفرات بالرملة، ورجع أبو بكر إلى مصر^(١)، فردَّ إليه الإخشيد أمور مصر كلها، وخلع على ابنه، وتقلد السيف، ولَبِسَ المِنْطَقَةَ^(٢)، ولبس أبو بكر الدُّرَّاعَةَ^(٣)؛ تَنَزَّهًا. ثم تَنَكَّرَ عليه الإخشيد، وقبضه في سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة، وجعله في دار، وأعد له فيها من الفرش والآلات، والأواني والملبوس، والطَّيْب والطرائف، وأنواع المأكَل والمشارب ما بلغ الغاية، وتفقَّدها بنفسه، وطافها كلها، فقيل له: عملتَ هذا كله لمحمد بن عليّ المادرائي؟! فقال: نعم، هذا ملك، وأردتُ ألاَّ يحتقر بشيئٍ لنا، ولا يحتاج أن يطلب حاجة إلاَّ وجدها، فإنه إن فقد عندنا شيئاً مما يريد، استدعى به من داره، فنسقط نحن من عينه عند ذلك. فلم يزل مُعْتَقَلاً، حتى خرج الإخشيد إلى لقاء أمير المؤمنين (المتقي لله)، فحمله معه.

ولما مات الإخشيد بدمشق، كان أبو بكر بمصر، فقام بأمر أونوجور بن الإخشيد، وقبض على (محمد بن مقاتل وزير الإخشيد)، وأمر ونهى، وصَرَّفَ الأمور إلى أن كانت واقعة غلبون، واتصال أبي بكر به. فلما عادت الإخشيدية، قُبِضَ على أبي بكر، ونُهيت دورته، وأُحْرِقَ بعضها، وأُخِذَ ابنه، وقام أبو الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات بأمر الوزارة.

فَعِنْدَمَا قَدِمَ كافور الإخشيدى من الشام بالعساكر، التى كانت مع الإخشيد، أطلق أبا بكر، وأكرمه، وردَّ إليه ضياعه، وضياع ابنه. فلما ماتت أم ولده، لحقه كافور، ومعه الأمير أونوجور عند المقابر، وترجَّلا له وعزَّياه، ثم ركبا معه، حتى صَلَّيَا عليها. فلما مرض مرض موته، عادته كافور مراراً، إلى أن مات في شهر شوال سنة خمس وأربعين وثلاثمائة، فدفن بداره، ثم نُقِلَ إلى المقابر.

وكانت فضائله جَمَّةً، منها: أنه أقام أربعين سنة، يصوم الدهر كله، ويركب كُلَّ يومٍ إلى المقابر بُكَرَةً وعشية، فيقف له الموكب حتى يمضى إلى تربة أولاده وأهله، فيقرأ عندهم، ويدعو لهم، وينصرف إلى المساجد في الصحراء، فيصلى بها والناس وقوف له، إلا أنه كان في غاية العَجَلَةِ، لا يُرَاجَعُ فيما يريد، ولو كان ما كان. ولما أراد المقتدر أن يقيم وزيراً، كُتِبَ رَقْعَةٌ فيها أسماء جماعة، وأنفذت إلى (عليّ بن عيسى)؛ ليشير بواحد منهم. وكان أبو بكر ممن كُتِبَ معهم اسمه، فكتب تحت كل اسم واحد منهم ما يستحقه من الوصف، وكتب تحت اسم أبي

(١) سبقت دراسة تواريخ ذلك تفصيلاً في دراسة منهج ابن زولاق في (سيرة الإخشيد)، لكن الجديد - هنا - مصاحبة أبي بكر المادرائي له عند خروجه ودخوله الشام.

(٢) هى كل ما يُهْنَدُ على الوَسْط من حزام ونحوه (كالإزار في المرأة قديماً، ومن ذات النطاقين. (اللسان، مادة: ن.ط.ق.) ج ٥ - ٤٤٦٢ - ٤٤٦٣، والمعجم الوسيط ٢/ ٩٦٨ - ٩٦٩.)

(٣) هى ثوب من صوف، أو حَبَّة مشفوفة في المقدم. (اللسان، در.ع.) ٢/ ١٣٦١، والمعجم الوسيط ١/ ٢٩٠.

بكر (محمد بن علي المادرائي): "مُتَرَف عَجُول". وبنى أبو بكر السقايات والمساجد في المَغَافِر، وفي يَحْصُب، وبنى وائل^(١). وليس لشيء منها اليوم أثر يُعرف. ومَرَّتْ له في هذا الكتاب أخبار. وقد أفرد له ابن زولاق سيرة كبيرة، وهذا منها. والله أعلم^(٢).

ج- وكان قد سُمع في (سيرة المادرائيين):

أنه عَمِلَ له هذا الإفطي^(٣)، وله في كل واحدة خمسة دنانير. ووقف أستاذ على السَّمَاط^(٤)، فقال لأحد الجلّساء: افطِنْ له. وكان عَمِلَ السَّمَاط عدة صُحُون من ذلك الجنس، لكن ما فيه الدنانير صَحَن واحد. فلما رمز الأستاذ لذلك الرجل بقوله: افطن له، وأشار إلى الصحن، تناول ذلك الرجل منه، فأصاب الذهب، واعتمد عليه، فحصل له جملة، ورآه الناس، وهو إذا أكل يخرج من فمه، ويجمع بيده، ويحطّ في حِجْرِهِ، فتنهوا له، وتزاحموا عليه، فقبل لذلك من يومئذ: افطن له^(٥).

د- قال ابن زولاق في كتاب (أخبار المادرائيين كُتَاب مصر):

وحضر أبو الحسن وهب بن إسماعيل مجلس أبي بكر بن علي المادرائي في المسجد الجامع، وهو يعقد الضياع، فقال له أبو بكر: الساعة أمر بالنداء على صفقة، فخذها شركة بيني وبينك. فنودي على صفقة، فقال أبو بكر: اعقدوها علي أبي الحسن. فقعدت عليه، وتحملها، فأفضلت له أربعين ألف دينار، فاستنض^(٦) عشرين ألف دينار، ولم يدر ما يعمل فيها إلى أن اجتمع مع أبي يعقوب كاتب أبي بكر؛ ليتحدثا. فقال أبو يعقوب: رأيتُ الشيخ، يعني: أنا بكر المادرائي في اليوم مشغول القلب، أراد جمع مال، وقد عجز عنه. فقال له أبو الحسن: عندي نحو عشرين ألف دينار. فقال: جئني بها. فأنفذها إليه، وجاءه خطه بالمبلغ، فاتفق أن مضى أبو الحسن إلى أبي بكر المادرائي، فقال له: تلك الصفقة قد غلقت ما عليها، وفضل أربعون ألف دينار، وقد حصل عندي عشرون ألف دينار، حملتها إلى أبي يعقوب، وأرسلت في استخراج الباقي، فاحمله. فقال المادرائي: ما هذا العجز؟ إنما قلت لك: تكون بيني وبينك؛ خوفاً من تفریطك، وإنما أردت

(١) الخطط ١٥٥/٢ - ١٥٧.

(٢) عبارة المقرئ.

(٣) نوع من الكعك والقرص، يُعمل بالنُسْتَق والسكر الأبيض المطيب بالسك (الخطط ١/٣٣٢).

(٤) الصف من الرجال، أو ما يُمَدُّ ليوضع عليه الطعام في المأذب ونحوها. والجمع: سَطَط، وأسَمِطَة: (اللسان - س.م.ط) ٢٠٩٤/٣. والمعجم الأوسط ١/٤٦٦.

(٥) الخطط، للمقرئ ج ١ ص ٣٣٢.

(٦) استنض الشيء: شبعه. يقال: يستنض الماء: يستنظفه. ويستنض حقه منه: يستنجزه، ويأخذ الشيء بعد الشيء.

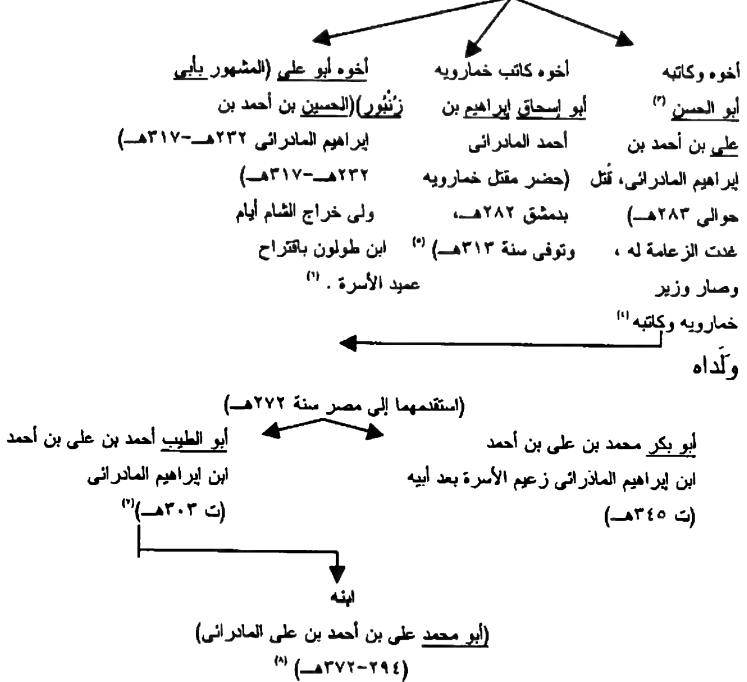
(اللسان، مادة: ن.ض.ض، ٤٤٥٥ - ٤٤٥٦، والمعجم الوسيط ٢/٩٦٦).

• (اميرة المانرايين)

محمد بن أحمد بن إبراهيم ^(۱) بن أحمد بن الحسن بن رستم

أبو عبد الله العادرائي الأطروش (ت ٣٢٢هـ)

عميد الأسرة . ولى خراج مصر من قبل المعتمد سنة ٢٦٦هـ^(١)



* راجع دراسة د. سيدة كاشف عن هذه الأسرة في (مصر في عصر الإخشيديين) ص ٣٧-٥٢.

(١) ستماء الخطيب في (تاريخ بغداد ٤/٣٨٥): أحمد بن محمد بن إبراهيم . وستماء أحمد بن إبراهيم كل من : ابن الداية

في سيرته (ص ١٢٥) ، والبلوى (ص ١٦١) .

(٢) المقضى للمقرري ١٣٦/٥ - ١٣٨ .

(٣) المصدر السابق : ٤٦٧/٣ .

(٤) مخطوط تاريخ دمشق ٨٥٦/١١، وتاريخ الإسلام للذهبي ١٣/٢١، والمقفى ١٣٧/٥-١٣٨.

(٥) مختصر تاريخ دمشق لابن منظور ١٧/٤ ، والواق بالوفيات للصفدي ٣٠٦/٥ .

(٦) المقضى ٤٦٦/٣-٤٨١ .

(٧) الوافي بالوفيات ١٨٦/٧ .

(٨) ذیل ابن النجار ٩٣/٣-٩٤ .

حفظ المال عليك. ثم أمر أبا يعقوب أن يرّد عليه ما دفعه إليه، وقال لأبي الحسن: رُدّ عليه خطّه، فقبض ما دفعه إلى أبي يعقوب^(١).

هـ— قرأت في كتاب (أخبار المادرائين) لأبي محمد الحسن بن إبراهيم بن زولاق الفقيه المصري^(٢)، قال:

علّي بن أحمد بن علي بن أحمد بن محمد بن علي، أبو محمد. كان سرياً، له أملاك حسنة، ورثها عن أبيه. كتب الحديث عن. . . مولده سنة أربع وتسعين ومائتين، وتوفي سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة^(٣).

ملاحظات عامة على بقايا (سيرة المادرائين) لابن زولاق:

أ— عرضت لنا هذه السيرة صورة مصغرة لما كانت عليه روح الجهاد ضد الروم في المجتمع المصري، وذلك من خلال الشيخ، الذي لا يملك إلا خريطته، وسيفه وعكازه، وهو طاعن في السن يسعى إلى الجهاد سعياً، فما كان من علي بن أحمد المادرائي إلا أن زوده في الحال بما يعينه على الجهاد.

ب— رسم لنا ابن زولاق صورة للحياة الاقتصادية الناعمة، وروح الترف والإسراف الشديد في المآكل والمشرب والمآذب في عهد أبي بكر المادرائي، ومن قبل في عهد (الحسين بن أحمد المادرائي ت ٣١٧هـ). وأعتقد أن الرخاء يمكن أن يصدق على عهد الإخشيد. أما عصر ما بين الطولونيين والإخشيديين، فهو محل شك كبير؛ إذ لم تكن البلاد آمنة مستقرة، ويصعب في ظل جو التوترات والثورات، والزاعات أن تغطي البلاد بكل هذا الثراء (المبالغ في وصفه من جانب ابن زولاق). وكذا نلمح المبالغات الكبيرة في وصف صلاح أبي بكر المادرائي وأمواله وممتلكاته، ومقدار صداقاته بما لا يصدق عاقل، وكذا المبالغة في وصف نفوذه.

ج— عرض لنا ابن زولاق الاختلافات حول نسب أبي بكر المادرائي دون ترجيح.

د— اهتم ابن زولاق بذكر التواريخ الدقيقة الخاصة بأبي بكر المادرائي (مولده مكاناً وزماناً، وسببته، وتاريخ استخلاف أبيه له، وتاريخ وفاته). وفي الوقت نفسه لم يذكر لنا تاريخ قدوم

(١) الخطط ٨٢/١.

(٢) في المصدر: (المصري)، وهو تحريف.

(٣) ذيل تاريخ بغداد، لابن النجار جـ ٩٣/٣-٩٤. ولعل هذا هو آخر أفراد تلك الأسرة في مصر، ولا ندرى عنه شيئاً إلا من خلال هذا المصدر. ويعد أبو بكر المادرائي (ت ٣٤٥هـ)، هو آخرهم شهرة وجاهاً، ومزلة، وتأثيراً في شئون الإدارة والمال في مصر.

مؤنس إلى مصر على الحسين بن أحمد المادرائي، ولعله اعتمد على شهرة صلة ذلك بحملة العبيدين الثانية على مصر (٣٠٧ - ٣٠٩ هـ)، فلم يذكر تاريخه.

هـ- تعليل ما مر بأي بكر المادرائي من خطوط ومحن بكثرة الفتن والثورات في مصر آنذاك، وكذلك قدرته على التعليل الواضح للأكنة المسماة (افطن له).

و- أعطانا ابن زولاق صورة حقيقية لمكانة أبي بكر المادرائي لدى الوزير الفضل بن جعفر، ثم لدى الإخشيد من خلال طريقة التعامل معه قبل مصادره، وعند التحفظ عليه والتوكيل به (حتى أفرج عنه، وأخرجه معه الإخشيد إلى لقاء الخليفة المتقي لله سنة ٣٣٣ هـ، وتلك معلومة جديدة في هذا المجال).

ز- امتاز ابن زولاق بإيراد بعض الأخبار التي تفوق في دقتها ما ورد في (سيرة الإخشيد)، فقد ذكر هناك أنه لا يملك لنفقات الحج سوى خمسة آلاف دينار، وأن الإخشيد لما دخل مصر والياً تغافل عن أبي بكر المادرائي، حتى دخل الوزير الفضل، فكشف مكانه وصادره^(١). أما هنا، فالمبلغ هو ١٥ ألف دينار، وهو معقول بالنسبة لثراء أبي بكر المادرائي إلى حد ما، وإن لم يقنع الوزير الفضل بالطبع. وذكر - هنا - أن الإخشيد هو الذي كشف مكانه، وسلمه للوزير، وهو يتناسب مع تغيظه عليه؛ لِمَا سببه له من مؤونة بتجميع الجيوش ونفقات الجند، واضطراره إلى خوض حرب، ولم يسمح له بدخول مصر سلباً في هدوء.

ح- حظى أبو بكر المادرائي بنجاب كبير من اهتمام ابن زولاق، فأفرد له كمأ هائلاً من المادة العلمية، وأطال في الترجمة له، بما يلائم مكانته ودوره الذي قام به، لكن هذا لم يدفعه إلى التحيز له، بل كان محايداً، فهو وإن بالغ في وصف غناه وصلاحه من وجهة نظرنا، ففي الوقت نفسه ذكر أخطر عيبه: الترف، والعجلة. وعلى كل، فلازلنا في حاجة إلى مزيد من الكشف عن بقايا هذا الكتاب؛ كي نتردد معرفتنا بتفاصيل الأدوار، التي لعبها أفراد هذه الأسرة القذة في إدارة شئون مصر.

٤- بقايا (سيرة كافور) لابن زولاق:

أ- قال الحسن بن زولاق المصري المؤرخ:

"كان الشريف عبد الله بن أحمد الحسني^(٢)، وهو ابن طباطبا، يرسل إلى كافور في كل

(١) ص ١٦١.

(٢) ورد في (نهاية الأرب) ٥٨/٢٨: الحسيني. وهذا تحريف. راجع ترجمته، ونسبه المنتهى إلى (الحسن بن علي)، وتعليقاً بجملة الممنعة من سنة (٢٨٦ - ٣٤٨) ق: (المقفي ج ٤ - ص ٤٤١ - ٤٤٢).

يوم جامي^(١) حلوى، ورغيفاً في منديل^(٢) محتوم، فخُوطب كافور في الرغبة، وقيل له: الحلوى حسن، فما تصنع بالرغيف؟! فأرسل إليه، قال: يُجربني الشريف الحلوى على العادة، ويُعفيني من الرغبة. فركب الشريف إليه، وقال: أيدك الله، أنا ما أنفذ الرغبة؛ تطاولاً ولا تعاضماً، وإنما هي صبية حسنة تمنحني بيدها وتُخزّيه، فأرسله على سبيل التبرك، فإذا كرهته قطعناه. فقال: لا والله، ولا يكون في قوتي سواء^(٣).

ب- قال ابن زولاق:

"ورأيتُ أبا جعفر مسلماً في جنازة عبد الله بن أحمد ماشياً بنعل من داره إلى المصلّى، ومشى أكثر الناس لمشيّه، وحضر كافور ومولاه^(٤)".

ج- قال ابن زولاق:

"أقام كافور الإخشيدي الأستاذ إحدى وعشرين سنة، وعشرين يوماً، يعني: أقام مدبر مملكة مصر من قبل ولدي أستاذه، وهما أونوجور، وعلى ابنا الإخشيد محمد بن طغج، وأقام هو فيها سنتين، وأربعة أشهر، وسبعة أيام ملكاً مستقلاً بنفسه^(٥)".

قال ابن زولاق: "وكان كافور ديناً كريماً".

قال: "ولما توفى كافور، اجتمع الأولياء وتعاهدوا ألا يختلفوا، وكتبوا بذلك كتاباً ساعة توفى كافور، وعقدوا الولاية لأحمد بن علي بن^(٦) الإخشيد، وكان - إذ ذاك - صبيّاً ابن إحدى عشرة سنة، وكافور بعد في داره لم يُدفن، ودُعي له على المنابر بمصر وأعمالها والشامات والحرمين، ثم من بعده للحسن بن عبيد الله بن طغج. ثم عُقد للحسن بن عبيد الله المذكور على بنت عمه فاطمة بنت الإخشيد بوكيل، سيّره من الشام، وجعل التدبير بمصر - فيما يتعلق

(١) الجام: إناء للشراب والطعام من فطنة أو نخوها، وهي مؤنثة. وذكر في (اللسان): أنها عربية صحيحة. بينما جعلها (المعجم الوسيط) مفرقة. وقد غلب استعمالها في فصح الشراب. ويقال: صبّ عليه حامه، أي: غضب عليه، واستفزه. الجمع: جامات، وجُوم، وأحوام. (اللسان: ج.و.م، ١/٧٣١-٧٣٢، والمعجم الوسيط ١/١٥٤). وأثبتها المحقق في النص بالنون (جامين). والصواب الحوى: حذف النون.

(٢) بالفتح والكسر: ما يُسح به. ويقال: تَمَدَّلْتُ. هو يسح من فطن أو حرير، أو نخوها مُرتَّب الشكل، ويُمنح به العرق، أو الماء. الجمع: مَنَادِيل. (اللسان: ن.د.ل، ٦/٤٣٨٤، والمعجم ٢/٩٤٨).

(٣) نهاية الأرب ٢٨/٥٧-٥٨.

(٤) المقفى ٤/٤٤٨.

(٥) النجوم ٤/١٠.

(٦) سقطت كلمة (ابن) من الأصل.

بالأموال - إلى الوزير أبي الفضل جعفر بن الفرات، وما يتعلق بالرجال والعساكر لسمول الإخشيدى صاحب الحَمَام بمصر. وكل ذلك كان في يوم الثلاثاء لعشر يقين من جمادى الأولى سنة سبع وخمسين وثلاثمائة^(١). انتهى كلام ابن زولاق رحمته^(٢).

ملاحظات على بقايا (سيرة كافور) لابن زولاق:

أ- يكشف النصان: الأول، والثاني عن العلاقة الحميمة بين كافور والشريف العلوى عبد الله بن أحمد الحسنى، ومدى ما كان يتمتع به هذا الرجل من ثراء. وهذه الصلات امتداد لصلات الإخشيد الوطيدة بهم من قبل. وفي النص الأول بيان لنوع الآنية التي كان يُهدى فيها هذا الشريف الخلسوى إلى كافور، وكذا ما يوضع فيه الرغبة، الذى تُخيز على يد ابنة الشريف غالباً في داره. وواضح أن اعتقاد بركة هؤلاء الأشراف كان مُحكَّ إرضائهم وقبول هداياهم.

ب- في النص الأخير: يذكر لنا ابن زولاق رأيه صراحة في كافور، فينتعه بالدين والكرم. وواضح دقة ابن زولاق في ذكر مدة وصاية كافور على ابني الإخشيد (باليوم، والشهر، والسنة)، وكذا مدة استبداده بالحكم من (وفاة على بن الإخشيد، حتى وفاة كافور نفسه).

ج- وأبرز ابن زولاق اهتمام القائمين بالأمر عَقِيبَ وفاة كافور بجمع الكلمة وتوحيد الشمل، وعدم التنازع (ربما خشية مقدم العبيدين)؛ ولذا نظّموا شئون البلاد يوم وفاة كافور، واختاروا (أحمد بن على بن الإخشيد) أميراً لمصر رغم حداثة؛ حفاظاً على وحدة الأسرة الإخشيدية. وفي الوقت نفسه جعل بعده ابن عم أبيه؛ لضمان استقرار الشام. ووطّدت الصلة به عن طريق عقده على ابنة عمه الإخشيد. واختير لشئون المال صاحب خيرة في هذا المجال (جعفر بن الفضل)، وفي شئون الحرب أحد قادة الإخشيد^(٣). وحرص ابن زولاق - في النهاية - على بيان توقيت إتمام ذلك كله، وأنه كان في غاية السرعة يوم وفاة كافور وقبل دفنه^(٤).

(١) النجوم الزاهرة: ١١/٤.

(٢) كلام صاحب (النجوم).

(٣) يُطلق عليه اسم (سمول الإخشيدى) بالسّين في (النجوم) ١١/٤. وذكر ابن زولاق أنه كان (صاحب الحَمَام)، ولا أدرى ماهية هذا المنصب، ولعله له صلة بمراعاة الآداب والأخلاق، وحفظ النظام، فربما كان فرعاً من الشُرَط. وورد بالشّين في (وفيات الأعيان) ٣٧٦/١، وتكرر ذكره بالشّين - دون ضبط (في اتعاط الحنفا، ط. دار الفكر)، ص ١٧٤، ١٧٩.

(٤) لكن الأمور لم تستقر في مصر؛ لسوء سيرة وسياسة (الوزير جعفر بن الفضل)؛ إذ قام بالقبض على جماعة ومصادرتهم، وهرب يعقوب بن كَلَس من بطشه إلى المعز، ونهيات الظروف بعد احتلال النظام وثورة الجند بالوزير، لمحى جوهر بيجوشه إلى مصر. (النجوم) ٢٢/٤.

٥- بقايا (سيرة جوهر)، لابن زولاق^(*):

أ- قال ابن زولاق:

" سألت أبا جعفر مسلماً^(١) عند رجوعه عن مقدار العسكر، فقال: هو مثل جمع عرفات كثيرة وعدة، وسألته عن سن القائد جوهر، فقال: ثيف وخمسون سنة^(٢)."

ب- وقال ابن زولاق^(٣):

" ولما أصبح، أنفذ علي بن الوليد القاضي لعسكره، بين يديه أحمال مال، ومنادى: " من أراد الصدقة، فليَصِرْ إلى دار أبي جعفر ".

فاجتمع خلق من المستورين، والفقراء، فصاروا بهم إلى الجامع العتيق^(٤)، ففُرّق فيهم.

ولما كان يوم الجمعة - لعشر بقين من شعبان - نزل جوهر في عسكر إلى الجامع العتيق لصلاة الجمعة، وخطب بهم هبة الله بن أحمد - خليفة عبد السميع بن عمر العباسي - بيباض. فلما بلغ إلى الدعاء، قرأه من رقعة، وهو: " اللهم، صلّ على عبدك ووليك، ثمرة النبوة، سليل العزة الهادية المهدية، عبد الله الإمام معذّي نعيم المعز لدين الله أمير المؤمنين، كما صليت على آبائه الطاهرين وأسلافه الأئمة الراشدين. اللهم، ارفع درجته وأعلّ كلمته، وأوضح حجته، واجمع الأمة على طاعته، والقلوب على موالاته ومحبته، واجعل الرشاد في موافقته، وورثته مشارق الأرض ومغاربها، وأحمد مبادئ الأمور وعواقبها، فإنك تقول وقولك الحق: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾^(٥). فقد امتعض لدينك، ولما انتهِك

(*) اعتقد أن هناك تدخلاً بين مادة (سيرة جوهر)، وكتاب (إنعام أمراء مصر) لابن زولاق؛ إذ إن كليهما يتعرض لأحداث عهد جوهر، وإن كتّ اعتقد أن ابن زولاق المؤرخ الخفيف لم يكرر نفسه، وكان حديثه عن جوهر في (سيرته) المخصصة له مفصلاً. وقد انقصت في (بقايا سيرة جوهر) على ما نص المقريري صراحة على أنه لابن زولاق، ثم ما التزم تحت هذا القول من سادة تاريخية، تنصل بأعمال جوهر في مصر. ورغم أن المقريري في (اتعاظ الحنفا) رتب أحداثه على السنين، ورغم أن الأحداث من (سنة ٣٥٨هـ إلى دخول المعز ٣٦٢هـ) يمكن أن تكون مقولة عن (سيرة جوهر) لابن زولاق، إلا أني لم أورد منها إلا ما صرح المقريري بأنه من كلام ابن زولاق، خاصة أن احتمال نقله هذه الأحداث عن مصادر أخرى وارد، بل تحقّق بالفعل، عندما وازنت بين أخبار حفر جوهر الخندق؛ استعداداً لصد هجوم القرامطة على مصر، التي أوردتها المقريري في (الحطّ ٤٥٩/٢)، ونسبها إلى ابن زولاق، وبين ما بناظرها في (اتعاظ الحنفا - ط. دار الفكر) ص ١٨٠، غير منسوب إليه، فوجدت اختلافاً بينهما.

(١) وردت بالنص غير مصبوبة (مسم)، والصواب ما ذكرته.

(٢) اتعاظ الحنفا (ط. دار الفكر) ص ١٥٤.

(٣) المصدر السابق: ص ١٦٢-١٦٣.

(٤) هو جامع عمرو بن العاص عليه.

(٥) سورة الأنبياء: الآية ١٠٥.

من حرمته، ودُرسَ من الجهاد في سبيلك، وانقطع من الحج إلى بيتك، وزيارة قبر رسولك ﷺ؛ فأعد للجهاد عُذَّتَه، وأخذ لكل خُطْب أُهْبَتَه، فسَيَّرَ الجيوش لنصرتك، وأنفق الأموال في طاعتك، وبذل المجهود في رضاك، فارتدع الجاهل، وقصُرَ المتطاول، وظهر الحق وزهق الباطل. فانصر - اللهم - جيوشه التي سَيَّرَهَا، وسراياه التي انتدبها لقتال المشركين، وجهاد الملحدين، وللذب عن المسلمين، وعمارة الثغور والحُرْم وإزالة الظُّلْم والثَّهْم والثَّهْم، وبَسْط العدل في الأُمَم. اللهم، اجعل راياته عالية مشهورة، وعساكره غالبية منصوره، وأصلح به وعلى يديه، واجعل لنا منك واقية^(١) عليه".

ج- وذكر ابن زولاق^(٢):

أن القائد جوهرًا لَمَّا اخْتَطَّ القاهرة، وكثر الإرجاف بمسير القرامطة إلى مصر، حفر خندق السريّ بن الحكم بباب مدينة مصر، وعمل عليه باباً في ذى القعدة سنة ستين وثلاثمائة، وحفر خندقاً في وسط مقبرة مصر، وهو الخندق الذي حفره ابن جَحْدَم. ابتداء حفره من بركة الْحَبَش، حتى وصله بخندق عبد الرحمن بن جَحْدَم، حتى بلغ به قبر (محمد بن إدريس الشافعي)، ثم حفر من الجبل إلى أن وصل الخندق ابن جحدم وسط المقابر. وبدأ به يوم السبت التاسع من شوال سنة إحدى وستين وثلاثمائة، وفرغ منه في مدة يسيرة".

ملاحظات عامة على ما بقى من (سيرة جوهر) لابن زولاق:

أ- بدءاً من هذه السيرة يجب أن نلاحظ أن المؤرخ ابن زولاق يؤرخ لأحداث دولة العبيديين في مصر، منذ دخلها جوهر، وحتى قرب وفاة ابن زولاق نفسه (بدايات عهد الحاكم ٣٨٧هـ). وهو باعتباره شيعياً مناصراً للعبيديين، فهو مهتم جداً بتسجيل أخبارهم يوماً بيوم. والملاحظ أنه لم يشارك في استقبال جوهر عند قدومه إلى مصر، وهذا أمر طبعى؛ لأنه لم يكن على رأس أعيان الأشراف العلويين^(٣)، ولم يكن في منزلة القاضي أبي طاهر الدُّهْلِي، فهؤلاء مثلوا وفد التفاوض نيابة عن شعب مصر، حتى حصلوا على أمان جوهر المشهور.

أما ابن زولاق، فهو من رجالهم. ولذلك سأل ابن زولاق واحداً من أبرز من كانوا في استقبال جوهر (الشريف أبا جعفر مسلماً) عن مدى كثرة، وكثافة جند جوهر، وعن سن ذلك

(١) وردت في النص (وامية)، والصحيح ما أثبتته، وأثبتته النويري في (نهاية الأرب ١٣٢/٢٨). وقد ساق النويري النص بطوله (ص ١٣١-١٣٢)، ولم ينسبه لا إلى مصدره الأصلي (ابن زولاق)، ولا إلى مصدره الوسيط (اتعاظ الحقنا للمقريري).

(٢) الخطط ٤٥٩/٢.

(٣) منهم: الشريف مسلم بن عبيد الله، وإبراهيم بن أحمد الرُّسِّي (المقفى ٣٧/١ - ٣٨).

القائد، الذى يدخل مصر؛ ليحولها من المذهب السنى إلى الشيعى^(١). وكانت الإجابة مثلجة صدره ولا شك؛ فالجند يشبهون كثافة وازدحام الحجيج يوم عرفة، والقائد ذو خبرة وحُكْمَة.

ب- اهتم ابن زولاق ببيان تفاصيل ما قام به جوهر يوماً بيوم، فذكر اهتمامه بتوزيع الصدقات على المحتاجين صبيحة غداة يوم وصوله إلى مصر، وكذلك اهتم بذكر نص الدعاء المطول، الذى قُرئ من رقعة مكتوبة، وهو ما يعنى فرض توجهات الحكام الجدد منذ الأيام الأولى، التى وطئت أقدامهم فيها أرض مصر، ولم يكن خطيب الجمعة فى المسجد العتيق موجوداً، فخطب بديله وألبسوه البياض شعارهم^(٢). وواضح من نص الدعاء أنه مملوء بالمغالطات. ولا شك أن ابن زولاق حرص على ذكره كاملاً، إيماناً بما فيه وإعجاباً، وتحيزاً لأصحابه.

ج- اهتم ابن زولاق بذكر تواريخ الأحداث (توقيت صلاة أول جمعة صلاها جوهر فى مصر، وكذلك توقيت العمل فى حفر الخندق؛ لمجابهة القرامطة، وإن لم يحدد - بالضبط - تاريخ الانتهاء من الحفر. ويلاحظ وعى ابن زولاق ببداية الخندق وخط سيره ومنتهاه؛ مما يدل على أنه يكتب عن معاناة ومشاهدة. وتلك ميزة يتميز بها عن غيره فى وصف تلك الأحداث.

٦- بقايا (سيرة المعز لدين الله) لابن زولاق:

أ- "قال الفقيه الحسن بن إبراهيم بن زولاق (رحمه الله)، ومن خطه نقلت: "حدثني أحمد بن جعفر قال: كان القائم بأمر الله عليه السلام يوماً فى مجلس أبيه المهديّ جالساً بين يديه، وكان ابنه المنصور قائماً بين يديّ جدّه، فقال المهديّ لابن ابنه المنصور: إيتني بابنك، (يعنى: المعز لدين الله). فجاءت به دايته - وله سنة أو فوقها - فأخذته المهديّ فى حجره وقبّله، وقال لابنه

(١) وهو تحول فى التبعية من الخلافة العباسية إلى الدولة العبّيدية الوافدة من المغرب، تلك التى اتخذت التحول المذهبي أساساً لهذا التغيير.

(٢) سُمي النوبرى الخطيب الأصلى للجامع العتيق (عبد السميع بن عمر العباسى). والصواب: عبد السميع بن عمر. وعلل النوبرى عدم خطبة هذا الخطيب بتغيبه (نهاية الأرب ٢٨/١٣١). وهذا وقد أقدم العبّيدون على الأذان بـ (حتى على خير العمل) فى مسجد ابن طولون يوم الجمعة ٨ من جمادى الأولى ٣٥٩ هـ. (الكامل ٧/٣٠٩ - ٣١٠، واتعاط الخفاسط. دار الفكر ص ١٦٩). ثم أذن بعده فى الجمعة التالية (١٥ من جمادى الأولى) بالجامع العتيق، وجُهر فى الصلاة بالبسملة. (نهاية الأرب للنوبرى ٢٨/١٣٣). قد أخطأ النوبرى لما جعل تاريخ تعديل الأذان فى مسجد ابن طولون فى ٨ من ربيع الآخر. وقد جعل المقرئى فى (اتعاط الخفاسط - ط. دار الفكر - ص ١٧٠) تعديل الأذان بالجامع العتيق ٢٦ من جمادى الأولى. وأعتقد أن المقرئى لم يكن دقيقاً لما جعل تعديل الأذان بالجامع العتيق فى ذلك التاريخ؛ لأنه لا يوافق يوم جمعة، وما دام التعديل حدث فى مسجد، فإنه يسرى مباشرة إلى المسجد الآخر فى الجمعة التالية. وهذا غير وبذل العبّيدون فى الشعائر تدريجياً.

لم أجمع من بقايا هذه السيرة إلا ما صرحت المصادر بنسبته إلى ابن زولاق فى (سيرة المعز). ولذلك استبعدت الإشارة إلى (نهاية الأرب ٢٨/١٤٤) فى وصف صلاة المعز عيد الفطر فى مصر فى شوال ٣٦٢ هـ؛ لأن النوبرى صُدّر الرواية بـ (قال ابن زولاق فى تاريخ مصر) رغم أنها تتفق مع المادة المأخوذة من (سيرة المعز) فى مصادر أخرى، ولعل النوبرى نقلها باختصار؛ ذلك أنه قال: إنما فى (تاريخ مصر)، ولم يصرح أنها فى (سيرة المعز)، =

القائم بأمر الله: يا أبا القاسم، ما على ظهر الأرض مجلس أشرف من هذا المجلس، اجتمع فيه أربعة أئمة، يعني المهدي نفسه، وابنه القائم، وابن ابنه المنصور، وابن ابن ابنه المعز لدين الله. وزادني أبو الفضل ريدان - (صاحب المظلة) - في هذا الخبر أن المهدي جمعهم في دُؤاج^(١)، وقال: جمع رسول الله ﷺ معه ثلاثة أئمة في كساء سوى نفسه، وقد جمع هذا الدُؤاج أربعة أئمة^(٢).

قال ابن زولاق^(٣): ولما وصل المعز إلى قصره، بمصر في يوم الثلاثاء لخمس خلون من شهر رمضان سنة اثنتين وستين وثلاثمائة^(٤)، خرّ ساجداً، ثم صلى ركعتين، وصلى بصلاته كل من دخل معه. واستقر في قصره بأولاده وحشمه، وخواص عبيده. والقصر - يومئذ - مشتمل على ما فيه من عَيْن وورق (ذهب، وفضة)، وجوهر وحلي، وفُرُش وأوان، وثياب وسلاح، وأسفاط وأعدال^(٥)، وسروج ولُجُم^(٦). وبيت المال بحاله بما فيه، وفيه جميع ما يكون للملوك^(٧).

وخرج غَدَ هذا اليوم - وهو يوم الأربعاء - جماعة الأشراف والقضاة والعلماء والشهود،

- إمكانية خطئه في النسبة للمصدر، ورغم احتمال تكرار الخبر في كلا المصدرين. كذلك استبعدت الرواية التالية لها، والمصدرة بـ (قال) العائلة على (ابن زولاق)، والتي تذكر عزل المعز جوهراً؛ لعدم تصريحه - كذلك - بنسبتها إلى (سيرة ابن زولاق). ولذا لا يصح ما ذكره عنان في (مؤرخي مصر الإسلامية) ص ٤١ من نسبة كتاب المعز المطول إلى الأعصم القرطبي إلى (سيرة المعز) لابن زولاق؛ لأن المقرئ لم ينسبه إليه (الاتعاط - طبعة الفكر - ص ٢٥١ - ٢٦٥ ناقص الآخر، ويوجد هذا القسم الناقص في ط. المجلس الأعلى) ص ٢٠٠ - ٢٠٢. وبلاحظ - كذلك - أن النويري صَدَرَه بقوله: (قال بعض المؤرخين). (نهاية الأرب ١٤٥/٢٨)، فلم أشِر إليه كذلك، ولم أعتبر الكتاب داخلاً في (سيرة المعز). وكذلك لا يصح ما ذكره عنان في (مؤرخي مصر الإسلامية) ص ٤٢ بشأن اعتبار ما ورد عن احتفال المعز يوم عرفة ٣٦٢هـ في مصر على أنه من (سيرة المعز)؛ لأن المقرئ لما أورد الخبر في (اتعاط الحنفا - ط. الفكر) ص ١٩٣، وفي (ط. المجلس) ص ١٤٠، التي صَوَّبَ د. الشبال أحد الألفاظ بها، لم يذكر أنه في (سيرة المعز).

(١) هو ضرب من الثياب، ويحسبه ابن دريد لفظاً غير عرى. داح يدوج دَوْجاً. والدَّاحَة: ما صَفُرَ من الخواثج. والدُّؤاج، والدُّؤاج: مَغْطَف غليظ (اللسان: مادة د.و.ج) ١٤٤٩/٢، والمعجم الوسيط ٣١٢/١.

(٢) اتعاط الحنفا (ط. الفكر) ص ١٨٧.

(٣) ألحقت هذا النص بـ (سيرة المعز)؛ لسياق الكلام قبله ومضمون الرواية، ولأن المقرئ نقل في الخطط هذه الرواية، وصَدَرها بقوله: (قال الفقيه أبو محمد الحسن بن إبراهيم بن زولاق في كتاب (سيرة المعز) ٣٨٥/١).

(٤) مأخوذة من (الخطط) ٣٨٥/١ عن (هيئة جلوس الخليفة لمجلس الملك). ووردت فيه، وفي (الاتعاط - ط. الفكر) ص ١٨٧: لسع. وهو تخريف. (راجع: وفيات الأعيان ٢٢٧/٥، واتعاط الحنفا، ط. دار الفكر ص ١٨٦).

(٥) الأسفاط جمع سَفَط، وهو الوعاء يوضع فيه الطيب ونحوه من أدوات النساء، أو هو من قضبان الشجر ونحوها توضع فيه الفاكهة ونحوها. (المعجم الوسيط، مادة: س.ف.ط) ج ١ ص ٤٥٠. الأعدال جمع عدل. ولعله يقصد الجوالق أو الغرارة التي هي عبارة عن وعاء من الخيش ونحوه، يوضع فيه القمح وغيره. (المرجع السابق، مادة: ع.د.د. ج ٢ ص ٦٧٢).

(٦) سُرُوج: جمع سَرَج، وهو رَحْل الدابة. (السابق، مادة س.ر.ج) ج ١ ص ٤٤١. اللحم: جمع لِحام، وهو الحديدة في فم الفرس، ثم أطلق على الحديدة وما يتصل بها من سيور وآلة. (السابق، مادة: ل.ج.م) ج ٢ ص ٨٤٩.

(٧) اتعاط الحنفا - ط. الفكر - ١٨٧ - ١٨٨، والخطط ٣٨٥/١.

ووجوه أهل البلد، وسائر الرعية؛ لتهنئة المعز.

ولعشر خلّون من رمضان، أمر المعز بالكتاب على المشايخ في سائر مدينة مصر: "خير الناس بعد رسول الله ﷺ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام". وأثبت اسم المعز لدين الله، واسم ابنه عبد الله الأمير. ووقع المعز بيده إلى (محمد بن الحسين بن مهذب) - صاحب بيت المال -: "تقدم يا محمد بابتياح لنا ولمولاك عبد الله في كل يوم من الفاكهة الرطبة واليابسة كذا وكذا بسعر الناس، ولا تُعرف الرسول؛ لئلا تقع محاباة ولا مساهمة، وكذلك حوائج المطبخ" ^(١).

وللنصف منه ^(٢) جلس المعز في قصره على السرير الذهب، الذي عمله جوهر ^(٣) في الإيوان ^(٤) الجديّد، وأذن بدخول الأشراف أولاً، ثم بعدهم الأولياء، وسائر ^(٥) وجوه الناس، وجوهر قائم ^(٦) بين يديه، يقدّم الناس قوماً بعد قوم، ثم مضى جوهر ^(٧)، وأقبل مهدّية التي عبأها ^(٨) ظاهرة يراها الناس، وهي: من الخيل مائة وخمسون فرساً مسرجة ملجمة، منها مُدْهَب، ومنها مرصّع، ومنها مُعْتَبِر. وإحدى وثلاثون قبة على نوق بخّائي ^(٩) بالدباج والمناطق والفُرُش، منها تسع دباج مثقل، وتسع نوق مجنوبة ^(١٠) مزينة بمثقل. وثلاثة وثلاثون بغلاً، منها: سبعة مسرجة ملجمة. ومائة وثلاثون غلاً للثقل، وتسعون نجياً، وأربعة صناديق مشبكة يُرى ما فيها، وفيها أوان الذهب والفضة. ومائة سيف مُحَلَّى بالذهب والفضة، ودرجان من فضة مخزّمة فيها جوهر، وشاشية مرصعة في غلاف، وتسعمائة ما بين سَفَط وتَحْت ^(١١)، فيها سائر ما أعدّه له ^(١٢) من ذخائر مصر ^(١٣).

وأذن المعز لابنه (عبد الله) في الجلوس في مجلسه، وحمل أبو جعفر مسلم بن عبيد الله

(١) اتعاظ اخفا - ط. الفكر - ١٨٨.

(٢) أي: من رمضان (الخطط ٣٨٥/١).

(٣) عبده القائد جهور (السابق).

(٤) الإوان، والإيوان: مجلس كبير على هيئة صُفّة واسعة، لما سقف محمول من الأمام على عُنْد، يجلس فيها كبار القوم. والجمع: أوان - وهي كلمة عربية. (المعجم الوسيط، مادة: أ.و.ن.) - ١ ص ٣٤.

(٥) ثم أذن بعدهم الأولياء وسائر (الخطط ٣٨٥/١).

(٦) وكان القائد جوهر قائماً (المصدر السابق: ٣٨٥/١).

(٧) القائد جوهر. (السابق: ٣٨٥/١).

(٨) عبأها (السابق).

(٩) السُحْت: الإبل الحراسية، مفردتها: سُحْتٌ. والجمع: بُخَّائِي، وبُخَّائِي. (المعجم الوسيط، مادة: ب.خ.ت.) - ١ ص ٤٢.

(١٠) أي: مُقَوَّدة (يقودها فارس). (لسان العرب، مادة: ج.ن.ب.) - ١ ص ٦٩١.

(١١) وعاء نُصَان فيه الثياب. والجمع: نُحُوت. (المعجم الوسيط، مادة: ت.خ.ت.) - ١ ص ٨٦.

(١٢) ما أعدّه له (السابق).

(١٣) اتعاظ اخفا (ط. الفكر) - ١٨٨ - ١٨٩، والخطط ٣٨٥/١.

الحسيني هديته، وهى: أحد عشر سَفْطاً من متاع ثُوثة^(١)، وتَنيس ودمياط، وخيلاً وبغلاً، فقال: "كنتُ أشتهى أن يلبس منها المعز لدين الله ثوباً، أو يتعمم بالعمامة التى فيها، فما عَمِلَ لخليفة - قط - مثلها". وأذن المعز لجماعة بالجلوس فى مجلسه، وأطلق جماعة المعتقلين من الإخشيدية والكافورية، الذين اعتقلهم جوهر، وعَدَّهم نحو الألف.

وقال المعز للقاضى أبى طاهر: كم رأيت من خليفة؟ فقال: ما رأيت خليفة غير مولانا المعز لدين الله (صلوات الله عليه). فاستحسن ذلك منه على البديهة، مع علم المعز أن أباً طاهر رأى المعتضد، والمكفى، والمقتدر، والقاهر، والراضى، والمتقى، والمستكفى، والمطيع. فشكره، وأعجب بقوله^(٢).

وركب المعز (لدين الله)^(٣) يوم الفطر - لصلاة العيد - إلى مصلى القاهرة^(٤)، التى بناها القائد جوهر. وكان محمد بن أحمد بن الأدرع الحسيني قد بَكَرَ، وجلس فى المصلى تحت القبة، فجاء الخدم وأقاموه، وأقعدوا موضعه أباً جعفر مسلماً^(٥)، وأقعدوه (هو)^(٦) دونه. فكان^(٧) أبو جعفر مسلم خلف المعز عن يمينه وهو يصلى، وأقبل المعز فى زيه وبنوده وقبايه، وصلى بالناس صلاة العيد تامة طويلة، قرأ فى الأولى بأتم الكتاب، (هل أتاك حديث الغاشية)، ثم كَبَّرَ بعد القراءة وركع فأطال، وسجد فأطال. قال ابن زولاق^(٨): أنا سَبَّحْتُ خلفه فى كل ركعة، وفى كل سجدة نيفاً وثلاثين تسبيحة. وكان القاضى النعمان بن محمد يُتْلَغُ عنه التكبير. وقرأ فى الثانية بأتم الكتاب، وسورة (الضحى)، ثم كَبَّرَ - أيضاً - بعد القراءة، وهى صلاة جده على بن أبى طالب عليه السلام^(٩). وأطال - أيضاً - فى الثانية الركوع والسجود، وأنا^(١٠) سَبَّحْتُ خلفه نيفاً وثلاثين تسبيحة فى كل ركعة، وفى كل سجدة. وجهر بـ (بسم الله الرحمن الرحيم) فى كل سورة، وأنكر جماعة^(١١) يتوسمون^(١٢) بالعلم قراءته قبل التكبير؛ لقله علمهم، وتقصيرهم فى العلوم. (حدثنا محمد بن أحمد قال: حدثنا عمر بن

(١) جزيرة قرب تنيس ودمياط من فنوح عُمر بن وهب. يُضرب المثل بحسن نياها وطُرُزها. (معجم البلدان ٧٣/٢).

(٢) اتعاظ الحنفاً (ط. الفكر) ص ١٨٩ - ١٩٠.

(٣) زيادة فى (الخطط) ٤٥١/١.

(٤) الجامع الأزهر.

(٥) هكذا بالنصب على الصحيح كما ورد فى (الخطط ٤٥١/١) بخلاف إبقاء د. الشيال لما دون نصب (الاتعاظ - ط. الفكر) ص ١٩٠.

(٦) زيادة فى (الخطط) ٤٥١/١.

(٧) فى السابق ٤٥١/١: وكان.

(٨) زائدة هنا فى (الاتعاظ، ط. دار الفكر) ص ١٩٠.

(٩) زيادة فى (الخطط) ٤٥١/١.

(١٠) أنا (المصدر السابق: ٤٥١/١).

(١١) جماعات (الخطط) ٤٥١/١.

(١٢) هكذا فى (السابق)، وهو الصواب. وردت فى (اتعاظ الحنفاً، ط. الفكر) ص ١٩٠: يتوسمون.

شسبية، حدثنا عبد الله ورجاء، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن عليّ عليه السلام: أنه كان يقرأ في صلاة العيد قبل التكبير^(١).

فلما فرغ من الصلاة صعد المنبر، وسلم على الناس يمينا وشمالاً، ثم نشر البنددين^(٢) اللذين كانا على المنبر، فخطب وراءهما (على رسمه)^(٣)، وكان في أعلى درجة من المنبر وسادة دياج مثقل، فجلس عليها بين الخطبتين، واستفتح الخطبة بـ(بسم الله الرحمن الرحيم)، وكان معه على المنبر جوهر، وعمّار بن جعفر، وشفيق (صاحب المظلة)، ثم قال: الله أكبر، الله أكبر، استفتح^(٤) بذلك، وخطب وأبلغ، وأبكى الناس، وكانت خطبته^(٥) بخضوع وخشوع.

فلما فرغ من خطبته انصرف في عسكره، وخلفه أولاده الأربعة بالجواشن والخوذ^(٦)، على الخيل بأحسن زى، وساروا بين يديه بالفيلين. فلما حصل في قصره، أحضر الناس، فأكلوا ونشطهم إلى الطعام، وعَبَّ على مَنْ تأخر، وتَهَدَّدَ مَنْ بلغه عنه صيامُ العيد^(٧).

ج- "ومن أحسن السياسات في النداء على النيل ما حكاها الفقيه ابن زولاق في "سيرة المعز لدين الله"^(٨).

"قال: وفي هذا الشهر - يعنى: شَوَّال - سنة اثنتين وستين وثلاثمائة، منع المعز لدين الله من السنداء بزيادة النيل، وألا يُكتب بذلك إلا إليه، وإلى القائد جوهر. فلما تمَّ، أباح النداء، يعنى: لما تمَّ ست عشرة ذراعاً، وكُسِرَ الخليج"^(٩).

د- "قال ابن زولاق في كتاب (سيرة المعز لدين الله):

وفي ذى القعدة - يعنى من سنة اثنتين وستين وثلاثمائة، وهى السنة التى قدم فيها الخليفة المعز لدين الله إلى القاهرة من بلاد المغرب - ركب المعز لدين الله عليه السلام لكسر خليج القنطرة،

(١) زيادة - (الخطط) ٤٥١/١.

(٢) ستر بالسسترين (السائق)، وهو أصح.

(٣) زيادة في (السائق).

(٤) واستفتح (السائق).

(٥) خطبة (السائق).

(٦) بالبدال في (الخطط). (السائق). جمع خَوْشَن، وهى الدَّرْع. (المعجم الوسيط، مادة: ج. و. ش. ن) ١٥٣/١. والخَوْذ جمع خَوْذَة، وهى غطاء الرأس في الحرب (المراجع السابق، مادة: خ. و. ذ.) ٢٧٠/١.

(٧) اتعاط الحنفا (ط. الفكر) ص ١٩٠ - ١٩١، والخطط ٤٥١/١.

(٨) في (المصدر السابق) ٦٢/١: سيرة العزيز لدين الله. وهذا خطأ ظاهر. وذكر المقرئى مضمونه بإيجاز دون نسبة إلى ابن زولاق (اتعاط الحنفا، ط. دار الفكر) ص ١٩١.

(٩) راجع تعليق المقرئى البديع على فوائد إحقاق مقدار ارتفاع مياه النيل عن عوام الناس، وأن ذلك من حسن السياسة الاقتصادية (المصدر السابق: ص ١٩١). ورد في (الخطط) للمقرئى ج ١ ص ٩٥: أن ماء النيل إذا بلغ ارتفاعه أكثر من ست عشرة ذراعاً إصبعا واحداً، قالوا: كسر الخليج. بمعنى: فُتِحَ الترع، ففاض الماء، وغمر الأراضى.

فكُسر بين يديه، ثم سار على شاطئ النيل، حتى بلغ إلى بني وائل، ومرَّ على سطح الجُرف^(١) في موكب عظيم، وخلفه وجوه أهل الدولة، ومعه أبو جعفر أحمد بن نصر، يسير معه، ويُعرفه بالمواضع التي يجتاز عليها. ونجعت له الرعاية بالدعاء. ثم عطف على بركة الحبش^(٢)، ثم على الصحراء، على الخندق الذي حفره القائد جوهر. ومر على قبر كافور، وعلى قبر عبد الله بن أحمد بن طباطبا الحسني، وعرقه به، ثم عاد إلى قصره^(٣).

هـ- وقال ابن زولاق:

"وفي يوم ثمانية عشر من ذى الحجة سنة اثنين وستين وثلاثمائة، وهو يوم القدير، تَجَمَّع خلق من أهل مصر والمغاربة، ومن تبعهم للدعاء؛ لأنه يوم عيد؛ لأن رسول الله ﷺ عهد إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فيه، واستخلفه. فأعجب المعز ذلك من فعلهم. وكان هذا أول ما عُمل بمصر^(٤).

و- وقال ابن زولاق في كتاب (سيرة الإمام المعز لدين الله)، ومن خطه نقلت:

وفي هذا الشهر، يعني: الحرم سنة ثلاث وستين وثلاثمائة: تبسّطت المغاربة في نواحي القرافة والمغافر وما قاربها، فزلوا في الدور، وأخرجوا الناس من دورهم، ونقلوا السكان، وشرعوا في السكنى في المدينة، وكان المعز قد أمرهم أن يسكنوا أطراف المدينة. فخرج الناس، واستغاثوا بالمعز، فأمرهم أن يسكنوا نواحي عين شمس، وركب المعز بنفسه حتى شاهد المواضع، التي يزلون فيها، وأمرهم بحال يبنون به، وهو الموضع الذي يُعرف - اليوم - بالخندق، والحفيرة، وخندق العبيد. وجعل لهم والياً، وقاضياً. ثم سكن أكثرهم بالمدينة مخالطين لأهل مصر، ولم يكن القائد جوهر، يبيحهم سكنى المدينة، ولا المبيت بها، وحظر ذلك عليهم، وكان مناديه ينادي كل عشية: لا يبيت أحد في المدينة من المغاربة^(٥).

ز- قال ابن زولاق في كتاب (سيرة المعز لدين الله):

في يوم عاشوراء من سنة ثلاث وستين وثلاثمائة، انصرف خلق من الشيعة وأشياعهم إلى المشهدين: قبر كلثوم، ونفيسة. ومعهم جماعة من فرسان المغاربة ورجالهم بالنياحة والبكاء على

(١) الجُرف: شق الوادي إذا حفر الماء في أسفله. والجمع: أحراف، وجُرفَة (المعجم الوسيط، مادة: ج. ر. ف) ج ١ ص ١٢٣.

(٢) أرض منخفضة واسعة مشرفة على نيل مصر حنف القرافة، تُزرع فتكون حنة خضراء، وهي من أعظم متزهات مصر. (معجم البلدان ١/٤٧٧).

(٣) الخطط ١/٤٧٠.

(٤) السابق ٣٨٩/١. وورد ذلك النص في (اتعاط الحنفا، ط. دار الفكر) ص ١٩٤-١٩٥، مختصراً دون نسبة لابن زولاق.

(٥) الخطط ٢/١٣٨.

الحسين ^(١)، وكسروا أواني السقائين في الأسواق، وشَقَّقُوا الرِّوَابَا ^(٢)، وسَبُّوا من ينفق في هذا اليوم، ونزلوا حتى مسجد الريح. وثار عليهم جماعة من رعية أسفل؛ فخرج أبو محمد الحسن ^(٣) بن عمار، وكان يسكن هناك في دار محمد بن أبي بكر، وأغلق الدرب، ومنع الفريقين، ورجع الجميع. فحَسُنَ موقع ذلك عند المعز، ولولا ذلك لعظمت الفتنة؛ لأن الناس قد غلَّقُوا الدكاكين وأبواب الدور، وعطلوا الأسواق، وإنما قويت أنفُسُ الشيعة؛ بكون المعز بمصر، وقد كانت مصر لا تخلو منهم في أيام الإحتشيدية والكافورية في أيام عاشوراء عند قبر كلثوم، وقبر نفيسة. وكان السودان وكافور يتعصبون على الشيعة، وتعلق السودان في الطرقات بالناس، يقولون للرجل: مَنْ خَالِكَ؟ فإن قال: معاوية، أكرموه. وإن سكت لقي المكره، وأخذت ثيابه وما معه، حتى كان كافور قد وكَّل بالصحرَاء، ومنع الناس من الخروج ^(٤).

ح- قال ابن زولاق في كتاب (سيرة المعز)، ومن خطه نقلت:

"ولست عشرة بقيت من الخرم، يعني من سنة ثلاث وستين وثلاثمائة، قَدَّ المعز لدين الله الخراج، ووجوه الأموال، وسائر الأعمال في أرض مصر، أبا الفرج يعقوب بن يوسف بن كلَّس الوزير، وعُشْنُوج بن الحسن، وكتب لهما بذلك سجلاً، قُرئ يوم الجمعة على منبر جامع ابن طولون، فاستغضبا في الطلب واستخراج الأموال، فكان يُستخرج في اليوم ثَيف وخمسون ألف دينار مِعْرِيَّة. وكان صرف الدينار المِعْرِيَّة خمسة عشر درهماً ونصفاً".

وحدثني عسلوج بن الحسن: أنه استخرج للمعز في يوم مائة وعشرين ألف دينار معزية.

وحدثني ابن السري كاتب عسلوج: "أنه حَصَلَ في يوم واحد من مال تنيس ودمياط والأشمونين ^(٥) أكثر من مائتي ألف دينار، وعشرين ألف دينار، وهذا مما لم يسمع بمثله قَطُّ في بلد ^(٥)".

(١) الرِّوَابَا: جمع الرواية، وهي المرادة فيها الماء. ولعل المقصود: مَرَقُوا قُرْب الماء. (المعجم الوسيط، مادة: ر.و.ي.) ج ١ ص ٣٩٧.

(٢) ورد بلفظ الحسين، وهو تحريف. (راجع: انعاظ الحفا - ط. المجلس - ج ٥/٢ - ص ١٣).

(٣) المصدر السابق (ط. المجلس): ٤٣٠/١ - ٤٣١.

(٤) سَمَّاها ياقوت (أشمون)، وهي مدينة قديمة عامرة بأهلها، وقصبة كورة الأشمونين غربي النيل بصعيد مصر، ذات بساتين وخیل كثير. (معجم البلدان ١/٢٣٧ - ٢٣٨). ولعلها قرية من قرى مركز ملوى بمديرية أسبوط حديثاً. (القاموس الجغرافي) محمد رمزي، القسم الثاني، الجزء الرابع ص ٦٠.

(٥) الفضائل الباهرة ١٢٧ - ١٢٨. وردت هذه الرواية بما يقارب هذا في (الخطوط) ٢/٢٦٩، وبنغازي في (المصدر نفسه) ٨٢/١.

ط- وقال ابن زولاق:

وفي هذه السنة - يعني سنة ثلاث وستين وثلاثمائة - منع أمير المؤمنين المعز لدين الله من وقود النيران ليلة التَّوَرُّوز^(١) في السَّكَّك، وَمِنْ صَبِّ الماء يوم النوروز^(٢).

ي- قال ابن زولاق في كتاب (سيرة المعز لدين الله أبي تميم مَعَدَّة):

ولأربع خلون من ذي القعدة - يعني ثلاثة وستين وثلاثمائة - وصل ابن النابلسي، وأبو المنجى، وابنه، وعشرون رجلاً من القرامطة، فطيف بهم على الإبل بالبرانس والقيود. وكان ابن النابلسي يَبْرُئ^(٣) مُقْبِداً على حمل، وخلفه رجل يحسكه، والناس يَسْتُونه ويشتمونه، وَيَجْرُونَ برجله من فوق الحمل، واشتغلوا بسبه عن الذين كانوا معه. فلما فرغ التَّطَوُّف ورُدُّوا إلى القصر، عُدل بأبي المنجى وابنه وَمَنْ مَعَهُما من القرامطة إلى الاعتقال، وعُدل بابن النابلسي^(٤) إلى المنظر؛ لِيُسَلِّخَ. فلما علم بذلك رمى نفسه على حجارة ليموت، فَرُدَّ وحُمِلَ على الحمل، فعاد ورمى نفسه، فَرُدَّ وشُدَّ، وأسرع به إلى المنظر، فسلخ وحشيتاً تبناً، ونُصِبَتْ حنته وجِلْدَه على الخشب عند المنظر^(٥).

ك- وقال (أى: ابن زولاق):

في سنة أربع وستين (أى: وثلاثمائة)، وفي يوم النوروز زاد اللعب بالماء، ووقود النيران، وطاف أهل الأسواق، وعملوا فيه، وخرجوا إلى القاهرة بلعبيهم، ولعبوا ثلاثة أيام، وأظهروا السَّمَاجَات (القبائح) والخنثى في الأسواق، ثم أمر المعز بالنداء بالكف، وألا تُوقَد نَار، ولا يُصَبَّ ماء. وأخذ قوم، فطيف بهم على الجمال^(٦).

ل- قال ابن زولاق:

ولأربع خلون من صفر (أى: سنة ٣٦٥هـ) ورد حاج البرّ، وقد كان البر أقام سنين لم يُسلِّك^(٧).

(١) من المواسم الفارسية القديمة التي يُحتفل بها في بداية الربيع. وقد أظنه المسلمون حتى أعاده العباسيون ثانية. واحتفل في مصر بالنوروز القبطي في عهد الفاطميين. (السانق: ٤٩٣/١). وورد في (المعجم الوسيط، مادة: نوروز) - ص ٢٠٠ - ١٠٠١: أنه يعرف بالنوروز في الفارسية بمعنى: اليوم الجديد. وهو أول يوم من أيام السنة الشمسية الإيرانية، ويوافق الحادى والعشرين من مارس، وهو أكبر الأعياد القومية للفرس.

(٢) الخطط: ٤٩٣، ٢٦٨/١.

(٣) كل ثوب رأسه منه ملتقى به. والجمع: نرايس. (المعجم الوسيط، مادة: ب. ر. ن. س.) - ص ٥٤٠.

(٤) هو أحمد بن سهل بن نصر، وأبو بكر الرُّمْلِي. يعرف بـ (ابن النابلسي). كان عبداً صالحاً عالماً زاهداً، سجنه بنو عُبيد وصلبوه؛ لدفاعه عن السنة، وتصريحه ببعضهم، وإعلانه أن قتالهم واجب. هرب من الرملة إلى دمشق، فقبض عليه، وأرسل إلى مصر. (معجم البلدان، مادة: نابلس) - ص ٢٨٨ - ٢٨٩. (وبلاحظ قوله: قبض عليه وإلى دمشق أبو محمد الكنانى صاحب العزيز. والصواب: أنه صاحب أبي تميم المعز).

(٥) المفقى ١٧٧/٥ - ١٧٨. (٦) الخطط ٤٩٣، ٢٦٨/١.

(٧) اتعاط الحفا (ط. المجلس الأعلى) ٢٢٧/١.

قال ابن زولاق في كتاب (سيرة المعز):

وفي شهر صفر من سنة خمس وستين وثلاثمائة، أنشئ سوق الشرايين بالقاهرة^(١). وفيه (أى: في صفر من ذلك العام) حضر على بن النعمان القاضي جامع القاهرة، وأملى مختصر أبيه في الفقه عن أهل البيت، ويُعرف هذا المختصر بـ (الاقصار). وكان جمعاً عظيماً.

وفي ربيع الآخر وردت رسالة القرامطة بأنهم في الطاعة.

وفيه أذن المعز لجماعة المصريين، فدخلوا عليه، وخاطبهم - وهو على سرير الملك - فصاح به رجل منهم: "يا أمير المؤمنين، قال الله ﷻ: "وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ. ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ"^(٢). يا أمير المؤمنين، لننظر كيف تعملون.

قال: صدق الله، كذا قال ﷻ، ونسأل الله التوفيق.

واعتل المعز لثمان خلون من ربيع الأول، فأقام ثمانية وثلاثين يوماً، ووُصف له البطيخ البرلسي يؤخذ مأوه، فطُلب بمصر فلم يوجد سوى واحدة اشترت بخمسة دنانير، ثم وجد منها ثمان عشرة بطيخة، اشترت بثمانية عشر ديناراً. وكان الناس يُغدون إلى القصر ويروحون، والذي يُمرّضه طبيبه (موسى بن العازار)، وعبداه جوهر.

فلما كان لأربع عشرة بقية من ربيع الآخر، اشتدت العلة، وعُرف باجتماع الناس، وكثرة الرّقاع في الظلمات والحوائج، وسئل فيمن ينظر في ذلك، فأمر أن ينظر فيه ولي عهده نزار فاستخلفه، وخرج للسلام إلى الناس، فانصرفوا.

وخسرج القائد جوهر وموسى بن العازار الطبيب بالعزير فأجلسوه، وخرج إليه إخوته وعمومته وسائر أهله فبايعوه، ثم أدخل إليه أكثر الأولياء، فبايعوه وسلموا عليه بالإمرة وولاية العهد، فابتهج الناس بذلك.

ودخل عليه من الغد القاضي أبو طاهر، وجماعة من الشهود والفقهاء، فسلموا عليه بولاية العهد، وقبّلوا له الأرض، فردّ عليهم أحسن ردّ، وأخبرهم بأن المعز بخير، قال: "مولانا - صلوات الله عليه - في كل عافية وسلامة في أحواله، وفي رأيه لكم". وانصرفوا.

(١) المخطوط ١٠٠/٢. سماها المقرئ بـ (سوق الشوايين)، وذكر أنها أول سوق وضعت بالقاهرة، وكانت تعرف بـ (سوق الشرايين)، وكانت تمتد من باب حارة الروم إلى سوق الخلاويين. ثم لما سكنه بعض بائعي الشواء حوالي سنة ٧٠٠هـ، عرف السوق بهم، وانتقل سوق الشرايين - زمن المقرئ - إلى خارج باب زويلة، وعُرف بـ (البيطين).

(٢) سورة يونس: الآيات ١٣ - ١٤.

وكان يوم الجمعة، فدعا له عبد العزيز بن عمر العباسي على منبر الجامع العتيق بعد أن دعا للمعز، فقال: " اللهم، صلِّ على عبدك ووليِّك، ثمرة النبوة، ومعدن الفضل والإمامة، عبد الله معدَّ أبي تميم الإمام المعز لدين الله، كما صليت على آبائه الطاهرين، وأسلافه المنتخبين من قبله. اللهم، أئنه على ما وليته، وأنجز له ما وعدته، وملِّكه مشارق الأرض ومغاربها، واشدّد - اللهم - أزره، وأعزّ نصره بالأمير نزار أبي المنصور ووليّ عهد المسلمين، ابن أمير المؤمنين، الذي جعلته القائم بدعوته، والقائم بمحتة. اللهم، أصلح به العباد، ومهّدْ لديه البلاد، وأنجزْ له به ما وعدته، إنك لا تخلف الميعاد".

وتوفى المعز لدين الله عشية هذا اليوم ليلة السبت السادس عشر من شهر ربيع الآخر. وقيل: يوم الجمعة حادى عشر، وقيل: ثالث عشر. ولم يظهر ذلك، ولا نطق به أحد مدة ثمانية أشهر. وقيل: إن السيدة - لما اشتدت علة المعز - أحضرت القائد جوهر^(١)، وهو ملثفٌ في بُرد من... وحضر يعقوب بن يوسف بن كلّس، وعُسْلُوج القائد، وأفلح الناشب، وطارق الصقلي، فقالوا للمعز: نريد أن تبصرنا رشدنا، وتعلمنا لمن الأمر. فلم يُجبههم، فقال له جوهر: قد كنت سمعتُ منك قولاً في هذا، استغيتُ به عن إعادة السؤال، غير أنهم أكرهوني على الدخول. وقال لهم: قابلتموني بما لا يجب. وبكى، فخرجوا. فلما كان اليوم الثالث مات، فصار العزيز إذا رُفعت إليه الأمور يدخل كأنه يشاوره، ويخرج بالأمر.

— قال ابن زولاق:

وكان - يعنى المعز - في غاية الفضل والاستحقاق للإمامة، وحسن السياسة. وكان مولده سنة تسع عشرة وثلاثمائة، أدرك من أيام المهدي جدّ أبيه أربع سنين، وتوفى القائم، وللمعز ست عشرة سنة. واجتمع للمعز بمصر ما لم^(٢) يجتمع لآبائه، وذلك أنه حصل له بالمغرب أربعة وعشرون بيتاً من المال، منها: أربعة عشر خلفها المهدي، ولم يُخلف القائم عليها شيئاً، وخلف المنصور بيتاً واحداً وكسوة، وأضاف إليها المعز تسعة، فصارت أربعة وعشرين بيتاً، أنفق أكثرها على مصر إلى أن فتحت ودخلها، وحصل له من مال مصر أربعة بيوت سوى ما أنفق، وسوى ما قدم به معه. واجتمع له أن خلفاءه بمصر استخرجوا له ما لم يُستخرج لأحد بمصر، فاستخرج له في يوم واحد مائة ألف دينار، وعشرون ألف دينار.

وهُزمت القرامطة في أيامه أربع مرار: مرتين في البر على باب مصر، ومرتين في

(١) وردت غير منصوبة في (اتعاظ الحنفا - ط. المجلس الأعلى): ٢٢٩/١، وهو خطأ نحوي.

(٢) وردت هكذا في (اتعاظ الحنفا، ط. المجلس الأعلى ٢٣٠/١). لا. هذا تحريف.

البحر، وما تم عليهم هذا قط، منذ ظهر أمرهم. وأقيمت له الدعوة يوم عرفة في مسجد إبراهيم الخليل، وبمكة والمدينة، وسائر أعمال الحرمين، ولم تُرد له راية.

وسار ابن السميسق ملك الروم إلى رثان عبد المعز - وهو بطرابلس - فأنهزم، وأخذت غنائمه، وأسر رجاله. وكتب اسمه على الطُرُز بتتيس، وديماط، والقيس، والبهنسي قبل أن يملك مصر. وتتابعت له الفتوح. ودُعي لفاطمة ولعلی - عليهما السلام - في أيامه على المنابر في سائر أعماله، وفي كثير من أعمال العراق. وتُصبت السناثر على الكعبة وعليها اسمه. وتُصبت له الحاريب: الذهب، والفضة داخل الكعبة، وعليها اسمه. وكتبه أهل العراق، وأهل اليمن، وأهل خراسان، وأهل الحرمين، والترك بالخلافة.

وكان على التجهز للمسير للحج، ثم إلى قسطنطينية للجهاد. وكان مقامه بمصر سنتين، وسبعة أشهر، وعشرة أيام^(١).

قال مصنفه - رحمه الله عليه - : ليس الأمر كما قال ابن الأثير، فقد حكى الفقيه الفاضل المؤرخ أبو محمد الحسن بن إبراهيم بن زولاق المصري في كتابه: (سيرة المعز) - وقد وقفت عليها بخطه - رحمه الله - أخبار المعز منذ دخل مصر إلى أن مات يوماً يوماً، وأن المعز إنما عهد لابنه يوم الخميس لأربع عشرة بقية من شهر ربيع الآخر قبل موته بيومين، وذكر أن سبب العهد إليه اجتماع الناس بباب القصر وكثرة الرقاق، وأنه سئل فيمن ينظر في ذلك، فأمر ابنه نزار العزيز أن ينظر فيه فاستخلفه. وقد ذكرت ملخص هذه السيرة فيما مر من أخبار المعز، وأن ابن زولاق أعرف بأحوال مصر من ابن الأثير خصوصاً المعز، فإنه كان حاضراً ذلك، ومشاهداً له، ومن يدخل إليه، ويُسلم مع الفقهاء عليه، ويروى في هذه السيرة أشياء بالمشاهدة، وأشياء مدّته بها ثقات الدولة وأكابرها، كما هو مذكور فيها، إلا أن ابن الأثير تبع مؤرخي العراق والشام فيما نقلوه. وغير خاف على مَنْ تَبَحَّر في علم الأخبار كثرة تحاملهم على الخلفاء الفاطميين، وشنيع قولهم فيهم. ومع ذلك، فمعرفتهم بأحوال مصر قاصرة عن الرتبة العالية، فكثيراً ما رأيتهم يحكون في تواريخهم عن أخبار مصر مالا يرتضيه جهاذة العلماء، ويردّه الحذاق العالمون بأخبار مصر. وأهل كل قطر أعرف بأخباره، ومؤرخو مصر أدرى بمآجرياتهم، وفوق كل ذي علم عليهم^(٢).

(١) اتعاط الحنفا (ط. المجلس الأعلى) ج١ - ص ٢٢٧ - ٢٣١.

(٢) هذا تعليق المقرئ (السابق: ٢٣٢/١). وعلى د. الشبال بالهامش بقوله: " هذه نظرية نقدية هامة للمؤلف - المقرئ - للمراجع التي أرخت للفاطميين ". راجع ما نقله ابن الأثير من روايات تشين المعز (الكامل) ج ٧ - ص ٣٦٠ - ٣٦١.

ملاحظات عامة على بقايا (سيرة المعز) لابن زولاق:

أ- يلاحظ أن بقايا كتاب (سيرة المعز لدين الله) لابن زولاق مؤرخ مصر كبيرة، ولا شك أن ما ضاع منها أكبر وأكبر. فمن طريقة عرضها يتضح أن صاحبها كان يؤرخ لعهد المعز يوماً بيوم، على حد تعبير المقرئ، وقد رأى الكتاب، ونقل عن خط مؤلفه ابن زولاق. والحق أنه كتاب ضاف، لكنني لا أعتقد أنه أُلّف بتكليف رسمي من جوهر^(١)؛ لأن إعجاب ابن زولاق بالدولة العبيدية، وبالمعز خاصة كما سنرى، وحاسته التاريخية تجعله يدرك أهمية استكمال التأريخ لعصره، خاصة إذا كان عهد المعز هو محور الانقلاب الحاصل في تاريخ مصر ومصائر^(٢). لقد أحسن ابن زولاق إعداد العدة، وكان على قرب من الأحداث، يسجل تاريخها عن كتب، وهو أعرف بأحوال بلده وعصره من غيره.

ب- من ملامح بقايا كتاب ابن زولاق نلمس نغمة الإعجاب والانبهار، التي يديها ابن زولاق به. ورغم أن المعز قدم لدولته خدمات جليلة (يكفيه أنه فُتحت مصر في عهده، واتسعت ممتلكاته شرقاً وغرباً)، إلا أن رواية ابن زولاق يؤخذ عليها شيء من المبالغة كقوله عن نبوءة المهدي بفتح المعز مصر، وأنه سيتم على يديه ما لم يتم على أيدي آبائه، وما ألمح إليه المهدي - والمعز لا يزال في المهدي رضيعاً تحمله دايته - أنه سيكون خليفة، وأن الكساء الذي دخل تحته المهدي وأبناءؤه، يفوق مَنْ دخلوا تحته مَنْ أدخلهم الرسول تحت كسائه.

ونلمح التجاوزات والمبالغات - أيضاً - في أرقام الخراج، وما استخرج من الأموال في أيام قليلة في عهد المعز، إلى جانب أن يقال: إن العزيز أخفى خير وفاة والده شهوراً طويلة، فذلك ما لا بد أن يكشف عنه، ولا سبيل لإخفائه تلك المدة الطويلة.

ج- يُحسب لابن زولاق اهتمامه بتحديد التواريخ بدقة، فكتابه أشبه باليوميات والمذكرات التاريخية، التي يسجلها صاحبها يومياً. وقد ساعده على ذلك معاصرته للأحداث وقربه من رجال الدولة ومشاركتها فيما يحكى لنا عنه (مثل: وصفه صلاة عيد الفطر للمعز، وقد كان حاضراً تلك الصلاة، حتى عدَّ خلف المعز نيفاً وثلاثين تسبيحة في كل مرة من: ركوعه، وسجوده على مدار الركعتين).

د- كشفت بقايا هذا الكتاب عن عمق وتأصل اهتمام ابن زولاق بالنواحي الحضارية، كالمظاهر الاجتماعية ممثلة في المواكب والماراسم والاحتفالات، وتقاليد الجلوس في مجلس الملك،

(١) عنان: مؤرخو مصر الإسلامية ص ٤٣.

(٢) المرجع السابق ص ٤٣، ومقالة عنان في (ملحق جريدة السياسة اليومية) ص ٩ (تاريخ ١٧/٩/١٩٣٢م).

وبسروتوكولات وترتيبات المجلس في أثناء خطبة الجمعة للمعز، وفي الصلاة. لمست روايات الكتاب مقدار الثراء الفاحش الذي كان عليه القادة وحكام العبيدين من خلال استعراض هدايا المعز وجوهر المتبادلة. وكذلك تعرض مؤرخنا لبيان تطور العلاقات الاجتماعية بين الشعب المصرى من جهة، والجند المغاربة الوافدين في جيوش جوهر والمعز من جهة أخرى، وما شابهها من تغير وتطور دفع ثمنه عامة الناس من أموالهم وأعراضهم وديارهم ودمائهم. كما أبرز ابن زولاق أهم ما اتسمت به الدولة العبيدية في مصر من كثرة الأعياد والاحتفالات، وما يشوب ذلك من انحرافات جسيمة خطيرة، يضطر - مع تزايد معدلها والإغراق فيها - المعز إلى الحد منها، لكنها ما تلبث أن تعود كما (في الاحتفال بيوم عاشوراء على طريقة الشيعة المنحرفة، ويوم وليلة النيروز).

هـ- وكشف ما بقى من الكتاب عن محاولات المعز المجدية للحفاظ على قوة الدفع الاقتصادية، وعدم التسبب في ارتفاع الأسعار، أو الاحتكار من خلال كتمان مقدار ارتفاع مياه النيل.

و- وأخيراً، أعطانا صورة حية لما تبذله الدولة الشيعية في مصر من صبغ الحياة العلمية والدينية بالصبغة الشيعية الإسماعيلية، وذلك من خلال مجالس الدعوة، وما يملبه على بن النعمان سنة ٣٦٥هـ من مختصر أبيه في الفقه عن أهل البيت، وذلك من كتاب (الاقتصار)، في جامع القاهرة (الأزهر)، وفي حضور جمع عظيم من الناس (حضرُوا - في اعتقادي - عن جهل وبجاعة للأوضاع، أو رهبة ومدارة للحكام).

٧- وأخيراً، بقايا (سيرة العزيز بالله) لابن زولاق:

أ- "وحدث ابن زولاق في كتاب (سيرة العزيز) المتغلب على مصر، المنتسب إلى العلويين، من تصنيفه، حاكياً عن نفسه، قال: لما خلُع على الوزير يعقوب بن كَلَس، وكان يهودياً فأسلم، وكان مكيئاً من العزيز. فلما أسلم، قلَّده وزارته، وخلع عليه.

قال ابن زولاق: وكنتُ حاضراً بجلسته، فقُلْتُ: أيها الوزيرُ، روى الأعمش، عن زيد ابن وهب، عن عبد الله بن مسعود، أنه قال: حدثني الصادق رسول الله ﷺ: " أن الشقيَّ مَنْ شَقِيَ في بطن أمه، والسعيدُ مَنْ سَعِدَ في بطن أمه ". وهذا غلوٌّ سَمَوَى. فقال الوزير: ليس الأمرُ كذلك، وإنما أفعالي وتوفيراتي وكفائتي، ونيابتي ونُيُوتِي وحرصى، الذى كان يُهَجِّى ويُعَاب. وقد مات قوم ممن كان وبقي قوم. وكان هذا القول بمحضرة القوم الذين حضروا قراءة السجل، الذى خرج من العزيز في ذكر تشريفه. قال ابن زولاق: فأمسكتُ، وقلْتُ: وفَى الله الأمير، إنما رَوَيْتُ عن رسول الله ﷺ حديثاً صحيحاً. وقمتُ، وخرجتُ وهو ينظر إلى.

وانصرف الوزير إلى داره بما حباه العزيز به. قال: فحدثني أبو عبد الله الحسين بن إبراهيم الحسيني الزينبي قال: عاتبني الوزير على ما تكلم به، وقلت: إنما روى حديثاً صحيحاً بجميع طرقه، وما أراد إلا الخير. فقال لي: خفي عنك، إنما هذا مثل قول المتنبي:

وَلله سِرٌّ في عَمَلِك وإِنَّمَا كَلَامُ الْعَبْدِ ^(١) ضَرْبٌ مِنَ الْهَذْيَانِ

وأجمع الناس على أن ذلك هَجْوٌ في كافور؛ لأنه أعلمه أنه تقدم بغير سبب. وابن زولاق هجان على لسان صاحب الشريعة رحمه الله، فما أمكنني السكوت. وكان في نفسي شيء، فجعلت كلامه سبباً. قال أبو عبد الله الزينبي: فأشهد أن الوزير لم ينقض يومه، حتى تكلم بمثل كلامي، الذي أوردته عن النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك أن رجلاً عرض عليه رقعة، فقال: كم رِقَاع، كم جَرَصٍ هو ذا الرجل، يطوف البلدان، ويتقلب في الدول، ويسافر فلا ينجح، وآخر يأتيه أمْلُهُ عَفْواً، قد فرغ الله من الأرزاق والآجال والمراتب، ومن الشقاوة والسعادة. ثم التفت إليّ وضحك، وقطع كلامه. قال ابن زولاق: وكنت هتأت ابن رشيقي بهذه التهنية، في مجلس عظيم حفل، حين جاءته الخلع من بغداد، والتقليد وألبسوه. ورويت له هذا الخبر، فبكي وشكر، وحسنتني على ذلك أكثر الحاضرين، وكافأني عليه أحسن مكافأة ^(٢).

ب- قال شيخنا المقرئ (عليه رحمة الله تعالى): وقد عاينت أنا في (سيرة العزيز بالله): أن حسين بن القاسم، وعلي بن عمر بن العداس، وعبد الله بن خلف الرصدى استخرجوا له في ثلاثة أيام مائتي ألف دينار، وعشرين ألفاً عزيزية، منها: أول يوم أربعة وستون ألفاً، والباقي في يومين، وذلك في سنة أربع وسبعين وثلاثمائة، بعد قبضه على وزيره (يعقوب بن كلس) ^(٣).

ملاحظات عامة على (بقايا سيرة العزيز) لابن زولاق:

أ- من الملاحظ أن صاحب (معجم الأدياء) ممن لا يعترفون بنسب العبيدين المدعى، ولا بخلافتهم المزعومة؛ بدليل قوله في التقديم للنص، الذي اقتبسه والذي احتفظ لنا به من (سيرة العزيز)، بأنه المتغلب على مصر، المنتسب إلى العلويين. نأتى بعد هذه الملاحظة الميدية إلى النص الأول الذي بقى من تلك السيرة، وهو يدور حول الحوار بين ابن زولاق المؤلف للمؤرخ، ووزير العزيز ابن كلس، الذي منحه العزيز خلعاً وتشريفه، وصدر بذلك سجل قرئ على رجال الدولة والمقرئين، وكان من الحضور ابن زولاق. وقد حاول ابن زولاق تهنته ابن كلس بهذا الشرف العظيم، الذي

(١) أى: الأعداء (مادة: ع.د.و). (المعجم الوسيط ٢/٦١٠).

(٢) معجم الأدياء ٢٢٧/٧ - ٢٣٠.

(٣) الفضائل الباهرة لابن ظهيرة ١٢٨.

أخلّسه منه العزيز، وذكر له أن هذا دليل رضا الله عنه، لكن ابن كلس زعم أن ذلك بمجهوده واجتهاده وحرصه. فسكت ابن زولاق عن مواصلة الكلام وانصرف. وقد حاول أحد العلويين الحاضرين الدفاع عن ابن زولاق، لكن ابن كلس كان يحمل في نفسه ضغناً وكرهية - لم يذكر سببها - تجاه ابن زولاق، فتعمد أن يرد عليه هذا الرد الجاف؛ إخراجاً له، رغم أنه يعلم صدق نيته وقصده. ثم تبين الرواية أن ابن كلس - أثناء نظره في رقايع الناس المرفوعة إليه - ردّد نفس مقولة ابن زولاق بأن المقادير أحكمت، والأرزاق والأجّال لا حيلة للمرء فيها. وكذا الشقاوة والسعادة، ومهما بذل الإنسان فهو مُيسّر لما خُلِقَ له. وبعدها حدثنا ابن زولاق أنه سبق أن هتأ بالطريقة نفسها رجلاً يُدعى ابن رشيقي - يبدو أن له مكانة ومثولة، لكننا لا نعرفه - فبكى فرحاً وشكراً بتهنئته أنه من أهل السعادة لا الشقاوة، وكافأه أحسن مكافأة، حتى حسده الحاضرون.

ب- يلاحظ على النص المتقدم بعد أن شرحناه، أنه لا يهتم بذكر تاريخ منح هذه الخلع لابن كلس، ولم يتوسع في تفاصيل ونص سجل تشريفه، ومراسم واحتفالات مثل هذا اليوم، كما أن ابن زولاق استطرد فيه استطراداً معيباً، فلم نر من خير يتعلق بالعزيز في هذا النص المطول، سوى سجله الذي أمر فيه بالخلع على ابن كلس، وبعد ذلك أطلال مؤرخنا في الحديث عما دار بينه وبين الوزير، وبين الشريف العلوي والوزير بخصوصه، ثم ما منحه إياه ابن رشيقي من عطاء ومكافأة حسنة.

ج- أما نص (الفضائل الباهرة)، فأعتقد أن ابن زولاق جنح فيه إلى المبالغة حول هذا الكم الضخم من الأموال، التي جمعت للعزيز في ثلاثة أيام فقط. وقد حدد تاريخ ذلك، لكنه جعله أثناء القبض على الوزير ابن كلس. ونعتقد أنه منافع للحقائق التاريخية، التي تذكر أن الأمور اضطربت لما عزله، فاضطر لإعادته^(١).

ملاحظة أخيرة:

نسب ربيراً نصاً لابن زولاق يعود إلى عهد الحاكم بأمر الله، وفيه يعمل الحاكم الحيلة ضد السراق والمجرمين؛ لقمعهم عن الجريمة وردّ ما سرقوا، وإيأهم الناس بمعرفته الغيب، وإحضاره ما يفقده الناس^(٢). والحق أن المؤلف لم يذكر مصدر هذا الكلام، ولم يعلق المترجم عليه. ومعلوم أن ابن زولاق توفي أوائل عهد الحاكم، وأنه لم يؤثّر عنه كتابة (سيرة الحاكم بأمر الله)، كما أن

(١) ليس صحيحاً أن ابن كلس كان مقبوضاً عليه سنة ٣٧٤هـ كما يذكر ابن زولاق، إنما قبض عليه مدة شهرين سنة ٣٧٣هـ، ثم أعيد إلى منصبه بعد التدهور الحادث. ولعل ابن زولاق ذكر استخراج كل هذه الأموال عند غياب الوزير؛ لما في قلبه عليه مما دار بينهما من حوار تعرضنا له منذ قليل.

(٢) التربة الإسلامية ص ٢٦١ (ترجمة د. الطاهي مكي).

هذه الفعلة للحاكم لا تكون إلا بعد بزوغ شخصيته، وسيطرته على مقاليد الأمور، وذلك لا يكون قبل مقتل (برجوان) سنة ٣٩٠هـ، بينما مات زولاق ٣٨٧هـ. وقد بحث - قدر الطوق - عن هذا النص في المصادر المختلفة، حتى وقفت عليه في كتاب لابن زولاق^(١).

وهكذا يمكن القول: إن ابن زولاق المؤرخ المصري من أوائل الذين آثروا التخصيص على التعميم في مؤلفاتهم، واقتصر نشاطهم على تاريخ بلدهم ورجاله. وقد أتم بكتبه جهود سابقيه، وكانت مشاهداته وتحقيقاته أعظم مصادره. واستطاع التخلص من قيود الإسناد إلا إذا نقل عن مورد مهم موثوق به، وتحررت لغة التأريخ على يديه وانطلقت. وتشيعه لم يَحْنِ على مجهوده ونساجه التاريخي، فروايته جديرة بالاعتماد والثقة، بل هي أنفُس ما لدينا من وثائق العصر ومؤلفاته^(٢).

(ثانياً، وأخيراً - وماذا عن كتب السير التاريخية)

(للحكام وللعلماء في الأندلس؟)

بعد هذه المرحلة الشاقة الطويلة من التحوال والتطواف في ربوع الكتابات المصرية من (سير الحكام، والعلماء) المطبوع منها والمفقود، آن الأوان لننتقل إلى الشق الثاني من هذا الموضوع، وهو كتب السير التاريخية في الأندلس في القرن الرابع الهجري؛ كي تتم دراستها، ومقارنتها بمثلتها في مصر.

والحق أنني لم أظفر - للأسف الشديد، رغم البحث والتقصي والسؤال - بسيرة واحدة كاملة، سواء مطبوعة، أم مخطوطة، أم ببقايا سيرة مفقودة، كتبها مؤرخو الأندلس في القرن الرابع الهجري موضع البحث والدراسة، وذلك على مستوى الحكام، أو العلماء، أو حتى العُباد. وكل ما وجدته تُف من إشارات يسيرة جداً لبعض مؤرخين، لا نعرف عن معظمهم سوى الاسم والنسب غالباً، واسم كتاب يمكن أن يندرج تحت كتب السير التاريخية؛ مما لا يشفى الغُلة، ولا يعطى فكرة ما عن صاحب الكتاب، ناهيك عن عدم وجود قِطْع من هذه المؤلفات التاريخية المفقودة - اللهم إلا اليسير جداً - يمكن أن تُجمَع وتُدرس على نحو ما فعلنا مع مؤرخي مدرسة مصر التاريخية.

(١) وهو مخطوط (تاريخ مصر وفنائها على التمام) ورقة ٥٤ (نُسخة المكتبة الأهلية بباريس رقم ١٨٧١). والحق أن هذا المخطوط قد أُضيف إليه صفحات تعود إلى فترات تاريخية متأخرة عن وفاة ابن زولاق، ومنها هذا النص.

(٢) مؤرخو مصر الإسلامية، لعنان ص ٤٧-٤٨.

وهاكم كل ما وقعت عليه يدي من مادة:

أولاً - (في السير التاريخية للحكام):

أ- حسين بن عاصم*: وهو من أهل العلم والأدب. له كتاب (المآثر العامرية) في: سير المنصور بن أبي عامر، وغزواته، وأوقاتها^(١).

ب- محمد بن عبد الرحمن بن معمر اللغوي: له تاريخ في الدولة العامرية^(٢).

ج- عبد الرحمن بن محمد بن المشاط الرُعَيْنِّي (ت ٣٩٧هـ): قلده المنصور (التاريخ)، فكان صاحب (التظلم)، وجمع للمنصور تاريخه في كتاب، سَمَّاه (الباهر). وقد نُهب هذا الكتاب في نكبة آل عامر^(٣).

ثانياً - (في سير العلماء):

أ- عبد الله بن الخليفة الناصر* (ت ٣٣٩هـ):

كان هذا الأمير الأندلسي عالماً، فقيهاً شافعيًا، مؤرخاً. ومن مولفاته التي يمكن أن تدخل في مجال (سير العلماء): مجلد (مناقب بَقِيَّ بن مَخْلَد ت ٢٧٦هـ)، رواه عنه (مسلمة ابن قاسم)^(٤). وفي مصدر آخر ورد أن هذا الكتاب يُعرف بـ (المُسَكَّنَة)، وأنه مكون من ستة أجزاء^(٥). ولا أدري معنى هذا الاسم الأخير، ولا المقصود به. ولعله يدافع فيه عن الفقيه الشافعي الأندلسي أمام تيار المالكية الجارف في بلاده. أما أجزاءه الستة، فلعلها صغيرة، وتُمثَّل في مجموعها المجلد المذكور آنفاً.

* يلاحظ التفريق بين هذا المؤرخ الذي عاصر (المنصور بن أبي عامر ت ٣٩٢هـ)، وآخر بالاسم نفسه، وإن كان نسبه كاملاً، وول السوق أيام الأمير محمد، وتوفي في صدر أيامه، كما يذكر ابن الغرضي خطأ (وسوف أناقش ذلك عند دراسة كتابه في الباب التالي). المهم أنهما شخصيتان مختلفتان.

(١) هذه أوفى ترجمة له حتى الآن (الصلة، ط. الحسين) لابن بشكوال ج ١ ص ١٤٠. وله ترجمة مختصرة في: (الخنوفة ١/٣٠)، والبقية ٢٦٧، وتكملة الصلة - ط. الحسين - لابن الأبار ٢٧٢/١، والنفع ١٧٤/٣.

(٢) تكملة الصلة - ط. الحسين - ٣٨٤/١.

(٣) ترتيب المداكر ٦٧٩/٤/٢، وتكملة الصلة - ط. الحسين - ٢٩٦/١ - ٢٩٧، وكتاب بونس بوميس عن المؤرخين في الأندلس بالإسبانية ص ٩٨ (عن ترجمة خاصة إلى العربية بخط الدكتور عبد الله جمال الدين).

* له ترجمة في: البقية ص ٣٤٦ - ٣٤٧، ٣٥٠، والمغرب (قسم الأندلس) ١٨٦/١، وتاريخ ابن خلدون ١٨٤/٤، والنجوم ٣٤٦/٣.

(٤) تاريخ الإسلام ٤٥/٢٥، والنجوم ٣٤٦/٣.

(٥) تكملة كتاب الصلة لابن الأبار (ط. الحسين) ٧٨٠/٢. وحديث بالذكر أن له كتاباً في أخبار بني العباس سَمَّاه (العليل، والقتيل).

هذا، وقد احتفظ لنا ابن الأثير بجزء يسير من هذا الكتاب، أورده فيما يلي:

١- عيسى بن فطيس بن أصبغ بن عيسى بن فطيس الوزير: المكئي (أبا الأصبغ). له رواية عن (أحمد بن يحيى بن مخلد). ذكر ذلك أبو محمد (عبد الله بن الناصر) في (المسكنة)^(١).

٢- ترجمة لأحد المحدثين - فيما يبدو، وبها سقط - الموجود منها: ويكنى بأبي عون. ولم يذكر اسمه. له رحلة إلى صنعاء اليمن. وقع ذكره في (المسكنة) من تأليف الأمير عبد الله بن الناصر عبد الرحمن في (فضائل بقي بن مخلد)^(٢).

٣- أم الحسن بنت أبي لواء سليمان بن أصبغ بن عبد الله بن وانسوس بن يربوع المكناسي، مولى سليمان بن عبد الملك. روت عن (بقي بن مخلد). سمعت منه، وصحبه، وقرأت عليه بلفظها كتاب (الدهور)، وحضر ذلك ابنه (أبو القاسم أحمد بن يحيى)، وهو يحسب عليها كتاب الشيخ. قال الأمير عبد الله ابن الناصر عبد الرحمن بن محمد في (المسكنة): "كانت الزاهدة ابنة أبي لواء تسمع في داخل دار أبي عبد الرحمن (بقي بن مخلد) منه يوماً في الجمعة، منفردة بدولتها، يعني: بقي بن مخلد. ولها رحلة حجت فيها، وكانت امرأة صالحة زاهدة فاضلة عاقلة، وقع ذكرها في كتاب (فضائل بقي بن مخلد).

وذكرها الرازي، وقال: حجت وسمعت الفقه والحديث. وقد سمع منها بقي بن مخلد، ثم حجت حجة ثانية، فتوفيت بمكة، ودُفنت هنالك. هكذا قال. وسماع بقي منها غلط في ظني. والصحيح سماعها منه^(٣).

ب- محمد بن يحيى بن أحمد (ابن الحذاء القرطبي):

ولد سنة ٣٤٧هـ، وطلب العلم وهو ابن خمس عشرة سنة (٣٦٢هـ). له كتاب (الخطب، وسير الخطباء) في سفينتين. توفي سنة ٤١٦هـ^(٤).

(١) تكملة كتاب الصلة: (ط. مدريد ١٩١٥م): ص ٢٣٨ (وذكر اسم الكتاب بالنون، وهو تصحيف، وسيرد في النص التالي بالتاء، وهو الصواب).

(٢) السابق: ٢٦٦.

(٣) تكملة كتاب الصلة (ط. مدريد): ٤٠١-٤٠٢، وورد بعد ذلك أن (عبد الله) جد أبيها كان خيراً فاضلاً، وله رحلة حج فيها، وبنأ إليه بشر كثير يوم هيج الربض في عهد الحكم بن هشام ١٨٠-٢٠٦هـ، فأغلق عليهم باب مسجده وكان يوم جمعة، وكتب إلى الحكم في تأمينهم، فأجابهم، وسكن رؤسهم. وأرجح أن هذا من كلام ابن الأثير.

(٤) الصلة (ط. الحسيني): ج ٢ ص ٤٧٨-٤٨٠.

ملاحظات عامة:

١- من الملاحظ أن كتب السير التاريخية في الأندلس سارت في مسارين^(١) شبيهين بمسير نظائرها في مدرسة مصر التاريخية، وأن ما بقي من أسماء سير الحكام في الأندلس منحصر في سيرة (المنصور بن أبي عامر) مع التركيز على غزواته، كما في كتاب (حسين بن عاصم). أما في كتاب ابن معمر اللغوى في تاريخ الدولة العامية، فالظاهر أنه شمل سير ولديه بعده، وإن كنا نتوقع أن يُكتب معظم ما فيه عن المنصور بحكم طول فترة حكمه، وكثرة أحداث عصره، ومنجزاته بالقياس إلى ولديه من بعده، خاصة ابنه (عبد الرحمن)، الذى لم يصنع شيئاً قط، وتُسبب في هدم دولتهم، وانحيار خلافة بنى أمية. وبالنسبة لابن المشاط الرعبي، فلعل المنصور استحدث منصب صاحب (النظم)، وجعل للمؤرخين مكانة سامية في دولته، ونتوقع أن يكون كتابه عن (المنصور) جُمع بأمر منه، وامتلاً بأخبار عجائب انتصاراته الباهرة، فهو كتاب أقرب إلى المديح والمبالغة منه إلى التأريخ المحايد.

٢- وبخصوص كتابي (عبد الله بن الناصر)، و(ابن الحذاء)، فهما يمثلان النوع الثانى من كتب (السير التاريخية) بالأندلس. وقد كتب أولهما كتابه بدافع حبه وتقديره لواحد من أعظم فقهاء ومحدثي الشافعية في الأندلس. والمادة العلمية المتبقية منه لا تتناول صاحبه مباشرة، وإنما تتعرض لعدد من تلاميذه، الذين تلقوا العلم على يديه، أو على يد ابنه (أحمد). وثمة إشارة مهمة اتضحت من حديثه عن إحدى النساء الفضليات في الأندلس، فأعطتنا فكرة لا بأس بها عن مكانة العلم وانتشاره بين النساء، وما تمتعت به هذه المرأة من إقبال على طلبه في دار بقى، وفي حضور ابنه، في يوم محدد أسبوعياً، تقرأ عليه العلم فيه. وخرجت إلى المشرق حاجة، ولا يعد أن تطلب العلم هناك أيضاً. وبالنسبة للخطباء فهو كتاب أرجح صدوره في القرن الرابع الهجرى، وكما كنا نود الاطلاع ولو على جزء منه، فهو - على الأقل - يتناول بعض خطباء القرن الرابع المتميزين، ويأتى على رأسهم: (القاضى منذر بن سعيد البلوطى ت ٣٥٥هـ).

٣- أعتقد أن خليفة مثل: الناصر، وولده (المستنصر) لا بد أن يكونا قد حظيا بمن أفردهما بكتاب أو أكثر عن سيرة كليهما؛ نظراً لطول فترة حكمهما (خاصة الناصر)، وعظمة منجزاتهما داخلياً، وخارجياً. وإذا كان الأندلسيون ليسوا مؤلفين بتقديس حكامهم، وسريعي

(١) قد يكون هناك مسار ثالث عن (سير العابدين في الأندلس)، لكنى لم أعث على عنوان كتاب بهذا الشأن، وإن وجدت مادة عن نساء طالعن، وتدارسن سير العابدين، مثل: أم الحسن أخت القاضى (مندر بن سعيد البلوطى)، وهى امرأة فاضلة متعبدة، يقصدها عجايز ونساء صواخ في ناحيتها، يجلسن معاً للذكر والفقه، ويتدارسن سير العابدين. (ذكر ذلك ابن الأثير نقلاً عن ابن حبان في (تكملة الصلة - ط. مدريد) ص ٤٠٢ - ٤٠٣. وقد تكون هناك مؤلفات، رجعت إليها بشأن (سير العابدين).

الملل والسأم منهم خاصة أهل قرطبة، فيختلفوا بذلك عن المصريين، إلا أنني أعتقد أنه كانت هناك كتب عن هذين الخليفين العظمين، لكن ما تعرضت له الأندلس من محاولة المنصور الاستيلاء المطلق بالحكم، وإحراق العديد من كتب مكتبة المستنصر، ثم ما وقع من فتنه آخر القرن الرابع الهجري، أتت على ما كُتِبَ عن المنصور نفسه، ثم ما جرى لمكتبات الأندلس على يد نصارى الإيبان بعد ذلك، كل ذلك كفيل بإضاعة هذا التراث، الذي لو بقي لأثرى هذه الدراسة كثيراً.

وفي نهاية هذا الباب، أعتقد أننا حاولنا أن نعرض للاتجاه الأول من الاتجاهات الثلاثة المتبعة للتأليف التاريخي في ذلك القرن في مصر والأندلس، بقدر ما سمحت به المصادر والمادة العلمية المتوافرة. وبقي أن تنتقل إلى الباب التالي، واتجاه جديد للمؤرخين، يتناسب مع ازدهار الحركة العلمية في ذلك القرن، وهو اتجاه (التراجم والطبقات)، بإذن الله.

الباب الثاني

مؤرخو التراجم والطبقات

يحتوي هذا الباب الفصول الأربعة التالية:

- أولاً - المؤرخان المصريان: محمد بن الربيع الجيزي،
ومحمد بن يوسف الكندي.
 - ثانياً - المؤرخ الأندلسي: الخشني.
 - ثالثاً - المؤرخان الأندلسيان: ابن جلجل، والزبيدي.
 - رابعاً - المؤرخ الأندلسي: ابن الفرضي.
- خلاصة عامة مقارنة.

مدخل

نتناول - في هذا الباب الجديد - كتب (التراجم والطبقات في مصر والأندلس في القرن الرابع الهجري). ويمثل هذا الباب جانباً مهماً من جوانب المكتبة التاريخية في كلا الإقليمين في الفترة المشار إليها، وفي الموضوع المتحدث عنه. أما بالنسبة للفترة الزمنية، فالقرن الرابع الهجري يعد قرن النضج والازدهار في اتجاهات التأليف التاريخي في مصر، ويعد طفرة كبرى، في بلاد الأندلس، واكبت عصر الخلافة بما فيه من تقدم وازدهار حضارى. وأما الموضوع، فهو رصد دقيق وأمين لحركة النهضة العلمية في كلا البلدين منذ الفتح الإسلامى لهما حتى عصر مؤرخي هذه الحركة، وذلك من خلال تصوير البيئة العلمية لعلماء مصر والأندلس، مما قد لا نجده في كتب (التاريخ العام)، أو حتى في كتب (الحوادث التاريخية المحلية).

وأحب أن أشير - في هذا المدخل - إلى أمرين مهمتين:

الأول - أن عملي في هذا الباب قائم على دراسة أبرز وأهم كتب التراجم والطبقات في مصر والأندلس؛ إذ لا يتسع المجال للإحاطة بكل صغيرة وكبيرة من الكتب المؤلفة؛ نظراً لكثرتها الكاثرة، ولفقد معظمها^(١)، حيث لم يبق منها سوى القليل، الذى نحاول - من خلاله - عرض صورة شاملة متكاملة - ما أمكن - لمنجزات مؤرخينا في هذا النطاق.

الثاني - أن الدراسة منصبة - أساساً - على المؤرخين المصريين، الذين ترجموا لعلماء بلدهم خاصة، وكذلك نركز في دراسة المؤرخين الأندلسيين على أعمامهم التى ترجموا فيها لعلماء الأندلس. أما ما كان خارج علماء بلديهما، فهو خارج عن نطاق البحث^(٢)، فلا أفرده بالدراسة والتحليل المنهجي، وإن كان ذلك لا يمنع من الاستفادة منه عند تلمس الملامح الشخصية لمؤرخينا عند الترجمة لهم، والتعريف بهم. وكذلك لا تخضع للدراسة تلك الكتب التى أخذت شكل التراجم، لكنها أَدْخِلُ في علم آخر كعلم الرجال مثلاً^(٣)، منها في علم (التاريخ).

(١) ويمثل ذلك في الأندلس، إذ اهتم الأندلسيون بوضع مؤلفات في تراجم علماء كثير من أقاليم الأندلس. وكثيراً ما تطالعا المصادر بأسماء مؤلفات في تراجم المحدثين والفقهاء في أقاليم، مثل: رُبّة، وطليطلة، وقرطبة، وغيرها. وهذا يُبَدِّ عن الحصر، كما أنها مفقودات لا نكاد نعر منها إلا على اثر السير.

(٢) مثل: كتاب (علماء إفريقية) لنحشى، وفيه يترجم هذا المؤرخ لعلماء إفريقية، ونحن بهما ما ألفه عن علماء الأندلس فحسب.

(٣) مثل: كتاب (الألقاب) لابن الغرضي، وكتاتبي: (المؤتلف والمختلف)، و(مشته النسبة)، لعبد الغنى بن سعيد المصرى (ت ٤٠٩هـ).

هذا، وقد بدأتُ هذا الباب بدراسة (كتب التراجم في مصر)، فهي المدرسة الأم والأقدم، ذات التأثير في المدرسة التاريخية الأندلسية فيما مضى، بل كان مؤرخو الأندلس عالة على المؤرخين المصريين في كتابة (التاريخ الأندلسي في أحداث الفتح الإسلامية الأولى).

والملاحظ على كتب المؤرخين المصريين في مجال التراجم أنها جميعها تنسم بسمة واضحة، هي أنها كلها (مفقودة). فلم أجد - فيما طالعته - كتاباً مطبوعاً، ولا حتى مخطوطاً، يمكن أن نستغنى به عن مشاق وصعوبات البحث عن بقايا المفقود، وتجميعه، وتنسيقه، وعرضه على نحو أقرب ما يكون - قدر الجهد والاستطاعة - لصورته الأولى، التي تركها عليها صاحبه.

وإزاء ما تقدم، فقد كان لزاماً عليّ أن أخوض غمار البحث عن المفقود. وقد تمكنتُ من تجميع بقايا كتب أربعة في هذا المجال:

أولها - عن الصحابة الذين دخلوا مصر. وقد ألفه محمد بن الربيع الجيزي (ت ٣٢٤هـ)، وهو يُعدُّ تطويراً وتفصيلاً لما بدأه ابن عبد الحكم في القرن الثالث الهجري^(١).

وثانيها - كتاب ترجم فيه ابن يونس لعلماء مصر منذ الفتح الإسلامي حتى عصره.

وثالثها - كتاب للمؤرخ السابق نفسه، يكمل به كتابه السالف، وفيه يترجم للعلماء الوافدين على مصر.

وأخيراً - يأتي كتاب المؤرخ المصري الكندي، الذي ترجم فيه لنوعية خاصة من علماء مصر، وهم (الموالي).

وقد تراوحت بقايا هذه الكتب بين القلة (كما في الكتابين: الأول، والرابع)، والكثرة

(١) إذا كان ابن عبد الحكم يركز على ما تيسر من الأحاديث التي رواها الصحابة في مصر (وذلك في القسم السابع والأخير من كتابه: فتوح مصر وأخبارها ص ٢٤٨ - ٣١٩) فإن ابن الربيع الجيزي يبدو مهتماً بصورة أكثر بالترجمة لهؤلاء الصحابة، مع محاولة حصر أعدادهم. وحديث بالذکر أن استبعدتُ المحدثُ المؤرخ البغدادى الأصل (أبا عليّ سعيد بن السكّر، المتوفى سنة ٣٥٣هـ) من الدراسة، رغم أنه أتى إلى مصر، واستقر بها على ما يبدو. (سير أعلام النبلاء ١١٧/١٦ - ١١٨، وحسن المحاضرة ٣٥١/١ - ٣٥٢)، لأن كتابه عن (تاريخ الصحابة) لا يقتصر على الترجمة للصحابة، الذين نزلوا مصر على نحو ما صنع ابن الربيع الجيزي في كتابه، وإنما - ومن خلال بقاياه المفقودة - يتضح أنه كتب كتاباً عاماً عن الصحابة في مختلف الأقاليم الإسلامية لا في مصر وحدها. ونحن لا نستطيع معرفة نسبة ما ذكره عن صحابة مصر إلى ما ذكره عن سواهم؛ لأن الكتاب مفقود، ونصوصه المتبقية قليلة، ومعظمها تعليقات حديثة على مرويات هؤلاء الصحابة، كما أننا لا ندرى مكان تأليفه إياه (في بغداد، أو في مصر). ومن هنا كان لا يصلح للدراسة وفق منهجنا.

(كما في نتاج ابن يونس)^(١). وفي ضوء ما جُمع حاولتُ استنباط الملامح العامة لمنهج المؤرخين المصريين من خلال بقايا كتبهم المفقودة.

وأما بخصوص الأندلس، فالكتب الأربعة - محل الدراسة - كلها مطبوعة بحمد الله. وقد بدأ الخشنى بالترجمة لأهم فقهاء ومحدثي الأندلس، بينما اهتم ابن جلدل بالتأريخ لطبقات الأطباء، بينما ترجم المؤرخ اللغوي الزبيدي لعلماء النحو واللغة على مختلف طبقاتهم وبلاذهم^(٢). وأخيراً أتى ابن الفرضي؛ ليكون مسك الختام، إذ أطلّ على علماء الأندلس إطلالة عامة شاملة، وقام بالترجمة لما تيسر له منهم على مختلف علومهم واختصاصاتهم، فأفاد من سبقه، وأضاف إلى جهودهم جهداً مشكوراً. وقد قمتُ بتحليل مناهج هؤلاء المؤرخين بعد الترجمة لهم على النحو المعتاد.

وفي النهاية، أتت زبدة هذا الباب المطوّل، ممثلة في جوانب المقارنات المتعددة، التي عقّدتُها بين مؤرخي البلدين في مجال (التراجم والطبقات)؛ وذلك لرصد أوجه الاتفاق والاختلاف بينهم، وبيان أوجه العلاقة القائمة على قدر ما سمحتُ به المادة العلمية في المصادر المختلفة، مع الوضع في الاعتبار أننا نقارن بين نتاج مفقود، وآخر كامل مطبوع.

(١) وأحب أن أشير - في هذا الصدد - إلى أن هذا الكتاب يخلو من دراسة كتابي ابن يونس المشار إليهما سلفاً؛ لأنني جمعت ما تيسر لي منهما، وقمت بدراستهما دراسة مفصلة في عمل علمي مستقل، نشر في مجلدين اثنين في (دار الكتب العلمية بيروت) سنة ٢٠٠٠م.

(٢) أدخلتُ كتابي: ابن جلدل، والزبيدي، رغم أنهما لم يقتصرَا على أطباء الأندلس، ونحويها ولغويها؛ لأن الكتابين مطبوعان، وهذه ميزة مهمة، تساعدنا على تعرف منهج المؤرخين وغايتهم في عرض أجزاء كتابهما، وتفتح أمامنا مجالاً للدرس والمقارنة بين اهتمام كل بلد، وبغيرها من البلاد، ونصيب كل في الإسهام العلمي في مجال: الطب، والنحو واللغة. بالإضافة إلى أنهما النموذجان الوحيدان، اللذان تم ترتيب مادتهما على الطبقات في هذه الدراسة، كما أنهما ترجما لنوعية جديدة من العلماء، أفردا لهم هذين الكتابين، وتلك ظاهرة فريدة، تستأهل التأمل والدرس.

الفصل الأول

المؤرخان المصريان:

(محمد بن الربيع الجيزي، ومحمد بن يوسف الكندي)

أولاً - (مؤرخو التراجم في مدرسة مصر التاريخية)

(١) المؤرخ المصري (ابن الربيع الجيزي)

تقديم:

نبدأ في دراسة (مؤرخي التراجم) في مصر — (المؤرخ المصري محمد بن الربيع الجيزي)، وكتابه الذي يترجم فيه للصحابة، الذين نزلوا مصر. ويتقدم تلك الدراسة — على ما تعودنا — تعريفاً بهذا المؤرخ. ومن الملاحظ أن المعلومات الواردة عنه في المصادر نادرة، وسأحاول عن طريق هذه المادة، ومن خلال ما ورد عن والده (الربيع بن سليمان الجيزي)، إلقاء الضوء على ثقافة وحياة هذا المؤرخ، والبيئة العلمية التي نشأ في رحابها قدر المستطاع.

والده: ويمكن تركيز الحديث عنه في النقاط الآتية:

١ - هو أبو محمد، الربيع بن سليمان بن داود الأزدي، مولاهم المصري^(١) الجيزي^(٢)، المعروف بـ (الأعرج)^(٣).

(١) وقع أكثر من خطأ في ترجمته—لمه من السخا—في (تقريب التهذيب) لابن حجر: ٢٤٥/١؛ إذ لُقّب بـ (المصري) بدل (المصري)، وقيل في نسبه: (الجيزي المرادي)، وهذا خلط بينه وبين الربيع المرادي، فصاحبنا هذا هو (الأزدي بالولاء، الجيزي المصري).

(٢) نسبة إلى الجيزة؛ وهي بُلْدَة في غربي قُسطاط مصر قُبْلَها، يفصل بينهما عرض النيل، والأهرام في عملها، وبالقرب منها. وقد سكنها عقيب فتح الإسكندرية بعض قبائل العرب من جند هَمْدَان، والأزد، وغيرهم. (معجم البلدان ٢/٢٣٢، ووفيات الأعيان ٢/٢٩٣).

(٣) تفرد ابن خلكان بجعله الحَدِّ الأكبر للربيع (الربيع بن سليمان بن داود بن الأعرج الأزدي بالولاء). (المصدر السابق: ٢/٢٩٢). واعتقد أن الصواب على خلاف ذلك، وهو ما أجمعت عليه المصادر الأخرى، فجعلته لقباً للربيع. وصرّح ياقوت بذلك، فقال: ويكنى أبا محمد، ويعرف بـ (الأعرج). (معجم البلدان ٢/٢٣٢).

وهذا النسب^(١) يعني: أنه يُنسب إلى قبيلة (الأزد) بالولاء، وأنه عاش على أرض مصر؛ مولداً وحياة و وفاة، كما سنرى بعد قليل. ويتضح - أيضاً - أنه عاش بالجيزة، ولُقّب بلقب الأعرج؛ ربما لعرج كان في إحدى رجلتيه.

٢ - ولد الربيع بن سليمان بعد سنة ١٨٠هـ^(٢)، وتوفي - في الغالب - يوم الأحد لليلتين بقيتا من شهر ذي الحجة سنة ٢٥٦هـ^(٣)، عن عمر يفوق السبعين عاماً. وخلال هذه الفترة من عمره المبارك اهتم بتحصيل العلم وروايته. ويأتي الحديث النبوي الشريف على رأس العلوم، التي تلقاها على يد أعلام المحدثين في مصر^(٤) من أمثال: إسحاق بن بكر بن مضر، وأسد ابن موسى^(٥)، وأصبغ بن الفرج، وطلّح بن المسّح الإسكندراني^(٦)، وعبد الله بن عبد الحكم (وأكثر في الرواية عنه)^(٧)، وعبد الله بن وهب، وغيرهم^(٨). ومن روى عنه من علماء مصر: الإمام أبو جعفر الطحاوي^(٩).

وكانت للربيع بن سليمان صلات علمية بالعلماء من خارج مصر، فروى عن (إسماعيل بن أبي أُوَيْس)، وغيره من أهل المدينة^(١٠). وروى عنه: أبو داود، والنسائي^(١١)، ومحمد بن بسطام

- (١) ورد هذا النسب صحيحاً كاملاً في: تذيب الكمال ٨٦/٩، وسم أعلام النبلاء ٥٩١/١٢، وتذيب التهذيب ٢١٢/٣.
- (٢) تفرد هذا النص ابن حجر في (المصدر السابق) ج ٣ ص ٢١٣، نقلاً عن الكندي في كتاب (الموالي) المفقود، ولا أدري سر عدم تحديد تاريخ ولادته قبل ذلك، لكنني أعتقد أن ولادته لا تتأخر عن سنتي: ١٨١، ١٨٢هـ؛ كي تستقي له الرواية عن أستاذه (عبد الله بن وهب)، الذي استمر من الوالي (عبد بن محمد) لما أراد توليته القضاء؛ مما جعله يولي (لهيئة بن عيسى) بدلاً منه في مستهل شعبان ١٩٦هـ، ومات بعدها ابن وهب بحوالى عام (١٩٧هـ). (القضاء، للكندي ص ٤١٧، ووفيات الأعيان ٣٦٣/٣).
- (٣) تذيب الكمال ٨٧/٩، وتذيب التهذيب ٢١٢/٣. وهو أصح من تاريخ ٢٥٧هـ، الذي ذكره البعض بصيغة الظن (قيل)، إلى جانب التاريخ الراجح (سنة ٢٥٦هـ). ذكرهما معا: السبكي في: (طبقات الشافعية الكبرى ٢/ ١٣٢، وطاش كبرى زاده في: (مفتاح السعادة) ٣٠١/٢.
- (٤) تذيب الكمال ٨٦/٩.
- (٥) ذكر السيوطي أنه أحد حفاظ الحديث في مصر، وجعل الربيع بن سليمان الجيزي أحد الرواة عنه، وجعل هذا العالم الملقب بـ (أسد السنة) ممن توفوا سنة ٢١٢هـ. (حسن المحاضرة ٣٤٦/١).
- (٦) توفي سنة ٢١١هـ، وهو أحد مشاهير أتباع التابعين، الذين وردت لهم أحاديث في الكتب الستة. (حسن المحاضرة ٢٨٦/١).
- (٧) وفيات الأعيان ٢٩٢/٢.
- (٨) مثل: عبد الله بن يوسف التميمي، وأبي الأسود النضر بن عبد الجبار. (تذيب الكمال ٨٦/٩، وتذيب التهذيب ٣/ ٢١٢، وإن كان قد وقع فيه خطأ في اسم والد النضر، فذكر أنه (عبد الحميد) بدلاً من (عبد الجبار).
- (٩) سم أعلام النبلاء ٥٩١/١٢، وتذيب التهذيب ٢١٢/٣.
- (١٠) الأنساب، للسمعاني ١٤٤/٢. راجع ترجمته في (تذيب التهذيب): ٢٧١/١ - ٢٧٣.
- (١١) سم أعلام النبلاء ٥٩١/١٢، وتذيب التهذيب ٢١٢/٣.

ابن رجاء الضبيّ السُوسيّ (ت ٣١٣هـ) لما رحل إلى مصر^(١).

٣ - يعدد (الربيع بن سليمان الجيزي) أحد فقهاء المذهب الشافعي، وواحدًا من علمائه، الذين تلقوا على أيدي مؤسس المذهب^(٢)، إلا أنه كان أقل تلاميذه رواية عنه^(٣)؛ مما دفع البعض للتشكيك في تلقيه على يد الإمام الشافعي^(٤)، بالإضافة إلى الخلط بينه وبين قرينه (الربيع بن سليمان المرادي)، الذي فاقه شهرة، ورواية، ومصاحبة للشافعي^(٥).

والخلاصة:

أن الإمام (الربيع الجيزي) من علماء الحيزة (المُبَرِّزين)^(٦)، وكان من الرجال الصالحين^(٧)، الذين أحسبوا الحديث، فأكثروا من روايته، وكان مأموناً ثقة^(٨). وكان من فقهاء الشافعية المقلّين، ولم يُؤثّر عنه وضعه مؤلفات في الحديث أو الفقه، كما لم تُعرف عنه اهتمامات بعلم التاريخ.

(١) الديباج المُذنب: ١٨٨/٢.

(٢) ذكرت كثير من المصادر أنه روى عن الشافعي (تذنب الكمال ٨٦/٩، وسر أعلام النبلاء ٥٩١/١٢، وتذنب التهذيب ٢١٢/٣). ونص البعض صراحة على أنه صاحب الشافعي (تذنب الأسماء واللغات للنزوي، ١ ج ١ ص ١٨٧، وفيات الأعيان ٢٩٢/٢).

(٣) ذكر البعض قلة رواية الربيع الجيزي عن الشافعي دون ذكر نماذج من ذلك القليل (مثل: ابن العماد الأصفهاني في شذرات الذهب ١٥٩/٢ - ١٦٠، وعبد الحليم الجندی في: الشافعي ناصر السنة ص ٢٥٥). وقد أثر عنه أنه روى عن الشافعي في الفقه في موضعين اثنين: في كراهية قراءة القرآن بالألحان، وفي أن شَعْرَ المِئْتَةِ يَطْهَرُ بالدباغ تبعاً للجلد. (طبقات فقهاء الشافعية للعبادي ص ١٦، وطبقات الشافعية، للسبكي ١٣٢/٢، والإسنوي ٣١/١، ولابن هُدَايَةَ الله الحسيني ص ٢٥). وقد أشار سركيس في (معجم المطبوعات العربية والمعربة) ص ٤٦٩، إلى أن الربيع الجيزي روى عن الشافعي كتاب: (اختلاف الحديث)، وأنه مطبوع بمهامش كتاب (الأم). فإن صحّت تلك المعلومة، فهي إضافة جديدة لما رواه الربيع الجيزي عن الشافعي، تدعم صحته له، وتتملذه عليه في بحالي: (الحديث، والفقه).

(٤) الأنساب ١٤٤/٢، والشافعي: حياته وعصره، لأبي زهرة ص ١٦٣ - ١٦٤.

(٥) ترجم السبكي للربيع المرادي (ت ٢٧٠هـ) في (طبقات الشافعية): ١٣٢/٢ - ١٣٩. وذكر الإسنوي في طبقاته ٣١/١: أن ما رواه المرادي عن الشافعي كثير، وأنه إذا أُطلق (الربيع) فقط، فالمرادى هو المقصود.

(٦) عاش الربيع بالحيزة، وما مات، ودُفن. (حسن المحاضرة ٣٩٨/١).

(٧) وفيات الأعيان ٢٩٢/٢. ويستدل على ذلك بما رواه ابن حنبلان في (المصدر السابق)، والقنوجي في (التاج المُكَلَّل ص ٤٧: أنه كان راكباً بمصر، فسقط رماد على ثيابه، فنفذه ولم يتكلم، فقبل له: ألا تزجرهم ١٩ قال: من استحق النار ووصلح بالرماد، فقد ربح. وذلك دليل على فرط صلاحه، وتقواه.

(٨) تذنب الكمال ٨٧/٩، وسر أعلام النبلاء ٥٩١/١٢، وخلاصة تذهيب تذنب الكمال ٣١٩/١.

(١) المؤرخ المصرى (محمد بن الربيع الجيزى ٢٣٩ - ٣٢٤هـ) (*):

يمكن التعريف به فيما يلى:

أ - هو أبو عبد الله^(١)، محمد بن الربيع بن سليمان بن داود الجيزى المصرى. ولد سنة ٢٣٩ هـ، وتوفى في شهر ربيع الأول سنة ٣٢٤ هـ^(٢)، عن عمر يبلغ الخامسة والثمانين عاماً.

ب - كان اتجاه محمد بن الربيع إلى تحصيل علوم عصره اتجاهاً ذاتياً فطرياً في الغالب الأعم^(٣).

وقد اتجه إلى تعلم القراءات القرآنية، فتلقها على يد العالم المشهور (يونس بن عبد الأعلى)^(٤). ويبدو أنه أنفق في ذلك وقتاً ثميناً طويلاً من عمره، حتى بلغ منزلة سامية، أهّلته لأن

(*) تعرض هذا المؤرخ لإهمال شديد من مؤلفي (التراجم)، فلم يحظ بالقدر المطلوب للتعريف به وإلقاء الضوء الكافية على حياته. ويلاحظ أن المصادر اهتمت بالترجمة لوالده (الربيع الجيزى) على حساب الترجمة لانه المؤرخ، وحيث المصادر التي ترجمت لابن الربيع، معلوماً - في الغالب - سطحية، ومكررة. وقد بذلت ما في وسعي من جهد لكثافة ترجمته في ضوء المادة المتاحة فيما يلى: (الإكمال ٤٦٣/٣، والأنساب ١٤٤/٢، ومعجم البلدان ٢٣٢/٢، وتاريخ الإسلام ١٦٦/٢٤، ووظائف القراء لابن الجيزى ١٤٠/٢، ونبصير المشتبه ٣٦٤/١ (اكفى بذكر اسمه، وعرف بانه سرياً)، ومقدمة حسنت بالإنجليزية لكاتبى (الولاء، والنقضاء) للكندى ص ٢٠). أما السيوطي، الذي كما ننتظر منه ترجمة وافية - وهو أعرف نقدره مؤرخاً، واحتفظ لنا بجزء لا بأس به من كتابه: تاريخ الصحابة، كما سترى - فإنه ذكره ضمن قوائم المؤرخين في مصر (حسن المحاضرة ٥٣٣/١)، وذكر أنه (متر)، أى: سقت ترجمته، ومسح الكتاب ثم نجد أية ترجمة لمؤرخنا المذكور، وتلك واحدة من هفواته في هذا الكتاب.

(١) اختلفت المصادر في كنيته، فالبعض كُناه بـ (أبي عُبيد الله)، مثل: (الانتقاء) لابن عبد البر ص ١١٣، وتاريخ الإسلام ١٦٦/٢٤. بينما جعله البيهقي (أبا عُبيد) في: (منابغ الشافعي) ج ١/٢١٧. وبعضهم خلط في كنيته بين اسم جده الثاني (داود)، وبين كنية محرفة (عبيد الله)، فذكرت له كنيان: (أبو داود)، وأبو عُبيد الله. (طبقات القراء) لابن الجيزى ١٤٠/٢. هذا، وقد اكتفى د. البري بقل ذلك، مع الإشارة إلى وجود خلط بين اسمه (والصواب: اسم جده الثاني)، وكنيته (والصواب: كنيته المحرفة)، ولم يصرّح خطأ، أو يفتق المسألة. (القرآن وعلومه في مصر ص ٢٦١، وهامتها رقم ٣). وأتته عدد من المصادر إلى تكتبته بـ (أبي عبد الله)، كما في: (مخطوط تاريخ عثماني أهل مصر)، لابن الطحان، ورقة ٢٣٩، والأنساب ١٤٤/٢، ومعجم البلدان ٢٣٢/٢، ومعجم الأدباء ٥١/٣، وابن حجر في (الإصابة) ج ٧ ص ٣٨٥. والزاجح - عدى - رأى الأحرار، لكثرة التباين به، ووثاقته خاصة ابن الطحان، أفدهم، الذي عقد في باب (العين) ترجم من يُسمون بـ (عُبيد الله)، هكذا ضبطها. وكان من هذا الباب (عبد الله بن محمد بن الربيع)، الذي به يكفى مؤرخنا. وامتد هذا الباب من ورقة ٢٣٨ إلى ورقة ٢٤٠. أما المصادر الأخرى، ففعل الساجح حرقوا عبد الله إلى (عبيد الله).

(٢) تاريخ الإسلام ١٦٦/٢٤.

(٣) وذلك لأن أباه نوح وهو ابن سبعة عشر ربيعاً، فلم يكن تأثره العنمي فيه كبيراً، وإن كان له بعض الأثر في توجيهه، كما ينضح من بعض روايات له عن والده، سراها فيما بعد. ويبدو أن همه للعلم منذ الصغر، وما خلفه أبوه من روايات كان له أثر في تحصيله العلوم.

(٤) وفيات الأعيان ٢٥٠/٧، ووظائف القراء ١٤٠/٢.

يكون مقصد طلاب القراءات، فروى عنه، وتلمذ عليه: جعفر بن أحمد البزاز، ومحمد بن إبراهيم بن زاذان^(١)، وغيرهما. ويبدو أن شهرته في علم القراءات جعلت طلاب العلم يتلقون عليه القراءة، سواء كان ذلك خارج مصر، أم داخلها. فمثلاً: روى عنه القراءة (أبو بكر، محمد ابن إبراهيم بن علي بن عاصم المقرئ) بمكة، ثم أتى إليه في مصر؛ للتلقى عليه ثانية في أخريات حياة (ابن الربيع الجيزي) سنة ٣١٦هـ^(٢).

ج - ويأتى الحديث النبوى الشريف على رأس العلوم، التى شكّلت ثقافة ابن الربيع الجيزي. فقد روى عن: والده (الربيع بن سليمان الجيزي)، ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم، والربيع المرادى، ويونس بن عبد الأعلى، وغيرهم^(٣). هذا، وقد قصد ابن الربيع عدد من علماء الأقاليم الإسلامية الأخرى، فتلقوا عليه الحديث، منهم: سعيد بن خلف القيرواني^(٤)، وأحمد بن هلال بن زيد العطار القرطبي^(٥)، وأحمد بن سعيد بن حزم بن يونس الصدي القرطبي أيضاً^(٦)، ومحمد بن عبد الله بن خالد الخراساني (نزىل مصر)^(٧).

لم يُخَلَّف لنا (ابن الربيع الجيزي) مؤلفات حديثة^(٨)، ولكن بعض المصادر احتفظت لنا بتعريف مقتضب بولده: عبد الله^(٩)، والربيع، اللذين كانا من المشتغلين برواية الحديث، خاصة ثانيهما الذى سمع من عبيد الله^(١٠) بن سعيد بن عفير، وعبد الله بن محمد بن أبي مريم، وكتب عنه قوم من أصحاب الحديث، وتوفى في شهر ربيع الأول سنة ٣٤٢هـ^(١١).

د - أعتقد أن ابن الربيع كان من المنتمين إلى المذهب الشافعى كوالده (رحمه الله تعالى).

(١) السابق ١٤٠/٢.

(٢) طبقات القراء ٤٤/٢.

(٣) المدارك ٦٣/٣/٢، والأنساب ١٤٤/٢.

(٤) تكملة الصلة (ط. مدرسد): ص ٣٢٣.

(٥) تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس (ط. الخانجي)، لابن الفرضي ٥٨/١ - ٥٩.

(٦) وكان من كبار محدثي الأندلس (ت ٣٥٠هـ)، وله تاريخ في تراجم المحدثين مفقود. وقدم إلى مصر، وتلمذ على يد ابن الربيع (تاريخ العلماء والرواة، لابن الفرضي ٥٦/١، ومعجم الأدباء ٥٠/٣ - ٥٢).

(٧) تهذيب التهذيب ٢٢٦/٩.

(٨) الموحود قليل من الروايات الحديثة (منها): ما ورد في: تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس: ١١٨/٢ - ١١٩، وذيل تاريخ بغداد لابن النجار ٣٤٨/٣.

(٩) راجع ترجمة مقتضبة عنه في مخطوط تاريخ علماء أهل مصر) ورقة ٢٣٩، حيث ورد بها: أنه يكنى (أبا بكر). روى عن أبيه. ثم قال ابن الطحان: حدثونا عنه.

(١٠) ورد في (الإكمال) ٤٧/٣ باسم عبد الله، وهو تحريف صوابه ما ذكرته في المتن (راجع فهرس أعلام الولاة والقضاة للكندي ص ٦٥٢).

(١١) الإكمال ٤٧/٣، وتبصر المنبه لابن حجر ٣٦٤/١.

وقد وجدتُ بعض إشارات يسيرة تشير إلى ذلك، منها: مصاحبته لمحمد بن عبد الله بن عبد الحكم (ت ٢٦٨هـ) — تلميذ الإمام الشافعي، وروايته عنه ما يتعلق بمناظرات الشافعي الفقهية في مصر، وأنه كان يبدو متحمساً على النيرة، قوى الحجة، منصفاً في مناقشته خصوصه^(١). وكذلك روى عن محمد هذا أنه سمع من الشافعي كتاب (أحكام القرآن) في أربعين جزءاً، وكتاب (الرد على محمد بن الحسن) في سبعة أجزاء^(٢). ويترجح لدى أن (ابن الربيع الجيزي) تلقى قدراً من الفقه الشافعي على محمد هذا خلال مصاحبته إياه، أو أنه استعار منه بعض كتب الشافعي، التي كانت في بيت بني عبد الحكم، مثل: (سنن الشافعي)^(٣).

هـ - كان (ابن الربيع الجيزي) يتمتع بقدر لا بأس به من علوم عصره ومعارفه، رغم ندرة المادة العلمية عنه في المصادر المتاحة، وعدم وجود ما يفيد أنه ألف كتباً في أي من المجالات السابق تعرضنا لها. لكن الشيء اليقيني أن هذا القدر من العلوم، بالإضافة إلى ما يجب أن يكون عليه من سمعة طيبة بين الناس، ونزاهة وعدالة وأمانة، وأخلاق فاضلة، إلى جانب اختلاطه بأفراد مجتمعه، ومعرفته بهم عن كثب، وإطلاعه الواسع على ظروفهم وحياتهم، ودقائق أمورهم، لا شك أن ذلك كله جعله جديراً بأن يكون مقدماً في شهود مصر^(٤)، مقبولاً لدى قضائها، ذا دور فعال مؤثر في إقامة ميزان العدالة لها، ورد الحقوق إلى أصحابها^(٥)، بل كان على قدر من العلم والخلق جعله في مصاف كبار فقهاء عصره؛ مما دفع قاضياً من أعظم قضاة مصر علماً وفقهاً وثقافة، وخلقاً ومهابة وعدالة وحرماً، يحرص على مجالسته؛ لمذاكرة العلم معه^(٦)، بل يجعل من كلمة نطق بها (ابن الربيع الجيزي) سيفاً مسلطاً على رقبة أحد فقهاء الشافعية البارزين في عصره^(٧).

(١) مناقب الشافعي، للبيهقي: ج١/٢١٧.

(٢) الانتقاء: لابن عبد البر: ص١١٣.

(٣) المصدر السابق: ص١١٣. ولعل في تلمذ (أبي الحسن) علي بن محمد بن إسحاق الجبلي الفقيه القاضي الشافعي نزول مصر (٢٩٥ - ٢٩٦هـ) على يد ابن الربيع - في الفقه على الراجح - دليلاً على بلوغه منزلة جيدة في مجال الفقه الشافعي (سمر أعلام النبلاء ١٦/٥٥٣).

(٤) الأنساب ١٤٤/٢، ومعجم البلدان ٢/٢٣٢.

(٥) كشاهدته في قضية، تظلمت فيها امرأة من محمد بن علي الماذرائي، فظهرت براعة الرجل أمام القاضي أبي عبيد، علي بن الحسين بن حرب. (راجع تفاصيل القضية في: رفع الإصر ج٢ - ص٣٩٧ - ٣٩٨).

(٦) كان القاضي (ابن حرب) ٢٩٣ - ٣١١هـ حريصاً على مذاكرة العلم، فكان له مجلس كل عشية، يتدارس فيه مع أحد كبار علماء مصر آنذاك، فمرة يجلو بالفقيه الشافعي (منصور بن إسماعيل التميمي ت ٣٠٦هـ)، ومرة بأبي جعفر الطحاوي الفقيه الحنفي (ت ٣٢١هـ)، ويوماً بـ (محمد بن الربيع الجيزي الفقيه، والمحدث الشافعي، والمؤرخ المصري)، وهكذا. (وفيات الأعيان ٥/٢٩١).

(٧) تذكر المصادر أن العلاقة بين القاضي ابن حربويه، والفقيه الشافعي (منصور بن إسماعيل) كانت وطيدة، إلى أن وقع خلاف فقهي بينهما (في عهد الوالي ذكاً ٣٠٣ - ٣٠٧هـ) حول نفقة المطلقة ثلاثاً، فوقع الخلاف =

و - وأخيراً، ماذا عن (محمد بن الربيع الجيزي) مؤرخاً؟ الحق أن التزعة التاريخية لدى مؤرخنا (ابن الربيع) لها جذور متأصلة داخله منذ فترة مبكرة، ومن خلال اهتماماته بالحديث والمحدثين، والفقه والفقهاء؛ بدليل ما رواه عن اجتهاد المحدث (علي بن المديني ت ٢٣٤هـ) في طلب العلم^(١)، وما رواه بمكة عن (يحيى بن بُكَيْر) فيما يتصل بتاريخ ميلاد (الفقيه الليث بن سعد ت ١٧٥هـ)^(٢). وفي اعتقادي أن الرجل ظل يُطَوَّف بين علوم القراءات، والحديث، والفقه فترة طويلة من حياته، ثم حطَّ رحاله - في النهاية - عند (علم التاريخ). ولربُّ سائل يسأل: هل له من آثار تاريخية تشهد له بالولوج في عالم (المؤرخين)؟ وإذا كانت له تلك المصنّفات، فأين هي الآن؟ ثم إذا أمكن العثور عليها بصورة أو بأخرى، فهل صاحبها الذي عاش ما يزيد على ستين عاماً من عمره المديد في القرن الثالث الهجري، بينما عاش أقل من ربع قرن في القرن الرابع الهجري، يصلح أن يدخل في عداد مؤرخي مصر في القرن الرابع الهجري؟! أجب عن التساؤلات السابقة، فأقول: إن كل الثقافات التي اكتسبها مؤرخنا (ابن الربيع الجيزي) في فترة حياته التي غطت القرن الثالث الهجري، وصلاته بالقضاة والقضايا من خلال

- والعداء. وزاد الأمر تعقيداً أن ابن الربيع الجيزي سمع الفقيه منصوراً، يقول مقالة للنظام المعتزلي (يسدو أنفاً تمس العقيدة)، فأبلغها للقاضي ابن حريويه كشهادة على ذلك الفقيه، فقال القاضي: إن شهد عددي شاهد آخر، مثل: محمد بن الربيع الجيزي، ضربت عنق منصور، فهلَّع منصور، وخشى على نفسه، ولزم جامع ابن طولون، لا يخرج منه إلى المساء، محزوناً مغموماً. ثم اتفق أن مات منصور بعدها بقليل (أيام يسيرة) في جمادى الأولى سنة ٣٠٦هـ، فكان يعتقد أن القاضي جنى عليه بنهديه إياه، حتى إن الحند والعامّة كادوا يفتكون بالقاضي؛ لتعصّبهم لمنصور، فلم يخرج القاضي للصلاة عليه، فصلى عليه الوالي (ذكا)، الذي كان متعصباً له في خلافه مع القاضي (معجم الأدباء ١٩/١٨٥ - ١٨٦، ووفيات الأعيان ٥/٢٩١ - ٢٩٢، والمغرب (قسم مصر) لابن سعيد ٣٠٦، وطبقات الشافعية للسبكي ٣/٤٧٩ - ٤٨٠). والحق أن أفسر هذه الوقائع تفسيراً، يرجع إلى سوء الفهم والاندفاع والدُّد في الخصومة دون داع، فأساس الخلاف: أن القاضي ذكر - وهو يذّكر الفقيه منصوراً الضير - أن هناك من يزعم أن لا نفقة للمطلقة ثلاثاً، فاندفع منصور بئى الإسلام عن قاتل ذلك. فلما انصرف، حدّث بذلك الفقيه ابن الحداد، ناسباً القول إلى القاضي (وهو لم يقله). فلما ناقش ابن الحداد القاضي، أنكر نسبة ذلك الكلام إليه، ووقعت مشادة بين منصور والقاضي، كل يكذب الآخر، حتى طرده القاضي من مجلسه، ورفض عودته واعتذاره. ثم أشعل الخصومة تعصّب الوالي والحند لمنصور، وانضمام آخرين للقاضي. ولا أعتقد صحة ما ذكره السبكي في (طبقاته) ح ٣ ص ٤٧٩: أن ابن الربيع تعامل ضد منصور، وأوقع بين القاضي وبينه شهادته؛ لأن ابن الربيع إنما حكى مقالة عن النظام ذكرها منصور، فتسرّع القاضي في تهديده منصوراً؛ متأثراً بالخصومة القائمة، وربما درعاً لانتشار كلام المعتزلة بين الناس، وكان قدر الله مفعولاً، فتوفى منصور بعدها بقليل.

(١) كان يذكر الحديث في الليل، فيأمر الحارية أن تُسْرِج السراج، فينظر فيه. (تاريخ بغداد ١١/٤٦٣).

(٢) حيث روى المقدسي بسنده إلى ابن الربيع الجيزي، أن ابن بكراً أنابه أنه سمع الليث ابن سعد يقول: ولِدْتُ في شعبان سنة ٩٤هـ. (الجمع بين رجال الصحيحين ٢/٤٣٣).

عمله كبيراً لشهود مصر حتى سنة ٣١١هـ تقريباً^(١)، لم تَضِعْ هباءً منثوراً، وإنما صَبَّتْ بكل خيراتها العلمية والعملية في عقل وفكر ذلك الرجل، لما اعتزل العمل في سلك القضاء، وتفرغ لتأليف كتابيه التاريخيين^(٢). إننا نرجح أن يكون ذلك المؤرخ قد أبدع كتابيه هذين في القرن الرابع الهجري (بعد سنة ٣١١هـ)، بعد أن استكمل أدوات البحث التاريخي، وجمع مادته (خاصة كتابه الثاني). ولا أظنه أَلَفَ شيئاً منها قبل ذلك، وإلا لَأَلَفَ في فروع العلم الأخرى، التي تَمَرَّسَ بها، وأطال الاطلاع عليها، والرواية فيها. لقد أفاد الرجل من اطلاعاته ورواياته الحديثة في تأليف كتابه الأول، عن الصحابة الذين دخلوا مصر^(٣)، واهتم في أثنائه بمروياتهم الحديثة، فمزج في كتابه هذا، الذي يدخل في باب (التراجم) بين المادة التاريخية والحديثة، مستفيداً في ذلك من سلفه المؤرخ المصري (ابن عبد الحكم)، ممهّداً لمؤلفي تَخَلَّفَه (ابن يونس المؤرخ). والكتاب الثاني - وهو كتاب مفقود أيضاً - كتبه عن (أخبار قضاة مصر)، وهو حصيلة تجربته الطويلة في التعامل مع قضاة مصر، وقضايا أهلها، على اعتبار أنه يأتي على رأس الشهود، الذين يحضرون جلسات حكم القضاة، ويشاركون في مناقشة القضايا، ويشهدون على أحكامها الصادرة فيها. ولا شك أن علمه بالفقه خدمه في حسن فهمه وأدائه لمهام وظيفته، ثم ساعده كثيراً في تصنيف مؤلفه القضائي. ومن هنا عددتُ (ابن الربيع الجيزي) من مؤرخي القرن الرابع الهجري؛ لأن مؤلفيه - فيما أرى - وُضِعَا في ذلك القرن موضع الدراسة.

(١) اخترتُ هذا التاريخ؛ لأنه تاريخ إعفاء القاضي (ابن حربويه) من منصب القضاء في مصر. (ذيل ابن بُرْد على قضاة مصر للكندي ص ٤٨١). وبعد ذلك لم نجد ذكراً لابن الربيع الجيزي في عصور القضاة التاليين حتى وفاته سنة ٣٢٤هـ (السابق ٤٨١ - ٤٨٧)، إذ إن آخر قضية ورد ذكره فيها كأحد الشهود كانت في عهد ابن حربويه القاضي (رفع الإصر ٣٩٧/٢ - ٣٩٨).

(٢) ولا مانع من أن يقوم بإقراء القرآن خلال تلك الفترة؛ بدليل تلقى البعض القراءة عليه سنة ٣١٦هـ بمصر (طبقات القراء لابن الجزري ٤٤/٢).

(٣) وهذا الكتاب مفقود، لكن السيوطي اختصره في (حسن المحاضرة: ١٦٧/١ - ٢٥٢)، كما وردت بعض شذرات منه في كتاب (الإصابة) لابن حجر وغيره، على نحو يأتي تفصيلاً فيما بعد.

تعريف عام بكتاب " تاريخ الصحابة الذين نزلوا مصر "

محمد بن الربيع الجيزي (٢٣٩ - ٣٢٤هـ)

أولاً - فقد هذا الكتاب ضمن ما فقد من تراثنا التاريخي، لكن السيوطي - لاهتمامه بهذا الشأن في كتابه: "حسن المحاضرة" - نعى هذا العمل، وزاده معتمداً على كتاب (ابن الربيع) كثيراً، وغيره من المصادر.

ثانياً - يعد هذا العمل تطوراً لما بدأه المؤرخ المصري (ابن عبد الحكم ت ٢٥٧هـ)، عندما خصّص (القسم السابع) من كتابه: (فتوح مصر) لأحداث الصحابة، الذين دخلوا مصر. فتوسع ابن الربيع في ذلك المجال، وزاد في عدد الصحابة وتراجمهم، مع المحافظة على إيراد ما تيسر له من مروياتهم، إذا وجدت.

ثالثاً - جمعت من بقايا هذا الكتاب ١٣٣ ترجمة، رجّحت ترتيبها على حروف الهجاء (حرف الألف - الباء... وهكذا حتى (لام ألف، وياء). وبعدها أوردت باب (الكُنى)، وربّعت التراجم فيه على حروف الهجاء (حتى الواو). ثم أوردت باب (المبهمات)، وفيه: رجل صحابي من صُداء. وأخيراً، (الخاتمة).

رابعاً - يلاحظ أن السمة الغالبة على تراجم ابن الربيع هي الوجازة والقصر، لكن هذا لا يمنع وجود بعض التراجم النادرة المطوّلة الباقية. ولعل قصر وسطحية بعض التراجم يرجع إلى تفريغ السيوطي لها من محتواها، واكتفائه بالتركيز على ما يتصل بالرواية الحديثة للمترجم له.

خامساً - لم أكتف بدقة تجميع ما تبقى من هذا الكتاب، بحيث يُصرّح بنسبة الترجمة إلى ابن الربيع في (كتابه)، وإنما وثّقت هذه التراجم - ما أمكن - في الحواشي، وعلّقت - ما أمكن - عليها بعض التعليقات.

سادساً - هذا كتاب له أهميته في تراجم الصحابة المصريين، وعليه اعتمد ابن الأثير في (أسد الغابة)، وابن حجر في (الإصابة)، والسيوطي في (حسن المحاضرة)، وهو ممهّد لكتاب (تاريخ المصريين) لابن يونس الصديق المؤرخ المصري، الذي كتبه في التراجم، فأضاف إلى الصحابة غيرهم من العلماء المصريين.

بقايا كتاب: (تاريخ الصحابة الذين نزلوا مصر) (*)

محمد بن الربيع الجيزي

(حرف الهمزة)

- ١ - أبيض بن حمّال السبّئي: أخبرني يحيى بن عثمان: أنه شهد فتح مصر^(١).
- ٢ - الأحبّ بن مالك بن سعد الله: أدرك النبي ﷺ، ودخل مصر، لكنه لا تُعرف له رواية^(٢).
- ٣ - إياس بن البكير اللّيثي: بدرى، شهد فتح مصر. ولأهل مصر عنه حديث واحد، أخبرنيّه مقدّام^(٣) بن داود، حدّثنا أبو الأسود النّضر^(٤) بن عبد الجبار، عن ابن لهيعة، عن عيّاش بن عبّاس، عن عيسى بن موسى، عن إياس بن البكير، أن رسول الله ﷺ قال: "من مات يوم الجمعة كتب الله له أجر شهيد، ووُقي لفته القبر"^(٥).

(حرف الباء)

- ٤ - بُسر بن أرطاة^(٦): لأهل مصر عنه حديث واحد، وحكاية^(٧). روى ابن لهيعة، عن يزيد ابن أبي حبيب، قال: كان بسر إذا ركب البحر، قال: أنت بحر وأنا بسر، علىّ وعليك الطاعة لله، سبروا على بركة الله. مات أيام معاوية بدمشق^(٨).

(١) ورد هذا الاسم في: (الإصابة) لابن حجر ج ١ ص ٤٤١، وحسن المحاضرة ٣/١ - ٤ (مقدمة السيوطي، وفيها ذكره ضمن مصادر كتابه). وأحياناً يأتي باسم آخر يتفق مع موضوعه (من دخل مصر من الصحابة)، كما في: (حسن المحاضرة ١/١، ١٦، وبدائع الزهور لابن إياس ٣٣/١). وذكره ابن حجر في موضع في (الإصابة) باسم: (من سكن مصر من الصحابة) ج ٤ ص ٧٣٣ - ٧٣٤. وهى عناوين متقاربة، أدفها ما ورد أولاً، فهو المعتمد في مصادر السيوطي.

(١) حسن المحاضرة ١/١٦٧.

(٢) المصدر السابق: ١/١٦٩.

(٣) أوردها السيوطي (مقدّم) في (السابق) ١/١٧٠، وهو تحريف. والصواب ما ذكرت.

(٤) ورد في النص باسم (نصر)، وهذا تصحيف.

(٥) السابق: ١/١٧٠.

(٦) أو (ابن أرى أوطاة). (فتوح مصر وأخبارها) لابن عبد الحكم ص ٢٦٠، وحسن المحاضرة ١/١٧٤.

(٧) ورد الحديث، والحكاية الواردة في النص بعد ذلك في (فتوح مصر وأخبارها) ص ٢٦٠.

(٨) أورده السيوطي هذه الترجمة في (حسن المحاضرة ١/١٧٥).

- ٥ - بشر بن ربيعة الحنَعمي: دخل مصر^(١).
٦ - بلال بن حارث المُرَني: شهد فتح مصر، وتوفي سنة ستين، وهو ابن ثمانين سنة^(٢).

(حرف التاء)

- ٧ - قميم بن أوس الدَّارِي^(٣): شهد فتح مصر. ولأهل مصر عنه حديث واحد. وسكن فلسطين بعد قتل عثمان، وكان النبي ﷺ أقطعها لها قرية (عَيْتُون)^(٤). مات سنة أربعين^(٥).

(حرف الثاء)

- ٨ - ثوبان بن يَجْدُد^(٦): شهد فتح مصر، واختطَّ لها، ولهم عنه حديث واحد^(٧).

(حرف الجيم)

- ٩ - جابر بن عبد الله الأنصاري: قدم مصر على عقبة بن عامر - ويقال: على يد عبد الله بن أنيس - يسأله عن حديث القصاص، وذلك في أيام (مَسْلَمَةَ ابن مُخَلَّد). ولأهل مصر عنه نحو عشرة أحاديث. حدثني أحمد بن عبد الرحمن بن وهب، حدثني عَمِي ابنُ وهب، حدثني محمد بن مسلم الطائفي، عن القاسم بن عبد الواحد، عن عبد الله بن محمد بن عَقِيل بن أبي طالب، عن جابر بن عبد الله الأنصاري، قال: كان عبد الله بن أنيس الجُهَنِي - وكان عداده في الأنصار - يحدث عن رسول الله ﷺ حديثاً في القصاص. قال جابر ابن عبد الله: فخرجتُ إلى السوق، فاشتريتُ بعيراً، ثم شددتُ عليه رَحْلاً، ثم سرتُ إليه شهراً. فلما قدمتُ عليه مصر، سألتُ عنه، حتى وقفتُ على بابه، فسَلَمْتُ، فخرج إلى غلام أسود، فقال: من أنت ؟ قلتُ: جابر بن عبد الله. فدخل عليه، فذكر ذلك، فقال: قل له: أصاحب رسول الله ﷺ ؟ فخرج الغلام، فقال ذلك، فقلتُ: نعم. فخرج إلى والترمى والترمته، فقال: ما جاء بك يا أخي ؟ قلتُ:

(١) المصدر السابق: ١٧٥/١.

(٢) السابق: ١٧٦/١ - ١٧٧.

(٣) ذكر ابن حجر، والسيوطي: أنه كان نصرانياً فأسلم، وكان راهب عصره، وعابد فلسطين. (الإصابة ٣٩٨/١، وحسن المحاضرة ١٧٧/١).

(٤) من قرى بيت المقدس. (معجم البلدان ٢٠٣/٤).

(٥) حسن المحاضرة ١٧٧/١.

(٦) ويقال: ابن جحدر، وهو مولى رسول الله ﷺ. (الإصابة ٤١٣/١، وحسن المحاضرة ١٨٠/١).

(٧) المصدر السابق: ١٨٠/١.

حديث تُحَدِّثُ به عن رسول الله ﷺ في القصاص، لم يبق أحد يُحَدِّثُ به عن رسول الله غيرك، أردتُ أن أسمعك منك، قبل أن تموتَ، أو أموتَ. قال: نعم، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: "إذا كان يوم القيامة، حشر الله الناس حُفَاةَ عَرَاةٍ غُرْلًا بُهْمًا، ثم جلس على كرسيه (تبارك وتعالى)، ثم ينادى بصوت، يسمعه مَنْ بَعْدَ، كما يسمعه من قُرْب، يقول: أنا الملك الديان، لا ظُلُمَ اليومَ. لا ينفي لأحد من أهل الجنة يدخل الجنة، ولا ينفي لأحد من أهل النار يدخل النارَ عنده مَظْلَمَةٌ، حتى لطمَةٌ بيد". قيل: يا رسول الله، فكيف، وإنما نأتى الله يوم القيامة حفاة عراة غُرْلًا^(١) بُهْمًا؟! قال: "من الحسنات والسيئات". قال له بعض القوم: ما البُهم؟ قال: سألتُ عنها جابرَ ابن عبد الله، فقال: الذين لا شئَ معهم^(٢).

وحدثنا علي بن الحسن، عن^(٣) الربيع بن إسحاق، عن أحمد بن يحيى بن دريد، عن أبي نُعَيْمٍ، عن ابن المبارك، عن داود، عن عبد الرحمن العطار، عن القاسم بن عبد الواحد ابن محمد بن عَقِيل، عن جابر بن عبد الله، قال: سرتُ إلى عبد الله بن أبي أُنَيْسٍ - وهو بمصر - أسأله عن حديث. . . ثم ذكره^(٤).

١٠ - جابر بن ماجد^(٥) الصَّدَقِي: جابر الصدقي، ويقال: قيس الصدقي. روى ابن لهيعة، عن عبد الرحمن بن جابر بن قيس، عن أبيه، عن جده مرفوعاً، قال: "سيكون بعدى خلفاء، وبعد الخلفاء أمراء، وبعد الأمراء ملوك، وبعد الملوك جبابرة، وبعد الجبابرة يخرج رجل من أهل بيتي، يملأ الأرض عدلاً كما مُلئت جوراً، ثم يكون من بعده القَحْطَانِي. والذي نفس محمد بيده ما هو بدونه." ورُوي عن عبد الرحمن بن قيس بن جابر^(٦).

١١ - جاحِل، أبو مسلم^(٧) الصَّدَقِي: لا نعرف له حضور الفتح، ولا خِطَّة بمصر. ولم يرو عنه

(١) جمع غُرْل، وغُرْلَاء. والمُغْرَلَة: حنطة الصبي التي تُقَطَّع في الحنات. وتُجمع على (غُرْل). والمقصود: أن الناس تُحشَر يوم القيامة على هبتها، التي كانت قد وُضِعَتْ عليها في الدنيا (قبل الحنات). (لسان العرب: مادة ع. ر. ل. ١) جـ ٥/٣٢٤٦، والمعجم الوسيط ٢/٦٧٥.

(٢) حسن الخاضرة: ١٨٢/١.

(٣) وردت في (المصدر السابق) ١٨٢/١ هكذا: بن.

(٤) السابق: ١٨٢/١ - ١٨٣.

(٥) ورد اسم والده في (الإصابة) ٤٤٠/١، وحسن الخاضرة ١٨٣/١.

(٦) حسن الخاضرة: ١٨٣/١.

(٧) ورد مُكْتَبِي سـ (أبي محمد) في (المصدر السابق) ١٨٤/١. والصواب ما ذكرتُ في المتن، فهو الواضح من حلال سند

الحديث. وكذا ذكره ابن حجر في (الإصابة) جـ ١ ص ٤٤١.

غير أهل مصر فيما أعلم. وللمصريين عنه حديث واحد من طريق ابن وهب، ثنا أبو الأشعث مؤذن مسجد دمياط، عن شُرْحَيْبِل بن يزيد، عن محمد بن مسلم بن جاحل، عن أبيه، عن جده، عن رسول الله ﷺ^(١)، قال: "إن أحصاهم لهذا القرآن من أمتي منافقوهم"^(٢).

١٢ - جِبَارَة^(٣) بن زُرَّارة البَلَوِي: بايع تحت الشجرة، وشهد فتح مصر، وكان اسمه (جِبَارَة)، فسَمَّاه النبي (جِبَارَة)^(٤).

١٣ - جَبَلَة بن عمرو الأنصاري^(٥): توجد رواية عنه من طريق خالد بن أبي عمران، عن سليمان بن يسار، أنه سئل عن الثَّقَل^(٦) في الغزو، فقال: لم أر أحداً يعطيه غير ابن خديج، نَفَلْنَا^(٧) في إفريقية الثلث^(٨) بعد الخمس، ومعنا من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين الأولين ناسٌ كثير، فأبى جَبَلَة بن عمرو الأنصاري أن يأخذ منه شيئاً^(٩).

١٤ - جَرْهَد بن خُوَيْلِد: شهد فتح مصر^(١٠).

(١) المصدر السابق ٤٤١/١. (٢) حس المحاضرة ١٨٤/١.

(٣) هكذا ورد بكسر الخيم مع فتح الباء وتخفيفها في كل من: (الاستيعاب ٢٧٨/١، والإكمال ٤٦/٢، وأسد الغابة ٣١٦/١، والإصابة ٤٥٠/١، وحسن المحاضرة ١٨٤/١).

(٤) ولتفهّم سرّ تعبير الرسول اسم هذا الصحابي، رجعتُ إلى معاجم اللغة، فأثبتُ مادة (ج.ب.ر.) بها (الخيار): أثر الشيء، مثل: بُيِسَ اليد من أثر العمل، أو من صَدَمَ وغَوِمَ في الجُلْد. تقول: أَخْبَرَتِ الضربة جِلْدَهُ، وَجِلْدُو: أَثَرْتُ فِيهِ. ورحل مُحَيَّرٌ: إذا أكلت الراغيث جلده، فتركت أثاراً. (لسان العرب ٧٥٠/٢، والمعجم الوسيط ١٥٨/١). وبالسبب لمادة (ج.ب.ر.): حَبَّرَ يَحْبِرُ حَبْراً وَجِبَارَةً. ومنه: حَبَّرَ الْعَظْمُ: أَصْلَحَ. والجِبَار: جمع حَبَرٍ، والجِبَارَة: والجِبَرَة: عِبدان يُحَبَّرُ هَا الْعِظَام. وفي الدعاء: "اللهم أَخْبِرْني وَأَهْدِنِي. أَيْ: غَوِّصْنِي مَا فَقَدْتُهُ. (عنتار الصحاح ص ٩١، والنساق ٥٣٥/١، والمعجم الوسيط ١٠٩/١). ومعنى ما تقدّم: أن الرسول غيّر اسمه إلى الأحسن، بدلاً من أن يعمل ظلال عيب جلدي، حَوَّلَهُ إلى لفظة فيها معنى الإصلاح والتعويض والخير.

(٥) حسن المحاضرة ١٨٥/١.

(٦) (٧) الثَّقَل: الغنيسة والقيمة. والجمع (أفغال). وذلك بخلاف (الثَّقَل) تسكين الفاء، الذي يعنى ما شرع زبادة عن الفريضة. تقول: نَفَلْنَا: أعطاه نافلة من المعروف. نَفَلٌ (بالتشديد): أعطاه زيادة على نصبه الواجب. (لسان العرب. مادة (ن.ف.ل.): ٤٥٠/٩، والمعجم الوسيط ٩٨٠/٢).

(٨) ورد النص في (فتوح مصر وأخبارها) ص ٣١٨، بنقطة (الصف) بدلاً من (الثلث).

(٩) معلوم أن الأصل في توزيع العنائم قوله تعالى: "وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لَهُ حُصْنَ وَالرَّسُولَ وَلَدَى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَإِنَّ السَّبِيلَ إِنْ كُتِمَ مِنْكُمْ بِهِ وَمَا أَتَرْنَا عَلَى عِبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ تَفْتَى الْحُمْمَانُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ". (سورة الأنفال: الآية ٤١). فالعنائم تُوزَع أربعة أحماسها على المقاتلين: للرحل سهم، وللفراس سهمان (أو ثلاثة). والخمس الباقي يُقسَم إلى خمسة أقسام: للرسول (أو القائد)، ولدى القرو، وللبناني، والمساكين، وابن السبيل. ومن حق القائد (أو الإمام) أن يُخرج من سهمه ما يراه في صالح المسلمين. وقد رأى ابن خديج أن يزيد المقاتلين على نصيبهم الثلث أو النصف من هذا السهم، فظه عمرو بن حَبَلَة عملاً غير مطابق للنسبة، فخرج من أخذه، بينما هو صحيح، ولم يعترض عنه كبار المهاجرين الأولين. (راجع تفاصيل توزيع العنائم في تفسير ابن كثير (الآية الأولى من سورة الأنفال) ج ٢ ص ٢٨٤. والآية رقم ٤١، ج ٢ ص ٣١٠ وما بعدها).

(١٠) حسن المحاضرة ١٨٦/١.

١٥ - جُسَادَةُ بَنِ أَبِي أُمَيَّةَ الْأَزْدِي^(١): كان من الصحابة، شهد فتح مصر، وروى عنه أهلها، وولى البحر لمعاوية^(٢).

(حرف الحاء)

١٦ - حَبَانُ بْنُ يُحْيَى الْأَنْصَارِي: لأهل مصر عنه حديث واحد^(٣).

١٧ - حَزَامُ بْنُ عَوْفِ الْبَلَوِيِّ: من بني جُعَلٍ. حكى سعيد بن عُفَيْرٍ أنه ممن بايع رسولَ الله ﷺ تحت الشجرة في رهط من قومه^(٤)، فقال لهم: " لا صخر ولا جعل. أنتم بنو عبد الله "^(٥).

١٨ - حمزة بن عمرو الأسلمي: شهد فتح مصر^(٦).

١٩ - حنظلة: صاحب النبي ﷺ. دخل مصر^(٧).

٢٠ - حُصَيْنُ بْنُ حِرَامٍ اللَّيْثِي: لأهل مصر عنه حديث واحد^(٨).

(حرف الخاء)

٢١ - خارجة بن خُذَافَةَ: لم يرو عنه غير المصرين^(٩).

٢٢ - خالد بن العنيس: صحابي دخل مصر، ولا يُعرف له رواية^(١٠).

٢٣ - خَرَّشَةُ بْنُ الْحَارِثِ الْأَزْدِي: لأهل مصر عنه حديث واحد^(١١).

(١) هذا هو الراجح (ابن أبي أمية). راجع: ابن سعد في (طبقاته) ٣٠٦/٧، وابن عبد الحكم في (فتوح مصر وأخبارها) ص ٣٠٦، وابن حجر في (الإصابة) ٥٠٢/١. وذكر ابن حجر في (مذهب التهذيب) ج ٩٩/٢: يقال: إن اسم أبيه (أبي أمية) كثير. وورد باسم (أمية) في (حسن المحاضرة) ١٨٦/١، وأعتقد أنه سهو من الناسخ، أو خطأ مطبعي لم يُصَوَّب، فهو مما لا يفوت ابن الربيع الجيزي، ولا السيوطي.

(٢) المصدر السابق: ١٨٧/١.

(٣) المصدر السابق: ١٨٩/١ - ١٩٠، وحديثه في (فتوح مصر) ص ٣١١ - ٣١٢.

(٤) الإصابة ٦٠/٢، وحسن المحاضرة ١٩٠/١.

(٥) الإصابة ٦٠/٢.

(٦) حسن المحاضرة: ١٩١/١.

(٧) المصدر السابق: ١٩٢/١.

(٨) السابق: سَمَّاهُ ابن عبد الحكم دون أن ينسبه، وذكر له رواية واحدة (فتوح مصر ٣١٦).

(٩) الإصابة ٢٢٢/٢، وحسن المحاضرة ١٩٣/١. وقد أورد له ابن عبد الحكم روايتين في (فتوح مصر) ص ٢٥٩ - ٢٦٠.

(١٠) أسد الغابة ١٠٦/٢، والإصابة ٢٤٦/٢ (وذكر أن مُغْلَطَايَ تَعَقَّبَ ما ذكره ابن الأثير في (المصدر السابق)، من ذكر ابن الربيع - لا أبي الربيع كما ورد تحريفاً - له في الصحابة، ولم يُعَقَّبْ). والصواب: أن ابن الأثير على صواب فيما قال؛ بدليل إيراد السيوطي لهذا الصحابي نقلاً عن (كتاب ابن الربيع). وقد رد على مغلطى ما قال، وذكر أن هذا الصحابي في آخر كتاب ابن الربيع (حسن المحاضرة ١٩٤/١).

(١١) المصدر السابق ١٩٤/١. ذكر ابن عبد الحكم له رواية في (فتوح مصر) ص ٣١٦.

(حرف الدال)

- ٢٤ - دَحْيَةُ بن خليفة الكلبي: شهد فتح مصر، وقد نزل دمشق، وسكن المزة^(١)، وعاش إلى خلافة معاوية^(٢).
- ٢٥ - ذَيْلَم بن هُوَشَع الجَيْشَانِي^(٣): من موالى بنى هاشم، ولأهل مصر عنه حديث واحد^(٤).

(حرف الراء)

- ٢٦ - ربيعة بن شَرْحَبِيل بن حَسَنَة: صحابي شهد فتح مصر. وقد أدرك النبي، وهو غلام. وأخوه عبد الرحمن بن شرحبيل. ولا يُعرف له حديث^(٥).
- ٢٧ - ربيعة بن عباد الدَّيْلِي^(٦): ذكره الواقدي فيمن دخل مصر من الصحابة؛ لغزو الغرب^(٧).
- ٢٨ - رشيد بن مالك^(٨): من أصحاب النبي ﷺ، وذكر في أهل مصر، ولأهل مصر عنه حديث^(٩).
- ٢٩ - رَكْب المِصرى: له صحبة^(١٠).
- ٣٠ - رُوَيْفِع بن ثابت^(١١): شهد فتح مصر، واختلط بها. ولأهل مصر عنه نحو عشرة أحاديث^(١٢).

(١) صَيِّغَة حسنة على باب دمشق. (الأنساب ٢٨٢/٥).

(٢) حسن المحاضرة ١٩٦/١.

(٣) المصدر السابق: ١٩٦/١.

(٤) حديثه في (فتوح مصر) لابن عبد الحكم ص ٣٠٣. ولم يذكر هذا المؤرخ اسم والد هذا الصحابي، ويمكن مراجعة ترجمته في (الإصابة) ج ٢ ص ٣٩٢، حيث يوجد أكثر من اسم محتمل له.

(٥) الإصابة: ٥٠٤/٢، وحسن المحاضرة ١٩٧/١.

(٦) ورد نسبه بالياء تصحيحاً في (المصدر السابق ١٩٨/١)، وقد أثبتّه كما في (فتوح مصر) ص ٣١٩. أما ابن حجر في (الإصابة) ج ٢ ص ٤٦٩، فرجح ضبط أسم أبيه كما في المتن، وجعل نسبه (الدلي).

(٧) حسن المحاضرة ١٩٨/١.

(٨) وهو أبو عَمْرَةَ المَزَنِي (فتوح مصر ص ٣١٣)، وحسن المحاضرة ١٩٨/١.

(٩) راجع حديثه في (فتوح مصر) ص ٣١٣ - ٣١٤.

(١٠) حسن المحاضرة ١٩٩/١.

(١١) المصدر السابق: ١٩٩/١.

(١٢) ذكر ابن عبد الحكم أن له عند المصريين أحاديث أقل من العشر، ذكر منها خمسة أحاديث (فتوح مصر ٢٧٩ - ٢٨٠).

(حرف الزين)

٣١ - الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ: شهد فتح مصر، واختط بها. ولأهل مصر عنه حديث واحد: روى عبد الله بن المغيرة بن أبي بُرْدَةَ: سمعتُ سفيان بن وهب الخَوْلَاني يقول: " لما فتحنا مصر بغسر عهد، قام الزبير بن العوام، فقال: يا عمرو، اقسّمها. فقال عمرو بن العاص: لا أقسمها. فقال الزبير: والله، لَتَقْسِمَنَّها كما قسم رسول الله ﷺ خَيْرَ. فقال عمرو: لم أَكُنْ لأُحَدِّثَ حَدَثًا، حتى أَكْتُبَ بذلك إلى أمير المؤمنين. فكتب إلى أمير المؤمنين. فكتب إليه عمر ابن الخطاب: أَقْرَأْها حتى تَغْزَوْ منها حَبْلَ الحَبْلَةِ ". لم يرو أهل مصر عن الزبير بن العوام غير هذا الحديث الواحد^(١). قُتِلَ راجعاً من وقعة الجمل بوادي السباع في جمادى الأولى سنة ست وثلاثين، وله ست أو سبع وستون سنة^(٢).

٣٢ - زياد بن الحارث الصُّدائي^(٣): شهد فتح مصر، ولأهل مصر عنه حديث واحد^(٤).

(حرف السين)

٣٣ - السائب بن خَلَّاد: شهد فتح مصر، وقدم على عقبة، فاستذكره حديث: "من ستر عورة. . ."، الذي رحل فيه السائب بن خَلَّاد إلى مصر^(٥).

قال ابن عبد الحكم: ذكر يحيى بن حسان، عن ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، قال: إن السائب بن خلاد الأنصاري قدم على (عقبة بن عامر الجهني)، فقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: " من ستر مسلماً، ستره الله " فقال: أنت سمعته من رسول الله ﷺ ؟ قال: نعم. قال: فراح، ولم يَقْدَمْ من المدينة إلا لذلك^(٦).

أخبرني يحيى بن عثمان بن صالح، أنبأنا يونس^(٧) بن عبد الأعلى، أخبرني عبد الجبار بن عمر: أن مسلم بن أبي حرة، حَدَّثَهُ عن رجل من أهل قُباء، أنه قدم مصر على مَسْلَمَةَ بن مُخَلَّد،

(١) مسند أحمد ١/١٦٦، وفتوح مصر: ٢٦٣، وحسن المحاضرة ١/١٦٦ - ١٢٧. والمقصود أن عمر رضي الله عنه جعل الأرض في أيدي أهلها يزرعوها، ويحج المسلمون خراجها، فتستفيد من ذلك الأجيال الآتية.

(٢) المصدر السابق: ٢٠٠/١.

(٣) السابق: ٢٠٠/١.

(٤) راجع: فتوح مصر: ٣١٢ - ٣١٣.

(٥) حسن المحاضرة ٢/٢٠٢. وقد ورد نص الحديث في (فتوح مصر) ص ٢٧٥ بلفظ: "من ستر مسلماً، ستره الله".

(٦) حسن المحاضرة ١/٢٠٢.

(٧) ورد في (المصدر السابق) باسم (يوسف)، وهو تحريف. ويونس المذكور (ت ٢٦٤هـ) يمكن أن يروى عن أستاذه (عبد الجبار بن عمر الأيلي) للمتوفى بين ٢٦٠ - ٢٧٠هـ. راجع ترجمة الآخر في (لهذب التهذيب) ٦/٩٤.

فضرب عليه الباب واستأذن عليه، فخرج مسلمة إليه، فقال: انزل، فقال: لا، ولكن أرسل معي إلى فلان - رجل من أصحاب النبي ﷺ - ، قال: حسبك أنه قال: سُرِّق. فذهب إليه في قرية، فقال له: هل تذكر مجلساً، كنتُ أنا وأنتُ فيه مع رسول الله ﷺ، ليس معنا أحد غيرنا؟ فقال: نعم. فقال: كيف سمعته يقول؟ قال: سمعته يقول: " من اطلع من أخيه على عورة، ثم سترها، جعلها الله له يوم القيامة حجاباً من النار ". قال: كنتُ أعرف ذلك، ولكنني أوهمتُ أن أحدث به على غير ما كان. ثم ركب على صدر راحلته، ثم رجع^(١).

٣٤ - السائب الغفاري^(٢): لا يوقف له على حضور الفتح، ولأهل مصر عنه حديث واحد من طريق ابن لبيعة، عن أبي قبيل، عن رجل من بني غفار، حدثه أن أمه أتت به إلى رسول الله ﷺ، وعليه ثَمِيمة. قال: فقطع رسول الله ﷺ ثَمِيمتي، وقال: ما اسم ابنك؟ قالت: السائب. فقال النبي ﷺ: بل سمَّه^(٣) عبد الله. فقلت: أتجيب بكليهما؟ فقال: لا والله، ما كنتُ لأجيب إلا على اسم رسول الله ﷺ، الذي سمَّاني^(٤).

٣٥ - سعد بن أبي وقاص^(٥): شهد فتح مصر، ووردها رسولاً من قبل عثمان. سمعتُ يحيى بن عثمان بن صالح يقول: قدم سعد بن أبي وقاص في خلافة عثمان رسولاً من قبل عثمان إلى أهل مصر أيام ابن أبي حُدَيْفَةَ، فلقيه خارجاً من الفسطاط^(٦)، ومنعه من دخولها، فقال لهم: فلتسمعوا ما أقول لكم. فامتنعوا عليه، فدعا عليهم أن يضربهم الله بالذل^(٧). ولأهل مصر عنه

(١) حسن المحاضرة ٢٠٢/١ - ٢٠٣.

(٢) ورد في (الإصابة) ٢٦/٣.

(٣) لعل الصواب: سمَّيه.

(٤) حسن المحاضرة ٢٠٣/١. ويلاحظ أن هناك خلافاً يسيراً بين رواية ابن الربيع الواردة في المتن، ورواية ابن حجر في (الإصابة ٢٦/٣)، حيث تذكر الأخيرة أن الرسول سأل السائب نفسه عن اسمه، فأجاب، فغير اسمه. وهنا سأله أبو قبيل: بأيهما تجيب، فقال: بكليهما. فعنق أبو قبيل بأنه لو كان مكانه، ما أحاب إلا عن الاسم الذي سمَّاه إياه رسول الله. أما في رواية ابن الربيع بالمتن، فسؤال الرسول ﷺ عن اسمه موجهٌ إلى أم الصحابي، فأمرها بتسميته (عبد الله). ولما سأله أبو قبيل عما إذا كان يجب بكليتا التسميتين، نفى أن تكون إجابته إلا عن الاسم الذي سمَّاه إياه رسول الله ﷺ.

(٥) ذكر السيوطي أن أباه اسمه (مالك). (حسن المحاضرة ٢٠٥/١).

(٦) المقصود: فسطاطه، أي: خيمته التي نزل بها؛ وليست مدينة الفسطاط؛ لأهم منعه من دخولها.

(٧) ذكر الحادثة الكندي بدقة، وأورد دعاء سعد على مانعيه دخول مصر بنصه، لا بمعناه كما ذكره السيوطي (حسن المحاضرة ٣٣٦/٢). قال في (الولاء ص ١٦): " فخرج إليه (إلى سعد) منهم مائة أو نحوها، فلقيه بمحلة بني سعد، وقد ضرب فسطاطه وهو قاتل: فقللوا عليه فسطاطه، وشجَّروه، وسبَّوه، فركب راحلته، وعاد راحلاً من حيث جاء، وقال لهم: " ضربكم الله بالذل والفرقة، وشئتُ أمركم، وجعل بأسمكم بينكم، ولا أرضاكم بأمر، ولا أرضاه عنكم ".

حديث واحد^(١). مات بالعميق^(٢)، وحُمل إلى المدينة، فدُفن بالبقيع^(٣) سنة خمس وخمسين. وقيل: سنة ست. وقيل: سبع. وله بضع وسبعون سنة. وهو آخر العشرة وفاة^(٤).

٣٦ - **سفيان بن وهب الخولاني**: لم يرو عنه غير أهل مصر فيما أعلم. ولهم عنه^(٥) حديثان^(٦). مات سنة إحدى وتسعين^(٧).

٣٧ - **سلامة بن قيسر الحضرمي**: شهد فتح مصر، ولأهلها عنه حديث واحد^(٨).

٣٨ - **سلطان بن مالك**: ذكره الواقدي فيمن دخل مصر من الصحابة؛ لغزو المغرب^(٩).

٣٩ - **سلمة بن الأكوع**: ذكره الواقدي فيمن دخل مصر؛ لغزو المغرب مات بالمدينة سنة سبع وسبعين، وهو ابن ثمانين سنة وكان شجاعاً رامياً، وكان يسبق الفرس شداً على قدميه^(١٠).

٤٠ - **سنذر**^(١١): لأهل مصر عنه حديثان:

أحدهما من طريق يزيد بن أبي حبيب، عن ربيعة بن لقيط التميمي، عن عبد الله بن سنذر، عن أبيه: أنه كان عبداً لزبناع بن سلامة الجذامي، فعتب عليه، فخصاه وجَدَّعه. فأتى رسول الله، فأخبره. فأغلظ لزبناع القول، وأعتقه منه. قال: أوصي بي يا رسول الله. قال: أوصي بك كل مسلم^(١٢).

(١) يذكر ابن عبد الحكم أن (سعد بن أبي وقاص) ممن دخل مصر من الصحابة، وليست له - فيما بلغه - حكاية (فتوح مصر ٣١٨).

(٢) قال ياقوت: تقول العرب لكل سبيل ماء، شقَّه السيل في الأرض، وجعل منه وادياً واسعاً: هو عقيق. والأعقة متعددة في بلاد العرب، لعل المقصود منها: عقيق بناحية المدينة فيه نخل وعبون. (معجم البلدان ١٥٦/٤). ويرجح ذلك ما أورده ابن الأثير في (أسد الغابة) ج ٣٦٩/٢: أنه توفي بالعميق على سبعة أميال من المدينة، فحُمل على أعناق الرجال إلى المدينة، وصلى عليه مروان بن الحكم، وأزواج النبي ﷺ في المسجد النبوي.

(٣) موضع بالمدينة، فيه شجر كثير، وهو مقبرة أهل المدينة. (معجم البلدان ٥٦٠/٢).

(٤) حسن المحاضرة ٢٠٥/١ (صُدِّرَ النص - قال الربيع). والصواب: ابن الربيع.

(٥) وردت في النص: (عنده). وهي غير دقيقة.

(٦) ذكر ابن عبد الحكم أن له أحاديث في مصر، ذكر منها حديثين (فتوح مصر ٣٠٧).

(٧) حسن المحاضرة ٢٠٦/١.

(٨) المصدر السابق: ٢٠٦/١.

(٩) السابق: ٢٠٦/١.

(١٠) حسن المحاضرة ٢٠٦/١.

(١١) سقاه ابن عبد الحكم: (ابن سنذر) في (فتوح مصر) ص ٣٠٣. وصُدِّرَ السيوطي النص - (قال ابن أبي الربيع).

(حسن المحاضرة ٢٠٧/١. والصواب: (قال ابن الربيع).

(١٢) المعجم الكبير ١٦٩/٧ (حديث رقم ٦٧٢٦)، وذكره السيوطي في (مخطوط جمع الجوامع) ج ١ ص ١١٨٨.

والثاني - من طريق يزيد بن أبي حبيب، عن أبي الخير مَرْثَد بن عبد الله الزَيْنِي، عن سندر، قال: سمعتُ رسول الله يقول: " أَسْلَمَ سَالَمُهَا اللهُ، وَغَفَرَ اللهُ لَهَا، وَتُحِبُّ أَجَابَتُ اللهُ وَرَسُولَهُ^(١)."

٤١ - سهيل بن سعد: قدم مصر - بعد الفتح - على مسلمة بن مَخْلَد. ولأهل مصر عنه أحاديث^(٢). مات سنة إحدى وتسعين، وقيل: سنة ثمان وثمانين، وهو ابن مائة سنة. وهو آخر من مات من الصحابة بالمدينة^(٣).

(حرف الشين)

٤٢ - شَيْث بن سعد البلوي: ذكر سعيد بن عُفَيْر: أنه شهد فتح مصر، وله صحبة^(٤).

(حرف الصاد)

٤٣ - صُحَار بن صَخْر: شهد فتح مصر. وروى عنه ابنه: عبد الرحمن، وجعفر. نزل البصرة، وكان من الفصحاء. سأله معاوية عن البلاغة، فقال: لا تُخْطِئ، ولا تُبْطِئ^(٥).

٤٤ - صِلَّة بن الحارث الغفاري: عنه حديث واحد: بينما سُلَيْم بن عُثْر كان يقص على الناس وهو قائم، إذ قال له شيخ من بني غفار له صحبة (صلة بن الحارث الغفاري): والله، ما تركنا عهد نبينا، ولا قطعنا أرحامنا، حتى قمت أنت وأصحابك بين أظهرنا^(٦).

(حرف الضاد)

٤٥ - ضَمْرَة بن الحصين البلوي: شهد ذكر سعيد بن كثير بن عُفَيْر: أنه ممن بايع تحت الشجرة، وشهد فتح مصر، وسكنها^(٧).

(حرف العين)

٤٦ - عَائِد بن ثعلبة البلوي: شهد بيعة الرضوان تحت الشجرة، واختلط بمصر، واستشهد باليرلس^(٨).

(١) المعجم الكبير للطبراني جـ ٢١/٧ (حديث رقم ٦٢٥٥) من طريق آخر، ويحذف ما ينقص (تجيب) من الحديث.

(٢) ذكر ابن عبد الحكم منها أربعة أحاديث. (فتوح مصر: ص ٢٧٥ - ٢٧٦).

(٣) حسن المحاضرة: ٢٠٧/١.

(٤) حسن المحاضرة: ٢٠٨/١.

(٥) الإصابة ٤١١/٣، وحسن المحاضرة: ٢٠٨/١.

(٦) فتوح مصر: ٣١٤ (وعبر عن مقاله تلك بالحديث)، والإصابة: ٤٤٧/٣، وحسن المحاضرة: ٢١٠/١.

(٧) الإصابة: ٤٨٩/٣، وحسن المحاضرة: ٢١٠/١.

(٨) الإصابة: ٦٠٧/٣، وحسن المحاضرة: ٢١٠/١ - ٢١١.

- ٤٧ - عبادة بن الصامت: شهد فتح مصر، ولأهلها عنه عشرة أحاديث^(١). مات بفلسطين سنة أربع وثلاثين، وله اثنان وسبعون سنة^(٢).
- ٤٨ - عبد الله بن أنيس الجهنى: ويقال: ابن أنيسة، أبو يحيى المدنى، حليف الأنصار. شهد العقبة مع السبعين من الأنصار، وأُخذاً، وما بعدها من المشاهد. ولقبه النبي ﷺ سرية وحده. نزل مصر، ورحل إليه جابر بن عبد الله في حديث القصاص. مات في خلافة معاوية سنة أربع وخمسين^(٣).
- ٤٩ - عبد الله بن الحارث بن جَزء الزبيدي: لأهل مصر عنه عشرون حديثاً^(٤).
- ٥٠ - عبد الله بن خُذافة السهمي: هو من الصحابة البديرين الذين دخلوا مصر، ولا رواية لأهل مصر عنه^(٥).
- ٥١ - عبد الله بن حوالة الأزدي: شهد فتح مصر، ولأهلها عنه حديث واحد^(٦). نزل الأردن سنة ثمان وخمسين، وهو ابن اثنتين وسبعين سنة^(٧).
- ٥٢ - عبد الله بن الزبير بن العوام: قدم مصر في خلافة عثمان، وشهد إفريقية. ولأهل مصر عنه حديث واحد^(٨). بويغ له بالخلافة بعد موت يزيد ابن معاوية سنة أربع وستين، وغلب على أهل الحجاز واليمن، والعراق ومصر، وأكثر الشام، فأقام في الخلافة تسع سنين، إلى أن قتله الحجاج سنة ثلاث وسبعين^(٩).
- ٥٣ - عبد الله بن سعد بن أبي سرح: شهد فتح مصر، ولأهلها عنه حديث واحد، ولم يروى عنه غير أهل مصر، فيما أعلم. مات بعسقلان سنة ست وثلاثين. والحديث الذي رواه في قصة: (أُسْكُنْ حِراءَ)^(١٠).

(١) ذكر له منها ابن عبد الحكم سنة أحاديث. (فتوح مصر ٢٧١ - ٢٧٣).

(٢) حسن المحاضرة ٢١١/١. وحدد ابن عبد الحكم وفاته في مدينة الرملة سنة ٣٤هـ (فتوح مصر) ص ٢٧٣.

(٣) حسن المحاضرة ٢١١/١. وسماه ابن حجر (عبد الله بن أبي أنيسة) في (الإصابة) ١٨١/٥.

(٤) حسن المحاضرة: ٢١٢/١. هذا، وقد ذكر ابن عبد الحكم أن له عند المصريين قريباً من عشرين حديثاً، ذكر له منها أحد عشر حديثاً في كتابه (فتوح مصر) ص ٢٩٩ - ٣٠٢.

(٥) حسن المحاضرة ٢١٢/١.

(٦) ذكر له ابن عبد الحكم حديثاً في (فتوح مصر ص ٣١١).

(٧) حسن المحاضرة ٢١٢/١.

(٨) أورد اسمه ابن عبد الحكم، وذكر أنه لم تبلغه عنه حكاية (فتوح مصر: ص ٣١٨).

(٩) حسن المحاضرة ٢١٢/١ - ٢١٣.

(١٠) المصدر السابق ٢١٣/١. وورد هذا الحديث في: (فتوح مصر ص ٢٦٢، والمعرفة والتاريخ للفنّوى ج ١ ص

٥٤ - عبد الله بن عباس بن عبد المطلب: دخل مصر في خلافة عثمان، وشهد فتح المغرب، ولأهل مصر عنه أحاديث. مات بالطائف سنة ثمان وستين، وهو ابن إحدى - أو اثنتين - وسبعين^(١).

٥٥ - عبد الله بن عُدَيْسِ الْبَلَوِي: لا يُعرف له رواية عن النبي ﷺ^(٢).

٥٦ - عبد الله بن عمر بن الخطاب: شهد فتح مصر، واختط بها دار البركة، ولهم عنه أحاديث. مات بمكة سنة ثلاث وسبعين. وقيل: سنة أربع. وله من العمر أربع وثمانون سنة. وقيل: سبع^(٣) وثمانون سنة^(٤).

٥٧ - عبد الله بن عمرو بن العاص: شهد فتح مصر، واختط بها، ولأهلها عنه أكثر من مائة حديث^(٥). ومات - فيما ذكره ابن عبد الحكم^(٦) - بمصر، وقيل: بالشام، وقيل: بعسقلان، ويقال: بمكة سنة خمس وستين، وله اثنتان وسبعون سنة^(٧).

٥٨ - عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق: دخل مصر في سبب أخيه محمد. ولأهل مصر عنه حديث واحد^(٨). مات بمكة سنة ثلاث وخمسين، وقيل: سنة خمس، أو ست^(٩).

٥٩ - عبد الرحمن بن شَرْحِبِيل بن حَسَنَة: أخو ربيعة. له رواية، وشهد فتح مصر^(١٠). وكان قد أدرك النبي، ولا يُعرف له عنه حديث هو أخو ربيعة^(١١).

(١) حسن المحاضرة ١/٢١٤.

(٢) الإصابة ١٧٧/٤، وحسن المحاضرة ١/٢١٤. وجانب ابن حجر الصواب، لما ذكر أن (ابن الربيع) نسب حديثاً إلى (عبد الله بن عُدَيْسِ الْبَلَوِي)، رغم أن ابن حجر ذكر أنه لا يُعرف له رواية (وهو نفس الذي نقله السيوطي عن ابن الربيع، وهو الصواب). والغريب أن ابن حجر لم يعلق على ذلك التناقض، ولم ينتبه إليه، وعاد في ترجمة أخيه (عبد الرحمن)، وذكر الحديث نفسه له، كما سيأتي (الإصابة ٣٣٤/٤). فلعل النسبة الخاطئة المشار إليها زيادة من النسخ، لم يفتن المحقق إليها.

(٣) وردت بلفظة (سبعة). والصواب ما أثبت.

(٤) حسن المحاضرة ١/٢١٤. وبخصوص الأحاديث التي رواها عنه المصريون، فإنها تبلغ حوالي ثمانية أحاديث، وروى منها ابن عبد الحكم أربعة (فتوح مصر ص ٢٦٤ - ٢٦٥).

(٥) قال ابن عبد الحكم: له شبه بمائة حديث. (السابق: ٢٥٤).

(٦) السابق: ٩٦.

(٧) حسن المحاضرة ١/٢١٥.

(٨) راجعه في (فتوح مصر) ص ٢٦٧.

(٩) حسن المحاضرة ١/٢١٦.

(١٠) السابق ١/٢١٦. واكتفى ابن الأثير في (أسد الغابة) ٣/٤٦٠ بقوله: ذكره ابن الربيع في الصحابة، الذين دخلوا مصر.

(١١) الإصابة: ٣٨/٥.

٦٠ - عبد الرحمن بن عُدَيْس البلوى: شهد فتح مصر، وهم عنه حديث واحد، متنه: "يُخرج أناس من أمي يَمْرُقون من الدين، كما يَمْرُق السهم من الرميّة، فيقتلون بجبل لبنان، أو الخليل"^(١). ولم يرو عنه غير أهل مصر. توفي بالشام سنة ست وثلاثين^(٢).

٦١ - عبد الرحمن بن غَنَم الأشعري: له صحة^(٣). أخرجه يحيى بن عثمان: أن ابن لُبعية والليث بن سعد قالا: له صحة^(٤). حكى أبو قَيل أن عبد الرحمن بن غنم الأشعري قدم من الشام إلى عبد الله بن عمرو، فقال له عبد الله: ما أقدمك إلى بلادنا؟ قال: أنت. قال: لماذا؟ قال: كنت تحدثنا أن مصر أسرع الأرضين خراباً، ثم أراك قد اتخذت فيها الرُّباع، وبنيت القصور، واطمأنت فيها. قال: إن مصر قد أوفت خرابها، دخلها (بختصر)، فلم يدع فيها إلا السباع والرُّباع. وقد مضى خرابها، فهي - اليوم - أطيب الأرض تراباً، وأبعدها خراباً، ولن تزال فيها بركة، ما دام في شيء من الأرضين بركة. دخل مصر في زمن مروان، ولأهلها عنه حديث واحد^(٥)، رواه ابن وهب عن إبراهيم بن نَشِيط^(٦)، عن ابن أبي حسين^(٧)، عن شَهْر^(٨)، عن عبد الرحمن بن غنم، أفهم بينما هم عند رسول الله ﷺ، وقد نزلت: "بِأَيِّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ...". الآية^(٩).

٦٢ - عبد العزيز بن سَخْبَرَة الغافقي: شهد فتح مصر هو وابنه (شفعة)^(١٠). حدثني يحيى ابن عثمان بن صالح قال: إنه وفد على النبي ﷺ، وكان اسمه (عبد العزى)، فسمّاه النبي عبد العزيز^(١١).

(١) ورد هذا الحديث في (فتوح مصر) ص ٣٠٤، ودلائل النبوة للبيهقي ٣٩٤/٦.

(٢) حسن المحاضرة ٢١٦/١.

(٣) المصدر السابق: ٢١٧/١.

(٤) حسن المحاضرة ١٨/١.

(٥) المصدر السابق ٢١٧/١.

(٦) ورد في (الإصابة) ج ٤ ص ٣٥١ محرفاً حكناً (نَشِيط). والصور ما أثبتته في المتن، فإبراهيم بن نَشِيط هذا من أساتيد

ابن وهب، الذين روى عنهم (قذوب التهذيب ١٥٣/١)، وكذا ورد صحيحاً في (فتوح مصر) ص ٣١٩.

(٧) هو عبد الله بن أبي حسين أستاذ (إبراهيم بن نَشِيط). (قذوب التهذيب ١٥٣/١).

(٨) هو شَهْر بن حَوْشَب (فتوح مصر ٣١٩).

(٩) نعمة الآية: "... إِنَّ يُثْبِتْ لَكُمْ نَسُوكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنْزَلُ الْقُرْآنُ ثُبُتْ لَكُمْ غَفَاً اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ

حَلِيم". (سورة المائدة: ١٠١). وللحديث تنمة عن طريق شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم أبي مالك

الأشعري... قال: فحين لا نسأله إذ قال: إن الله عبادة ليسوا بأنبياء ولا شهداء، يغطهم البيون والشهداء... .

(مسند أحمد ٣٤١/٥، والأسماء والعُلقبات للبيهقي ٢١٤/٢ - ٢١٥).

(١٠) حسن المحاضرة ٢١٧/١.

(١١) الإصابة ٣٧٥/٤ - ٣٧٦.

- ٦٣ - عُتْبَةُ بْنُ الثُّدَرِ السُّلَمِيُّ^(١): حدثني يحيى بن عثمان بن صالح: أنه شهد فتح مصر. ولأهلها عنه حديث واحد، روى من طرق عدة، منها: طريق عَلِيِّ بْنِ رِيَّاحٍ قَالَ: سَمِعْتُ عْتَبَةَ بْنَ النَّدْرِ، وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ يَقُولُ: . . . فذكر حديثاً في قصة (موسى مع شعيب) في الغنم، وصفة أولادها^(٢).
- ٦٤ - عَثْمَانُ بْنُ عَفَّانٍ: دخل مصر في الجاهلية للتجارة، وصار إلى الإسكندرية^(٣).
- ٦٥ - عَدِيُّ بْنُ عَمْرَةَ الْكِنْدِيُّ: شهد فتح مصر، ولهم عنه حديث. روى عنه ابنه عدى^(٤).
- ٦٦ - الْعُرْسُ بْنُ عَمْرَةَ الْكِنْدِيُّ: شهد فتح مصر، ولأهل مصر عنه حديثان. روى عنه ابن أخيه عدى، وغيره^(٥).
- ٦٧ - عَقْبَةُ بْنُ الْحَارِثِ الْمَكِّيَّ: شهد فتح مصر، وهو الذي شرب بها مع عبد الرحمن ابن عمر الخمر. وله رواية عن النبي ﷺ، وليس لأهل مصر عنه شيء^(٦).
- ٦٨ - عَقْبَةُ بْنُ كُذَيْمٍ^(٧) الْأَنْصَارِيُّ: لأهل مصر عنه نحو مائة حديث. مات بمصر سنة ثمان وخمسين^(٨).
- ٦٩ - عَقْبَةُ بْنُ نَافِعٍ الْفَهْرِيُّ: شهد فتح مصر، ولا يعرف له حديث^(٩).
- ٧٠ - عَلَقَمَةُ بْنُ رَمْثَةَ الْجُلُوبِيُّ: شهد فتح مصر، ولأهلها عنه حديث واحد^(١٠).

(١) ورد باسم: عُتَيْدُ بْنُ الثُّدَرِ في (حسن المحاضرة) ٢١٨/١. والصواب ما ذكرت.

(٢) يتناول هذا الحديث صفات الغنم، التي منحها شعيب لموسى وزوجه لما هَمَّا بالرحيل، بعد قضاء موسى الأجل الأول في خدمة شُعَيْبٍ؛ كى يتميَّسا منها. (فتوح مصر ٣٠٤، والمعجم الكبير للطبراني ١٣٤/١٧ - ١٣٥ (رقم ٣٣٢)، وجمع الزوائد باب (سورة القصص) جـ ٧ ص ٨٧ - ٨٨.

(٣) حسن المحاضرة ٢١٨/١.

(٤) السابق: ٢١٩/١.

(٥) السابق: ٢١٩/١.

(٦) حسن المحاضرة ٢١٩/١.

(٧) ذكره السيوطي مُعَرَّفًا، فقال: (عقبة بن كرم). وكذلك ورد محرفاً - لعله من الناسخ - لدى ابن عبد الحكم في (فتوح مصر) ص ١٠٩. والصواب في المتن، ولدى ابن الأثير في (أسد الغابة) ٥٨/٤ (وقد نقل مادته في ترجمته عن أبي نعم)، ورمز له بـ (ع)، وابن مَنْدَةَ، الذي رمز له بالرمز (د)، على نحو ما شرح رموزه في مقدمته (جـ ١١/١)، وابن حجر في (الإصابة ٥٢٥/٤).

(٨) حسن المحاضرة ٢٢٠/١.

(٩) المصدر السابق: ٢٢٠/١. والراجح أنه لا تصح صحبته (الاستيعاب ١٠٧٥/٣، وأسد الغابة ٥٩/٤، والإصابة ٥٦٤ - ٦٥).

(١٠) الإصابة: ٢٢١/١. وحديثه المشار إليه موجود في (فتوح مصر) ص ٣٠٢.

٧١ - **عَمَّار بن ياسر العنسي**^(١): دخل مصر رسولاً من قِبَل عثمان بن عفان، وصار إلى صِقْيَةٍ^(٢).

ولأهل مصر عنه حديث واحد من طرق عدة، منها: طريق أبي عُشَّانَةَ^(٣)، قال: سمعتُ أبا اليَقْظانَ عمار بن ياسر صاحب النبي ﷺ يقول: "أبشروا، فوالله لأنتم أشدُّ حُبًّا لرسول الله ﷺ - ولم تَرَوْه - مِنْ عَامَةٍ مَنْ رَأَاهُ"^(٤). قُتِلَ بِـ(صِفَيْن) سنة سبع وثلاثين، وهو ابن ثلاث وتسعين سنة^(٥).

٧٢ - **عمرو بن الحَمَق الحِزْرَاعِي**: دخل مصر في خلافة عثمان. ولهم عنه حديث في الجند الغربي^(٦)، من طريق عبد الرحمن بن شَرِيح، قال: سمعتُ عُمَيْرَةَ بن عبد الله المَغَافِرِي، يقول: حدثني أبي: قال: سمعتُ ابنَ الحَمَق يقول: قال رسول الله ﷺ: "يَكُونُ فِتْنَةٌ يَكُونُ أَسْلَمُ النَّاسِ فِيهَا - أَوْ قَالَ: خَيْرُ النَّاسِ فِيهَا - الْجَنْدُ الْغَرْبِيُّ". قال ابن الحَمَق: فلذلك قدمتُ عليكم مصر^(٧).

وورد الحديث من وجه آخر^(٨)، عن عمرو بن الحَمَق، أنه قام عند المنبر بمصر، وذلك عند فِتْنَةِ عثمان، فقال: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يقول: "تَكُونُ فِتْنَةٌ خَيْرُ النَّاسِ فِيهَا الْجَنْدُ الْغَرْبِيُّ". وأنتم الجند الغربي، فحُتِّمْتُكُمْ لَأَكُونَ مَعَكُمْ فِيمَا أَنْتُمْ فِيهِ^(٩).

٧٣ - **عمرو بن العاص السَّهْمِي**: لأهل مصر عنه نحو عشرة أحاديث^(١٠).

(١) كنيته: أبو اليَقْظان. ووقع تصحيف في لقبه، فأُطْلِقَ عليه (العنسي). (حسن المحاضرة ٢٢٢/١). والصواب: نسبته إلى (عَنَس)، كما ورد ذلك في (الاستيعاب ١١٣٥/٣، وأسد الغابة ١٢٩/٤، والإصابة ٥٧٥/٤).

(٢) هذا كلام غير صحيح، ولم أحد في تراجمه (طبقات ابن سعد ٩٣/٦، والاستيعاب ١١٣٥/٣ - ١١٤١، وأسد الغابة ١٢٩/٤ - ١٣٥، والإصابة ٥٧٥/٤) ما يفيد دهبه إلى هذه الجزيرة من جزر البحر الأبيض. وقد فتحها المسلمون على يد أسد بن الفرات (ت ٢١٣هـ) أيام الأغالية (معالم الإيمان ٢٤/٢).

(٣) هو حَتَّى بْنُ يُونُسَ الْمَصْرِي الثَّقَفِي (ت ١٢٨هـ). (تهذيب التهذيب ٦٣/٣، والتقريب ٢٠٨/١).

(٤) فتوح مصر: ص ٢٦٧.

(٥) حسن المحاضرة: ٢٢٢/١. وورد في نهاية ترجمته كلمات لا علاقة لها بها هي: (بتقديم الناء على السين)؛ ولذا قُتِّمَتْ باستعادها من النص.

(٦) حسن المحاضرة: ٢٢٣/١.

(٧) ورد في (فتوح مصر) ص ٣٠٩. وأخرجه القسَوِيُّ في (المعرفة والتاريخ) ٤٨٣/٢، والحاكم في (مستدرک)، كتاب (الفتن والملاحم) ج ٤ ص ٤٤٨، وذكر أنه صحيح الإسناد ولم يُخَرِّجْهُ (البخاري، ومسلم)، ووافقه الذهبي وصحَّحه صراحةً وبجمع الزوائد ٣٠٤/٧.

(٨) ثم يذكر السيوطي في نقله عن ابن الربيع ذلك الوجه الآخر (الإسناد).

(٩) حسن المحاضرة ١٦/١.

(١٠) السابق: ٢٢٤/١. وقد روى ابن عبد الحكم أن له عدد أهل مصر أكثر من عشرين حديثاً (فتوح مصر ص ٢٤٨)، أورد له منها عشرة أحاديث (السابق: ص ٢٤٩ - ٢٥٣).

- ٧٤ - عمرو بن مُرّة الجُهَنِي: شهد فتح مصر، ولهم عنه حديث. روى عنه عيسى بن طلحة^(١).
- ٧٥ - عَنَسُ بْنُ ثعلبة البلوى: له صحبة، وبايع تحت الشجرة بيعة الرضوان، وشهد فتح مصر^(٢).
- ٧٦ - عُبَيْسَةُ بْنُ عَدَى: أبو الوليد البلوى. روى سعيد بن عُفَيْر: أنه شهد الحديبية، وقال له النبي ﷺ، ولرَهْط من قومه، وانتسبوا إليه: لا إلى جَعْد، ولا إلى صخر، أنتم بنو عبید الله^(٤). بايع تحت الشجرة، وشهد فتح مصر، ورجع إلى الحجاز^(٥).
- ٧٧ - عَوْفُ بْنُ مالك الأشجعيّ الفُطَافِي: دخل مصر مع معاوية، ولأهلها عنه حديثان^(٦).

(حرف الفاء)

- ٧٨ - فَضَالَةُ بْنُ عُبيد الله الأنصاري: شهد فتح مصر، ولأهلها عنه نحو عشرين حديثاً^(٧). مات سنة ثلاث وخمسين، وقيل: سنة خمس وخمسين^(٨).

(حرف القاف)

- ٧٩ - قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري: شهد فتح مصر، واختط بها، ولهم عنه أحاديث^(٩). أدرك الإسلام عشرة، طول كل رجل عشرة أشبار: عبادة بن الصامت، وسعد بن معاذ، وقيس بن سعد بن عبادة، وجريز بن عبد الله البجلي، وعدى بن حاتم الطائي، وعمرو بن معدى كرب الزبيدي، والأشعث بن قيس الكندي، وليبد بن ربيعة، وأبو زيد الطائي، وعامر ابن الطفيل، ويقال: طلحة بن خويلد^(١٠).
- ٨٠ - قَيْسَبَةُ بْنُ كلثوم: شهد فتح مصر^(١١).

(١) حسن المحاضرة ١/٢٢٤.
 (٢) ورد في (المصدر السابق ١/٢٢٥) مصحفاً (عنس). راجع: (أسد الغابة ٤/٣٠٣).
 (٣) الإصابة ٤/٧٣٣، وحسن المحاضرة ١/٢٢٥.
 (٤) الإصابة ٤/٧٣٤. (٥) حسن المحاضرة ١/٢٢٥.
 (٦) المصدر السابق: ١/٢٢٥.
 (٧) ذكر ابن عبد الحكم منها اثني عشر حديثاً (فتوح مصر) ص ٢٧٦ - ٢٧٩.
 (٨) حسن المحاضرة: ١/٢٢٦.
 (٩) المصدر السابق: ١/٢٢٧. ذكر منها ابن عبد الحكم أربعة أحاديث (فتوح مصر) ص ٢٧٣ - ٢٧٤.
 (١٠) حسن المحاضرة ١/٢٢٨.
 (١١) السابق: ١/٢٢٩.

(حرف الكاف)

٨١ - **كثير بن أبي كثير الأزدي**^(١): لم عنه حديث واحد إن كان صحيحاً، وهو حديث **خَبْرَةُ** بن **شَرِيح**، عن عقبه بن مسلم، أنه سأل عن الوضوء مما مَسَّتْ النار، فقال: إن كثيراً - وكان من أصحاب النبي ﷺ - يقول: " كنا عند النبي ﷺ، فَوُضِعَ له طعام فأكلنا، ثم أُقِيمَت الصلاة، فقمنا فصلينا، ولم نتوضأ"^(٢). والمشهور فيه عقبه بن مسلم، عن عبد الله بن الحارث^(٣).

٨٢ - **كعب بن عدى التنوخي**: شهد فتح مصر، ولم عنه حديث^(٤). روى سعيد بن كثير^(٥) بن عفير، حدثني عبد الحميد بن كعب بن علقمة بن كعب بن عدى التنوخي، عن عمرو ابن الحارث، عن ناعم بن أُجَيْل، عن كعب بن عدى، قال: أُقْبِلْتُ في وفد من أهل الحيرة إلى النبي ﷺ، فعرض علينا الإسلام، فأسلمنا، ثم انصرفنا إلى الحيرة، فلم نلبث أن جاءتنا وفاة رسول الله ﷺ، فارتاب أصحابي، وقالوا لو كان نبياً لم يَمُتْ. فقلت: فقد مات الأنبياء قبله، فثبت على الإسلام، ثم خرجت أريد المدينة، فمررت برهاب كنا لا نقطع أمراً دونه، فمُجِئْتُ إليه، فقلت: أخبرني عن أمر أردته، لَقَحَ في صدري منه شيء. قال: انت باسلك من الأشياء، فأتيت بكعب. قال: ألقه في هذا الشجر - لشجر أخرجه - فألقيت الكعب فيه، فإذا بصفة النبي ﷺ كما رأيته. وإذا موته في الحين الذي مات فيه، فاشتدت بصيرتي في إيمان، فقدمت على أبي بكر، فأعلمته، وأقمت عنده، ووجهني إلى المقوقس، ورجعت، ثم وجهني عمر أيضاً، فقدمت عليه بكتابه بعد وقعة اليرموك، ولم أعلم بها: فقال لي: علمت أن الروم قتل العرب، وهزمتهم؟ قلت: لا. قال: ولم؟ قلت: لأن الله وعد نبيه كَيُظْهِرَهُ على الدين كله، وليس يخلف الميعاد. قال: فإن العرب قتل الروم - والله - ثَلَّةَ عاد، وإن نبيكم قد صدق، ثم سألتني عن وجوه الصحابة، فأهدى لهم. وقلت له: إن العباس عمه حي، فقتله؟^(٦).

٨٣ - **كعب بن يسار بن ضنّة العبسي**: لأهل مصر عنه حديث^(٧).

(١) لم يذكر نسبه ابن حجر (الإصابة) ٥٧٤/٥.

(٢) السابق: ٥٧٤/٥ - ٥٧٥.

(٣) السابق: ٥٧٤/٥.

(٤) حسن المحاضرة: ٢٢٩/١.

(٥) ورد في (الإصابة) ج ٥ ص ٦٠١ بلفظ (خير) خطأ.

(٦) الإصابة ٦٠١/٥ - ٦٠٢. وذكر السيوطي في (حسن المحاضرة ٢٣٠/١): أنه ساق هذا الأثر في قصة المقوقس، ولم أحده.

(٧) المصدر السابق: ٢٣٠/١.

(حرف الميم)

- ٨٤ - مالك بن زاهر: لم عنه حديث^(١) من طريق ابن لهيعة، عن بكر بن سَوَّادة، عن سعيد ابن عثمان، أنه رأى مالك بن زاهر، وكان من أصحاب النبي ﷺ يُقْنَى بـأَبْنِ بَاطِنٍ قدمه إذا توضأ^(٢).
- ٨٥ - مالك بن عَتَاهِيَةَ التَّجِيبِي: شهد فتح مصر، ولم عنه حديث^(٣).
- ٨٦ - مالك بن قُدَامَةَ: تابع النبي ﷺ. صحابي دخل مصر^(٤).
- ٨٧ - مالك بن هُبَيْرَةَ التَّجِيبِي: شهد فتح مصر، ولم عنه حديث^(٥).
- ٨٨ - محمد بن بَشِيرِ الأنصاري: شهد فتح مصر، وليس له حديث في مصر^(٦).
- ٨٩ - محمد بن أبي حبيب المصري: صحابي دخل مصر، وله حديث من رواية عبد الله بن السعدي، مثته: " لا تنقطع الهجرة ما قوتل الكفار"^(٧).
- ٩٠ - محمد بن مَسْلَمَةَ: قدم مصر رسولاً من عمر إلى عمرو بن العاص، يقاسمه ماله. مات بالمدينة في صفر سنة ثلاث وأربعين، وله سبع وسبعون سنة^(٨). وكان طويلاً معتدلاً أصْلَع^(٩).
- ٩١ - مَحْمُودُ بْنُ جَزْءِ الزُّبَيْدِي: شهد فتح مصر^(١٠).
- ٩٢ - المستورد بن شَدَّادِ الفَهْرِي: شهد فتح مصر، واحتط بها، ولم عنه أحاديث^(١١)، ولم يرو عنه إلا أهل مصر فيما أعلم إلا قيس بن أبي حازم، فإن له عنه رواية. وقيل: إن أبا إسحاق السبيعي روى عنه أيضاً^(١٢).
- ٩٣ - مسعود بن أوس الأنصاري: صحابي دخل مصر^(١٣).

(١) السابق ٢٣١/١.

(٢) الإصابة ٧٢٥/٥ - ٧٢٦. وورد حديثه هذا في (فتوح مصر) ص ٣١٧.

(٣) حسن المحاضرة: ٢٣٢/١. وحديثه في (فتوح مصر) ص ٣٠٩.

(٤) حسن المحاضرة ٢٣٢/١.

(٥) اكتفى بالشطر الأول من العبارة في كل من: تهذيب التهذيب ٢٢/١٠، والإصابة ٧٥٧/٥، ووردت كاملة في (حسن المحاضرة) ٢٣٢/١. أما حديثه، فرواه ابن عبد الحكم في (فتوح مصر) ص ٣١٠.

(٦) السابق: ٢٣٣/١. (٧) المصدر السابق: ٢٣٣/١.

(٨) الإصابة: ٣٥/٦، وحسن المحاضرة ٢٣٤/١.

(٩) إضافة في (الإصابة) ٣٥/٦.

(١٠) حسن المحاضرة ٢٣٤/١.

(١١) السابق ٢٣٥/١. وله قرابة سنة أحاديث روى منها خمسة في (فتوح مصر ٢٦١).

(١٢) الإصابة ٩٠/٦.

(١٣) حسن المحاضرة ٢٣٥/١.

٩٤ - مَسْلَمَةُ بْنُ مُخَلَّدٍ الْأَنْصَارِيُّ: روى موسى بن عُلى، عن أبيه، عن مسلمة بن مخلد،

قال: وَلِدْتُ حِينَ قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ، وَقَبَضَ النَّبِيُّ، وَأَنَا ابْنُ عَشْرِ سِنِينَ^(١). وفي رواية أخرى من وجه آخر: قدم النبي وأنا ابن أربع سنين، ومات وأنا ابن أربع عشرة سنة^(٢). شهد فتح مصر، واختلط بها، ولأهل مصر عنه حديثان^(٣) أحدهما - أَغْرَوْا النِّسَاءَ يَلْزِمْنَ الْحِجَالَ، وَلَمْ يَصْرَحْ فِيهِ بِالسَّمَاعِ. والثاني - أَنَّهُ وَلِدَ سَنَةَ الْهِجْرَةِ.

ولى إمرة مصر، وهو أول من جُمِعت له مصر والمغرب، وذلك في خلافة معاوية، وصُدِّرَ من خلافة يزيد بن معاوية^(٤).

ورد من طريق ضِمَامِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ، عَنْ أَبِي قَبِيلٍ، قَالَ: بَعَثَ إِلَى حَنْظَلَةَ (يعني: أمير مصر)، فَقَالَ: شَيْخٌ، لَوْ كَانَ فِي جَسَدِكَ لِلْسُّوْطِ مَوْضِعٌ لَضْرِبْتُكَ. فَقَالَ لَهُ أَبُو قَبِيلٍ: وَلَمْ ذَاكَ؟ قَالَ: صِرْتُ كَاهِنًا تَقُولُ: الْآخِرُ فَالْآخِرُ شَرٌّ! فَقَالَ لَهُ أَبُو قَبِيلٍ: لَيْسَ أَنَا الَّذِي قُلْتُ هَذَا، إِنَّمَا سَمِعْتُهُ مِنْ مُسْلِمَةَ ابْنِ مُخَلَّدٍ، وَقَدْ قَالَ - وَكَانَ زَادَ فِي بَعْثِ الْبَحْرِ، فَكَرِهَ الْجَنْدَ ذَلِكَ، وَهُوَ عَلَى أَعْوَادِكَ هَذِهِ يَقُولُ: يَا أَهْلَ مِصْرَ، مَا تَقَعَّمْتُمْ مِنِّي؟ وَاللَّهِ، لَقَدْ زِدْتُ فِي مَدَدِكُمْ، وَعَدَدِكُمْ، وَقَوْتَكُمْ عَلَى عَدُوِّكُمْ. اعْلَمُوا أَنِّي خَيْرٌ مِنْ بَعْدِي، فَالْآخِرُ شَرٌّ. وفي لفظ: والذي نفسى بيده، لَا يَأْتِيَنَّكُمْ زَمَنٌ إِلَّا الْآخِرُ فَالْآخِرُ شَرٌّ، فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّخِذَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ، فَلْيَفْعَلْ^(٥). مات بمصر سنة اثنتين وستين^(٦). وقيل: مات بالإسكندرية^(٧).

٩٥ - مَعَاذُ بْنُ أَنْسِ الْجُهَنِيِّ: شهد فتح مصر، ولهم عنه ستة وأربعون حديثاً^(٨).

٩٦ - مَعَاوِيَةُ بْنُ حُذَيْجٍ التَّجِيبِيُّ: شهد فتح مصر، وهو الوافد على عمر بفتح الإسكندرية^(٩).

٩٧ - مَعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سَفْيَانَ: دخل مصر، وبلغ إلى سَلَمَنْتٍ من كورة^(١٠) عين شمس،

(١) الإصابة ١١٧/٦.

(٢) المصدر السابق: ١١٧/٦.

(٣) حسن المحاضرة ٢٣٥/١.

(٤) الإصابة ١١٧/٦.

(٥) الإصابة: ١١٧/٦ - ١١٨.

(٦) المصدر السابق: ١١٧/٦، وحسن المحاضرة ٢٣٥/١ - ٢٣٦.

(٧) المصدر السابق: ٢٣٦/١.

(٨) السابق: ٢٣٧/١. وقد ذكر ابن عبد الحكم أن أهل مصر رووا عنه حوالي ٤٠ حديثاً، أورد منها ١٨ حديثاً

(فتوح مصر ص ٢٩٥ - ٢٩٨).

(٩) حسن المحاضرة ٢٣٧/١.

(١٠) وردت في (المصدر السابق ٢٣٧/١): (كُور). وخُذَّ ابن عبد الحكم تاريخ دخوله في سنة ٣٧هـ (فتوح مصر ٢٦٧).

ورجع من نَمَ، ولهم عنه حديثان^(١). مات بدمشق في رجب سنة ست وستين، وله اثنتان وثمانون سنة^(٢).

٩٨ - مُعَيْقِبُ بْنُ أَبِي فَاطِمَةَ الدَّوْسِي: شهد فتح مصر. مات سنة أربعين في خلافة عثمان^(٣).

٩٩ - الْمُقَدَّادُ بْنُ الْأَسْوَد: شهد فتح مصر، ولهم عنه حديثان^(٤). مات بالمدينة سنة ثلاث وثلاثين، وله نحو سبعين سنة. روى يزيد بن أبي حبيب: أن المقداد بن الأسود غزا مع عبد الله بن سعد إفريقية. فلما رجعوا، قال عبد الله بن سعد للمقداد في دار بناها: كيف ترى بنيان هذه الدار؟ فقال له المقداد: إن كان من مال الله، فقد أفسدت، وإن كان من مالك فقد أسرفت. فقال عبد الله: لولا أن يقول قائل: أفسدت مرتين، لهدمتها^(٥).

١٠٠ - الْمُتَنَذِرُ الْأَسْلَمِيُّ: دخل مصر، ولهم عنه حديث، وسكن إفريقية^(٦).

١٠١ - مَهَاجِرٌ^(٧): مولى أم المؤمنين أم سلمة. روى يحيى^(٨)، عن إبراهيم بن عبد الله التميمي، عن عمران بن عبد الله الكندي، عن بُكَيْرٍ^(٩) مولى عَمْرَةَ: سمعت المهاجر يقول: خدمتُ رسول الله خمس سنين، فلم يقل لي لشيء صنعتُه، لِمَ صنعتُه؟ ولا لشيء تركته: لم تركته^(١٠)؟ دخل مصر، وسكن الصعيد، ولهم عنه حديث^(١١).

روى عنه: بُكَيْرٌ (جَدَّ يَحْيَى بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُكَيْرٍ)، ولم يرو عنه غير أهل مصر^(١٢).

(١) السابق: ٢٦٦ - ٢٦٧.

(٢) حسن المحاضرة ٢٣٧/١. والصواب: أنه تولى بدمشق سنة ٦٠هـ. (فتوح مصر ٢٦٧).

(٣) حسن المحاضرة ٢٣٨/١. والصواب: في خلافة علي. (أسد الغابة ٢٤١/٥).

(٤) قال ابن عبد الحكم: لأهل مصر عنه ثلاثة أحاديث (روايات) عن نفسه، وليس لهم عنه، عن رسول الله شيء (فتوح مصر ٢٦٥).

(٥) السابق: ٢٦٦.

(٦) حسن المحاضرة ٢٣٩/١.

(٧) ورد معرًى من (ال) في (فتوح مصر ٣١١، وحسن المحاضرة ٢٣٩/١). وعُرِفَتْ في: (أسد الغابة ٢٧٩/٥، والإصابة ٢٣٠/٦). والظاهر أن كليهما وارد.

(٨) هو يحيى بن عبد الله بن بُكَيْرٍ.

(٩) هو جد المحدث والمؤرخ المصري السابق.

(١٠) الإصابة ٢٣٠/٦، وحسن المحاضرة ٢٣٩/١.

(١١) حسن المحاضرة ٢٣٩/١. ويلاحظ أنه ورد في الحديث السابق أنه خدم الرسول سبع سنين (فتوح مصر ٣١١)، بينما ورد في (الإصابة ٢٣٠/٦) دون تحديد مدة.

(١٢) ورد النص كاملاً في (حسن المحاضرة ٢٣٩/١)، واقتصر في (الإصابة ٢٣٠/٦)، على آخره.

(حرف النون)

١٠٢ - نعيم بن حَبَّاب العامري: صحابي دخل مصر^(١).

(حرف الهاء)

١٠٣ - هُبَيْب بن مُغْفَل: شهد فتح مصر، واختط بها، ولهم عنه حديث^(٢)، وإليه يُنسب وادي هُبَيْب؛ لأنه كَانَ اعتزل في فتنه عثمان هناك، وتوفى به^(٣).

(حرف الـام ألف)

١٠٤ - لاجب بن مالك بن سعد الله البلوي: صحابي بايع تحت الشجرة، وشهد فتح مصر، ولا رواية له^(٤).

(حرف الياء)

١٠٥ - يزيد بن أَنَس الفهري: شهد فتح مصر، واختط بها، ولم يرو إلا حديثاً واحداً في غزوة حُنَيْن رواه عنه غير أهل مصر^(٥).

(الكُنى)

(حرف الألف)

١٠٦ - أبو الأعور السُّلَمي: قدم مصر مع مروان بن الحكم، ولهم عنه حديث^(٦).

١٠٧ - أبو أيوب الأنصاري: شهد فتح مصر، وغزا بجرها، ولهم عنه نحو عشرين حديثاً^(٧). مات بالقسطنطينية غازياً مع يزيد بن معاوية في سنة اثنتين وخمسين، وقبره هناك يستسقى به الروم إذا قَحَطُوا^(٨).

(حرف الباء)

١٠٨ - أبو بَصْرَةَ الغفاري: شهد فتح مصر، واختط بها، ولهم عنه عشرة أحاديث^(٩).

(١) حسن المحاضرة ١/٢٤٠.

(٢) أورده ابن عبد الحكم في (فتوح مصر) ص ٢٨٦ - ٢٨٧.

(٣) حسن المحاضرة: ١/٢٤٠ - ٢٤١.

(٤) المصدر السابق: ١/٢٤١.

(٥) السابق: ١/٢٤٢.

(٦) حسن المحاضرة ١/٢٤٢. وحديثه في (فتوح مصر) ص ٣٠٩.

(٧) ذكر ابن عبد الحكم أن له تسعة أحاديث، أورد منها ستة. (السابق: ص ٢٦٨ - ٢٧٠).

(٨) حسن المحاضرة ١/٢٤٣.

(٩) المصدر السابق ١/٢٤٣. قال ابن عبد الحكم: له خمسة أحاديث ذكرها في (فتوح مصر) ص ٢٨٣ - ٢٨٤.

(حرف الثاء)

١٠٩ - أبو ثور الفهمي: شهد فتح مصر، ولم عنه حديث^(١).

(حرف الجيم)

١١٠ - أبو جبر: بدرى. أخبرني يحيى بن عثمان بذلك، وأنه دخل مصر^(٢).

١١١ - أبو جُدَيْع المرادى: ذكر ابن وزير، وعبد العزيز بن ميسرة: أنه كان عاملاً للنبي ﷺ، وأنه كان من أهل مصر^(٣).

١١٢ - أبو جمعة الأنصاري: شهد فتح مصر، ولم عنه حديث^(٤).

(حرف الدال)

١١٣ - أبو الدرداء: شهد فتح مصر، ولم عنه خمسة أحاديث. مات سنة اثنين وثلاثين^(٥).

(حرف الذال)

١١٤ - أبو ذرّ الغفاري: شهد فتح مصر، واحتط بما، ولم عنه عشرون حديثاً^(٦)، منها: حديث قال فيه أبو ذرّ الغفاري^(٧): "قال رسول الله ﷺ: "إنكم ستفتحون أرضاً يُذكر فيها القيراط"^(٨)، فاستوصوا بأهلها خيراً؛ فإن لهم ذمّة ورحماً. فإذا رأيت رجلين يقتتلان على موضع لبنّة، فاحرجّ منها". قال: فمرّ أبو ذرّ بـ (ربيعة، وعبد الرحمن) ابني^(٩)

(١) حسن المحاضرة ٢٤٣/١. ذكر حديثه في (فتوح مصر) صـ ٣٠٣.

(٢) حسن المحاضرة ٢٤٤/١.

(٣) حسن المحاضرة: ٢٥٢/١. أورده السيوطي في (باب المبهات)، وقد نقلته إلى (باب الكنى)، فهو به أليق.

(٤) الإصابة: ٦٦/٧، وتهذيب التهذيب ٦٣/١٢، وحسن المحاضرة ٢٤٤/١. هو حبيب ابن سباع، وحديثه في (فتوح مصر) صـ ٣٠٨.

(٥) حسن المحاضرة ٢٤٥/١.

(٦) قال ابن عبد الحكم: لأهل مصر عنه أحاديث، ذكر منها تسعة. (فتوح مصر ٢٨٤ - ٢٨٦).

(٧) هو جُذَيْب بن جُنَادَة (هكذا ضبط ابن حجر الاسمين خلال تعريفه بـ (جندب بن مكيث، وحنادة بن أبي أمية). (التقريب ١٣٤/١).

(٨) نوع من الأوزان المستخدمة في مصر آنذاك. ويذكر د. الريس أن الدينار إذا انقسم إلى عشرين قيراطاً، فإن مقدار القيراط يكون ٢٥ ÷ ٤ = ٢٠ و ٢١٢٥ و. من الجرام. وإذا اعتبرناه إلى اثنين وعشرين قيراطاً، فإن القيراط يساوي ٢٥ ÷ ٢٢ = ١٩٣ و. من الجرام. وإذا عدّ منقسماً إلى أربعة وعشرين قيراطاً، فإن القيراط يساوي ٢٥ ÷ ٢٤ = ١٧٧ و. من الجرام. (الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية) صـ ٣٥٤.

(٩) وهو الأدق كما في (فتوح مصر) صـ ٢٨٥، وهو أصح مما ورد في (حسن المحاضرة) ١٢/١، إذ ورد بلفظ (ابن).

شرح جيل بن حسنة، وهما يتنازعان في موضع لبنة، فخرج منها^(١). وقد سكن مصر مدة، ثم خرج منها، لما رأى اثنين يتنازعان في موضع لبنة، كما أمره رسول الله بذلك. مات بالرَّيْدَة في ذى الحجة سنة اثنتين وثلاثين^(٢).

(حرف الراء)

١١٥ - أبو رافع القبطي: شهد فتح مصر، واختط بها، ولهم عنه حديث. مات بالمدينة بعد عثمان بيسر^(٣).

١١٦ - أبو الرمضاء البلوي: شهد فتح مصر، ولهم عنه حديث^(٤).

(حرف الزين)

١١٧ - أبو الزعراء: صحابي دخل مصر. ولهم عنه حديث^(٥)، رواه ابن وهب، عن عبد الله ابن عبيد القيس، عن عبد الله بن جنادة الماعري، عن أبي عبد الرحمن الحبلي، عن أبي الزعراء، قال: خرجت مع رسول الله في سفر، فسمعتُه يقول: "غير الدجال أخوفُ علي أمتي من الدجال أئمة مُضِلُّون"^(٦).

١١٨ - أبو زَمْعَة البلوي: شهد فتح مصر، ولهم عنه حديث في الذي قتل تسعة وتسعين نفساً، وسأل: هل لي من توبة؟ ولم يرو عن النبي ﷺ غيره، ومات بإفريقية. ويقال: اسمه مسعود بن الأسود^(٧).

(حرف السين)

١١٩ - أبو سعيد (صاحب رسول الله): ويقال: أبو سعاد. واسمه: عبد الله بن بشر. صحابي دخل مصر^(٨).

(١) ورد هذا النص في (المصدر السابق) ١١/١ - ١٢، وكذلك ورد في (فتوح مصر) ص ٢٨٥ من طريق ابن وهب، عن حُرْمَةَ بن عمران التميمي، عن ابن شماس المَهْرِيِّ، عن أبي ذر. هذا، وقد أخرج هذا الحديث الإمام أحمد في (مسنده): ١٧٣/٥ - ١٧٤، والإمام مسلم في (صحيحه)، كتاب (فضائل الصحابة)، باب (وصية النبي بأهل مصر) ج ٤ ص ١٩٧ (رقم ٢٥٤٣).

(٢) حسن المحاضرة ٢٤٥/١. (وحدّد ابن عبد الحكم ظروف وفاته، بأنه تولى منصرفه من المدينة إلى الكوفة). (فتوح مصر ٢٨٦).

(٣) حسن المحاضرة ٢٤٥/١ - ٢٤٦.

(٤) السابق: ٢٤٦/١. حديثه في (فتوح مصر) ص ٣٠٢. وأكثر المحدثين على أنه بالميم، وأهل مصر ينطقونه بالباء (أبو الريداء). (الاستيعاب ١٦٥٨/٤، وأسد الغابة ١١٢/٦).

(٥) حسن المحاضرة ٢٤٦/١.

(٦) الإصابة ١٥٣/٧ - ١٥٤.

(٧) حسن المحاضرة ٢٤٧/١. تراجع الحديث كاملاً في (أسد الغابة) ١٢٢/٦.

(٨) حسن المحاضرة ٢٤٧/١.

(حرف الصاد)

١٢٠ - أبو صِرْمَةَ الأنصاري: صحابي نزل مصر، وشهد فتح مصر^(١)، فيما يذكر يحيى بن عثمان. وذكر أحمد بن يحيى بن الوزير: أنه قدم على (عقبة بن عامر). وروى زياد بن أسوب، قال: كنا مع أبي أيوب في البحر، ومعنا أبو صرمة الأنصاري صاحب رسول الله... الحديث^(٢). ويقال: هو أبو صرمة، الذي نزلت فيه^(٣): "وَكُلُّوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ... الآية"^(٤).

(حرف الضاد)

١٢١ - أبو ضُبَيْس^(٥) البَلَوِي: صحابي دخل مصر؛ لغزو المغرب^(٦).

(حرف العين)

١٢٢ - أبو عبد الرحمن الجُهَنِي: صحابي دخل مصر، ولهم عنه حديثان^(٧).

١٢٣ - أبو عبد الرحمن القَيْنِي: صحابي دخل مصر، ولهم عنه حديث^(٨).

(حرف الفاء)

١٢٤ - أبو فاطمة الأزدي: شهد فتح مصر، واختلط بها، ولهم عنه حديث^(٩).

(حرف الميم)

١٢٥ - أبو مالك^(١٠) الأشعري: هو الصحابي كعب بن عاصم، شهد فتح مصر، ولهم عنه حديث^(١١).

(١) المصدر السابق: ٢٤٨/١.

(٢) لم يكمل ابن حجر نص الحديث.

(٣) سورة البقرة: من الآية ١٨٧.

(٤) الإصابة: ٢١٩/٧.

(٥) وردت هذه اللفظة معروفة في (الإصابة) ٢٢٥/٧.

(٦) حسن المحاضرة ٢٤٨/١.

(٧) المصدر السابق: ٢٤٨/١. حديثه في (فتوح مصر) ص ٢٩٤ - ٢٩٥.

(٨) حسن المحاضرة ٢٤٨/١.

(٩) السابق: ٢٤٩/١. حديثه في (فتوح مصر) ص ٣٠٨ - ٣٠٩.

(١٠) ذكر ابن حجر في (تذويب التهذيب): ٣٨٩/٨ - ٣٩٠: أن كنيته (أبو مالك). ولا يصح تسمية السيوطي له بـ

(أبي فاطمة). (حسن المحاضرة ٢٤٩/١).

(١١) حسن المحاضرة: ٢٤٩/١.

- ١٢٦ - أبو مسلم الغافقي: صحابي دخل مصر، ولهم عنه حديث^(١).
 ١٢٧ - أبو مُلَيْكَةَ^(٢) البلوي: صحابي دخل مصر، لهم عنه ثلاثة أحاديث^(٣)، منها: ما رواه عَلِيُّ ابن رَبَاح، عن أبي مليكة البلوي، أنه قال لأبي راشد، الذي كان بفلسطين: كيف بك - يا أبا راشد - إذا وليك ولاة، إن عصيتهم دخلت النار، وإن أطعتهم دخلت النار؟!^(٤).
 ١٢٨ - أبو موسى الغافقي: خديم النبي، وشهد فتح مصر، ولهم عنه ثلاثة أحاديث^(٥).

(حرف الهاء)

- ١٢٩ - أبو هُرَيْرَةَ الدَّوْسِيُّ: قدم مصر على مسلمة بن مخلد في خلافة معاوية، ولهم عنه ثلاثة وثلاثون حديثاً^(٦).
 ١٣٠ - أبو هند الداري: دخل مصر، ولهم عنه حديث^(٧).
 ١٣١ - أبو الهيثم: صحابي دخل مصر^(٨).

(حرف الواو)

- ١٣٢ - أبو وَحْوَاحِ البلوي: صحابي دخل مصر، ولهم عنه حديث^(٩).

(المبهمات)

- ١٣٣ - رجل من صُداء: لأهل مصر عنه حديث واحد من طريق أبي عبد الله بن جزء، عن بكر بن سواده، عن رجل من صداء، قال: أتينا النبي ﷺ - اثنا عشر رجلاً - فبايعناه، وترك منا رجلاً، لم يبايعه، فقلنا: يا بايعه يا رسول الله. فقال: لن أبايعه، حتى يترع النبي عليه، إنه مَنْ كان عليه مثل الذي عليه، كان مشركاً ما كانت عليه. قال: فنظرنا، فإذا في عُصْده سَيْرٌ فيه شيء من لحناً شجرة^(١٠).

(١) المصدر السابق: ٢٥٠/١. حديثه في (فتوح مصر) ص ٣١٤.

(٢) ورد معروفاً (مُلكية) في (حسن المحاضرة): ٢٥٠/١.

(٣) المصدر السابق: ٢٥٠/١.

(٤) الإصابة ٣٨٥/٧. أوضح ابن عبد الحكم أن أبا راشد هذا كان أميراً، أو والياً بفلسطين. (فتوح مصر ٣١٥).

(٥) هو مالك بن عباد (حسن المحاضرة ٢٥٠/١). له حديثان في (فتوح مصر) ص ٣٠٥ - ٣٠٦.

(٦) حسن المحاضرة ٢٥٠/١. ذكر ابن عبد الحكم أن له شيئاً بعشرين حديثاً، أورد منها ثمانية (فتوح مصر) ص ٢٨٠ - ٢٨٢.

(٧) حسن المحاضرة ٢٥١/١.

(٨) حسن المحاضرة ٢٥١/١.

(٩) المصدر السابق: ٢٥١/١. حديثه في (فتوح مصر) ص ٣١٤.

(١٠) حسن المحاضرة: ٢٥٢/١. ولها الشجرة: النَّحْاء: قشرة كل شيء، ويُطلق على السبيح الوعاني، الذي يوصل

الغذاء إلى النبات (المعجم الوسيط مادة: ل. ح. ج. ١) ص ٨٥٣.

(خاتمة)

ذكر ابن وزير: أنه دخل مصر مع عمرو بن العاص من بليّ - ممن بايع تحت الشجرة - مائة رجل. والمقلّ يقول: سبعون رجلاً^(١).

(دراسة كتاب ابن الربيع الجيزي عن (الصحابة)

والآن مع دراسة المحاولة المتواضعة التي قمت بها لتجميع بقايا كتابه الأول على ضوء ما سمحت به المادة المتاحة في بطون المصادر المتأخرة المعنية بذكر تراجم الصحابة المصريين (رضي الله عنهم). وقد حاولت أن أتحرى الدقة، فلا أنسب إلى (مؤرخنا) ما لم تصرح المصادر الناقلة عنه بنسبته إليه، مرتباً تراجمه على (حروف المعجم)، رغم عدم وجود ما يدل على انتهاج ابن الربيع هذا النهج، إلا أنه المنهج الذي تَوَخَّاهُ السيوطي في استدراكه^(٢)، فلعله تبع منهجه.

ضوابط دراسة بقايا كتاب (ابن الربيع الجيزي)
عن (الصحابة في مصر)

الضابط الأول - ينبغي - قبل تلك الدراسة - أن نتذكر أننا لسنا أمام كتاب كامل مطبوع، بل نحن أمام أشلاء كتاب مفقود، لعب المؤرخ السيوطي دوراً كبيراً في الحفاظ على قدر لا بأس به منه. غير أن السيوطي - بدافع الاختصار - فرّغ كثيراً من التراجم من محتوياتها، فجاءت سطحية، تكاد تخلو من مادتها التاريخية^(٣)، بل أغفل النقل عن (ابن الربيع) في بعض الأحيان، خاصة ما يتعلق بترجمة صحابي مهم^(٤) في مصر. ومن هنا يجب أن تكون ملاحظتنا العامة المنهجية حذرة، واضحة ذلك في الاعتبار.

الضابط الثاني - ألا ننسب لابن الربيع إلا ما صرّحت المصادر الناقلة عنه بصحة نسبة ما

(١) حسن المحاضرة ١/ ٢٥٤.

(٢) وذلك في كتاب (دَرِّ السَّحَابَةِ) الموجود داخل كتابه: (حسن المحاضرة) ج ١ - ص ١٦٦ - ٢٥٤.

(٣) راجع - مثلاً - تراجم الصحابة: بشر بن ربيعة الخنعمي (رقم ٥)، وجرهد بن خويلد (رقم ١٤)، وحمزة بن عمرو الأسلمي (رقم ١٨).

(٤) هو الصحابي الجليل الفقيه والي مصر (٤٤ - ٤٧هـ) عقبة بن عامر الجهني، الذي لعب دوراً رائداً مهماً في حياة مصر العلمية، وذكر ابن عبد الحكم أن له في مصر قرابة مائة حديث، ذكر له منها ٣٨ حديثاً في (فتوح مصر) ص ٢٨٧ - ٢٩٤. هذا الصحابي لم نجد له ذكراً في بقايا كتاب ابن الربيع، وبصعب علينا التسليم بأنه كان يجمله، ولا يعرف قدره.

نقلتُ إليه. ومن هنا يجب تحديد بداية ونهاية الاقتباس عن ابن الربيع؛ لئلا يلتبس بما أخذ عن غيره من المصادر الأخرى^(١).

الضابط الثالث والأخير - وقع حذف لكثير من أسانيد مرويات (ابن الربيع)، وكذلك اكتفى السيوطي بنقل إشارة ابن الربيع إلى عدد الأحاديث، التي رواها الصحابي دون ذكر الأحاديث نفسها بطرقها المختلفة؛ مما أدى إلى انطماس عدد من موارد ابن الربيع، ونقص مادته، واختفاء معالم حضور شخصيته تعليلاً، وتعليقاً، اللهم إلا في مواطن محدودة للغاية. ولذا وجب مراعاة ذلك كله عند النظر إلى منهج ابن الربيع.

الملاحظات العامة على بقايا (ابن الربيع الجيزي) عن (تاريخ الصحابة في مصر):

أولاً - ذكر السيوطي أن المؤرخ (محمد بن الربيع الجيزي) ألف كتاباً في مجلد عن تاريخ الصحابة، الذين دخلوا مصر، وأنه أورد به مائة، وثيقاً وأربعين صحابياً، وأنه استدرك عليه ما فاتته منهم، والسيوطي استكمل ذلك من كتاب ابن عبد الحكم، وتاريخ ابن يونس، وطبقات ابن سعد، وتجريد الصحابة للذهبي، وغيرها، حتى وصل بعددهم إلى ما يزيد على (ثلاثمائة) صحابي^(٢).

والحق أنه بالنظر إلى عدد الصحابة، الذين أوردتهم السيوطي، نقلاً عن كتاب (ابن الربيع)، نلاحظ أنهم بلغوا حوالي (١٣٢ صحابياً)، وذلك يعني أن معظم أسماء الصحابة الموجودين في كتاب (ابن الربيع) موجودة بين أيدينا. أما محتوى تراجم هؤلاء، فهو الذي حدث فيه اختصار شديد - كما أشرتُ من قبل، وسأشير بتفصيل آخر من بعد - بحيث وجدنا المادة التاريخية المُتَبَقَّة - مثلاً - في ترجمة صحابي مهم كعمرو بن العاص^(٣)، وابنه عبد الله^(٤) شحيحة، ولا تتناسب - بحال - مع أهميتهما، ودورهما الرائد على المستوى الحربي، والسياسي، والإداري،

(١) حدث تداخل في ترجمة الصحابي (أبي بصرة الغفاري) بين مادة نقلها السيوطي عن ابن الربيع، وأخرى عن ابن سعد كما يلي: "قال ابن الربيع: شهد فتح مصر، واحتط لها، ولهم عنه عشرة أحاديث، وكانت وفاته بمصر، ودُفن بالمقطم. قاله ابن سعد". (حسن المحاضرة ٢٤٣/١). وبالرجوع إلى (طبقات ابن سعد ٣٤٦/٧)، وجدت أن ما به يتعلق بوفاة الصحابي، ودفعه. ومن ثم، فيرجح أن ما قبل ذلك لابن الربيع، وكان على محقق (حسن المحاضرة) الفصل بينهما بنقطة، وكان على السيوطي تقديم اسم المصدر على النص المفتبس منه؛ منعاً للخلط.

(٢) حسن المحاضرة ١٦٦/١. وقد أشار إلى أنه سيضع علامة ورمز (ك) فوق الصحابي، الذي أضافه على ما في كتاب ابن الربيع، إلا أنه لم يطبق ذلك في ترجمة الصحابي أبي فاطمة (الأزدی)، الذي وضعت فوقه هذه العلامة رغم أنه نقل في ترجمته عن (ابن الربيع الجيزي). (حسن المحاضرة ٢٤٩/١).

(٣) ترجمة رقم (٧٣).

(٤) ترجمة رقم ٥٧.

والعلمي في تاريخ مصر الإسلامية المبكر. وكان على ابن الربيع أن يستبعد الصحابة المجاهيل^(١)، والمبهمين^(٢)، ويكتفٍ جهوده في مزيد من التعريف والترجمة للمبرزين منهم، ولعله فعل ذلك في أصل كتابه، وذكر -إلى جانب هؤلاء - مَنْ ضعفت شهرتهم؛ للوفاء بشرط كتابه.

من الواضح أن مفهوم الصحبة لدى ابن الربيع يُطلق على (الصحبة العامة)؛ بدليل أنه اعتبر من أدرك الرسول ﷺ - وهو غلام - صحابياً^(٣). وبالنظر إلى مدى انطباق عنوان الكتاب على مضمونه، فقد كان ذلك متحققاً، إذ إن كل مَنْ ترجم لهم دخلوا مصر بعد إسلامهم، وتحققت صفة الصحبة لهم على النحو العام الذي قصده مؤرخنا، اللهم إلا في موضع واحد يغلب على ظني أنه خرج فيه عن إطار كتابه، وذلك عندما ترجم للصحابي (عثمان بن عفان)، فذكر أنه دخل مصر تاجراً في الجاهلية، وتوجّه إلى الإسكندرية^(٤). ولم يذكر عنه مزيد معلومات، تفيد دخوله إليه بعد إسلامه، حتى نعهده صحابياً من الصحابة الذين أتوا إليها^(٥).

وأخيراً، فإن ابن الربيع لم يتعرض - فيما بين أيدينا من كتابه - لترجمة أية امرأة من النساء الصحابيات في مصر. ولا يُردّ على ذلك بأنه إنما عني بالصحابة الرجال؛ لأن الصحبة - في نظري - تنسحب - أيضاً - على النساء، ما دُمّن أدركن رسول الله ﷺ. والحق أن ابن الربيع لم يجد مادة تاريخية عن النساء الصحابيات في مصر، شأنه شأن ابن عبد الحكم من قبل. وقد فطن السيوطي إلى ذلك، فعقد في كتابه باباً للنساء^(٦)، حاول فيه أن يتلمس بعضهن في مصر، لكنه ما وصل إلى ترجمة قاطعة لهذا الشأن^(٧).

ثانياً - يبدو أن ابن الربيع كان حريصاً على توثيق مادته التاريخية^(٨) - إلى جانب أسانيد

(١) مثل: قيس بن كلثوم (رقم ٨٠)، وأبو جبر (رقم ١١٠)، وغيرهما.

(٢) مثل: رجل من صُداء (رقم ١٣٣). وقد أسقطه من إحصائي عدد الصحابة الثقيين من كتاب (ابن الربيع).

(٣) مثل: الصحابي (ربيع بن شرحبيل بن حسنة): ترجمة رقم (٢٦).

(٤) ترجمة رقم (٦٤)، وهي كل ما ذكره السيوطي عنه في (حسن المحاضرة): ٢١٨/١.

(٥) وكذلك بحثت في عدد من المصادر، التي ترجمت لهذا الصحابي رحمه الله، فلم أجد أي ذكر لزيوره إلى مصر، لا في جاهلية ولا في إسلام. (ضقات ابن سعد ٣٩/٣ - ٦١، والاستيعاب ٣٧/٣ - ١٠٥٣، وأسد الغابة ٣/٥٨٤ - ٥٩٦، والإصابة ٤/٤٥٦ - ٤٥٩، وتهديب التهذيب ٧/١٢٧ - ١٢٩. وحديث بالذكر أن ابن عبد الحكم لم يذكر هذا الصحابي ضمن الصحابة، الذين دخلوا مصر، ولا فيمن رووا أحاديثها).

(٦) حسن المحاضرة ١/٢٥٢ - ٢٥٤ (وجعله في ذيل كتابه: ذرّ السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة)، الذي استدرّك فيه ما فات كتاب ابن الربيع، وذلك كله داخل كتابه (حسن المحاضرة).

(٧) فهي كلها مجرد استنتاجات، كأن يقول: دخل أبو ذر مصر، فالظاهر أن امرأته (أم ذر) كانت معه. وكذلك قوله عن: عبد الله بن أبيس الجهني بأن امرأته صحابية، فالظاهر أنها أقامت معه في مصر. (المصدر السابق: ١/٢٥٣).

(٨) وإذا كانت بعض مروياته في نقابا كتابه جُزئاً من أسانيدها (مواردها)، فذلك إنما يرجع إلى حذف السيوطي لها -

أحاديث الصحابة - فاحتفظ لنا السيوطي بعدد من موارده التي استقى منها معلوماته. ومن هذه الموارد: الواقدي (ت ٢٠٧هـ)، الذي صرّح ابن الربيع بالنقل عنه. ويبدو أن ذلك كان من كتابه عن (الصحابة في مصر)^(١).

والملاحظ أن ابن الربيع اعتمد عليه - في ضوء ما لدينا من بقايا كتابه - في التعريف بالصحابة، الذين دخلوا مصر؛ لغزو المغرب^(٢). وكذلك المؤرخ المصري (سعيد بن كثير بن غفيرة ت ٢٢٦هـ)^(٣)، وعبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم (ت ٢٥٧هـ)^(٤) من خلال كتابه (فتوح مصر وأخبارها)، وأحمد بن عبد الرحمن بن وهب (ت ٢٦٤هـ)^(٥)، ومؤرخ مصر يحيى ابن عثمان بن صالح السهمي (ت ٢٨٢هـ)^(٦)، ومقدم بن داود (ت ٢٨٣هـ)^(٧).

وهكذا، جمع المؤرخ ابن الربيع بين المصادر المكتوبة (الواقدي، وابن غفيرة، وابن عبد الحكم، ويحيى بن عثمان بن صالح السهمي)، وهي مؤلفات مهمة لمؤرخين كبار، وبين روايات شفوية حديثة (أحمد بن عبد الرحمن بن وهب، ومقدم بن داود). وكان موفقاً - إلى حد كبير - في اختيار كثير من موارده، التي بين أيدينا.

- بدافع الاختصار. ولما مثلاً أن يؤكدان ذلك: ١ - وردت ترجمة الصحابي (محمد بن مسلمة) في كتاب (ابن الربيع) - وهي رقم ٩٠ - بدون ذكر المورد، وبالرجوع إلى ما اقتبسه ابن حجر - في ترجمة هذا الصحابي.
- (١) وحديث بالذکر أن ابن الربيع لا يذكر - أحياناً غير قليلة - مصدره المباشر، الذي روى عنه أحاديث الصحابة في مصر - كما في تراجم أرقام: ١١، ١٣، ٤٠ - وأعتقد أن ذلك من السيوطي، الذي كان يكتفي بجزء من الإسناد، ويغفل بدايته.
- (٢) أشار إلى ذلك الكتاب، ونقل عنه: ابن الأثير في (أسد الغابة) ج٢ ص٤١٤، وابن حجر في (الإصابة) ج٣ ص١٣٧.
- (٣) راجع مواضع النقل عنه في تراجم أرقام: ١٧، ٤٢، ٤٥، ٧٦، ٨٢ (وهنا معلومات جديدة). وهو أمر غير مستغرب على هذا المؤرخ المصري، الذي يرجع أن له كتاباً في (تاريخ مصر). لمزيد من المعلومات عن هذا المؤرخ راجع: رسالتي للمباحث (الدراسات التاريخية في مصر الإسلامية في القرن الثالث الهجري) ج٢/١٣٣ - ١٥٢.
- (٤) صرّح بالنقل عنه في موضعين (ترجمة ٣٣، ٥٧).
- (٥) وهو ابن أمي المحدث والمؤرخ المصري (عبد الله بن وهب). وقد نقل عنه (ابن الربيع) حديث (جابر بن عبد الله)، الذي رواه عن عبد الله بن أنس الجهني في القصاص، وجاء لأهله حصصاً من المدينة إلى مصر. (ترجمة رقم ٩).
- (٦) وهو حافظ وعالم بأخبار مصر وتاريخها، وابن المؤرخ (عثمان بن صالح السهمي المتوفى سنة ٢١٩هـ). (راجع دراساتي عنهما في: رسالتي للمباحث ج٢ ص٨٠ - ٩٦). وقد نقل ابن الربيع عن (يحيى) في تراجم أرقام: ١١، ٣٥، ٦١، ٦٣، ١١٠، ١٢٠).
- (٧) هو مقدم بن داود بن عيسى بن ثلید الرعي، أبو عمرو المصري. روى عن: ابن بكير، وعمه سعيد بن ثلید، وأسد بن موسى. روى عنه: ابن أبي حاتم، والطبراني. توفي سنة ٢٨٣هـ. وهو فقيه مفت، وإن كانت روايته غير محمودة. (تاريخ الإسلام ٣٠٩/٢١ - ٣١٠). وتذهيب ٦٤/٤، وسماه: المقدم). وعلى كل، فقد نقل عنه (ابن الربيع) رواية حديثة واحدة في ترجمة رقم (٣).

ثالثاً - يمكن إلقاء الضوء على بعض الملامح المنهجية المستنبطة من بقايا كتاب (ابن الربيع الجيزي). كما يلي:

١ - بالنسبة إلى منهجه العام في ترتيب تراجم كتابه: سبق أن رجّحت الترتيب الألفبائي وطبقته في تجميع بقايا ذلك الكتاب. ولا يطعن في ذلك عبارة، جاءت عَرَضاً في ثانيا كلام السيوطي، أوضح فيها أن ترجمة الصحابي (خالد بن العنيس) موجودة في كتاب (ابن الربيع)، وأنها في آخره^(١). هذه العبارة لا نفهم مدلولها تماماً. هل تعني أن ترجمة هذا الصحابي كانت في نهاية الكتاب؟ أو أنها وردت في ثانيا ترجمة أخرى لا نعرفها خُتم بها الكتاب؟ وإذا كان التساؤل الأول صحيحاً، فما هو المعيار الذي خُتم بناء عليه الكتاب؟ إنه - بالتأكيد - ليس معيار الترتيب المعجمي؛ لأن حرف الحاء ليس نهاية المطاف، ولا بد أن بعده تراجم أخرى عديدة، حتى نهاية حروف الأبجدية. وثمة تساؤل آخر: هل وضعت هذه الترجمة في نهاية الكتاب؛ لأن صاحبها لا تُعرف له أحاديث مروية في مصر؟ إن ذلك يعني أن ابن الربيع استخدم في ترتيب تراجمه معيار (الرواية الحديثية)، فما كانت له روايات قَدَم، وما لم تكن له رواية أُخَر. هي - كما نرى - مجرد احتمالات، تدخلنا في مناهات، ولا توجد دلائل وقرائن أخرى قوية تؤكدها. ومن ثم، اعتمدنا الترتيب الهجائي؛ لشيوعه، ولاستخدام السيوطي - في استدراكه على ابن الربيع - له، ولو كان مُج ابن الربيع مخالفاً لمنهجه، لبين السيوطي ذلك.

٢ - هناك عناصر يحرص ابن الربيع على إبرازها، تتضح لنا من خلال مجموع التراجم التي بين أيدينا، منها: الحرص على بيان دخول الصحابي مصر، وشهوده أحداث فتوحها من عدمه^(٢)، وبيان عدد ما روى من أحاديث نبوية شريفة في مصر مع عرضها بأسانيدها، وطرقها المختلفة^(٣). وأحياناً يورد آثاراً لهذا الصحابي، أو ذاك^(٤). وقد تحتوي الترجمة

(١) راجع ترجمته في (بقايا كتاب ابن الربيع) رقم ٢٢، وفي (حسن المحاضرة) ١/ ١٩٤.

(٢) من مخادج ذكره شهود الصحابي فتح مصر (تراجم: ١، ٣، ٦، ٧، وغيرها كثير). وأحياناً يذكر أنه لم يقف على شهود الفتح (ترجمة ٣٤)، وأحياناً يصرح بعدم شهود الفتح، ودخوله مصر بعدها (ترجمة ٤١).

(٣) يشتمل اهتمام ابن الربيع بذكر عدد الأحاديث، التي رواها الصحابي في مصر معظم تراجم كتابه. ونادراً ما لا تُعرف للصحابي رواية، فيذكر هذا (مثل: ترجمة رقم: ٢، ٢٢، ٢٦). وأنا حرصه على إبراز الأسانيد المختلفة للحديث الواحد، فذلك نجده في مثل: (تراجم أرقام: ٩، ٣٣، ٧٢). وقد يكون الهدف من ذلك مزيداً من توثيق تلك الروايات الحديثية، أو إضفاء المزيد من المعلومات التاريخية حول الظروف الموقلة فيها تلك الأحاديث.

(٤) كما في وصف (قيس بن سعد) رقم ٧٩، وكما في وصف (محمد بن مسلمة) رقم ٩٠.

على بعض معلومات تفيد وصفاً لذلك الصحابي^(١)، أو بيان مواصفات وميزات ومؤهلات معينة يتسم بها^(٢). ويبدو أن ابن الربيع لم يكن يتوسع في نسب الصحابي وكنيته^(٣)، وإن تعرض أحياناً لشيء من ذلك^(٤). وفي بعض الأحيان يتعرض لتاريخ الصحابة قبل شهودهم فتح مصر، متتبعاً ما وقع لهم من أحداث^(٥)، مهتماً بإبراز تاريخ الوفاة^(٦)، وسن الصحابي^(٧)، ومكان دفنه^(٨).

٣ - تراوحت تراجم (ابن الربيع) بين الطول والقصر^(٩): وقد يكون قصر الترجمة وسطحية معلوماتها ناتجاً - في الغالب - عن اختصار السيوطي لها^(١٠)، ونادراً ما يكون لندرة المعلومات المتوفرة لدى ابن الربيع نفسه^(١١). وقد تغزر معلومات ابن الربيع أحياناً، فتسوقه نحو الاستطراد^(١٢).

٤ - حول البدء والختام: لم يحتفظ لنا السيوطي بمقدمة كتاب (ابن الربيع)؛ كي يتسنى لنا معرفة منهجه في معالجة محتواه، واكتفى ببعض إشارات يسيرة، تلمسنا منها عدد الصحابة المترجم لهم بالتقريب، وبعض ملامح منهجية تعرضنا لها من قبل. وبالنسبة للختام، فقد عدتُ النص الذي يشير إلى كثرة من دخل مصر مع عمرو بن العاص من الصحابة الأوائل من (بَلِيٍّ)^(١٣) بمنسلة ختام لكتاب ابن الربيع، وكأنه إشارة واضحة إلى أن من عرض لتراجمهم ليسوا كل الصحابة في مصر، فهم يندون عن الحصر.

- (١) كان ابن الربيع يطلق على بعض الآثار التي يرويها النصحة في مصر (أقوالهم غير مرفوعة إلى الرسول) أحاديث، وذلك على سبيل التحرز، واعتبار أنها مستوحاة من روح الإسلام وأحاديث الرسول (مثل: ترجمة ٤٤، ٨٤، ١٢٦).
- (٢) كما في وصف (سلمة بن الأكوع) - (الشجاعة، ودقة الرمي، وسرعة العدو) في ترجمة رقم ٣٩. وكذلك ما ورد عن بعض مناصب ولّيها الصحابة، أو مهام قاموا بها (رقم ٤، ١٥، ٣٥، ٨٢).
- (٣) كما يفهم من كلام السيوطي، وإضافاته التي تناولها في (حسن المحاضرة ١/١٦٦).
- (٤) مثل: ترجمتي رقم (١٠)، (١١٩).
- (٥) راجع: ترجمتي: (٤٨، ٨٢).
- (٦) راجع تراجم أرقام: (٧، ٣٥، ٣٩، وغيرها).
- (٧) مثل: تراجم أرقام: (٣٥، ٣٩، ٤١).
- (٨) تراجم أرقام: (٣٥، ١٠٧، ١١٣، ١١٧، وغيرها).
- (٩) من التراجم المطولة: أرقام (٩، ٣١، ٨٢). ومن التراجم القصيرة أرقام: (٢١، ١٧، ٣١).
- (١٠) كما في تراجم أرقام: (١٢، ١٤، ١٨، ٢٩، وغيرها).
- (١١) كما في ترجمة رقم (١٩)، وهي ترجمة (حنظلة صاحب النخبة) الذي لم يقل عنه ابن الربيع سوى أنه دخل مصر. وعلق السيوطي قائلاً: "كذا ذكره ابن الربيع، ولم يزد عليه". (حسن المحاضرة ١/١٩٢).
- (١٢) كما في ترجمة (قيس بن سعد بن عبادة)، التي استطردها فيها؛ لذكر أسماء عشرة من الرجال، أدرکوا الإسلام، وكانوا على قدر مفرط في الطول (ترجمة رقم ٧٩).
- (١٣) حسن المحاضرة ١/٢٥٤.

رابعاً، وأخيراً - بقايا كتاب ابن الربيع في الميزان:

أ - إذا نظرنا نظرة شاملة على هذه البقايا، لا حظنا أن تاريخ الصحابة في مصر لا يزال يشغل بال المؤرخين المصريين في القرن الرابع الهجري، حتى إن مؤرخنا ابن الربيع أفرد كتاباً بهذا الشأن. وهذا يدل على أن في حياة ومرويات هؤلاء الصحابة من العظات والعبر، والدروس النافعة، والعلم المفيد^(١) ما يمكن اعتباره عطاء متجدداً، يلزم الأجيال تفهمه وتدارسه، في وقت كانت الأجيال تبتعد فيه شيئاً فشيئاً عن ذلك المعين الصافي، فكان لا بد للمؤرخ ابن الربيع أن يقوم بدوره في جذب الناس إلى تراثهم المجيد، وتاريخ أسلافهم التليد.

ب - لم تتضح شخصية ابن الربيع الجيزي فيما بقى من كتابه الوضوح الكافي^(٢)، وإن كنا لا نعدم وجود الإشارات المتناثرة هنا وهناك بما يفيد تعليلاً^(٣)، أو دقة وأمانة علمية في العرض^(٤)، أو تشكيكاً في صحة نسبة رواية في صورة تعليق خفيف يظهر على استحياء^(٥)، أو نقد يفهم بطريق غير مباشر^(٦).

ج - امتازت كثير من الروايات التاريخية في كتاب ابن الربيع بالصحة التاريخية كقوله عن (سعد بن أبي وقاص): إنه آخر العشرة المبشرين بالجنة وفاة^(٧)، وقوله عن الصحابي (سهل بن سعد): إنه آخر الصحابة وفاة بالمدينة^(٨).

ونلفت النظر إلى أن بعض المعلومات الواردة لدى ابن الربيع خاطئة، مثل: خطئه في القول:

- (١) كما في ترجمة الصحابي (حابر بن عبد الله) رقم (٩)، وما فيها من درس بليغ، وقدوة تُحتذى في طلب العلم، والسعي إليه، وتعمل المشاق في سبيله لذاته. وكذلك (ترجمة حيلة بن عمرو الأنصاري - رقم ١٣)، تورعه عن أخذ مال، رأى فيه شبهة، فأبى أن يقبله، رغم قبول كثير من المهاجرين الأولين.
- (٢) وخير مثال على ذلك: عدم ميله إلى الترجيح، خاصة عندما يكفى بذكر التواريخ المختلفة، ثم يترك الأمر على ذلك دون نظر أو تمحيص لاختيار التوقيت الصحيح. وذلك شائع لديه في تواريخ الوفيات، ومبلغ أعمار بعض الصحابة، ومكان وقيامهم (راجع: ترجمة رقم: ٣٥، ٥٦ - ٥٨، وغيرها).
- (٣) مثل: تعليقه تسمية أحد الصحابة باسم (هَبَّيب) في (ترجمة ١٠٣)، وتعليل دخول بعض الصحابة مصر (مهدف غزو المغرب). (رقم ٣٨، ٣٩، ١٢١).
- (٤) كقوله عن عدم التثبت من المعلومة، التي بوردها: فيما أعلم. (راجع تراجم أرقام: ١١، ٣٦، ٥٣). والملاحظ أنها كلها تتعلق بتفرد أهل مصر في الرواية الحديثة عن بعض الصحابة.
- (٥) كان ابن الربيع يستخدم لفظة (قيل) الدالة على التشكيك. (راجع ترجمة ٧٩). وصريح - ذات مرة - بالتشكيك في نسبة رواية حديث لأحد الصحابة (رقم ٨١).
- (٦) ويتضح ذلك من خلال رواية، عتب فيها (المقداد بن الأسود) على (عبد الله بن سعد) لإسرافه ومبالغته في الإنفاق على إقامة دار له بمصر. (ترجمة رقم ٩٩).
- (٧) ترجمة رقم (٣٥)، وتهديب التهذيب ٤٢٠/٣.
- (٨) ترجمة رقم (٤١)، وتهديب التهذيب ٢٢٢/٤.

إن لأهل مصر عن (عقبة بن كسلم) نحو مائة حديث^(١)؛ إذ إن هذا الصحابي غير مشهور، وغير معقول أن تكون له كل هذه الأحاديث في مصر، ثم لا يورده ابن عبد الحكم في (قسم الأحاديث) من كتابه. والصواب ما ذكره ابن حجر - نقلاً عن ابن يونس - أنه لا تُعرف له رواية^(٢). ويُذكر لابن الربيع ذكره تاريخ وفاة هذا الصحابي^(٣)، وهو ما غفل عنه كل من ابن الأثير^(٤)، وابن حجر^(٥). وأخطأ ابن الربيع في موضعين آخرين، ما كان لمثله أن يقع فيهما؛ لاستفاضتهما وشهرتهما.

أما الأول، فهو تاريخ وفاة معاوية، إذ جعله سنة ست وستين^(٦)، والصواب أنه سنة ستين.

والثاني - أنه جهل تاريخ وفاة (عثمان بن عفان)، لما جعل خلافته تمتد إلى سنة أربعين^(٧). والصواب: أنها انتهت بوفاة شهيداً سنة ٣٥ هـ. وأعتقد أن الخطأ نابع من نسخ النسخ، وكان على محقق (حسن المحاضرة) التنبيه إلى ذلك.

د - أعتقد أن ابن الربيع أفاد حق الإفادة من كتاب ابن عبد الحكم واستوحى منه فكرته (الواردة في القسم السابع من كتابه)^(٨)، فطورها بالتوسع في التراجم^(٩)، والزيادة في أعداد الصحابة المصريين^(١٠)، حتى بلغ بهم كتاباً كاملاً، وحوى معلومات جديدة مفيدة^(١١)، واعتمد عليه من بعده جلة من المؤرخين المعنيين بتراجم الصحابة كابن الأثير، وابن حجر، والسيوطي.

(١) ترجمة رقم (٦٨).

(٢) تاريخ المصريين لابن يونس ص ٣٤٨ (ترجمة رقم ٩٥٠)، والإصابة ٥٢٥/٤.

(٣) ذكر أنه توفي في سنة ٥٨ هـ.

(٤) أسد الغاية ٥٨/٤.

(٥) الإصابة ٥٢٥/٤.

(٦) ترجمة رقم (٩٧).

(٧) وذلك لما ذكر أن الصحابي (معيقيب بن أبي فاطمة البوسى) مات سنة ٤٠ هـ في خلافة عثمان. (ترجمة رقم ٩٨).

(٨) بل استوحى منه خاتمه، التي تشبه حاتمة ابن عبد أخكم (فتوح مصر ص ٣١٩)، التي ذكر فيها أنه دخل مصر صحابة كثيرون للاشتراك في فتوح إفريقية. ولذا كان نوري محققاً في اعتباره مصدراً رئيسياً لابن الربيع الجيزي في كتابه (مقدمته بالإنجليزية لكتاب فتوح مصر وأخبارها) ص ٢٢.

(٩) لقد اكتفى ابن عبد الحكم بمجرد ذكر أسماء عدد من الصحابة الذين دخلوا مصر، لكن ابن الربيع اهتم ببعضهم، وترجم له (فتوح مصر ص ٣١٩). وهناك عدد كبير من الصحابة تناولهم ابن الربيع، ولا وجود لهم في كتاب ابن عبد الحكم (تراجم أرقام: ١ - ٢٥٧، ٨١٠ - ١٢٠١٤، ١٧، ١٩، ٢٢، ٢٤، ٢٨ - ٢٩، ٣٤، ٣٧، ٤٢ - ٤٣، وغيرهم كثير).

(١٠) راجع تراجم أرقام: ٣٩، ٧١، ٨٢، ١٣٣.

(١١) من ذلك - مثلاً - الترجمتان: (٨٢، ٥٨).

٢ - المؤرخ المصري (الكندى) (*)

المؤرخ المصري محمد بن يوسف بن يعقوب الكندى (٢٨٣ - ٣٥٠هـ) مؤرخ مشهور. وواضح من تاريخي ميلاده ووفاته أنه معاصر لمؤرخنا (ابن يونس). والذي يهمننا من نتاجه التاريخي في هذا الفصل ما يتصل بالتراجم. وقد أثر عنه كتاب مفقود، أوردت له المصادر عناوين متعددة، لكنها متقاربة^(١)، وكلها يدور حول (الموالي). وهاك ما تيسر لي تجميعه من بقايا هذا الكتاب، ثم أنثى - بعد ذلك - بملاحظات عامة منهجية على تلك البقايا التي تم تجميعها.

من بقايا كتاب " أعيان الموالى بمصر " للكندى

(باب الهمزة)

١ - إبراهيم بن شريط الوغلافي المصري: كان فقيهاً^(٢). توفي سنة ثلاث وستين ومائة^(٣).

٢ - إبراهيم بن أبي يعقوب بن عيسى بن عبد الله: كان فقيهاً، وتوفي في صدر ستين ومائتين^(٤).

٣ - أحمد بن إسحاق بن واضح: مولى بني هاشم. توفي سنة أربع وثمانين ومائتين، وله تصانيف كثيرة، منها: كتاب (التاريخ) كبير، وكتاب (أسماء البلدان) مجلد، وكتاب في (أخبار الأمم السالفة) صغير، وكتاب (مشاكل الناس لزمالمهم)^(٥).

(*) رأيت تأجيل كتابة ترجمة المؤرخ المصري (الكندى) إلى بداية (الباب الثالث والأخير من الرسالة)، بإذن الله؛ لأننا سندرس هناك أهم مؤلفات الكندى المطبوعة : (الولادة)، و(القضاة)، ففيها ملامح مفيدة في ترجمة هذا المؤرخ، فالترجمة هناك ألصق وأليق.

(١) مثل : (موالى أهل مصر). (الإكمال ٢٥٥/٤، ومخطوط تاريخ دمشق ١٦٥/٤)، و(تابعى أهل مصر) كما في (الإكمال ٤٤٠/٧، وأسند الغابة ٥١٣/٤)، و(أعيان الموالى بمصر) كما في (تذهيب الكمال ١٩٣/١٥)، والموالى (الإعلان بالتوبيخ، ط ٢ - مؤسسة الرسالة) ص ٥٨٤.

(٢) تذهيب الكمال ٢٢٩/٢ (وقال الكندى في كتاب الموالى).

(٣) تاريخ الإسلام ٦٦/١٠ (ذكر محمد بن يوسف الكندى)

(٤) المدارك ٨٨/٢ (قال الكندى). وأضاف : أنه مولى سلمة بن عبد الملك الطحاوى. ويقال: مولى قريش. من أصحاب ابن وهب. روى عنه جل روايته، وعن الشافعى. وكان من قبط مصر. وكتب لعيسى بن المنكدر، وهارون الزهرى، والحاتر بن مسكين (قضاة مصر).

(٥) معجم الأدباء ١٥٤/٥ (صُدِّرت بـ " ذكره أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب المصري الكندى المؤرخ في تاريخ له ابتداء سنة ٢٨٠هـ). والغالب أنه كتاب (الموالى). وكلام ياقوت في وصف ابتدائه بهذا العام غير دقيق؛ لأنه كتاب تراجم، لا أحداث .

- ٤ - أحمد بن سعد بن الحكم بن محمد بن سالم (المعروف بابن أبي مريم): كان من أهل العلم، والرحلة، والتصنيف. روى عنه بقي بن مخلد، وكان لا يحدث إلا عن ثقة^(١).
- ٥ - أحمد بن صالح (المعروف بابن الطبري): كان فقيهاً صاحب مناظرة، وتوفى في ذي القعدة سنة ثمان وأربعين ومائتين. مولده سنة اثنتين وسبعين ومائة^(٢).
- ٦ - أحمد بن عمرو بن عبد الله بن عمرو بن السرح: كان أبو الطاهر فقيهاً، وكان صالحاً ثقة^(٣)، وشرح موطأ (عبد الله بن وهب). وتوفى سنة خمسين ومائتين، وقيل: سنة ثلاث وخمسين. مولده سنة سبعين ومائة^(٤).
- ٧ - أحمد بن معاوية بن عبد الله الأسواني: كان من أصحاب الحارث بن مسكين، وبكار بن قتيبة. روى عنه ابن قُذَيْد. توفى يوم الأحد لسبع خلون من جمادى الأولى سنة إحدى وسبعين ومائتين^(٥).
- ٨ - أحمد بن يحيى بن الوزير بن سليمان بن المهاجر: مسولى الأزدي رفاعية النجاشي. كان فقيهاً^(٦) من أصحاب ابن^(٧) وهب. كان أعلم أهل زمانه بالشعر، والغريب، وأيام الناس^(٨). مولده سنة إحدى وسبعين ومائة^(٩). وكان يتقبل، فأنكسر^(١٠) عليه خراج، فسجنه أحمد ابن محمد بن المدبر^(١١)، فمات في حبسه - بمصر^(١٢) - في شوال سنة خمسين ومائتين^(١٣).
- ٩ - إسحاق بن الفرات بن جعفر الكندي: من موالى (معاوية بن حُذَيْج^(١٤)). أقام

- (١) تهذيب التهذيب ٢٦/١ قال أبو عمر الكندي في كتاب الموالى. راجع تفاصيل ترجمته في (تهذيب الكمال) ١/ ٣٠٨ - ٣١٠، وسمر النبلاء ٣١١/١٢، وتهذيب التهذيب (ت ٢٣٥٣هـ) ٢٦/١.
- (٢) المدارك ٥٨٢/١ قال الكندي. وتوجد تفاصيل ترجمته في ص ٥٨٠ - ٥٨١. وذكر عن مكان وزمان وفاته ما يلي: وقال أبو عمر (له ابن عبد البر)، والقرئ: مولده بمصر سنة ١٧٠هـ. وأبوه من عجم الجند من أهل طبرستان.
- (٣) حرفت إلى (موضحاً كله) في (المدارك) ٧٨/٢. والتصويب بتصريف من (تهذيب التهذيب) ٥٦/١.
- (٤) المدارك ٧٨/٢ قال الكندي. وفي ص ٧٧: حده مولى عتبة بن أبي سفيان.
- (٥) الطالع السعيد ص ١٤٥ قال أبو عمر محمد بن يوسف الكندي في كتابه في الموالى.
- (٦) المدارك ٨١/٢، وتاريخ الإسلام ١٥٢/١٨.
- (٧) السابق قال أبو عمر الكندي.
- (٨) المدارك ٨١/٢ (من أعلم)، وتاريخ الإسلام ١٥٢/١٨.
- (٩) المدارك ٨١/٢.
- (١٠) حرفت في (السابق) إلى (فأنكسر)، وسقط ذكر الخراج.
- (١١) حرفت في (السابق) إلى (سدير).
- (١٢) السابق.
- (١٣) العبارة في (تاريخ الإسلام) ١٥٢/١٨ - ١٥٣.
- (١٤) صحت إلى (حذيج) في (رفع الإصر) ١١٢/١. وفي ص ١١٣: أول من ولي قضاء مصر من الموالى، وكان من كبار أصحاب مالك. وفي ص ١١٤: شهد له الشافعي بالعلم باختلاف الفقهاء (وكذا ورد في القضاة، للكندي ص ٣٩٣).

إسحاق بن الفرات على القضاء منذ استخلفه^(١) محمد بن مسروق، إلى أن قدم العمرى في صفر سنة خمس وثمانين ومائة. قال أحمد بن يحيى بن وزير: كان عند سعيد بن عفير شيء من أموال اليتامي، فدعاه إسحاق بن الفرات، وهو على القضاء بمصر، فقال: سَلِّمْهَا. فكان سعيداً عَرَضَ بالقاضي؛ بأنه من الموالى، فقال إسحاق بن الفرات: هل تعرف معاوية بن حديج؟ إنه سيد الناس كلهم من الفرما إلى الأندلس. قال ابن عفير: إني لعارف. قال: فإنه مولى، فمن أنت؟ فَأَصْبَحْتُ سعيد بن عفير، وسَلِّمْ ما عنده^(٢). توفي سنة أربع ومائتين^(٣).

١٠ - أَصْبَغُ بْنُ الْفَرَجِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ نَافِعٍ، مولى عبد العزيز بن مروان: كذا زعم أصبغ. وكثير من أهل مصر لا يصححون له ولاء^(٤). سألت ابن يزيد عن أصبغ: لمن ولاؤه؟ قال: ليس لهم ولاء، هم من عبید المسجد. وحدثني ابن قديد، عن أبي نصر، قال: سمعتُ المزني والربيع يقولان: كنا نأني أصبغ قبل قدوم الشافعي، فنقول له: عَلَّمْنَا مِمَّا عَلَّمَكَ اللَّهُ^(٥).

قال أبو نصر: وسمعتُ عُمَى عبيد بن صالح يقول: قال لي مطرف بن عبد الله الأصم: من أى بلد أنت؟ قلت: من مصر. قال: ما فعل عبد الله بن عبد الحكم؟ قلت: مات. قال: ما فعل أصبغ؟ قلت: باق^(٦). قال: الحى أفاقه عندنا من الميت^(٧).

وأخبرني ابن يزيد، عن ابن عثمان، قال: كانت بين عبد الله بن عبد الحكم وبين أصبغ منازعة ومباعدة^(٨)، وكان أحدهما يرمى صاحبه بالبهتان^(٩).

قال ابن قديد: وأخبرني مقدم، قال: أرسل ابن عتبة إلى عبد الله بن عبد الحكم: إن هذا الرجل قد وجب لك عليه حَدٌّ، قد شهر عندى بذلك، فصرِّ إلىَّ حتى أحذه. فأبى، وقال: إن هو حَدَّه، صرنا حديثاً، وقالوا: حَدٌّ فلان في سَبِّ فلان^(١٠).

(١) حرفت في (رفع الإصر) ١١٥/١ إلى (استخلف). والصواب ما أثبت، فقد استخلفه القاضي السابق (محمد بن مسروق ١٧٧ - ١٨٤هـ) على أهل مصر عند خروجه منها؛ غضباً عليهم. (القضاة ٣٩٢).

(٢) رفع الإصر ١١٥/١ (قال أبو عمر الكندي في كتاب الموالى من أهل مصر).

(٣) السابق (أرحه أبو عمر الكندي).

(٤) المدارك ٥٦١/١ (قال أبو عمر الكندي في موالى مصر).

(٥) المصدر السابق ٥٦٣/١ (حكى الكندي)، والمقفى ٢١٥/٢.

(٦) وردت خطأ في المقفى ٢١٥/٢ هكذا (باقى).

(٧) المصدر السابق ٢١٥/٢، وتغذيب التهذيب ٣١٦/١ (باختصار).

(٨) المدارك ٥٦٤/١ (ذكر أبو عمر الكندي في كتاب الموالى)، والمقفى ٢١٥/٢.

(٩) السابق ٢١٥/٢.

(١٠) السابق (وحرقت فيه سب إلى سب).

قال ابن قديد: وكتب المعتصم في أصبع؛ ليحمل إليه في المحنة، فهرب إلى حلوان، واستتر بها. وفي ذلك يقول الجمل المصري في مدح الأصم^(١):

وطويت أصبع حقبة^(٢) في بيته فسترته حُدِرَ البيوت السُّرير
أبدلته برجاله وجموعه خوفاً^(٣) مقاعدة النساء الحُدِر^(٤)
فإذا أراد مع الظلام حاجة أخذ النقاب، وفَضَلَ مِرْطَ المعجِر^(٥).

وكان أصبع فقيراً نظاراً. وُلد بعد الخمسين ومائة، ولم يلق مالكا^(٦). توفي بمصر يوم الأحد خمس ليال بقين من شوال سنة خمس وعشرين ومائتين^(٧).

(باب الحاء)

١١ - الحارث بن مسكين بن محمد بن يوسف (مولي محمد بن زبّان):^(٨) يكنى

أبا عمرو. قدم المأمون مصر، وكان بها رجل، يقال له: الحضرمي، يتظلم من ابن أسباط، وابن تميم. فجلس الفضل بن مروان في المسجد الجامع، وحضر مجلسه يحيى بن أكثم، وابن أبي دؤاد، وحضر إسحاق بن إسماعيل بن حماد بن زيد (وكان على مظالم مصر)، وحضر جماعة من فقهاء مصر، وأصحاب الحديث. وأحضر الحارث بن مسكين؛ ليؤكّي قضاء مصر، فدعاه الفضل بن مروان. فبينما هو يكلمه، إذ قال الحضرمي للفضل: سَلِّ - أصلحك الله - الحارث عن ابن أسباط، وابن تميم. قال: ليس هذا أحضرناه. قال: أصلحك الله، سَلِّه. فقال الفضل للحارث: ما تقول في هذين الرجلين؟ فقال: ظالمين غاشمين. قال: ليس لهذا أحضرناك. فاضطرب المسجد، وكان الناس متوافرين، فقام الفضل، وصار إلى المأمون بالخير، وقال: خفت على نفسي من تَوَرّان الناس مع الحارث. فأرسل المأمون إلى الحارث، فدعاه، فابتدأه بالمسألة، فقال: ما تقول في

(١) لعله القاضي المصري محمد بن أبي الليث الحوازمي المعروف بالأصم، الذي كان الشاعر الجمل يمدحه (ترجمته في القضاة ص ٤٤٩ - ٤٦٧، سنة ٢٢٦ - ٢٣٧هـ). وقد وردت في (المدارك) ٥٦٥/١ (في مدحه الأصم)، وفي (تاريخ الإسلام) ٩٩/١٦ (مدح الخليفة).

(٢) حرفت في (المدارك) ٥٦٥/١ إلى (خفية)، والتصويب من (تاريخ الإسلام) ٩٩/١٦.

(٣) كذا في (المدارك) ٥٦٥/١. ووردت في (تاريخ الإسلام) ٩٩/١٦: خرقاً.

(٤) البيتان في (المدارك) ٥٦٥/١.

(٥) ورد في (تاريخ الإسلام) ٩٩/١٦. والراجح أن الكندي ذكره أيضاً؛ فالرواية مصدرة نفسه (قال ابن قديد).

(٦) المقفى ٢١٦/٢ (قال الكندي).

(٧) المدارك ٥٦٥/١ (قال الكندي). وقد نقل ابن حجر عنه خبر علاقته بابن عبد الحكم، وموقفه في المحنة هارباً حتى مات بخلوان (باختصار شديد). (تغذيب التهذيب) ٣١٦/١.

(٨) حرفت إلى (ربان) في (المخطوط) ٢٥٠/٢.

هذين الرجلين ؟ فقال: ظالمين غاشمين. قال: هل ظلماك بشئ ؟ قال لا. قال: فعاملتهما ؟ قال: لا. قال: فكيف شهدت عليهما ؟ قال: كما شهدت أنك أمير المؤمنين، ولم أرك - قط - إلا الساعة، وكما شهدت أنك غزوت، ولم أحضر غزوك. قال: اخرج من هذه البلاد، فليست لك ببلاد، ويغ قليلك وكثيرك؛ فإنك لا تعانيتها أبداً. وحبسه في رأس جبل في قبة ابن هرثمة. ثم انحدر المأمون إلى البشرد، وأحضره معه. فلما فتح البشرد، أحضر الحارث، فلما دخل عليه، سأله عن المسألة التي سأله عنها بمصر، فردّ عليه الجواب بعينه، فقال، فأى شئ تقول في خروجنا هذا ؟ قال: أخبرني عبد الرحمن بن القاسم، عن مالك: أن الرشيد كتب إليه في أهل (دهلك)، يسأله عن قتالهم، فقال: إن كانوا خرجوا عن ظلم من السلطان، فلا يحل قتالهم، وإن كانوا إنما شقوا العصا، فقتالهم حلال. فقال المأمون: أنت تئس، ومالك أئس منك. ارحل عن مصر. قال: يا أمير المؤمنين، إلى الثغور. قال: الحق بمدينة السلام. فقال له أبو صالح الحراني: يا أمير المؤمنين، تغفر زلتك. قال: يا شيخ، تشققت، فارتفع^(١).

كان مفتياً فقيهاً^(٢). ولى القضاء من قبل المتوكل على الله في سنة سبع^(٣) وثلاثين ومائتين، وحفر خليج الإسكندرية^(٤)، وأمر ببناء الرحبة في المسجد؛ ليتسع الناس بها، وحول سلم المؤذنين إلى غربي المسجد، وكان عند باب (إسرائيل)، وبلط زيادة ابن طاهر، وأصلح بنيان السقف، وبني سقاية في الحدائق، وأمر ببناء الرحبة الملاصقة لدار الضرب؛ ليتسع الناس بها^(٥). وورد الكتاب بصرفه في شهر ربيع الآخر سنة خمس وأربعين ومائتين^(٦).

١٢ - حملة بن عامر: أبو تريس. من تابعي أهل مصر. روى عن عمر^(٧).

(باب العين)

١٣ - عبد الرحمن (أبو المهاجر البلهبي): كان من سبى بلهيب، حين انتقضت في

(١) الخطط ٢٠٢/٢ (قال الكندي في كتاب الموالي). والترجمة ذاتها - دون نسبة إلى الكندي - موجودة في (تاريخ الإسلام) ٢١٢/١٨ - ٢١٤، ورفع الإصر ١٦٩/١.

(٢) المدارك ٥٦٩/١ (قال الكندي).

(٣) حرفت إلى (تسع)، وجعلت ولايته من قبل الواثق بالله (٢٢٧ - ٢٣٢هـ) في (الخطط) ١٧١/١ (وقال أبو عمر - لا عمرو - الكندي). وهذا خطأ بالطبع. ثم وردت صواباً في (المصدر نفسه) بعد ذلك، كما سيأتي.

(٤) الخطط ٢٥٠/٢ (وذكر أبو عمر الكندي في كتاب الموالي).

(٥) المصدر السابق: ٢٥٠/٢ (ذكر أبو عمر الكندي في كتاب الموالي).

(٦) السابق ١٧١/١ (راجع تفاصيل ولايته القضاء من سنة ٢٣٧ - ٢٤٥هـ في (القضاء) للكندي ص ٤٦٧ - ٤٧٥).

(٧) الإكمال ٤٤٠/٧ (ذكر أبو عمر الكندي في تابعي أهل مصر). وقد نقل ابن الأثير كلام ابن مأكولا لكنه سماه (لبدة بن كعب)، وقال: أظنهما واحداً، والاختلاف في الاسم. (أسد الغابة ٥١٣/٤).

خلافة عمر، فأعتقه بنو الأعجم بن سعد بن ثُجيب. وكان في مائتين من العطاء، وكان معاوية قد عَرَفَه على موالى ثُجيب. وهو الذى خرج إلى معاوية بشيراً بفتح (خِرْبَتَا) ^(١). أخبرني بذلك كله ابن قديد، عن عُبيد الله بن سعيد، عن أبيه. وأخبرني ابن قديد، قال: بنى له معاوية داراً في بنى الأعجم في الزقاق المعروف بـ (البلهيسى)، وكُتِبَ على الدار: (هذه الدار لعبد الرحمن سيد موالى ثُجيب).

وأخبرني عمي، عن ابن الوزير، عن أبي ميسرة: أن البلهيسى كان في مائتين من العطاء، وأن معاوية وهب له سيفاً لم يزل عندهم، وأن عُبيد الله بن الحبحاب قال لأبي المهاجر البلهيسى: لا أستعملك، ثم لا وليتُك إلا على قرينك الخبيثة (بلهيب). فقال له ابن البلهيسى: إذا أَصِلَ رجلاً، وأقضى ذماماً.

قال ابن وزير: لما توفى سليمان بن أبي رجاء، ولم يُخَلَّفْ ذكراً، طلب ابن البلهيسى ميراثه، وقال: إنه مولاي. وروى ابن وهب، عن سليمان بن أبي رجاء (وهو سليمان بن مسلم بن جابر، مولى البلهيسى) ^(٢).

١٤ - عبد الرحمن بن عبد الحميد بن سالم المَهْرِيّ: أبو رجاء. توفى سنة اثنتين وتسعين ومائة، وكان من أفضل أهل مصر ^(٣).

١٥ - عبد الرحمن بن ميسرة (مولى الملامس بن جذيمة بن سُلَيْع)، من حضرموت، ثم من الأششاء: أبو ميسرة. كان فقيهاً مقرئاً ^(٤)، عفيفاً شريفاً. ولد سنة عشر ومائة، وكان أول الناس إقراء بمصر بحرف نافع قبل الخمسين ومائة، وتوفى سنة ثمان وثمانين ومائة ^(٥).

١٦ - عَيَّان بن بُعْثَم بن سعيد بن دافع: مسجده بالجيزة، ويُعرف بـ (مسجد عَيَّان) ^(٦).

(١) مخطوط تاريخ دمشق ٢٧٥/١٠ (ذكره أبو عمر محمد بن يوسف الكندى في كتاب "مَوالِ أهل مصر"، ومختصر تاريخ دمشق ٨٣/١٥ - ٨٤.

(٢) مخطوط تاريخ دمشق ٢٧٥/١٠ - ٢٧٦.

(٣) تهذيب التهذيب ١٩٩/٦ (وقال أبو عمر - لا عمرو - الكندى).

(٤) الإكمال ٢٥٥/٤ (ذكره الكندى في موالِ أهل مصر).

(٥) المخطوط ٣٣٢/٢ (وذكر أبو عمر - لا عمرو - الكندى).

(٦) الإكمال ٣٥٨/٧ (قاله الكندى).

ملاحظات عامة على بقايا (أعيان الموالى بمصر) للكندى:

١ - من الملاحظ أن الكندى اختار موضوعاً فريداً في بابهِ، جعله مجالاً لتراجمهِ. وأعتقد أنه أراد بذلك التفرد والتميز؛ إذ لم يؤثر التفات أى من المؤرخين المصريين طوال القرون الأربعة الأولى من الهجرة على الأقل، للتأليف في هذا الموضوع^(١).

٢ - أتوقع أن يكون هذا الكتاب - في الأصل - كبيراً^(٢)، لكنه لم يحظ بالاهتمام الكافي من المصادر المتأخرة للنقل عنه؛ لأن كتابي ابن يونس غطياً عليه، إلى جانب اشتهاار الكندى بكتابين آخرين في مجال (الحضارة والنظم)، وهما (الولاء)، و(القضاء). ومما يقوى الاعتقاد بكثر حجم هذا الكتاب الضائع أن الموالى كانوا على قدر عظيم من الاهتمام بالعلم والتقدم فيه، وبرز منهم العديد من القادة والولاة والقضاة، والمحدثين والفقهاء وغيرهم؛ مما جعلهم يتفوقون في أحيان كثيرة على العرب أنفسهم^(٣). ويضاف - إلى ما تقدم - أن الكندى لم يجعل كتابه مقصوداً على طائفة محددة من الموالى^(٤)، ولم يخص موالى مصر وحدهم بالتراجم^(٥)، وإنما كان تناوله شائعاً على مستوى طوائفهم المتعددة، وبلدانهم المختلفة. وكذلك يبدو أنه لم يقف عند نوع واحد من الولاء، وإنما كان يتناول الموالى ألباً كان نوع ولائهم^(٦)، وهو بهذا يجعل الإسلام، والعمل الصالح هو المحكّ والأساس الراسخ، ويهدم أية نزعة شعوبية عنصرية في مجتمعه المصرى^(٧).

٣ - من الواضح أن تراجم الكتاب تراوحت بين الطول والقصر، وإن كان في بعضها

(١) ولا يقدح في ذلك ما ورد في (رفع الإصر، نشر جست، ضمن ذبول كتاب (القضاء) للكندى ص ٥٥٧)، من أن الكندى ألف كتاب (الموالى) من أجل بدر بن عبد الله - أو عبد العزيز - الكنان الصيرفي، مولاهم المصرى. ذلك الرجل الذى كان مولى لـ (يحيى بن حكيم الكنان)، وكان صديقاً موسراً. وكان ابنه محمد، على قضاء مصر، وورث عن أبيه غناه وثراءه، وتوفى سنة ٣٣٠ هـ (السابق: ص ٥٦٢). أقول: قد يكون الكندى أهدها إليه لصداقة، أو مودة بينهما، وليس شرطاً أن يكون هو صاحب فكرته.

(٢) وسبقني في الإشارة إلى ذلك الأستاذ عنان في (مؤرخى مصر الإسلامية) ص ٣٢.

(٣) راجع في ذلك مقارنة بين علماء العرب، والموالى في مصر وغيرها على مستوى الفقهاء في (مختصر تاريخ دمشق ٧٠/١٧ - ٧١، والخطوط ٣٣٢/٢).

(٤) فهو لم يقتصر - إذن - على القادة المميزين من غير العرب، كما يرى صاحب (مؤرخى مصر الإسلامية) ص ٣٢.

(٥) بدليل ترجمته لأناس وافتدين على مصر (ترجمة ٩ في الموالى).

(٦) راجع ما ورد عن أنواع الولاء في (تذيب الأسماء واللغات للنوى: ج ١ ص ١٤، وكتاى(معالم الثقافة الإسلامية في القرنين الأولين من الهجرة) ص ٢٠٨ (هامش ٣).

(٧) راجع ترجمة ١٣ من (الموالى)، وما بها من عرض مفصل لمكانة أحد الموالى.

تفاصيل كثيرة جديدة، كما في ترجمة (الحارث بن مسكين)، الذي كان يلي قضاء مصر. ففى ترجمته أظهرت شخصية هذا الرجل قبل ولايته القضاء (فى عهد المأمون)، وشجاعته فى الإجابة عن أسئلته. ثم عرضت الترجمة للعديد من المنجزات الزراعية والمعمارية الحضارية، التى عُهد بها إلى هذا القاضى فى عهد المتوكل (وهى جزئية جديدة، تحتاج إلى تفسير، فالمعلوم أن تلك الأعمال من اختصاصات الولاة فى المقام الأول)^(١).

٤ - وأخيراً، فقد ظهرت دقة الكندى ومنهجيته فى المادة القليلة المتقدمة من زاويتين: الأولى - دقته فى إيراد تواريخ مواليد ووفيات مترجميه من الموالى، حتى إنه تفوق على ابن يونس فى إحداها، وأتى بتاريخ الوفاة الصحيح^(٢). والثانية - أنه كان حريصاً فى مواضع كثيرة على ذكر موارده التى انتقى منها مادته العلمية، وهى موارد أصيلة فى بابها، فهو ينقل عن مؤرخين عظمين (ابن قديد، وابن وزير)، ولعله نقل من أولهما شفاة وكتابة. أما الثانى، فالغالب أنه نقل عن كتاب له مؤلف فى التراجم. وكذلك نقل عن عمه، الذى نجعل منزله فى العلم، لكن يبدو أنه على قدر طيب منه، بحيث غدا معتمد المؤرخ الكندى فى بعض الروايات^(٣). بالإضافة إلى ذكر بعض الأشعار كوثائق تؤكد الحدث^(٤). وهكذا، انتهينا من المؤرخين المصريين، وبقي الحديث عن (الأندلسيين).

(١) راجع أعمال القاضى المذكور فى (أعيان الموالى بمصر) ترجمة (١١).

(٢) ترجمة ١٤ فى (المصدر السابق). راجع ما ذكرته عن تاريخ الوفاة الصحيح الوارد لدى الكندى، وتخطئه ما جاء لدى ابن يونس، وتعليل الخطأ (دراسات لكتاتى ابن يونس فى أواخر مجلد تاريخ الغرباء ص ٤٠٠ - ٤٠١، هامش رقم ١٣).

(٣) أعيان الموالى بمصر: ترجمة (١٠، ١٣).

(٤) السابق: ترجمة (١٠).

الفصل الثاني

المؤرخ الأندلسي الحشني

ثانياً - مؤرخو التراجم والطبقات في الأندلس

بقيت لنا - في هذا الباب - دراسة أربعة من مؤرخي التراجم والطبقات في الأندلس، وهم:

- (١) الحشني.
- (٢) ابن جليل.
- (٣) الزبيدي.
- (٤) ابن الفرضي.

والآن، نفرّد هذا الفصل لدراسة أولهم (الحشني)؛ ترجمة، وتحليلاً منهجياً لكتابه (أخبار الفقهاء والمحدثين).

أولاً - حياة المؤرخ الحشني (ت ٣٧١هـ)*:

١ - المولد والنشأة: ولد أبو عبد الله محمد بن حارث^(١) بن أسد الحشني^(٢) في مدينة

(*) تُرجم له في: (تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس)، لابن الفرضي (ط. الحانجي) ج ٢ ص ١١٤ - ١١٥، والإكمال ٢٦١/٣، والخدوة ٩٤/١، وترتيب المدارك ٥٣١/٢ - ٥٣٢، والأنساب ٣٧٠/٢، ٣٧٢، والغية ص ٧١، ومعجم الأدباء ١١١/١٨، وتاريخ الإسلام ٢٨٣/٢٦ - ٢٨٤، ومرآة الجنان ٣٧٥/٢، والديباج ٢/ ٢١٢ - ٢١٣، ونصير المسنة ٥٠٣/٢، وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٩١/٢ - ٩٢.

(١) كذا وردت في معظم المصادر المترجمة له، النهم إلا (تاريخ ابن الفرضي، ط. الحانجي) ١١٤/٢، والإكمال لابن ماکولا ٢٦١/٣ (فوردت فيهما معرفة بـ (ال)).

(٢) هكذا ضبطه ابن ماکولا في (المصدر السابق) ٢٦٠/٣ - ٢٦١ (بالخروف)، والسمعان في (الأنساب) ٣٧٠/٢، وأضاف قائلاً: هذه النسبة إلى قبيلة، وقربة. أما القبيلة، فهي بطن من قضاة، وهو حشني بن شمر بن مرة بن ثعلب بن حنّان بن عمران بن الحاف بن قضاة). والظاهر من كلام السمعان أنه يُعَدُّ مؤرخاً الحشني الذي معنا هذا، والمحدث الأندلسي (محمد بن عبد السلام الحشني) منسوب إلى قرية (حشّين) الموجودة بـ (إفريقية). وأنا أميل إلى نسبتها معاً إلى القبيلة المعروفة بذلك الاسم. ولا داعي للتردد في صحة ذلك، كما تردد الإيباري (محقق قضاة قرطبة) للحشني في (مقدمته ص ٨)، عندما وجد أن ابن الفرضي في (تاريخه، ط. الحانجي) ج ٢ ص ١١٤، قد جعل الحشني المؤرخ من أهل القيروان؛ لأن هذه إشارة إلى أصل مولده، ونشأته، كما سنرى بعد. وتجدر الإشارة إلى أن هناك فارقاً بين الحشني المؤرخ (أحد مؤرخي ق ٤هـ)، ومحمد بن عبد السلام الحشني المتوفى سنة ٢٨٦هـ (وهو من رجال ق ٣هـ) بالأندلس. (راجع ترجمة الأخير في (سير النبلاء) ج ١٣/٤٥٩ - ٤٦٠). وفي شرح هذه التفرقة راجع (الخدوة ١١٩/١، والغية ص ١٠٤).

القيروان في تاريخ نجهله تحديداً^(١)، وإن كان من الممكن أن نقر به تقريباً، فنقول: إنه وُلد أواخر القرن الثالث (ما بين سنتي ٢٩٥، ٣٠٠هـ)^(٢)؛ إذ إن ذلك - في نظري - يتوافق مع ما ذكرته بعض المصادر من أنه قدم الأندلس حَدَثًا^(٣) سنة إحدى عشرة^(٤)، أو اثنتى عشرة^(٥) (أى: وثلاثمائة)، على اختلاف فيما بينها.

نشأ الحشني - إذن - بالقيروان، وتلقى معارفه وعلومه - في الفترة القصيرة، التي قضاه - على أيدي علمائها. والراجح أنه كان شغوفاً بالعلم، نهماً في تحصيله منذ صباه المبكر. ولدينا نصوص تؤكد ذلك، منها ما يلي:

أ - تذكر بعض المصادر أنه تفقه بالقيروان على أيدي بعض علمائها، مثل: أحمد بن نصر^(٦)، وأحمد بن أحمد بن زياد^(٧)،

(١) ولا أدري على أي مصدر اعتمد د. عبد الواحد ذنون طه في (نشأة تدوين التاريخ العربي في الأندلس) ص ١٣، والإيباري في مقدمة تحقيقه لـ (قضاة قرطبة) للحشني ص ٩، فيما ذكرنا من رحيل الحشني إلى الأندلس، ولما يتجاوز الثانية عشرة من عمره (أو وسّته اثنا عشرة سنة)، فكأنما تحرفت كلمة (سنة) في عينيها إلى (وسّته).

(٢) وهذا التحديد أرجح عندي، مما رآه الإيباري محقق (قضاة قرطبة) للحشني في مقدمته ص ١٠ (جعل ميلاده بين سنتي ٢٩٩ - ٣٠٠هـ)؛ لأنني أعتقد أنه ولد - غالباً - سنة ٢٩٥هـ، أو بعدها بقليل؛ كي يتناسب هذا مع وصفه - بعد ذلك - بالحدّث، وما سرود من تلقية العلم، وحضوره المظاهرات بالقيروان.

(٣) شاب حَدَث: فُتِيَ السن، ورجل حَدَث شاب. وهؤلاء غلمان أحداث وحَذَنان. (اللسان: مادة ح. د. ث) ج ٢ ص ٧٩٧. والحداثة: سن الشباب. ويقال: أخذ الأمر بحداثته: بأوله وابتدائه. (المعجم الوسيط ١٦٦/١). وهذا يعني أن الحشني كان في مقتبل الشباب (١٦ - ١٧ سنة) على ما أرجح، أو سنّه (١١ - ١٢ سنة) على الاحتمال الآخر المرجوح عندي.

(٤) المدارك ٥٣١/٢.

(٥) تاريخ ابن الغرضي (ط. الخانجي) ١١٤/٢، والديباج ٢١٢/٢.

(٦) تاريخ ابن الغرضي (ط. الخانجي) ١١٤/٢ (ونظر فيه بالفقه: تعلم منه المأظرة، ونظر في حلقة العلمية الفقهية)، والمدارك ٥٣١/٢، والديباج ١٥٨/١ (سمع منه ابن حارث).

(٧) ما ذكرته بالنسبة هنا هو الصواب (راجع الديباج ١٦٩/١)، فقد ترجم له، وكناه بأبي جعفر، ولقبه بالفارسي. ذكر أنه من أهل إفريقية. صحب ابن عُبْدُوس، وابن مسكين القاضي. عالم بالوثائق، وله كتب كثيرة، وكان فقيهاً لا يقلد. توفي سنة ٣١٩هـ. (السابق: ١٧٠/١). وترجم له الحشني في (علماء إفريقية، ط. الخانجي) ص ٢٢١ - ٢٢٣ (توفي سنة ٣١٨هـ). هذا وقد سماه ابن الغرضي في (تاريخه، ط. الخانجي) ١١٤/٢، وعياض في (المدارك) ٥٣١/٢: (أحمد بن زياد). ويلاحظ أنه إذا ذكر هكذا، على سبيل الاختصار، كما فعل الحشني نفسه في (أخبار الفقهاء والمحدثين) ص ١١٨ فلا بأس. أما الاكتفاء بـ (أحمد بن زياد) فقط في موضع يُذكر فيه أساتذته الحشني الإفريقيون، فغير صحيح؛ لأنه يؤدي إلى الاختلاط بعالم أندلسي قرطبي، يكنى أبا القاسم (توفي سنة ٣٢٦هـ)، وترجم له ابن الغرضي في (تاريخه، ط. الخانجي) ٤٣/١ (رقم ١٠١)، وهو أحد موارد الحشني في كتابه (أخبار الفقهاء والمحدثين)، كما سنرى. وهو - بالطبع - ليس المقصود في هذا الموضع.

والمُسنِّي^(١)، وابن اللباد^(٢).

ب - سلك الحشني - خلال فترة إقامته القصيرة بالقيروان - كل سبيل ممكن لتحقيق العلم، فكان إذا فاتته لقاء عالم من العلماء، يقوم بتعويض ذلك عن طريق سماع روايات الآخرين عنه، ويأتي في طليعة من روى عنهم ذلك والده^(٣). وأحياناً كان يجد بغيته في مطالعة كتب العلماء ببلده (القيروان)، وينقل عنها العلم الغزير، الذي أفاده في بعض مؤلفاته بعد ذلك^(٤). وقد يجد كتباً لعلماء أندلسيين، قدموا إلى بلده قديماً، فيطالعها ويقرؤها ويستحسن ما فيها من علم، كما هو الحال مع كتب العالم القرطبي (قاسم بن محمد المتوفى سنة ٢٧٨هـ)^(٥).

ج - لم يكتف مؤرخنا الحشني بذلك - على حداثة سنه - بل كان يرأسل بعض فقهاء الأندلس ويكاتبهم، ويستفسر عما يعنّ له من مسائل العلم، ويتلقى الأجوبة عن استفساراته^(٦).

د - كان الحشني ذا عقلية تتوقد ذكاء وفطنة، فتذكر لنا المصادر أنه كان يشهد مجالس العلم والمناظرة بين كبار علماء وفقهاء القيروان، وسَطّر لنا قلمه بأسلوبه البارع ما دار في عدد

(١) عالم زاهد عابد فاضل. من أهل إفريقية؛ منسوب إلى (مُسن)، وهي إحدى القرى هناك. (راجع ترجمته باسم العباس بن عيسى، المتوفى في رجب سنة ٣٣٣هـ) في (المدارك) ٣١٣/٢ - ٣٢٣.

(٢) هو العالم الإفريقي (محمد بن محمد بن وشاح، المتوفى سنة ٣٣٣هـ في شهر صفر). (السابق ٣٠٤/٢ - ٣١١). ويلاحظ أنه صرح بسماع ابن حارث منه في (السابق) ٣٠٤/٢.

(٣) راجع (أخبار الفقهاء والمحدثين) للحشني رقم (٤٥٩، ٥٠٦)؛ في أولهما ترجمة لأحد وجوه حَبّان. وثانيهما - عالم من حَبّان - أيضاً - بكثرة الرواية عن (سحنون). حدّثه عنهما والده، فاستفاد من ذلك في كتابه. ويلاحظ

أن معلوماتنا عن هذا الوالد ضئيلة جداً؛ إذ لم نجد عنه سوى خبر في (علماء إفريقية، ط. الخانجي) ص ١٩٤ (قال لي أبي: فكثيراً ما كنت أدخل على عيسى (يقصد: عيسى بن مسكين قاضي إفريقية المتوفى سنة ٢٧٥هـ) في مجلس قضائه، وهو صامت لا يطق، وكانته (ابن الباء يقضي بين الناس). فقله كان صديقاً للقاضي، أو أحد

الشهود المترددين على مجلسه. ولا شك أن والد الحشني من رجال ق ٣هـ، ما دام قد عاصر هذا القاضي (ولى ٢٦٦ أو ٢٦٧، وغرل ٢٧٥هـ) بناء على طلبه لدى خروج إبراهيم بن أحمد بن الأغلب (٢٦١ - ٢٨٩هـ) إلى صقلية. (راجع في فترة حكم الأمير الأغلب المذكور: البيان المغرب ج ١ ص ١١٦ - ١٣٢). وراجع في

ترجمة القاضي (عيسى بن مسكين) كتاب (علماء إفريقية، ط. الخانجي) ص ٣٠٨، والمبارك ٢١٢/٢ - ٢٢٨.

(٤) أخبار الفقهاء والمحدثين، للحشني ص ١٦٦ (ترجمة محمد بن عبيد العزيز القرطبي، رقم ١٩٣)، الذي قدم إلى القيروان، وروى عنه رجال من أهلها قبل انصرافه. قال: ووجدت اسمه مشتبهاً في كتبهم، وقد كتبت عنهم من روايتهم عنه علماً كثيراً (ثم ذكر بعضه في الترجمة).

(٥) أخبار الفقهاء والمحدثين: (ترجمة رقم ٤١١، ص ٣٠١)، قال عنه: قرأت له قديماً بالقيروان كتباً حسنة، ألفها على أصحابه القرطبيين، من شاكلة رد (الشافعي) على (أصحاب مالك).

(٦) المصدر السابق ص ٢٩٨ (رقم ٤٠٥)، ترجمة (الفضل بن سلمة أجهي، من أهل بَنّانة، ت ٣١٩هـ). قال محمد عنه: وردني له بالقيروان غير ما صحيفة بأحوية مسائل، وتلخيص أصول، ورأيت كلاماً، قلّ في أهل العلم من يُحسن مثله. وكان مذهبه في الفقه مذهب التصحيح والتهديب على مذهب مالك، والرواية من أصحابه.

من هذه المجالس^(١). صحيح أنه لم يذكر تفاصيل ما كان، ولا يهمننا أن نعرف ذلك في هذا المقام، لكن الذي تبين لنا مما ذكره أنه كان يستخدم كافة حواسه، التي منحها الله إياها في متابعة أدق الدقائق، التي تدور من حوله في تلك المجالس العلمية العامرة، فهو يتعرف الحاضرين ويصاحبهم^(٢)، ويتأمل الداخل والخارج، ويفحص وجوههم وحرركاتهم، ونظرات الشيخ لهم، وما يدور من حوار عام، ثم ينتظر ليعرف ما يدور من حوار خاص، يخص به الشيخ أحد الحاضرين^(٣). ومن ثم، فلا غرابة أن يكون الخشني قد وصل في تلك المرحلة إلى القدرة على الدخول في معترك المناظرات الفقهية حامية الوطيس، وأن يكون مُبرِّزاً فيها. وقد عبّر عن ذلك أحد من شهدوه (وهو أحمد بن عُبادة)، فقال: رأينا ابن حارث في مجلس (أحمد بن نصر) - يعني: في وقت طلبه بالقيروان - وهو شعله، يتوقّد في المناظرة^(٤).

هـ - لا ريب أن الخشني عاصر حكم العبيدين لإفريقية، ويغلب على الظن أنه عانى ما عاناه بعض طلاب العلم وشيوخه من أهل السنة من اضطهادات وتعذيب وتكيد العبيدين وأتباعهم بهم. والحقيقة أن النصوص لا تمدنا بمعلومات كافية بهذا الشأن، اللهم إلا نصاً ذكره الذهبي، قال فيه الخشني: إنه صحب أحد علماء القيروان، وكان قد هَرِمَ، وأنه كان يقرأ هو وزملاؤه عليه بعض كتاب (محمد بن سحنون) في خفية وتوار؛ لما كانوا فيه. وشرح الخشني - فيما أرجح - ذلك بقوله: (يعني: خوفاً من الدولة، وهم بنو عُبيد الرافضة). وأضاف قائلاً عن هذا العالم الذي كانوا يتلقون عليه: إنه امتحن - رحمه الله - على يد قاضي الشيعة (محمد ابن عمر المروزي)، الذي قام بضربه في الجامع، وجبسه. فُعل ذلك به، وبجماعة من الفقهاء

(١) علماء إفريقية، للخشني (ط. الخانجي) ص ١٩٩. وعنه نقل المالكي في (رياض النفوس، ط. بيروت) ٢٧٤/٢. (وقد سرد لنا بعضاً مما قيل عن أحد شيوخ القيروان في بعض المجالس، التي حضرها لأهل العلم، وفيها تُحَدَّث عن طبيعة انتقاد الناس بعضهم بعضاً).

(٢) من هؤلاء الذين صحبوا الخشني في القيروان، وتفقهوا معه على علمائها: (محمد بن حنبل الأندلسي (من أهل بلنسية)، الذي روى عن علماء بلده، ثم جاء إلى القيروان، ثم عاد إلى بلده ثانية، فتوفي بها (آخر سنة ٣٥٠هـ، أو أول ٣٥١هـ). (المدارك ٤٦٢/٢ - ٤٦٣).

(٣) علماء إفريقية، للخشني ص ٢١١ - ٢١٢. وعنه نقل - باختصار - ابن عذاري في (البيان المغرب) ١٩٤/١ - ١٩٥ (وهو الوصف الرائع والبيان البديع الذي ذكره عن دخول محمد بن عبد الله بن مسرة القرطبي حلقة علم أحمد بن نصر القيروان، وما دار بينهما آخر المجلس، ووصف الخشني ابن مسرة بأنه من أهل العلم (من خلال جَوْلان نظراته في الحاضرين، وتقليبه البصر في وجوه المتكلمين، فأيقن الخشني هو وصديقه الفقي ربيع القطان أنه راسخ في الصنعة. وقال عن منطوقه: كلامه مصنوع، لكن حسن جيد).

(٤) تاريخ ابن الفرضي (ط. الخانجي) ١١٥/٢، والمدارك ٥٣٢/٢ (بلفظ: رأيت، وذكر أنه كان بالقيروان)، والديباج ٢١٣/٢.

والنُصرة؛ إذ كان البلاء عظيماً بيني عُبيد الباطنية^(١).

وبناء على هذه الإلماحة الحاطفة، فإنني أتوقع - خاصة بعد بزوغ نجم الخشني في العلم - أن يكون قد ارتحل سراً؛ نجاة بنفسه من ظلم واضطهاد العبيدين في التاريخ الذي سبق ذكره، وهو في مقتبل الشباب. ولا أدري شيئاً عن موقف أسرته من ذلك الرحيل الاضطرابي، وهل فرّ بنفسه وحده، أو كان ذلك في صحبة أسرته. ذلك ما لم يُكشف عنه النقاب بعد. المهم أنه حطّ رحاله في بلاد الأندلس، حيث يحكمها الأمويون السنيون، فيجد بغيته لديهم في البحث والدرس والتأليف^(٢).

٢ - النضج والازدهار:

أ - بعد أن انتقل الخشني إلى الأندلس (سنة ٣١١ هـ، أو ٣١٢ هـ)، واصل جهاده العلمي، متقللاً بين كور الأندلس المختلفة^(٣)، وتلقى على عدد من العلماء، منهم محمد بن عبد الملك بن أيمن^(٤)، وقاسم بن أصبغ، وأحمد بن عبادة، ومحمد بن عمر بن لبابة^(٥)، وأحمد بن زياد، والحسن ابن سعد، وغيرهم^(٦).

- (١) تاريخ الإسلام ٥٥٢/٢٣ (وفيات سنة ٣١٧ هـ)، ترجمة (محمد بن خالد، أبو القاسم الطويري).
- (٢) ذكر الدكتور أحمد مختار العبادي: أن الخشني أحضر إلى الأندلس بدعوة من الخليفة الأموي الحكم المستنصر (بحث: من التراث العربي الإنساني)، مجلة (عالم الفكر)، مجلد ٨، ١٤ (أبريل - يونيو)، ١٩٧٧ م (٤٥٥). وأعتقد أن هذا القول محل نظر؛ لأنه يعني أنه قدم الأندلس بعد تولي المستنصر الخلافة (٣٥٠ هـ)، وهو مخالف لما نصت عليه المصادر من قدومه ٣١١ هـ، أو ٣١٢ هـ. ويضاف إلى ما سبق أن مقولة د. العبادي لم أجد فيها طالعاً من مصادر ترجمت للخشني. وحتى لو قيل: إن الحكم أرسل يدعو الخشني أثناء ولايته للعهد، فذلك لا يصح أيضاً؛ لأن الحكم ولد سنة ٣٠٢ هـ، وبمجيء الخشني إلى الأندلس يتزامن مع بلوغ الحكم سنّاً، لا تسمح له بتوجيه مثل هذه الدعوة.
- (٣) فنلاً: لقي في (كُطَيْلَة) الفقيه الفاضل محمد بن عبد الله الفهرى (أخبار الفقهاء والمحدثين) رقم ١٨٩ (ص ١٦٥). وفي (قرطبة) جالس كثيراً من العلماء، مثل: المحدث (محمد بن زكريا بن عبد الأعلى). (السابق: رقم ١٨٣، ص ١٦٢)، وحاور أحد زهادها وفقهائها، وصحبه دهرًا (محمد بن مهلهل الزاهدي). (السابق: رقم ٢١٥، ص ١٨٠). وكذلك جالس الفقيه (أحمد بن بقى بن مخلد)، و(وولي العهد الحكم). (السابق: ص ٢٠).
- (٤) قرأ عليه مؤرخنا الخشني (السابق ص ٣٦٠).
- (٥) كان الخشني يحضر مجالس (محمد بن عمر بن لبابة)، ويسمع منه (السابق: ١٩٤، ٣٤٠).
- (٦) ذكر مجمل هؤلاء العلماء: ابن الفرضي في (تاريخه، ط. الخائفي) ج ٢ ص ١١٤ - ١١٥، والمدارك ٥٣١/٢، والديباج ٢١٢/٢. ومن الملاحظ أن الحميدي ذكر في (الجنوة) ٩٤/١، والضي في (البيعة) ص ٧١، وياقوت في (معجم الأدباء) ١١١/٨، وابن حجر في (تيسير المتب) ٥٠٣/٢، ذكروا أن الخشني روى عن ابن وضاح، ونحوه. وفي (الإكمال) ٢٦١/٣، و(الأنساب) ٣٧٢/٢: أن الخشني روى عن محمد بن وضاح، وطبقته. وأعتقد أن ذلك غير صحيح بمرّة؛ فهو غير معاصر للخشني؛ إذ توفي ابن وضاح المحدث القرطبي ٢٨٧ هـ، كما يرى ابن الفرضي في (تاريخه، ط. الخائفي) ١٧/٢ - ١٩، وهو غير معاصر للخشني. وكذلك لا تصح روايته عن (محمد بن وضاح الشذوني) المتوفى صدر أيام الناصر (السابق ٣٢/٢). وأيضاً لا يجوز رواية محمد بن وضاح الآخر الشذوني أيضاً، المتوفى سنة ٣٦٣ هـ؛ لأنه لم يكن محدثاً، وإنما مجرد ناسخ للمصاحف. (السابق ٧٥/٢).

ب - يبدو أن علم وفقه الخشني قد ذاع في أرجاء الأندلس، وتعداها إلى المغرب الأقصى، فيذكر لنا القاضي عياض أن الخشني دخل بلدهم (سبتة^(١)) قبل العشرين وثلاثمائة، وأن أهلها تمسكوا ببقائه عندهم. ويبدو أنه مكث بينهم فترة من الوقت، لا نستطيع تحديدها، فيها تفقه عليه قوم منهم، وقام بضبط قبة جامعهم؛ إذ وجدها تتجه غرباً، فعُدَّها جهة الشرق، فامتثلوا رأيهِ^(٢). ثم عاد إلى الأندلس مرة أخرى في وقت لا نعرفه، فتردد في كور الثغور^(٣)؛ ربما للمرابطة ومداواة العلم مع علمائها، حتى استقر - أخيراً - في حاضرة الأندلس (قرطبة)^(٤)، حيث روى عنه بعض علماء الأندلس، مثل: (عبد الرحمن بن أحمد بن محمد التحيبي القرطبي)^(٥)، و(محمد بن مروان بن زهر الإيادي الإشبيلي)^(٦).

ج - كانت للخشني اهتمامات ثقافية متعددة في (الحديث، والفقه، والتاريخ، والشعر)^(٧)، لكن شغفه بالفقه غطَّى على علومه الأخرى، واستطاع أن يوجِّه الفقه في خدمة التاريخ، واستفاد - كذلك - من معلوماته عن رجال ورواة الحديث، واستغل ذلك كله استفلافاً حسناً في تأليف كتابه (أخبار الفقهاء، والمحدثين)، الذي سندرسه بعد ذلك؛ مما يدل على علمه بالأخبار، وأسماء الرجال^(٨). هذا، وقد وصفه البعض بأنه كان حافظاً للفقه، متقدماً فيه، نبهاً ذكياً، فقيهاً فطناً متفتناً، عالماً بالفتيا، حسن القياس في المسائل^(٩). فلا غرو - بعد هذا كله - أن يَلَفَّت نظر (الحكم المستنصر ٣٥٠ - ٣٦٦هـ) خليفة الأندلس، الذي شجعه على التأليف العلمي، فوضع الخشني عدة مؤلفات، أهمهاها إليه، منها: (الاتفاق والاختلاف في مذهب مالك)، و(كتاب الفتيا)،

(١) كذا ضبطها ياقوت بفتح السين على المشهور، وهي بلدة مشهورة، من قواعد المغرب، ومرساها أجود مرسى على البحر، وهي على بر البربر، تقابل جزيرة الأندلس، وبينها وبين فاس عشرة أيام. وهي مدينة حصينة تشبه (المهدية) بإفريقية؛ لأنها ضاربة في البحر. (معجم البلدان ٢٠٥/٣ - ٢٠٦).

(٢) المدارك ٥٣١/٢.

(٣) المصدر السابق ٥٣١/٢، والديباج ٢١٢/٢.

(٤) المصدران السابقان: نفس الجزء والصفحة.

(٥) الصلة، لابن بشكوال ٣٠٣/١ (وذكر أن أبا عبد الله محمد بن حارث الخشني أحاز له الرواية عنه).

(٦) وكان مقدماً في الشورى، ومن أهل الرواية، والدرابة (ت ٤٢٢هـ). (المصدر السابق ٤٨٧/١ - ٤٨٨). ويلاحظ أن بعض المصادر ذكرت أنه روى عنه أبو بكر بن حرميل، وغيره. (ولا أدري بلد هذا التلميذ). (المدارك ٢٠٣/٥٣٢، وتاريخ الإسلام ٢٦/٢٨٤ (حُرِّفَ حرميل إلى حويل)، والديباج ٢١٢/٢).

(٧) ذكر ابن الفرضي في (تاريخه، ط. الخانجي) ١١٥/٢: أنه كان شاعراً بليغاً، إلا أنه كان يلحن. وقال: بلغني أنه ألف للمستنصر مائة ديوان. وعنه نقل هذا الكلام عياض في (المدارك) ٥٣١/٢ - ٥٣٢، والذي في (تاريخ الإسلام) ٢٦/٢٨٤. ولى رأى أن الشعر البليغ يتناقض مع اللحن، ولو كان الخشني له كل هذه الدواوين، لنقلت عنه المصادر شيئاً من أشعاره تلك. لذلك كله، فإن أشك في صحة هذا الكلام.

(٨) الديباج ٢١٣/٢.

(٩) تاريخ ابن الفرضي (ط. الخانجي) ١١٤/٢ - ١١٥، والمدارك ٥٣١/٢، والديباج ٢١٢/٢ - ٢١٣.

و(أخبار الفقهاء والمحدثين)^(١)، و(تاريخ قضاة الأندلس)^(٢)، وكتاب (تاريخ الإفريقيين)^(٣)، وكتاب (فقهاء المالكية)^(٤)، و(كتاب التعريف)، وكتاب (المولد، والوفاة)، وكتاب (النسب)، وكتاب (الاقبال)^(٥)، وغيرها^(٦). ومن الواضح أن مؤلفاته - في الغالب - تدور حول الفقه، وتراجم الفقهاء والمحدثين، والقضاة. من أجل ذلك كله، ولآه الحكم المستنصر بعض المناصب، التي تتلاءم مع كفاءته وعلمه، فجعله مسئولاً عن (الموارث) بـ (بجانة)^(٧)، كما ولآه الشورى بقرطبة^(٨)، وإن كنا لا نستطيع تحديد توقيت ذلك بالضبط.

ثانياً - من خصائص شخصيته:

١ - دقته، واعتزازه بنفسه:

لعل أول ما يطالع الناظر فيما بين أيدينا من مؤلفات الخشنى التاريخية تصديره عدداً غير

- (١) ورد هذا العنوان في (الجنوة) ٩٤/١، والبغية ص ٧١، ومعجم الأدباء ١١١/١٨. وربما كان هو المشار إليه باسم (تاريخ علماء الأندلس) في (الدباج) ٢١٣/٢، والمذكور في (تاريخ ابن الغرضي، ط. الخانجي) ١١٥/٢. أن الخشنى جمع للمستنصر كتابا في (رجال الأندلس).
- (٢) وهو مطبوع بين أيدينا بعنوان: (قضاة قرطبة).
- (٣) اعتقد أنه الموجود بين أيدينا بعنوان: (علماء إفريقية). وربما كان هو نفسه المسمى في بعض المصادر بـ (تاريخ الأفارقة)، والمنقول عنه بذلك الاسم في (المدارك) ١٩٥/٢ - ١٩٦، ومعالم الإيمان ١٥٩/٢. وسمى في (الأنساب ٥/ ١٧٧)، ونقل عنه السمعاني فيه باسم (تاريخ الغاربة)، وصرح أنه للخشنى. بينما سُمِّت بعض المصادر الأخرى، ونقلت عنه، باسم (علماء، أو مشايخ القروان). (الجنوة ٢٤٩/١ - ٢٥٠، والبغية ص ٢٢٩، والصلة ١٠٥/١).
- (٤) لعله المسمى بـ (طبقات الفقهاء المالكية) في (الدباج) ٢١٣/٢. والغالب أنه ترجم فيه لفقهاء المذهب المالكي في مختلف الأمصار. ومن هنا وجدنا به ترجمة للفقهاء المصريين المالكيين المأوازي (٢٦٩هـ)، فيما ينقله عنه عياض في (المدارك ٧٢/٢، ٧٤). وكذلك نقل عن هذا الكتاب - في الغالب - المقرئ في (المقفى) ٤٥٧/٧ في ترجمة الفقيه (محمد بن يحيى من مهدى الأسوان المالكي المتوفى سنة ٣٤٠هـ).
- (٥) وردت عموم هذه المؤلفات في (المدارك ٥٣١/٢) و(مرآة الجنان ٣٧٥/٢) وسمى كتاب النسب بالنسب، وتاريخ علماء الأندلس بـ (تاريخ الأندلس)، و(علماء إفريقية) بـ (تاريخ إفريقية)، و(الدباج ٢١٣/٢) وبمبحث (مكنة الأمويين الإسلامية في قرطبة)، للدكتور زغروت (مجلة البحوث الإسلامية) بالرباط، مجلد ١٧، عدد ١، القعدة - صفر ١٤٠٦هـ/ ١٤٠٧هـ، ص ٣٤٥. وذكر أنها كانت بتكليف من الناصر والمستنصر؛ ليوقف المذهب المالكي أمام محاولات الشيعة تسريب مذهبهم من الشمال الإفريقي إلى الأندلس.
- (٦) أضاف ابن فرحون إلى مؤلفات الخشنى كتاب (متناقب سحنون). (الدباج ٢١٣/٢، ٣٠).
- (٧) المدارك ٥٣١/٢. وصُحِّفَ في (الدباج ٢١٣/٢) إلى (بجاية). وبجاية بالمغرب. أما (بجانة)، ففي الأندلس، وهي من أعمال كورة البيرة، بينها وبين المرسة فرسخان، ولها علماء كثيرون (معجم البلدان ٤٠٣/١). ولعلها حطة (توزيع الموارث، والإشراف على البيتمى مالياً، وتقسيم التركات).
- (٨) تاريخ ابن الغرضي (ط. الخانجي) ١١٥/٢، والمدارك ٥٣١/٢، و(الدباج ٢١٣/٢). وهي من الخطط المساعدة للقضاة بالأندلس، إذ تكون من كبار الفقهاء، الذين يشاورهم قاضى الجماعة بقرطبة في القضايا التي تُعرض عليه، ويستأنس برأيهم قبل الفصل فيها.

قليل من رواياته بـ (قال محمد)^(١)، أو (قال محمد بن حارث)^(٢)، أو (قال ابن حارث)^(٣). وهذه الصيغة التي يستخدمها كثيراً تدل على دقته في نسبة الروايات إلى نفسه، فهي من تجميعه وتنسيقه هو؛ ولذلك تجده - أحياناً - يصدر بها مورداً صريحاً، أو مجهولاً. إلى هنا وأتوقف مكتفياً بهذه اللمحة السريعة التي تمس شخصيته، موجلاً التفصيل من الزاوية الأخرى عند الحديث عن (الموارد). وبالنسبة للجانب الآخر المستفاد هنا، فيتمثل فيما نشر به من اعتزاز الخشني بنفسه، وهو ما يتأكد بصورة واضحة، عندما يتلو هذه الصيغة تعليق خاص للخشني على حدث ما، أو خبر ما في رواية من الروايات، فكأنه يفصح عن نفسه وشخصه ورأيه. وسوف نذكر عدداً من مواضع حضور شخصيته عند دراسة منهجه في كتابه: (أخبار الفقهاء والمحدثين)، بإذن الله (تعالى).

٢ - أدبه، وصراحته:

تميز الخشني بالعفة في استخدام الألفاظ، حتى إذا وردت لفظة مستحبة مستهجنة على لسان أحد المشاركين في الحدث، ترفع وتزهر بنفسه عن ترديدها كما وردت، وإنما يكتفي عنها. ومثال ذلك: تعبيره عن ألفاظ، قالها الأمير عبد الرحمن بن معاوية غاضباً (١٣٨ - ١٧٢ هـ) لمصعب بن عمران، الذي أصر على إباء منصب القضاء، لما عرضه عليه الأمير، إذ قال: " فقال لمصعب: اذهب، فعليك كذا وكذا، وعلى اللذين أشارا بك "^(٤).

والصراحة تنلمسها من واقع ما أورد الخشني في بعض مؤلفاته التاريخية. فمن ذلك: أنه كان إذا بحث عن المادة التاريخية المرتبطة بشخصية معينة في فترة معينة من فترات حياته، فلم يعثر على ما ينبغي، صرح بذلك دون أدنى مواربة^(٥)، بل قد يتعدى الأمر ذلك إلى ما هو أكثر؛ إذ قد لا يجد - عمن يترجم له، ويعرف به - أي خبر لدى رواة الأخبار، فيقده عنه، فيشير إلى ذلك بوضوح تام^(٦). واعتقد أن ذلك لا يعيبه في شيء، ما دام قد استفرغ وسعه، وبذل ما في طاقته.

(١) أخبار الفقهاء والمحدثين: ص ٩ - ١٠، ١٦، ٢٧، وغيرها، وقضاة قرطبة للخشني (ط. الإيباري) ص ٢٧ - ٣١، ٣٨، ٤٢، وغيرها كثير، وعلماء إفريقية (ط. الخانجي) ص ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٣٥.

(٢) المصدر السابق: ص ١٧٨، ١٩٥، وأخبار الفقهاء والمحدثين ص ١٧، ١٩.

(٣) علماء إفريقية (ط. الخانجي) ص ١٨٤، ١٨٦، ١٩١.

(٤) يقصد: ابنه هشام بن عبد الرحمن بن معاوية، وأحمد بن مغيث (قضاة قرطبة، ط. الإيباري) ص ٢٧.

(٥) قال الخشني في (المصدر السابق) ص ٩٨، عند تناوله للمقاضي (الفرج بن كنانة): ولم أجد عند رواة الأخبار للفرج بن كنانة بعد مقدمه من الثغر خبراً.

(٦) كما في ترجمة القاضي (قطن بن جزء التميمي)، فيبعد أن ذكر نسبه، وولايته الحكم بن هشام له قضاء قرطبة، قال: (ولم أجد له عند رواة الأخبار خبراً، أقبده عنه). (السابق: ص ٩٩). ويمكن مراجعة المزيد من

النماذج في (السابق: ص ١٠٠ - ١٠١، ١٢٤).

٣ - رقة مشاعره، وحب للناس:

من خلال مطالعتي كتاب (أخبار الفقهاء والمحدثين) للخشنى، تبين لى أن هذا المؤرخ هادئ الطبع، حلو المعاشرة، حسن القول، يفيض رقة وعدوبة وإيماناً، ووفاء وعرفاناً لمن يترجم لهم من علماء الأندلس. وهناك عبارات، وجمل قصيرة كان يواظب على ذكرها في تراجمه، وهى على بساطتها الشديدة، ذات مدلول طيب، ومغزى عميق. ومن ذلك: مواظبته شبه التامة - بعد ذكر اسم المترجم له في صدر الترجمة - على (الترحم عليه)، بقوله: (رحمه الله)^(١). وفى أحيان نادرة، يترحم على المترجم له - بعد ذكر تاريخ وفاته - آخر الترجمة^(٢). وكان يترضى على إمام أهل السنة، ودار الهجرة الإمام مالك، فيقول: رحمه الله^(٣). وقد يستخدم عند الترحم صيغاً أخرى، مثل: (رحمه الله، ورحم المسلمين)^(٤)، و(رحمة الله عليه، وعلى جميع المسلمين)^(٥)، و(عفا الله عنا، وعنه)^(٦)، و(رحمنا الله، وإياه)^(٧).

٤ - عقليته الواعية المنظمة المجتدة:

تميز مؤرخنا الخشنى بحب العلم، وشغف مطالعته، وبرز في عدة علوم، منها: (الفقه، والحديث، والتاريخ). ومن هنا، فقد شكّلت هذه الثقافة العريضة عقليته، ووسّعت مداركه، فكان فطناً لبيباً، ذا قدرة على التنسيق، والابتداع. ومن شواهد ذلك ما يلي:

أ - كان الخشنى يدرك تماماً أن العلم والفقه شئ، والعبادة والخير والزهّد شئ آخر؛ إذ لم يلزم أن يكون العابد الفاضل زاهداً عالماً فقيهاً. ومن هنا كان يفرق بين هذين الأمرين، ويحرص على بيان ذلك في تراجمه^(٨). وهذا فهم صائب دقيق.

ب - كان الخشنى حسن الفهم دقيقه عند النظر إلى كل من: (المحدث)، و(الفقيه)؛ ولذلك

(١) هذا هو ديدنه في معظم تراجم كتاب (أخبار الفقهاء والمحدثين). وقد تسقط هذه الجملة الدعائية في مواضع نادرة، مثل: ترجمة (٤) ص (١١)، وترجمة ٦١ ص (٦٣).

(٢) راجع (المصدر السابق): ترجمة ١٢ ص ١١، ورقم ٢٠ ص (٢٢).

(٣) السابق: ترجمة ٨ ص ١٣.

(٤) السابق: ص ١٩، ٢٤، ٢٦.

(٥) السابق: رقم (٥٨)، ص ٦٢.

(٦) السابق: ص ٢٠.

(٧) السابق: ترجمة (٥٠) ص ٤٢، وترجمة ٧١ ص (٧٣).

(٨) كما في ترجمة (أبى الأحوص، رقم ١٨) الواردة في (علماء إفريقية، ط. الخناجى) ص ١٩٨ (وكان الخير والعبادة أغلب عليه من الفقه). وكذلك ترجمة (أحمد الصواف) في السابق رقم ٢٥ ص (٢٠٦).

كان يرى أن للحديث رجاله، وللفقه رجاله أيضاً^(١). وبلغت به الدقة والفطنة مدى أوسع من ذلك، عندما رأى أن هناك من لم يكن عنده فقه، ولا حفظ، وإنما كانت عنده رواية عن بعض العلماء^(٢).

ج - علق الحشني على ما رواه له (أحمد بن محمد بن عبد الرحمن القصري)، من أنه كان يسأل (يحيى بن عمر الأندلسي) عن مسألة من المسائل فيحييه. وبعد زمان يسأله عنها، فلا يختلف قوله، ولا يتناقض جوابه. وغيره كان على خلاف ذلك. علق الحشني على ذلك بقوله: وهذا الوصف منه يدل على ركود النظر، وقلة الإحالة للفكر، وعلى الاقتصاد على المقال (المحفوظ)^(٣). فالحشني يرى - إذن - أنه لا بد للفقهاء من إعمال فكره، وإعادة النظر في فتاواه، وعدم التوقف عند حدود ترديد المحفوظ من المسائل الفقهية لدى السابقين، وعدم الاقتصاد على التقليد، بل لا بد من الاجتهاد والتجديد.

د - القدرة على تنسيق المادة العلمية، وحسن توزيعها، ليس على مستوى الكتاب الواحد فحسب، بل على مستوى أكثر من كتاب من كتبه، بحيث إنه لا يقع في التكرار، فما ذكره في مكان من كتاب، لا يعيده مرة أخرى في موضع آخر من الكتاب نفسه، وإنما يكتفي بالإشارة إلى أنه سبق بيانه من قبل^(٤). وقد يتوسع ويفصل في كتاب، بينما يختصر الأمر في كتاب آخر، مشيراً إلى أنه سبق له البيان والتفصيل في كتاب سابق، يقوم بالنص عليه؛ كي يرجع إليه من شاء^(٥).

(١) هناك من نص على تقديمهم في الفقه، وبصرهم بالرأى والحجة في (أخبار الفقهاء والمحدثين) ترجمة (إبراهيم بن حسين بن خالد القرطبي)، رقم (١) ص ٩ - ١٠، وأحمد بن مدرك الفقيه الملقب الفاضل المالكي القُرَئ (رقم ٨ ص ١٣). بينما برع البعض في حفظ الحديث، والسنن والرجال (مثل: أحمد بن عمرو بن منصور الإلبيري)، رقم ١٢ ص ١٤ - ١٦. وهناك من اهتم برواية الحديث، مع قلة إحسانهم الفقه (بأبي بالحديث على وجهه في زكاة الشياه، ولا يعرف الحكم الفقهي) ص ١٩.

(٢) السابق: (رقم ٤٨٣)، (ص ٣٤٣).

(٣) علماء إفريقية (ط. الخانجي) ص ١٨٤. وقد أورد الحشني روايات، تفيد معرفته بأن الفقه هو معرفة المسألة، لا مجرد الحفظ دون فهم. (أخبار الفقهاء والمحدثين) ص ١٢٠، ٢١٩.

(٤) علماء إفريقية ص ٢١٤ (ترجمة حسن بن البناء)، الذي ضمه إبراهيم بن أحمد بن الأغلب إلى كتابة (القاضي عيسى بن مسكين) على الوجه الذي ذكرته - قبل هذا - عند ذكر (عيسى بن مسكين). وبالفعل هذه المعلومة موجودة في ترجمة القاضي المذكور سلفاً في (المصدر السابق) ص ١٩٣.

(٥) في آخر ترجمة (يحيى بن عمر الأندلسي) في (السابق) ص ١٨٦، قال: (وأراق أودعت كتاب (التعريف) من ذكر يحيى، ما لم يحضرون في هذا الكتاب. وكذا في ترجمة (حمديس القطان) رقم ١٦ ص ١٩٧: وقد ذكرت في كتاب (التعريف) من أخباره ما لم أذكره في هذا الكتاب. وفي ترجمة (عبد الله بن طالب) ص ٣٠٦: ذكر مناظرة له عند الأمر (إبراهيم بن أحمد بن الأغلب)، قال: ذكرته في كتاب (التعريف).

٥ - تفاعله مع أحداث عصره:

عرفنا - فيما سبق - أن الخشنى وُلِد، ونشأ النشأة الأولى في القيروان، ثم انتقل إلى الأندلس وهو في مقتبل الشباب، واستقر بها حتى الممات^(١). وبهذا يكون قد غمى إلى علمه أخبار دولة الأغالبة السابقة (١٨٤ - ٢٩٦هـ)، وعایش بدايات دولة العبيدين المشيعة، ثم عاش في كنف الأمويين بالأندلس. والآن ما موقفه من هاتين البيتين وحكامهما؟ والجواب: أنه على الرغم من مفادرة الخشنى القيروان، إلا أنه كان يتابع أخبارها، ويرصد ما يتنامى إليه من أحداثها، ويقارن بينها وبين ما يُروى له من أحوال شبيهة بها^(٢).

أما موقفه من حكام (الأغالبة)، فالملاحظ أنه لم يعاصر حكمهم، لكن يبدو أنه روي له كثير من مفاسدهم؛ مما أثر في طريقة تعبيره عنهم، فهو لا يصفهم بالأمرء، بل اكتفى بذكر أسمائهم^(٣)، وقد يعبر عن كل منهم - (السلطان) عند ذكر الحن التي تعرض لها بعض العلماء^(٤). وما وُجد من حالات قليلة، نُسبت فيها الإمارة إلى بعضهم، فذلك مسوق على لسان مصدره الذي نقل عنه^(٥).

(١) من الملاحظ أن الدكتور حسين مؤنس جعل الخشنى من أعلام العلم والفقه بالمغرب (مقدمته لتحقيق رياض النفوس) صفحة (٣٥). وهذا غير صحيح؛ بدليل تلقيب المالكي له بالأندلسي في نقله عنه ترجمة (محمد بن سحنون) في (رياض النفوس) - ط. بيروت - ج١ - ص٣٥٦. وهذا هو ما نغلب إليه، ورجحه قبلنا د. عبد الواحد ذنون طه في (نشأة تدوين التاريخ العربي في الأندلس) ص١٥، إذ رأى أنه قيرواني الأصل، لكن ثقافته وطريقة تفكيره تشكلت على أيدي أساتذته بالأندلس، وتناحه انعكس لحياته الفكرية والثقافية والاجتماعية، التي عاشها بالأندلس، التي قضى عمره فيها، وتوفى، ودُفن بها.

(٢) لم تقطع صلة الخشنى بالقيروان، وتوقع أن تكون له صلة بأحوالها، عن طريق القادمين إليها من القيروان، أو بالمراسلة، فيما أظن؛ بدليل أنه في بعض تراجم (علماء إفريقية) - وهو نتاج أندلسي كُتب بالأندلس فيما نرجح - قال: (قال أبو جعفر أحمد بن أبي خالد الدباغ - وهو اليوم - أحد عقلاء رجال القيروان) ص١٩٩. وفي ص٢٤٦: (أخبرني أبو جعفر بن شهرين الذي هو - اليوم - قاضي برقة. وفي (أخبار الفقهاء والمحدثين) ص١٥٩: ذكر أحداثاً بلنته - فيما نرجح - عن القيروان سنة ٣١٥هـ (وهو بالأندلس)، عندما قام السفهاء، والأحداث هناك بامتحان الناس في تقليد مالك وأصحابه؛ مما أدى إلى التشييت والفرقة، حتى اضطر المهدي إلى تعنيف (إسحاق بن أبي المنهال)، طالباً إليه تسكين الأحوال، حتى هدأت الفتنة. (ذكر ذلك تعليقاً على ما رواه بعض تجار القيروان عن خلاف بين رجلين من عوام بغداد حول معنى المقام المحمود)، وما أحدثه ذلك من سباب وشجار، وكذلك ما حكاها له محمد بن عبد الملك بن أيمن حول ما رواه من اشتجار الفتنة بين أهل بغداد حول الموضوع نفسه). (السابق: ص١٥٨ - ١٥٩).

(٣) علماء إفريقية (ط. الخناجي)، للخشنى: ص١٨٣، ١٨٩ - ١٩٠، ١٩٤، ١٩٨، وغيرها.

(٤) المصدر السابق: ص٢٣٣.

(٥) السابق: ص١٧٩ (في ترجمة محمد بن سحنون على لسان "لقمان بن يوسف"، وهو المرد الذي نقل عنه الخشنى تلك الرواية)، ص١٩١ (في ترجمة أحمد بن أبي سليمان في حوار مع إبراهيم بن الأغلب).

وبخصوص الحكام العبيدين بالمغرب، فقد رأينا - سلفاً - أنه قرّر من موطنه، ومسقط رأسه (القيروان)؛ خوفاً من بطشهم وتنكيلهم بعلماء السنة وأتباعهم. ولا شك أنه كان يحمل لهم في قلبه قدراً من البغض والكراهية في الله والله (فقد بدّلوا وغيّروا في عقائد المسلمين الصحيحة، وأذوا أهل السنة، واضطروه إلى هجران بلده). ومن هنا، فقد رأينا أثناء ترجمته لأحد علماء وزهاد إفريقية يقول: مات - رحمه الله - باب المردية^(١). "وعلّق القاضي عياض بعدها مباشرة قائلاً: يريد (ابن حارث) - (المردية): (المهذية)، مناقضة لاسمها، الذي سمّاها به بنو عبيد؛ إذ كانت عش كفرهم، ودار ضلالهم^(٢)."

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل كان الخشني يُزرى من شأن من تشيع بالقيروان، وجارى العبيدين^(٣).

وبالنسبة لطبيعة نظراته إلى الحكام الأمويين بالأندلس، فإن الخشني كان عظيم الامتنان لهم، شديد الاحترام والإكبار لذكورهم. واعتقد أن الخشني كان مبالغاً في جانب من جوانب هذا الأمر، ذلك أنه بلغت به المغالاة حدّاً جعلته يترضى عند ذكر عبد الرحمن بن معاوية، فيقول: الإمام^(٤)، وكذلك عند ذكر غيره من بني أمية^(٥). وكان يضيء على الأمراء الأمويين بالأندلس لقب (خليفة)^(٦)، رغم أن إمارتهم لم تتحول إلى خلافة إلا في عهد (عبد

(١) ترتيب المدارك ٣١٥/٢ (في ترجمة العباس بن عيسى المُشَيّ ت ٣٣٣هـ). وصرح القاضي عياض في هذا النص بنقله عن (تاريخ الأمازيغ) للخشني. وقد رجعت إلى (علماء إفريقية، ط. الخانجي)، الذي بين أيدينا في ترجمة المذكور (ص ٢٣٤، ٢٨٥)، فلم أجد النص فيه، فغالبا أن النسخة المطبوعة بين أيدينا مختصرة على يد العالم الأندلسي (أحمد بن محمد بن عبد الله الطلمنكي ت ٤٢٩هـ)، خلافاً للأصل الكامل الذي طالعه عياض.

(٢) عقد الخشني فصلاً قصيراً في (علماء إفريقية) ص ٢٩١ - ٢٩٦، عنوانه - (من تشقّق - أي: تشيع - من يُنسب إلى العلم بالقيروان). فهو - إذا - جعلهم يدعون الانتساب إلى العلم، ولم يتوسع في الترجمة هؤلاء (عالم مدن الأصل بالقيروان، والباقيون عراقيون؛ لأن التشيع كان هم بارزاً؛ ربما لأن هؤلاء هم الذين حضّر ذكورهم في ذهنه، وهو بالأندلس، أو لم يتوسع في ذكرهم؛ إهمالاً لشأنهم.

(٣) أخبار الفقهاء والمحدثين: ص ٩.

(٤) فمثلاً: كان يترضى على الداخل والولد، فيقول عند ذكره عبد الرحمن بن معاوية: (رضى الله عنهما). (قضاة قرطبة، ط. الإيباري) ص ٢٧، ويترضى على الخليفة الحكم (رضى الله عنه). (السابق: ٢٩)، ويترضى على خلفاء بني أمية عموماً بالأندلس على حد تعبيره، فيقول: (رضى الله عنهم)، (السابق: ٢٤ - ٢٥، ٣٨).

(٥) فيقول مثلاً: الخليفة الحكم، والخليفة عبد الله، والخليفة محمد (أخبار الفقهاء والمحدثين) ص ٣٢، ٣٩، ٤١، ٤٣، ٥٩، ٨٠، ٨٣، ٩٩، ١٠٧، وغيرها. ويلاحظ أنه قال: الخليفة عبد الرحمن في (ترجمة رقم ١٢٢، ص ١٠٧)، وأدى هذا الوصف إلى الخلط بين (عبد الرحمن الناصر ٣٠٠ - ٣٥٠هـ)، و(عبد الرحمن بن الحكم ٢٠٦ - ٢٣٨)، لولا وجود قرينة في الترجمة، تُصَرِّفُ الفهم إلى (الأمير عبد الرحمن بن الحكم)؛ لأن الترجمة ورد بها أن المترجم له (كرز بن يحيى الصدق الإسثعي). روى عن (عبد الملك بن حبيب التوتّي سنة ٢٣٨هـ)، فهو معاصر للأمير، لا للخليفة. وكذلك في (ترجمة محمد بن يحيى السبائي) رقم ١٢٧، ص ١١٢، فقد ورد أنه كان في أيام -

الرحمن الناصر) في ذى الحجة سنة ٣١٦هـ. ولعل الخشني أراد أن يعبر عن مشاعره تجاههم، ويُضني (الناصر، والمستنصر)، خاصة أنه وافد مهاجر إلى بلاد غربية، يخشى على نفسه بما الدسائس والوشايات، ثم هو يعبر عن شديد وفاته لحكامها السابقين والحاليين؛ إذ احتضنته بلادهم، وآوته في كنفها بعد فراره من بلده.

ومن جهة أخرى، فإن مدح الخشني الخليفة الناصر، وابنه المستنصر من بعده لا يدخل - في نظري - في باب التحيز، أو المبالغة؛ لأن الخليفتين كليهما جديران بكل تجلّة واحترام؛ كفاء ما قدّما للإسلام وللمسلمين في بلاد الأندلس من عدالة ورعاية^(١)، وما حققا من تقدم وازدهار، وعزة ونصر وتمكين. لقد حظى المستنصر بشاء خاص، وتقدير كبير من المؤرخ الخشني؛ نظراً لجهوده الطيبة المتميزة في خدمة الثقافة، ونشر العلم. فالخشني يعرف للعلم قدره، ويفهم - تماماً - أنه أساس الفضائل والمفاخر، وأن الحكام المثقفين الذين يشجعون العلم والعلماء يقودون شعوبهم وأمهم إلى الخيرات والفضائل والمكارم^(٢). فإذا عرفنا صلة الخشني بالمستنصر، وتوجيه الخليفة له إلى التأليف في الموضوعات التي أُلّف فيها؛ مما جعله يُهدّي هذه المؤلفات إليه؛ أدركنا سر إعجاب الخشني به. وأيقنا أن مدحه إياه لم يكن من باب المحاملة، أو التزلف والنفاق، ولكن من باب نسبة الفضل إلى ذويه.

حول تاريخ وفاة الخشني:

ظل مؤرخنا (الخشني) على صلة طيبة، ومكانة متميزة على عهد الخليفة الأموي الأندلسي (الحكسم المستنصر)، إلى أن توفي سنة ٣٦٦هـ. ويبدو أن المنصور بن أبي عامر عزل مؤرخنا الخشني من منصبه؛ تنفيذاً لسياسته الرامية إلى التقصير بصنائع الحكم (أي: إهمالهم، وإبعادهم عن مناصبهم). ولا ريب أن الخشني تأثر بذلك تأثراً بالغاً، إذ آلت به الحال بعد كل هذا العلم والفقه، والشهرة والمكانة المرموقة، والتقريب من الخليفة، وإهداء مؤلفاته - خاصة التاريخية -

- الخليفة الحكم (٣٥٠ - ٣٦٦هـ). وبالنظر إلى محتوى الترجمة، وجدنا أنه يروي عن مالك (ت ١٧٩هـ)، فيكون المقصود هو الأمير الحكم بن هشام (١٨٠ - ٢٠٦هـ). وفي ترجمة رقم ١٣٠ - ١١٦ لـ (محمد بن تليد): ورد أن الخليفة (الحكم بن هشام) استفضاه على سرقسطة، وأنه كان - أيضاً - في أيام الخليفة عبد الرحمن (رضى الله عنه) قاضياً. وواضح أنه بقصد توليه القضاء في عهد الأمير (الحكم بن هشام)، ثم ابنه الأمير (عبد الرحمن بن الحكم بن هشام).

(١) ورد رأى الخشني صراحة في (الخليفة الناصر) في ترجمة (أحمد بن عباد القرطبي) ص ٢٦، لما قال: (وكان له عند أمير المؤمنين (عبد الرحمن بن محمد) جاه عريض، وحرمة وافرة، وأفضل ما كان لعالم عند إمام عادل).

(٢) راجع (قضاة قرطبة، ط. الإيباري)، للخشني ص ٢٣ - ٢٤.

إليه، أقول: انتهى به المطاف إلى الجلوس في حانوت لبيع الأدهان^(١)؛ كي يتكسب من دخله. ويبدو أن الخشني كان على معرفة قديمة بدراسة الكيمياء، وتجارة العقاقير في بداية شبابه^(٢)؛ مما جنبه مذلة السؤال، فوجد في صناعته تلك ملاذًا، يتعيش منه، ودخلًا يسد به رمقه. ولعله كان يحتسب بعض الوقت؛ لإتمام بعض مؤلفاته.

ويغلب على الظن أن مؤرخنا قد انفطر فؤاده وتصدّع قلبه؛ حسرة وأسى، لما وجد نفسه مضطراً إلى هذا العمل، الذي لا شك أنه أبعدته كثيراً عن عمله الرئيسي، وهوايته المفضلة المتمثلة في البحث والدرس والتأليف. وأعتقد أن حياته لم تطل بعد وفاة (المستنصر)، فتوفى - على الأرجح - سنة ٣٧١هـ^(٣)، لا سنة ٣٦١هـ كما يرى الكثيرون^(٤)، ولا سنة ٣٣٠هـ^(٥)، ولا سنة ٣٦٤هـ (كما يرى البعض)^(٦)؛ لأنه ثبت أن الرجل عاش بعد وفاة المستنصر (ت ٣٦٦هـ)، وأكمل كتاب (أخبار الفقهاء والمحدثين) بعده؛ بدليل ترجمه عليه في معظم المواضع،

(١) تاريخ ابن الفرضي ١١٥/٢ (قال باحتصار: كان يعمل الأدهان، وينصرف في ضروب من الأعمال اللطيفة، يقصد: الكيمياء)، والمدارك ٥٣١/٢ - ٥٣٢، وتاريخ الإسلام ٢٨٤/٢٦ (بتعاطى الكيمياء)، والديباج ٢١٣/٢، وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٩٢/٢.

(٢) القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية، للدكتور زيتون ص ٤٠٤ - ٤٠٥ (ورجح أن يكون تعلم في القيروان).

(٣) هذا هو الراجح لدى، وسرى أدلته بعد قليل. وسبقني إليه دون سوق أدلته: بروكلمان في (تاريخ الأدب العربي) ٩٢/٢ (توفى ٢ من صفر ٣٧١هـ - ٩ أغسطس ٩٨١م)، وناشر (تاريخ فضاء الأندلس) للباهي (مقدمته صفحة ٥).

(٤) تاريخ ابن الفرضي (ط. الخايمي) ١١٥/٢ (توفى بقرضة في الثالث عشر من صفر سنة ٣٦١هـ، ودفن بمقبرة مومرة. فهو الوحيد الذي أشار إلى مكان الدفن، الذي لم أفق عليه بالتحديد)، والمدارك ٥٣٢/٢ (نقلاً عن ابن الفرضي في إحدى روايتين، ذكرهما عياض)، وتاريخ الإسلام ٢٨٤/٢٦ (توفى في شهر صفر)، والإعلام بوفيات الأعلام للذهبي ص ٢٤٨، ومراة الحنان ٣٧٥/٢، والديباج ٢١٣/٢ (في رواية)، والنجوم ٦٨/٤. وقال بذلك من المحدثين: دزيتون في (القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية) ص ٤٤٠، ود. عبد الواحد دنون طه في (نشأة تدوين التاريخ العربي في الأندلس) ص ١٥. وأخيراً، فمن الملاحظ أن د. أحمد مختار العبادي تفرد بعمل تاريخ وفاة الخشني سنة (٣٦٠هـ/٩٧١م). (ينح: من التراث العربي الإنسان) في مجلة: (عالم الفكر) مجلد ٨، ١٤ - (أبريل - يونيو) ١٩٧٧م (ص ٤٤). ولعله خطأ مطبعي بحرف عن (٣٦١هـ).

(٥) قال ياقوت في (معجم الأديباء) ١١١/١٨: مات في حدود الثلاثين والثلاثمائة (وهو نقل غير دقيق عن الحميدى، كما سنرى). أما (الإكمال) ٢٦١/٣، والجذوة ٩٤/١، والأنساب ٣٧٢/٢، والبقية ص ٧١، فذكر مؤلفوها أنه كان حيًّا في حدود الثلاثين وثلاثمائة (أى: مات بعد ذلك في وقت غير محدد). وهذا المذكور هنا بشأن وفاته غير صحيح، فقد وردت نصوص في كتابه (أخبار الفقهاء والمحدثين) تفيد أنه لا يزال حيًّا سنة ٣٣٦هـ (ص ١٧٨)، ثم لا يزال حيًّا أيضاً سنة ٣٤١هـ (السابق: ترجمة ٩٧، ص ٨٥). ثم ترجم في عدة مواضع على الخليفة الناصر (ت ٣٥٠هـ) ص ١٨، ٢٦، ٧٠، وغيرها. وسيأتي ترجمه عن ابنه الخليفة المستنصر (ت ٣٦٦هـ).

(٦) سبق إلى إيراد ذلك التاريخ عياض - نقلاً عن ابن عفيف - في المدارك ٥٣٢/٢، ونقله عن (عياض) - في الغالب، ولم يصرح - ابن فريحون في (الديباج) ٢١٣/٢ (وقبل: توفى سنة ٣٦٤هـ). ويبدو أن (المدارك) هو مصدر د. حسين مؤنس في (مقدمة تحقيقه للرياض) ص ٣٥م.

التي ورد ذكره بها؛ إذ إنه نقل عنه مادة، ضَمَّنَهَا تراجم كتابه المذكور^(١)، وكأنه يترحم على ذلك الزمان الذي وَلَّى، ولن يعود. ولعله كان يرى - بحاسة المؤرخ - في أعمال المنصور إرهابات الردة الحضارية بعامة (والثقافية بخاصة)، عندما استبعد المنصور رجلاً من طراز الخشني، لا لشيء سوى أنه من رجالات العهد السابق.

دراسة كتاب: (أخبار الفقهاء والمحدثين)^(*) للمؤرخ الأندلسي الخشني

تشمل دراسة الكتاب المذكور النقاط الآتية:

أولاً - عنوان، ومحتوى الكتاب.

ثانياً - الموارد.

ثالثاً - بعض ملاحظات نقدية.

رابعاً، وأخيراً - المنهج المتبع في تأليف هذا الكتاب.

أولاً - العنوان، والمحتوى:

١ - لهذا الكتاب - كما سبق أن ذكرنا - عنوانان: (أخبار الفقهاء، والمحدثين)، و(تاريخ علماء الأندلس). ولكل منهما إيجابية، وسلبية؛ فالأول حدّد نوعى العلماء المذكورين في هذا الكتاب بدقة (الفقهاء، والمحدثين)، لكنه لم يحدد الإطار الزمني والمكاني لتراجم الكتاب، فلم يبين

(١) من المواضيع التي ترحم عليه فيها في (أخبار الفقهاء والمحدثين) ص ١٧٨ (هو وأبوه الناصر)، ص ٢١٥ (ولى عهد المسلمين رحمه الله)، وكذلك ص ٣٤١ (وكان هشام المؤدّب القرطبي يؤدّب أولاد أمير المؤمنين (رحمه الله)؛ ولى العهد (رحمه الله)، وسائر إخوانه)، ص ٣٦٣. وللأمانة أقول: هناك بعض مواضع نادرة لم يترحم عليه فيها (مثل: ص ٢٧، حيث قال عنه: (أعزه الله)؛ لأن الرواية المسوقة كان لا يزال الحكم في غيرها حيّاً، ولعل الخشني ذوّنها في حياته (في ترجمة ٣١، لأحمد بن دحيم بن خليل القرطبي ٢٧٨ - ٣٣٨هـ: سمع منه ولى العهد - أعزه الله - بعد أن عاد إلى الأندلس سنة ٣١٩هـ، بعد رحلته التي بدأت للحج سنة ٣١٥هـ، وفيها دخل بغداد سنة ٣١٦هـ - (في أواخرها). ويوجد موضع آخر ص ٣٧ (ذكر الحكم فيه موضع شك).

(٢) اعتمدت - في دراسة هذا الكتاب - على طبعة مدريد الصادرة سنة ١٩٩٢م، التي حققها: مازيا لوبسا أيللا، ولويس مولينا. وتجدر الإشارة إلى أن د. عبد الواحد ذنون ذكر في (هوامش ص ٧٦ من كتاب: نشأة تدوين التاريخ العربي في الأندلس) الصادر سنة ١٩٨٨م، أن زميله د. رضا هادي عباس شرع في تحقيق مخطوطة هذا الكتاب. ولم أقف على طبعة هذا التحقيق بعد.

الفترة الزمنية التي عاش فيها هؤلاء، ولا البلدان التي ينتمون إليها. وأما العنوان الثاني، فميزته تحديد القطر الذي ينتمي إليه هؤلاء المترجمون، لكن يعيبه أنه لم يحدد أى نوع من العلماء يقصد.

٢ - وعلى كل، فإننا إذا ارتضينا العنوان الأول - رغم تحفظنا عليه - فإننا نستطيع القول: إن مؤرخنا الخشني واطب على بيان نوعية العلم الذي يتسم به المترجمون، فالبعض يغلب عليه معرفة الفرائض^(١)، أو هو من أهل البصر بالحجة^(٢)، أو مائل إلى الرأي^(٣)، أو بصير بالفتيا^(٤)، أو له بصر بالمسائل وعلم الوثائق^(٥)، أو هو معدود في جماعة الفقهاء^(٦). وهناك آخرون على الجانب الآخر (الحديث) لهم رواية^(٧)، أو ضابطون لما سمعوا حافظون لما جمعوا^(٨)، أو هم أعلم بالحديث والرجال وأحفظ للسنة والآثار^(٩).

٣ - ولا يمنع ما تقدم أن يكون بعض المترجمين جامعاً بين (الفقه، وحفظ الحديث)^(١٠)، أو أن تكون له اهتمامات بعلوم أخرى أيضاً^(١١)، أو تكون له موهبة بارزة^(١٢).

وفي اعتقادي أن مؤرخنا الخشني كان موفقاً في تقديم (الفقهاء) على لفظة (المحدثين) في عنوان الكتاب، فالنظرة الفاحصة المتأملّة في تراجم الكتاب ككل تشير بوضوح إلى غلبة الاهتمام بالفقهاء، وكثرة تراجمهم بالنسبة إلى المحدثين^(١٣). ولعل غلبة الفقه على ثقافة الخشني لها دخل في ذلك.

- (١) أخبار الفقهاء والمحدثين (ترجمة أحمد بن إبراهيم الغرضي القرطبي، رقم ٢ ص ١١).
- (٢) المصدر السابق: (ترجمة إبراهيم بن حسين بن خالد بن مرتبيل، ترجمة ١ ص ٩).
- (٣) السابق: ترجمة (أحمد بن عبد الله بن خالد بن مرتبيل القرطبي، رقم ٤ ص ١١).
- (٤) السابق: ترجمة (أحمد بن مدرك القنري)، رقم ٨ ص ١٣، وترجمة (أحمد بن عتبة الحضرمي البخاني، رقم ١٠ ص ١٣).
- (٥) السابق (ترجمة أحمد بن محمد اليحصي القرطبي، رقم ٥ ص ١٢).
- (٦) السابق: ترجمة (أحمد بن بشر بن أغبس القرطبي، رقم ١٦ ص ٢٠).
- (٧) السابق: (ترجمة أحمد بن الوليد بن عبد الخالق الطليلي)، رقم ١١ ص ١١).
- (٨) السابق (ترجمة أحمد بن عبد الله بن خالد بن مرتبيل القرطبي (رقم ٤ ص ١١).
- (٩) السابق: (ترجمة أحمد بن عمرو بن منصور الإلبيري)، برقم ١٢ (ص ١٥ - ١٦).
- (١٠) السابق: ترجمة: حفص بن عمرو بن نجيح الإلبيري رقم ٨٠، ص ٧٧، وترجمة (حامد بن أخطل الإلبيري)، (رقم ٨٢، ص ٧٧).
- (١١) السابق: ترجمة (إبراهيم بن حسين بن خالد بن مرتبيل، رقم ١ ص ١٠: له تأليف في التفسير معروف به)، وترجمة (أحمد بن بشر بن أغبس، رقم ١٦ ص ٢٠: غلب عليه علم اللغة).
- (١٢) السابق: (ترجمة أحمد بن محمد بن عجلان المرقسقي، رقم ٧ ص ١٢: له شعر بارع)، وترجمة (أحمد بن عمرو ابن منصور الإلبيري، رقم ١٢ ص ١٥: من الخطباء الملقاء).
- (١٣) من الفقهاء المترجم لهم في (أخبار الفقهاء والمحدثين)، راجع تراجم أرقام: (٢٠، ٢٢، ٢٣، ٢٧، ٢٨، ٣٤، ٣٧، ٤٣، ٤٥، ٤٦، ٥٣، ٥٥، ٥٨، ٥٩، ٦١، ٦٢، ٦٦، ٧٦، ٧٨، ٧٩، ٨٦، ٨٨، ٩٠، وغيرها كثير جداً. ومن المحدثين: تراجم أرقام: (٢٥، ٣٢، ٣٥، ٤٤، ٦٤، ١٠٠، ٢٠٣، وغيرها).

٤ - بخصوص عدم التحديد المكاني في عنوان الكتاب، فقد عوّض مؤرخنا ذلك النقص بالنص - في غالبية التراجم - على البلدة التي ينتمي إليها المترجمون داخل الأندلس^(١). ويمكن أن نرتب أقاليم الأندلس المذكورة في تراجم الفقهاء والمحدثين - وهي ثمانية وعشرون - حسب عدد المنتمين إليها من علماء الأندلس على النحو الآتي:

- ١ - قرطبة: نُسب إليها (٢١٦ عالماً)^(٢).
- ٢ - طَلَيْطَلَة^(٣)، والبرية^(٤): نُسب إلى كل منهما (٤٣ عالماً).
- ٣ - سرقسطة^(٥): نُسب إليها (٣٤ عالماً).
- ٤ - وَشَقَّة^(٦): نُسب إليها (٢٢ عالماً).
- ٥ - رِيَّة^(٧): نُسب إليها (١٧ عالماً).
- ٦ - وادي الحجارة^(٨)، وجِيَان^(٩): نسب إلى كل منهما (١٦ عالماً).
- ٧ - إِسْتِجَة^(١٠)، وإشيلية^(١١)، وتُطَيْلَة^(١٢)، وتُدْمِير^(١٣): نُسب إلى كل واحد من هذه الأقاليم (١٤ عالماً).

(١) كان اسم بلدة الترجمة له يسقط أحياناً، كما في ترجمة رقم (١) ص ٩ - (إبراهيم بن حسين بن خالد بن مرتيل). وبالعود إلى (تاريخ ابن الفرضي، ط. الخانجي) ١٦/١، ذكر أنه قرطبي. وكذلك حدث في ترجمة (شيبان بن سليمان الزاهد) في (أخبار الفقهاء والمحدثين) ص ٤٦٧. وبالعود إلى (تاريخ ابن الفرضي، ط. الخانجي) ٢٣٣/١، قال: من أهل قرطبة. وكذلك (عفوف بن حفاظ) في (أخبار الفقهاء والمحدثين) رقم ٢٦٠، لم يذكر بلده. وجعله ابن الفرضي في (تاريخه) ١٢١/٢ في أهل (قرطبة). وكذلك (قاسم بن أصبغ البياض) في (أخبار الفقهاء والمحدثين) رقم ٤١٧ (في ترجمته) سَقَطَ ربما سَقَطَ خلاله اسم بلده. وهو من قرطبة، كما جاء في (تاريخ ابن الفرضي ٤٠٦/١). ويلاحظ أن هناك شخصين آخرين، لم يذكر الحشني بلديهما عند الترجمة هما (قاسم بن عساكر، رقم ٤٢١ في "أخبار الفقهاء والمحدثين"، ويحتمل أن يكون هو المذكور في (تاريخ ابن الفرضي، ط. الخانجي) ٤٠٥/١ (هو قرطبي). وأما الشخصية الأخرى، فهي شخصية (عبد المؤمن بن ذي النون)، رقم (٣٤٩)، ولم أقف على بلده في المصادر المتاحة لي.

(٢) أخبار الفقهاء والمحدثين: من ذلك تراجم أرقام: (١٧ - ١٨، ٢٠ - ٢٢، ٢٥، ٢٧، ٣١ - ٣٤، ٣٨، وغيرها كثير.

(٣) المصدر السابق: تراجم أرقام: (٣، ٦، ٦٦، ٨٥، ١٠٣، وغيرها).

(٤) السابق: تراجم أرقام: (١٢، ٢٩، ٣٦ - ٣٧، ٤٠، وغيرها).

(٥) السابق: تراجم أرقام: (٧، ٥٠ - ٥٩، ٦٠، ٦٣، ٧٤ - ٧٥، وغيرها).

(٦) السابق: تراجم أرقام (١٩، ٩٢، ٩٨، ١١٠، ١٩٦، وغيرها).

(٧) أخبار الفقهاء والمحدثين: تراجم أرقام (٢٤، ٥٥، ١٤٢، ١٦١، ١٦٦، ١٨٠، ٢٠٨، وغيرها).

(٨) السابق: أرقام (٢٦، ٣٥، ٧٨، ٩٩، ١٢٥، وغيرها).

(٩) السابق: أرقام (٦٧، ٩٠، ١١٩، ١٤١، ١٧٦، ٢٤٩، وغيرها).

(١٠) السابق: أرقام (٢٣، ٤٦، ٥٧، ٧٦، ١٢٢، ٢٣٦، وغيرها).

(١١) السابق: أرقام (٥٤، ٦٩، ١٠١، ١٤٩، ١٦٧، ٢٩٣، وغيرها).

(١٢) السابق: أرقام (٦١، ٨٩، ١٤٧، ١٨٩، ٢٠٦، ٢١٨، وغيرها).

(١٣) السابق: أرقام (٩٥، ١٢٠، ١٣٤، ٢١١، ٢٣٢، ٢٣٧، وغيرها).

- ٨ - الجزيرة^(١)، وبجانة^(٢): نُسب إلى كل منهما (١٢ عالماً).
- ٩ - قبرة^(٣): نُسب إليها (٧ علماء).
- ١٠ - شذونة^(٤)، وبطليوس^(٥): نسب إلى كل منهما (٦ علماء).
- ١١ - فريش^(٦): نُسب إليها (أربعة علماء).
- ١٢ - ماردة^(٧)، وقرمونة^(٨): نسب إلى كل منهما (ثلاثة علماء).
- ١٣ - طرطوشة^(٩)، وباجة^(١٠): نسب إلى كل منهما (علمان اثنان).
- ١٤ - لورقة^(١١)، وأشونة^(١٢)، ومالقة^(١٣)، ولاردة^(١٤)، ولشبونة^(١٥)، والصغر^(١٦): نُسب إلى كل منها (عالم واحد).

ويلاحظ على التوزيع السكاني للمترجمين، الذى ذكرناه آنفاً ما يلي:

١ - مدى الجهد الكبير الذى بذله الخشنى فى جمع المادة العلمية لهذا الكتاب لهذا الكم الهائل من الفقهاء والمحدثين، والذى نعتقد أنه عاصر عدداً لا بأس به منهم، وأنه كان يتنقل بين كور الأندلس المختلفة؛ للسؤال والتحرى عند جمع معلوماته عنهم. ولذا، فالمرجح أن هذا

- (١) أعيان الفقهاء والمحدثين: تراجم أرقام: (٢٨٩، ٢٢١، ١٨٦، ٥٦ - ٣٣٩، ٢٩٠، وغيرها).
- (٢) السابق: أرقام (٩ - ١٠، ٢٨، ٣٠، ١٨٢، ٢١٢، ٣٤٧، وغيرها).
- (٣) السابق: أرقام (٨، ٦٢، ١١٢، ١١٧، ٢٤٥، ٣٨١، ٤٦٦).
- (٤) السابق: أرقام (٤٥، ٩٤، ١٣٥، ١٦٤، ٣٩٧، ٤٢٦).
- (٥) السابق: أرقام (٦٨، ٨٦، ٢٤٧، ٣٨٦، ٤٥١، ٤٦٥).
- (٦) السابق: أرقام (٢٦٧، ٤٥٢، ٤٥٣ - ٤٧٢). ذكرها باقوت بكسر أولها وثانيها (وشدّد المحقق الرء). وهى مدينة بالأندلس غربي فحص البلوط، بها الرخام الأبيض الجيد، والبنق الكثير، والشجر، ومعادن الحديد (معجم البلدان ٤/٢٩٥).
- (٧) أخبار الفقهاء والمحدثين: أرقام (٢٤٢، ٣٢٩، ٣٣٥).
- (٨) السابق: أرقام (٧٩، ١٦٣، ٢٤٦).
- (٩) السابق: رقم (١٤، ٣٢٣).
- (١٠) سكنها وتردد بينها وبين فحص البلوط المترجم له فى (السابق)، برقم ١١٤ (ص ١٠١)، وسكن باجة فقط المترجم له فى (السابق)، برقم ٢٥١.
- (١١) السابق: رقم (٧٧).
- (١٢) السابق: رقم (٨٣). وهى حصن بالأندلس، من نواحي (إستجة). (معجم البلدان ١/٢٣٩).
- (١٣) أخبار الفقهاء والمحدثين: رقم (٣٣٢).
- (١٤) السابق: رقم (١٦٩).
- (١٥) أخبار الفقهاء والمحدثين: رقم ٣١٨ (وكان يترد بقرطبة). و(لشبونة) مضبوطة بالحروف، ويقال، أشبونة، مدينة بالأندلس، تتصل أعمالها بأعمال شترين، وهى قديمة قريبة من البحر (غربي قرطبة)، ولعسلها فضل على كل عسل (معجم البلدان) ١٩/٥.
- (١٦) أخبار الفقهاء والمحدثين: (رقم ٢٥٩). ولم يحدد أى نغر من نغورها.

الكتاب استغرق إعداده وقتاً طويلاً، ووضعت لمساته الأخيرة بعد المستنصر، وهو من أواخر ما دَبَّجَتْه قريجة مؤرخنا الحشني.

٢ - أن قرطبة (حاضرة الأندلس) نالت قسطاً وافراً، ونصيباً أكبر من اهتمام الحشني، فهي العاصمة، وهي ملتقى طلاب العلم من كل مكان، وبها فطاحل العلماء، الذين حرصت الخلافة على الانتفاع بعلمهم.

٣ - غالبية من ترجم لهم الحشني أندلسيون مولداً، ونشأة، وثقافة. ويوضع في الاعتبار أن هناك قوماً أتوا من أقاليم أخرى، لكنه ترجم لهم، وعُدَّهم أندلسيين بحكم الإقامة والاستقرار بالأندلس^(١).

المختوى:

ترجم الحشني في هذا الكتاب لعدد من الفقهاء والمحدثين، بلغت أعداد تراجمهم (٥٢٧ ترجمة)، وهم موزعون على (٢٨ مدينة أندلسية). وبالنظرة الشاملة إلى النطاق الزمني للمترجمين، ألفينا الرجل يركز اهتمامه على فقهاء ومحدثي القرنين الثالث^(٢)، والرابع الهجريين^(٣)، بينما لا يلتفت كثيراً إلى فقهاء ومحدثي القرن الثاني الهجري. ولعل رغبته في التمييز بين المحدثين والفقهاء هي التي أُلْجَأَتْه إلى ذلك، حيث تطور العلوم وازدهارها بالأندلس، ثم إن استقلالها عن المشرق شيئاً فشيئاً، يرتبط بهذين القرنين (خاصة الرابع منهما). وعلى كل، فأقدم علماء هذا الكتاب وفاة تعود سنة وفاته إلى عام (١٨٠هـ)^(٤)، وبعده آخر توفي سنة (١٩٣هـ) أو (١٩٤هـ)^(٥).

(١) مثل: (أسيد بن عبد الرحمن السبائي). شامي، نزل إحدى قرى البيرة. (المصدر السابق)، ترجمة رقم (٥٣)، ص (٤٧).
(٢) أخبار الفقهاء والمحدثين: مثل تراجم: (أحمد بن إبراهيم الفرضي)، رقم (٢) ص ١١ (ت ٢٩٠هـ)، و(أحمد بن سليم القروي)، رقم ٩ ص ١٣ (ت ٢٩٠هـ)، و(أحمد بن يونس بن عباس)، رقم ١٩ ص ٢٢ (ت ٢٩٨هـ)، و(أسامة بن صخر)، رقم ٥٠ ص ٤٢ (ت ٢٧٦هـ)، و(حفص بن عمر)، رقم ٧٨ ص ٧٦ (ت ٢٨٨هـ)، و(خطاب بن إسماعيل الغافقي)، رقم ٩٨ ص ٨٦ (ت ٢٩٧هـ)، و(زياد بن محمد بن زياد)، رقم ١٠٥ ص ٩٨ (ت ٢٧٣هـ)، و(زكريا بن يحيى النفقي)، رقم ١٠٦ ص ٩٨ (ت ٢٧٦هـ)، و(زكريا بن إسماعيل بن عبد الرحيم)، رقم ١٠٨ ص ٩٩ (ت ٢٨٨هـ)، و(زكريا بن عيسى بن عبد الواحد)، رقم ١٠٩ ص ٩٩ (ت ٢٩٤هـ)، و(طوق بن عمرو بن شعيب)، رقم ١١٩ ص ١٠٤ (ت ٢٨٥هـ)، ومحمد بن يوسف ابن مطروح) رقم ١٣١ ص ١١٩ (ت ٢٧١هـ).

(٣) السابق: مثل: (أحمد بن زياد بن محمد بن زياد) رقم ٢٥ ص ٢٤ (ت ٣٢٦هـ)، و(أحمد بن دحيم بن خليل) رقم ٣١ ص ٢٧ (ت ٣٣٨هـ)، و(أحمد بن محمد بن عمر بن لبابة) رقم ٣٤ ص ٣١ (ت ٣٢٦هـ)، و(أحمد بن سعيد بن مسعدة)، رقم ٣٥ ص (٣١)، و(أحمد بن موسى بن الطفيل)، رقم (٣٧)، ص ٣١ (ت ٣٢٩هـ)، و(حسن بن سلمون) رقم ٧١ ص (٧٣)، المتوفى سنة ٣٣٥هـ، و(حسان بن عبد الله بن حسان)، رقم ٧٦ ص (٧٥)، المتوفى ٣٣٤هـ، و(خلف بن هاشم الأشعري)، رقم (٩٥)، ص ٨٤ (ت ٣٣٤هـ)، ومحمد بن عيسى بن رفاعة، رقم (٢٠٨)، ص ١٧٨ (ت ٣٣٧هـ).

(٤) أخبار الفقهاء والمحدثين: ترجمة ٧٣ ص ٧٤ (حسين بن عاصم - عاش ٧٠ سنة).

(٥) السابق: (زياد بن عبد الرحمن اللخمي)، رقم (١٠٤)، ص ٩٨.

وبالنسبة للمترجمين المنتسبين إلى القرن الثالث الهجري، فإن أقدمهم توفي سنة ٢٢٤هـ^(١)، وأواخرهم وفاة توفوا سنة ٢٩٩هـ^(٢)، ٣٠٠هـ^(٣)، ٣٠٢هـ^(٤)، وغير ذلك من السنوات الأولى من القرن الرابع الهجري^(٥). وأخيراً، فإن أحدث مترجمي القرن الرابع الهجري وفاة هو (عيسى بن خلف الإشبيلي) المتوفى سنة ٣٤٣هـ^(٦).

ثانياً - الموارد:

تنقسم موارد كتاب مؤرخنا الخشني إلى الأقسام الآتية:

١ - موارد صريحة:

ويبلغ عددها (٥٠) مورداً، هي كما يلي:

أ - خالد بن سعد^(٧): روى عنه الخشني في كتابه هذا (٢٤٥ رواية)^(٨).

ب - أحمد بن خالد^(٩): بلغت مروياته التي نقلها عنه الخشني (٤٠ رواية)^(١٠).

(١) السابق: (محمد بن خالد بن مرتيل)، رقم (١٢٦)، ص ١١٢.

(٢) السابق (أصغر بن مالك)، رقم ٤٤، ص ٣٩.

(٣) السابق (الحضر بن شامخ)، رقم (٩٧)، ص ٨٥.

(٤) السابق (زكرياء بن هلال النجبي)، رقم ١١٣، (ص ١٠٠)، وترجمة (أبوب بن سليمان المعافري)، رقم (٣٨)، ص (٣٣).

(٥) السابق: مثل ترجمة: (أحمد بن عبد الله بن فرج النميري)، رقم (٢٠)، ص ٢٢ (ت ٣٠٣هـ)، وترجمة (حزم الأحمر)، رقم ٨٦، ص ٧٩ (ت ٣٠٥هـ)، وترجمة (أحمد بن محمد، المعروف بابن البعري)، رقم ١٨، ص ٢١ (ت ٣١٢هـ، عن ٧٥ سنة).

(٦) السابق: (عيسى بن خلف)، رقم (٣٥٨)، ص (٢٧٤).

(٧) من أهل قرطبة. يكنى أبا القاسم. كان إماماً في الحديث، حافظاً له، بصيراً بعلمه، عالماً بطرقه، مُقَدِّماً على أهل وقته في ذلك. روى عن سعيد بن عثمان الأعناق، وظاهر بن عبد العزيز، ومحمد بن عمر بن لبابة، وغيرهم. له كتاب في (رجال الأندلس) ألّفه للمستنصر. توفي سنة ٣٥٢هـ (تاريخ ابن الفرضي، ط. الخانجي) ١٥٤/١ - ١٥٦. ولعل الكتاب المشار إليه هو الذي نقل عنه الخشني كثيراً من تراجمه.

(٨) من هذه الروايات الكثيرة ما يلي: ما ورد في تراجم أرقام: (١ - ٢، ٦، ٨، ٢١، ٢٦، ٤٣ - ٤٥، ٧٥ - ٧٦، ٧٨ - ٧٩، ٩٨ - ٩٩، ١٠٤ - ١٠٥، ١٢١، ١٢٦، ١٣٣، ١٣٥، ١٥٦، ١٥٨، ١٦٠، ١٦٢ - ١٦٤، ١٦٨، ٢٠٧، ٢١٤، ٢٢١ - ٢٢٢، ٢٣١، ٢٣٧، ٢٧٢، ٢٧٤، ٣١٨، ٣٢٠ - ٣٢٢، ٣٢٤، ٣٢٧ - ٣٢٨، ٤٠٠ - ٤٠١، ٤٠٨، ٤١١ - ٤١٢، ٤٣٨، ٤٤١، ٤٥٣ - ٤٥٤، ٤٥٥، ٤٥٨، ٤٦٣، ٤٨٧، ٤٩٢ - ٤٩٣، ٤٩٦ - ٤٩٩، ٥٠١ - ٥٠٤، ٥٠٥، ٥٠٩ - ٥١٢، ٥١٨، ٥٢٥).

(٩) هو أحمد بن خالد بن يزيد، يعرف بـ (ابن الحباب). من أهل قرطبة. يكنى أبا عمر. سمع محمد بن وضاح، وقاسم بن محمد، والخشني، وغيرهم. رحل، وسمع الحديث، ثم عاد إلى الأندلس، فكان إمام وقته غير مدافع في الفقه، والحديث، والعبادة. ولد سنة ٢٤٦هـ، وتوفي سنة ٣٢٢هـ. (أخبار الفقهاء والمحدثين ص ١٧ - ١٨، وتاريخ ابن الفرضي، ط. الخانجي) ٤٢/١.

(١٠) من هذه الروايات ما ورد في تراجم أرقام: (٢، ١٥، ٤١، ٢٥٨، ٣١٠، ٣٥٢، ٤١١، ٤٣٨، ٤٩٢ - ٤٩٣).

- ج - أحمد بن سعيد بن حزم^(١): وعنه نقل الخشني (٣٦ رواية)^(٢).
- د - محمد بن عبد الملك بن أيمن^(٣): أورد عنه الخشني (٢٢ رواية)^(٤).
- هـ - محمد بن عمر بن لبابة^(٥): روى عنه الخشني (١٩ رواية)^(٦).
- و - قاسم بن سقذان^(٧): أورد له مؤرخنا الخشني (١٧ رواية)^(٨).
- ز - عثمان بن محمد^(٩): ذكر عنه الخشني في كتابه (١٦ رواية)^(١٠).

- (١) هو أحمد بن سعيد بن حزم بن يونس الصلبي. من أهل قرطبة. يكنى أبا عمر. عُني بالآثار والسنن، وجمع الحديث. سمع عبيد الله بن يحيى، وسعيد بن عثمان الأعناقى، وأسلم بن عبد العزيز، وغيرهم. رحل سنة ٣١١هـ مع أحمد بن عبادة الرعيني، وعحمد بن عبد الله بن أبي عيسى، فسمع بمكة، ومصر، والقيروان، وعاد إلى الأندلس، فصنف (تاريخاً في المحدثين)، بلغ فيه الغاية. وتوفى سنة ٣٥٠هـ. (تاريخ ابن الفرضي، ط. الخانجي) ٥٥/١ - ٥٦. ولعل تأليفه المشار إليه هو الذى احتفظ لنا بالعديد من تراجمه الخشني في كتابه، من خلال مقتبساته منه.
- (٢) منها ما ورد في تراجم أرقام: (١١، ١٣٧، ١٥٤، ٢٣٨، ٢٤١، ٢٤٤، ٢٧٤، ٢٨٠، ٢٩٦، ٣١٥ - ٣١٦، ٣٢٤، ٤٣٨، ٤٩٢، ٥٠٠).
- (٣) يكنى أبا عبد الله. من أهل قرطبة. سمع محمد بن وضاح، ومحمد بن عبد السلام الخشني، وإبراهيم بن قاسم بن هلال، وغيرهم. رحل سنة ٢٧٤هـ مع قاسم بن أصبغ، وغيره. سمع بمصر، وبغداد، ومكة. فقيه عالم، حافظ للمسائل والأفضية. وكان مشاوراً في الأحكام، وولى الصلاة بعد (أحمد بن يحيى بن غلدة). ضابط لكعبة ثقة. له مصنف في السنن على تصنيف (أبي داود). (ولد ٢٥٢هـ، وتوفى ٣٣٠هـ). (أخبار الفقهاء والمحدثين ص ١٥٧ - ١٥٩، وتاريخ ابن الفرضي (ط. الخانجي)، ٥٢/٢ - ٥٣).
- (٤) راجع بعضها في أخبار الفقهاء والمحدثين صفحات: (١٢، ٥٦، ٧٤، ١١٧ - ١١٨، ١٨٦، ٢٦٢، ٣٤٩).
- (٥) فقيه من أهل قرطبة. يكنى أبا عبد الله. روى عن عبد الله بن خالد، وعبد الأعلى بن وهب، وأبان بن عيسى بن دينار، ومحمد بن وضاح، وغيرهم. مقدم على أهل زمانه في حفظ الرأى، والبصر بالفتيا. وكان مشاوراً في أيام الأمير عبد الله، ثم انفرد بالفتيا من أول أيام الناصر، ولم يكن له علم بالحديث. وكان يحفظ أخبار الأندلس. وتوفى سنة ٣١٤هـ. (المصدر السابق: ص ١٤٤ - ١٤٥، وتاريخ ابن الفرضي (ط. الخانجي) ٣٦/٢ - ٣٧).
- (٦) منها: عدة روايات في ترجمة رقم (١) ص ٩ - ١٠، وتراجم أرقام: (٤٨، ٩٣، ١٣٣، ١٥٤، ٢٤١، ٢٩١، ٤٧٦).
- (٧) هو قاسم بن سعدان بن عبد الوارث. من أهل (رَبَّة)، وسكن قرطبة. سمع عبيد الله بن يحيى، وطاهر بن عبد العزيز، ومحمد بن عمر بن لبابة، وأحمد بن خالد، وابن أيمن، وغيرهم. ضابط لكعبة، متقن لروايته، حسن الخط، جيد الضبط. كان عالماً بالحديث، بصيراً بالنحو، والغريب والشعر. توفى سنة ٣٤٧هـ. (تاريخ ابن الفرضي ٤٠٨/١ - ٤٠٩). واعتقد أن له مؤلفات في تراجم العلماء ببلده (رَبَّة)، وهو الذى اعتمد عليه الخشني في النقل عنه في كتابه.
- (٨) راجع مروياته في (أخبار الفقهاء والمحدثين)، تراجم أرقام (١٢٩، ١٤٢، ١٦١، ١٦٦ (٤ روايات)، ١٨٠، ٢٥٠، ٣٤٠، ٣٤٣، ٣٦٨، ٤١٣، ٤٢٤، ٤٥٧، ٤٦٠، ٥٢١).
- (٩) هو عثمان بن محمد بن أحمد بن مدرك القُرَينى (من أهل قُيرة). وكان معنياً بالمسائل، حافظاً لها، عاقداً للشروط، وكان مفتي أهل بلده. توفى سنة ٣٢٠هـ. (السابق: ترجمة ٣٨١، ص ٢٨٤، تاريخ ابن الفرضي (ط. الخانجي) ٣٤٧/١ (رقم ٨٩٣)).
- (١٠) أخبار الفقهاء والمحدثين: تراجم (٥٨، ٦٥، ١٢٦، ١٣٧ - ١٣٨، ١٤٩، ١٥١، ١٧٠، ١٨٤، ٢٣١، ٢٧٩، ٣٧٨، ٤٣١، ٥١٧).

- ح - أحمد بن عبادة الرعي^(١): روى عنه مؤرخنا الخشني (١٤ رواية)^(٢).
- ط - ولي عهد المسلمين (الحكم بن عبد الرحمن الناصر): تتلمذ عليه الخشني، وأورد عنه في كتابه (٩ روايات)^(٣).
- ي - محمد بن عمر بن عبد العزيز^(٤)، ويعلى بن سعيد^(٥): أورد عنهما الخشني (٨ روايات).
- ك - قاسم بن أصبغ^(٦): روى عنه الخشني في كتابه (٦ روايات)^(٧).
- ل - أحمد بن مطرف المشاط^(٨)، وأحمد بن زياد^(٩)، والزيادي^(١٠): روى الخشني عن كل (٤ روايات).
- م - والد الخشني^(١١)، والحسن بن سعد^(١٢)، وأحمد بن نصر^(١٣): روى الخشني عن كل منهم (ثلاث روايات).

- (١) هو أحمد بن عبادة، عَلَمُكَدَةُ الرُّعَيْنِ. من أهل قرطبة. يكنى أبا عمر. سمع من الخشني، وابن وضاح. ورحل، فسمع من ابن المنذر كتابه في (الاختلاف). توفى في رجب سنة ٣٣٢هـ. (السابق: ص ٢٥٥، وتاريخ ابن الفرضي (ط. الخانجي ٤٥٠/١).
- (٢) أخبار الفقهاء والمحدثين: ص ١٧، ٢٥، ٣٢، ١٣٤، ١٤٢، ٢١٧، ٣٢١ - ٣٢٢، ٣٧١ - ٣٧٢.
- (٣) السابق: ص ٢٠، ٥٥ - ٥٦، ٨٨، ٢١٥، ٣٦٣.
- (٤) من أهل قرطبة، وأصله من (إشبيلية). يكنى أبا بكر. سمع بقرطبة من طاهر بن عبد العزيز، ومحمد بن عمر بن ليابة، وقاسم بن أصبغ، وغيرهم. عالم بالبحر، حافظ للغة، ولأخبار الأندلس. وله مؤلفات في الصرف. توفى سنة ٣٦٧هـ. (تاريخ ابن الفرضي ٧٨/٢ - ٧٩).
- (٥) أخبار الفقهاء والمحدثين: تراجم أرقام (٥٥، ٢٤٤، ٢٧٧، ٣٣٢ - ٣٣٣، ٣٤٧، ٣٤٩).
- (٦) قاسم بن أصبغ بن يوسف البتيان. من أهل قرطبة. سمع ما من بقي بن مخلد، وأبي عبد الله الخشني، ومحمد بن وضاح، وأصبغ بن خليل، وغيرهم. رحل إلى المشرق، فسمع بمكة، والكوفة، وبغداد، ومصر. كان بصيرا بالحديث، والرجال، وكان يشاور في الأحكام. ولد سنة ٢٤٦هـ، وتوفى سنة ٣٤٠هـ. (تاريخ ابن الفرضي ٤٠٦/١ - ٤٠٨ (رقم ١٠٧٠).
- (٧) أخبار الفقهاء والمحدثين: ص ١٣١ (ثلاث روايات)، ١٣٢، ٢١٧ - ٢١٨، ٣٣٦.
- (٨) السابق: ص ١١، ٣٨، ٢٣٠، ٢٣٢.
- (٩) هو أحمد بن زياد بن محمد بن زياد بن عبد الرحمن اللخمي. من أهل قرطبة. يكنى أبا القاسم. سمع من ابن وضاح، وكان مختصا به. حدث كثيرا. زاهد فاضل. توفى سنة ٣٢٦هـ. (تاريخ ابن الفرضي ٤٣/١ - ٤٤ (رقم ١٠١). وردت مروياته في (أخبار الفقهاء والمحدثين) ص ٩٥ - ٩٦، ٣٦٢.
- (١٠) لم أقف على اسمه ونسبه. (مرويات الخشني عنه في المصدر السابق) رقم ٩٩، ١٥٨، ١٨٣.
- (١١) أخبار الفقهاء والمحدثين: ص ٣٧٨ (ما ثلاث روايات عنه).
- (١٢) السابق: ص ٥٨ - ٥٩، ٧٢، ٢٦١.
- (١٣) هو أحمد بن نصر بن زياد. من فقهاء القيروان. سمع محمد بن سحنون، وابن عبدوس، وكان عالما بالمنظرة، صحيح المذهب، سليم القلب. توفى سنة ٣١٧هـ. (البيان المغرب ١٩٤/١ - ١٩٥). وردت مروياته في كتاب الخشني (أخبار الفقهاء والمحدثين)، تراجم (٣٢، ١٦٥، ٤٩٩).

ن - محمد بن عيسى بن عاصم^(١)، ومحمد بن قاسم^(٢)، وشامخ بن الخضر^(٣)، وعبد الوهاب بن حزم^(٤)، وأبو عبيدة مسلم بن أحمد^(٥)، وأصبغ بن مثنى^(٦)، ووهب بن مسرة^(٧)، وأحمد بن عبد الرحمن القصري^(٨)، وفرج بن سلمة^(٩). (لكل روايتان).

س - فضل بن سلمة^(١٠)، وسلمة بن الفضل بن سلمة الجهني^(١١)، وسعيد بن عثمان^(١٢)، وسعيد بن يحيى^(١٣)، ومحمد بن إبراهيم بن الحباب^(١٤)، ومطرف بن عيسى^(١٥)، ومحمد ابن عبد العزيز^(١٦)، وعمر بن حفص^(١٧)، وأحمد بن محمد بن عمر بن لبابة^(١٨)، ومحمد بن إبراهيم بن حيون^(١٩)، ومحمد بن حفص^(٢٠)، ووليد بن إبراهيم بن ليب^(٢١)، وسعيد بن عثمان الأعنقي^(٢٢)، وسعيد بن فحلون^(٢٣)، وهرقل بن عبد الرحمن^(٢٤)، وزرقون بن حزم^(٢٥)، وموسى بن هارون^(٢٦)، وعبد الله بن محمد بن قاسم^(٢٧)، ومحمد بن ربيع الصباغ^(٢٨)، ومحمد ابن عيسى بن رفاعة^(٢٩)، وإسحاق بن إبراهيم الطليطلي^(٣٠)، وعلى بن أبي شيبه^(٣١)، وعبد الله بن إسماعيل البرقي^(٣٢). (لكل رواية واحدة).

٢ - كتب طالها الخشنى، ونقل عنها في كتابه:

١ - كتاب (طبقات فقهاء الأندلس) لعبد الملك بن حبيب: وقد أشار المؤرخ الخشنى إلى نقله عنه في (ثمانية مواضع)^(٣٣).

- | | |
|---|---|
| (١٧) السابق: ٢٧٦ - ٢٧٧. | (١) المصدر السابق (ترجمة ٧٣٠، ص ٧٣). |
| (١٨) السابق: (ترجمة ٤٣١). | (٢) السابق: ص ٦١، ١٨٧. |
| (١٩) السابق: ص ٣٢٣. | (٣) السابق: ص ٨٥ (ترجمة رقم ٩٧). |
| (٢٠) السابق: ص ٣٥٩. | (٤) السابق: ص ٣٤٠ - ٣٤١. |
| (٢١) السابق: ص ٣٦٧. | (٥) السابق: ١٩٤ - ١٩٥. |
| (٢٢) السابق: (ترجمة رقم ٣٢٠). | (٦) السابق: ١٩٦ - ١٩٧. |
| (٢٣) السابق: رقم ٢٦٩. | (٧) السابق: ص ٢٠٤، ٣٤٣. |
| (٢٤) السابق: رقم ٣٢٨. | (٨) السابق: ص ٩٧، ٣٦٦. |
| (٢٥) السابق: رقم ٢٧٦. | (٩) السابق: ترجمة ١١٤، ٣٣٦. |
| (٢٦) السابق: الترجمة نفسها. | (١٠) السابق رقم ٣٩٥ (ص ٢٩٣). |
| (٢٧) السابق: رقم ٢٧٨. | (١١) السابق: ص ٢٩٧. |
| (٢٨) أخبار الفقهاء والمحدثين: رقم (٣٠٥). | (١٢) أخبار الفقهاء والمحدثين: ترجمة رقم (٧٨). |
| (٢٩) السابق: ص ١٨٦ - ١٨٧. | (١٣) السابق: ص ٧٨. |
| (٣٠) السابق: ترجمة رقم ٨٥. | (١٤) السابق: ص ٦١. |
| (٣١) السابق: ص ١٤١. | (١٥) السابق: ترجمة رقم (٣٣٤). |
| (٣٢) السابق: ترجمة رقم ١٨٢، ص ١٦٢. | (١٦) السابق: ٢٧٦. |
| (٣٣) السابق: (ترجمة ٧٣، ص ٧٤)، و(ترجمة ٨٧)، ص ٨٠، و(ترجمة ١٢٨)، (ص ١١٣)، و(ترجمة ٣١٣، ص ٢٣٣) - (٢٣٤)، و(ترجمة ٣٧٠، ص ٢٧٩)، و(ترجمة ٣٩٣، ص ٢٩١)، و(ترجمة ٤٢٣، ص ٣١١)، و(ترجمة ٤٩٢، ص ٣٤٧). | |

٢ - كتاب (محمد بن عبد الملك بن أيمن)^(١).

٣ - كتاب (علكدة بن نوح الرعيي)^(٢).

٤ - كتاب (أخبار علماء حفص)^(٣).

٣ - الوثائق:

ومتابعة ما ورد في (أخبار الفقهاء والمحدثين) تبين لنا أن الحشني لم يطالع بنفسه في (الديوان) - فيما نعلم - إلا وثيقتين اثنتين: الأولى - شهادة المترجم له (سعيد بن عبد الله السبائي) على بعض ما عقده الأمير (عبد الرحمن بن معاوية)^(٤). والثانية - كتاب الحكم بن هشام (١٨٠ - ٢٠٦هـ). بمنح الأمان للفقهاء (عيسى بن دينار)، وذلك بعد أحداث ثورة الرِّبض الشهيرة (سنة ٢٠٢هـ)^(٥).

والملاحظ أن هناك عدة وثائق آخر واردة في كتاب (الحشني)، لكنه لم يطالعه بنفسه مباشرة، وإنما طالعها الرواة، الذين نقل عنهم مباشرة، كما هو الحال في كتاب كتبه (عبد الرحمن بن معاوية) نجد المترجم له، الذي نقل عنه الحشني ذلك^(٦). وكذلك ما طالع بعض الرواة، وحدث به الحشني، من أنه شاهد في الديوان نص أمان الحكم بن هشام للفقهاء (يحيى بن يحيى)، حيث أحياه إلى ما طلب من أمان نفسه، وردّ ما له إليه، وقبل شفاعته في اثنين آخرين معه (وذلك بعد ثورة الربض)^(٧).

وأخيراً، فإن الكتاب قد حوى نوعية أخرى من الوثائق، لم ينقلها الحشني عن الرواة الذين رأوها، وإنما وردت إليه من خلال رواة آخرين وسطاء، مثل: نص كتاب موجز وضعه الفقهاء (عبد الرحمن بن موسى الهواري الإستجعي)، وأرسل به إلى بعض الولاة، يوصيه فيه خيراً بأحد الناس، ويدعوه إلى قضاء حاجته التي كتمها من دونه، فإن كانت في مرضاة الله قضاءه

(١) السابق: ص٣٤٩ (قال محمد: قرأت تلك المواضع كلها في كتاب (محمد بن عبد الملك بن أيمن).

(٢) قال محمد بن حارث: رأيت في كتاب لعلكدة بن نوح الرعيي (السابق: ص٣٦٣).

(٣) رأيت في كتاب (أخبار علماء حفص). (السابق: ص١٨٧).

(٤) أخبار الفقهاء والمحدثين: ص٣١٦.

(٥) السابق: ص٢٧١.

(٦) السابق: ص٧٣ (وقال لي - أي قال محمد بن عيسى بن عاصم - : بأيدينا كتاب، كتبه الإمام عبد الرحمن بن معاوية (رحمه الله)، بأمر فيه بعض عماله ألا يعرض لمولاد - لا لمواليه، كما حرفت - عاصم العرياني في سبب ذكره).

(٧) السابق: ص٣٦١.

إياها، وإلا فليؤثر رضا الله (تعالى) على رضا المخلوق. وفي النهاية، يذكّره بأنهم جميعاً موقوفون غداً بين يدي الله عز وجل^(١).

٤ - الموارد المجهولة:

وهذه استخدمها الخشنى في روايات كثيرة جداً يصعب حصرها، وجعل لها صيغاً متعددة، مثل: (ذكر بعض الرواة^(٢))، وذكر بعض أهل العلم^(٣))، وقال لى بعض أهل العلم^(٤))، وأخبرنى غيره^(٥))، وأخبرنى غير واحد من أصحاب أحمد بن خالد^(٦))، وذكر بعض الرواة من أهل الثغر^(٧))، وذكر غيره من أهل العلم^(٨))، ويحكى^(٩))، وذكر لى^(١٠))، وفيما أخبرنى مَنْ أتق به^(١١))، وأخبرنى من أتق به من أهل العلم^(١٢))، وذكر بعض أهل العلم والرواية^(١٣))، وسمعت من أتق به يقول^(١٤))، وفيما ذكر لى بعض أهله^(١٥))، وقيل^(١٦))، وأخبرنى غير^(١٧))، ومما حفظتُ وحفظ الناس مما تُسبب إلى ابن وصّاح^(١٨))، وسمعتُ على الاستفاضة من القول والفاشى من الذّكر^(١٩))، وسمعتُ من يحكى^(٢٠))، وقال لى غير واحد من إخوانى^(٢١))، وأخبرنى غيرهما من مشائخنا^(٢٢))، وسمعتُ من كتبُ عنه^(٢٣)) .

ملاحظات على موارد (الخشنى) في كتابه:

أولاً - بالنسبة للموارد الصريحة: يمكن بيان منهج الخشنى في إيرادها، واستخدامها على النحو الآتى:

١ - الدقة في انتقاء هذه الموارد:

لقد كان الخشنى حريصاً على التدقيق قبل النقل والاقتراس، وتلك سمة مهمة للغاية، ينبغى أن يتسم بها المؤرخ الحق. ومن هنا - وكما رأينا من قبل، ومن خلال تراجم أهم موارد -

- (١) أخبار الفقهاء والمحدثين: ص ٢٣٥.
- (٢) السابق: (ترجمة رقم ١)، ص ١٠، ترجمة ١٢٩ (ص ١١٥).
- (٣) السابق: ترجمة ٢٤ (ص ٢٣)، وترجمة ٧٤ (ص ٧٥).
- (٤) السابق: ترجمة ٢٥ (ص ٢٤).
- (٥) و(٦) السابق: الترجمة، والصفحة نفسها.
- (٧) السابق: ترجمة ٥١ (ص ٤٢).
- (٨) السابق: ص ٤٨.
- (٩) السابق: ص ٥٦.
- (١٠) السابق: ص ٦٩.
- (١١) السابق: ص ٧٤.
- (١٢) السابق: ص ٧٨.
- (١٣) السابق: ص ٩٥.
- (١٤) و(١٥) السابق: ص ١١٣.
- (١٦) أخبار الفقهاء والمحدثين: ص ١١٣.
- (١٧) السابق: ص ١١٤.
- (١٨) السابق: ص ١٣٠.
- (١٩) السابق: ص ١٣٢.
- (٢٠) السابق: ص ١٣٣.
- (٢١) السابق: ص ٢١٨.
- (٢٢) السابق: ص ٢٧٩ - ٢٨٠.
- (٢٣) السابق: ص ٣٥٩.

وجدناه ينقل عن العلماء الثقات؛ حتى تتوفر لكتابه ولتراجمه المصادقية المطلوبة. هذا بصفة عامة. فإذا خصّصنا القول، فإننا نقول: إنه كان يحرص على النقل عن مورد بينه وبين المترجم له صلة، كأن يكون ابناً له^(١)، أو له معرفة حقيقية به^(٢). وفي الوقت نفسه كان المورد - كخالد بن سعد مثلاً، وعنه نقل كثيراً جداً من التراجم - يدقق هو الآخر قبل تسجيل معلوماته، وقبل الرحيل إلى مصادره^(٣)، وكان يستفسر عن مترجم له، ويسأل عنه ويتحرى^(٤)، ويدخل إلى مصدره بنفسه، فيسمع منه، ويروى عنه^(٥).

ومما يحسب للخشني - في هذا الصدد - أنه كان - أحياناً - يذكر معلومة عن مورده الذي ينقل عنه كنوع من التعريف السريع به^(٦)؛ بئاً للطمأنينة في قلوب ونفوس قرائه، وقد يتعدى ذلك إلى ذكر معلومة تتصل بأحد أفراد الإسناد الخاص بالرواية المنقولة، توضح صلته بالمترجم له^(٧). وأخيراً، فإن الدقة تبلغ غايتها، عندما يكون المترجم له معاصراً للخشني، فيتقدم إليه الخشني بالسؤال عند الترجمة له، فيكون مورده هو المترجم له في آن واحد^(٨).

٢ - استخدم الخشني صيغاً متنوعة صدر بها موارده غالباً، مثل: (ذكر^(٩))، وقال^(١٠)، وحدثني^(١١)، وسمعت^(١٢) وحدثنا^(١٣)، وأخبرنا^(١٤)، وقال لي^(١٥)، وحكى لي^(١٦). ولا

(١) السابق: ص ٢٩٧ (ترجمة رقم ٤٠٥).

(٢) السابق: ص ٣٦.

(٣) أخبار الفقهاء والمحدثين: ترجمة ١٢ (ص ١٦)، وفيها يسأل خالد بن سعد (سعيد بن عثمان الأعناقى)، عن أحمد ابن عمرو بن منصور قبل الرحيل إليه، فوصف له عنايته بالعلم، وأنه كان معهم عند (نصر بن مرزوق)، للتلقى عليه في مصر.

(٤) كدخوله إلى بلد (محمد بن حنادة) الفقيه - (إشبيلية) بعد وفاته - ٩ سنوات (٣٠٤هـ)؛ فرأى أهل بلده، يحسنون الثناء عليه. (السابق: ص ١٤٢).

(٥) السابق: ص ١٩٤ (ترجمة ٢٤٤)، وفيها يروى عن المترجم له (أخبرني أبو عبيدة).

(٦) السابق: (ترجمة ٢٧٧)، ص ٢١٧، وترجمة ٤٧٨ (ص ٣٤٠).

(٧) السابق: ص ٣٦٩ (ترجمة ٤٩٤) - (يحيى بن معمر الألمان): ولقد أخبرني محمد بن عبد الملك بن أكن، عن عمه (وكان قريب الخاصة بابن معمر).

(٨) السابق: ص ١٧٦ - ١٧٧ (ترجمة محمد بن عيسى بن رفاعه)، ورقم ٢٠٨ (وذكر محمد هذا عن نفسه). وفي ص ١٧٨: توفي سنة ٣٣٧هـ (فهو معاصر للخشني).

(٩) المصدر السابق: ص ٩، ١٦، وغيرها.

(١٠) أخبار الفقهاء والمحدثين: ص ١٠، ٢٠، ٢٢، ٢٥، ٥٩، وغيرها.

(١١) السابق: ترجمة رقم (١) ص ٩، وترجمة ٣٧٨ ص ٢٨٢.

(١٢) السابق: ص ١٩٢.

(١٣) السابق: ص ١٠ (ثلاث مرات).

(١٤) السابق: (ترجمة ٨٧)، ص ٨٠.

(١٥) السابق: ص ٧٣.

(١٦) السابق: ص ٣٧٨.

شك أنه - باعتباره ملماً بالثقافة الحديثة - كان حريصاً على الدقة في أداء هذه الألفاظ. وكذلك كان دقيقاً في بيان الطريقة التي وصلت بها إليه بعض الروايات، كقوله: (ووجدتُ اسمه - أى: المترجم له - مثبتاً في كتبهم. وقد كتبتُ عنهم من روايتهم عنه علماً كثيراً. فالذى أجدني أحفظه هو ما أذكره من ذلك). ثم قال: (حدثني)، وبدأ يذكر الموارد التي نقل عنها^(١). وبلغ حرصه - كذلك - درجة كبيرة عند أداء اللفظ الذي عبّر به المورد عن كيفية نقله للرواية، كما في قوله: (قال لي عبد الله بن إسماعيل البرقي: شهدته - أو قال: أخبرني من شهوده)^(٢).

٣ - كان الحشني شديد الحرص على توثيق المعلومات التي يوردها في كتابه، وكان يسلك لتحقيق ذلك طرقاً عديدة منها:

أ - تعدد الموارد المستخدمة في الترجمة الواحدة، فهو يأخذ ويقتبس من كل مورد ما يناسبه ويحتاج إليه، فيما يتعلق بجزئيات الترجمة الواحدة^(٣).

ب - الحرص في مواضع عديدة على ذكر السند كاملاً (سواء كان المذكور بعده حديثاً نبوياً، أم غير ذلك)^(٤).

ج - الجمع والتنسيق بين المرويات المتشابهة، بحيث يذكر أكثر من مورد للرواية الواحدة؛ لتأكيد ما بها من معلومات^(٥).

د - ذكر المورد الواحد أكثر من مرة، مهما تعددت النقول عنه في الترجمة الواحدة (فقد تصل مرات ذكره إلى ست مرات مثلاً)^(٦). فالحشني يوثق منقولاته، وقد يكتفي بلفظة (قال) عند تكرار ذكر المورد، أو يذكر اسمه مختصراً، وقد يذكره كاملاً^(٧).

هـ - الحرص في ردوده أو تعليقاته، أو بيان تعدد وجهات النظر في الأمر الواحد باسم مورد ما في رواية ما؛ ليرد بذلك على ما جاء في رواية سابقة، اعتمد في إيرادها على مورد آخر^(٨). ويكمل هذه الجزئية ويطورها أن مؤرخنا كان يتحرى ويستفسر عن المسألة الواحدة

(١) السابق: ترجمة ١٩٣ (ص ١٦٦).

(٢) السابق: ترجمة ١٨٢ (ص ١٦٢).

(٣) السابق: ترجمة ١٥ (ص ١٧ - ١٩).

(٤) أخبار الفقهاء والمحدثين: ترجمة ١٢ (ص ١٥).

(٥) السابق: ص ٣٧ (أخبرني أحمد بن خالد، وعثمان بن عبد الرحمن، قالوا).

(٦) السابق: ترجمة (٣٥٢).

(٧) عند تكرار المورد عنه - (قال)، كما في (المصدر السابق)، ترجمة (١٢٦)، وفيها: (قال عثمان بن محمد، ثم قال).

وقد يختصر المورد عند تكراره هكذا: (قال لي محمد بن عبد الملك بن أيمن، ثم قال لي ابن أيمن مرتين). (السابق: ترجمة ٢٣١).

وقد يكرره كاملاً كما في (محمد بن عمر بن ليابة). (السابق: ترجمة ٢٤١).

(٨) السابق: (ترجمة رقم ١١، ص ١٤).

لدى أكثر من مورد^(١)؛ كى تأتى تراجمه على درجة عالية من الصحة.

٤ - وأخيراً، فقد كان الخشنى يستعمل الطريقة التقليدية المتمثلة فى تصدر المورد نص الرواية، وقد يصدر الاثنين بقولته المشهور: (قال ابن حارث)^(٢)، أو (قال محمد بن حارث)^(٣)، أو (قال محمد)^(٤). ولمة طريقة ثانية كان يستخدمها، فيها يصدر بقولته المشهورة، ثم يذكر المعلومة، ثم يأتى بعدها برواية مصدرة بمورد، يدلل بذلك على صحة المعلومة المتقدمة^(٥) (وقد يستخدم المورد عند ضرب الأمثلة والنماذج)^(٦).

وهناك طريقتان أخريان فى مكان إيراد المورد، هما: الإتيان به وسط الرواية على هيئة جملة اعتراضية^(٧)، أو يتقدم نص الرواية (وفى ختامها يذكر موردها المنقولة عنه)^(٨).

ثانياً - بالنسبة للكتب التى طالعها، ونقل عنها:

كان يعبر عن ذلك بلفظة (ذكر)، أو (رأيت)^(٩). وكان يذكر اسم الكتاب ومؤلفه قبل المنقول منه^(١٠)، وقد يذكر اسم الكتاب بعد نهاية النقل عنه^(١١)، أو يذكر اسم الكتاب، والنص المنقولة عنه، ثم السند الذى وصل به إليه^(١٢).

ثالثاً - وبخصوص الموارد المجهولة:

فإننا لاحظنا كثرتها الكثرة، وتعدد وتنوع الصيغ المعبرة عنها، وجدة بعضها^(١٣). ول بعضها

(١) السابق (ترجمة ١٣١)، (ص ١١٨)، وفيما يسأل (أحمد بن سعيد بن حزم)، ثم (محمد بن عبد الملك بن أين) عما يتصل بكذب المترجم له (محمد بن يوسف بن مطروح).

(٢) أخبار الفقهاء والمحدثين: (ص ٢٦١).

(٣) السابق: ص ٢٦٢، ٢٧٦، ٣٧١.

(٤) السابق: ص ٢٠، ٣٤٩، ٣٦٣، ٣٦٧.

(٥) السابق: ص ٣٧١ - ٣٧٢.

(٦) السابق: ص ١٣١.

(٧) السابق: ترجمة ٨٥ (ص ٧٩): وكان حزم بن غالب - فيما ذكر لى إسحاق بن إبراهيم الطليطلى - صاحب رأى وفتيا.

(٨) السابق: ص ٢٣٠ (بعد انتهاء الرواية قال: هكذا روى أحمد بن مطرف بن المشاط).

(٩) السابق: رقم ١٢٨ (ص ١١٣)، قال: ذكر عبد الملك بن حبيب فى كتابه. وفى ص ٣٦٣: (رأيت فى كتاب لعلكدة بن نوح).

(١٠) السابق: رقم ٣٧٠ (ص ٢٧٩).

(١١) أخبار الفقهاء والمحدثين: (ترجمة ٣١٣) ص ٢٣٣ - ٢٣٤.

(١٢) السابق: ص ١٨٧ (رأيت فى كتاب أخبار علماء حمص)، ثم ذكر الرواية، ثم قال: هكذا حكاه أبو بكر أحمد بن محمد بن عيسى البغدادى، روى ذلك بكر بن محمد بن حفص الشعراى التنبسى المصرى.

(١٣) هناك صيغ جديدة بمجهولة، جعلها الخشنى أساس قبول الرواية، مثل: مما حفظت وحفظ الناس (المصدر السابق) ص ١٣١، وسمعت على الاستفاضة من القول، والفاشى من الذكر (السابق: ص ١٣٢).

مدلول معين (مثل: " يقال " الدالة على عدم التأكد من الشيء، أو التشكيك في صحته)^(١). وسلك الخشنى في إيراد أماكن صيغها الطرق الثلاثة المعهودة (قبل، ووسط، ونهاية الرواية)^(٢).

رابعاً، وأخيراً - وماذا عن الروايات ساقطة المورد ؟

الحق أن هذا النوع من الروايات موجود في كتاب الخشنى، ويحتاج إلى تفسير، نركزه من خلال ما يلي:

أ - هناك تراجم كاملة خلت من ذكر الموارد، اكتفى فيها مؤرخنا بصيغتي: (قال محمد)، وقال محمد بن حارث). ويلاحظ أنه معاصر لأصحاب تلك التراجم، فالغالب أنه نقلها عنهم، فليس بحاجة إلى النقل عن غيره^(٣).

ب - وقد يكون المترجم له معاصراً للخشنى، لكن - فيما يبدو - لا ينقل عنه كل ما يحتاج من معلومات، فتأتى بعض أجزاء الترجمة مصدرة به (قال محمد)، بينما يأتى ذكر بعض الموارد في أجزاء الترجمة الأخرى^(٤).

ج - يسقط الخشنى اسم المورد - أحياناً - ويكتفى به (قال محمد) عند تجميعه خلاصة ما ورد في موضوع معين، كما في إيجازه وتركيزه ما ورد بشأن (محمد بن عبد الله بن مسرة القرطبي)^(٥).

د - يكتفى الخشنى في بعض الأحيان بذكر (قال محمد) عند ذكر تاريخ وفاة أحد المعاصرين له^(٦)، أو عند ذكر نسب^(٧)، أو أصل المترجم له^(٨)، (فقد يكون ذلك النسب، أو الأصل مشهورين، بحيث لا يجد داعياً لذكر المورد أحياناً).

هـ - هناك مواضع لا نستطيع تفسيرها سقطت فيها الموارد؛ لأنه يترجم لأناس غير معاصرين له^(٩)، مما كان يستوجب عليه ذكر موارده، لكنه لم يفعل، إما خطأ، أو سهواً ونسياناً.

(١) تدل على الشك كما في (المصدر السابق): ترجمة (٢١٣)، وعلى عدم التأكد من الشيء (السابق): ترجمة (٢٤٢).

(٢) قبل الرواية: (السابق) ص ٣٥٩، ٥٢٣. وسط الرواية: وكان - فيما أخيراً من وقت به - أن. . . (ترجمة ٢٠٢). وقد يأتى الموارد المجهول آخر الرواية (حكى ذلك من وقت به). (ترجمة ٢٣٣).

(٣) أخبار الفقهاء والمحدثين: ترجمة (١٦) ص ١٩ - ٢٠.

(٤) السابق: ترجمة (١٧) ص ٢٠ - ٢١.

(٥) كما في اختصاره بمجل ما ورد بشأن (محمد بن عبد الله بن مسرة القرطبي) من آراء (السابق): ترجمة ٢٠٩ ص ١٧٨، مصدرة به " قال محمد ".

(٦) السابق: ترجمة ٢٥، ص ٢٤.

(٧) السابق: ترجمة ٢١، ص ٢٢، وترجمة ٢٥، ص ٢٤.

(٨) السابق: (ترجمة ١٩ ص ٢١).

(٩) السابق: (ترجمة ٣ ص ١١)، وترجمة ٧ ص ١٢، وترجمة (٩) ص ١٣، وترجمة (١٤) ص ١٧. (وهي كلها مصدرة به (قال محمد)، و(قال محمد بن حارث).

ثالثاً - ملاحظات نقدية عامة:

هذه بعض الإلماعات الخاطفة، التي تلقى فيها نظرة سريعة على بعض الروايات الواردة في كتاب الخشني، مما يستلقت الانتباه، نوجزها فيما يلي:

١ - خطأ تاريخي:

ذكر الخشني أن (أحمد بن مسيرة) الفقيه (المتوفى سنة ٣٢٢هـ)، انصرف من رحلته في المشرق إلى الأندلس قبل سنة ٢٩٠هـ في عهد (إبراهيم بن أحمد بن الأغلب) صاحب إفريقية، وأنه كان في الرفقة، التي كان فيها (عبيد الله المهدي الشيعي)، وأن أحمد بن مسيرة هو الذي نصح عبيد الله في طريق مصر أن يقتصر في مأخذه على نفسه، ويدع ما كان يُظهر من أمة الملك، وحذره لصوص البربر في أرض المغرب، فيُضَيِّع نفسه، ويضيِّعهم. وتذكر الرواية أن عبيد الله استجاب لهذا النصح، وأنهم لم يسبروا إلا يسيراً، حتى خرج على الرفقة بعض البربر، فسلبوا ما معهم، ولم يبق من مال عبيد الله غير حقلين من كنان، وصل بهما إلى أطرابلس^(١).

وبالنظر إلى الأحداث المذكورة نلاحظ ما يلي:

أ - التاريخ المذكور للانصراف إلى الأندلس صحيح بالنسبة لتاريخ وفاة أمير الأغالية المذكور، وإن كان الأدق منه أن يقال: (قبل ذى القعدة سنة ٢٨٩هـ)، على اعتبار أنه تاريخ وفاة ذلك الأمير^(٢).

ب - أما ما ورد بشأن مصاحبة المترجم له لـ (عبيد الله المهدي) في الطريق من مصر إلى المغرب، فغير صحيح؛ لأن الثابت هو أن المهدي مر بمصر في ولاية (عيسى التوشري) سنة ٢٩٦هـ، وأنه أفلت من ذلك الوالي بالهيلة والمال^(٣)، فكيف يتفق ذلك - إذاً - مع التاريخ المحدد لعودة المترجم له إلى الأندلس ١٤. ولا يقول قائل: لعل المقصود (أبو عبد الله الشيعي)؛ لأن هذا وصل إلى أرض كُثامة منتصف ربيع الأول سنة ٢٨٠هـ^(٤)، أي: قبل التاريخ المذكور بعشر سنوات كاملة. ثم إنني أشك أن يكون ما ذكره الخشني - وهو لم يذكر مصدر هذا الكلام، والغالب أنه لم يعاصره - صحيحاً بشأن مسير المهدي في أمة الملك؛ لأنه قدم مستراً جازاً في الحرب، بعدما تعرض في مصر لما تعرض له، لكن هذا لا يمنع من أن يكون قد قدم ببعض

(١) أخبار الفقهاء والمحدثين، للخشني: ص ١٧.

(٢) البيان المغرب ١/١٣٢.

(٣) الكامل، لابن الأثير ج ٦ - ص ٤٥٣ - ٤٥٤.

(٤) المصدر السابق: ٤٥١/٦.

الأموال والأثقال، التي كان يخفيها، وأنه تعرض لسرقة بعض متاعه، وكتب وملاحم آياته، كما ذكر ابن الأثير^(١).

٢ - تناقض:

وذلك نلاحظه في ترجمة (أحمد بن إبراهيم)، الذي وصفه الخشني بـ (الفرضي)، أي: العالم بالفرائض وأحكامها (المواريث)، ثم إذا بنا نجد في مضمون الترجمة أنه ما كان إلا حافظاً لأحد المؤلفات في هذا الشأن، وأنه لم يكن بالوزن العلمي المتمشي مع هذا الوصف، إضافة إلى قول خالد بن سعد عنه: ولم يكن بارعاً في علم (الفرائض)^(٢). وكذلك ما رواه أبو عثمان (سعيد بن عثمان الأعناقى القرطبي) من أن ما رواه أصبغ بن خليل من حديث عن (القرآن) مفتعل، وأن ولي عهد المسلمين بن أمير المؤمنين (يقصد الحكم بن عبد الرحمن الناصر) ذكر لهم هذا الحديث، وبين وجه الخطأ في إسناده، مكتوباً بخط يده، مما أفاده عن الثقات من العلماء. ووجه الاعتراض هو: كيف يحضر أبو عثمان (المتوفى سنة ٣٠٥هـ) مجلس الحكم (المولود سنة ٣٠٢هـ)؟

٣ - خطأ في التوقيت:

جعل استشهد المحدث (محمد بن عبيد الجزيري القرطبي) في إحدى غزوات القائد ابن أبي عتبة سنة ٣٥٠هـ^(٣). والصواب: أنها كانت سنة ٣٠٥هـ^(٤).

٤ - بعض روايات تحمل طابع التنبؤ^(٥)، والخرافة^(٦)، والغيبيات^(٧): وكان يجب على مؤرخنا أن ينأى بنفسه عن مثل هذه الروايات الضعيفة، التي لا تمت للتاريخ الصحيح بصلة.

(١) السابق: ٤٥٤/٦.

(٢) أخبار الفقهاء والمحدثين: ص ١٠ - ١١ (ترجمة رقم ٢).

(٣) راجع ترجمته في (أخبار الفقهاء والمحدثين)، للخشني نفسه ص ٣٢٢ - ٣٢٣ (رقم ٤٣٩)، حيث قال: (ولد سنة ٢٣٣هـ، وتوفى سنة ٣٠٥هـ)، وكذلك في تاريخ ابن الفرضي، ص ١٩٥/١ - ١٩٦.

(٤) أخبار الفقهاء والمحدثين: ص ١٦٦ - ١٦٧ (ترجمة رقم ١٩٣).

(٥) المقتبس، لاس حبان: ج ٥ ص ١٣٥ - ١٣٦. وبلاحظ أن تحقيق كتاب الخشني المذكور أشار إلى تاريخ الاستشهد الصحيح في (ص ١٦٧)، هامش رقم ٢٩. وحديث بالذكر أن القائد المذكور استشهد - أيضاً - في هذه الموقعة أمام نصارى الشمال.

(٦) راجع (أخبار الفقهاء والمحدثين) للخشني ص ١١٦.

(٧) راجع المصادر السابق: ص ٢١٦ - ٢١٧ (ترجمة ٢٧٦).

(٨) راجع السابق: ص ٧٨، ٣٢٣ (حاشية الأخيرة التي لها رؤيا عن مصير المترجم له في الآخرة، وأنه مع السُّفَرَة الكرام البُرَّة (الملائكة)، وهو ما لا يجوز الخوض فيه، خاصة أنه ذكر - من قبل - رواية عن أحد العلماء يدكر فيما ما يلي: (من حُسِّن إسلام المرء تركه ما لا ينفيه). (السابق: ص ٩٧).

رابعاً، وأخيراً - منهج الخشني في تأليف هذا الكتاب:

هذه هي القضية الأخيرة المثارة في دراستنا للمؤرخ الأندلسي (الخشني)، وفيها نرصد منهجه في تقسيم كتابه وتبويبه، والعناصر التي تتكون منها تراجمه (وما يتصل بذلك من ملامح منهجية)، ومدى الترابط والتناسق في العرض التاريخي داخل الترجمة الواحدة. وبعد ذلك، نبحث مدى اهتمام الخشني بذكر التواريخ في تراجمه، ومقدار ما يحويه الكتاب من حكم وفوائد تبرز غاية التاريخ وبغيته المهمة، ثم ننتقل لإبراز مدى نجاح الخشني في تصوير الحياة الثقافية بالأندلس إبان الفترة، التي يترجم فيها للعلماء من فقهاء ومحدثين. وأخيراً، مدى حضور شخصيته في كتابه، وتأثيره فيمن بعده.

١ - حول منهجه في تقسيم الكتاب، وتبويبه:

لم نجد مقدمة لكتاب الخشني، يشرح لنا فيها منهجه في كتابه، والظروف الداعية إلى تأليفه، وطريقته في تقسيمه وتبويبه. ويغلب على الظن أن رجلاً منهجياً كالخشني لا تفوته مقدمة من هذا النوع، لكن الغالب أنها سقطت من مخطوطة الكتاب.

وبالنظر إلى (أخبار الفقهاء والمحدثين) في طبعته التي بين أيدينا الآن، نجد أنه رتب تراجمه على (أبواب حروف المهجاء): (باب حرف الألف)^(١)، وبعده (باب حرف الباء)^(٢)، وهكذا حتى تنتهي من باب (حرف الدال)^(٣)، فنجد باب (حرف الذال)، وبعده (باب حرف الراء)، وكتب تحت عنوانهما: (فارغ لا اسم فيه)؛ مما يفيد أن الخشني كان ينوي العودة إليهما ملء هذا الفراغ، وسد ذلك النقص في التراجم، لكنه لم تُنح له تلك الفرصة؛ ربما للظروف الصعبة، التي قاساها بعد وفاة الحكم المستنصر؛ مما أثر بالسلب في تفرعه للبحث، والدرس، والتأليف. ثم يأتي باب (حرف الزاي)^(٤)، ثم نفاجاً بتخطي أبواب (حروف السين إلى الصاد)، وبعد ذلك نجد باب (حرف الطاء)^(٥). أما باب (حرف الظاء) فكتب تحته: (فارغ لا اسم فيه). ثم نفاجاً مرة ثانية بعدم وجود أبواب (حروف العين حتى القاف)، ونجد باب (حرف الكاف)^(٦)، فاللام، فالميم، فالتون^(٧)، ثم نجد -والصفحات أرقامها متتابعة متسلسلة- باب (حرف الصاد)^(٨) وباب

(١) ص ١٠ - ٤٨.

(٢) ص ٤٩ - ٦٣.

(٣) ص ٨٧ - ٨٩.

(٤) ص ٩٥ - ١٠١.

(٥) ص ١٠٣ - ١٠٤.

(٦) ص ١٠٧.

(٧) تمت هذه الأبواب الثلاثة من (ص ١٠٩ - ٢٠٤).

(٨) ص ٢٠٧ - ٢٠٩.

(حرف الضاد)^(١١)، وبعده باب (حرف العين)^(١٢)، فالعين، فالفاء، فالقاف^(١٣). ثم بعده مباشرة يأتي حرف (السين)^(١٤)، و(الشين)^(١٥)، وبعدهما باب (حرف الهاء)^(١٦)، فـ(الواو)^(١٧)، فباب (حرف الياء)^(١٨).

ملاحظات على تقسيم الكتاب:

أ - من الواضح أن الخشني رتب أبوابه على (حرف الهاء)، وأن الخلل والاضطراب الحادثين في ذلك الترتيب العام ليس راجعاً إليه، وإنما إلى فعل النساخ في ترتيب الأوراق التي نسخوها^(١٩). ثم جاء المحققان، فأبقيا على الترتيب بخلله كما هو في (المخطوط) من باب الأمانة العلمية. وكان الأصوب - عندي - أن يعيدا ترتيب أبوابه على الوضع الصحيح، مع التنبيه إلى الخلل الحادث.

ب - قسّم الخشني الأبواب الرئيسية إلى (أبواب فرعية) حسب كل (حرف هجائي). فمثلاً: باب (حرف الألف) جعل تحته (باب أحمد)^(٢٠)، فـ (باب أيوب)^(٢١)، فـ (باب (أصبع)^(٢٢)، فـ (باب أبان)^(٢٣)، فـ (باب أسامة)^(٢٤). ومن البين أن الأبواب الفرعية لا يُراعى فيها الترتيب الهجائي، وكذلك التراجم المذكورة تحت (الأبواب الفرعية) لا يُراعى فيها الخشني الترتيب الهجائي^(٢٥).

(١) ص ٢١١.

(٢) أخبار الفقهاء والمحدثين: ٢١٣ - ٢٨٩.

(٣) تمتد هذه الأبواب الثلاثة في (المصدر السابق) من ص ٢٩١ - ٣١٢.

(٤) السابق: ص ٣١٣ - ٣٣٣.

(٥) السابق: ص ٣٣٥ - ٣٣٨.

(٦) السابق: ص ٣٣٩ - ٣٤٢.

(٧) السابق: ص ٣٤٣ - ٣٤٥.

(٨) السابق: ص ٣٤٣ - ٣٤٥.

(٩) ورد في نهاية كتاب (أخبار الفقهاء والمحدثين) للخشني ما يلي: (ثم الكتاب، والحمد لله حق حمده، وصلى الله على محمد، وعلى آله. وكان ذلك في شعبان من عام ٤٨٣هـ). فهذا هو تاريخ نسخ هذه المخطوطة قبل تحقيقها، ونشرها، فلعل لناسخها دخلاً في خلل ترتيب أبوابها.

(١٠) يلاحظ سقوط هذا العنوان: (باب أحمد) من الناسخ، وهو الباب الذي يمتد من (رقم ٢) إلى ترجمة رقم (٣٧)، ص ١٠ - ٣١. وكذلك سقط هذا العنوان: (باب سليمان)، وهو الممتد من (ص ٣١٣ - ٣١٥).

(١١) يمتد من (ترجمة رقم ٣٨ - ٤٠)، ص ٣٢ - ٣٣.

(١٢) يمتد من (ترجمة رقم ٤١ - ٤٧)، ص ٣٣ - ٤٠.

(١٣) يمتد من (ترجمة ٤٨ - ٤٩)، ص ٤٠ - ٤٢.

(١٤) يمتد من (ترجمة ٥٠ - ٥١)، ص ٤٢.

(١٥) الترتيب الداخلي الهجائي غير مُراعى، فمثلاً: في (باب أحمد)، ترجم لـ (أحمد بن إبراهيم)، برقم (٢) -

ج - عند وجود بعض الأسماء المتفرقة، التي لا تدخل تحت (الأبواب الفرعية)، يقوم الخشنى بتجميعها ووضعها آخر الباب الهجائي التابعة له، ويقول: باب (أسماء مختلفة)^(١). وقد تكون جميع تراجم الباب من قبيل الأسماء المختلفة، كما في باب (حرف الجيم) مثلاً، فيقول: (وهي أسماء مختلفة)^(٢)، أى: وتراجم هذا الباب متبينة الأسماء، فلا تدخل تحت باب معين.

د - تتراوح أبواب الكتاب بين الطول والقصر، بعضها محدود جداً، لا يتجاوز الصفحة^(٣)، وبعضها يطول جداً، كباب (حرف الميم). الذي أعده أطول أبواب الكتاب^(٤)، يليه باب (حرف العين)^(٥)، الذي يتسم بسمة، ينفرد بها، ذلك أن بأواسطه باباً للأسماء المختلفة^(٦)، وهو خاص بـ (العبدلة)، ولم يوضح الخشنى ذلك، ثم استؤنفت بقية أبواب هذا الحرف^(٧) ثم وضع باباً آخر للأسماء المختلفة^(٨)، وهو متعلق بالأبواب الأخرى المستأنفة، ولم يُميزه الخشنى عن سابقة.

٢ - عناصر تكوين التراجم، ومدى تحقق التناسق بينها، والملاحم المنهجية المتصلة بذلك:

١ - سوف أعرض - هنا - العناصر المكونة للترجمة عند الخشنى، وسأراعى - ما أمكن - أن تكون لها صفة العموم والانطباق على كثير من تراجم الكتاب (معقولة الطول). ويمكن ذكرها على النحو الآتي:

أ - ذكر اسم المترجم له، ونسبه موجزاً، وأنه من أهل كذا (المدينة الأندلسية التابع لها)،

- (١٠ - ١١)، وبعده ترجم لـ (أحمد بن الوليد بن عبد الخالق)، برقم (٣) صـ (١١)، ثم ترجم لـ (أحمد ابن عبد الله بن خالد)، برقم (٤) صـ (١١)، ثم ترجم لـ (أحمد بن محمد اليحصي) برقم (٥) صـ (١٢)، ثم عاد فترجم لـ (أحمد بن الحسن)، برقم (٦)، صـ (١٢)، ثم ترجم لـ (أحمد بن محمد بن عجلان)، برقم (٧)، صـ (١٢)، وهكذا دون ترتيب.

(١) راجع - مثلاً - ما ورد في آخر (حرف الألف)، حيث جمع تراجم (أسلم، وأسيد، وأسد، وأخطل، وأزهر، وأمية) بأرقام (٥٢ - ٥٧)، صـ (٤٣ - ٤٨). وكذا آخر (حرف الخاء)، برقمى (٩٨ - ٩٩)، صـ ٨٦.

(٢) وفيه ترجم لـ (جعفر، وجابر، وحندب) بأرقام: (٦٥ - ٦٧)، صـ (٦٩).

(٣) مثل: باب (الجيم) السابق، وباب (الكاف) صـ ١٠٧، وباب (اللام) صـ ١٠٩.

(٤) ويمتد من ترجمة رقم (١٢٦ - ٢٦٠)، صـ (١١١ - ٢٠٢). ويلاحظ أن أطول أبوابه الفرعية هو باب (محمد)، وبه من ترجمة رقم (١٢٦ - ٢٣٠)، صـ ١١١ - ١٨٥.

(٥) يمتد هذا الباب ككل من ترجمة (٢٧٢ - ٣٩٢)، صـ (٢١٣ - ٢٨٩). ويجوز في شقه الأول أسماء العبدلة في أبواب: (عبد الله، وعبد الرحمن، وعبد الملك، وعبد الأعلى، وعبد الجبار، وعبد الوهاب، وعبد المجيد، وعبد الكريم، وعبد الواحد، وعبد السلام). ويمتد هذا الجزء من ترجمة (٢٧٢ - ٣٤٧)، صـ ٢١٣ - ٢٦٨.

(٦) ويمتد من ترجمة (٣٤٨ - ٣٥١)، صـ ٢٦٩، وبه تراجم (عبد القادر، وعبد المؤمن، وعبد الودود، وعبد العزيز).

(٧) وبه أبواب: (عيسى، وعمر، وعمر، وعامر، وعمران، وعميرة، وعثمان، وعباس، وعلى). ويمتد من ترجمة (٣٥٢ - ٣٨٨)، صـ (٢٧٠ - ٢٨٧).

(٨) وبه تراجم (علكنة، وعكرمة، وعبيدون، وعريف). ويمتد من ترجمة (٣٨٩ - ٣٩٢)، صـ (٢٨٧ - ٢٨٩).

والترحم عليه غالباً^(١).

ب - بعد عنوان الترجمة السابق: يذكر - في أحيان كثيرة - نسب المترجم له، وهو موزع بين القصر^(٢)، والطول المتوسط^(٣)، وأحياناً يأتي به مطولاً مفصلاً^(٤). وقد يردف ذلك بتناول أصله، وشرح ولائه (إن كان من الموالي)^(٥).

ج - الاهتمام بذكر علم المترجم له، وأى العلوم غالباً عليه (الفقه، أم الحديث)، وما قد يكون لديه من علوم أخرى^(٦).

د - ذكر بعض أساتيد المترجم له من الأندلسيين^(٧)، ثم الاهتمام بذكر ما يتصل برحلته إلى المشرق، فإن لم يكن للمترجم له رحلة - وقلما يكون ذلك - ينص عليه^(٨)، وإذا كانت له رحلة - وكثيراً ما يكون ذلك - يبين لنا صحبته فيها - أحياناً^(٩) - والبلاد التي زارها، وأساتيده الذين تلقى عليهم في كل بلد منها، على تفاوت في ذكر هؤلاء الأساتيد كثرة وقلة^(١٠) (ربما حسب نشاط المترجم له، وحديثه ومثابرته في التلقي).

هـ - التعرض للصفات الطيبة من علم وزهد، وورع وعبادة، وغيرها^(١١). وإلى جانب ذلك يهتم بإبراز رأى العلماء فيه، وثنائهم عليه، ومدحهم إياه^(١٢). وغالباً ما تنتهي الترجمة

(١) راجع - مثلاً - في (أخبار الفقهاء والمحدثين) تراجم أرقام ١ (ص ٩)، ٦ (ص ١٢)، ٨ (ص ١٣)، ١١ (ص ١٤).

(٢) السابق: رقم ٢ (ص ١٠)، ٦ (ص ١٢)، ١١ (ص ١٤).

(٣) السابق: ترجمة ١ (ص ٩).

(٤) أخبار الفقهاء والمحدثين: ترجمة ٢١ (ص ٢٢)، وترجمة ١٠٤ (ص ٩٥)، وترجمة ٢٤١ (ص ١٩١).

(٥) السابق: ترجمة ١٢ (ص ١٤): نسبة في الأموين، وأصله من ترجمة قيس (لعلها القرية المشهورة بين إربل والموصل)، من أعمال الموصل. (معجم البلدان ٢٥/٢). وترجمة ١٩ (ص ٢١): أحمد بن يوسف بن عباس (سرقسطي الأصل). وكذلك ترجمة ١٢٦ (ص ١١١): محمد بن خالد بن مرتيل. تناول أصل مرتيل هذا (كان عبداً مملوكاً للداحل، فأعتقه، وكان ليوسف الفهري قبله. وكان مرتيل يعمل لعبد الرحمن بن معاوية الجثنان، التي كانت في المكان الذي فيه - زمن الحشنى - دور بني خالد داخل قرطبة). وأخيراً، عريف مولى لث بن فضل (كان فيها منظرًا مفتياً، وأصله من سبي الإفرنج، إذ كان طفلاً، فملكه لث هذا، ورأى منه بقطة نباهة، فعلمه ونشأه على حفظ القرآن، ومال للعلم، فساعده مولاه. (السابق: رقم ٣٩٢، ص ٢٨٨ - ٢٨٩).

(٦) راجع ما تقدم بهذا الشأن حول عنوان كتاب الحشنى ومحتواه.

(٧) السابق: رقم ٣ (ص ١١)، ورقم (٣٣)، ص ٣٠.

(٨) السابق: رقم ٦ (ص ١٢)، ورقم ٤٨٩ (ص ٣٤٥)، ورقم ٥٠٣ (ص ٣٧٧)، ورقم ٥٠٧ (ص ٣٧٩).

(٩) السابق: رحلة (أحمد بن محمد بن عجلان، وأخيه معاً)، (رقم ٧ ص ١٢)، ورقم ٧٥ (ص ٧٥)، ورقم ٨٧ (ص ٨٠).

(١٠) أحياناً، يذكر الحشنى عدداً قليلاً منهم (السابق: رقم ٢ ص ١١، ورقم ١٦٩ ص ١٥٤). وفي تراجم بعض العلماء المشهورين المطولة، يتوسع جداً في ذكر أساتيدهم بكل إقليم، ويذكر أعدادهم (ترجمة بقى بن مخلد رقم ٥٨، ص ٥٠ - ٥٥).

(١١) السابق: ص ١٨، ٢١، ٢٣، ٣١، وغيرها.

(١٢) السابق: رقم ١٠ ص ١٣، ورقم ١٣ ص ١٦، ورقم ١٨ ص ٢١، ورقم ٢١ ص ٢٣، ورقم ٤٨ ص ٤١، ورقم ٧١ ص ١٣٧، وغيرها.

بذكر تاريخ وفاة المترجم له^(١).

ملامح منهجية مرتبطة بطريقة الخشني في العرض التاريخي للتراجم:

أ - حول طول الترجمة:

من تتبع تراجم الخشني في هذا الكتاب، تبين لي أن بعض تراجمه سطحية^(٢) (نادرة المعلومات جداً)، فلعل الخشني لم تسعفه مصادره بأكثر من هذا، أو لم تساعده ظروفه للعود إليها؛ لتكتملتها. وهي قليلة في أعدادها على كل حال، إذا قيس بالطابع العام لتراجم الكتاب (قصيرة الطول)^(٣). وهناك تراجم محدودة معدودة أطال فيها الخشني كثيراً، وفصل القول فيها تفصيلاً^(٤).

ومن حقنا أن نحاول استنباط المعيار، الذي كان يُحكّمه الخشني في تراجمه من حيث الطول والقصر. والحق أن وضع اليد على هذا المقياس غير ممكن بدرجة كافية؛ لأن الرجل لم نعثر له على مقدمة كتابه، التي يُصور أنه يُضمّن كثيراً من الإجابات عن العديد من التساؤلات المثارة حول كتابه، ومنها ما نحن بصده الآن. وعلى كل، فلم أعدم وسيلة أو أخرى، أستشف منها جانباً من هذا المعيار. لقد رأينا الرجل يطيل جداً في ترجمة (يحيى بن يحيى الليثي)^(٥)، وكان مما جلب هذا التطويل إصراره على إثبات حوالى ثلاثين موضعاً في أسانيد أحاديث الموطأ، رواها العالم المترجم له، واشتدّت وأخذت عليه من جانب (محمد بن وضاح، وغيره من العلماء)^(٦)، وقال مبرزاً وجهة نظره في التطويل قبل أن يسرد هذه المواضع وقد رأيتُ أن أحثليها على وجهها في هذا الكتاب كثيراً مبسوطاً، فلا يُنكر في مثله شدة الشرح، وكثرة التطويل^(٧). فهو - إذن - يرى أن قضية انتقاد أسانيد مرويات المحدثين الكبار مما يجب تفصيله، ما دام كتابه يترجم للمحدثين. وقد رأينا أن المناقشات الفقهية المطولة - أيضاً - مما يرى ضرورة إثباته، ما دام الفقهاء يمثلون جزءاً كبيراً من تراجم هذا الكتاب^(٨). وبالنسبة لمواضع (الاختصار)، فقد رأينا

(١) وهذا كثير شائع في مختلف تراجم الكتاب، والخروج عليه هو الاستثناء.

(٢) السابق: راجع تراجم أرقام: (٩٥، ٩٨، ١٧٦، ٢١٩، ٢٣٠، ٣٢٣، ٣٤٩، ٣٥٧، وغيرها).

(٣) راجع في (السابق): أرقام (٢٠٦ - ٢١٣، ٣٦٩، وغيرها).

(٤) راجع تراجم (٣١، ٤١، ٥٢، ٥٨، ١٠٤، ١٣٧ - ١٣٨، ١٣٨، ٣١٠، ٣٢٨، ٣٣٣، ٣٥٢، ٤١١، ٤٩٣).

(٥) أخبار الفقهاء والمحدثين: ص ٣٤٨ - ٣٦٧.

(٦) السابق: ص ٣٤٩ - ٣٥٧.

(٧) السابق: ص ٣٤٩.

(٨) يعد كتاب الخشني صورة حية للمظاهر الحضارية الثقافية في ذلك العصر، فإننا نجد به مجالس العلم والمناقشات بين العلماء (السابق: ص ١٨)، وبعض الفتاوى الفقهية الصادرة في مجالسهم (السابق: ص ٩٦)، والردود الفقهية المطولة، والتأويلات المفصلة (السابق: ص ٢٤٨ - ٢٥٤)، وجانباً من الخلافات بين بعض العلماء (السابق: ص ٦٩، ١٠٠ - ١٠١)، والأخذ والرد في حلقة العلم بين الأستاذ وتلامذته (ص ١٠٣ - ١٠٤)، ومظاهر الحركة -

الخشني يؤثره ويرتضيه في مواضع معينة، منها:

١ - عند التعليق على سند رواية سابق، يكتفى بالإشارة إلى مضمون الرواية المتقدمة، ويقول: (فذكر لي الحكاية)^(١).

٢ - عند تلخيص خلاف الناس حول عقيدة أحد العلماء، (كما هو عندنا لخص اشتجار الناس حول اعتقاد ابن مسرة القرطبي، وحصر ذلك في فرقتين، قام ببيان رأيهما في إيجاز وتركيز)^(٢).

٣ - عند العرض لذكر الروايات المتصلة بمكارم العلماء، وفضلهم، وعلمهم: فقد رأيناه، يروى عدداً من الروايات التي تشير إلى فضل (يحيى بن يحيى الليثي)، وعلمه، وإجابة الله دعاءه. ثم توقف عن المضى عن ذكر المزيد من هذه النوعية من الروايات قائلاً: (وأخباره كثيرة غزيرة، لو استقصيناها واستوعبناها، لطال الكتاب جداً، يخرج عن حد ما بُني عليه من معرفة العلماء)^(٣). فكان الخشني يريد أن يوضح لنا أن جل اهتمامه في هذا الكتاب مُنصب على تعريف القارئ بعلماء الأندلس (فقهائه، ومحدثيه)، مع التركيز على مناقشة القضايا الحديثية والفقهية المرتبطة بهم، مع عدم المبالغة والتطويل في ذكر الآثار المادحة علمهم وفضلهم؛ لأنها من الممكن أن تخرجه عن حيز الموضوعية إلى الغلو والإسراف في المدح والثناء.

٤ - عند الإشارة إلى المكان الذي يترله بعض العلماء، مكتفياً في ذلك بأقل القليل^(٤)، وعلى اعتبار أنه أشار في صدر الترجمة إلى الكورة، التي ينتمي إليها العالم غالباً؛ إذ إن شرح الأماكن وتفصيل وصفها مما لا يشغل الخشني هنا.

ب - مدى التزام الخشني بموضوع الترجمة:

ونقصد بذلك: هل خرج الخشني إلى (الاستطراد المريب) في تراجمه ؟ والحق أنه بالنظر إلى يحمل هذه القضية، فإننا نستطيع القول: إنه التزم - إلى حد بعيد - بموضوع الترجمة. وإذا كان يذكر أشخاصاً لهم صلة بالمترجم له، فقد كانت إشاراته - إلى أخى^(٥)، أو ابن^(٦)، أو والد

- العلمية النشطة في المساجد، وفي حلقات الفقه والقصص (ص ٢١٧)، وتآديب الصبيان في المساجد، وتآديب أبناء الأمراء (ص ٨٧، ٣٤١)، وغير ذلك من مظاهر الحركة العلمية التي موجها الأندلس.

(١) أخبار الفقهاء والمحدثين: ص ٩٧.

(٢) السابق: ص ١٧٨.

(٣) السابق: ترجمة ٤٩٣ (ص ٣٦٧).

(٤) راجع: تراجم أرقام (٣٠، ٣٤٥، ٤٦٥، ٥١٧).

(٥) أخبار الفقهاء والمحدثين: ترجمة (٧)، ص (١٢)، ورقم ٧٥ (ص ٧٥).

(٦) السابق: ترجمة ٢٤ (٢٣).

صاحب الترجمة^(١) - سريعة مقتضبة. وفي أحيان نادرة كان يطيل بعض الشيء^(٢). لكن الطابع العام لتراجمه هو (مراعاة الالتزام بموضوع الترجمة وصاحبها). ومن هنا، رأينا الخشنى يجعل للأب - مثلاً - ترجمة، وللابن ترجمة أخرى خاصة به^(٣). وأعتقد أنه يوجد تشتت في توزيع تراجم الأسرة الواحدة^(٤)، بناء على الترتيب الهجائي لأبواب الكتاب الذى اختاره الخشنى لتنظيمه، والذى فضله على نظام الترتيب على (الطبقات)^(٥).

ج - مدى القدرة على تنمية، وتعميق المعلومات الواردة بالترجمة:

كانت للخشنى أساليبه التى يستخدمها لتأكيد ودعم بعض المعلومات المذكورة فى الترجمة. ومن وسائل ذلك: (الاستشهاد بالشعر). فقد أورد لنا عدة أبيات من الشعر فى مدح العالم (بقي بن مخلد)، فى الرد على شائيه الذميين له^(٦)، تأكيداً لمزله، وعلمه، وتميزه على غيره من العلماء.

وما قاله بعضهم فى هذا الشأن:

رَأَيْتُ بَقِيَّ الْخَيْرِ خَيْرَ زَمَانِهِ وَغَيْرَ بَقِيٍّ فِي الْعُلُومِ كَلَّاشِي

أَبَى اللَّهِ إِلَّا أَنَّهُ أَفْضَلُ الْوَرَى^(٧) وَأَعْلَمُ كَهْلٍ فِي الْبِلَادِ وَنَاشِي^(٨)

وفى ختام ترجمة (بقي بن مخلد) أورد الخشنى المؤرخ موقف (محمد بن عبد السلام المحدث) لما رأى الناس قد خرجوا بنعش (بقي)، وما أصابه عند ذلك من هول الفجعة، بحيث سقط

(١) السابق: رقم ٤٠ (ص ٣٣).

(٢) السابق: رقم ٧٧، ص ٧٦ (ذكر معلومة قصيرة عن المترجم له: حفص بن عبد الله الأنصارى، ثم معلومتين أطول نسباً عن ولده (يوسف) ثم (حفيدة محمد). وكذلك ترجمة (٢٤٠) ص ١٩١ (فيها ذكر المترجم، وابن أخيه، وأولاده). وكذلك ذكر أحمى المترجم له (ص ٢٤٨ - ٢٤٩).

(٣) السابق: (ترجمة الأب رقم ٣١٣، وترجمة ابنه أحمد رقم ٣٦، وابنه أيوب رقم ٤٠).

(٤) فمثلاً: يوجد تناهد بين ترجمتي الأب، والابن، رغم اتفاق أول (استهما في الحروف على اعتبار أن الترتيب العام قائم على أساس (الحروف الهجائية). أما أساس ترتيب الأبواب الفرعية، فغير معروف لنا. (ترجمة الأب (محمد بن وضاح) رقم (١٣٧ - ١٢٢)، وترجمة الابن (محمد بن محمد بن وضاح) رقم ١٧٨ (ص ١٦٠).

(٥) وقد أشار الخشنى فى ترجمة (قاسم بن هلال) رقم (٤١٠)، ص ٣٠١ إلى أن المترجم له أنجب سبعة أبناء فى العلم والزهد والخير، وأنه سيذكرهم مع طبقتهم فى موضوعهم من كتابه هذا (إن شاء الله). ولست أدرى أى تقسيم طبقي يعنى، وحيث إذا كان أساس تقسيمه التراجم الفرعية غير المعروف لنا، جعل أبناء المترجم له، يذكرون مع طبقتهم من أهل العلم مثلاً، فإننا لم نجد هؤلاء الأبناء ذكراً، اللهم إلا ابنه يسمى (يحيى) ورد رقم (٥٠٠) ص ٣٧٥ - ٣٧٦.

(٦) أخبار الفقهاء والمحدثين: ص ٥٨ - ٥٩.

(٧) هذه مبالغة مقنونة، فلا أفضل فى الخلق من رسول الله، ولا يصح أن يقال: إن العلماء الآخرين - بخانه - لا يساوون شيئاً.

(٨) السابق: ص ٥٩.

مغشياً عليه. فلما أفاق مشى حاسراً، وقال: (هكذا ينبغي أن يُعْمَى في جناز أهل العلم)^(١).
وأعقب مؤرخنا ذلك بشعر لابن عبد ربه، يُعَمِّق فيه مكانة (بَقِيَّ) في النفوس والقلوب،
مثل قوله:

إذا استلموا ركناً من النعش خلَّتْهُمُ قد استلموا رُكْنًا من البيت أسودا
وسوِّوا بأيديهم جوانب قبره فلما استوتْ خَرُّوا على القبر سُجداً^(٢)

ومن وسائل الخشني في تأكيد المعلومة الواردة في الترجمة - أيضاً - إبرازه طبائع
الترجمين. ومثال ذلك: أنه نقل عن بعض الرواة وصفهم المحدث (محمد بن وَصَّاح القرطبي
٢٨٧هـ) بأنه كان دمث الأخلاق منشرحاً، وأنه ربما مازح وضحك، حتى يسيل لعابه، ثم أراد
تأكيد ذلك ودعمه، فأردفه بمقارنة المترجم له بآخر هو (إبراهيم بن محمد القزاز)، الذي كان
فَطْلاً سَكُونًا، لا ينشرح، فكان بعض الناس يقول في ذلك الوقت: "لو أن ابن وضاح، وابن
القزاز عَمِلَ منهما رجل، كان معتدلاً"^(٣).

د - حول درجة تنظيم المادة التاريخية، وحسن توزيعها، ودقة أسلوبها، ومدى التربط والتناسق الداخلي بها:

من خلال دراستنا السابقة لموارد الخشني في كتابه، ومنهجه في عرضها، اتضح لنا أنه على
قدر كبير من القدرة على تنسيق المادة العلمية وتجميعها، وتوثيقها بنسبتها إلى مصادرها المتنوعة.
والآن، نحاول تلمس قدرته على توزيع مادة تراجمه في أماكنها المناسبة. والملاحظ أن مؤرخنا
نجح في أكثر من موضع في ذلك. فمثلاً: ذكر في ترجمة (أحمد بن سليمان بن نصر): أنه ذُكر
نسبه، حيث وقع ذكر أبيه^(٤). وفي ترجمة (أيوب بن سليمان بن نصر) قال: كان أبوه من أهل
العلم. وقد وقع ذكره في (حرف السين)^(٥). وبالرجوع إلى باب (السين) المذكور، وجدنا
ترجمة الأب - بالفعل - موجودة هناك^(٦) ومن المشاهد أن الخشني لم يذكر نسب (أحمد بن
سليمان)، باعتبار أنه ذُكر في ترجمة والده. وبالعود إلى ترجمة الأب السابق الإشارة إليها تبين أنه
لم يزد على ما ورد في ترجمة ابنه إلا اسم (حامل)، مع الإشارة إلى أنه من (مُرَّة غَطَفَان). ولعل

(١) السابق: ص ٦١ - ٦٢.

(٢) أخبار الفقهاء والمحدثين: ص ٦٢.

(٣) المصدر السابق: ص ١٢٨.

(٤) السابق: ترجمة رقم (٣٦)، ص (٣١).

(٥) أخبار الفقهاء والمحدثين: ترجمة رقم (٤٠)، ص (٣٣).

(٦) السابق: ص ٣١٣ (ترجمة سليمان بن نصر بن منصور الإلبيري، رقم ٤٢٥).

بقية النسب سقط مع السَّقَط الوارد في المخطوطة. وكان الأوفى - في نظري - ما دام الابن ذُكر في الكتاب أولاً في باب (أحمد) أن يُذكر نسبه كاملاً، ثم عندما تأتي ترجمة الأب في باب (السين) يشير - إذا أراد - إلى أنه سبق ذكر النسب في ترجمة ابنه الواردة من قبل، لكن يبدو أن الخشني له وجهة نظر أخرى معتبرة أيضاً؛ لأنه - فيما يبدو - عَدَّ الأب هو الأصل، ولوثأخرت ترجمته (حسب ترتيبه). وأحب أن أشير إلى أن هناك إحالات، ذكرها الخشني في مواضع أخرى، وعند التثبت من مدى دقتها، لم نعثر لها على أثر^(١)، وأحياناً نجد جزءاً مما أشار إليه^(٢)، فلعل الدقة خاتنه في بعض توزيع مادته، أو أن المخطوطة بها نقص بفعل الناسخ.

وثمة لون آخر من التنسيق والتنظيم في عرض المعلومات، تمثل في ذكر العنصر، ثم ضرب الأمثلة والشواهد الدالة عليه، كما في ترجمة (بقي بن مخلد) في الروايات المتعلقة بكراماته^(٣).

وإذا نظرنا في ألفاظ الخشني، التي يؤدي بها بعض جملة وتعبيراته، ألفيناه دقيقاً في انتقائها، أصيلاً في استخدامها، مع إيجاز وتركيز شديد. ومن النماذج المعبرة عن ذلك:

١- قوله عن (أحمد بن عمرو بن منصور الإلبيري): (وكان رجلاً صالحاً، ثبُتاً فيما روى، حافظاً لما قُيد)^(٤).

٢- وتظهر وجازته، وجملة القصيرة المركزة في أسلوبه، عندما وصف (طاهر بن عبد العزيز القرطبي المحدث) بقوله: (وكان طاهر طَيِّبَ الخُلُق، حُلُوَ اللسان، بَلِيغَهُ فصيحته، كَرِيمَ المجالسة، غاية في رقة الأدب، وحسن معاملة الناس، وتقريب التلاميذ، والرفق بالمعتدى، والتواضع مع المروءة الظاهرة)^(٥).

٣- قوله عن ابن أخى (مطرف بن حميد الوشقى): (وكانت فيه حركة عجيبة، وطلب باحث)^(٦). وهو تعبير دقيق عبّر به عن نشاط (حميد بن ثوبة بن حميد) في الرحلة إلى العراق، والحج، وطلب العلم، وجمعه، بينما كان عمه غير ذى رحلة. ومن هنا تبدو المفارقة بين الاثنين، ودور التعبير المستخدم في إظهارها.

(١) كما هو الحال في إشارته إلى خبر وقوع مجاعة بالأندلس سنة ٢٦٠ هـ، وشهامة أحد العلماء خلالها (السابق ص ١١٥ - ١١٦)، وأنه سبق أن أشار إليها في كتابه هذا، وبالبحت - قدر الجهد - لم أجد لها. كذلك لم أجد ما أشار إليه في ترجمة (٤١٥) ص ٣٠٧، وكذلك ما أشار إليه في (ترجمة رقم ٣٥٧)، ص ٢٧٣.

(٢) فقد وجدنا أن واحداً للعالم (قاسم بن هلال) المترجم له رقم (٤١٠) ص ٣٠١، وذكر أنه سترجم لأبنته الفقهاء، فلم نجد منهم سوى ابن واحد هو يحيى (ترجمة ٥٠٠ ص ٣٧٥ - ٣٧٦).

(٣) أخبار الفقهاء والمحدثين: ص ٥٦، ص ١٣٠ - ١٣١ (نماذج من زلات ابن وضاح في الحديث).

(٤) السابق: ص ١٥ (جمع بين الرواية الشفهية، والدقة الخطية الكتابية، وتميز فيها).

(٥) السابق: ص ١٠٣.

(٦) السابق: ص ١٩١.

وفي النهاية، فباستعراض عدد من تراجم الكتاب، والنظر إلى مدى مراعاة التناسق والترابط الداخلي بين عناصر الترجمة الواحدة، ظهر لنا وجود هذا الترابط إلى حد بعيد في عدد من التراجم، مثل: ترجمة (أصبغ بن خليل القرطبي الفقيه) ^(١)، و(أسلم بن عبد العزيز القرطبي) ^(٢)، و(بقى بن مخلد القرطبي) ^(٣)، و(محمد بن وضاح القرطبي) ^(٤) مع بعض تحفظات يسيرة لنا. وأحياناً، كان يختلف الترتيب المنطقي لعناصر الترجمة، كما في ترجمة (أحمد بن دحيم ابن خليل القرطبي) ^(٥).

٣ - التوقيت:

اهتم مؤرخنا الخشن بتوقيت الأحداث المختلفة الواردة في معظم تراجم كتابه موضع الدراسة. وقد سلك في ذلك طرقاً شتى على النحو الآتي:

١- الاهتمام بذكر عدة تواريخ ترتبط بالترجم له داخل الترجمة الواحدة: مثل تاريخ رحيله للحج، ثم تاريخ دخوله بغداد، ومدة إقامته بها، ثم تاريخ عودته إلى بلده (الأندلس)، إضافة إلى تاريخ مولده، ووفاته ^(٦).

٢- الاهتمام بذكر تاريخ انصراف المترجم له من المشرق إلى الأندلس (ولو بالتقريب)، وتاريخ وفاته ^(٧).

(١) أخبار الفقهاء والمحدثين: رقم (٤١)، ص ٣٣ - ٣٩: وفيها بدأ بذكر أهم أساتيد الأندلس، ومكانته في الشورى، والعلم. ثم عاد فذكر شهرته بسبب العلم منذ عهد عبد الرحمن بن الحكم، وذكر إجادته الفقه والوثائق، وبين حسن قياسه وحفظه، إلى أن تأثر الأخير آخر حياته. وذكر فقره وترفعه - رغم ذلك - عن قبول الهدايا، وشهادة علماء مصر له بالعلم، وقلة علمه بالحديث وأسماء الرجال، وورعه. وأخيراً، وفاته ودفنه، والصلاة عليه. ومن الواضح أن الترتيب يمثل في بداية الترجمة؛ إذ كان الحديث عن مكانته وشوهره أولى به أن يتأخر بعد بيان طلبه العلم، وجده في الطلب، حتى عُرف ذلك منه.

(٢) السابق: ترجمة ٥٢، ص ٤٣ - ٤٧ (وبلاحظ - أيضاً - أنه صُدر ترجمته بيان منصبه القضائي، وهو ما حققه التأخير).

(٣) السابق: (ترجمة ٥٨، ص ٤٩ - ٦٢). وقد بدأ - أيضاً - بذكر منزلته العلمية، ورحلته إلى المشرق، ومدة كل منهما. وكان الأول البدء بحملة الطلب في الأندلس وشيوخه بها.

(٤) السابق: (ترجمة ١٣٧، ص ١٢٢ - ١٣٢). وبلاحظ أنه صُدر ترجمته بالتدقيق في النقل عن الرجال، ثم ذكر أساتيدته في رحلته إلى مختلف الأقاليم، ثم ذكر ميله للعرب ضد الموالي. وكان الأول تقديم رحلته، ثم بيان ما برع فيه من علم، وموقفه من الموالي بعد العود إلى الأندلس.

(٥) السابق: ترجمة ٣١ (ص ٢٧ - ٢٩). وقد بدأ الترجمة بداية طيبة (النسب)، ثم عجل بذكر معرفته بالرأي والحديث، وكان الأفضل تأخيرها، ثم ذكر أساتيدته بالأندلس، ورحبته لطلب العلم، وعودته للأندلس، ثم ذكر مولده ووفاته، ثم عاد وتذكر - فيما يبدو - أنه لم يسرد أسماء شيوخ المترجم له في الأقاليم التي ارغى إليها، فذكر لهم الترجمة (وهذا حلل واضح).

(٦) أخبار الفقهاء والمحدثين: (ترجمة أحمد بن دحيم بن خليل)، رقم (٣١)، ص (٢٧).

(٧) السابق: (ترجمة أحمد بن مسبرة)، ترجمة ١٤ (ص ١٧)، قال عنه: انصرف قبل سنة ٢٩٠هـ.

٣- الاهتمام الأساسي بذكر تاريخ وفاة المترجم له في غالبية التراجم. وله في ذلك عدة مناهج يتبعها في إيرادها، منها:

أ- الاكتفاء بذكر سنة الوفاة آخر الترجمة، وبعدها يذكر ما يتعلق بعقب المترجم له^(١)، أولاً يذكر^(٢).

ب- ذكر سنة الوفاة، ثم شهرها الحادثة فيه^(٣).

ج- ذكر سنة الوفاة، ثم يومها وشهرها، وما يتعلق بدفن المتوفى، والصلاة عليه، ومكان الدفن، والدعاء له بالرحمة^(٤).

د- ذكر شهر، وسنة الوفاة، ومكان الدفن، ثم يوم الدفن^(٥).

هـ - عمر المتوفى، والليلة التي توفي بها، وتاريخها تفصيلاً، وسنة الوفاة^(٦).

و- الجمع بين تاريخ الوفاة تفصيلاً، ثم الميلاد تفصيلاً آخر الترجمة^(٧).

ز - الاهتمام بذكر ظروف القتل، وتاريخه (في إيجاز شديد)^(٨)، وأحياناً ظروف الوفاة، والدفن (العود من غزو مع الناصر)^(٩).

٤- هناك عديد من المواضع يأتي فيها التوقيت غير محدد تماماً، منها: (قدم الموت)^(١٠)، وقدم الموت مات في بضع وثمانين ومائتين^(١١)، وتوفي في أيام عبد الرحمن بن الحكم^(١٢)، وتوفي في أخريات أيام الأمير محمد^(١٣)، وكانت وفاته قريباً من قدمه من رحلته^(١٤)، وتوفي ولم يبلغ الأربعين^(١٥).

(١) السابق: ترجمة رقم (٩) ص(١٣)، وقال بعدها: (ولم يعقب)، وترجمة (٢٩)، ص-٢٦.

(٢) السابق: ترجمة ١٢ ص(١٦)، وترجمة ١٣ ص(١٦)، وترجمة ١٤ ص(١٧).

(٣) السابق: ص-٢٤.

(٤) السابق: ترجمة ١٥ ص(١٩).

(٥) أخبار الفقهاء والمحدثين: ترجمة ١٥ ص(٢٦).

(٦) السابق: ترجمة ٢ ص(١١).

(٧) السابق: ترجمة (٧٠).

(٨) السابق: ترجمة ٢٦ ص(٢٥).

(٩) السابق: ص-٣١.

(١٠) السابق: رقم ٨٤، ٩٦.

(١١) السابق: ترجمة ٦ ص(١٢).

(١٢) السابق: ترجمة (٨٨).

(١٣) السابق: ترجمة (١٠١).

(١٤) السابق: ص-١٨٩.

(١٥) السابق: ص-١٠٩.

ملاحظات عامة:

أ - ليس لمؤرخنا منهج محدد في ذكر توقيت الأحداث، ولا تاريخ الوفاة والميلاد، وإنما هو يذكر التواريخ كيفما اتفق.

ب - قد يتجاوز الخشنى المترجم له، فيذكر تاريخ وفاة ابنه أيضاً، متبوعاً بإياه خارج الأندلس (حيث توفي. بمصر قبل وصوله إلى مكة سنة ٢٠٥هـ^(١)). وبالنسبة لتاريخ وفاة الوالد المذكور، فإنه يذكر له أكثر من تاريخ وفاة دون ترجيح^(٢).

ج - هناك بعض التراجم لا نجد فيها ذكرًا لتاريخ وفاة المترجمين. وقد يكون ذلك؛ لعدم وقوف الخشنى عليه^(٣)، أو لسقوطه من المخطوطة^(٤).

٤ - مدى القدرة على رسم صورة واضحة للعلماء في الأندلس:

حرصص المؤرخ الخشنى في تراجم كتابه عن (الفقهاء والمحدثين) على إبراز جانبيين مهمين يتعلقان بالعلماء في الأندلس:

أ - الجانب الأول: جانب الحكمة، والموعظة، والصواب: وذلك نلمسه من خلال كلمات يرويها المترجمون عن العلماء^(٥)، أو من خلال تصرفات بعض المترجمين^(٦).

ب - والجانب الآخر: يتمثل في الدور الإيجابي الذي لعبه العلماء في المجتمع الأندلسي، فهم يتولون العديد من المناصب كالصلاة^(٧)، والقضاء^(٨)، والفتيا^(٩)، والشورى^(١٠)، وعقد الوثائق^(١١). وقد رسم لهم الخشنى صورة مشرفة في كتابه، فهم ذوو جاه ومزلة سامية بين الناس، ولدى الأمراء

(١) أخبار الفقهاء والمحدثين: ترجمة ١٠٤ (ص ٩٨).

(٢) السابق: (توفي والده زياد بن عبد الرحمن سنة ١٩٣، أو ١٩٤هـ).

(٣) السابق: ترجمة (٣)، (ص ١١)، وترجمة ٤٣ (ص ٣٩)، وترجمة ٧٧ (ص ٧٦)، وترجمة ٨٣ (ص ٧٨).

(٤) السابق: ترجمة ٥، ص ١٢ (توفي أحمد بن محمد هذا. ولا يكمل العبارة)، وتوفي حوشب هذا (ترجمة ٨٩). وأحياناً يقول: توفي (فقط)، كما في (ترجمة ٧ ص ١٢، وترجمة ٤٦، ٥٩، ٧٩). وقد يقول: توفي (رحمه الله). (ترجمة ٤٣، ٤٥، ٥١)

(٥) مثل: (إذا تردد الرجل على القاضي ثلاث مرات بلا حاجة، فلا تجوز شهادته). (السابق: ص ٨٣). وكما في قول لآخر ورد في (ص ٢٤١). لو كان العلم كما يقول صاحبنا هذا، لكانت الفتيا أمراً سهلاً؛ لا تحتاجه بسواد الكتاب، ونحن إنما نحب أن نعرف أين الحق).

(٦) مثل: تصريح الأستاذ بخطه في المجلس التالي أمام تلاميذه (ص ١٠٤)، وصلاة عالم آخر في الحق، وتنفيذه على خاصة الأمير، والسوقة والعوام على السواء (ص ١١١)، والتوجه إلى ذى العلم في بيته ومجلسه، فد (في بيته يؤتى الحكم) (ص ١١٨).

(٧) أخبار الفقهاء والمحدثين: ص ٢٦، ٤١ (صلاة الجماعة بقرطبة)، ٥٠ (صلاة سرقسطة).

(٨) السابق: ص ٢٧ (قضاء طليطلة، والبيرة)، ورقم ٥٣ (قضاء البيرة)، ورقم ٦١ (قضاء تطليبة). ومنهم من ولى قضاء الجماعة بقرطبة (رقم ١٧ ص ٢٠، ورقم ٥٢).

(٩) السابق: رقم ٣٧. (١٠) السابق: رقم ٤١، ٧٠. (١١) السابق: ص ٣٥ - ٣٦.

فمكائتهم محفوظة وحرمتهم وافرة^(١). والعلماء لهم دور - كذلك - في سياسة الحكام^(٢)، وإصلاح شئون الناس^(٣).

وهناك جانب سلبي لا يفوتني الإشارة إليه؛ لأن الخشني كان حريصاً على إظهاره؛ لتتم ملامح الصورة الواقعية للعلماء، فهناك رواية صورت لنا (صراع الأجيال من العلماء)، ومثل ذلك في تخطيطه (المحدث محمد بن وضاح) في بعض ما يرويه من جانب طلاب العلم، بل خطأه ابنه نفسه، لكنه استنكف من العود إلى الحق والصواب، وقال هؤلاء: (طلبنا نحن هذا الأمر، وأنتم في بطون أمهاتكم) !^(٤).

٥ - مدى حضور شخصية الخشني في كتابه:

الحقيقة أن ما مضى من حديث عن مجهوده الذي بذله في جمع مادة كتابه من أوثق مصادرها المتاحة، والعمل على تنسيقها وتنظيمها يدلُّ على حضور شخصيته في كتابه، وأنه لم يكن متوارياً سلبياً، قابلاً وراء مادة تراجمه. إلا أن ذلك الحضور غير مباشر. ونحن في هذه الجزئية الختامية من تناولنا منهج هذا الرجل في تأليف كتابه، نبحت عن (الحضور المباشر)، وقد تلمسناه واستقصيناه، فألفينا بعض نماذجه، نعرضها على النحو الآتي:

أ - التعليق:

حاول مؤرخنا أن يفسر ما أورد من معلومات في تراجمه. ومن خلال محاولة تتبع مواضيع تعليقه، ظهر لي أن تعليقاته خفيفة ويسيرة ومحدودة، وموجزة جداً في غالبيتها، مثل: تعليقه إكرام الناصر للعالم (أحمد بن خالد)؛ لفضله، وتعظيمه إياه لعلمه^(٥)، أو تفسيره عدم فصل قاضى شذونة (خلف بن حامد بن الفرج) بين اثنين في فترة قضائه، بأن ذلك يرجع إلى ورعه وفضله، فقد كان يفصل على جهة الإصلاح بين المتخاصمين فحسب^(٦)، إلى غير ذلك من المواضيع^(٧).

(١) السابق: ص ١١١ - ١١٢، ١١٧، ١٩٥.

(٢) السابق: ص ٣٠٥.

(٣) السابق: رقم ٣٧، ص ٣١ (بقي بالبلد، وبوقق)، أي: يصلح بين المتخاصمين.

(٤) السابق: ص ١٣١.

(٥) أخبار الفقهاء والمحدثين: ص ١٨.

(٦) السابق: ص ٨٤.

(٧) السابق: ص ٢٣٣ (علل ولاية عبد الرحمن بن أبي هند الوزارة؛ بصدقه وبعده عن الوقوع في الكذب). وفي ص ٣٧٦: علل معرفة (بجي بن عبد الرحمن) بـ (أبيض)؛ لبياض شعر رأسه، ولحيته، وحاجبيه، وأنفجار عينيه.

وهناك موضوعان لجأ فيهما الخشني إلى ذكر أكثر من سبب في تفسير بعض ما ورد في تراجمه، فيكون بذلك قد فصل نوعاً ما في هذا المجال^(١).

ب - التعليق والاستدلال:

وهذا ملمح أرقى من سابقه في اتضاح شخصية مؤرخنا الخشني؛ لأن التعليق على الروايات يحتاج إلى فهم للقضية المثارة، وعلم بمجانبها، وتكوين رأي فيها. وتزداد الشخصية وضوحاً إذا أنسى المعلق برأي جديد صائب، واستدل على صحته بما يؤكد. هذا، وقد تنوعت تعليقات، واستدلالات الخشني كما يلي:

- ١- تعليق فيه استحسان لتصويب ذكره أحد العلماء^(٢).
- ٢- تعليق خفيف حذر (حول توقيت وفاة أحد العلماء^(٣)، واسم عالم آخر^(٤)، والاختلاف حول مضمون إحدى الروايات)^(٥).
- ٣- تعليق فقهي متميز (يتصل بمنهج بقى بن محمد الفقيه^(٦))، وآخر يرتبط بخطأ ورد في إحدى الوثائق^(٧).

- (١) السابق: ص ١٠٣ (ذكر أن طاهر بن عبد العزيز كان على درجة محمد بن عبد السلام الخشني في رواية كتب أبي غنيد إلا أن من روى عنه طاهر هذه الكتب عمكة (وهو علي بن عبد العزيز) صاحب أبي عبيد وكتابه، وهو أوعى وأوثق من (محمد بن وهب السعري المؤدب المجهول)، وهو أحد أصحاب أبي عبيد، وعنه نقل الخشني المذكور كتب أستاذة. وهناك سبب آخر لاشتهار طاهر: أنه كان من أصح الناس بكتبه، فكثر الناس عليه، وكتبوا عنه). أما (محمد ابن عبد السلام الخشني)، فكان لا يغير أصوله أبداً، ثم إن الخشني هذا مات، فانفرد طاهر برواية كتب أبي عبيد، فازداد شهرته، ثم إن (أحمد بن خالد) توفي أيضاً، وكان - فيما يبدو - يقطن (منية عجب)، التي كان يقطنها (أحمد ابن خالد)، فحلّت المساحة هناك فكثر تلاميذه. وكذلك يوجد تحليل من هذه النوعية (ص ١٧٨)، فقد علق شهرة (محمد بن عيسى بن رفاعه)، الذي كان يسكن (ريّة)، واستقدمه المستنصر إلى (جامع الزهراء)؛ ليعلم الناس. علق الخشني نقل الناس عنه علماً كثيراً في مدة تسعة شهور أقامها عندهم (ربيع الآخر ٣٣٦ هـ، ثم انصرف إلى بلده، فمات في ربيع الآخر سنة ٣٣٧ هـ)، فأدرك الناس عنه ما لم يدركه عن (أحمد بن خالد) في أعوام كثيرة، قال: (لصبره على الخلو، ومثابته على الخروج، إلى مساحه أخلاقه، وعذوبتها، وتواضعه، وقربه).
- (٢) قال الخشني: (كلما كل صاحب همه، إنما يستفيد من باب همه، ويتفق عدده ما أتاه من شكل صغته). (ص ١٤٠).
- (٣) علق على ما نقله عن صاحب (أخبار علماء حمص) بأن (معاوية بن صالح) توفي بالأندلس سنة ١٥٨ هـ قائلاً: (إن صحت هذه الرواية، فإن معاوية مات في أيام الإمام عبد الرحمن - يعني: ابن معاوية - رحمه الله). (ص ١٨٧).
- (٤) قال في نهاية ترجمة (عبد الرحمن بن أبي هند): (يُخيل إلى أن هذا الرجل هو الذي ذكرته في رجال قرطبة، وسيمته سعيد بن أبي هند، فلا أدري أهـا رجلان، أم رجل واحد). (ص ٢٣٣).
- (٥) قال محمد بن حارث: سمعت أحمد بن عباد الرعيقي قديماً وحديثاً، يخكي فتوى (يحيى بن إبراهيم بن مزين) على غير هذا الوجه، فلا أدري إن كانت الحكايتان جميعاً عن محضر واحد فاختلفت، أو عن محضرين، فاشتبهت. (ص ٣٧١).
- (٦) فقد ذكر أحمد بن بقي: أن أباة لا يتعدى مذهب مالك إلى غيره، ولا يتألف أصحابه فيه. فعلق الخشني قائلاً: يمكن أن يكون هذا منه عند السورى، والأحكام القضائية؛ لأنه يعلم أن الأحكام تخرى على مذهب مالك. أما مذهب بقي في الحديث والنظر، فلا يفتد أحداً من أهل العلم ما يظهر له الحق في غيره. (ص ٥٥٥).
- (٧) إذ لم يبين الأصل، الذي تنتهي إليه التوقية، وذكر رأي مالك في ذلك (ص ١٤٥).

٤ - تعليق فيه تصويب لبعض المعلومات التاريخية^(١).

٥ - الاستدلال على صحة معلومة^(٢).

٦ - تعليق، واستدلال على صحته برواية مسندة^(٣). وأخيرًا، فقد كان الخشني يكتفى بالسرد - أحيانًا قليلة - دون تعليق، كما في إيراده اختلاف الناس حول (ابن مسرة القرطبي) ما بين مُثْنٍ على علمه ومادح إياه، وما بين طاعن فيه، ومهاجم له^(٤). ولم يقيم الخشني بتحقيق الأمر، ولا ترجيح رأي على آخر.

والخلاصة:

- ١- أن الخشني نموذج للمؤرخ الذي لم يحصر اهتمامه في (مجال التاريخ) وحده؛ لأنه كان ذا اهتمامات بتحصيل الفقه، وشهود مناظراته، والمشاركة فيها، والتأليف والتدريس له^(٥). واهتمامه بالتأليف في تراجم الفقهاء والمحدثين نابع من اهتمامه بهذين العلمين.
- ٢- أن كتابه (أخبار الفقهاء والمحدثين) نموذج لطيب لكتب التراجم في الأندلس في القرن الرابع الهجري (سواء في موضوعه، أم في محتوياته وموارده، أم في منهجه).
- ٣- أن هذا الكتاب سد ثغرة مهمة في المكتبة التاريخية الأندلسية، وحوى في ثناياه معلومات جديدة دقيقة، لا تتعلق بالأندلس فقط، بل تتصل بما رواه علماءها أثناء رحلتهم إلى

(١) في ترجمة (زيد بن عبد الرحمن اللخمي): ذكر أن هذا العالم كانت له صلة بالأمير (هشام بن عبد الرحمن)، فرد الخشني بأن صلة هذا العالم كانت مع الأمير (الحكم بن هشام) (ص ٩٦)، وأورد رواية عن ابنه تبت أن رأي الخشني صواب. وفي موضع آخر ترجمة (عبد الملك بن حبيب) رقم ٣٢٨، ص ٢٥٤، قال محمد (الخشني): ذكر بعض الناس أنه صلى على (عبد الملك) سليمان بن أسود القاضي. قال محمد: وهو وهم؛ لأن القاضي (سليمان بن أسود) لم يَلِ القضاء بعد ذلك إلا إلى أعوام كثيرة، وإنما كان القاضي - وقت وفاة (عبد الملك) - أحمد بن زيد، ثم من بعده (عمرو بن عبد الله)، ثم غُزل عمرو، وولى سليمان بن أسود. والمحموظ أن الذي صلى عليه محمد (ابنه).

(٢) استدلل على رواية (أحمد بن عمرو بن منصور) عن (يونس بن عبد الأعلى) في مصر برواية ابن قطيس، التي قال فيها عنه: (كان وسيلنا إلى يونس؛ لتقديمه عنده قبلنا). (ص ١٦). وفي موضع آخر قال محمد: ومررت بمكايبة لابن وضاح، رواها عنه أحمد بن زيد، دلّني على أن (حسين بن عاصم) بولي الحكومات (الفصل في القضايا). (ص ٧٤).

(٣) قال محمد: كان أحمد بن زيد وأخوه - ولا شك - تلميذين لابن وضاح، نسخا كتبه، فيمكن أن تكون الكتب في يد (أحمد بن زيد) إجازة. قال محمد: ودلّني على صحة ما توهمت من ذلك أن ابن وضاح كان أسمع الناس بإجازة الكتب. ثم دعم ذلك برواية مسندة، رواها الخشني عن أستاذه (عثمان بن محمد القُري): أنه حضر ابن وضاح عند موته، وعنده جماعة، فأوصى حاضره أن يُعلموا غيرهم أن كل من سمع منه وجالسه، فقد أجاز له كل كتاب عنده، فليحدث به عنه (ص ٢٤).

(٤) أخبار الفقهاء والمحدثين: ص ١٧٨.

(٥) عدّه مصطفى محمد إبراهيم في (رسالتيه للدكتوراه): (الحياة العلمية في قرطبة على عهد الناصر والمستنصر) ص ٤٢٣، مؤرخًا غير متخصص في مجال (التاريخ)، وجعل اهتمامه بالتأريخ للرجال فرعًا من اهتمامه بالعلم عامة في مجتمع، يحب العلم والعلماء.

المشرق^(١). ويضاف إلى ذلك تأثير ذلك الكتاب بعيد الأثر في كثير من المؤرخين التاليين، الذين نقلوا عنه الكثير من نصوص تراجمه (وعلى رأس هؤلاء: ابن الفرضي^(٢)، وابن حيان^(٣)، وابن ماکولا^(٤)، والحميدى^(٥)، وعياض^(٦)، والضبي^(٧)، وابن الأبار^(٨)، وابن خلکان^(٩)، وابن فرحون^(١٠)).



تم الجزء الأول ويليه الجزء الثاني وأوله الفصل الثالث: المؤرخان الأندلسيان: ابن جلدل، والزبيدي

- (١) نقتل المصادر الأندلسية عنه كثيراً من المعلومات، التي كان له السبق إليها، وسنرى - بعد قليل - مواضع التأثر بالحنيني. وما نقله ابن الفرضي عن الحنيني - مثلاً - أن حارث بن أبي سعد أول من أحدث له الشرطة الصغرى بالأندلس (كتاب الحنيني ص ٨٠)، نقله عنه ابن الفرضي في (تاريخه ط. الخائني) ١٢٤/١. ويمكن التقاط معلومات مشرقية جديدة في ثنايا كتاب الحنيني، كالذي ذكره (أسلم بن عبد العزيز) في ترجمة رقم ٥٢ ص ٤٣ - ٤٤، عن الربيع المرادي المؤذن في مصر، وما نسب إليه من قول أثناء الأذان بالجامع في صومعته بمصر، وكذلك ابتداء مساحد مصر في الأذان بعد انتهائه منه نحواً من ٤٠ سنة. وكذلك ورد نص وصية مطوّلة عهد بها ابن حنبل عند وفاته، وهي - فيما أعلم - وثيقة جديدة، رواها أسلم في رحلته إلى بغداد (ص ٤٥ - ٤٦).
- (٢) راجع (تاريخه، ط. الخائني): ٢١٦/١، ٢١٩ - ٢٢٠، ٢٢٦، ٢٢٩، ٢٣٢، ٢٥٣، ٢٥٥، ٢٦٦، ٣١٩، ٣٢٦، ٣٢٩.
- (٣) المقفّس: ج ٥ ص ٣٣، ٣٦ - ٣٧ (وهو نص موجود في كتاب الحنيني ص ١٧٨ عن ابن مسرة).
- (٤) الإكمال ١٨٥/٥، ٢٨٠/٦.
- (٥) الحدود ٤١١/٢، ٤١٨، ٥٠٢، ٥٦٢، ٥٦٣ - ٥٧٠، ٥٧٢، ٥٧٨ - ٥٧٩، ٥٨٣، ٥٨٥.
- (٦) ترتيب المدارك ٣٤٧/١، ٣٥٠، ٣٥٣ - ٣٥٤، ٤٤٥/٢، ٤٤٦ - ٤٥٢، ٤٥٣، ٤٥٤، ٤٦٣، ٥٧١.
- (٧) البغية ص ٢٣٩، ٢٤١، ٢٥٢، ٢٧٠، ٢٧٥، ٢٩٦، ٣٠٠ - ٣٠١، ٣١٢، ٣١٤، ٣١٦، ٣٤٢، ٣٣٧ - ٣٧٨.
- (٨) تكملة كتاب الصلة (ط. الحسيني) ١٠/١، ١٧٨، ١٩١، ١٩٨ - ١٩٩، ٢٣٧، ٢٥٢، ٢٨٣. وفي المصدر نفسه (ط. مدرّيد): ص ١٧٣، ٢٥٩، ٢٧٤، ٢٨٥، ٣١٣، ٣٣١.
- (٩) وفيات الأعيان ١٤٣/٦ - ١٤٦.
- (١٠) الديباج ١٤٧/١، ٤٤٠.